العالم الثالث

قضايا ومشكلات

تأليف

دكتور على ليلة

قسم الاجتماع - كلية الآداب

جامعة عين شمس

١٩٨٧

دار الثقافة للنشر والتوزيع

القاهرة - ت : ٩٠٤٦٩٦

الفهرست

الصفحة

الصفحة

الفصـــل الثالث :

الفصـــل الرابع :

الصفحة

الفصل الخامس :

الصفحة

الفصل السادس :

* * *

الاهــــــداء

الى أبنائى ريم ومحمود

اللذين أرى فيهما أملا مشرقا ، قويا وقادما من بعيد والى زوجتى التى تشاركنى أعباء الحياة بحثاً عن تجسيد الأمل أهدى هذه الصفحات

على ليلة

فاتحـــة عن العالم الثالث

قدمت أربعينات هذا القرن العالم الثالث باعتباره كتلة محددة المعالم تعيش على هامش النظام العالمى ، تعانى من الفقر والجوع والقهر الحضارى والحرمان من اشباع الحاجات الأساسية • وهى المظاهر التى تخلق فى مجموعها واقعا لا انسانيا عاش فى اطاره هذا العالم . ثم جاءت خمسينات هذا القرن لتدفع بهذا العالم الى بؤرة الاهتمام الأكاديمى حيث برزت الى الوجود قضايا نظرية عديدة تحاول استكشاف آفاق هذا العالم ، تحاول تحديد ملامح وأبعاد المـــأساة التى كانت من نصيب هذا العالم ، أو التى فرضها عليه النظام العالمى من خلال آليات الاستعمار تارة والتبعية تارة أخرى . ثم شهدت الستينيات ازدهار لمـــا يمكن أن يسمى بالأدب التنموى أو بأدبيات العالم الثالث .

غير أنه برغم هذا الاهتمام الأكاديمى الواسع النطاق ، فاننا نجد أنه قد سقط أسير خطأين رئيسيين الأول أن مفكرى العالم الغربى — الصناعى المتقدم والمستعمر أيضا — هم الذين نظروا للعالم الثالث وهم الذين حاولوا تشخيص مأساته . بحيث استند جهدهم التحليلى والنظرى الى الاطار المرجعى الغربى ، وهو اطار يعنى التحـــيز أو التمركز حـــول الـــذات الأوروبية . ذلك قد حدث فى مقابل حركة مضادة تتمثل فى الهجرة المعنوية أو المـــادية لمثقفى العالم الثالث الى العالم الغربى المتقدم . ومن ثم فالتفكير فى مأساة العالم الثالث كان دائماً تفكيراً بالوكالة . بينما مفكروه من أبنائـــه مغتربون مغربون يخضعون شاملة من التشوية الثقافى والحضارى . وبعد عودتهم الى مجتمعاتهم ، يلعبون دور التبشير للحضارة الغربية داخـــل مجتمعاتهم .

ويتمثل الخطأ الثانى فى الفهم الذى قدمه الأدب التنموى أو أدبيات العالم الثالث ، بطبيعة هـــذا العالم ، وملامح المـــأساة التى يعيشهـــا ، أبعادها ، عواملها المختلفة . ولقد كان من نتائج هذا التشخيص الخاطىء والمتحيز ، أن نسبت أسباب التخلف الى الأوضاع البنيوية والاجتماعيـــة والحضارية لهذا العالم • بل أن هناك بعض الأفكار النظرية التى أكدت — عن جرأة متطرفة — أن الظاهرة الاستعمارية ذاتها لعبت دوراً رئيسيا فى تطوير هذا العالم وتحديثه وتنمية هياكله الأساسية . وقد كان من النتائج الخاطئة التى ترتبت على هذا الفهم أيضا طبيعة التشخيص النظرى لأسلوب الخروج

من التخلف ، حيث طرحت نظريات الحديث رؤية تؤكد أن السير فى ذات طريق التطور والتنمية الغربية هو قدر مقدور على العالم الثالث . وتعتبر نظرية والت روستو النموذج المثالى الذى يعكس ملامح تفكير هذه المرحلة .

ولقد أدت هذه الأخطاء الى تنشئة جيل من باحثى وزعامات العالم الثالث على هذه الأفكار التى بدأت تتحكم فى سلوكياتهم التنموية ، والتى أدت الى نشأة مدارس تنموية فكرية وأيديولوجية داخل بناءات الصفوة فى العالم الثالث . ولقد كان الاختيار الاشتراكى أو الرأسمالى لطريق للتنمية هو القضية المحورية التى شكلت اساس الحوار خلال هـذه المرحلة . وفى اطار ذلك أغفلت اعتبارات كثيرة . هل أصبح التراث عاجزا عن تطوير المجتمع وقيادته نحو المستقبل ؟ وهل ضاعت أمكانية بعث التراث ليتحمل عبىء هذا الدور ؟ هل تمتلك هذه المجتمعات كوادر ادارية وبيروقراطية لديها الكفاءة والايمان لتطبيق المثل الاشتراكى وخلق المجتمع الاشتراكى ؟ وهل تمتلك هذه المجتمعات الشريحة الرأسمالية الرشيدة التى أبدعت النظام الرأسمالى ، والتى أسس نموذجها المثالى عالم الاجتماع الألمـانى ماكس فيبير ؟ بل ان هناك بعض الأصوات التى بدأت — عن شذاجة أو سوء قصد — تنادى بضرورة البحث عن طريق جديد ثالث وأن الطريق الثالث يمكن أن يؤسس من خلال انتقاء أفضل العناصر فى كل من الطريق الرأسمالى والاشتراكى . مرة أخرى ، الغرب هو دائما مصدر الأفكار والتصورات التى ينبغى أن تقود التنميـــة .

ولقد أسلمت هذه الفوضى أو لنقل الاغتراب الفكرى الى حدوث نتائج بنائية بالغة السوء . فقد تلكأت التنمية فى هذا العالم حتى حققت فى بعض منها معدلات سلبية كالحال فى مصر سنة ١٩٦٩ . والثانية ظهور ما يسمى باغتراب المثقفين وانفصـالهم ، ومؤشر ذلك هجرة العقول الدائمة الى أوروبا أو الموقته الى البلاد العربية البترولية . هذا بالاضافة الى اغفال الحوار حول امكانية تطوير التراث بما يساعد على تأسيس التنمية والتقدم من ناحية وعلى الحفاظ على الهوية الحضارية من ناحية أخرى ، وحينما فشلت تنمية العالم الثالث أدركت زعاماته وصفواته أنها المسئولة عن ذلك . بعضها حاول الرجوع الى التراث اما لاستغلاله فى الحفاظ على مكانته من خلال مداهنه الجماهير ، بحيث يصبح التراث أساسا للشرعية السياسية والاجتماعية . بينما اختار البعض الآخر الطريق الدكتاتورى كمصدر للشرعية من خلال فرض القهر والكبت ورفض المشاركة السياسية الجماهير .

ولقد زاد من وطأة حالة الفوضى والتخلف التنموى هذه الضربات التى وجهتها القوى العالمية ضد بعض مجتمعات العالم الثالث التى حاولت تأسيس مراكز جديدة ومستقلة عن المراكز التى تحتكر القوى العالمية السيطرة عليها . مثال ذلك هزيمة مصر فى ١٩٦٧ وتصفية أحمد سوكارنو من أندونيسيا ، نكروما فى غانا ، ومأساة باتريس لومومبا فى كونغو النحاس والمعادن .

ومن ثم نستطيع القول بأن نهاية الستينات وبداية السبعينات شهدت انهيارا كاملا للفكر النظرى الذى أكد على منطق التحديث الغربى كأساس للتنمية . واعترافا كاملا أيضا من قبل الصفوات الحديثة والزعامات التى انبعثت عنها بخطأ أو لنقل بخطل اختياراتها الأيديولوجية والتنموية . غير أن بريقا من الأمل تفجر فى الأرض الخراب . حيث قدم علماء أمريكا اللاتينية ، وهى القارة التى عانت من استنزاف استعمارى صارخ لمواردها الأساسية تصورا لتشخيص التخلف واستراتيجية للتنمية والانطلاق من خلال آليات تتناقض تماما مع آليات التحديث ، وهو التصور الذى أصبح يعرف فيما بعد بنظرية التبعية فى مواجهة نظرية التحديث . واذا كانت نظرية التحديث قد ألقت مسئولية التخلف على عاتق الأبنية المتخلفة لمجتمعات العالم الثالث وعجزها الحضارى وحددت طريق الخروج من خلال السعى الحثيث فى ذات المسار الغربى للتنمية ، فاننا نجد أن نظريات التبعية قد ألقت مسئولية التخلف على بناء النظام العالمى وعلاقات التبادل غير المتكافىء الذى تسوده ، أو على نمط الانتاج الرأسمالى الذى يشكل اطار حياة القوى الاقتصادية العالمية . وحددت طريق الخروج برفض النظام العالمى بأوضاعه غير المتوازنة والبحث عن طريق جديد يؤكد الاعتماد على الذات والحفاظ على الهوية الحضارية ومد جسور الصلح مع الأصالة والتراث .

وبدأ العالم الثالث يشهد صحوة حضارية نعتقد أنها مقدمة لصحوة تنموية . فقد بدأ هذا العالم يدرك أنه يشكل كتلة واحدة لها مصالحها المتجانسة فى مواجهة النظام العالمى والقوى الصناعية التى تسيطر عليه . بدأ هذا العالم يدرك أن الماضى كان اطارا تاريخيا لسلب موارده وفائضه وتصديره الى المراكز الصناعية فى النظام العالمى ، وأن على الزمان الحاضر أن يشهد رد هذا الدين الذى سلب فى الماضى . وفى المستقبل تبرز الضرورة الملحة بالحاجة الى اعادة بناء النظام العالمى بحثا عن نظام عالمى جديد ، يحتوى على علاقات تبادل متكافئة ، ويحدد بيانا للمساعدة فى تنمية العالم المتخلف من أصل الديون التى له على العالم المتقدم حسبما يذهب المفكر الباكستانى محبوب الحق . بالاضافة الى ذلك نجد هذا العالم قد بدأ

عناصر الصفوة أو واحدا من عموم الجماهير ـ الى آداة أو وسيلة تستخدم فى السعى لتحقيق أهداف سلطوية محددة وقصيرة النظر كفرض القهر على الجماهير ، والاستمرار قدر الامكان فى سدة الحكم ، والتمتع قدر الامكان بالرفاهية على حساب معاناة الجماهير . ومن ثم وجدنا مظاهر التجريب والتنقل والتغيير الأيديولوجى ، بل وعجز الأنظمة السياسية عن تنشئة الجماهير وتدريبها أيديولوجيا . وقد أدت هذه المظاهر الى سلوكيات عديدة تؤثر على مسيرة التنمية ومعدلاتها ، من هذه السلوكيات عدم الالتزام الأيديولوجى ، واللامبالاة ، وافتقاد الانتماء الى الاطر الاجتماعية التى ينتسب اليها الفرد . هذا الى جانب الآثار المترتبة على بروز الأيديولوجيات الخاصة على الأيديولوجيا العامة للمجتمع .

يعانى هذا العالم أيضا من مشكلة الحاح التراث كاطار معيارى يستطيع تسيير التفاعل فى المجتمع . وذلك أنه كان من قدر العالم الثالث أن مجتمعاته ذات طبيعة حضارية ، تنتمى الى حضارات يلعب الدين دوراً محوريا فى اطارها . ومن ثم فاذا التراث والدين يمتلك تصورا متكاملا للمجتمع والدولة وطبيعة العلاقة بينهما ، واذا كانت هذه المجتمعات ـ للظروف التى عرضنا لها ـ قد سقطت أسيرة الفكر والحضارة الغربية ، فانه من المنطقى أن يقوم صراع بين المعسكر الذى يدعو الى احياء التراث وتطويره ليحكم تطوير المجتمع وبين نظيره الذى يؤكد ادعاء أن التقدم يتأسس اذا تخلى المجتمع عن جذوره التقليدية والتراثية فى مقابل اكتساب القيم الغربية الحديثة . وبطبيعة الحال قد يكون الحوار سلميا بعض الأحيان ، غير أن بعض أطرافه فى أحيان أخرى قد تفصل حسم الصراع بالاستناد الى طلقات الرصاص .

هذا العالم يعانى أيضا من مشكلة ديموجرافية خطيرة . ذلك أن الهرم الديموجرافى لهذا العالم ينبعج من الوسط . فغالبة السكان فيه من الشباب . ويشكل الشباب بطبيعته الحال طاقته الدافعة والقادرة على الانتقال به الى التقدم ، غير أنهم فى ذات الوقت يمثلون روحه الرافضة والمتردة على كل ما يحتويه الحاضر بحثا عن المستقبل الأكثر أملا والأكثر اشراقا . يرتبط بذلك أيضا أن الشريحة الشبابية هى الشريحة العمرية ذات الاحتياجات المكلفة فالشباب هم الذين يحتاجون الى المسكن ، والى تأسيس الأسرة والى الدخل المرتفع القادر على اشباع حاجاتهم ثم الى فرص العمل القادرة على تأمين مستوى ملائم من الدخل . ذلك فى مجتمعات تعانى من ندرة الموارد وتعجز عن اشباع المستويات الدنيا لبعض الحاجات الأساسية . ومن ثم فاننا نجد أن الشباب على خصومة دائمة مع مجتمعهم فى معظم

يشهد صحوة حضارية أو تراثية ، وعلينا أن ننظر الى حركات الاحياء الاسلامى التى ظهرت فى العالم الاسلامى من هذا المنطلق ، فهى تبحث عن التقدم فى قلب التراث وهى تحاول بناء الحاضر والمستقبل استنادا الى نموذج أمجاد الماضى . الى جانب ذلك هناك دعوة أو مطلبا جماهيريا ملحاً بضرورة المشاركة على مختلف المستويات والأصعدة ، كمدخل لضرورة الالتزام بالقرار التنموى أيا كانت طبيعته . أن العالم يبحث فى قلب الفوضى التى يعيشها عن عالم متكامل ومتناسق . أن هذا العالم يبحث عن ممكنات التقدم داخل تخلفه وأنه كلما زاد اليأس ، كلما أشرق الأمل بقرب الخلاص .

غير أن الخلاص من التخلف هدفا لطريق مفروش باليأس والاحباط والدم الذى يسيل كثيرا مرة من جراء جروح القيام بأعباء التنمية ، ومرة أخرى بسبب اللجوء الى طلقات الرصاص . ذلك يعنى أن هذا العالم يعيش موقفا متفجرا بسبب ظروف انعكست عليه من قبل النظام العالمى . وأن هذا الموقف المتفجر أو القابل للانفجار يمكن أن يصل يوما الى نهايته حيث ينهار البيت العالمى على ساكنيه . فاما أن هذا العالم على طريقة ، واما أن يعمل على تحطيم استقرار النظام العالمى ، بدلا من الموت الكسول جوعا أو بسبب العجز عن اشباع الحاجات الأساسية .

ذلك يدفعنا الى محاولة تشخيص أسباب التخلف فى هذا العالم .

ولعل فوضى الثقافة والقيم هى أول عوامل تخلفه . فهذا العالم يشهد صراع القديم المستند الى العمق التاريخى للتراث مع الحديث المستند الى العمق الجغرافى للنظام العالمى ، وفى حمية هذا الصراع الثقافى قد تسقط الثقافة والقيم والتراث كلية . ويصبح السلوك الواقعى فى مستوياته الفردية أو الاجتماعية فاقدا لأى جوانب معيارية توجهه . ومن ثم فنحن نعتقد أن العالم يعيش حالة من الأنومى المستمرة ، والتى أصبحت لها جذورها العميقة . ولها أيضا آثارها فى كثير من السلوكيات الانتهازية والمنحرفة التى أصبحت تشكل جوهر التفاعل الاجتماعى لهذا العالم .

وارتباطا بذلك يعانى هذا العالم من ظاهرة الفوضى الأيديولوجية . واذا كانت الأيديولوجيا فى كل مجتمعات العالم هى مصدر شرعية الصفوة الحاكمة ، فاننا نجد أن الصفوة الحاكمة هى مصدر شرعية التوجيه الأيديولوجى لكثير من مجتمعات العالم الثالث . ومن هذا تحولت الأيديولوجية من اطار يحكم حركة وسلوكيات وقرارات الفرد فى المجتمع ـــ سواء كان هذا الفرد أحد

مجتمعات العالم الثالث خاصة تلك التى تفتقد القدرة على غرس الالتزام الأيديولوجى لدى الشباب ، أو تلك التى تعجز مواردها عن اشباع حاجاتهم الأســـــاسية .

يضاف الى ذلك أن الصفوات السياسية فى هذا العالم — وان كانت تنتمى الى الطبقة الوسطى وأحيانا الى الشرائح الدنيا فى المجتمع — لا ترغب فى المشاركة السياسية للجماهير تحت دعوات أمية الجماهير ، أو تفضيل اهل الثقة على أهل الخبرة ، أو الحاجة الى فرض النموذج التنموى على الواقع والجماهير معا . أو أن سلوكها السياسى انعكاس للحرمان والقهر التاريخى الذى واجهته خــلال مرحلة تنشئتها سياسيا واجتماعيا . بل أننا نجدها تتناقض فى سلوكياتها السياسية فى أحيان كثيرة . فهى تعشق النسبه العالية الأصوات الجماهير التى تدل على آختيارها ، ادعاءا ظاهريا يعشق الديموقراطية ، بينما هى فى أعماقها من قمة رأسها الى أخمص قدمها عاشقة للدكتاتورية والنزعة السلطوية التى تؤكد على القمع . وفى نطاق هــذا التناقض ، قد تنسحب الجماهير من المشاركة أو قد تدعى المشاركة بهدف تخريب الجهد التنموى الذى تأسس بقرارات الصفوة . أو قد تتمرد هــذه الجماهير منادية بالمشاركة الصحيحة والواعية .

ذلك يعنى أن هــذا العالم عالم الانهيار الثقافى ، عالم عدم وضـــوح الالتزام الأيديولوجى ، عالم الشباب المتمزق والذى يعانى من القلق وعدم الانتماء والذى يؤمن بالعنف والرفض لتحقيق الأهداف . هذا العالم عالم الأهداف التنموية الطموحة فى مواجهة العجز الفادح فى الموارد التى يمكن أن تشكل ركيزة لتحقيق هذه الأهداف التنموية . بيد أن ذلك لا ينبغى أن يثير فينا الشعور باليأس والاحباط ، بل ان ذلك ينبغى أن يدعم ارادة التحدى بداخلنا ، نحن فى نظام عالمى تعمل آلياته على تأسيس مزيد من القهــر والتخلف والاستغلال لمجتمعات العالم الثالث . كيف السبيل اذا للخروج من هذه المعضلة ؟

ذلك يتطلب منا نحن باحثى العالم الثالث أن تكون الكتابة عن هذا العالم متصلة بجوهر التفاعل فى اطاره . أن يتصل تشخيص التخلف فى هذا العالم بالدراما المــأساوية التى تعيشها وتشكل غذاءه اليومى . ذلك يفرض علينا ضرورة الخلط بين العاطفة والعلم . فأى انفصال بينهما تحت ادعاء الموضوعية والدقة وعدم التحيز يصبح محاولة لفرض رؤية مختزلة يقتصر فى اطارها ادراك الباحث على القشرة الخارجية لمــأساة هذا العالم . بينما

تطلب الادراك العميق ، الاتصال بعمق الواقعة التى يعيشها هذا العالم .
وهو الإتصال الذى تختلط فى اطاره عناصر هدفية وعلمية . قد يكتب الباحث فيها علما . غير أنه حينما تشتد وطأة المأساة فانها تتصاعد به الى مستويات صوفية يستطيع من خلالها الامساك بجوهر الحقيقة .

بالاضافة الى ذلك فانه ليس يكفى للتفكير فى هذا العالم أن نقرأه فى النظريات التى تطرحها عالمية العلم . ليس يكفى أن يسعد بالنقل الدقيق لهذه النظريات . فالعالم الثالث يطلب منا أن نقرأه على جدرانه . على وجوه سكانه التى أصيبت بتعريات الطبيعة وتشوهاتها . علينا أن نختلف عن باحثى العالم المتقدم فى تفكيرنا بشأن عالمنا . فهو عالمنا ونحن ننتمى اليه . واذا فكرنا مثلهم ، اذا قلنا بالماركسية أو البنائية الوظيفية أو التبعية ، فاننا قد ننجح فى الحصول على أوسمة الموضوعية والتفوق العلمى . لكننا نرتكب فى ذات اللحظة خيانة وطنية فى حق هذا العالم . نعيش أثرياء على فقره . نتمتع بالحياة استنادا الى موته ، نتحدث كثيراً ، نتشدق بالنظريات ، وهذا العالم صامت لاه ، لأن ما يقال كذب ، ومن ثم لا يستحق الاهتمام . أيها السادة السنا نحن البرجوازية المثقفة فى العالم الثالث التى أصابها الفساد والعفن ؟ تساؤل أعتقد أن له اجابة .

وأخيرا لا أحب أن أترك مقدمتى هذه قبل أن أتوجه بكل الشكر الثالث ، مهما كانت المحاولة محفوفة بالمخاطر . فنحن فى عالم نحتاج أن تكون الكلمات فيه قوية وشريفة ولها فاعلية طلقات الرصاص . فالذى لا شك فيه أن اللعب بالكلمات ضيعنا .

وأخيرا لقد حاولت أن تكون صفحات هذه الدراسة مخلصة عن العالم والاعتراف لأستاذنا الأستاذ الدكتور محمد الجوهرى الذى يمثل بالنسبة لنا — نحن تلاميذه — طاقة تدفعنا الى العمل . نسمعه دائما يتحدث عن قيمة العمر الطويل بلا نتاج ؟ أو عن قيمة المعرفة التى لا تطور وطنا ، نشعر معه دائما بالأمان ، ونخجل حينما يصيبنا الكسل ، ونشعر بالثقة والسعادة حينما يبارك جهودنا ، أو حينما نشعر أننا ما زلنا معه تحت سماء واحدة .

اشكر أيضا طلاب السنة الرابعة لعام ٨٢/٨٣ ، ٨٣/٨٤ بقسم الاجتماع بجامعة عين شمس الذين دفعنى حوارهم الساخن داخل مدرجات الجامعة الى تأمل قضايا العالم الثالث ، فحماسهم هو الذى منحنى القدرة

على تناول قضايا العالم الثالث ، وهو الذى أمدنى بحماس الشباب القادر على الانجاز والتجاوز .

واذا كانت حلقة وسط بين أستاذ يفرض ضرورة بذل الجهد الوطنى الواعى والشريف وبين طلاب يكشف فى حوارهم الطريق . فاننى أتمنى بهذا الجد أن أحوز رضاء الطرفين . اذا حدث فذلك هو المنتهى .

والله الموفق أولا وأخيراً .

العجوزة : ١٩٨٣
على ليلة

الفصل الاول

العالم الثالث

بين عوامل التخلف وتحديات التنمية

مدخل نظرى

الفصـــل الأول

العــالم الثــالث

بين عوامل التخلف وتحديــات التنمية

مدخــل نظــرى

المحتــويــات

الفصـــل الأول

العـــالم الثـــالث

بين عوامل التخلف وتحديـــات التنمية
مدخـــل نظـــرى

« ومع أنى لا أريد أن أثير أحقادا قديمة . فان التقدم الصنـــاعى على سبيل المثال فى عدد كبير من بلدان أوروبا كان قائما على الثروات التى جرى نزعها بطريقة منظمة من آسيا وأفريقيا » .

جمال عبد الناصر
سبتمبر ١٩٦١

أولا ـــ تباين النظام العالمى وظهور العالم الثالث :

شكلت نهاية الحرب العالمية نقطة تحول أساسية فى التفاعلات الدولية القائمة . فقد أدت هزيمة القوى الاساسية فى الحرب بالاضافة الى الآثار المدمرة فى بريطانيا والقوى الاوروبية الاخرى الى دفع الولايات المتحدة الى مركز الصدارة الاقتصادية والعسكرية . برغم أن الأخيرة لم تستمر دون ظهور تحدى جديد لها . فقد أصبح الاتحاد السوفييتى ـــ فى أعقاب الحرب ـــ قادرا على امتلاك قدر من القوة من خلال نشر النظام الشيوعى فى أوروبا الشرقية ، والصين حيث أكبر تجمع سكانى استطاع الحصول على الاستقلال من خلال القضاء على السيطرة الأجنبية . ولقد دفع هذا الوضع الجديد الى احساس الامم الغربية بالحاجة الملحة الى اعادة احياء اقتصاديات هذه الأمم . ولقـــد اتخذ ذلك شكل استثمار شامل أسسته الولايات المتحدة فى أوروبا علـــى المستوى العام والخاص . ولقد ساعد ذلك كل من أوروبا الغربية واليابان على تخطى فترة النقاهة ، ومن ثم بداية المشاركة الحقيقية فى عمليـــة الاحياء الاقتصادى والسياسى .

الى جانب ذلك ، فقد نتج عن الحرب العالمية الثانية تغيرا هاما علـــى جانب كبير من الاهمية ، لاعتبار بقاء متضمناته وآثاره لفترة بعيـــدة فى المستقبل . حيث أدى انهيار الامبراطورية القديمة وسعى المستعمـــرات الخاضعة الى الحصول على الاستقلال الى انهيار الحركة الاســـتعمارية

التى شكلت خريطة القرن التاسع عشر . ولقد أدى ذلك الى ظهور مجموعة كبيرة من الدول التى تدعى لنفسها ملكية السلطة المستقلة والمكانة المستقلة أيضا . ولقد كان من الطبيعى أن يجذب ظهور هذه الدول — بأوضاعها الداخلية وسلوكها الخارجى المتميز — انتباه صانع السياسة الامريكية . التى كان أخشى ما تخشاه خلال هذه الفترة أن تبدو الماركسية بالنسبة لهذه الدول الجديدة باعتبارها الطريق الافضل والاكثر منطقية للسير فيه انطلاقا الى آفاق العالم الحديث . بل جذب وجود هذه الدول أيضا انتباه كثير من الباحثين ، الذين شرعوا حثيثا فى البحث عن المعرفة ، التى يمكن الحصول عليها للتأثير على السياسات الحكومية داخل هذه المناطق . بحيث أسهمت هذه الحركة فى انتاج قدر كبير من الفكر النظرى الذى يتعلق بالمجتمعات النامية . واذا كان مشروع مارشال قد نجح فى اعادة بناء أوروبا فى فترة ما بعد الحرب . فقد بدأ هذا المشروع — نتيجة للنجاح الذى حققه فى النطاق الاوروبى — بالنسبة لكثير من رجال الاقتصاد باعتباره الحل الذى يمكن أن يقدم لتخلف العالم الثالث . غير أن هناك بعض العلماء الاجتماعيين الذى نبهوا بصورة حاسمة الى الاختلافات الجذرية بين تجربة تنمية أوروبا من ناحية وتنمية الاقطار الاقل نموا من ناحية أخرى . فتنمية العالم الثالث ليست ببساطة خبرة تتعلق باعادة بناء ما حطمته الحرب ، ولكنها تجربة أشمل وأعمق من ذلك بكثير ، فهى تنمية أو تطوير لمجتمعات كانت وما تزال متخلفة . وفى هذا الصدد فالسؤال الذى ينبغى أن يطرح لكى نبحث عن اجابة له يدور حول سبب هذا التناقض الصارخ بين تجربة التنمية التى نجحت فى بعض اقطار أوروبا وبين تلك التى لم يثبت نجاحها بعد فى أقطار العالم الثالث(١) .

وفى محاولة التأريخ لظاهرة التخلف والتنمية فان استقراء التاريخ الانسانى يكشف عن وقوع ثلاث تباينات أساسية أدت الى ظهور الانساق الفرعية الثلاث للنظام العالمى . واذا كان النظام الرأسمالى وهو محصلة التفاعل الذى أفرزه التباين الاول ، فيمكن القول بأن هذا التباين بدأت تفاعلات وقوعه قبل الحرب العالمية الاولى بقرنين من الزمان تقريبا . وهو التباين الذى وقع داخل القارة الاوروبية أساسا وان انتقلت آثار ازدهاره الى الولايات المتحدة الامريكية . ويمكن القول بأن هذا التباين قد دفع الى ظهور القوى الرأسمالية فى النظام العالمى . أو ما يمكن أن يسمى بالنسق الفرعى الرأسمالى . وهو النسق الذى ساعد على ظهوره عدة عوامل أساسية .

ويتمثل العامل الاول فى التطور التدريجي الذى خضعت له المجتمعات الاوروبية . فمنذ انهيار النظام الاقطاعي ، وهو الانهيار الذى دفع فى مرحلة مبكرة الى ظهور البرجوازية التجارية ، ثم البرجوازية الصناعية ، حيث استطاعت الاولى توفير الاقتصاد النقدى من ناحية والاجهاز على بقايا النظام الاقطاعى من ناحية ثانية . بينما خلقت الثانية الاطار الملائم لتوفير الفائض من خلال اعمال طاقة العمل الانسانى من ناحية ، ثم الاندفاع بها نحو تأسيس نظام المصنع الحديث من ناحية ثانية . ويعتبر نمو نظام المصنع الحديث أحد العناصر الجوهرية فى بناء النظام الرأسمالى(٢) .

ويعتبر التطور العلمى والتحرر الفكرى الذى خضعت له أوروبا خلال مرحلة المراجعة العامل الثانى فى هذا الصدد . حيث اهتم التطور العقلى الذى وقع خلال هذه المرحلة بالجوانب المادية للوجود الانسانى . وحسبما يذهب الفكر الاوروبى فى هذا الصدد ، أنه اذا كانت الزراعة هى نمط الحياة الخاضعة للطبيعة ، والفكر الثيولوجى هو التبرير أو الانعكاس النظرى لهذا الخضوع . فان ظهور النظام الصناعى كان يمثل انتصار الانسان على الطبيعة ، مستعينا بالفكر العقلى المستند الى الاستقراء بعد أن استند فترة الى الشك . واذا كانت الثورة العقلية هى وليدة الجهد العقلى لاحدى شرائح البرجوازية . فان ارتباط هذه الثورة العقلية بدعم الانتاج المادى وتحسين الوجود الانسانى كان نتيجة لدعم البرجوازية التجارية والصناعية وعاملا فعالا فى بناء الرأسمالية المعاصرة(٣) .

وتعتبر الحركة الاستعمارية هى العامل الثالث الذى شكل وريد ضخ الدماء فى جسد الرأسمالية المعاصرة . وقد ارتبطت هذه الحركة ببداية انطلاق موجة الاستكشاف الجغرافى . وهى الموجة التى شكلت أحد جوانب التحرر الشامل من البناء الاوروبى القديم والانطلاق بحثا عن عالم جديد . بحيث تمكنت هذه الحركة من اكتشاف شعوب فى الشرق وفى الامريكتين ، تمتلك خبراتا ومادة خام ، وباستطاعتها تمويل الحركة الصناعية المتنامية فى الغرب . هذا الى جانب أن بامكانها أن تشكل الاسواق التى تنساب اليها السلع المصنعة . وهكذا اكتشف الاوروبيون ، أنه من الضرورى السيطرة على هذه المناطق ، والعمل على خلق روابط عضوية بينها وبين مراكز القوى المستعمرة . ولخلق هذه الروابط العضوية حاول المستعمرون

خلق تجانس ثقافى مع هذه الروابط العضوية ، وقد حاول المستعمرون خلق تجانس ثقافى مع هذه المجتمعات عن طريق القضاء على ثقافتها المستقلة ، من خلال التبشير والتعليم وخلق كوادر محلية من البشر فى هذه المجتمعات ، تستطيع الدفاع عن المصالح الاستعمارية وتروج لها ، هذا الى جانب ربـــط الجوانب الاقتصادية والاجتماعية لبناء المجتمع المتخلف بالمجتمع المستعمر ، على النحو الذى سوف نفصل فيه(٤) .

واستنادا الى هذه العوامل الثلاثة يمكن القول بأن النظـــام الرأسمالى قد تأسس بفعل عوامل تطور داخلى خاص به ، هذا الى جانب مساعـــدة عوامل خارجية أخرى . بحيث اسهمت فى مجموعها فى اكســـاب هذا النظام ملامحه المميزة ، وأيضا فى امتلاكه لأسباب القوة من ناحية أخرى . غير أن الملاحظة التاريخية البارزة تؤكد أنه بعد استكمال هذا المشروع الرأسمالى لملامحه المميزة ، فانه اندفع فى علاقته بالعالم المتخلف فى اتجاهين متقابلين ، حيث حاول من خلال الاتجاه الاول الاستمرار فى سلب ونقل خامات وفوائض العالم الثالث اليه ، وفى الاتجاه المقابل حاول نقل نموذج النظام الرأسمالى الى خريطة العالم الثالث ، أملا فى رسملة العالم المتخلف وفق تصـــــور خـــاص .

ويشكل ظهور النظام الاشتراكى كنسق فرعى جديد فى النظـــام العالمى ، التغيير الأساسى عن التباين الاجتماعى — والاقتصادى الثانى الذى خضعت له بعض مجتمعات النظام العالمى . حيث أسفرت الحرب العالميـــة الاولى عن ظهور الدولة الاشتراكية الأولى . بينما أسفرت الحرب العالميـــة الثانية عن تخلق الصين كقوة شيوعية ذات فاعلية متنامية . واذا كانت ظروف التراكم المتولد عن استغلال القوى العاملة الداخلية ، بالاضافة الى النهب المنظم لشعوب العالم المتخلف ، هى التى شكلت العنصر الجوهرى فى النمو الرأسمالى ، فان النمو الاشتراكى كانت له هو الآخر عوامله .

من هذه العوامل قضية الالتزام الايديولوجى والاجتماعى . وفى هـــذا الصدد يمكن القول أن التجربة الاشتراكية ، برغم ادعائها لتبعية الافكـــار أو البناء الفوقى لتأثير وفاعلية البناء التحتى المتمثل فى الاقتصاد أو وسائل الانتاج ، فانها قد أثبتت قدرة الافكار والقيم على أن تصنع مجتمعا من جديد .

وذلك من خلال الالتزام بالاشتراكية ، وبالسعى نحو تحقيق المجتمع الشيوعى ، وذلك بعد نجاح السيطرة على الطبيعة وانجاز التحرير الانسانى . واستنادا الى ذلك قامت الطبقة العاملة فى روسيا ، والفلاحين فى الصين بثورات ، خاضت خلالها الصراع ضد الطبقات الارستقراطيةتارةوضدالقوىالاستعمارية ووكلائها المحليــون تارة أخرى . وكانت النتيجة تحقق مجتمع المساواة والعدل والكفاية والاكتفاء ــ مرحليا ــ باشباع الحاجات الأساسية للانسان .

ويشكل الاعتماد على الذات العامل الثانى فى نمو مجتمعات النســق الاشتراكى . وسواء كانت الاعتبارات التى استندت اليها هذه الفلسفة هى اعتبارات ايديولوجية محضة ترفض الاستغلال ، وترفض أن يتأسس ترف البعض على حساب سلب فائض قيمة عمل الآخرين . أو تمثلت هذه الاعتبارات فى عهد امتلاك القوى الاشتراكية ــ خلال هذه المرحلة ــ لوسائل القــوة التى تستطيع بواسطتها فرض ذاتها على الخريطة العالمية . فان العامل المؤكد ، أن هذه المجتمعات قد اعتمدت فى تأسيس نموها وتقدمها على اعادة تنظيم مواردها ، ووضع تدرج بالاولويات التنموية العريضة التى ينبغى أن تنجزها الموارد المحددة . وبغض النظر عن الاعباء والتضحيات التى فرضــت على البشر البقاء خلف جدران الستار الحديدى ، فالمؤكد أن هذه المجتمعات قد نجحت فى دحض اسطورة ضرورة أن يتحقق التقدم على حساب سلب موارد الآخرين ، أو فائض قيمة عملهم .

ويعتبر الاكتفاء باشباع الحاجات الضرورية هو العامل الثالث فى النمو الاشتراكى . فالطابع الاجتماعى فى المجتمعات الاشتراكية هو المتحكم الأساسى فى عملية الانتاج ، كما واتجاها ، حيث نجد حدوث نوع من الابتعاد قدر ما يكون عن اشباع الحاجات الفردية ، واقترابا أقدر ما يكون من اشباع الحاجات الأساسية التى يشترك فيها كل البشر فى المجتمع . ومن ثم فتاريخ التنمية والتقدم الاشتراكى ، هو فى ذات الوقت تاريخ الشعوب التى قررت اســـــتهدافا لاشباع الحاجات الكمليــــة فى المســـــــتقبل . فى اطــــار ذلك حدثت عمليــات تحــول جذريــة فى البيئــة الطبقيــــــة الخاصة بهذه المجتمعات ، أسلمت فى النهاية الى خلق طبقة واحدة ــ أو هكذا يكون الأمل ــ لها حاجات أساسية واحدة ينبغى أن يوجه اليها الاشباع .

ذلك استنادا الى معتقد أساسى يتمثل فى أن التقدم يحتاج الى ارادة عاقلة قادرة على تأجيل الاشباع الحالى من أجل توفيره فى المستقبل . هى مقولة راسمالية لكنها تجسدت بفاعلية داخل المجتمعات الاشتراكية .

ويمكن القول بأن هذه العوامل الثلاثة قد أفلحت فى تأسيس الاستراتيجية الاشتراكية لتجسيد المجتمع الاشتراكى . بحيث استطاعت هذه المجتمعات ، من خلال مضاعفة معدلات نموها وتقدمها أن تشكل من نفسها قوة مضـــادة للقوة الراسمالية ، وأيضا أن تخلق امكانية فعالة تستطيع التحرك الآن بحرية على خريطة النظام العالمى تحاول تطويع بعض قطاعاته حسب أيديولوجيتها الخاصة . وقبل كل شىء متى طرحت أمام مجتمعات العالم الثالث المتخلف — والتى تبحث عن طريق للتقدم — نموذجا واضحا لامكانية النمو والتقـــدم بلا اعتماد على الذات ، وتضييق نطاق الاستهلاك عند مســـتوى الحاجات الانسانية الأساسية والضرورية .

ويشكل ظهور مجتمعات العالم الثالث المرحلة الثالثة من التباين الذى انتاب النظام العالمى . وقد شملت هذه المرحلة حقبة الخمسينات من هذا القرن . حيث تخلقت ظروفا عالمية كثيرة ، فرضت انسحاب الاستعمار ، حيث أصبحت فكرة الاستعمار المباشر غير مستساغة ، هذا الى جانب أن عملية النهب الاستعمارى المباشر كانت قد حققت غاياتها المرجوة . وتضاءلت المنفعة الحدية لاستمرار الاستعمار — من وجهة نظر القوى المستعمرة — حتى اقتربت فى بعض المناطق من الحد الذى أصبحت تشكل فيه عبئا تتحمله القوى المستعمرة ، هـــذا بالاضـــافة الى نضالات جماعات العالم الثالث للحصول على الاستقلال والانضمام الى هيئة الأمم المستقلة .

وأيا كانت طبيعة تشخيص هذا العالم أو تحديد التعريف الذى يضمه ، سواء سميناه بالعالم المتخلف أو العالم النامى أو العالم الثالث . وبغض النظر عن مأثورات المجاملة وسعيا وراء اعتبارات الموضوعية ، فاننا نرى أن تسمية العالم الثالث هى أكثر التسميات قبولا وتعبيرا عن الموضوعية . ذلك أن القول بالبلاد النامية فيه مجانبة للصواب . فهناك اجماع الآن — بين منظرى التبعية — يعبر عنه أندرية جوندر فرانك بقوله ان البـــلاد المتخلفة لم تنمو حقيقة وانما هى قد انتقلت الى طور جديد من التخلف .

هذا الى جانب أن النمو وعدم النمو هو حكم قيمى ان لم يستند الى مؤشرات موضوعية . وقضية المؤشرات تواجه الآن عاصفة من النقد تجعل القبول بها امرا يجانب الصواب أيضا . أما اذا سميناه بالعالم المتخلف ، فأى تخلف نقصد . هل هو التخلف الذى حدث بفعل القوى الاستعمارية ، أم هو التخلف الناتج عن حالة الفطرة اذا قوبلت بواقع المجتمعات المتقدمة . القول بالتخلف والتقدم يتصل بأحكام القيمة أيضا ، وهى أحكام تجاوزها العلم الاجتماعى . يبقى بعد ذلك تعبير العالم الثالث ، والبحث فى هذه التسمية يكشف أن لها سياقا تاريخيا ظهرت فيه . حيث صاغ الفرنسيين هذه التسمية قياسا على تعبير الطبقة الثالثة ، الذى كان شائع الاستخدام فى فرنسا قبل الثورة ، حيث كان يطلق تعبير الطبقة الثالثة على كل من هم ليسوا نبلاء أو من كبار رجال الكنيسة (٥) . ومن ثم يمكن القول بأن تعبير العالم الثالث يعتبر أكثر التسميات فعالية وتعبيرا ، لأنها تسمية تحتوى بداخلها على المغزى العميق الذى يشير الى مجموعة من الشعوب التى تعيش فى قاع تدرج النظام العالمى ، هذا الى جانب أنها تصور أيضا حركة الشعوب فى اسيا ، افريقيا ، أمريكا اللاتينية ؟ نجد وضع حد للسيطرة الاستعمارية ، أو لسيطرة القوى الاقليمية أو العالمية على النظام الدولى استهدافا لاشاعة الديموقراطية فى النظام العالمى .

ذلك يعنى أننا نستطيع التأكيد على أن تعبير العالم الثالث يعتبر من أكثر التعبيرات موضوعية لمجرد أنه يضم مجموعة الدول التى تسودها بقدر ما خصائص محددة ولأنه يشير أيضا الى أن ثمة عالم أول ، وعالما ثانيا ، ومن ثم عالما ثالثا (٦) .

غير انه قد يظهر اعتراض يؤكد أن العالم الثالث يضم شريحة عريضة من المجتمعات ، ومن ثمة فيه تباينات داخلية هائلة . اذ يضم العالم الثالث المجموعة الحضارية ، وهى المجتمعات التى امتلكت تاريخا حضاريا عميق الجذور ، ضاربا فى التراث الاجتماعى كالمجموعة العربية والاسلامية مثلا . وكذلك الصين والهند . وذلك فى مقابل مجموعة من المجتمعات ما زالت تعيش عند المستوى القبلى الذى يشكل نقطة قريبة من بداية الحضارة الانسانية . فهل من الممكن أن تجتمع هذه المتناقضات داخل معسكر واحد ؟ هذا العالم يضم مجموعة الدول التى تمتلك فوائض نقدية تقف على قمة

العالم من حيث متوسط نصيب الفرد من اجمالى الدخل القومى ، كالدول البترولية . ذلك فى مقابل مجموعة من الدول تقع داخل هذا العالم تعانى من الفقر ، وتعيش دخولا تحت خط الفقر بصورة دائمة أو تسعى دائما لطلب الاحسان والمساعدة من الأغنياء فى الدول الصناعية ، أو أصحاب الثراء المفاجىء فى الدول البترولية ، هذه الدول لا تعيش لكى تؤسس تنمية — وان كانت تحاول — ولكنها تسعى لتأمين اشباع الحاجات اليومية والبيولوجية المباشرة لسكانها . تعيش معايشة يومها ، ومن المؤكد أن هذه المعاناة سوف تمتد الى الغد ، والسؤال هل يمكن أن تجتمع هذه المتناقضات داخل معسكر واحد ؟ . الى جانب ذلك يضم هذا العالم مجموعات لغوية عديدة ، الانجليزية ، الفرنسية ، البربرية ، العربية ، السواحلية ، وفى بعض الأحيان مجموعات لم تعثر على لغتها الملائمة بعد ، فهل يمكن أن تدخل كل هذه التباينات داخل خيمة واحدة ؟ . وحتى من منطق أن هذا العالم يضم الشعوب القائمة فى قاع السلم العالمى ، غير أن البحث الدقيق يكشف أن بعضا من هذه الشعوب قد بدأ مرحلة الانطلاق من العالم المتخلف الى العالم المتقدم ، كالبرازيل والأرجنتين ، كأمثلة على الانطلاق من داخل الطريق الرأسمالى ، والصين وكوريا الشمالية كأمثلة على الانطلاق من داخل الطريق الاشتراكى . فهل يجوز ضم كل هذه المجتمعات المتباينة داخل معسكر واحد ؟ . واذا وافقنا على ذلك ، هل استنادا الى هذه الموافقة أن نؤسس استراتيجية واحدة للخروج من مأزق التخلف الى آفاق التقدم ، أو لنقل الصعود من القاع الى حيث مستوى القمة ؟ .

الذين ينتقدون هذه التسمية يؤكدون — الى جانب النقد الذى أشرنا اليه — أن ذلك تجديدا يضفى على الحقائق قدرا من الغموض . وهو الغموض الذى يحرم باحثى العالم الثالث من القدرة على الرؤية ، ومن ثم العجز عن تأسيس استراتيجية عالمية فعالة وواضحة المعالم ، قادرة على التحرك بواقع محدد الى حيث تحقيق أهداف تسلم الى تجسيد نموذج محدد فى المستقبل أيضا . ثم يؤكد منتقدي تسمية العالم الثالث أنه من الأفضل أن نقسم هذا العالم الى مجموعات داخلية ، تسود كل منها درجة عالية من التجانس ، وتتماثل فى معظم الخصائص الاساسية . ذلك أقرب الى الموضوعية والى الدقة العلمية .

بيد أننا نجيب على هذه الانتقادات بالتأكيد على انه بالرغم من التباينات العديدة داخل مجتمعات العالم الثالث ، ايا كانت المعايير التى يستند اليها هذا التباين . فان هناك مجموعة من القواسيم والخصائص المشتركة التى تجعل هذه الدول تقف موقفا واحدا فى مواجهة النظام العالمى ، وبطبيعة الحال سوف يعبر هذا الموقف الواحد عن مجموعة من المصالح المشتركة فى مواجهة النظام العالمى ، وبطبيعة الحال فنحن لا نستطيع أن ننكر وجود هذه المصالح المشتركة بين مجموعة شعوب العالم الثالث . مؤشرات ذلك حوار الشمال مع الجنوب ، أو حوار مجموعة السبعة والسبعين ، مع القوى والمنظمات الدولية ، فمما لا شك فيه أن هذا الحوار يدور حول مضمون محدد .

بالاضافة الى ذلك فان صياغة المفهوم العلمى الذى يعبر عن مفردات واقعية ، يعتمد الى حد كبير على مستوى التجريد ، فكلما كان المفهوم أكثر تجريدا كلما كان أكثر قابلية لاحتواء مفردات أكثر ، وبطبيعة الحال هناك خصائص مشتركة بين هذه المفردات مما جعلها تندرج تحت اطار هذا المفهوم العام .

ذلك يطرح تساؤلا أساسيا يتعلق بمجموعة العوامل التى تعتبر مسئولة عن وقوع التباين الثالث الذى كان من نتيجته ظهور العالم الثالث كنسق فرعى فى بناء النظام العالمى . فى اطار ذلك نقدم مجموعة العوامل الأساسية التالية .

(١)

من هذه العوامل موجة التحرر التى انتابت النظام العالمى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية . حيث بدأت معظم المستعمرات السابقة تحصل على استقلالها ، اما بسبب تحقيق النهب الاستعمارى لأغراضه ، أو بسبب الاتفاقيات الدولية التى تقنت ذلك ، أو بسبب نضال المجموعات الوطنية داخل هذه المجتمعات بعد ان شاركت فى جهود الحرب العالمية — رغما عنها — لصالح القوى الاستعمارية . ونتيجة لذلك ظهرت الى الوجود مجموعة من الدول التى منحت استقلالها ، والتى وان ادعت بأنها دولا مستقلة ، كانت تفتقد المقومات الأساسية للدولة المستقلة على الأصعدة السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية . ولقد كان لفقد هذه المقومات آثاره فى عدم قدرتها أولا على تأسيس التنمية المستقلة ، والى سعيها للارتباط بالقوى الخارجية استكمالا لمستلزمات التنمية الاجتماعية الاقتصادية . وهو الأمر الذى أسقطها فى مرحلة تالية فى براثن التبعية (٧) .

ويعتبر رؤية جنود الدول المتحاربة لأوضاع العالم الثالث باعتبار أن معظم مجتمعاته كانت مسرحا للعمليات الحربية أحد العوامل الأساسية التى أبرزت هذا العالم فى هويته المحددة . فقد شاهد الجنود هذه المجتمعات ، ورأوا العادات المختلفة وشاهدوا الاوضاع الاقتصادية والمعيشية المتدنية ، ثم ذهبوا الى مجتمعاتهم فى أعقاب نهاية الحرب . وذكروا مشاهداتهم لابناء مجتمعاتهم ، وأيا كانت طبيعة المضمون الذى قدم والشكل الذى قدم به ، ملهاة كان أو مأساة ، فقد كانت النتيجة المجتمعة لذلك أنهم أثاروا الاهتمام بهذه المجتمعات ، واثاروا خيال المنظرين والباحثين الذين بدأوا فى الكتابة عن هذه المجتمعات وعن أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، وبدأت هذه الكتابات تتخذ شكل تراث نظرى كبير ومتراكم عن مجتمعات العالم الثالث أو العالم المتخلف وعن ضرورة تنميته ، وما هى الأطر النظرية التى ينبغى أن تحكم هذه التنمية .

ويشكل التباين القائم بين المجتمعات المتخلفة من ناحية والمجتمعات المتقدمة من ناحية أخرى أحد العوامل الأساسية التى ساعدت على ابراز العالم الثالث . وسواء كان أبناء العالم المتقدم الذين زاروا العالم الثالث أو أبناء العالم الثالث الذين زاروا العالم المتقدم هم الذين أدركوا هذه الفروق فان النتيجة التى أصبحت مؤكدة هو أن هناك قطاع عالمى كامل يقف عند نقطة بداية التطور البشرى فى مقابل صفوة عالمية من المجتمعات التى يقف عند نقطة النهاية ، وأن هناك فروقا اقتصادية وثقافية واجتماعية شاسعة بين نموذجى المجتمعات وانه من الضرورى أن نعثر على أفضل الاستراتيجيات ملائمة لنقل مجتمعات بداية التطور لاستيعاب نموذج النهاية ، بحيث شكلت كتابات التنمية محاولات نظرية متعددة لتحديد أسلوب الانتقال وآلياته المتباينة .

واذا كانت هذه العوامل قد دفعت الى ظهور مجتمعات العالم الثالث باعتبارها نسقا فرعيا من النظام العالمى لها علاقتها بالوحدات الفرعية المكونة لهذا النظام أو به ككل . واستكشاف مكانة العالم الثالث فى بناء النظام العالمى يفرض علينا ادراك أننا نعيش فى عالم يتجه الى الوحدة ، حيث الطائرة تدور حول الأرض فى ساعات معدودة ، بما يؤكد أن باستطاعة الانسان أن يستوعب عالمه الذى دار حوله . وقد ساعد على ذلك أيضا توفر أدوات الاتصال ، لعل أبرزها الراديو الصغير الحجم والبسيط التكلفة

والقادر على اقتحام عزلة القرى ومضارب الخيام . ناقلا لها صورا وأحداثا وأنماط حياة غريبة عليها ، وعلينا نحن أبناء العالم الثالث أن نتفاعل معها — شئنا أو أبينا — وذلك بلا شك أمر جديد فى حياة البشر سوف تكون له آثاره البعيدة والعميقة . وهو وضع يأبى الردة عنه ، حيث لا يتصور انسان أن تعود البشرية الى سيرتها الأولى منعزلة ، لا يعلم بعضها عن البعض الآخر شيئا (٨) وهو ما يعنى أن العالم الثالث معرض بكثافة التأثيرات ذات قوة وفعالية مصدرها النظام العالمى ، وليس فى قدرته الاحتفاظ بعذريته والانعزال عن هذه التفاعلات .

● فى مقابل الاتجاه نحو الوحدة هناك اتجاها نحو الانفصال . حيث يشهد عالمنا انفصالا بين الغنى والفقر . فمنذ قرنين لم يتجاوز دخل البريطانى ضعف دخل نظيره الهندى الذى سيطر عليه واستعمر بلاده . أما الآن فمتوسط دخل الفرد فى بريطانيا يعادل ثلاثين مرة متوسط دخل الفرد فى الهند ، مع أن بريطانيا لم تعد أغنى الأمم (٩) . وفى داخل الأمة الواحدة كان الغنى يأكل أكثر من الفقير ويشرب أنقى وأغلى ، ويرتدى ثيابا أنعم ، ويسكن دارا أفسح . كان التمايز محصورا فى الكم .... أما اليوم فقد أصبحت حياة الأغنياء تختلف كيفيا عن حياة الفقراء . والأدهى من ذلك أن العلاقة بين الغنى والفقر تشابكت خيوطها حتى اكتسبت طبيعة عضوية جديدة . فغنى أولئك هو الوجه الآخر لفقر هؤلاء . حيث أصبح تركز الثروة والدخل هو الآن النتيجة المحتومة لأسلوب استغلال منظم ومعقد ومتشابك الحلقات . يعمل بفاعلية حديدية كما لو كان قانونا من قوانين الطبيعة . يصب فى أيدى الأقلية جهد الملايين وعرقهم ، وجل موارد الأرض (١٠) .

وبين الوحدة والتباين توجد التبعية والاستغلال باعتبارهما الحلقة الوسيطة التى تربط العالم الثالث المتخلف بالقوى العالمية المتقدمة . حقيقة أن العالم الثالث يشارك فى النظام العالمى ، ويحاول جاهدا تطوير نفسه من خلال العلاقات النسقية المتشابكة ، غير أنه ليس كل ما يتمناه المرء يلقاه . فهذا العالم (العالم الثالث) لم يشهد منذ عصر الاستعمار تنمية تذكر سوى استنزافه عن طريق استخراج موارده الاولية اللازمة لتقدم عالم الاطلنطى ، ذلك حسب تقارير الأربعينات من هذا القرن . وبعد ثلاثين عاما من الجهود المكثفة لاقامة نظام عالمى جديد ، اتضح أن الكتلة الاساسية من شعوب

العالم الثالث لم تكسب الا قليلا من انخراطها — القوى اقتصاديا واجتماعيا — فى النظام العالمى الذى يسيطر عليه عالم الأطلنطى . والنتيجة المنطقية لذلك ان اكثر الناس فقرا قد ازدادوا فقرا . وأسباب الخلل هى ذاتها التى سادت عالم السبعينات ، وهى التى تسود القرن الحالى ، وهى التى كانت سائدة منذ ١٨٤٣ (١١) .

ذلك يعنى أن فجوة تتزايد بمتوالية تتجاوز المتوالية الهندسية . وهو ما يفرض علينا — نحن أبناء العالم الثالث — أن نتحرك بفاعلية لتأمين دخل ملائم ، ومستوى معيشى مناسبا ، غير أن أهدافنا لا بد أن تتركز حول اشباع الحاجات الاساسية لاكثر القطاعات فقرا . علينا أن لا نتخذ مقاييس الاستهلاك الاوروبية مؤشرات لقياس اشباعاتنا ، والا سقطنا فى ترف الاستهلاك قبل أن نؤمن اشباع الضرورى منه . اذ سوف لا يكفى الرصيد القائم الا لاشباع قلة منا ، وذلك يهدد بانقسامنا على أنفسنا ومن ثم الوقوف على أعتاب الانهيار والتبعية من جديد .

اذا حدثت هذه الكارثة . فسوف تنساب مواردنا مسلوبة — صراحة أو ضمنا — من بين أيدينا الى العواصم الميتروبوليتانية ، حيث الحاجات التى تنتظر الاستهلاك استهدافا للاشباع . وخلال ذلك سوف تتحول مجتمعاتنا الى هوامش أو أطراف يتهددها النسيان . سوف تتسلل صفواتنا هاربة من الأرض الخراب الى حيث المراكز العالمية . ينفق الفقراء على تدريبهم وتعليمهم وينتفع الاغنياء بجهدهم المؤهل . والنتيجة استنزاف بشرى يشكل احد أبعاد الاستنزاف الشامل . ونتيجة لذلك أيضا تتجمد الحضارة والثقافة المحلية — لأن ابناءها المؤهلون قد هربوا منها حيث بناء الحضارة فى مكان آخر — ومن ثم قد نعجز عن التطور وتفقد القدرة على الاستيعاب والهضم . وتتحول فى النهاية — ونحن معها — الى حفريات تاريخية تعيش الزمان لكنها خارجة لا تعطيه ولا تأخذ عنه ، كسولة تنتظر السائح الغربى كى يحضر ويشاهد فيها عالما مدهشا وغريبا ومتخلفا أيضا .

* * *

ثانيا العالم الثالث

خصائص التخلف وعوامله

أشرنا فى الفقرة السابقة الى ظهور العالم الثالث — كنسق فرعى فى اطار النظام العالمى — وأشرنا أيضا الى طبيعة العوامل أو الظروف التى احتل فيها هذا العالم مكانته فى اطار هذا النظام ، ثم طبيعة العلاقات التى تربط هذا العالم كنسق فرعى بالنظام العالمى الاشمل منه . أشرنا أيضا الى أنه برغم التباينات الداخلية بين مجتمعات العالم الثالث وبعضها البعض ، فانها مع ذلك تدخل فى نطاق معسكر واحد ، لأن هناك خصائص عامة تجمع بينها ، حقيقة أن توزع هذه الخصائص قد يختلف من حيث درجة الانتشار والعمق بين مجتمع وآخر ، الا انها موجودة وتفصل هذه المجتمعات عن بقية النظام العالمى .

ولعل أهم خواص هذا العالم أنه عالم يزداد فقرا كلما ازداد العالم المتقدم غنى . ولقد نبه جونار ميردال Gunnar Myrdal فى منتصف الخمسينات الى حقيقة أن الامم الغنية فى هذا العالم تصبح أكثر غنى ، بصورة نسبية ومطلقة ، فدخولها تتزايد بمعدلات أسرع كثيرا من الامم الفقيرة . ويدلل على ذلك بقوله (أننا نجد أن التباينات الاقتصادية بين الأقطار المتخلفة من ناحية والأقطار المتقدمة من ناحية أخرى قد تزايدت خلال العقود الاخيرة(١٢) وقد أكد البنك الدولى هذه الحقيقة فى ١٩٦٦ ، مؤكدا أنه حسب معدلات النمو المعمول بها فان الفجوة فيما يتعلق بمتوسط نصيب الفرد من الدخل القومى بين الولايات المتحدة من ناحية وأربعين من الأقطار المتخلفة من ناحية أخرى سوف تتزايد الى نحو ٥٠٪ بحلول سنة ٢٠٠٠ . وتؤكد الدراسات الكثيرة على احتمال وجود فجوة سياسية تتصل بهذه الفجوة الاقتصادية . حيث من المحتمل أن تتسع الفجوة بين الانساق السياسية المتقدمة والانساق السياسية المتخلفة ، بين الانساق السياسية السوية والانساق الفاسدة . غير أنه برغم وجود اتصال بين

المجوتين الا نهما لا يتطابقان دائما . فهناك بعض الاقطار ذات الاقتصاد المتخلف ، ومع ذلك تمتلك أنساقا سياسية متقدمة ، بينما هناك فى مقابل ذلك اقطارا حققت درجة عالية من الرفاهية الاقتصادية ومع ذلك فما زالت غير منظمة وتسودها درجة عالية من الفوضى السياسية ، غير أنه يمكن القول بأن التخلف الاقتصادى والسياسى يتركز الآن فى اقطار آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية (١٢) .

وتعتبر مستويات الدخول المتدنية من أهم خصائص هذا العالم اذ نجدأن متوسط نصيب الفرد من اجمالى الدخل القومى ينخفض الى نحو ٢٠ دولارا للفرد فى السنة . ذلك فى مقابل أن هناك من يطالب فى بريطانيا بضرورة أن لا يقل أجر العامل فى الاسبوع عن ٤٠ دولارا .

وهناك النمط الثانى الذى يدور متوسط دخل الفردفيهحول ٢٥٠دولارافأقل (منها مصر ٢٤٠ دولار ، نيجريا ١٣٠ دولار ، أندونيسيا ٩٠ دولار) . غير ذلك هناك نمطا ثالثا : لا يمتلك بترولا ومع ذلك حققت دوله متوسط دخل فردى فى السنة يصل الى نحو ٥٠٠ دولار وهى الدول التى يطلق عليها وصف (الطبقة الوسطى) بين الدول الغنية والفقيرة بالعالم الثالث (من هذه الدول الارجنتين ، البرازيل ، شيلى ، المكسيك) حيث تمكنت هذه الدول من تأسيس صناعات تحويلية قوية(١٤) . غير أنه برغم احساس الاطمئنان الذى قد نستشعره من قراءة هذه البيانات الا أننا نؤكد على ملاحظتين . الاولى أن هناك انخفاض عام فى متوسطات الدخول اذا حاولنا المقارنة بما هو قائم فى المجتمعات المتقدمة . والثانية أن هناك سوء لتوزيع الدخول داخل المجتمع الواحد الامر الذى يجعل الدخول الحقيقية منخفضة اذا قارناها بالمتوسطات العامة المضللة(١٥) .

ويعتبر تدنى المستويات الصحية فى هذه المجتمعات أحد الخواص الاساسية المميزة لها . فحسب تقديرات الامم المتحدة يعانى ربع أو ثلث سكان هذا العالم من نقص التغذية(١٦) بحيث أصبح المرضى — نتيجة

لذلك ــ عنصرا بنائيا فى حياة هذه الأمم . فأمراض سوء التغذيةكالبرى ــ برى beri-beri والبلاجرا Pellagra وكساح الأطفال تخفض من قوة عمل الملايين من البشر الذين يعيشون فى هذه المجتمعات ، وقد تسبب لهم الموت المبكر . حيث يقود الجهل والمرض ونقص الرعاية الصحية الى تخلق دائرة مفرغة تعبر عن موقف درامى حيث (الصحة المعتلة = انخفاض القدرة على العمل = انخفاض الانتاجية = الفقر = نقص التغذية ، حيث الصحة المعتلة من جديد) (١٧) بالاضافة الى ذلك الانخفاض العام لمستوى الرعاية الصحية فى هذه المجتمعات ، يؤكد ذلك نسبة البشر الذين يخدمهم كل طبيب فى بعض مجتمعات العالم الثالث على نحو ما يوضح الجدول التالى :

جدول رقم (١) نسبة السكان
الذين يخدمهم الطبيب فى العالم الثالث

القطــر	عدد السكان لكل طبيــب	القطــر	عدد السكان لكل طبيــب
أفغانستان	٣١ر٠٠٠	جمهورية النيجر	٦٦ر٠٠٠
البرازيــل	٣ر٦٠٠	المملكة المتحدة	٨٣٠
أندونيســيا	١٩ر٠٠٠	الولايات المتحدة	٧٠٠ر
مالـــــى	٤٠ر٠٠٠		

وتبرز درامية الموقف بأكثر مما تعكسه هذه الأرقام حينما ندرك ان نسبة الأطباء الى السكان تصل فى بعض مجتمعات العالم الثالث تصل الى نحو ١ : ٦٦ر٠٠٠ نسمة . ذلك فى قلب ظروف تشهد على تردى الصحة العامة وسوء التغذية والبيئة الملوثة .. بينما تصل النسبة فى الولايات المتحدة الى نحو ١ : ٧٠٠ نسمة حيث ارتفاع مستوى الصحة العامة والملائمة الفعالة للبيئة الاجتماعية (١٨) .

وتعتبر المشكلة السكانية التى تعانيها غالبية مجتمعات العالم الثالث من الخواص المميزة لها . واذا كان النظام العالمى ينقسم الى قسمين . فاننا نجد أن القسم المتقدم (الذى يضم العالم الحر والكتلة الاشتراكية) يشكل ٤٠٪ من مساحة الأرض ويضم سكانا يصل حجمهم الى نحو ٣٠٪ من سكان العالم . أما القسم الآخر فيضم مجموعة الدول التى خرجت لتوها من الفترة الاستعمارية ، حيث أكثر الأمم فقرا من الناحية الاقتصادية وتخلفا من الناحية التكنولوجية وان كانت تمتلك امكانية أن تحقق انجازات هائلة . فأقليمها تحتوى على ثروة معادن وطاقة وزراعة هائلة(١٩) .

ومما يؤزم الموقف بالنسبة للوضع السكانى فى العالم الثالث أن هذا العالم تسكنه نسبة سكانية عالية تصل الى نحو ٧٠٪ من سكان العالم . وما يترتب على ذلك من نتائج وآثار . فالريف والزراعة تشكل اطار الحياة الأساسى فى هذه المجتمعات . غير أنه فى حالة الكثافة السكانية العالية ، فان البشر يتحركون فى موجات من الأرض الزراعية الضيقة الى المدن ، تحدوهم الآمال فى حياة أفضل ، ليؤسسوا مدن الصفيح حيث الاسكان والمرافق على درجة عالية من التردى . ومن الطبيعى أن يكون لهذه الزيادة السكانية تأثير مدمر ، لأنها تستوعب مدخرات التنمية الاقتصادية وانجازاتها لتغذية السكان والحفاظ عليهم عند مستوى الحياة . وفى هذا الاطار يصعب تنفيذ أية سياسة سكانية لأن البشر أميين وغير متعلمين ، وهو الأمر الذى يثقل كاهل المجتمع بخدمات الصحة ، والتعليم والاسكان ، ويجعله بعيدا عن مواجهة الاحتياجات الحقيقية للتنمية(٢٠) .

ويرتبط بذلك سلوك انجابى متخلف وغير رشيد . اذ يسود هذا العالم انخفاض سن الزواج ، وهو الأمر الذى ينعكس فى احتمالات الخصوبة العالية . تنتشر فى هذا العالم أيضا ظاهرة الزواج الكامل حيث احتمال زواج معظم الاناث به ، بل هناك سعى الى ذلك مع أن النسبة فى العالم المتقدم لا تتجاوز نحو ٦٠٪ من عدد الاناث . تنتشر فى هذا العالم أيضا ظاهرة تعدد الزوجات ، والزواج المتكرر ، حيث قد تكرر الزوجه على التتابع الزواج بأكثر من زوج والعكس صحيح ، هذا الى جانب ظروف ثقافية واقتصادية واجتماعية عديدة تفرض معدلات انجاب عالية خاصة من الذكور ، أو حتى ولادة الذكور . مثل هذه السلوكيات الانجابية تضيف مزيدا من التعقيد الى المسألة السكانية التى يعانيها هذا العالم .

ويعتبر التخلف التعليمى أحد الخواص التى تميز هذا العالم . اذ تذهب معظم التقديرات الى اعتبار التعليم ترفا منكرا على هذا العالم . ومن ثم ترتفع معدلات الأمية فى اطاره حتى أنها تصل فى ليبيا الى نحو ٥ر٦٢٪ بين الذكور ، وبين الاناث الى نحو ٩٦٪ ، وفى الهند الى نحو ٥٩٪ بين الذكور ، ٨٧٪ بين الاناث (٢١) ، مما يشكل عقبة حقيقية أمام ادراك أساليب تطويره ومتضمنات ذلك . تذهب التقديرات أيضا الى أن نصف سكان العالم الثالث لم يتلقوا أى نوع من التعليم ، فى حين نجد أن ثلثى أطفاله لا يجدون مكانا بالمدارس(٢٢) ، هذا بالاضافة الى أنه أصبح يعانى الآن من تردى واضح فى نظامه التعليمى ، وأيضا تسلل الذين تعلموا الى العالم المتقدم .

من الخواص المميزة لهذا العالم أيضا أنه يعيش فى ظروف اقتصادية غير ملائمة الى حد كبير . برغم ان هذا العالم يشارك بفاعلية فى الاقتصاد العالمى ، عن طريق امداد اسواقه بالمواد الخام على نحو ما يوضح الجدول التالى :

جدول رقم (٢) يوضح

الخامات التى ينتجها العالم الثالث من جملة الانتاج العالمى(٢٣)

السنة	خام الحديد ٪	البوكسيت ٪	البترول٪
١٩٠٠	٢	—	٤
١٩١٣	٣	—	١٤
١٩٢٨	٧	٢١	٢٥
١٩٤٨	٨	٦١	٣٦
١٩٦٠	٢٩	٦٨	٥٥
١٩٧٠	٤٠	٦٠	٦٨

وهو ما يعنى أن فقر هذا العالم ليس فقرا طبيعيا يعانى منه . ومع ذلك ، فبرغم هذا الثراء الطبيعى والعطاء السخى ، نجد أن هناك ما يرسخ تخلفه ويفرض التبعية علية . فبرغم هذا الانتاج الكثيف للمادة الخام نجد أن العالم المتخلف لا يحصل من سعر بيع المواد الخام للمستهلك الا على نحو ١٠٪ فقط . والمثال الصارخ لذلك أن الدولة المنتجة للموز فى أمريكا الوسطى تحصل على ٧٠ سنتا فقط ثمنا لصندوق الموز الذى يباع للمستهلك بستة دولارات .

(٧) يزيد من التخلف الاقتصادى الذى يعانيه هذا العالم محدودية نصيبه من الاقتصاد العالمى . فبرغم العطاء السخى الذى يمنحه — ومنحه — العالم المتخلف للنظام العالمى . فاننا نجد أن ثمة اتجاها من قوى النظام العالمى للابقاء على تخلفه ، مؤشرات ذلك أنه برغم أن هذا العالم يشكل مسكنا لأغلبية سكانية كاسحة تصل الى نحو ٧٠٪ من سكان العالم ، فان اجمالى دخله (بما فى ذلك دخل البترول) لا يتجاوز ٣٠٪ من الدخل العالمى . وبرغم تأسيس مؤسسات المساعدة والاقراض الدولى للمساعدة فى تنمية العالم المتخلف ، فاننا نجد أن القوى العالمية المسيطرة وضعت من القواعد والشروط التى جعلت البلاد المتخلفة تحصل فقط على نحو ٤٪ من القروض التى يقدمها النظام المصرفى الدولى . بينما تستفيد الدول الغنية من النسبة الباقية . وقد كان الاولى أن تتجه اليها كافة موارد النظام المصرفى فهى الافقر ، وهى التى تؤسس عملية تنمية ، وهى التى تعانى من قدرة التمويل .

(٨) تتخلف فى هذا العالم أيضا القدرة على الانتاج الصناعى والزراعى ، اذ نجد مثلا أنه من حيث الانتاج الصناعى ، فهذا العالم لا ينتج سوى ٧٪ من الانتاج العالمى ، وهذه النسبة محصورة بين عدد ضئيل من الدول وفى عدد محدود من الصناعات كصناعة (النسيج ، تجميع السيارات ، الأسمنت) ، أو ما يمكن أن نسميه بصناعة احلال الواردات . اما فيما يتعلق بالانتاج الزراعى فاننا نجد أن عشرات الالاف — بهذا العالم — يموتون جوعا فى كل عام ، فى حين يعيش اكثر من الف مليون من سكانه فى حالة سوء التغذية المزمنة ، فى مقابل ذلك نجد أن الولايات المتحدة تستخدم سنويا حوالى ثلاثة ملايين طن من الحبوب الغذائية — لتربية الحشائش فى ملاعب الجولف وأرض سباق الخيل .

من الخصائص البارزة لهذا العالم أيضا أن معظمه قد خضع فى مرحلة تاريخية سابقة لحالة من[1] الاخضاع الحضارى والنهب الاستعمارى . فبرغم أن قطاعا كبيرا من هذا العالم كان يمتلك حضارة وتنظيما للحياة . فاننا نجد أن القوى الاستعمارية قد عملت من خلال التبشير تارة ، ومن خلال عمليات التربية والتعليم تارة أخرى على طمس هذه المكونات الحضارية الاصيلة ، ومحاولة نشر النموذج الغربى لكى يحل محلها . أما اذا كانت بعض هـــذه المجتمعات لا تمتلك حضارة ، فالطريق سهل ومفتوح أمام التدريب والتنشئة على أسس الحضارة الغربية . وبطبيعة الحال لم يكن ذلك تعبيرا عن ارادة غربية خيرة بقدر ما كان محاولة استعمارية لتأهيل سكان هذه المجتمعـــات للخضوع السلسل لعمليات النهب الاستعمارى . حيث سلب خامات وخوائص هذه المجتمعات لنقلها الى العواصم الميتروبوليتانية ، ولدينا فى هذا الصدد معادلة واضحة تؤكد أن خريطة الاستعمار هى فى الغالب خريطة التخلف . وأن خريطة التشوه الحضارى هى خريطة الصراع بين الحضارات التقليدية من ناحية ومفارز الحضارة الغربية وصفوانها .

خلاصة القول واستنادا الى مجموعة الخصائص السابقة . فاننا نستطيع القول بأن هناك قطاعا عريضا يضم نسبة غالبة من مجتمعات النظام العالمى ، تعكس معظم الخصائص السابقة ، وربما بدرجة عالية . قد تعرف هـــذه المجموعة بمجموعة عدم الانحياز أو الحياد (الايجابى) أو بمجموعة الجنوب تارة ثالثة أو مجموعة السبعة والسبعين فى تارة رابعة . ذلك يعنى أن هذه المجتمعات تدافع بالأساس عن موقف محدد ، داخل النظام الدولى ، ســـواء اتخذ الدفاع عن هذا الموقف شكلا نضاليا تستخدم فيه طلقات الرصاص ، كما كانت الحال فى المرحلة الاستعمارية . أو حوار الشمال مع الجنـــوب فى مرحلة النضال للتخلص من التبعية تمهيدا للانطلاق .

بيد أن ذلك يفرض علينا أن نطرح سؤالا ضروريا يتعلق بطبيعة العوامل التى أسست تخلف العالم الثالث بحيث جعلته يعكس الخصائص التى اشرنا اليها . البحث عن اجابة لهذا السؤال يكشف عن وجود عوامل تاريخية وبنائية معاصرة ، يمكن اعتبارها مسئولة عن هذا التخلف . فى محاولة تحديد عوامل التخلف فاننا يمكننا تقسيمها الى نمطين من العوامل .

١ ــ مجموعة العوامل ذات الصلة بالنظام العالمى .

٢ ــ مجموعة العوامل المتصلة ببناء المجتمعات المتخلفة .

ونقصد بمجموعة العوامل المتصلة بالنظام العالمى تلك العوامل التى طرأت على المجتمع من الخارج ، ســواء كان مصدرها القوى الاستعمارية فى التاريخ المــاضى ، التى رسمت استراتيجياتها الأساسية على أساس تفريغ هــذه المجتمعات من مواردها الوطنيــة أو كانت مصــدرها القوى الاقتصادية فى العالم المعاصر التى تحاول فرض التبعية على هؤلاء الذين خضعوا لعملية النهب والسلب فى مرحلة ســابقة ، وهو ما نعرض له .

ويعتبر الاستعمار وتقدم العالم الأول أحد الآليات الأساسية التى خلقت تخلف العالم الثالث على حد ما يذهب أندريه جوندر فرانك . وحسبما أشرنا ســابقا أن خريطة الاستعمار هى خريطة التخلف ، وليس لذلك سبب سوى أن التخلف ناجم عن الاســتغلال ، وعن البيئة الاستعمارية ، وعن الطبقة المستفيدة من هــذا الاستغلال الأقصى والمستنده اليه ، والمتعاونة أيضــا مع الاستعمار(٢٤) .

وبرغم تأكيد الأدب التنموى على الدور الاستغلالى الذى لعبه الاستعمار فان هنــاك من يؤكد أن الاستعمار قد لعب دورا جوهريا فى تطوير هــذه المجتمعات ، وايقاظها بفعل الصدمة الحضارية(٢٥) غير أن ذلك مردود عليه ، فان كان الاستعمار قد فعل ذلك ، فان هدفه لم يكن تطوير هذه المجتمعــات بقدر ما تركز اهتمامه على سلب مادتها الخام والأولية وذلك لتأسيس التنمية فى العواصم الاستعمارية . سواء كانت هذه المــادة الخام مادة طبيعية أو يدا بشرية عاملة . ذلك أن الاستعمار العالمى كان يعبر فى مرحلة تاريخية محددة عن صيغة عالمية شاملة تحاول تأكيد تبعية العالم المتخلف بأسلوب مزدوج . من ناحية عن طريق الطلب المتزايد ــ حسب آليات السوق ــ على مادة معينة . مما يدفع الى التوســع فى انتاجها . مثال ذلك حالة المكسيك ، حيث كانت قيمة الانتاج الزراعى وتربية الماشية نحــو ٣ر١٠٪ من القيمة الكلية للصادرات . ارتفعت الى نحو ٢١٪ من قيمة الصادرات لعام ١٩٤٥ . وهــذا يعنى أن التوسع فى بعض نشاطات الزراعة وتربيــة الماشية أصبح يتحدد بآليات السوق الأجنبية ، وهو ما يعرف بفرض الاستغلال

أو التبعية ايجابيا ، حيث ظهر اتجاه نحو زراعة الأراضى بالمحاصيل التى يحتاجها السوق العالمى ولو على حساب المحاصيل الزراعية الأخرى التى يحتاجها البشر فى المجتمع . ففى حالة المكسيك مثلا أدى هـذا الاتجاه الى نقص انتاج الذرة والفاصوليا والشحوم النباتية ،و عدد من المنتجات الأخرى التى أصبح من الضرورى أن يستوردها المجتمع . وهو الأمر الذى فرض اعتمادا على السوق العالمية ، ومن ثم تبعية جديدة(٢٦) . هـذا بخلاف التبعية السلبية التى يفرضها الاستعمار بقوة السـلاح ، ومن ثم يوجه الانتاج الاجتماعى لصالحه .

ويتمثل العامل الثانى المؤسس لتخلف العالم الثالث فى الدور الذى لعبه الاستعمار فى تأسيس ما يسمى بالتنمية المشـوهة . ففى مصر مثلا انصب اهتمام الاستعمار البريطانى على تزويد صناعة النسيج فى بريطانيا بالقطن الجيد ، ولذلك وجه معظم الموارد المصرية الى زراعة القطن . بل انه يمكن النظر الى بعض المشروعات التى أسسها الاستعمار كمشروعات الرى وتحسـين أصناف القطن ، وانشـاء شبكة السكك الحديدية ، لنقل القطن الى الاسكندرية ، وبناء النظام المصرفى والبورصة الحديثة والمحالج والمكابس ، باعتبارها مشروعات أسست لتحقيق هدف أساسى يتمثل فى زراعة ونقل القطن المصرى من الاسكندرية الى بريطانيا بالأسعار والكميات المناسـبة . وبطبيعة الحال كان ذلك على حساب القطاعات الاقتصادية الأخرى . بالاضافة الى ذلك قامت القوى الاستعمارية على خلق ما يمكن أن يسمى بالانفصال البنائى داخل المجتمع الواحد . فنظرا لتركز القوى الاستعمارية أو مصالحها فى المدن الأساسية داخل المستعمرات فانها حاولت تطويرها على حساب اغفال القطاعات البنائية الأخرى . تجسيد ذلك أن الاستعمار البريطانى فى مصر عمل على تطوير المدن الأساسية فى منطقة القناة باعتبارها تشكل نطاق تركزه بالاضافة الى مدن المحلة الكبرى وكفر الزيات والاسكندرية والقاهرة باعتبار أن فيها تتجسد مصالحة . بحيث تخلق عن ذلك قطاعين بنائيين ـ الريف والحضر ـ تسقط أى رابطة عضوية بينهما . ذلك يعنى أن دور الاستعمار فى تجسيد التخلف من هـذه الناحية لم يتمثل فى تجميد الاقتصاد المحلى على ما كان عليـه قبل وقوع الغزو الاستعمارى ، وانما نجده قد أفرز نتيجة لممارساته حالة مشوهه يتفكك فى اطارها الاقتصاد القومى ويفتقد التوازن بين قطاعاته الأساسية والمختلفة ، يربط أكثر قطاعاته تقدما

وفاعلية ــ عضويا ــ باقتصاد الدولة المستعمرة برباط وثيق يصعب الفكاك منه حتى بعد الحصول على الاستقلال السياسى فى مرحلة تاريخية تالية(٢٧) ،.

بالاضافة الى ذلك لعبت القوى الاستعمارية دوراً مدمراً على المستوى الثقافى والأيديولوجي لهذه المجتمعات المتخلفة . واذا قلنا ان اى جماعة انســـانية تحتاج الى ايمـــان أو التزام أيديولوجى وثقافى يحكم تفاعلاتها الداخلية ويقنن حركتها نحو تجسيد أهدافها على الصعيد المحلى أو الخارجى .، استنادا الى ذلك نجد أن القوى الاستعمارية سعت بدأب ووعى نحو القضاء على البيئة الثقـــافية والأيديولوجية لهذه المجتمعات أن وجدت ،. فالقوى الاستعمارية وان استهدفت سلب هـــذه المستعمرات اقتصاديا الا أنها لتحقيق ذلك بيسر وســـهولة حاولت خلق خلفية حضارية وثقافية تؤمن عمليـــة السلب هـــذه ،. وذلك من خلال عمليتين الأولى القضاء على الثقافة المحليـــة والثانية تقديم البديل الغربى الذى يحل محلها ، ولانجاز ذلك استعانت القوى الاستعمارية بارساليات التبشير ، أو من خـــلال تدريب بعض الصفوات المحليـــة ، لكى تتولى هـــذه المهمة نيابة عن القوى الاستعمارية ، أو من خـــلال تحويل النظـــام التعليمى المحلى نحو تبنى توجهات جديدة هى التوجهات الاستعمارية أساسا . ويمكن القول بأن هذا الجهد قد نجح تاريخيا فـــى طمس معالم التراث المحلى والوطنى تمهيـــدا لفرض النموذج الغربى ، كتعبير عن تمركز أوربى حول الذات ، أو رغبة مبكرة لخلق هوامش تكون المراكز قادرة على استنزافها دفعا للتطور الاقتصادى داخل هـــذه المراكز .

واذا كانت ممارسات القوى الاستعمارية فى المـــاضى هى التى أسست التخلف تاريخيا فى بناء مجتمعات العالم الثالث بصورة مباشرة وباستخدام القوة العســـكرية فى أحيان كثيرة . فان النظـــام العالمى المعاصر من خـــلال القوى المسيطرة فيه يحاول من خـــلال ممارسات عديدة أن يلعب دور العامل الذى يســـاعد على استمرار التلخف .. فالنظـــام العالمى الحالى ، نظام أنانى بطبيعته . يطالب مثلا بوحدة الثقافة الانســـانية ، غير أن ذلك يعنى ضمنيا أن ثقافة القوى الغربية المسيطرة هى التى ينبغى أن تسود .. لم يحاول النظـــام العالمى مثلا العمل على تطوير روافد الثقافات المتباينة ، حتى يمكنها أن تتفاعل من منطق القـــدرة والاستقلال ، كل ذلك يكون مدخلا لتأسيس الثقافة العالمية الواحدة . وحتى لو وجدت منظمات عالمية ــ كاليونسكو ــ

نهتم ببعض الثقافات المحليــة ، فهى تهتم بها باعتبارها فولكلوريات محليــة تشــهد على التطور الثقافى والحضارى للانســان ، وتســاعد أيضا على ابراز فاعلية التقدم الذى حققته الحضارة الغربية ، هــذا الى جانب خلق بانوراما تاريخية تمتع السائح الباحث عن اشباع حواسه الفردية .

وبغض النظر عن عملية السلب الاستعمارى التى حدثت فى المــاضى فان النظـــام العالمى يعتبر الآن مسئولا عن تكديس التخلف القائم فى العالم الثالث(٢٨) . اذ نجد أن القوى المسيطرة على النظـــام العالمى أسست — أثناء المرحلة الاستعمارية — مجموعة من القنوات التى أصبحت تشـــكل ممارسات معتادة تنساب خلالها موارد العالم الثالث ومادته الخــام الى حيث اشباع حاجات انســان العالم المتقدم ، وبالتأكيد على حساب حرمان نظيره فى العالم الثالث من الاشباع . ولعل خير تعبير عن أنانية وخداع قوى النظـــام العالمى ما تشاهده فى مراوغات حوار الشـــمال مع الجنوب ، تلك التى لم تنجح فى تحديد نسبة ١٪ من ميزانيات العالم المتقدم — على ضآلتها — لصالح تنمية العالم الثالث . بل اننا نجد انهاكا أكثر لاقتصاديــات العالم ، حينما تغمر القوى العالمية الصراعات فى اطاره لخلق أسواق لصناعة التسليح فى المراكز المتقدمة من النظـــام العالمى(٢٩) .

بالاضافة الى ذلك يواصل النظـــام العالمى لعبة تفكيك هــذه المجتمعات من الداخل . وذلك بهدف اعادة الصــياغة البنائية للمجتمعات المتخلفــة بما يلائم احتيجات القوى المسيطرة على النظام العالمى . فهناك محـــاولات حثيثة لخلق تنظيمات محليــة تربط صفوات العالم المتخلف بنظائر لها فى المجتمعات الغربية المتقدمة . وهى هنا لا تحاول — عن رغبة خيرة — نشر التقدم ، بقدر ما تحاول تقطيع أواصر أبناء القربى الواحدة . بل اننا نجد أن معظم الطبقات البرجوازية التى قادت نضال التحرر فى فترات تاريخيــة ســابقة ، هى الآن التى تلعب دور العمالة المحليــة فى مساعدة البرجوازية العالمية على اســـتغلال مجتمعاتها . واستحقت بذلك وصف اندريه جوندر فرانك لها بأنها برجوازية رثة تقود تطورا رثا(٣٠) . ذلك يعنى أن مكانة العالم الثالث فى اطار النظام العالمى ، وطبيعة العلاقات المتبادلة بينهما تعتبر أحد العــوامل الأساسية لتخلف العالم الثالث ، واطارا ملائما لترسيخ هــذا التخلف واســـتمراره .

وبالاضافة الى ذلك هنـــاك مجموعة العوامل التى ساعدت على التخلف والتى تنبثق عن البنية المحلية لمجتمعات العالم الثالث أساسا . وهى تضـــم ثلاثة أنماط من المتغيرات أو العوامل . المجموعة الأولى وتختص بمجموعة العوامل ذات الصلة ببناء الثقافة والقيم فى هذه المجتمعات . أما المجموعـــة الثانية فتتصل ببناء هـــذه المجتمعات وطبيعة التفاعلات التى تتم داخل اطار هـــذه الأبنية ، أما المجموعة الثالثة فتتصل بالجوانب البشرية والشـــخصية لهذه المجتمعات .

وفيما يتعلق بالعوامل المؤسسة للتخلف وتتصل ببناء الثقافة والقيم نجد أن مجتمعات العالم الثالث تعانى من مشـــكلة غياب الالتزام الأيديولوجى أو انتشـــار حالة الأنومى الثقافية . واذا كانت الأيديولوجيا والثقافة هى التى تحدد الأهداف التى ينبغى انجازها على المســـتوى الفردى والاجتماعى ، وأيضا أولويات هـــذه الأهداف ، ثم الوسائل التى ينبغى اتباعها لتحقيق هـــذه الأهداف . فان معاناة هـــذه المجتمعات من ظاهرة الأنومى الثقافية أو فقد الالتزام الأيديولوجى سوف يجعل حركتها التنموية مشتتة ومبعثرة لا تستطيع تأسيس أى تراكم تنموى على المســـتوى الفكرى أو الواقعى . ومن ثم يصبح التخلف قدرا مستمرا ودائمـــا بالنسبة لهذه المجتمعات . فالى جانب أن هـــذه المجتمعات تفتقد العنصر المحورى الذى تدور حوله اهتمامات الحاضر ، فهى أيضا تفتقد امكانية تحديد الأهداف التى تطرح مشروعية ونمط الحركة من الحاضر الى المستقبل . وبطبيعة الحال كان ذلك نتيجة لضرب الثقافة المحليـــة ، دون قدرة الجماهير العريضة على استيعاب الثقافة أو الأيديولوجيا التى فرضت عليها من الخارج ، أو أنه لم يقـــدم أساسا البديل الذى يمكن أن يحل محل الثقافة المحليـــة .

ويعتبر التغير الذى فرض على بنية هذه المجتمعات أحـــد عوامـــل تخلفها . ولادراك أبعاد ذلك نجد أن التغير أو التطور الذى حدث فى أوربا كان تطورا طبيعيا وانبثاقيا أساسا . ومن ثم فله طبيعتـــه العضـــوية . يســـتند فيه الحاضر الى عناصر المـــاضى ويدفع التطور الى أفضل ممكنات المستقبل . فالتطور من هـــذا النوع يبقى على التراث موجودا ويحافظ على روح الحضارة قائمة . وبذلك يستطيع المجتمع تأسيس درع حضارى قادر على استيعاب أقوى الصدمات وبسرعة فائقة . البرهنة على ذلك الآثار السريعة التى حققها مشروع مارشال لاعادة بناء أوربا التى حطمتها الحرب .

فى مقابل ذلك نجد ان التغير أو التطور الذى حدث فى العالم الثالث فرض من الخارج ومن ثم لم يتلاحم عقيديا مع التراث بل لم تكن مجتمعاته مؤهلة أساسا لاستقباله . فاذا اتخذنا المجموعة العربية مثالا على ذلك . فاننا سوف نجد انه منــذ صدمة اعادة اكتشاف الغرب ، وما أعقب ذلك من تغلغل الغرب نفســه فى الوطن العربى ، وقعت أربعة موجات عاتيه من التغير الاجتماعى تركت آثارها عميقة على البنية الاجتماعية العربيــة . وقد تمثلت هذه الموجات الأربع فى التجربة الاستعمارية ، والعلم والتكنولوجيا الحديثــة ، والنضال الوطنى القومى من أجل التحرر ، وأخيرا الظاهرة النفطية . حيث ارتبطت كل من هــذه الموجات بعدد من الاستجابات والآثار التى لا تزال فاعلة فى ســياق عمليــة التحول التى يتعرض لها المجتمــع العربى(٢١) . ولا ينبغى أن يقال أن بعضا من هــذه الموجات داخلى أساسا ، كالثروة النفطية وموجة التحرر ، وذلك لأن الطرف الخارجى هو الذى كان متحكما فى التفاعل أساسا . ويمكــن القول بأن تلاحق هــذه الصدمات أو التغيرات المفروضة من الخارج أصابت هــذه المجتمعات بالعجز عن عدم تحقيق مستويات عالية من التماسك البنائى .

وارتباطا بذلك نستطيع القول بأن مجتمعات العالم الثالث قد خضعت لعمليــة تحول دائمة ومســتمرة نتيجة لموجات التأثير المختلفــة التى جاءتها من العالم الخارجى وهى العمليــة التى أسهمت فى مزيد من الانهيار — والتشوه البنائى . واستشهادا — مرة أخرى بالعالم العربى — نجد أن كل جيل عربى قد عاش منــذ سنوات القرن التاسع عشر انهيار واحدة أو أكثر من السمات التى انطوى عليهــا النظام الاجتماعى الســابق على عمليــة التحديث هــذه ، فضلا عما عاشته تلك الأجيال من معاناه ، بل ومن عمليــة قيصرية فرضها النظام الاجتماعى الجديد . حقيقة أن هذه الفترة شــــهدت أكثر من حمل كاذب ، بل وأكثر من اجهاض . ولكن فى سياق هــذا كله لم تختفى الهياكل القديمة عن مسرح الحيــاة العربية قط ، فهى موجودة باستمرار ولو بشــكل منكمش أو مشوه ، هى موجودة ومتعايشة مع الهياكل الاجتماعية الجــديدة ، أو هى مع الصــور المشوهة من تلك الهياكل المحدثة . من هنا ، ما فتىء هــذا التفاعل المتواصل بين عناصر القديم والجــديد يضع الوطن العربى فى حالة دائمة من (التحول) عبر القرنين المــاضيين . فكل جيل ظل على قناعه بأنه هو الذى يحمل أعباء عمليــة (الانتقال) . ولطالما شعرت

تلك الأجيال بما تنطوى عليه هـــذه العملية من تبعات تحملها . ومن مغارم ومشكلات تنوء بها . وشـــعر بعضهم على وجـــه الخصوص بأنهم ضحايا أبديون فى مصيدة هـــذه العملية الاجتماعية التاريخية(٣٢) .

ذلك يعنى ان عمليـــة الانتقال أو التحول التى تمر بها مجتمعات العالم الثالث تحولت الى خاصية بنائية أكثر من كونها تفاعلا يرتبط بفترة تاريخية محددة . واذا كان المجتمع يلزمه التماسك الذى يساعده فى الانطلاق الـــى آفاق المستقبل ، فاننا نجد ان كل موارد هـــذه المجتمعات ، تتجه بلا أساس الى الحفاظ على تماسك الحاضر ومواجهة المشـــكلات التى قد تســـلم الى مزيد من الانهيار . ومن ثم فمواردها المحدودة عاجزة عن دفعها الى آفاق المســـتقبل . ذلك يعنى اذا كانت هـــذه المجتمعات قد سلخت نفسها عن المـــاضى التاريخى ، فهى قد استغرقت داخل زمان الحـــاضر ، والكارثة الحقيقية انها تعجز عن ادراك متطلبات المســـتقبل ، ومن ثم الاستجابة لهذه المتطلبات ، ويعتبر ذلك احـــد العوامل الأســـاسية التى ترســـخ تخلف هـــذه المجتمعات .

ويعتبر غياب الاستقرار الداخلى عن مجتمعات العالم الثالث أحـــد العوامل الأساسية المســـئولة عن عـــدم اطراد التنمية فى مجتمعات هـــذا العالم ، واذا كانت قوى التحرير فى هـــذه المجتمعات هى التى قادت نضال الاســـتقلال فى الخمسينات ، فان فترة الستينات والسبعينات كانت فترة عـــدم استقرار ، وربما انتشـــار العنف داخل بناء هـــذه المجتمعات . ومن الطبيعى ان لهذا العنف أســـبابه وعوامله الفرعيـــة العديدة . من هـــذه العوامل أن حالة الفراغ الأيديولوجى التى تعانى منها مجتمعات هـــذا العالم قد تؤدى عكسيا الى حالة من التخمة الأيديولوجية ، حيث تشرذم افراد المجتمع الى جماعات ذات توجهات أيديولوجية متباينة ، ومن الطبيعى أن يعود هـــذا التباين الى احتمالات الصدام ، ومن ثم العنف بين هـــذه الجماعات . وبعضها البعض من ناحية ، وبينها وبين النظـــام السياسى من ناحية اخرى . وتصبح الكارثة أكثر درامية اذا مورس الصراع الايديولوجى استنادا الى اطر مرجعية خارجية تتمثل فى القوى العالميـــة ذات التوجهات الأيديولوجية المتباينـــة والمتصارعة أيضا . وعلينا ان نتذكر صراعات أمريكـــا اللاتينية ، وجنوب شرقى آســـيا والشرق الأوسط كأمثلة لا تخطئها العين(٣٣) . الى جانب ذلك

قد يصبح الاحباط الذى تعانيه الجماهير فى مجتمعات العالم الثالث عاملا اساسيا من عوامل عـــدم الاستقرار السياسى . فامام الموارد المحدودة قد تحاول الصفوة السياسية تعبئة الجماهير من خلال وعود الاشـــباع المحتمل ، واذا كان من شأن هـــذه الوعود أن تطلق عقال الحاجات فان عـــدم الوفاء بالاشباع سوف يخلق فجوة لا يملؤها سوى الاشباع الذى قد يعجز النظام السياسى عن توفيره بالمســتوى الملائم او بالعنف الذى تنجزه الجماهير ضد النظـــام السياسى لتجاوز الفجوة . بطبيعة الحال قد يتزايد التوتر اذا كانت ظواهر فســـاد سياسى وادارى ، أو أن ثمة نظام سياسى غير محدد الاتجاه أو الحركة(٣٤) . بالاضافة الى ذلك هنـــاك التنمية المشوهة ، التى تؤسس حالة دائمـــة من عـــدم الاستقرار داخل مجتمعات العالم الثالث . فغالب مشروعات التنمية بهـــذه المجتمعات تتركز فى السياقات الحضرية أساسا او ربما العواصم الاساسية (*) . ربما كان ذلك لسبب توفر البناء التحتى الملائم لتاسيس مشروعات التنمية ، او خوفا من الدهماء الحضرية أو لتوفر الكوادر الفنية لتشغيل هـــذه المشروعات ، أو لأن السياق الريفى من التخلف بحيث يعجز عن استيعاب آية مشروعات جديدة . غير ان النتيجة المنطقيـــة لهـــذا النوع من التنمية انه يخلق ريفا طاردا لســـكانه وحضرا يتجه اليـــه هـــذا الفائض البشرى برغم امكانياته المتواضعة فى اطار هـــذه العملية تندفع موجات من البشر ، يحتلون أطراف المدن ، ويؤسسون ما يمكن أن يسمى بمدن الصفيحة والاكواخ Shanty town . حيث توجد هـــذه الأحياء فى القاهرة وطهران وسنغافورة وبرازيليا وريودى جانيرو(٣٥) . ويصبح ســـكان هذه الاكواخ هم فتيل العنف الحضرى الذى قـــد يوجـــه الـــى النظـــام السياسى الذى تتكثف مؤسساته بالسياق الحضرى . فوطأة مشـــكلات الحضر تكون اكثر حدة وتأثيرا على سكان هذه الاحياء المتخلفة** .

---

* فمثلا فى المجتمع المصرى نجد أن ٧٠٪ من النشـــاط الاقتصادى اسس فى مدينتى القاهرة والاسكندرية ، وان ٩٠٪ من النشـــاط الاقتصادى فى مرحلة الانفتاح الاقتصادى تركزت بمدينة القاهرة وحدها .

** يلاحظ أن أحداث ١٨ ، ١٩ ينـــاير ١٩٧٧ فى مدينة القـــاهرة قام بها ســـكان الأحياء الشـــعبية والمتخلفة ، ونجد ايضا أن معظم الذين شاركوا بفاعلية فى أحداث الثورة الايرانية ، خاصة فى أكثر فتراتها عنفا ، هم فقراء المدينة فى طهـــران الذين هاجروا من الريف حديثا . وواجهتهم مشـــكلات المدينة بكل وطأتها على حياتهم الشخصية مما أصابهم بقدر عال من الاحباط ، والتوتر ، ومن ثم العداء للنظام الاجتماعى والسياسى القائم .

وتعتبر الانقسامات البنائية التى يعانى المجتمع منها أحـد العوامل الهـامة لحالة عـدم الاستقرار الاجتماعى . ومن الواضـح أن مجتمعات العالم الثالث فى غالبها تعانى من هـذه الانقسامات البنائية وذلك بسبب الأقليات العديدة القائمة فى هـذه المجتمعات ، سواء كان العامل الدينى أو العرقى أو اللغوى هو أساس هـذا الانقسام البنائى . اذ انه من المحتمل أن يؤدى هـذا التكوين البنائى الى العنف خاصـة اذا تحددت هوية هـذه الجماعات ومصالحها ومكانتها بالنظر الى الجماعات الأخرى ، واذا كان النظـام السياسى ضعيفا ، بحيث يقيم ضعفه بروز قوة أى من هذه الجماعات واستثارة الأخرى ، أو أن النظـام السياسى ضعيفا بالقـدر الذى يعجز فيه عن فرض أى التزام لشرعيته على الجماعات المتباينة أو المتناحرة . وفى العادة تتعمق المشـاعر المؤكدة للعنف كلما كان الطابع الجماعى أو العائلى هو الطابع المميز لبناء المجتمع ، أو اذا حاول النظـام السياسى اسـتغلال التباينات بين هـذه الجماعات لكى يؤكد وجوده وشرعيته (*) .

ويعتبر اهتزاز بناء القوة فى المجتمع أحـد العوامل الأساسية لاشاعة حالة من عـدم الاستقرار(٣٦) ويتحقق اهتزاز بناء القوة اذا كانت هنـاك صفوة سياسية حاكمة فى مواجهة جماهير عريضة غير مشاركة فى النظـام السياسى القائم ، وربما متوترة من وجوده ومعادية له . بحيث قد يؤدى ذلك الى انعزال النخبة الحاكمة وأحيانا الى محاولتها القهر لاخضاع الجماهير ، التى قد تعنف كرد فعل لذلك ، خاصـة اذا كانت تعانى من الحرمان ، وتواجه المشـكلات العديدة فى كافة المجالات التى تتفاعل يوميا فى اطارها . فاذا امتلكت هـذه الجماهير القيادة الواعية سياسيا ، فان ذلك قد يوجه عنفها للاحاطة بالنظـام السياسى ذاته ، يؤكد ذلك ان العالم الثالث هو عالم الانقلابات والشرعية غير المستمرة .

(*) يمكن اعتبار النظام السياسى فى مصر فى ١٩٧٠ — ١٩٨٠ والنظام السياسى الحاكم فى ايران فى الفترة السـابقة على الثورة الايرانية من النظم السياسية التى أدى تعاملها مع قضية الأقليات الى اشاعة حالة من عدم الاستقرار فمثلا كان نظام الشاة فى ايران عاجزا مما فرض الالتزام السياسى والاجتماعى على الأقليات القومية والعرفية ، وحاول النظـام السياسى فى مصر خلال هذه الفترة استغلال الجماعات الدينيـة بضرب جمـاعات ذات توجهات أيديولوجية معينة .

ومن الطبيعى أنه اذا كانت مجتمعات العالم الثالث تشـــهد فاعلية كل هـــذه العوامل المؤثرة على حالة الاستقرار داخل هـــذه المجتمعات . ومن الطبيعى إن يؤثر غياب الاستقرار على الأوضاع التنموية داخل مجتمعات العالم الثالث ، وهو الأمر الذى يفرض علينا التأكيد بأن غياب الاستقرار عن مجتمعات العالم الثالث يعتبر أحـــد العوامل المؤسسة لتخلف العالم الثالث وايضا أحـــد مظاهر هـــذا التخلف .

ويمكن القول بأن طبيعة الشخصية فى العالم الثالث وان كانت نتاجا للتخلف الذى يسود هـــذا العالم ، الا أنها أصبحت بمنطق التغذية الخلفية أحـــد عوامله أيضا . وبدون تكرار لطبيعة الظروف التى يعيش فى اطارها العالم الثالث ، فان شخصية البشر فيه أصبحت تعانى من خصائص تخلف كثيرة . فارتفاع نســبة الأمية التى قد تصـــل الى ٩٦٪ (٣٧) فى بعض المجتمعات يعوق عمليـــة نمو الوعى بأهداف التنمية وربما بمساراتها أيضا ، ومن ثم تخلف المشـــاركة فى تجسيدها . وتخلف المشـــاركة تعنى السلبية ، وهـــذه بدورها تعنـــى العزلة . دائرة مفرغة يدور فيها انســـان العالم الثالث ، وهو فى ذات الوقت ضحية لها • ويعتبر تردى الشـــئون الصحية وانتشـــار أمراض سواء التغذية سببا فى ضعف الانتاجية(٣٨) ويـــؤدى ضعف الانتاجية الى ضعف الدخل ، ثم انخفاض مستوى المعيشة ، ثم ضعف الانتاجية وانخفاض التغذية من جديد . دائرة جديدة مدمرة يدور فيها انســـان العالم الثالث . ويعتبر انخفاض المشـــاركة الاجتماعية والسياسية أحـــد الخواص المميزة لانسان العالم الثالث . وقد يكون غياب القيم أو التوجيهـــات المشـــتركة بين البشر من ناحية والنظـــام السياسى من ناحية أخرى أحـــد العوامل المؤسســة لتشتت الحـــركة وابتعادهما عن الالتقاء والتفاعل الذى ينبغى أن يكون بينهما قد يحاول النظام السياسى بالقهر تارة ، أو بالخداع تارة أخرى أن يدفع الجمـــاهير الـــى المشـــاركة • غـــير أن الدعـــوة الصحيحة الى المشـــاركة ينبغى أن تســـتند الى وعود جوهرية بالاشباع . ومرة ثالثة تكون فى مواجهة الدائرة المدمرة والداعية الى التخلف .

بالاضافة الى ذلك نجد أن الشخصية فى العالم الثالث حائرة بين خلفيتها ذات الطبيعة الجماعية والعائلية حيث تكوينات القبيلة والعائلة الممتدة من ناحية ، وبين الفردية كمطلب للنظـــام السياسى على الطريقة الغربية من ناحية أخرى . فى مثل هـــذا الموقف لابد أن يعانى الانســـان من ظاهرة

الولاء المزدوج أو المتناقض أو المتصارع . يعانى الانســـان فى العالم الثالث أيضا من الانفصال عن سياقه الاجتماعى والسياسى — خاصة اذا أصاب حظا من التعاليم — وقد ينفصل البعض عن سياق موليا وجهه شطر التحديث على الطريقة الغربية ، بينما البعض الآخر منفصل تراوده أحلام عظمة التراث . بينما البعض الثالث منفصل لكنه لا يجد ايمانا يتوجه اليه ومن ثم يعيش فى قلب غير مبال ، وغير منتم وعلى خصومة دائمة مع مجتمعه . ويزداد الأمر سوءا حينما يتحول الواقع والنظـــام السياسى المسيطر عليه ، الى مصادر لافراز مشـــكلات يواجهها الانســـان بدلا من كونها هياكل تســـاعد على حل مشـــكلاته وتيسر اشـــباع حاجاته . بعد ذلك هل يمكن أن نتوقع من هـــذا الانســـان اندفاعا واعيا وايجابيا نحو تجسيد التنمية على أرض واقعة بحثا عن نموذج التقدم فى المستقبل ؟ لا شك أن ذلك يعتبر أحـــد عوامل تخلف العالم الثالث .

يعتبر التركيب الديموجرافى للعالم الثالث هو الآخر أحـــد عوامل التخلف . ويكشف البحث فى ديموجرافيا العالم الثالث أن الشـــباب يشكلون غالبيته الديموجرافية (اذ تصل نسبة الشـــباب فى مصر مثلا الى نحو ٥٨ ٪) . هـــذا بالاضافة الى ضخامة فئة صغار السن ، وذلك بسبب الثورة الصحية فى أوروبا والتى انتقلت آثارها الى العالم الثالث . ومن الطبيعى أن يكون لهذا التركيب الديموجرافى وطأته على بناء المجتمع وتنميته اذا لم تتخلق الأطـــر التنظيمية القادرة على الاستفادة منه . فوجود الصغار بكثافة ديموجرافية يتحول الى احتياجات لابد أن تشبع ، كالحاجة الى المدارس والمستشفيات والملبس والطعام ، وهى اشباعات تضيف أعباء هائلة على موارد التنميـــة المحدودة . وتعنى التخمة الديموجرافية فى شريحة الشـــباب الحاجة الى فرص العمل ، الى الدخل الملائم ، الى المشـــاركة الحقيقية الفعالة فى حركة المجتمع ، وأيضا الى الزواج والمســـكن الملائم(٣٩) . فاذا واجـــه الشـــباب مشكلة فى أى من هـــذه المجالات ، فانه سوف يتحول الى طاقة مضـــادة لمتطلبات المجتمع . فاما أن ينسحب طاويا نفســـه على حرمانه وحاجاته غير المشبعة ، طاويا نفســـه على توتر دفين وقطعية محتملة ، أو أنه — اذا فاض به الكيل — الحثيث لمواجهة مشكلاته بالواقع . أو أنه قد يفقد الاهتمام باللعبة كلية فيصاب بمرض افتقاد الولاء وعـــدم الانتماء . يهرب من وطنه الذى عجز عن الاستفادة من طاقته ، طالبا العمل فى مجتمعات

أخرى تسعى لنيل اسهامه . وفى هـذا الصدد تتمثل المعضلة التى تعيشها مجتمعات العالم الثالث ، أنه بينما كان ينبغى أن تنظر هـذه المجتمعات — بحكم تكوينها الديموجرافى — الى المستقبل وتسعى جاهدة اليه نجدها غارقة فى مشـكلة الحاضر تسودها خصومات عديدة بين النظـام السياسى والجماهير تارة ، بين الشباب وبعضهم البعض تارة أخرى ، بين الشباب والشيوخ تارة رابعة . قد تأخذ هـذه الخصومات شـكل التوتر المكتوم الذى يعوق عن المشـاركة الواعية والمخلصة فى عملية التنمية ، وقد تصبح صريحة تتخذ مظاهر العنف والتظاهر ، وهى بذلك تقضى على منجزات التنمية .

* * *

ثالثا : مازق العالم الثالث
الأبعاد الاجتماعية والثقافية

استنادا الى ما ورد فى الصفحات السـابقة ، ومن متابعة العالم الثالث من حيث واقعه البنائى وخصائصه وطبيعة التفاعلات التى تسود فى اطاره ، يتأكد لنا ان هـذا العالم يعيش مأزقا حضاريا يلمس أساس وجوده وعناصره البنائية المكونة . ومما لا شك فيه أن هـذا المأزق صنعته عوامل عديدة ، وسوف تكون له مظاهر أو نتائج عديدة ايضا .

فبرغم النضال الذى قاده هـذا العالم ضد قوى الامبريالية العالميـة بحثا عن الاستقلال ، غير أنه حينما منح هـذا الاستقلال تعثرت خطاه وبدا وكأنه لم يعد نفسـه لهذه المرحلة . ومن ثم فهو لم يحدد بوضوح أهداف ما بعد الاستقلال ، وما هو الأسلوب الأمثل لتحقيق هـذه الأهداف . ومن المدهش أن هذا العالم امتلك درجة عالية من التماسك الداخلى خـلال مرحلة النضال ، غير أن هـذا التماسك أصابه الضعف والانهيار فى مرحلة ما بعد الاستقلال ، ومن الطبيعى أن تكون لهذه الحالة عوامل وآثار .

برغم ان هـذا العالم حضارى فى غالبه ، ومن ثم فقد كان من المنطقى أن تكون مقولاته الحضارية والتراثية هى التى توجـه تطوره فى الحاضر والمستقبل ، بحيث يصبح هـذا التطور عضويا وانبثاقيا له جذوره وعناصره داخل بنيته ، غير ان ما حدث أنه حينما تعرض لمؤثرات الحضارة الغربية ،

وعوامل انتحديث المنطلقة منها لم يستطع أن يطور اطاره الحضارى للتعامل مع المتغيرات الجديدة ، وفى ذات الوقت عجز عن استيعاب أكثر قيم الحضارة الغربية ايجابية ، حتى يمكن أن تشكل اضافات ايجابية فى بنائه الحى والفعال والمستمر . بحيث أسلمه هذا العجز الى حالة من الدوار أخذ يدور فى اطارها حول نفسه حتى سقط فى أسر التبعية من جديد . ولعل امتلاكه لمنطوقه قيمية تراثية — كان يمكن أن تكون هى الهدف الأساسى للتطوير — أحد معوقات هذا الاستيعاب . أو لأن القيم التى وفدت لم تكن هى القيم الفعالة التى صنعت التقدم الغربى . المؤكد ان هذا العالم يعانى الآنى حالة دائمة من الصدمة الحضارية المستمرة ، لا يستطيع خلالها أن يعود الى تراثه غير المطور ، وفى ذات الوقت لا يستطيع التخلى عنه أو تبنى قيما غربية ليس لها جذورا لديه ، بل انها قد تتناقض مع مسلماته .

من الواضح أن هذا العالم يمتلك وفرة سكانية كان من الممكن أن تتحول لديه الى سواعد دافعة للتنمية بأقصى ما تكون السرعة والاندفاع . غير أنه لعجز الأنظمة السياسية وخمول الأجهزة البيروقراطية ، تحول السكان لديه الى أفواه تحتاج الى الطعام والمسكن والعمل ، أو طاقة عمل عاطلة ، اما لانها غير مؤهلة ، أو لانها تفتقد وسائل العمل الملائمة التى عجز تراثها عن تطويرها ، أو لأنه يفتقد التحويل اللازم لذلك . وحتى اذا امتلك — كالحال بالنسبة للبلاد البترولية — فالتكنولوجيا المتقدمة ليست مطروحة للبيع فى أسواق العالم ، وانما هنالك تعقيدات ومحاذير سياسية تعوق انتقالها من الشمال المتقدم الى الجنوب المتخلف .

الى جانب ذلك نجد أن هذا العالم برغم أنه يضم ٧٠٪ من سكان العالم ، ومن ثم فقد كان من المنطقى — حسبما تذهب اليه القسمة العادلة — أن يمتلك ٧٠٪ من ثروات العالم بحرا وجوا ويابسا . ومع ذلك يؤكد واقعه أنه عالم محروم مقهور تفرض عليه التبعية ، وعليه أن يعانى ظروف الفقر ، حيث تعيش نسبة عالية من سكانه تحت خط الفقر ، وتتناقض مستويات دخوله الفردية — برغم الشعارات البراقة — مع اعلانات نظمه السياسية التى تؤكد على ارتفاع معدلات اجمالى الدخل القوى فى مجتمعاته(٤٠) .

المؤكد ان هـذا العالم يمتلك وفرة من الموارد ، لكنه لا يتمتع بقدرة احتكارية تجعله قادرا على السيطرة على السـوق العالمى لكى يفرض رواجا لمنتجاته ، بما يجعل لهذه الموارد عائدا دافعا للتنمية . غير أننا على العكس من ذلك نجده يعانى من ظاهرة تبديد الموارد ، وتخريب بيئة انتاجه ، بمساعدة من العالم المتقدم . يؤكد ذلك حجم اسـتهلاك الغرب للبترول قبل أزمة الطاقة فى عام ١٩٧٣ وبعده .. اسـتنادا الى ما سبق يمتلك هـذا العالم موارد بلا حدود يمكن أن تسـاعده على النهوض والتقدم ، لديه السـكان ، ويمتلك امكانية تأهيل البشر من أجل المشاركة الفعالة والواعية . يمتلك هذا العالم الثالث المادة الخام ، ويمتلك امكانية معالجتها اقتصاديا ، ومع ذلك فسكانه عبىء عليه ، وموارده موضع سلب وتبديد ، فهو علم حائر استقل منذ ثلاثة عقود ، ومع ذلك لم يعثر على طريقة بعد .

استخلاصا مما سبق ثمة مأساة يواجهها هـذا العالم الآن ، لها أبعاد كثيرة . فهو عالم ناضل — متماسكا — من أجل الاستقلال وحينما حصل عليه وجد نفسـه يعانى من التشرذم وفقد الايمـان وضياع الالتزام والاستقرار ، ونقص الموارد فى مواجهة متطلبات التطـور وكثافة الاحتياجات ، يتأرجح فى تنميته بين الرأسـمالية ، غير أن البراجوازية والمشروع الخاص لديه يفتقدان الرشد والرؤية المستقبلية باعتبارهما أهم خصائص نجاح المشروع الرأسـمالى ، تحاول صفواته — عن انتماء جماهيرى أحيانا أو تأكيـدا للشرعية فى أحيان أخرى — أن تسلك طريق التنمية الاشتراكية بالتخطيط ، غير أنه يفتقد الايمـان أو الالتزام بالمثل الاشتراكية وكذلك الممكنات التى تيسر تجسيد الخطة . والنتيجة أن هـذه المجتمعات عجزت حتى الآن عن تأسيس تنمية حقيقية . واستطرادا لتلك فقد خرج هذا العالم من دائرة الاستعمار فى الخمسينات ، واستهلك الستينات والسبعينات متلكئا يعانى من حالة التشرذم وعـدم الاستقرار ، وجاءت الثمانينات لكى يجد مكانا لنفسه على هوامش أو أطراف النظـام العالمى ، حسبما يذهب أدب التبعية ، ولذلك مقدمات وتاريخ ونتائج .

فاذا اتفقنا على أن العالم الثالث — كمجموعة من المجتمعات — يواجه أزمة ، فاننا لا نستطيع القول بأن هذه الازمة من صنع النظام العالمى ، كما أن هـذه الأزمة بالتأكيد ليست نتاجا لظروفه وتفاعلاته الداخليـة .

وانمــا هى خليط بين العنصرين معا . ولعل ذلك يتضح اذا نحــن حاولنا استكشاف الأبعــاد الأساسية لأزمة العالم الثالث من خــلال عناصرها الأساسية التاليــة :

١ ــ الأزمة ، أبعادها الثقافية والأيديولوجية .

٢ ــ الجوانب الاقتصــادية لأزمة العالم الثالث .

٣ ــ المظــاهر السياسية لأزمة العالم الثالث ..

٤ ــ أزمة التنمية في حوار الشمال مع الجنوب ..

وسوف نحاول فيما يلى التعرض بايجاز لكل من هــذه القضايا السابقة :

١ ــ الأزمة ، أبعادها الثقافية والأيديولوجية :

تشــكل الثقافة أحــد المكونات الأساسية للبناء الاجتماعى . وتتكون الثقافة من مجموعة القيم والمعتقدات والاتجاهات والعواطف التى تخلع معنى محددا على العملية الاجتماعية ، والتفاعل الذى يضم مختلف السلوكيات الفردية والاجتماعية . هــذا الى جانب ان الثقافة عادة ما تقــدم مجموعة القواعد والمعايير التى تحكم السلوك فى اطار مختلف المجالات الاجتماعية . وتعتبر الثقافة نتاجا لبعدين أساسيين ، الأول أنها نتاج لتراكم تاريخى يعيش عبر أجيال عديدة ، ويضيف كل جيل اليها ويلغى منها ، ومن ثم تختلف المجتمعات من حيث امتلاكها لنسق ثقافى وحضارى قادر وفعال بالنظر الى أعمارها التاريخية ، وبالنظر الى ما يقع من تفاعل اجتماعى داخل هــذا التاريخ . أما الثانى فهى نتاج لبعد معاصر ، فالثقافة فى جانب منها هى نتاج للتفاعل الاجتماعى القائم ، وبرغم كونها نتاجا للتفاعل ، الا أنها بمجرد تشــكلها فانها تتحول الى هــذا التفاعل لتشــكله حسب قوالبها الخاصة وتضبط سلوكياته وتدفعها فى اتجاهات محددة(٤١) .

وفى العادة تضم الثقافة ثلاثة عناصر أساسية العنصر الأول هو العنصر الادراكى وتضم مجموعة القيم والأفكار والمبادىء التى تساعدنا فى الادراك الموضوعى للعالم المحيط بنا وما يتضمن من مكونات . والعنصر التقويمى وهو العنصر الذى يضم مجموعة القيم والأفكار والمبادىء التى تســاعدنا فى

التفضيل بين الأشياء التى يمكن أن تشبع ذات الحاجة الواحدة ، ثم العنصر الوجدانى وهو العنصر الذى يساعدنا فى تشكيل الاتجاهات السلبية أو الايجابية نحو العالم المحيط بنا أو أى من مكوناته(٤٢) . وتصبح الثقافة المتعلقة بمجتمع معين كاملة اذا هى تضمنت العناصر الثلاثة السابقة بداخل بنائها وتصبح ثقافة ناقصة اذا لم تتوفر بها العناصر الثلاثة أو وجد أى من هذه العناصر بحجم أكثر أو أقل داخل بناء الثقافة وتختلف المجتمعات عن بعضها البعض فى سيادة أى من هذه العناصر على العناصر الأخرى المكونة لبناء الثقافة والقيم .

وعادة ما تتواجد الثقافة والقيم داخل ساحة التفاعل الاجتماعى فى اطار ثلاثة أشكال أساسية . الشكل الأول : هو الشكل الثقافى والقيمى الخالص ، حيث يمتلك المجتمع مجموعة القيم والأفكار والمبادىء التى تشكل روح هذا المجتمع ، والتى تجعل ثمة خلاف بين مجتمع وآخر ، وعادة ما يكون هذا الشكل هو أكثر أشكال الوجود الثقافى تجريدا ، أو يحتوى على القيم والمبادى الأكثر تجريداً وعمومية . وتعتبر المعايير والقواعد الضابطة للتفاعل الاجتماعى هى الشكل الثانى الذى تتخذه الثقافة ، بيد أنه هذه المرة أكثر اقترابا من الواقع المادى المتفاعل للانسان ، وأقل تجريدا ، فكل جماعة ليست العرف والقواعد القانونية والمعايير التى تنظم التفاعل الاجتماعى داخل نطاقها ، وعادة ما يكون هذا الشكل انعكاسا للشكل الأول ولكن فى اطار مختلف المجالات الاجتماعية ، أو قد يكون مشتقا منه ، أو تجسيدا ماديا لتجريداته النظرية . هذه فى حين تتوافر الثقافة فى اطار الشكل الثالث باعتبارها أحد مكونات البناء الدافعى للانسان ، من خلال استيعاب الفرد للمكون القيمى للثقافة بواسطة عملية التنشئة والتطبيع التى تؤديها مؤسسات اجتماعية مختلفة .

وعادة ما يكون السلوك الاجتماعى الذى يؤديه الانسان فى المجتمع محكوما بهذه الاشكال الثلاثة التى تتخذها الثقافة ، فالانسان الفرد يأتى سلوكا محددا سعيا وراء تحقيق هدف أو تجسيد قيمة معينة ، وهنا يستند الفرد فى سلوكه الى المكون القيمى والثقافى بداخله . فاذا أصبح السلوك له وجوده الخارجى ، فانه عادة ما يكون محكوما بالقواعد والمعايير والأعراف التى يرتضيها المجتمع ، هذه المعايير والأعراف تحدد سواء

بالنظر الى قيم المجتمع وثقافته باعتبارها محكا أو مقاييس للسلوك .

وفى العادة تمتلك الأنساق الاجتماعية المستقرة ثقافة متجانسة .. ويتحقق هذا التجانس بالنظر الى وجود أتفاق داخل نطاق الثقافة حول الوظائف والحدود الملائمة . وبالنظر الى ذلك يتم تنشئة وتدريب كل جيل حسب خبرات الجيل السابق عليه بالاضافة الى ما يستجد داخل اطار الذاكرة المشتركة التى لها جذورها فى تراث الماضى(٤٢) .

وتتنوع مؤسسات التنشئة الثقافية على قيم الثقافة ومبادئها من الأسرة الى المدرسة الى المؤسسة الدينية الى وسائل الاعلام ، هذا الى جانب كبار السن حملة التقاليد فى المجتمع . بحيث تعمل كل هذه المؤسسات على تدعيم فاعلية بعضها البعض وتتباين أهمية أى من وسائل التنشئة الاجتماعية بالنظر الى الوسائل الأخرى حسب طبيعة السياق الاجتماعى ، ومدى انتشار الجماعية أو الفردية فيه . غير أنه بغض النظر عن طبيعة الثقافة والوسائل التى تتبع لكى يستوعب الأفراد من خلالها قيم الثقافة ومبادئها ، فانه يمكن حصر أزمة الثقافة فى الجوانب الأساسية التالية .

(١) ويعتبر الصدام بين ثقافة التحديث من ناحية والثقافة التقليدية من ناحية أخرى احد جوانب أزمة بناء الثقافة والقيم فى مجتمعات العالم الثالث . وحسبما يذهب منظرو الغرب فان التنظيم والاتجاهات التقليدية المنبثقة عن الماضى عادة ما تشكل معوقا خطيرا أمام أى جهود فعالة للتنمية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وقياسا على المجتمعات الغربية ، نجدهم يؤكدون أن قيم الديانة الكاثوليكية التى تعتنقها الشعوب الهندية ، أو تلك التى اعتنقتها الأرستقراطية الزراعية قد أسهمت الى حدكبير فى تأسيس أنماط لا عقلانية للسلوك ، أعاقت الى حد كبير عملية التحديث . وفى هذا الصدد يؤكد سيمور ليبست S.M.Lipset مستندا فى ذلك الى أدبيات تالكوت بارسونز ومالكيلاند D.McCelland ذلك بقوله :

(يمكن أن يعزى الفشل النسبى لأفكار أمريكا اللاتينية فيما يتعلق بتحقيق التنمية معدلات بتلك التى تحققت فى أمريكا الشمالية واستراليا فى جانب منها الى اختلاف الأنساق القيمية السائدة فى كل من هذه المناطق .

فالأنساق القيمية التى سادت بريطانيا والتى انتقلت منها عبر البحار ، تعتبر مشتقة أساسا عن الأخلاق البروتستنتية ، وأيضا من التفاعل الذى وقع فى اطار بناء (المجتمعات الجديدة) ، وفى هذا الصدد تغيب تماما القيم الاقطاعية المتعلقة بالعزوة . فى مقابل ذلك نجد أن أمريكا اللاتينية تسودها قيم مشتقة أساسا عن الديانة الكاثوليكية . بحيث ساعدت الصفوة الحاكمة على دعم انتشـــار هذه القيم من خــلال خلق بناء اجتماعى تتلاقى فيه هـــذه القيم مع القيم الاجتماعية ذات الطبيعة الاقطاعية) (٤٤) .

ويحاول ليبست أن يفسر التخلف الاقتصادى باعتباره نتيجة لافتقاد القيم التى تؤكد على نشـــاط المقاولة أو تأسيس المشروعات . فقد أدى غياب القيم المدعمة للنشـــاط الآدائى ، أو العملى ، وتوجيهات الانجـــاز المتدنية ، وادانة كل ما هو مادي وبراجماتى الى انخفاض مستويات المخاطرة فى قطـــاع المشروعات الموجهة أساسا نحو المنافسة الرشـــيدة ونجاح المشروع البيروقراطى . الى جانب ذلك ســـاعد النظام التعليمى على تعقيد هـــذه المشكلة عن طريق استمراره فى تطبيع البشر على توجهات غير ملائمة للتنمية . (وحتى فى الأرجنتين ، وهى البلد الثانى الأكثر نمواً فى أمريكا اللاتينية ، فاننا نجد أن ارستقراطية الأرض التقليدية تحتقر العمل اليدوى والنشـــاط الصناعى والتجارى ، ومن الطبيعى أن يكون لذلك تأثير على فاعلية وقيم النظام التعليمى الذى يضم الآلاف من التلاميذ) (٤٥) . بل اننا نجد ليبسب ـــ من خـــلال استعراضه لعديد من الدراسات المقارنة التى أجريت فى أمريكا اللاتينية ـــ يصل الى تأكيد أن القيم الثقافية تعتبر أحد العوامل الهامة المؤثرة على احتمالات التنمية الاقتصادية فى هـــذه القارة(٤٦) .

ويدعم سلفرت K.H.Silvert ـــ أحد كبار مفكرى أمريكا اللاتينية حين يؤكد أن وطأة القيم التقليدية لا تقتصر فقط على اقتصاد أمريكا اللاتينية ولكنها تؤثر أيضا على انجازها السياسى . ثم يوضح أن خبرة أمريكا اللاتينية فى هـــذا الصدد يمكن الحكم عليها بالنظر الى ما يحدث فى الأقطار المتقدمة ، ثم نجده يتساءل فى مقال حديث له (ماذا يمكن أن يفعل المرء لدفع التنمية غير أن يحددها من خـــلال اختيار خصائص معينة توجد فعلا فى الأقطار المتقدمة وينبغى أن تحكم التنمية المنشودة فى اقطار أمريكا اللاتينية ؟) . وعلى اســـاس من المقارنة الضمنية بين ما يحدث فى مجتمعه من ناحية

والمجتمعات الأخرى من ناحية ثانية نجده يذهب الى القول (بأن هنـــاك شيئا ما فى نوعية الانسان والثقافة فى أمريكا اللاتينية تجعل من الصعب أن يصبح الانســـان وثقافته ذو توجهات حديثة . وهـــذا الشيء هو الذى جعل هـــذا الجزء من العالم العالم الغربى أكثر استهدافا لتجاوزات الأوغاد ، وغير رشيد من الناحية السياسية ، وفى محاولاته للنمو الاقتصادى) (٤٧) .

ويتفق مع ذلك ما يذهب اليه سكوت R. Scott أحد مفكرى أمريكا اللاتينية حينما يعبر عن ذات العواطف مؤكدا (عجز الأبنية السياسية فى أمريكا اللاتينية عن أن تؤدى دورها كآليات ذات كفاءة وقدرة على اعادة التكامل ... ثم يذهب الى ان الحل يكمن على المدى الطويل فى ضرورة تغيير نسق القيم الذى يعتنقه البشر فى هذه المنطقة) (٤٨) . (ذلك أن هنـــاك اطارا ثقافيا وتحصليا له طابعه التقليدى يسود الآن فعلا أمريكا اللاتينية)(٤٩) .

واذا كانت هـــذه الافتراضات الســـابقة والتى حاولت العثور على مفتاح تخلف أمريكا اللاتينية فى قيمها الثقافية وهى الافتراضات التى اتخمت الفكر التنموى لحقبة الستينات وشكلت تيارا فكريا تجســـد فى عديد من الكتب المدرسية(٥٠) . فاننا نجد أن هذه الافتراضات قد شهدت تجديداً لهـــا فى كتابات عدد من المفكرين الذين ينتمون أساسا الى الولايات المتحـــدة الامريكية والذين حاولوا تفسير الملامح الاجتماعية والاقتصادية وخاصـــة السياسية لأقطار أمريكا اللاتينية من خـــلال التأكيد على دوام القيم الكاثوليكية والتومائيـــة ، وهى القيم التى تدعم السياسات الســـلطوية وتدين القيم الديموقراطية والليبرالية ، بحيث يمكن اعتبار هذه القيم والاتجاهات نتاجـــا (لتراث محدد) . ويدعم هـــذا المعنى واردا H. Wiarda حينما يذهب الى القول بأن أمريكا اللاتينية ليبريا بقيتا دون أن تمسها الحركات الثورية ـــ على المستوى الاجتماعى أو الاقتصادى أو السياسى أو العقلى ـــ وذلك لأنهما ظلتا محبوستان داخل نطاق أنماط القيم والنظم التقليدية التى أخـــرت النمو وعاقته) (٥١) .

واذا كان ذلك هو تشخيص التخلف فى العالم الثالث ، من خلال تأكيد بعض المفكرين على أسبابه باعتبارها تكمن فى نسق القيم التقليدية السائد . وبغض النظر عن اتفاقنا أو اختلافنا مع هـــذا التشخيص ، فاننا نجد أن

مفكرى هـــذا الاتجاه ذهبوا الى أنه من الممكن تحديث الثقافة من خـــلال ثلاثة مداخل رئيســـية :

١ ـــ ويعتبر المدخل الأول أكثر وجهات النظر شـــيوعا فى دوائر بعض المنظرين الاقتصاديين ورجال الادارة الاستعمارية وهم يرون امكانية تغيير القيم التقليدية من خـــلال تدريب البشر على المهارات والأساليب التى تعتبر هامة بالنسبة للمجتمع الحديث . ويؤكد أصحاب هـــذا المدخل على أن تغيير القيم يعتبر أحـــد مجالات تأثير السياسة العـــامة ، من خلال مؤسسات التعليم والتدريب الرسمى على المهارات (٥٢) بيد أن هـــذا التفكير وان كان صالحا لفهم امكانية اكتساب الانســـان فى المجتمع المتخلف لبعض المهارات وأساليب الانجاز الجديدة الا أنه غير صالح على الاطلاق لتغيير نسق القيم الســـائد ذو الطبيعة التقليدية .

٢ ـــ واذا كان المدخل الأول قد ركز على الجوانب الآدائية والبراجماتية كمدخل لتغيير الثقافة والقيم التقليدية . فاننا نجد أن المدخل الثانى قد ركز على الانسان أو ما يسمى البعد البشرى للتنمية . ويهتم هـــذا المدخل بالبعد السيكولوجى الذى يضم الدوافع والطموحات والأهداف الخاصـــة بالأفراد وذلك كمسلمة أساسية . وتتمثل المســـلمة الثانية فى أن كل من الانســـان الحديث والتقليدى يمكن دفعهما للمشاركة بقوى مختلفة ، وذلك لأن كلا منهما له مجموعة متباينة تماما من الأهداف على المســـتوى الشخصى والاجتماعى يسعى عادة لتحقيقها . وفى هـــذا الصدد يلاحظ كل من هيجان Hegan وماكليلاند أن البشر فى المستويات الاجتماعية ـــ الاقتصادية المنخفضة عادة ما تدفعهم الاعتبارات الدينية والثقافية وغير المـــادية ، بينما نجد أن البشر فى المجتمعات المتقدمة تدفعهم الاعتبارات الاقتصادية ويجدون اشباعا سيكلوجيا من خـــلال قدرتهم على ابداع كل أساليب التنمية (٥٣) .

٣ ـــ ويركز المدخل الثالث لتحديث الثقـــافة على الجوانب التنظيمية وهو مدخل يتصل الى حد كبير بمعطياه التحليـــل النفسى ، ويؤكـــد هـــذا المدخل على قدرة الحراك العقلى والانتقال بين الأدوار المتباينة باعتبارهما من أهم خصائص الانســـان الحديث (٥٤) . وبذلك تعنى التنمية من وجهة نظر هـــذا المدخل القدرة المتزايدة على تنظيم البشر فى اطار تنظيمات فعالة ،

وأيضا القدرة على تأسيس الأبنية المعقدة . وذلك يعنى أن التنمية السياسية والاقتصادية سوف تتضمن الانتقال من القيم والعواطف التي تضم البشر مع بعضهم فى المجتمعات والبناءات التقليدية الى تلك القيم والعواطف الملائمة للبناءات والمجتمعات المتقدمة (٥٥) . وهو ما يعنى أن المجتمعات المتقدمة تتطلب تأسيس أبنية وترابطات وتنظيمات لا تستند الى الأسس القائمة .

وبغض النظر عن الاختلاف الذى افترضه أصحاب هذه المداخل بينها ، فانها تعتبر مجرد زوايا لرؤية أساسية واحدة تتمثل فى ضرورة العمل على احلال الثقافة الغربية الحديثة محل الثقافة التقليدية المحلية والقديمة . بيد أننا لنا على هذه الرؤية بكاملها بعض الملاحظات الأساسية .

أول هذه الملاحظات أنها تدخل الى التنمية وتغيير الثقافة التقليدية مدخلا جزئيا ، فالتدريب على بعض المهارات أو تغيير الدافعية الفردية او الاتجاه الى تأسيس التنظيمات المعقدة تعتبر كلها زوايا جزئية للتغيير ، فى حين أن التنمية الحقيقية للمجتمع التقليدى ينبغى أن تتصف بالشمول ، أى تتضمن تغييرا شاملا يؤثر على الثقافة والانسان والتنظيمات وأساليب الانجاز فى معية واحدة . ومن ثم فوجهات النظر هذه ما تزال وجهات جزئية غير قادرة على تأسيس تنمية حقيقية شاملة .

أما الملاحظة الثانية فتتمثل فى انطلاق هذه الأفكار من نزعة أوربية — أو أمريكية متمركزة على الذات . حيث لا يرى مفكرو هذه الاتجاهات خطوطا للتطور تسير عبرها التنمية سوى الخط أو الطريق الغربى ، بينما فى امكان مجتمعات الثالث مجمعة أو منفردة أن تبحث عن طريق خاص للتطور يختلف أو يتفق مع الطريق الابدى .

وتتعلق الملاحظة الثالثة بالادانة الضمنية التى تحملها هذه الاتجاهات نحو الثقافة التقليدية باعتبارها ثقافة العالم المتخلف الذى تم استعماره . وهو التعبير المعكوس لنزعة التمركز حول الذات . وادانة الثقافة التقليدية كلها حكم يجانبه الصواب ومحولة تغييرها بصورة شاملة تعبير عن عدم ادراك طبيعة ديناميات التفاعل الثقافى .

فى مقابل ذلك هنـــاك رأى يؤكد على ضرورة الابقاء على الجوانب الروحيـــة المتصلة بالثقافة التقليدية ، ولا مانع من اســـتعارة التكنولوجيا والجوانب المـــادية للثقافة الغربية . وكمثال على ذلك اعتقد القادة الصينيون فى نهـــاية القرن التاسع عشر بصورة راسخة انه من الممكن الحفاظ على تراثهم الكونفوشى القديم برغم التسليم بتفوق الغرب العســـكرى ، وذلك عن طريق اســـتعارة العلم والتكنولوجيا الغربية فقط . وفى العالم الحديث يمكننا ملاحظة ذات التفاعل من خلال نفس الأفكار التى يقدمها القادة الأفريقيون الذين يشـــعرون بضرورة مناصرة ثقافتهم الأفريقية التقليدية والروح الجوهرية لشخصية شـــعوبهم (٥٦) .

(ب) ويركز البعد الثانى للمأزق الثقافى الذى يعيشـــه العالم الثالث على الصدام أو المواجهة الثقافية والحضارية بين الثقافة الغربية من ناحية والثقافة المحلية من ناحية أخرى . باعتبار أن الثقافة الأولى هى ثقافة القوى الاستعمارية فى حين ظلت الثانية ثقافة الشـــعوب المستعمرة . واذا حاولنا فهم هـــذه المواجهة بين الثقافتين فاننا سوف نجد أن كلا من الثقافات الغازية والمغزوة تنقسم الى نمطين فرعيين .

وفيما يتعلق بالثقافة الغربية نجد أن المعســـكر الاشتراكى قد ظهر فى أعقاب الحرب العالمية الأولى واستكمل وجوده فى أعقاب الحرب العالمية الثانيـــة . وبذلك ظهرت ثقافتين أو أيديولوجيتين فرعيتين داخل الثقافة الغربية ، الأيديولوجيا الاشتراكية ، والأيديولوجيا الراسمالية الليبرالية . وبرغم اشتراكهما معـــا فى كونهما اتجاهات ثقافية وأيديولوجية تنتشر من المراكز الى الهوامش فى محاولة فرض علاقة عضوية ونوعا من التجانس بينهما ، الا اننا نجد أن كل منهما يحاول بطريقته الخاصـــة العمل على طمس معالم الثقافة التقليدية لتحل محلها الثقافة الحديثة . وتختلف الوسائل المتبعة لتحقيق هـــذا الهدف بين أيديولوجية وأخـــرى . فبينما تســـتعين القوى الرأسمالية بالقوة العســـكرية — كفرنسا — لفرض التشويه الثقافى تحاول بريطانيا ذلك من خـــلال التعليم وتأسيس الصفوة العلمانية . بينما على الناحية الأخرى نجد أن القوى الاشتراكية العالمية تحاول ذلك من خـــلال محاولة بناء ودعم الطبقة البروليتارية الحاملة لهـــذه الثقافة ، باعتبار امكانية تشكل هـــذه الطبقة المفرزة الأمامية لنشر هـــذه الثقافة .

على الطرف الآخر نجد أن المجتمعات التقليدية تنقسم الى مجموعتين ثقافيتين .. مجموعة المجتمعات الحضارية (كالهند والصين والمجموعة العربية الاسلامية) ومجموعة المجتمعات التى تسودها الثقافة القبلية والبدائية تقريبا .. واذا كانت عملية الانتشار الثقافى قد حققت نجاحا باهرا فى المجتمعات القبلية ، حيث قدمت الثقافة الغربية الوافدة عناصر ثقافية تمتلك كفاءة عالية لاشباع الحاجات الأساسية للانسان فى هذه المجتمعات بأقل تكلفة اقتصاديا ممكنة .. ولأنه لا توجد نظائر ثقافية تمتلك ذات الكفاءة العالية فى الآراء ، وتتميز بانخفاض التكلفة الاقتصادية للاشباع . فانه كان من المنطقى أن لا تشهد هذه المجتمعات صراعا ثقافيا بالمعنى المحدد لذلك ، وهو الصراع الذى يمكن أن تكون له آثاره البنائية . ومن ثم فيمكن القول بأنه بصدام الثقافة المحلية مع الثقافة الغربية الوافدة الى هذه المجتمعات حدثت عملية انتشار ثقافى من المراكز الى الهوامش حسبما صور ذلك بدقة الانثروبولوجى الشهير برنسلاو مالينوفسكى فى دراسته لديناميات التغير الثقافى فى المجتمعات الافريقية (٥٧) .

غير أن التفاعل بين الثقافتين (الوافدة والمحلية) يختلف فى حالة المجتمعات ذات الثقافات التقليدية . والقضية الأساسية أن مجتمعات هذه المجموعة لديها ثقافة وحضارة ذات جذور تاريخية وتتصف بالشمول ؛ وتم استيعاب قيمها تدريجيا من خلال سيرة التاريخ الحضارى للمجتمع . هذا الى جانب أن حضارة وثقافة هذه المجتمعات باستطاعتها — اذا طورت — ان تقدم حلولا لتحديث هذه المجتمعات وتنميتها وانتقالها من الحاضر المتخلف الى حيث التقدم فى المستقبل .. هذا الى جانب ان الكلية الثقافية التى امتلكتها هذه المجتمعات استطاعه قيادة المجتمع فى فترات تاريخية سابقة ، واستطاع المجتمع تحقيق أمجاد هائلة فى ظلها .. وبرغم الجمود الذى أصاب هذه الكلية الثقافية بحيث جعلها متخلفة عن مواكبة حركة الواقع المتغير ، فان هناك ادعاء بأنه لو توفر أبناءها على على تجديدها والابداع فى اطارها لتطويرها لأمكنها أن تشكل اطارا ثقافيا وقيميا لعملية التحديث التى تتم فى اطار هذه المجتمعات ، ولأمكن أيضا أن يكون لهذا التحديث طريقه الخاص ، ومن ثمة كان من الممكن أن يساعد ذلك فى القضاء على النزعة الأحادية للتطور المتمركز حول الذات الأوربية .

غير أنه برغم الادعاءات المتعلقة باحتمال تطوير هـــذه الثقافة فان الظرف التاريخى والبنائى التى تمت فيها المواجهة بين الثقافة التقليدية لهـــذه المجتمعات والثقافة الغربية الوافدة ، قد أدى الى انهيار الثقافة التقليدية . واستطاعت الثقافة الغربية بوسائلها العديدة ـــ ابتداء من القوة العســـكرية ، وارساليات التبشير وتغريب النظـــام التعليمى ، وخلق صفوات محليـــة موالية ـــ خلق جذر ثقافية تابعة داخل هـــذه المجتمعات . مثال ذلك ما ذهب اليه التقرير الســـنوى للورد كرومر عن حالة مصر فى ١٨٩٩ حيث أكد أن التحديث (ما يزال متصورا على أقلية اجتماعية صغيرة تتجمع فى القاهرة والاسكندرية (٥٨) . وقد أكد ذلك جابرييل بيير بقوله (لقد غير الاتصال الذى تم بأوربا وبالتنمية الاقتصادية والادارية قدرا من حيـــاة وتنظيم المجتمع المصرى ـــ غـــير أن العائلة التقليدية والمجتمع الدينى مازال حيا وقويا . ولم يتغير وضـــع المرأة فى المجتمع . ولم يكتسب الاثرياء من المصريين ، ولا الطبقات الدنيا منهم عقلية الشـــخص الكائن فى المجتمع الصناعى . هـــذا وان كان التغير الاجتماعى الذى وفد من الخارج قد استطاع فعـــلا تحطيم الاطار الاقتصادى والاجتماعى التقليدى ، وأدى أيضا الى تحلل القرية والقبيلة ، واختفاء الحرف والقضاء على العبودية . وقد حدثت معظم هـــذه التغيرات فى العشرينات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، وان تركت عمليـــة خلق التجمعات الحديثة ، والنقابات العمالية للقرن العشرين) (٥٩) . غير أن هـــذه الجذر وان بدأت صغيرة فى القرن التاسع عشر ، بدأت فى الانتشـــار والاتساع ، والأهم من ذلك بدأت تخلق بعض الظواهر المرضية فى اطار بناء الثقافة والقيم نذكر بعض منها .

١ ـــ وتعتبر ظاهرة الانفصال الثقافى والأيديولوجى أكثر الظواهر بروزاً فى هـــذا الصدد . حيث نجد أن بكل مجتمع من مجتمعات العالم الثالث شريحة صغيرة من الذين نالوا حظاً من التعليم ومن ثم اتيحت لهم الفرصة للاتصال المكثف بالثقافة الغربية أو ما يمكن أن تسمى بالثقافة العلمانية . وذلك فى مقابل معظم جماهير هـــذه المجتمعات التى ظلت محافظة على تراثها وثقافتها التقليدية . هنا نجد انفصالا داخل المجتمع من حيث القيم الموجهة للسلوك الاجتماعى ، أو من حيث طبيعة التنظيم الاجتماعى أو من حيث الدافعية الموجهة لمشاركة الانسان فى التفاعل الاجتماعى .

والقضية الأخطر أن يتكامل مع هـذا الانقسام ويدعمه الانقسامات ذات الطبيعة الطبقية أو الريفية ـ الحضرية . حيث نجد أن الطبقات الأرستقراطية والمراكز الحضرية فى المجتمع أكثر ميلا للأخذ بالتوجهات الغربية الحديثة ، بينما نجد أن الطبقات الشعبية والقطاع الريفى ، والبدوى فى هذه المجتمعات أكثر ميلا للأخذ بالثقافة التقليدية والتراثية . وبطبيعة الحال هنـاك مناطق فاصلة بين النطاقين يحدث فيها نوع من التداخل الثقافى . ومن الطبيعى أن يتدعم هـذا الانفصال كلما تدعمت اتصالات المجتمع بالنظـام العالمى من ناحية أو تلكأت التنمية الاجتماعية ولم تحقق معدلات نمو فعالة وايجابية . اذ تكون النتيجة أن ثمة صفوة موجهـة الى الخارج ولها اتصالاتها الكثيفة بالنظـام العالمى تسعى الى التعرف على منتجاته المـادية وغير المـادية وتحاول استيعاب بعضه ، بينما الجماعة الأخرى مشدودة الى المـاضى ، تخلف تراثها وتخلفت معه (٦٠) .

٢ ـ وتعتبر ظاهرة التباين الأيديولوجى على مسـتوى الصفوة المغربة داخل هـذه المجتمعات من الظواهر المعضلة بالنسبة لغالبية مجتمعات العالم الثالث . واذا كانت هـذه الظاهرة مقصورة على الصفوات ذات التوجه الغربى ، فان ذلك لأن هـذه الصفوات قد قطعت روابطها مع التراث ، ومع الصفوة التى ترفع شعارات هـذا التراث . اذ يوجد انقسـام داخل الشريحة المثقفة بين أصحاب التوجهات الاشتراكية فى مقابل الصفوة الفرعية ذات التوجه الليبرالى • وبطبيعة الحال يتعمق الصراع بين الصفوتين اذا استند التباين الى اطر مرجعية خارجية . بل اننا نجد ان المواقف الأيديولوجية لهذه الجماعات عادة ما تتصف بالجمود والصرامة من حيث الالتزام بالمقولات الأساسية لتوجهها الأيديولوجى ، واقل رغبـة فى التطور والالتقاء مع الجماعات الأيديولوجية الأخرى . بل ان التزامهم الأيديولوجى يسـبق فى احيان كثيرة التزامهم نحـو الواقع الاجتماعى • يتجاوز اخلاصهم للفكرة ولاءهم للمجتمع والوطن .

ولعل هـذا الارتباط بالتوجهات الأيديولوجية يرجع بالأساس لتميز الثقافة فى المجتمعات الانتقالية بالتبعثر والضعف فهى ليست عميقة الجذور داخل الأبعاد السيكلوجية المستقرة للبشر (٦١) . وبسبب احساس عـدم التأكد ، أو ضياع الالتزام الواضح فان البشر احيانا ما يناضلوا من اجل

التوحد بالأيديولوجيات السياسية الكبيرة والسائدة على مستوى النظام العالمى ، بل ان هذا الضعف الأيديولوجى يساعد أيضا على تفسير عمق النزعات القومية ، والرغبة الملحة لتأسيس الأيديولوجيات القومية ، كالاشتراكية العربية ، الشخصية الافريقية ، والاشتراكية الاندونيسية ، والدولة الاسلامية (٦٢) .

(جـ) ويعتبر الفراغ الأيديولوجى والثقافى أحد الأبعاد الأساسية لأزمة الثقافة والقيم فى العالم الثالث . ويعنى بالفراغ الايديولوجى أن تكون هناك قطاعات بشرية داخل المجتمع لا تمتلك توجهات أيديولوجية واضحة ، وربما يرجع ذلك الى عدة عوامل أساسية . من هذه العوامل أن المعتقدات الأيديولوجية والثقافة عادة ما تكون أكثر عمقا لدى الكبار ، سواء كانوا ذوى توجهات تراثية أو غربية علمانية . والذى يحدث هنا أن هذه القناعات الأيديولوجية لا تنتقل عادة الى الصغار وذلك تسبب عامل الصراع الجيلى فما هو مقنع للكبار قد لا يكون كذلك بالنسبة للصغار (٦٣) ويرجع العامل الثانى الى غياب التوجه الأيديولوجى العام . فغالب مجتمات العالم الثالث تفتقد الالتزام الواضح بمسلمات أيديولوجية ثابتة ومستمرة ومن ثم يتيح ذلك امكانية بروز الجماعات ذات التوجه الأيديولوجى المتباين وانتشار حالة من الفراغ الأيديولوجى عند الغالبية القاسمة . ويتمثل العامل الثالث فى غياب وسائل التنشئة والتطبيع الأيديولوجى والثقافى أو عدم فعاليتها فى حالة وجودها ، بحيث لا تؤدى وظائف التنشئة بالمستوى المنشود . ذلك يعنى أن هذه العوامل تعتبر مسئولة عن حالة الفراغ الأيديولوجى والثقافى الموجود عند قطاعات كبيرة من الشباب وصغار السن ، واذا قلنا أن الشباب هم الذين يشكلون الأغلبية الديموقراطية لمجتمعات العالم الثالث ، فمعنى ذلك ان قطاعات أساسية وغالبة فى هذا العالم فى حالة الفراغ الأيبولوجى هذه وهى المسألة التى تتصل بظواهر كثيرة مثل ضعف الانتماء وفقدان الهوية واللامبالاة ، وهى ظواهر اجتماعية مدمرة لها أصول ثقافية على النحو الذى أشرنا اليه .

(د) وتعتبر ظاهرة الأنومى احدى ملامح ازمة الثقافة والقيم داخل مجبمعات العالم الثالث . وأيا كانت طبيعة التحديد الذى نرتضية لحالة

الأنومى . اذ يحددها دوركيم بأنها الحالة الانتقالية التى يفتقد فى اطارها المجتمع امتلاك أى معايير أو قيم قادرة على توجيه السلوك على المستوى الفردى أو الاجتماعى ، بحيث تصبح القيم والمعايير الخاصة هى المتحكمة فى السلوك (٦٤) . أو كما يحددها روبرت ميرتون باعتباره الحالة التى تتناقض فيها المثل والمبادىء والقيم التى ترتضيها الثقافة للمجتمع ، مع المعايير التى تتجسد فى اطارها هذه المثل ، حيث يؤدى هذا التناقض الى أنماط سلوكية كثيرة منها الانسحاب من الارتباط بهذه المثل أو الطقوسية التى ترتبط بوسائل تجسيدها وان لم ترتبط بها ، أو التجديد الذى يجدد فى الوسائل مع الايمان بذات الغايات ، أو التمرد الذى يرفض هذا الوجود الثقافى المتناقض كلية سعيا وراء وجود ثقافى متماسك ومتكامل .

فاذا عانى المجتمع من ظاهرة الأنومى الثقافية فان ذلك يدفع غالبا الى بروز المصلحة الخاصة على المصلحة العامة للسلوك ، فان الفرد يقرر عادة المعايير التى تتولى ضبط سلوكه . وذلك لضعف قدرة الثقافة العامة على السيطرة والضبط ، أولا بسبب تشتتها ، وثانيا لعدم مشاركة البشر فى توجهات ثقافية مشتركة يمكن أن تشكل موجها لفعلهم الاجتماعى . هذا الى جانب أنه بدون وجود الثقافة التى توجه سلوك وفعل مؤسسات التنشئة الاجتماعية ، فان البشر سوف يمارسون فعلهم ليس فقط من خلال توقعات متباينة ولكن أيضا من خلال دوافع فردية ليست مشروعة اجتماعيا فى أحيان كثيرة ، فى هذه الحالة نجد أن الأفراد يشاركون فى التفاعل الاجتماعى لأسباب خاصة أساسا . ذلك يعنى انه فى الأنساق الاجتماعية الأكثر استقرار ، نجد أن البشر يبدلون دافعيتهم وسلوكياتهم مع المعايير المقبولة لأى سلوك ، وفعل اجتماعى ، بينما فى الأنساق غير المستقرة ومنها المجتمعات الانتقالية نجد أن هناك احتمالية ضئيلة للالتقاء بين المصالح العامة والخاصة (٦٥) .

* * *

٢ ـ الجوانب الاقتصادية لأزمة العالم الثالث

يعيش العالم الثالث فى الوقت الحاضر أزمة اقتصادية طاحنة ، تنعكس آثارها على انخفاض معدلات التنمية فى اطاره ذلك أنه اذا كان النظـــام العالمى يعانى أزمة اقتصادية لها وطأتها على العالم كله ، فان آثار هـــذه الأزمة تختلف بين العالم المتقدم والعالم الثالث . فقد تؤثر الأزمة على معدلات النمو الحادثة فى المجتمعات المتقدمة ، غير أن تأثيرها قد يصل الى حد ايقاف عملية التنمية كلية أو صرف الانتباه عنها داخل مجتمعات العالم الثالث . وتكشف محاولة تشخيص أزمة العالم الثالث عن بروز عـــدة أبعاد أساسية : نذكر بعضها فيما يلى :

١ ـ ولعل الأزمة التى يعانيها النظـــام العالمى تعتبر من أبرز هـــذه الأبعاد . اذ يخضع الاقتصاد العالمى فى الفترة الأخيرة لحالة من التراجع عن معدلات تقدمه المعتادة . فقد توقعت منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية فى يونيو ١٩٨٢ أن الاقتصـــاد العـــالمى ســـوف يحقق معدل نمو يصـــل الى نحو ٥ر٢٪ فى ١٩٨٣ . غير أن هـــذه التنبؤات لم تتحقق ، وحقق الاقتصاد العالمى معدلات نمو بلغت صفر . ومن ثم أكد الاقتصاديون الحاجة الى اصلاح النظـــام الاقتصادى العالمى . فمن الضرورى العمل على تجسيد هـــذا الاصلاح والا وجدنا أنفســـنا على ظهر موجة جديدة من التضخم . ونتيجة لهذه الأزمة التى يمر بها النظام العالمى ارتفعت أسعار الفـــائدة الى أقصى معدلاتها منـــذ سنوات الكساد فى الثلاثينات من هـــذا القرن . وكنتيجة لذلك أيضا انهار الاستثمار وهو الأمر الذى يدفعنا الى توقع معدلات بطالة عالية تصل الى ٣٥ مليون فى منظمة التعاون الاقتصادى والتنميـــة OECD فى ١٩٨٣ اذا قورنت بنحو ٤ر٢٥ مليون فى عام ١٩٨١ .

يضاف الى ذلك ارتفاع أسعار السلع الصناعية فى مقابل انخفاض أســـعار الحاصلات الزراعية أو المـــادة الخام التى ينتجها العالم الثالث ، اذ يحتاج المجتمع فى أقطار العالم الثالث الى أن يبيع ١٣ طنا من الشـــاى ثمنا للجرار Tractor الذى يستورده من المجتمعات المتقدمة بينما كان

يدفع منذ عشر سنوات خمسة أطنان فقط من الشـــاى ثمنا لذات الجرار(٦٦) .
وفى هـــذا الصدد يمكن القول بأن الأقطار الصناعية المتقدمة قد استطاعت السيطرة على التضخم ليس من خـــلال سياسات مالية فعالة ومؤثرة ، أو ايقاف معدلات البطالة المتصاعدة ، التى تميل الى تخفيض الأجور ، ولكن من خـــلال التناقص ان لم يكن الانهيار الملحوظ فى أســـعار السلع . فقد انخفضت أســـعار تصدير السلع غير البترولية الى نحو ٣٥٪ بـــين اكتوبر ١٩٨٠ واكتوبر ١٩٨٢ . وانخفضت اســـعار السلع الغذائية بنحو ٤ر٦١٪ ، وانخفضت اســـعار بذور الزيت الى نحو ٨ر٤٨٪ وانخفضت أســـعار المحاصيل الاســـتوائية بنسبة ١ر٣٤٪ والمناجم بنسبة ٨ر٣١٪ والمواد الخام الزراعية بنسبة ٢٨٪ ومن الواضح أن هـــذا الانخفاض كان اسوأ كثيرا اذا قارناه بما حدث فى أزمة الثلاثينات .

بالاضافة الى ذلك بذلت الدول المستوردة للبترول جهودا كبيرة للابقاء على كميات كبيرة من فائض البترول لدى الدول المصدرة له . ومن المتوقع أن يصل الطلب على البترول فى العالم غير الشيوعى فى ١٩٨١ ليكون حوالى ٤٥ مليون برميل فى اليوم ، وهى نفس كمية انتاج ١٩٧٢ واقل من انتاج ١٩٧٩ بنحو ثمانية مليون برميل فى اليوم . ومن المتوقع أن تنخفض الأســـعار الحقيقية للبترول عن الوقت الحاضر من ٣٤ دولار للبرميل الى نحو ٢٩ دولار للبرميل فى ١٩٨٥ (٦٧) . ومن المتوقع أن يؤدى هذا الانخفاض فى الأســـعار الى التأثير على مدخلات الدول البترولية ، أو تلك الدول التى تعتمد عليها اما فى حل مشكلاتها الخاصـــة بفائض العمالة ، أو التى تعتمد عليها فى اقتراض رؤوس الأموال المؤسسة للتنمية بداخلها .

الى جانب ذلك تشـــكل ديناميات التجارة الدولية أحـــد أبعاد الأزمة الاقتصادية التى لها تأثيرها على العالم الثالث . فبرغم أن التجارة الدولية بلغت نحو ١٠٠٠ بليون دولار فى ١٩٧٦ نجدها قد تضاعفت حتى بلغت نحو ١٩٧٠ بليون دولار فى ١٩٨٠ فان هـــذه الزيادة ظاهرية فقط . وذلك لارتفاع مستويات الأســـعار خلال هـــذه الفترة . وباعتبارات حقيقية يمكن القول بأن هـــذه الزيادة قد انخفضت من ٦٪ عام ١٩٧٩ الى ٥ر١٪ عام ١٩٨٠ . وخلال ١٩٨١ انخفضت التجارة العالمية بنسبة ١٪ من قيمتها . وانخفضت التجارة فى السلع الصناعية من ٥ر٥٪ عام ١٩٧٩ الى ٥ر٣٪ فى ١٩٨٠ .

وبحلول ١٩٨١ فانها سوف تقترب من الصفر ان لم تحقق معدلات سلبية (٦٨) .
ومن الطبيعى ان يؤدى انخفاض معدلات التجارة الدولية الى الاضرار بالعالم الثالث وذلك لاعتبارات كثيرة . أولهما أن العالم الثالث يحتاج الى التبادل الدولى لبيع منتجاته والحصول على المعدات الصناعية التى قد تسهم فى تطوير التنمية لديه . هـذا الى جانب أن الحاصلات الزراعية والمواد الخام التى لدى العالم اثالث ــ خاصة اذا افتقد امكانية تسويقها داخليا ــ تصبح فى مسيس الحاجة الى التجارة الدولية . ومن ثم فانخفاض معدلاتها سوف يعنى الاضرار بالتطور الاقتصادى لهذا العالم ، خاصة أن اقتصادياته من نوع الاقتصاديات الهشة التى لا تتحمل أى صدمات قوية .

خلاصة القول أن الاقتصاد العالمى قد تعرض خـلال عقـد الثمانيات لثلاثة صدمات قوية تتابعت عليـه بصورة متلاحقة ومن ثم فاذا كانت لهـا آثارها على الاقتصاد العالمى ، فان هـذه الآثار أصبحت محسوسة فى اطار المجتمعات النامية ، هـذه الصدمات هى :

١ ــ الانخفاض الحاد فى أثمان السلع فى سنوات ١٩٨١ ، ١٩٨٢ ومن ثم انخفضت قيمة سـلع التصدير بالنسبة للأقطار النامية غير البترولية بنحو ٣٥٪ فى أكتوبر ١٩٨٢ عن أسـعار أكتوبر ١٩٨٠ . وكحقيقة أساسية ــ نتيجة لهذا الانخفاض ــ اقتربت الأسـعار من مستوى أسـعار الثلاثينات من هـذا القرن . وبسبب ذلك انخفضت عائدات التصدير الخاصة بالبـلاد النامية بحوالى ٤٠ بليون دولار أمريكى .

٢ ــ أدى ارتفاع أسعار الفائدة الى تراكم فوائد الديون حتى وصلت الى نحـو ٢٥٠ بليون دولار أمريكى وفى الفترة من ٧٨ ــ ١٩٧٨ وحتى ٨١ ــ ١٩٨٢ ارتفعت نسـبة الفائدة بحوالى الثلثين . وحسب تقـدير البنك الدولى ، تزايدت فوائد خدمة الدين السنوية بالنسبة للديون المباشرة طويلة الأجل بنحو ٣٧ بليون دولار فى الفترة الواقعة بين ١٩٨٠ ــ ١٩٨٢ .

٣ ــ ابتداء من أغسطس ١٩٨٢ انخفضت القروض الرأسمالية المقرضة للأقطار النامية ، ومعظمها من البنوك . وابتداء من أكتوبر ١٩٨٢ بلغ قدر الاقراض الذى تم نحو ١٥ بليون دولار سنويا ، وهو مبلغ منخفض اذا قورن بما تم اقراضه فى ١٩٨١ حيث بلغ نحو ٥٠ بليون دولار . وقد سبب ذلك عجزا للأقطار المستوردة للبترول بلغ نحو ٨٢ بليون دولار (٦٩) .

خلاصة القول ان النظـــام الاقتصادى العالمى يواجه أزمة طاحنة ، تراخت أمامها اقتصاديات البـــلاد المتقدمة ، وبالتأكيد فان لها تأثيرها الضار على أقطار العالم الثالث ، وهو التأثير الذى صــــوره تقرير لجنـــة برانت Brandt بعنوان الأزمة المشــــتركة فى ١٩٨٣ . حيث ذهب الى أنه اذا سلمنا بهذه الظروف الاقتصادية الضارة والتى تهدد الاستقرار السياسى للأقطار النامية فان أعضاء اللجنـــة يحذرون من أنه (اذا حدث انخفاض آخر فانه من المحتمل أن يسبب انهيارا فى بعض المجتمات ، بالاضافة الى أن ذلك سوف يخلق ظروفا ملائمة للفوضى السياسية فى كثير من أجــــزاء العـــالم) (٧٠) .

(ب) اذا كان البعد الأول فى الأزمة الاقتصادية التى تسود العالم الثالث ينطلق أساسا من أزمة فى النظام العالمى ، فان البعد الثانى للأزمة يتصل أساسا بالأوضاع الاقتصادية التى يعيشها هـــذا العالم . وفى هـــذا الصدد سوف نذكر بعض العوامل الداخلية لهذه الأزمة .

١ ــ وتعتبر مشكلة تضخم ديون العالم الثالث من المشكلات الرئيسية التى يعانى منها هذا العالم خلال الفترة الاخيرة . فنظرا للارتفاع الهـــائل فى أسعار الفائدة فى السنوات الأخيرة وكساد تسويق السلع ، وتخفيض البنوك التجارية للمبالغ المقرضـــة للعالم الثالث الى مســـتويات هزيلة مع نهاية ١٩٨٢ . فان ذلك كان من شأنه التأثير على ميزان المدفوعات وعمليات التنمية فى معظم الأقطار النامية . ومن ثم فقد برزت مشكلة الديون كواحدة من المشكلات ذات الأثر الضار بالنسبة للاقتصاد العالمى . وفى اطار ذلك يقدر حجم ديون العالم الثالث بنحو ٦٢٦ بليون دولار مع نهاية ١٩٨٢ . اما فوائد خدمة الدين فتصل الى نحو ١٣١ مليون دولار . وهناك عشرين دولة من دول العالم الثالث تعتبر مسئولة عن ثلثى الديون وثلاثة أرباع خدمة الدين . وارتباطا بذلك بلغت مجموعة ديون الاقطار النامية (الديون الطويلة والقصيرة الأجل ، العامة والخاصة) الى نحو ٨٠٠ بليون دولار تقريبا (٦٢٦ بليون قروض طويلة ومتوسطة الأجل ، ١٦٠ بليون دولار قصيرة الأجل) . وتعتبر البرازيل من أكثر الدول استدانة حيث تصل ديونها الى نحو (٨٥ بليون دولار) والمكسيك (٨٥ بليون دولار) والأرجنتين (٢٨ بليون دولار) وكوريا الجنوبية (٣٩ بليون دولار) وتستدين هـــذه الأقطار الأربعة وحدها نحو

٢٥٠ بليون دولار ، أى حوالى ¼ ديون العالم الثالث . وهناك مجموعة من الأقطار ذات الدخول القومية المنخفضة تصل ديونها الى نحو ١١٠ بليون دولار ، ومن ثم نجد أن الديون تستوعب كل صادرات هذه المجتمعات ، وتبلغ ديون هذه المجموعة الى نحو ٢٣٪ من مجموع ديون العالم الثالث فى ١٩٨٢ (٧١) .

٢ — ويتمثل البعد الثانى فى الأزمة الاقتصادية للعالم الثالث أنه برغم سقوط هذا العالم فى براثن الدين ، فانه استمر فى تحويل نسبة عالية من موارده ودخله القومى وقروضه الخارجية الى الانفاقات العسكرية التى لا نتيجة لها اذ تزايدت مبيعات الاسلحة الى الاقطار النامية حتى بلغت ٨٠٠٪ من مبيعات الأسلحة فى الخمسينات . ومعنى ذلك أنه بينما يحتاج هذا العالم الى الاستقرار للاندفاع بكل جهوده الى التنمية ، نجد أنه حسبما تذهب مبيعات السلاح كمؤشرات لذلك يعانى من حالة عدم الاستقرار . فقد تضاعفت مبيعات السلاح الى نحو ثمانى مرات خلال العقدين الأخيرين . وفى عام ١٩٧٠ بلغت ميزانية الانفاقات العسكرية فى العالم الثالث الى نحو ٨٪ من الانفاقات العسكرية فى العالم . وقد تزايدت هذه النسبة حتى بلغت نحو ١٥٪ من ميزانية العالم للاغراض العسكرية فى ١٩٧٩ . وتقتسم الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى دور مصدر السلاح الى العالم الثالث بنسبة ٤٥٪ ، ٥ر٢٧٪ على التوالى فى الفترة بين ١٩٧٠ — ١٩٨٠ . ويمكن القول بأن الأقطار المحيطة بالصحراء الأفريقية قد تسلمت أسلحة باعها الاتحاد السوفيتى للعالم الثالث بنحو ٨٥ مليون دولار من اجمالى مبيعاته للأسلحة فى عام ١٩٧٧ والتى بلغت نحو ٣٥٥ مليون دولار . وقد تزايد هذا المبلغ فى ١٩٧٨ الى الثلث تقريبا — حوالى ١٢٢٠ مليون دولار من أصل اجمالى مبلغ ٣٨٢٥ مليون دولار . وقد ارتفعت مبيعات السلاح السوفيتى فى الفترة بين ١٩٧٨ — ١٩٧٩ بحوالى ٤ر٨ بليون دولار حسب تقدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية .

٣ — ويعتبر انخفاض قيمة العناصر الأساسية المؤسسة للانتاج بالاضافة الى انخفاض الانتاجية من المشكلات الحادة التى تسود اقتصاديات العالم الثالث . ونقصد بانخفاض فاعلية عناصر الانتاج أن هذه العناصر — لاعتبارات اجتماعية وثقافية — لا تستغل بالمستوى الذى ينبغى أن يكون .

فالبشر وان أعتبروا من أهم عناصر الانتاج ، غير أنهم برغم وفرتهم غير مؤهلين تأهيلا فنيا وثقافيا يجعلهم ذوى دور فعال فى عملية الانتاج . ومن ثم تحول البشر فى العالم الثالث من امكانية دافعة للتنمية الى عبىء معوق لهذه التنمية . والأرض الزراعية وان كانت العنصر الرئيسى فى عملية الانتاج فى مجتمعات اقتصادها زراعى أساسا ، آلا أننا نجد أن استغلالها تقليديا يدمر امكانياتها . ونحن نقصد بالاستغلال التقليدى زراعتها بمحاصيل تقليدية ذات غلة منخفضة . ومن ثم يكون هذا العنصر الانتاجى قد أدى دوره بفاعلية منخفضة للغاية . أو أن تستغل الأرض استغلالا مدمرا لها كعمليات تجريف الأرض الزراعية وبناء المساكن عليها (*) . وفيما يتعلق بالثروة الحيوانية نجد أن هنـــاك كثير من مجتمعات العالم الثالث تمتلك ثروة حيوانية هائلة الا أنها — لاعتبارات قبلية وثقافية تركز على مسألة عدد الثروة الحيوانية التى يمتلكها الشخص أهم كثيرا من نوع هذه الحيوانات أو حالتها الكيفية . مما يجعل هذه المجتمعات لا تركز كثيرا على تطوير ثروتها الحيوانية (٧٢) . ويرتبط بذلك أنه برغم نقص التمويل الذى تعانى منه هذه المجتمات نجد أن كميات هائلة من الذهب تستخدم للزينة فقط داخل هذه المجتمعات ، كان من الممكن لو تحولت الى رؤوس أموال أن تعوض المجتمع عن الاقتراض من العالم الخارجى .

ذلك حسبما تذهب أفكار الفترة السابقة أن العالم الثالث يعانى أزمة اقتصادية ذات أبعاد عالمية واقليمية ومحلية . فانخفاض موارد الانتاج لديه يقوده الى الاستدانة من العالم الخارجى . بيد أن ذلك محكوم بحجم القروض المتاحة فى النظام المصرفى العالمى ، وبأسعار الفائدة على هذه القروض .

(*) من الظواهر الملفتة للنظر فيما يتعلق بالاستغلال المدمر للأرض الزراعية ما يحدث فى مصر . اذ حاولت المرحلة الناصرية من خلال استصلاح الأراضى اضافة مساحات من الأرض الزراعية الى المساحة القائمة وتمكنت فعلا من استصلاح نحو ٨٠٠ ألف فدان حتى ١٩٧٠ . الا أننا نجد مقابلا لذلك أنه قد تم بناء مساكن على نحو مليون فدان فى ذات الوقت . مع فارق أن الأرض المستصلحة ما زالت منخفضة الانتاجية بينما الأرض التى يتم البناء عليها مرتفعة الانتاجية وذات خصوبة عالية . يضاف الى ذلك التجريف الذى يحدث للأراضى الزراعية لتمويل صناعة الطوب بالمواد الطينية اللازمة ، وقد أصبحت هذه العناصر المدمرة ملحوظة برغم اصدار الدولة للعديد من القوانين التى تحرم ذلك(٧٢) .

فاذا كانت القروض متاحة بأسعار فائدة عالية ، فان ذلك سوف يعنى اتجاه قدر كبير من موارد الانتاج لسداد فوائد الديون ، ومن ثم التأثير على التنمية الاجتماعية الاقتصادية واستمرار الاعتماد على الخارج . أما اذا لم تتح القروض الملائمة لدفع التنمية فاننا نجد أن موارد هذا العالم أضعف من أن تقود الى تأسيس تنمية حقيقية ، ومن ثم احتمالات انخفاض مستوى المعيشة الحقيقى عن ما كان متاحا فى المرحلة الاستعمارية . وفى ذلك تهديد بالتردى الأكثر لأوضاع العالم الثالث . وأيا كانت العوامل المسئولة عن عدم الشروع فى تنمية حقيقية فان عدم اشباع الحاجات الأساسية للبشر داخل هذه المجتمعات سوف يصبح المدخل الأساسى لترديه وعدم استقراره . وقد تندفع صفواته لفرض الاستقرار باستخدام وسائل القهر ، غير أن هذه الصفوت بلا انجازات حقيقية سوف تصبح بلا شرعية أمام الجماهير التى تعانى من الحرمان ، ويكون العالم الثالث بذلك فى دائرة مفرغة من عدم الاستقرار وعدم التنمية .

* * *

٣ — أزمة العالم الثالث ، مظاهرها السياسية

اتضح لنا من الفقرة السابقة أن مجتمعات العالم الثالث تعيش حالة أزمة حادة على الصعيدين الثقافى والاقتصادى . بحيث تتداخل عناصر كثيرة فى صياغة هذه الأزمة . بعضها ينطلق من النظام العالمى . وبعضها من النظام الاقليمى المباشر الذى يعتبر المجتمع أحد مكوناته . وينبثق البعض الثالث من الأبنية المحلية لهذه المجتمعات ذاتها . وتعتبر الأزمة السياسية هى اكثر أزماته حداثة وخطورة فى ذات الوقت ولعل ذلك يرجع الى اعتبارين أساسيين :

(ا) ويتمثل الاعتبار الأول فى حداثة الأبنية السياسية لمعظم مجتمعات العالم الثالث — خاصة المجموعة الحضارية — . وذلك لأن هذه المجتمعات تمتلك مصدرا للشرعية الاجتماعية والسياسية . وتمتلك القنوات المتميزة التى تصعد من خلالها الصفوة من بين الجماهير . وتمتلك قوى اجتماعية تنتمى لها الصفوات الحاكمة وتعبر بدرجة ما عن مصالحها . ومن ثم فهناك احتمال

كبير فى نشأة صراعات حادة بين أنماط الصفوات ، وبين مصادر الشرعية ، سوف تنعكس آثاره بالتحديد على فاعلية النظام السياسى وقدرته على تأسيس تنمية فعالة ذات معدلات انطلاق ملائمة .

(ب) ويتمثل الاعتبار الثانى فى أنه نظراً لحداثة التنظيمات السياسية بالنمط الغربى فى العالم الثالث ، فان شرعيته هذه عادة ما تكون ضعيفة ، بل اننا نجد أن هناك ظروفا اجتماعية وسياسية عديدة تحد من انطلاق حركة النظام السياسى فى مقابل ذلك فانه مطلوب من الزعامة السياسية فى العالم الثالث تحديث النظام السياسى من ناحية ، وتنمية المجتمع فى ظل موارد محدودة وغائبة من ناحية ثانية . غير أنه لظروف عديدة يكون النظام السياسى عاجزا فعلا عن تحقيق انجازات واضحة . ومن ثم غير قادر على اشباع الحاجات الاساسية للجماهير . وبذلك يتخلق وضع تكون فيه الشرعيـــة ضعيفة وغير ممتدة الجذور ، فى مواجهة مطالب تثقل كاهل النظام السياسى ولا يستطيع الوفاء بها . وتكون النتيجة القطيعة بين الجماهير والنظـــام السياسى ، ومن ثم تخلق حالة من التوتر وعدم الاستقرار .

وترجع حالة عدم الاستقرار هذه الى طبيعة التطور السياسى لمجتمعات العالم الثالث ، اذ تميز التفاعل فى هذا العالم بعد الحرب العالمية الثانية بتزايد الصراع الطبقى والعنصرى ، وأيضا بعنف لدهماء والتمردات المطردة والمتنوعة ، وأيضا بالانقلابات العسكرية المستمرة . ويمكن تحديد ذلك بأنه خلال العقدين التاليين للحرب العالمية الثانية نجح ما بين ١٧ ، ٢٠ انقلابا داخل أقطار أمريكا اللاتينية (وقد حافظت المكسيك ، شيلى ، أورجواى على استناد التفاعل السياسى الى المعايير الدستورية ، وفى حوالى ستة من أقطار شمال أفريقيا والشرق الأوسط (الجزائر ، مصر ، سوريا ، السودان ، العراق ، تركيا) . وفى عدد مماثل من أقطار وسط وغرب أفريقيا (غانا ، نيجيريا ، داهومى ، فولتا العليا ، جمهورية أفريقيا الوسطى ، الكونغوا) . وفى عديد من المجتمعات الآسيوية (باكستان ، تايلاند ، لاوس ، فيتنام الجنوبية ، بورما ، أندونيسيا ، كوريا الجنوبية) . وقد شملت أحداث العنف الثورى ، والعصيان المسلح والحروب الفدائية أقطاراً كثيرة منهـــا (كوبا ، بوليفيا ، بيرو ، فينزويلا ، كولمبيا ، جواتيمالا ، جمهورية الدومينيكان) فى أمريكا اللاتينية ، وبعض أقطار الشرق الأوسط (الجزائر واليمن) وبعض

أقطار آسيا (أندونيسيا ، تايلاند ، فيتنام الشمالية ، الصين ، الفلبين ، الملايو ، لاوس ، فيتنام الجنوبية(٧٤) .

وفى الخمسينات والستينات من هذا القرن تزايدت أحداث العنف والفوضى السياسية بصورة درامية فى معظم أقطار العالم الثالث . فمثلا شهد عام ١٩٥٨ وحده نحو ٢٨ عصيانا فدائيا مستمرا ، وأربعة انتفاضات عسكرية ، وحربين تقليديتين . وبعد سبع سنوات من ذلك التاريخ ، أى فى ١٩٦٥ شهد العالم الثالث ٤٢ عصيانا شاملا ومستمرا ، وعشر تمردات عسكرية ، وخمس صراعات تقليدية . ومن الواضح أن حالة عدم الاستقرار تزايدت بصورة واضحة خلال عقدى الخمسينات والستينات ، حيث تضاعفت حالات العنف وأحداث عدم الاستقرار نحو خمس مرات فى الفترة ١٩٥٥ — ١٩٦٢ عن نظائرها فى الفترة ١٩٤٨ — ١٩٥٤ . حيث أصبحت ٦٤ قطرا أقل استقرارا من بين ٨٤ قطرا فى الفترة السابقة . وقد ظهر انخفاض ملحوظ فى قوة النظام السياسى وقدرته على السيطرة داخل أقطار آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، وأيضا ضعف فاعلية السلطة وانخفاض شرعية الحكومة . وظهر انتقاد للمعايير الوطنية ، والروح العامة ، وأيضا النظم السياسية القادرة على توجيه المصلحة العامة واضفاء معنى عليها . وبذلك يتضح أن الانهيار السياسى وليست التنمية السياسية هى التى تتحكم فى واقع العالم الثالث ، وذلك حسبما يوضح الجدول التالى :

جدول رقم (٣) يوضح الصراعات العسكرية

فى الفترة بين ١٩٥٨ — ١٩٦٥ (٧٥)

السنة / نمط الصراع	١٩٥٨	١٩٥٩	١٩٦٠	١٩٦١	١٩٦٢	١٩٦٣	١٩٦٤	١٩٦٥
العصيان الفدائى المستمر وغير المنتظم	٢٨	٣١	٣٠	٣١	٣٤	٤١	٤٣	٤٢
الاضراب ، الانقلابات العسكرية والتمردات القصيرة	٤	٤	١١	٦	٩	١٥	٩	١٠
الحروب العسكرية التقليدية والصريحة	٢	١	٦	٦	٤	٣	٤	٥
المجمــــوع	٣٤	٣٦	٤٧	٤٣	٤٧	٥٩	٥٦	٥٧

واذا كان النظام السياسى المستقر والمتكامل يعتبر شرطا اساسيا لقدرته على تحمل أعباء التنمية الاقتصادية — الاجتماعية ، ودعم استمرارها ، فان هناك مجموعة من الظروف التى تتخلق فى بناءات مجتمعات العالم الثالث ، تؤثر على فعالية النظم السياسية وقدرتها على تحمل أعباء التنمية ، وأنه يمكن القول بأنها مجموعة الظروف التى تساهم فى خلق أزمة أو مأزق يعيشه النظام السياسى بين كونه مطالبا بتأسيس التنمية من ناحية وبين عجزه عن تحمل أعباءها من ناحية أخرى . وسوف نذكر بعضا منها .

١ — من هذه الظروف مثلا الفساد السياسى والادارى الذى يسود النظام السياسى لمجتمعات العالم الثالث . ولعل أبرز ملامح هذا الفساد سيطرة بعض القادة غير المستقرين على المستوى الشخصى على الزعامة السياسية فى العالم الثالث . حيث تشرع هذه الزعامات فى العـــادة فى تأسيس سياسات اجتماعية واقتصادية مدمرة . هذا الى جانب انتشـــــار الفساد اللافت للنظر بين الوزراء وكبار الموظفين العموميين . وأيضا الانتهاك المتعسف لحريات المواطنين وحقوقهم . الى جانب انخفاض معايير الأداء والكفاءة البيروقراطية ، وكذلك الاغتراب المتنامى للجمـــاعات السياسية الحضرية ، وافتقاد السلطة القضائية والتشريعية المستقلة ، وكذلك التشتت الواضح للأحزاب السياسية بل انهيارها الكامل أحيانا . بالاضافة الى ذلك سيادة النظم الدكتاتورية والعسكرية فى كثير من أقطار العالم الثالث ، وخاصـــة أمريكا اللاتينية مثل هاييتى ، براجواى ، نيكاراجوا ، هـــذا الى جانب انتشار النظم التقليدية كما فى ايران وليبيا والحبشة (قبل الثورات التى قامت بها) وتايلاند وهى النظم التى حاولت اصلاح نفسها حتى اطاحت بها ثورات قامت من داخلها (٧٦) .

٢ — الى جانب ذلك هناك تفسير يؤكد أن العنف وعـــدم الاستقرار السياسى فى العالم الثالث يعتبر نتيجة طبيعية للتحديث والتغير الاجتماعى السريع الذى يفرز جماعات سياسية جديدة ، خاصة اذ تزاوج ذلك مع النمو البطىء للنظم الساسية . وفى هذا الصدد لاحظ توكفيل انه من بين القوانين التى تحكم المجتمعات الانسانية ، ذلك القانون الذى يؤكد انه اذا اردنا ان يظل البشر مواطنين أو أن نجعلهم كذلك ، فان علينا أن نخلق الظروف التى تؤكد المساواة بينهم (٧٧) . اذ نتج عدم الاستقرار السياسى فى أفريقيا وآسيا

وأمريكا اللاتينية من الفشل فى خلق مثل هذه الظروف . حيث تنمو المساواة فى المشاركة السياسية بسرعة أكبر من نمو أسلوب جمع البشر فى اطار من التضامن والنظم . اذ يعمل التغير الاجتماعى والاقتصادى — الذى نجد انعكاساته فى زيادة معدلات التحضر ، والتعليم ومحو الأمية ، والتصنيع ، واتساع فاعلية وسائل الاعلام — على توسيع الوعى السياسى ، وتعدد المطالب والاحتياجات السياسية ، واتساع المشاركة السياسية . ومن شأن هذه التغيرات أن تقل من فاعلية المصادر التقليدية للسلطة السياسية والنظم السياسية التقليدية ومن ثم فان من شأن ذلك أن يعقد مسألة تأسيس قواعد جديدة للتضامن أو التنظيم السياسى أو النظم السياسية الجديدة . ومن الطبيعى أن يشهد هذا الوضع تناقضا بين عنصرين ، حيث نجد من ناحية ارتفاع معدلا التعبئة الاجتماعية واتساع معدلات المشاركة السياسية ، وذلك فى مقابل انخفاض معدلات التنظيم السياسى والتنشئة (الصياغة النظامية) السياسية . وتكون النتيجة هى انتشار حالة من الفوضى وعدم الاستقرار السياسى . ومن ثم تحدد المشكلة الأساسية فى هذا الصدد فى تلكؤ نمو النظم السياسية وتخلفها عن التغير الاجتماعى والاقتصادى(٧٨) .

٣ — ويعتبر دور الحكومة فى اطار النظام السياسى والمجتمع أحد الجوانب المتصلة بالأزمة السياسية للعالم الثالث . خاصة اذا كانت الحكومة تعمل حسب المفاهيم الغربية فى واقع العالم الثالث الذى يختلف بالتأكيد عن الواقع الغربى حيث تتباين الظروف البنائية . ولكى تكون الحكومة فعالة وقادرة ، لا بد أن تكون قادرة على السيطرة على المحكومين ومن ثم قادرة على السيطرة على نفسها . واستنادا الى ذلك نجد ان الحكومات فى كثيرمن الاقطار الخاضعة لعملية التحديث ما تزال عاجزة عن اداء الوظيفة الأولى وبالتالى عاجزة عن أداء الوظيفة الثانية . واذا كانت بعض المجتمعات تؤكد على ضرورة استناد الحكومات فى العالم الثالث الى الاقتراع الحر تعبيرا عن مناخ الحرية والديموقراطية ، فان هناك من يرد على ذلك مؤكدا أن الحرية ليست هى المشكلة الأساسية ولكن خلق النظام العام الذى له شرعيته . وبطبيعة الحال فمن الممكن أن يمتلك البشر نظاما بلا حرية ، غير أنه ليس باستطاعتهم أن يمتلكوا حرية بلا نظام . فالسلطة ينبغى أن توجد أولا قبل أن تحدد . وفى العادة لا تمتلك السلطة فى الأقطار النامية وعيا كافيا ،

حيث تكون الحكومات تحت رحمة المثقفين أو الضباط المتآمرين أو الطلبة المتظاهرين .

وعادة ما نجد النظم السياسية ذات الأيديولوجيا الشيوعية فى العالم الثالث قادرة على تجاوز هذه الصعوبات . وبرغم أن التاريخ يوضح أن الحكومات الشيوعية ليست أفضل كثيرا من الحكومات الحرة فى التخفيف من المجاعات ، أو تحسين الصحة العامة ، أو التوسع فى الانتاج القومى ، أو تأسيس الصناعة ورفع مستوى الرفاهية . الا أن الشىء الهام الذى نجحت فيه هذه الحكومات الشيوعية يتمثل فى قدرتها على السيطرة والحكم . حيث نجدها تمثل فى العادة سلطة فعالة . فأيديولوجيتها توفر الأساس لشرعيتها ، ويوفر تنظيمها الحزبى الآلية النظامية لتعبئة الدعم الجماهيرى للحكومة لتنفيذ سياساتها . وبرغم أن عملية الاطاحة بالحكومة فى كثير من البلاد النامية يعتبر عملا بسيطا وسهلا . اذ يكفى لتحقيق ذلك كتيبة عسكرية واحدة ، ودبابتين ، وستة من الضباط من ذوى الرتب المتوسطة ، نجد أنه لا توجد هناك حكومة شيوعية واحد فى أى من البلاد النامية تمت الاطاحة بها بواسطة انقلاب عسكرى . فالتحدى الحقيقى الذى يفرضه الشيوعيون بالنسبة للأقطار النامية ليس كونهم ذوى قدرة أفضل للاطاحة بالحكومات القائمة (وهى مهمة سهلة) . ولكن لكونهم بالتأكيد أفضل كثيرا فى تأسيس الحكومات واستمرارها (وهى مهمة صعبة) . فهم قد لا يقدمون الحرية — بالمفهوم الغربى لها — ولكنهم يقدمون السلطة الفعالة والمستقرة . فهم يؤسسون الحكومات التى تستطيع أن تحكم . وبينما يناضل الامريكيون لتضييق الهوة الاقتصادية فان الشيوعيون يقدمون للأقطار النامية أسلوبا فعالا لتجاوز الفجوة السياسية . وفى قلب العنف والصراع الاجتماعى الذى تغرق فيه الأقطار النامية ، تقدم الحكومات الشيوعية نظاما سياسيا ينشر الأمن ويسوده الأمان (٧٩) .

٤ — وتعتبر طبيعة العلاقة بين النظام السياسى الحديث من ناحية والقوى الاجتماعية السائدة من ناحية أخرى احد الأبعاد الأساسية المشكلة لأزمة العالم الثالث فى جوانبها السياسية . اذ يعكس النظام السياسى الذى استطاع المجتمع تحقيقه طبيعة العلاقة المتبادلة بين النظم السياسية من ناحية والقوى الاجتماعية التى تحتويه من ناحية أخرى . وتعبر القوة

الاجتماعية عن جماعة تتحدد على أساس عنصرى أو دينى أو اقليمى أو اقتصادى أو عائلى قرابى . والى حد كبير تتضمن عملية التحديث تنويع القوى الاجتماعية فى المجتمع واحتمالية استبدالها . حيث يمكن استبدال التجمعات الدينية والقرابية والسلالية بواسطة التجمعات الطبقية والمهنية وتجمعات المكانة . وفى هذا الصدد يعتبر التنظيم أو الاجراء السياسى من ناحية أخرى اطارا للحفاظ على النظام وحل المشكلات واختيار القادة الذين تفوض اليهم السلطة . وفى اطار ذلك قد يحتاج المجتمع السياسى البسيط الاستناد الى أى أساس مهنى أو دينى أو عنصرى ، وحينئذ تكون حاجته ضئيلة للنظم السياسية المتطورة . ومع ذلك فكلما كان المجتمع اكثر تعقيدا وتباينا كلما كان تحقيق النظام السياسى والحفاظ عليه يعتمد الى حد ما على فاعلية النظم السياسية .

وعمليا فالتمييز بين النظام السياسى والقوة الاجتماعية ليس صارما . حيث يمكن أن تنعكس خصائص كليهما فى جماعات كثيرة ، هذا الى جانب عدم وضوح التمييز النظرى . فكل البشر الذين يشاركون فى النظام السياسى قد يصبحوا أعضاء فى عديد من الجماعات الاجتماعية . ومن الواضح أن تأثير وقوة القوى الاجتماعية يختلف الى حد كبير من مجتمع الى آخر . ففى المجتمع الذى ينتمى فيه الجميع الى نفس القوة الاجتماعية ، فان الصراعات تكون محدودة ، ويتم تعريفها من خلال بناء القوة الاجتماعية . ولا يكون من الضرورى وجود نظم اجتماعية وسياسية متميزة . أما فى المجتمع الذى يضم مجموعة من القوى الاجتماعية القليلة ، فاننا نجد ان احدى الجماعات — المحاربين ، القساوسة ، عائلة معينة ، جماعة عرقية أو عنصرية — قد تسيطر على الآخرين ومن ثم تخضعهم بفاعلية للتسليم بحكمها . اذ قد يوجد المجتمع بدون أن يكون له مجتمع سياسى أو يمتلك مجتمعا سياسيا ضعيفا . غير أنه فى المجتمع الذى يتميز بدرجة عالية من التباين والتعقيد . لا يكون فى امكان قوة اجتماعية واحدة أن تحكم او ايضا ان تخلق مجتمعا سياسيا بدون تأسيس نظم سياسية لها وجودها المستقل عن القوى الاجتماعية التى دفعت الى وجودها . فالأقوى حسبما يذهب روسو لن يمتلك القوة الكافية ليصبح سيدا ، اذا لم يحول القوة الى حق والطاعة الى واجب . وفى المجتمع الذى يمتلك درجة عالية من التعقيد ، تتغير القوة

النسبية لمختلف الجماعات ، ولكن اذا أردنا أن يتحول المجتمع الى مجتمع سياسى ، فان قوة كل جماعة ينبغى أن تمارس من خلال النظم السياسية التى تهذب وتعدل وتعيد توجيه هذه القوة بحيث تصبح قوة الجماعة متوافقة مع قوى الجماعات الأخرى (٨٠) .

٥ — ويعتبر غياب الالتزام الأيديولوجى على المستوى السياسى من أهم عوامل الأزمة السياسية فى العالم الثالث . واذا كان المجتمع السياسى وظهور النظم السياسية تعبير عن عقد اجتماعى تم داخل مجتمعات العالم الثالث ، فاننا نجد أن الأيديولوجيا هى التى تبرر أساسا هذا العقد بالطبيعة التى ظهر بها . فالتوجه الأيديولوجى الواحد هو الذى يدفع الصفوة السياسية من ناحية والجمهور من ناحية أخرى الى السير فى طريق واحد لتأسيس التنمية الاجتماعية الاقتصادية . بل ان الأيديولوجيا هى التى تخلع على التنمية طبيعة محددة . واستنادا الى ذلك نجد أن العالم الثالث يعانى من فراغ أيديولوجى أو تستطيع لأيديولوجياته ، حينما يتوقف الأمر عند مستوى الشعارات العامة دون التحول الى قيم يمكن تنشئة الأفراد داخل المجتمع على أساسها . يعانى العالم الثالث أيضا من كثرة تغيير التوجهات الأيديولوجية ، وهو الأمر الذى يضعف من فاعلية التوجهات الأيديولوجية لهذا العالم بحيث يجعلها عاجزة عن قيادة المجتمع . بل ان ذلك قد يساعد على نمو تنوع هائل من الجماعات ذات التوجهات الأيديولوجية المتباينة الذى قد ينشأ الصراع بينها والتى يضيف تواجدها على هذا النحو بعدا جديدا للأزمة السياسية التى تمر بها مجتمعات العالم الثالث .

٤ — أزمة التنمية فى حوار الشمال مع الجنوب

عرضنا فى البعد الاقتصادى لأزمة العالم الثالث لملامح المشكلة التى يعانى منها وهى مشكلة عدم التكيف بين مكوناته . وخاصة ما ينتمى من هذه المكونات الى الجنوب المتخلف أو الشمال المتقدم . فمثلا نجد أن الشمال يهتم أساسا بانقاذ نظامه المصرفى ، بينما يطالب الجنوب النظام المصرفى بمزيد من القروض والآجال أبعد . فاذا منح العالم الثالث قروضا بآجال أبعد فان

الأقطـــار النامية سوف تكون قادرة على اعادة الحيوية لاقتصـــادياتها ، واذا منحناها القروض فانها سوف تكون قادرة على الأقل على دفع فوائد ديونها . وحينئذ ، فان على الشمال أن يعيد جدولة ديون الجنوب ، بل ان عليه أن يقدم قرضا اضافية ، وذلك لتجنب عجز الميزانية الهائل فى معظم مجتمعات العالم الثالث . ويمكن القول بأن الازمة الاقتصادية التى تحكمت فى النظام العالمى كانت تمثابة اللكمة القاضية التى تلقاها العالم الثلث .
ومن ثم فاذا أراد الشمال أن يخفف من آثار هذه الضربة فان عليه أن يدفع مزيدا من المـــال للمدينين . لكن ما الذى ســـوف تفعله الأقطار النامية بالقروض الاضافية . ؟ . سوف تدفع بطبيعة الحال فوائد الديون . ولكن كيف يمكن توجيه هذه القروض الى الأغراض الاقتصادية والانتاجية ؟ فاذا كانت القروض الاكثر تعنى بنادق اكثر وسلعا ترفية أكثر ، فان العالم الثالث سوف يجد نفسه فى النهاية تحت وطأة أعتاء دين أكثر . اذ يرفض الشمال تبنى أى تنظيم يؤكد للجنوب أسعارا مستقرة وثابتة لمـــادته الخام . وليست هناك احتمالية فى المستقبل القريب لتخفيض الشمال لشروط الحمـــاية الجمركية لكى يسمح بدخول سلع اكثر مصنعة فى الجنوب الى أسواقه . كيف اذا يمكن للجنوب أن يهرب من قسوة مشكلات الاقتصاد العالمى ، الطريق الوحيد أمام العالم الثالث هو أن يوسع أسواقه من خلال التعاون الاقليمى أو مع مجتمعات تنتمى الى اقاليم مجاورة ، بحيث يشمل هذا التعاوم المـــادة الخام التصنيع والتجارة (٨١) .

اذ يمتلك العالم الثالث موارد كافية وخاصة به . وفى الحقيقة فان موارد هذا العالم المتخلف هى التى ابقت على النظام المصرفى الغربى ، وعلى صناعة السلات ، وصناعة سلع الاستهلاك حية لا تندثر . ولا يحتاج الانسان منا الى بحث طويل لكى يكتشف من الذى استفاد من زيادة أسعار البترول مثلا ؟ . الاجابة على ذلك تؤكد أن شركات البترول كانت المستفيد الأول من ذلك كذلك البنوك ، وتجار السلاح وكبار رجال التشييد والبنـــاء ، وملاك حقول النفط غير الاقتصادية . فى مقابل ذلك ما الذى حصل عليه منتجو البترول ؟ كل ما حصلوا عليه يتمثل فى مستودعات ضخمة من الأسلحة وايضا كميات هائلة من الديون ، وشهوات لا تشبع من كل انواع السلع الاستهلاكية .

ويمكن القول بأن هذه المجتمعات لو توقفت عن استهلاك هذه السلع الترفية لاغلقت المصانع المنتجة لها فى الغرب .

واذا انخفضت أسعار البترول كما حدث الآن ، من الذى سوف يستفيد ايضا . حسب ما تذهب اليه التقارير سوف يؤدى انخفاض الأسعار الى التأثير على مجموعة الدول الصناعية . وسوف يكون له تأثير مفيد أيضا على معدلات التضخم . فمثلا اذا انخفضت أسعار البترول الى نحو ٢٥ دولار امريكى للبرميل ، فان ذلك سوف يوفر نحو ٥٥ بليون دولار أمريكى ، أى بما يعادل ٧و٪ من اجمالى الدخل القومى لمنظمة التعاون الاقتصادى والتنمية وسوف يستفيد البنك الدولى أيضا . وسوف تتزايد السيولة العالمية . وتتضخم كمية الودائع العالمية (أعنى اجمالى النقد الكائن فى النظام المصرفى ولا يتم تداوله فى الأسواق الأوروبية) التى بقيت دون أن يحدث تداول لها .

لكن هل ستستفيد الاقطار النامية من أسعار البترول ؟ الاجابة هنا سوف تكون محكومة بشروط كثيرة . فقد يستفيد منتجوا البترول اذا استطاع اجمالى الانتاج أن يقود الى عائدات مالية عالية . وقد تستفيد الأقطار المستوردة للبترول أيضا اذا استمرت فى استيراد كميات البترول الحالية . وقد تستفيد الأقطار النامية من زيادة التبادل التجارى ، ومن تثبيت أسعار السلع ومن تخفيض أسعار البترول الذى يمنح الاقتصاد العالمى دفعة قوية من النمو (٨٢) .

فاذا أردنا تشخيص أحوال الجنوب وطبيعة الأزمة الاقتصادية التى يعانيها . فاننا سوف نجد أن هذا العالم يعانى من عجز بلغ نحو ١٨٠ بليون دولار أمريكى فى الفترة من ١٩٨٠ — ١٩٨٢ ؛ بل اننا نجد أن معدل اقراض البنك الدولى قد تراخى الى حد كبير . ومن ثم فليس هناك مخرج أمام مجتمعات العالم الثالث للهروب من حالة السكون وعدم الاقراض الحالية . وبذلك سوف تعنى القروض الأكثر فى ظل شروط البنك الدولى الحالية استمرار النظام الاقتصادى المستغل وغير العادل أو أيضا استمرار النظام النقدى القهرى . وفى هذه الظروف سوف تظل اقتصاديات الأقطار النامية رهينة فى يد النظام الاقتصادى المعاصر . ومن ثم فعلى

الجنوب — لكى يخرج من أزمته — أن يسلخ نفسه عن هذا النظام وعليه أن يطور نظاما خاصا به من أجل أن يتفاوض على أساس المساواة مع الشمال (الغربى والشرقى) . فى هذا التفاوض نجد أن الشمال يتحدث بصوت نظمه الممثلة — البرلمانات ، والهيئات ، والصحافة الحرة — بينما نجد أن الجنوب يتحدث بصوت قادته الذين يمثلون أنفسهم والذين تعكس شخصياتهم الملامح القديمة ذات الطابع العسكرى ، والاستبدادى والاقطاعى الذى يميل الى الطغيان . هذا الى جانب أنه ليس لدى الجنوب صحافة حرة ، وليس فيه سوى برلمانات قليلة وهزيلة ، وقليل من المجالس والهيئات . وهو الوضع الذى يجعل فاجعة الجنوب هائلة .

أما سبب فشل حوار الشمال مع الجنوب ، فمرجعه ليس لأن الجنوب غير معد وغير جاهز من الناحية الفنية ، ولكن فشل هذا الحوار لأن شعوب الجنوب ليس لديها شيئا تقوله فى اطاره . وذلك هو الذى جعل من الممكن ، بل من المقنع بالنسبة للدول الصناعية أن تتعامل مع حكومات الأقطار النامية بأساليب متنوعة .

فمما لا شك فيه أن اقتصاديات أقطار الجنوب قادرة على التوسع الهائل ، فمصادر الاستثمار متيسره له . ذلك يمكن أن يتحقق اذا تولدت لدى الجنوب ارادة تتحمل أعباء نموه . فاذا توفرت الارادة السياسية لهذا العالم فسوف يستطيع الجنوب حل مشكلاته . فما هى هذه الارادة السياسية . الواضح أنها ليست خاصية أو صفة فلسفية مجردة . وانما الارادة السياسية تعتبر تحديدا للنظام الاجتماعى الذىيسود قطرا معينا . وحينما لا يكون النظام الاجتماعى والسياسى نيابيا فان هذا النظام سوف يؤدى دوره باعتباره مفوضا ، وحليفا للأنظمة والترتيبات التى يمكن استغلال البشر وقهرهم فى ظلها .ومن ثم يتطلب أى برنامج للتعاون بين الشمال والجنوب مطلبين أساسيين .

ويتمثل المطلب الأول فى ضرورة تحول الأنظمة السياسية والاجتماعية فى الأقطار النامية الى أنظمة نيابية وديموقراطية . فالحكومات الممثلة لارادة شعوبها هى فقط القادرة على العمل من أجل رفاهيتها وهذه الحكومات هى التى يمكنها فقط أن تتعاون مع الحكومات الأخرى التى تسعى نحو تجسيد ذات المثل .

ويستهدف المطلب الثانى ضرورة أن يفك الجنوب اشتباكه وعلاقاته بسباق التسلح . اذ أنه على الأقطار النامية أن تطور ترتيباتها من أجل الأمن الاقليمى . وذلك من أجل أن تؤسس نوعا من علاقات الجوار الحسنة مع الدول المجاورة . وهى العلاقات التى سوف تجعل من غير الضرورى الاحتفاظ ببقاء جيوش هائلة وعلى أهبة الاستعداد مزودة بأفضل وسائل التدمير . وكنتيجة لذلك سوف لا يساعد التخفيض الواضح للانفاق العسكرى على اعادة توجيه الموارد القومية من أجل التعليم والصحة والتنمية فقط ، ولكنه سوف ييسر أيضا المشاركة الأكثر من قبل الشعب فى برامج التنمية القومية . فأى خطة للتنمية لا تعتمد على التحويل الكامل لموارد الانفاق العسكرى الى التنمية الاقتصادية والاجتماعية سوف لا تتمكن من تحقيق اية أهداف اقتصادية قومية (٨٣) .

واستناداً الى مبدأ تطوير النظم الاجتماعية النيابية والعادلة داخل العالم الثالث ، وأيضا الاستفادة القصوى من الموارد القومية من أجل تحقيق أهداف التنمية (مع استبعاد النفقات العسكرية الضائعة) فان برنامج التعاون بين الشمال والجنوب يمكن السعى نحوه وتجسيده بدعم الشعوب ومشاركتها الخلاقة . قد يكون الطريق طويلا ، وقد لا تنتظرنا سوى المعاناة فيه ، ومع ذلك فهو الطريق الوحيد من أجل التنمية (٨٤) .

خلاصة القول أن العالم الثالث يعانى أزمة بنائية لها أبعادها المتعددة . بحيث أن تفاعل هذه الأبعاد على النحو التى هى عليه الآن سوف يضع هذا العالم فى وضع حضارى لا يحسد عليه . بحيث يتميز هذا الوضع بأبعاده المتعددة . على النحو التالى :

(ا) ففى قلب عام تجاوز مرحلة الأيديولوجيات المتناقضة ، ويدخل الآن فى مرحلة الاقتراب الأيديولوجى أو الحوار الأيديولوجى . ففى مقابل مغازلة الولايات المتحدة للصين يحاول الاتحاد السوفيتى الاقتراب من أوربا الغربية واليابان ولو من باب الاقتصاد — يجد أن العالم الثالث ينفصل أيديولوجيا ، حيث عالم لم يعثر على أيديولوجيته بعد . أو يعيش — فى أحسن الأحوال — حالة من التبعية الأيديولوجية . وهو عالم واجه فشلا مريراً فى محاولة العثور على مبادىء التحديث التى تتصل عضويا بتراثه والقادرة فى ذات الوقت على استيعاب قيم التحديث وتمثلها .

(ب) من الناحية الاقتصادية نجد أن العالم الثالث قد اتحد عضويا مع النظـــام الاقتصادى العالمى من خـــلال عملية الاستعمار حيث فترات السلب والنهب لموارده والتطور المشوه لبنائه . وهو الآن يتحد عضويا مع النظام الاقتصادى العالمى من خـــلال عملية التبعية . واذا كانت مواردة هى هدف السلب والنهب فى مرحلة ســـابقة فان أسواقه وطاقة العمل التى يمتلكها هى الهدف الذى تسعى القوى العالمية للحصـــول عليه . وعلى هـــذا العالم ان يسبق الزمن لكى يبحث عن طريق جديد للتطور معتمدا فيه على ذاته ، بغير ذلك سوف يصبح هامشا متخلفا للنظـــام العالمى لن تسعى الى تطويره أنانيـــة المتقدمون .

(جـ) يعانى هـــذا العالم أيضا من فقد الارادة . وحسبما أشرنا سابقا يتضح لنا أن هـــذا العالم لا يمتلك اردة سياسية حقيقية . بل على العكس من ذلك يعبر زعماؤه فى الغالب عن توجهاتهم الشخصية ، ثم يحاولون اضفاء الطابع الاجتماعى عليهـــا من خـــلال فرضها قهرا على الجماهير . واذا كانت الارادة السياسية تعنى النظام السياسى الذى يتيح مشـــاركة الجماهير فى التفاعل ، ثم تعبير الصفوة عن اتجاهاته بقرارات محددة . فان هـــذا العالم يعانى من عدم المشـــاركة ، وأيضا من عدم تعبير قمة النظـــام السياسى عن تفاعلات القاعدة .

(د) انه وان ادعى الأدب التنموى بأن هـــذا العالم يعيش حالة انتقال من المرحلة التقاليدية الى المرحلة الحديثة ، فواقع الأمر أن عمليـــة الانتقال لم تعد مرحلة تاريخية عابرة ، وانما أصبحت وجودا بنائيا مستمرا . حتى اصيبت مجتمعات العـــالم الثالث بمرض الازدواجية أو الثنائية البنائية . فنحن اذا نظـــرنا الى هـــذه المجتمعات ســـوف تواجهنا ازدواجيات أو ثنائيات كثيرة . ثنائية الريف والمدينة ، حيث نجد أن الريف فى كل مجتمعات العالم الثالث له خصائصه المتناقضة الى حد كبير مع خصائص المدينة ، بل اننا نجد أن التنمية عادة ما تكون لها آثارها المتباينة على كل منهما . فتقدم المدينة يعبر عادة عن تخلف الريف ، وتحويل فائض انتاج الريف ســـوف يعنى مزيدا من ترف المدينة . هنـــاك أيضا ثنائية الحداثة والتقليد اذ تتعايش فى هذه المجتمعات قيم التحديث والتراث برغم التناقض الداخلى

بينهما ويزداد الأمر سوءا حينما تنشأ الشخصية فى العالم الثالث على هـذه الازدواجية القيمية • وتزداد الكارثة عمقا حينما تتطابق الثنائيتان .

(هـ) تشهد هـذه المجتمعات أيضا وضعا سياسيا تتجاوز فيه قوة وفاعلية القوى الاجتماعية المختلفة قوة وفاعلية النظـام السياسى . ومن ثم نجد أن الفرد داخل هـذه المجتمعات اما أن يكون انتماءه انتهازيا يرتبط بقوته الاجتماعية ــ دينية كانت أم سلالية أم قومية أم قرابية ــ حينما لا يتكيف مع النظـام السياسى ، ويرتبط بالنظـام السياسى حينما لا تشبع القوة الاجتماعية التى ينتمى اليها طموحاته ، وهو فى ذات الحالتين هامشى من حيث انتمائه . وهناك الىجانب ذلك وضعا قد يعزف فيه الفرد عن المشاركة فى التفاعل السياسى لأن ولاؤه لجماعيته أساسا ذلك يحدث بصفة خاصـة اذا لم يبذل السـياسى جهدا جادا وواعيا لدعوة الجماهير الى المشاركة الفعالة ، هـذا الى جانب أن وجود قوى اجتماعية متبلورة داخل بنـاء المجتمع يفتح امكانية الصراع بينها وبعضها البعض من ناحية ، أو بينها وبين النظـام السياسى من ناحية أخرى (٨٥) .

(ز) بالاضافة الى ذلك فاننا نجد أنه اذا كانت القوى الاستعمارية هى التى استنزفت موارد هذا العالم فى المـاضى ، فانها ليست مستعدة الآن للتخلى عن بعض فائضها لتنمية هـذا العالم التى تولت نهبه وتشويه تطوره . ولعل ذلك هو السبب الرئيسى فى عـدم الوصول الى نتيجة من حوار الشـمال مع الجنوب لاصلاح النظـام الاقتصادى وتنمية العـالم الثالث كجزء من هـذا النظـام . ربما لأن العالم المتقدم ــ عن أنانية ــ لا يريد أن يفرط فى بعض فائضه وترفه لصالح الجنوب . أو لأن الجنوب ذاته لا يعرف ما يريد ، ويبدد عن فسـاد ما يحصل عليـه . وهو ما يشـكل البعد العالمى فى أزمة العالم الثالث .

خلاصة القول أن هـذا العالم يواجه أزمة على كل المستويات ومن مختلف الجوانب . وأنه من الضرورى تشخيص أبعاد هـذه الأزمة تمهيدا لتحديد اتجاهات التنمية وأساليب الانطلاق . وهو الجهد الذى اهتم به الأدب التنموى الحديث على النحو الذى سوف نفصل فيه فى الفقرة التالية .

* * *

رابعا : تنمية العالم الثالث

طبيعة التشخيص النظرى

حسبما أشرنا سابقا برز العالم الثالث فى اطار النظام العالمى من خلال عمليـــة التباين التى حدثت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية . وقد ســـاعد على ذلك المعطيات التى نقلها الجنود الذين حاربوا على أرض هـــذا العالم المتخلف ، وهى المعطيات التى ساعدت بدورها على خلق نوع من الاهتمام العام بهـــذا العالم ، ونوع من الاهتمام الأكاديمى للاجابة على تساؤلات عديدة تتعلق به ، ما هى أســـباب التخلف ، وما هى مظاهره ، ثم ما هى الطريقة التى يمكن أن ينتقل بها العالم من الوضع المتخلف الى حيث التقـــدم والتحديث . وأفرزت هـــذه المرحلة أدبا نظريا تعلق بتشخيص ملامح التخلف وطبيعة الظواهر التى تقع حينما يتصادم التقدم والتخلف على أرض واحدة .

واستنادا الى منطق التراكم المعرفى الذى يعتبر أحد خواص العلم المحورية ، بدأ اهتمام عام بتأسيس مجموعة من الفرضيات النظرية التى تحاول تفسير التخلف أو التقدم أو طبيعة العلاقة المتبادلة بينهما . بحيث بدأت هـــذه الصياغات النظرية تستفيد من التراث النظرى القائم فى اطار النظرية العـــامة لعلوم الاجتماع والأنثروبولوجيـــا والنفس والاقتصـــاد والسياسة . هـــذا بالاضافة الى التعليمات النظرية التى أمكن تجديدها من خـــلال المعطيات التى طرحت نفســـها خلال هـــذه المرحلة .

ويمكن القول بامكانية انقسام الأدب التنموى ــ تاريخيا ــ الى مجموعتين من النظريات ، تلك التى ترتبط عضويا بالتنظير الســـابق على ادراك ظاهرة التخلف التنمية ، ونستطيع أن نذكر فى هـــذا الصدد المنظورات التطورية والانتشارية . اذ لم تقدم هـــذه الاطر النظرية تعميمات نظرية جديدة مجردة عن الواقع الجديد بقدر ما حاولت تفسير ظاهرة انســـانية قائمة بالنظر الى مخزون قضاياها النظرية . بيد أنه يمكن القول بأن هـــذه

المجمـــوعة قد لعبت دورا مرحليـــا يتمثـــل فى الاستكشاف المبـــدىء لهـــذه الظاهرة (*) .

على خلاف ذلك نجد أن المجموعة الثانية من النظريات ركزت اهتمامها اساسا بظاهرة التخلف والتنمية . وهـــذه المجموعة وان استندت فى أصولها النظرية الى التنظير الاجتماعى القائم الا انها استفادت منه كأسلوب منهجى لاستكشاف هـــذه الظواهر بحيث تمكنت فى النهـــاية من الوصول الى بعض التعميمات النظرية المجردة أساسا عن واقع التخلف والتنمية أو عن طبيعة العلاقة المتبادلة بينهما . وبذلك يمكن القول أن نظريات هـــذه المجموعة ظهرت كانعكاس أو تجريد نظرى لهذه الظواهر الجديدة . وابرز هـــذه النظريات هى نظرية التحديث ، ونظرية التبعية .

وتشكل نظريات التحديث والتبعية منظورات مختلفة تماما . تحاول كل منها تفســـير حقيقة واحدة هى حقيقة التخلف والتنمية . حقيقة أن بداية كل من هـــذه النظريات تنتمى الى نظام عقلى يختلف عن النظـــام الذى تنتمى اليه النظريات الأخرى . كلاهما له أحكامه القيمية المختلفة ، وافتراضاته ومنهجيته المتباينة . ومن ثم تفسيره المختلف لحقيقة التنمية والتخلف . ونحن لا نهدف من هـــذا العرض الموجز البحث فى أصول كلا النظريتين ، ولا ابراز أكثر العناصر عملية فى أى منهما ، أو مقارنة موقف كل منها من ظاهرة التخلف والتنمية فى العالم الثالث . ولكن كل ما نحاوله هو تقديم نموذج مثالى لكل من هـــذه المنظورات يحتوى على أكثر القضايا اتفاقا داخل اطارها . ذلك برغم الاختلافات الهائلة داخل كل منظور من هـــذه المنظورات ، هـــذه الاختلافات التى تدور عادة حول طبيعة العنصر المحورى فى بنـــاء التصور النظرى أو حول الصياغة التصورية للمفاهيم ، أو فى استخدام هـــذه المفاهيم أثناء عمليـــة التحليل ، ثم تصـــورها لديناميات التفاعلات الواقعية (٨٦) . وفيما يلى سوف نعرض لأهم المنظورات التى تناولت ظاهرة التخلف والتنمية فى العالم الثالث .

(*) يوجد عرض دقيق ورائع لكافة منظورات التخلف والتنمية بما فيها الانتشارية والتطورية فى مؤلف الدكتور السيد الحسينى : التنمية والتخلف دراســـة تاريخية بنائية . الطبعة الثانية . دار المعارف . القاهرة . ١٩٨١

(ا) نظرية التحديث ، تصورها لتنمية العالم الثالث .

(ب) نظرية التبعيـــة وتفسيرها لأســـباب التخلف .

وسوف نعرض فيما يلى للقضايا الأساسية التى تشـــكل البناء النظرى لكل من هـــذه النظريات .

(ا) نظرية التحديث ـــ تصورها لتنمية العالم الثالث

بدأ منظور التحديث من محاولة الاجابة على السؤال المتعلق بسبب وجود تناقض بين خبرة التنمية التى مرت بها الأقطار الأوربية فيما بعـــد الحرب العالمية الثانية من ناحية وخبرة التنمية التى مرت بها المجتمعات المتخلفة . ولقد دفعت محاولة الاجابة على هـــذا السؤال الى نشأة منظور التحديث . وهو المنظور الذى قام على تأسيسه عدد من علماء الانثروبولوجيا والاقتصـــاد والاجتماع والسياسة . ومنـــذ البداية يؤكد هـــذا المنظور على أنه من الضرورى الاهتمام بالخصائص الثقافية للأمم الحديثة فى محاولة تحديد امكانياتها للنمو . حيث تعتبر هـــذه العوامل غير الاقتصادية حجر الزاوية فى نظريات تحديث العالم الثالث (٨٧) .

وحتى بداية الستينات من هـــذا القرن أكد الفكر النظرى المتعلق بتنمية العالم المتخلف على أنه من الممكن تحقيق تقـــدم الأمم الفقيرة من خـــلال انتشـــار التحديث الكائن فى العالم المتقدم . وتصور التيارات الفكرية الهامة فى منظور التحديث الأقطار المتخلفة باعتبارها مجتمعات مزدوجة . حيث يوجد بها تخوم اقطاعية متخلفة الى جوار مراكز متروبوليتانية رأســمالية متقدمة . ولمـــا كان الريف ينظر اليه باعتباره يعيش حالة من الركود فى اطار النظام الاقطاعى بسبب عزلته عن فاعلية قوى الرأسمالية . ومن ثم ظهر نداء يطالب بضرورة تغلغل الرأسمالية فى هـــذه التخوم القـــديمة والمتخلفة اذا أردنا تحديثها ، وخلال هـــذه الفترة ظهر اعتقاد بأنه من الممكن أن ينتشر التقدم من الولايات المتحـــدة وأوربا الغربية الى المراكز الحضرية القومية داخل العالم الثالث ، ومن هـــذه العواصم الحضرية ، الى المدن الاقليمية ، ومن هـــذه الأخيرة الى الهوامش أو التخوم . وعلى ســـبيل

المثال رأى أيزنشدات عمليـــة التحديث باعتبارها (تغيرا متجها نحو نماذج الانســـاق السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى تطـــورت فى أوربا الغربية وامريكا الشـــمالية منـــذ القرن السابع عشر وحتى القرن العشرين ، ثم انتشر بعد ذلك الى أمريكا الجنوبية ، والى قارات آســـيا وأفريقيا) (٨٨) .

ويوجد فى اطار النظرية العـــامة للتحديث منظورا آخر يقترب الى حد كبير فيما يتعلق بالتخلف والتنمية من التفكير الســـابق . حيث يؤكد هـــذا المنظور على انه من المقدر على كل المجتمعات أن تمر خـــلال عملية النمو الاقتصادى بخمسة مراحل تاريخية متتابعة وهى (المجتمع التقليدى ، مرحلة التأهب للانطاق ، مرحلة الانطلاق ، ثم مرحلة التحرك نحو النضج ، واخيرا مرحلة النضج أو الاستهلاك الوافر) . ويتم تســـهيل عملية التنمية بواسطة تغلغل — وهو التغلغل الذى يتخذ عادة شـــكل التكنولوجيا الحديثة — المجتمعات المتقدمة فى ابنية المجتمعات التقليدية خـــلال مرحلة (التأهب للانطلاق) . وكنتيجة يقدم منظرى المذهب التجارى الأرثوذكسى النصيحة الكلاسيكية التى تذهب الى القول بأن الأمم المتخلفة ليست فى حاجة الى النضال من أجل التصنيع السريع ، اذا هى احتفظت بميزة مقابلة تتمثل فى قدرتها على انتاج المـــادة الخام لتصديرها (٨٩) .

وأيا كانت طبيعة الاتجاه الفكرى داخل نظرية التحديث فان البحث فى الأصـــول الفكرية لهذه النظرية يكشف عن وجود ثلاثة روافد أساسية دفعت الى هـــذا النموذج من التنظير .

ويتمثل الرافد الأول فى الفكر النظرى الذى ساد النظرية الانسانية فى الفكر الغربى بنظمها العقلية المختلفة . ويعتبر الفكر التطورى الذى حاول تفسير التطور الحضارى باعتباره يبدأ من نقطة انطلاق واحـــدة تتمثل فى المجتمعات المتخلفة أو البدائية وينتهى عند نقطة نهاية واحـــدة أيضا تتمثل فى المجتمعات الأوربية التى بدأت تشـــهد ثورة التصنيع . واذا كان الفكر التطورى قد فسر كيف يمكن أن تتتابع المراحل الحضارية وراء بعضها البعض ، وما هى آليات الانتقال بين كل مرحلة وأخرى . فقد حاول الفكر الانتشارى ان يفسر كيف يمكن أن تلحق بعض المجتمعات التى تنتمى الى مراحل حضارية متخلفة ببعض المراحل الحضارية المتقدمة .

واذا كان الفكر التطورى قد أكد على تطور بعض النظم أو حتى تطور المجتمع فى عمومه ، وأن الفكر الانتشارى قد ذهب الى القول بامكانية انتقال سمة ثقافية من مجتمع يعيش مرحلة متقدمة الى مجتمع يعكس تخلفه مرحلة حضارية سابقة فان الفكر البنائى الوظيفى قد لعب دورا رئيسيا فى التأكيد على امكانية انتقال البناء بكامله من مرحلة الى اخرى ، وليس بعض أو مجموعة من السمات المنعزلة فقط . اذ تنتشر السمات بين مجتمع المرحلة المتقدمة الى مجتمع المرحلة المتخلفة ، بحيث يؤدى تراكمها وتفاعلها مع عوامل داخلية الى تغيير الشـــكل البنائى للمجتمع والانتقال به الى مرحلة حضارية تالية . ومن ثم يمكن القول بأن التحديث على المســتوى الفكرى يعتبر نتاجا للتفاعل الذى تم بين كل من التطورية والانتشارية والبنائية الوظيفية فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا والاقتصـــاد .

وتعتبر التفاعلات الواقعية التى حكمت اتصال أوربا بالعالم الخارجى ابتداء من حركة الكشوف الجغرافية وحتى نهاية الحركة الاستعمارية الرافد الثانى فى هـــذا الصدد . حيث تأكد للعقلية الأوربية ــ من واقع البيانات التى جمعت عن المجتمعات غير الأوربية ومقارنتها بمعطيات الواقع الأوربى ــ ان ثمة اختلاف ثقافى وبنائى بين هـــذه النماذج المجتمعية ، وأن هـــذه المجتمعات غير الأوربية تقترب أو تبتعد بدرجات متفاوته من النموذج الأوربى ، وسواء كان ذلك انطلاقا من نزعة أوربية متمركزة حول الذات أو تحديدا لمعطيات واقعية ، فقد قام الباحثون بتدريج هـــذه المجتمعات باعتبارها تشـــكل مراحل تطورية بدايتها أكثر المجتمعات ابتعادا عن النموذج الأوربى ونهايتها النموذج الأوربى ذاته . ثم جرد ذلك فى شـــكل تعميمات نظرية شكلت العناصر الأساسية للاتجاهات التطـــورية والانتشارية والبنائيـــة الوظيفيـــة .

وقد شكلت طموحات الصفوة المثقفة فى العالم الثالث عشية الاستقلال الرافد الثالث لنظرية التحديث . فمن خلال معايشة هذه الصفوة للمجتمعات الأوربية خـــلال عملية الاستعمار نجد أن هـــذه الصفوات قد استوعبت النموذج الأوربى بداخلها . بحيث ولد ذلك لديها ادراكا كامنا لتخلف مجتمعاتها فى مقابل تقـــدم المجتمعات الأوربية ، وأنه من الضرورى لكى نحقق استقلالا حقيقيا ، فانه من الضرورى التخلى عن الملامح البنائية التقليدية والسعى

لاكتساب خصائص المجتمعات الأوربية على كل المستويات وفى مختلف المجالات . بحيث تجسدت هـذه الطموحات فى عمليات التنمية التى خاضتها مجتمعات العالم الثالث فى فترة الخمسينات وبداية الستينات والتى شكلتا تجارب اختبار لفرضيات نظرية التحديث فى هـذه المرحلة ، بحيث لعبت دور الواقع بالنسبة لقضايا النظرية (٩٠) .

وبغض النظر عن طبيعة النموذج النظرى الذى ينتمى لمنظور التحديث ، أو الأصول الفكرية لهذا المنظور ، فان الأمر المؤكد أن هـذه النظرية تمتلك تصورا واضحا لواقع التخلف والتقدم ، ثم أيضا لأسلوب الانتقال من الأول الى الثانى . بحيث يمكن أن يتكون هـذا التصور أو البناء النظرى من القضايا التالية التى تلقى اتفاقا بين مختلف الاتجاهات .

١ — ويعتبر ادراك التحديث باعتباره تطورا بين نموذجين بنائيين أحد القضايا الأساسية فى بناء هـذه النظرية . اذ تتماثل المكونات الأساسية لمنظور التحديث الى حد كبير مع النماذج المثالية لكل من التنظيمات الاجتماعية وأنساق القيم التقليدية والحديثة • وهو التمييز المستعار من علم اجتماع القرن التاسع عشر (*) . وطالما أنه يمكن ادراك المجتمعات — حسب منطق هـذه النظرية — باعتبارها تتحرك من الوضع التقليدى الى الوضع الحديث ، حيث تشكل هذه الثنائية نموذجين مثاليين يقعا عند نهايات متصل تطورى . ومن ثم نجد عند نقطة معينة على هذا المتصل ، تؤدى أى تغيرات مضافة الى تمهيد الطريق نحو قفزة كيفية باتجاه التحديث . ولا توضح نظرية التحديث مكان هـذه النقطة . ومن ثم فأقطار العالم الثالث بما فيها اقطار أمريكا اللاتينية تدرك باعتبارها لم تصل بعد الى عتبة التحديث ، حيث تسودها الخصائص التقليدية .

(*) يعتبر هربرت سبنسر ، واميل دوركيم ، وماكس فيبر من أهم مفكرى هـذه الفترة الذين طوروا تصورات نظرية لنماذج مجتمعية متقابلة . فهناك المجتمع العسكرى فى مقابل المجتمع الصناعى عند سبنسر ، وكذلك هناك مجتمع التضامن العضوى عند دوركيم ، وهنـاك المجتمع الرأسمالى المؤسس على الديانة البروتستينتية فى مقابل المجتمع التقليدى الذى لم يستطع تطوير النظـام الرأسمالى الحديث .

٢ — وتؤكد القضية الثانية على امتلاك كلا من هـذه النماذج البنائية (التقليدى والحديث) لخصائص مختلفة . وحسبما يحدد الفكر النظرى نجد أن العناصر المحددة التى يمكن تضمينها فى أى من النموذجين المتناقضين تختلف اختلافا جوهريا . اذ يدرك المجتمع التقليدى باعتبار أنه نموذج تسوده انماط السلوك والفعل التى تعكس خصائص العزوة ، الخصوصية ، الانتشار ، التأثرية أو العاطفية . الى جانب ذلك يتميز هـذا النموذج أيضا بانتشار البناء القرابى الممتد الذى يؤدى كمـا كبيرا من الوظائف على المسـتوى الاجتماعى والفردى . بالاضافة الى تميزه بحراك مكانى واجتماعى ضئيل . وترتيب محـدد للمكانات . وانشـطة اقتصادية ذات طابع اولى . وميل الوحدات الاجتماعية نحو السيادة المطلقة . وبناء سياسيا متجانسا ، يتضمن صفوة تقليدية ومصادر متدرجة للسلطة . وعلى خلاف ذلك نجد ان المجتمع الحديث يتميز بانتشار انماط السلوك والفعل التى تعكس خصائص الانجاز ، الشمولية ، التحدد ، والاتجاهات الحيادية . الى جانب ذلك ينتشر فى هذا النموذج بناء العائلة النووية التى تؤدى وظائف محدودة للغاية . ويسـوده نظاما مهنيا على درجة عالية من التباين . ويمتلك درجة عالية من الحراك الاجتماعى والمكانى ، وانتشار الأنشطة الاقتصادية الثانوية ، والانتاج فيه من اجل التبادل ، والتغير جوهرى فى هذا البناء ، والنمو فيه معتمد على الذات ، وتوجد فى هذا المجتمع ابنية سياسية متباينة للغاية ، مصادر شرعية السلطة فيه رشيدة ، وغير ذلك من الخصائص العديدة (٩١) .

٣ — وتتمثل القضية الثالثة فى افتراض أدب التحديث أن القيم والنظم وانماط القيم فى المجتمع التقليدى تعتبر تجليا للتخلف وسببا له فى ذات الوقت . الى جانب أنها تشكل المعوقات الأساسية فى طريق التحديث . ومن ثم ينبغى على المجتمعات المتخلفة لكى تدخل فى نطاق العالم الحديث ، أن تتجاوز المعايير والبناءات التقليدية ، بحيث تفتح الطريق أمام التحول السياسى والاجتماعى والاقتصادى . وبالنسبة لبعض المفكرين ينتج الحديث عن التباين الهائل فى الوظائف والنظم والأدوار الاجتماعية . وبديلا لذلك يطور المجتمع مصادر جديدة للتكامل . ويستند التحديث بالنسـبة لفريق آخر من المنظرين بدرجة اكثر على التحول الحقيقى للأفراد من خلال تمثلهم للقيم الحديثة . وبصفة عامة تتم مناقشة المصدر الأساسى للتغير بالنظر الى

التجديدات ، بمعنى رفض الاجراءات والممارسات المتصلة بالنظم التقليدية ، وبديلا لذلك يتم تبنى أفكار وقيم وأساليب وتنظيمات جديدة . ويسعى المجددون عادة لتجسيد هذه التجديدات ، ونتيجة لذلك تتصادم الجماعة التى تتحمل عبىء هذا الدور مع المدافعين عن النظام القديم ، فالصراع يتم عادة حول الاختيار بين أسلوبين مختلفين للحياة (٩٢) .

٤ ــ وتتعلق القضية الرابعة بطبيعة نموذج مجتمع التحديث . اذ أنه من المهم فى تحديد افتراضات أدب التحديث أن نلاحظ أن النموذج الحديث من بين النماذج المثالية للمجتمعات ، يعتبر المرجع التحليلى والتصورى الرئيسى ، وذلك لأنه يقترب بصورة دقيقة من الخصائص التى ينبغى أن تكتسبها المجتمعات التى تنشد النمو . ويعتبر النموذج التقليدى من بين هذه النماذج هو المقولة الراسبة ، التى يتم تأسيسها من خلال تضادها المنطقى مع النموذج الحديث . وبالتالى يتم اشتقاق الملامح الأساسية للنموذج الحديث من الخصائص التى تسود المجتمعات الحديثة فعلا . وفضلا عن ذلك فطالما أن كل المجتمعات سوف تخضع ، خلال عملية التحديث ، لتغيرات متشابهة ، فانه فى العادة يتم تبنى تاريخ الأمم الحديثة حاليا باعتبارها مصدرا للصياغة التصورية ذات النفع الشامل . واستنادا الى ذلك يلاحظ المؤرخ بلاك C.Black ذلك بقوله (برغم أنه ينبغى التسليم بالمشكلات التى تثيرها التعميمات المجردة عن أساس واقعى محدود (الأقطار الحديثة حاليا) فان تعريف التحديث يتخذ شكل مجموعة من الخصائص التى يعتقد فى امكانية ملائمتها لكل المجتمعات . وحينما يتم التفكير فى هذا التصور للتحديث باعتباره نموذجا أو نمطا مثاليا ، فانه بعد تأسيسه يمكن استخدامه كمقياس لقياس قدر التحديث الذى وقع فى أى مجتمع من المجتمعات)(٩٣) . ويضيف الموند G. Almond أنه لكى ندرس التحديث فى المناطق غير الأوروبية فان الباحث الاجتماعى يحتاج الى تأسيس نموذج مثالى لمجتمع التحديث ، يمكن أن يساعد بدوره على استنتاج أكثر التحليلات صورية وامبيريقية فيما يتعلق بوظيفة الدول الغربية الحديثة (٩٤) .

٥ ــ وتتعلق القضية الخامسة فى بناء نظرية التحديث بطبيعة القوة الدافعة للتحديث ذاته . وفى هذا الصدد يؤكد فالنزويلا S.Valenzvela أن القوى الدافعة للتحديث فى المجتمعات المتقدمة الآن كانت نتيجة لتحولات نظامية وثقافية منبثقة من الداخل أساسا . فى حين ينتج التغير فى الأقطار

الأقل نموا من مثير خارجي أصلا . اى انتشار النظم والقيم الحديثة من الأقطار التى تحدثت مبكرا . اذ تدرك صفوات العالم الثالث التى تتولى تحديثة أنها ينبغى أن توجه بالنموذج الغربى ، تقوم باختيار تكنولوجيته ثم التكيف بعد ذلك معها ، وبالتالى تتمثل قيمة وأنماطه فى السلوك والفعل ، وتستورد نظمه التعليمية والصناعية والمـالية وغير ذلك من المكونات البنائية . ويعتبر الاستعمار الغربى ، والمساعدات الأجنبية ، والفرص التعليمية المتاحة لأبناء المجتمعات المتخلفة للتعلم فى الخارج ، والاستثمارات الاقتصادية فى العالم الثالث ، ووسائل الاعلام ، وغير ذلك من القنوات الرئيسية لانتقال أفكار التحديث ومكوناته المادية . وذلك يعنى بالنسبة لبعض المفكرين أن العالم يتحول الآن الى ثقافة نمطية محددة تمثل ثقافة الولايات المتحدة وأوروبا الغربية (٩٥) .

٦ — برغم اختلاف مفكرى نظرية التحديث حول المدى الذى سوف تختفى فى اطاره كل الملامح التقليدية ، فان هناك اتفاقا شائعا حول فكرة الأقطار النامية (كل على حدة) ينبغى أن تسير فى نفس الطريق الذى سار فيه الرواد الأول للتحديث . ولا يكمن الاختلاف الأساسى بين الأمم المتقدمة والنامية فى طبيعة عملية التنمية ، ولكن فى السرعة والعمق الذى أتاح للدول التى تنشر التحديث فى الفترة الأخيرة أن (تتخطى بعض المداخل) وأن (توجز الزمن) (٩٦) . وبرغم حقيقة أن منظور التحديث يفرض تأكيدا على أهمية السياق العالمى الشامل فى تحليله للتغير الاجتماعى ، فان دولة — الأمة تعتبر الاطار الرئيسى للتحديث . وكما لاحظ بلاك بقوله (أنه ينبغى النظر الى المجتمعات التى تمر بعملية التحديث باعتبارها كيانات مستقلة ، تسعى نظمها التقليدية للتكيف مع الوظائف الحديثة) (٩٧) فعالمنا عالم مشتت ، يرتبط من خلال شبكة الاتصالات القائمة بين المجتمعات أو حسبما يذهب دانكـوارت روسـتو D. Rostow قائلا (انه عـالم من الأمم) (٩٨) .

٧ — من الواضح أن التـأكيد على الاختلافات فى القيم من سياق اجتماعى الى آخر يعتبر ذا أهمية خاصة بالنسبة لمنظور التحديث فيما يتعلق بالطبيعة الانسانية . ويعتبر الرشد الذى يسود المجتمعات المتقدمة من أهم الخواص التى جذبت انتباه الأدب التنموى ، حيث تسود خاصية الرشد عند القادة والاتباع معا . وقد أكد مور W.Moore أخيرا (أنه يمكن فهم التحديث

بصورة أفضل باعتباره عملية اضفاء الطابع الرشيد على السلوك الاجتماعى والتنظيم الاجتماعى أيضا) . ويمكن تعريف عملية الرشد Rationalization باعتبارها (التوقع المعتاد للاستفادة من المعلومات الموضوعية أو اجراءات الحساب الرشيد من أجل السعى لانجاز أهداف ذات طابع نفعى ، ويمكن التمثيل باستخدام التكنولوجيا المتطورة فى عمليات البناء والانتاج) (٩٩) . وعلى هذا النحو يوافق منظرى التحديث على افتراض الرشد الاقتصادى المتضمن فى نماذج النمو الاقتصادى للنظرية الاقتصادية التقليدية فيما يتعلق بافتراض أن السلوك الرشيد يعتبر خاصية انسانية عامة . وعلى نقيض الأقطار المتقدمة ، نجد أن القيم والاتجاهات التى تسود الأقطار النامية من النمط الذى يجعل الأفراد يتصرفون بأسلوب غير رشيد اذا قيم تقييمـــا اقتصاديا . وذلك هو الذى يجعل الأثرياء البوليفيون ، (وأثرياء البترول العرب) يبتعدون عن المخاطرة برأسمالهم فى مشروعات انتاجية ويفضلون ايداع أموالهم فى البنوك السويسرية . أو لمـــاذا يفضل البشر فى المجتمعات النامية التخصص فى الدراسات النظرية والأدبية دون الاهتمام بالتكنولوجيا وقطاع الأعمال .

وبغض النظر عن اتفاقنا أو رفضنا لمقولات نظرية التحديث فان هـــذه النظرية قد واجهت انتقادات كثيرة ، بحيث قللت هذه الانتقادات من قيمتها كنظرية قادرة على تصوير واقع التنمية والتخلف أو طبيعة العلاقة بينهما فى اطار النظام الاقتصادى العالمى .

ويتعلق أول هذه الانتقادات بطبيعة الاستقطاب النظرى الذى أسسته النظرية بين نموذج المجتمعات التقليدية ونموذج المجتمعات الحديثة ، حيث يتسم هذا التأسيس بالطابع النظرى المجرد بينما يشهد الواقع أوضاعا تختلف عن ذلك بكثير . فأكثر المجتمعات تحديثا حسبما يذهب جيزفيلد Gizfield يمتلك كثيرا من الخصائص التقليدية . هذا الى جانب أنه من الأفضل لنظرية التحديث أن تستبدل متصل التحديث التقليد بدلا من استقطاب التقليد ــ الحديث فالأول أقرب الى الواقع بينما الثانى أقرب الى كونه تجريدا نظريا . هذا بالاضافة الى صورة مجتمع التحديث التى تؤسسها هذه النظرية ليست واقعية الى حد كبير . فأى مجتمع حديث يعيش فى الحاضر لا يمكن أن يعدم وجدد بعض بقايا المـــاضى التى ما زالت تعيش فى قلب بناء الحاضر .

ويتماثل الانتقاد الثانى الذى يوجه الى نظرية التحديث مع النقد الذى كان يوجه من قبل الى الفكر التطورى . حيث الافتراض المسبق بأن التطور لابد أن ينتهى عند النقطة التى تقف عندها أوروبا والولايات المتحدة . حيث أثبت الأدب التنموى أن التطور الأوروبى بالاضافة الى ذلك الذى حدث بالولايات المتحدة وقع فى ظل ظروف مختلفة تماما عن الظروف التى تعيشها حاليا مجتمعات العالم الثالث . هذا الى جانب ان المجتمعات المتخلفة لا تمتلك ذات التراث الاوروبى الذى فرض عليها خط التطور الذى سلكته . ومن ثم فنظرا لاختلاف ظروف التنمية التى يعيشها العالم الثالث الآن عن الظروف التى عاشتها أوروبا ، وأيضا بسبب اختلاف التراث الحضارى بينهما ، فانه من الممكن للعالم الثالث (كمجتمعات منفصلة) أن تبحث عن مسارات تطور جديدة غير تلك التى سارت فيها أوروبا والولايات المتحدة . هذا الى جانب أن الوضع الحضارى الذى حققته المجتمعات المتقدمة يتعرض الآن لمشكلات وتشوهات عديدة ، ومن الضرورى أن تأخذها مجتمعات العالم الثالث فى الاعتبار .

ويتصل النقد الثالث لنظرية التحديث بطبيعة التغيير البنائى الذى تريد هذه النظرية فرضه على مجتمعات العالم الثالث . فيما تفترضه بأن هناك نموذجا تقليديا ونموذجا حديثا ، وأن حركة التطور الطبيعية تفرض ضرورة تخلى المجتمعات التقليدية عن خصاصها لكى تكتسب خصاص المجتمع الحديث بأخلاقه وقيمه وأفكاره وممارساته المادية . غير أنه من غير المنطقى والانسانى أن يحدث ذلك . وينبغى أن لا نسعى اليه . وبديلا عن ذلك فاننا نطرح امكانية مناقشة تحديث التراث والتقاليد فى هذه المجتمعات . فلا شك أن غالبية مجتمعات العالم الثالث قد امتلكت فى مرحلة تاريخية سابقة رؤية حضارية مكنتها من التكيف مع الظروف البيئية المحيطة بالمجتمع . والافضل أن نجعل ذات الخلفية الحضارية للمجتمع قادرة على استيعاب أفكار التحديث وقيمه والتفاعل معها ويمثل العناصر التى تتكامل ونسيجها الحضارى . المؤكد أن الناتج سوف يكون هوية حضارية مستقلة متصلة عضويا بتراثها ، وقادرة فى ذات الوقت على التعامل مع معطيات التحديث .

ويؤكد النقد الرابع على اغفال نظرية التحديث — عن عمد — لبعد اساسى لعب دورا فى التنمية الغربية ولا تستطيع مجتمعات العالم الثالث

امتلاكه . فلا شك أن نهب القوى الاستعمارية لموارد العالم المتخلف ، لعب دورا اقتصاديا حاسما فى دعم التنمية الأوروبية ، بل أن هذا العامل هو الذى أسهم الى حد كبير فى خلق حالة التردى والتخلف هذه التى وصل اليها العالم الثالث . ويؤكد كثير من منظرى التنمية ، أنه اذا اتفقنا مع منطق نظرية التحديث فان العالم الثالث يحتاج بدورة الى عالم آخر يستغله وينهب موارده حتى يتمكن من تأسيس تنميته . الذى لا شك فيه أن التقدم الذى حدث فى المجتمعات المتقدمة هو الوجه الآخر للتخلف الذى تعانى منه مجتمعات العالم الثالث وأن فهم التلخف لابد أن يتم فى اطار كلى وعضوى متكامل يضمهما معا (١٠٠) .

ويشير الانتقاد الخامس الى خطأ نظرى سقطت فية نظرية التحديث ، ويتحدد هذا الخطأ فى نظرة نظرية التحديث الى كل من النموذج التقليدى والحديث . فهى تنظر الى كل منهما باعتباره يشكل وحدة بنائية متجانسة بينما يشهد الواقع حقائق تختلف الى حد كبير مع ذلك . فنحن اذا نظرنا الى المجتمع التقليدى من الداخل فسوف نجده ينقسم الى قسمين الريف المتخلف الذى يعكس الخصاص التقليدية ثم العواصم الحضرية المتقدمة والتى تتناقض فى خصائصها مع خصاص القطاع الأول ، ذلك يعنى افتقاد المجتمع التقليدى لهذا التجانس المدعى ، وهنا يظهر تساؤل اى تحديث نريد أهو التحديث الذى تعكس خصاصه المراكز الحضرية فى المجتمع التقليدى أم التحديث بخصاصه كما هو قام فى المجتمعات الغربية . وعلى الطرف الأخر نجد أن المجتمعات الحديثة تفتقد هذا التجانس الكامل أيضا ، فهناك الأحياء المتخلفة فى اكثر العواصم الأوروبية تقدما وتحديثا ، وهناك الريف والعواصم الحضرية كذلك ، فأى منظومة فكرية وقيمية ينبغى أن يتحرك العالم الثالث لاكتسابها بحثا عن خصاص التحديث . المؤكد أن نظرية التحديث بسطت الى حد كبير بناء النظام العالمى ، وأيضا طبيعة عناصره المكونة .

واذا كانت نظرية التحديث قد حاولت أن نؤسس عالما ينتفى فية هذا التباين الصارخ من خلال عملية تحديث العالم المتخلف ، فان التطور الواقعى للأمور شهد بغير ذلك . فبرغم التقدم العلمى والتكنولوجى السريع الذى ميز الفترة التالية للحرب العالمية الثانية . فقد أصبح واضحا للغاية أن الأقطار المحيطية (المتخلفة) ظلت على حالة التخلف التى تعيشها . وفضلا

عن ذلك أكد بعض المحللون أن هناك حالة متنامية من عدم المساواة داخل كل أمة وبين الأمم وبعضها البعض ، وأن التحديث لم يقع كما هو متوقع (١٠١) .

***

(ب) نظرية التبعية ، تفسيرها لأسباب التخلف

شكلت نظرية التبعية المنظور الفكر المضاد لمنظور التحديث ، والذى حاول أن يقدم تشخيصا مختلفا لظاهرة التخلف والتنمية . وقد شارك فى تأسيس البدايات الأولى لهذا المنظور عديد من مؤرخى أمريكا اللاتينية الذين عكفوا لسنوات طويلة على دراسة الجوانب المختلفة للتاريخ الاقتصادى لهذه القارة . ومن ثم يمكن القول بأن دراسات سيرجيد باجو Sergio Bagu هى التى أكدت على العلاقة القوية بين التنمية المحلية ، والتقدم الذى حدث فى الأقطار الميتروبوليتانية . وفى البرازيل نجد أن علماء اجتماع مثل فلورستان فرناندو Florestan Fernandes وأكتافيو لانى Octavio Lanni ، وفرناندو كاردوسو — Fernando Henrique Cardoso وثيوتونينو سانتوس Theotonio Dos Santos قد اتجهوا نحو التحليلات البنائية لعوامل التخلف . وقد أدى اجتماع هؤلاء العلماء فى سانتياجو Santiago فى الستينات من هذا القرن الى التطوير الفعلى لمنظور التبعية .

ويتميز منظور التبعية بتأكيده على الطبيعة التوسعية للنظام الرأسمالى ويستند فى تحليلاته البنائية بهذا الصدد على الرؤية الماركسية ، هذا الى جانب علاقته الواضحة بالنظرية الماركسية عن الامبريالية . وقد تمكنت نظرية التبعية نتيجة لدراستها التنمية فى أمريكا اللاتينية من تقديم تنقيحات هامة للصياغات اللينينية الكلاسيكية ، تاريخيا ، وأيضا فى ضوء الاتجاهات الحديثة ، وقد تركزت بؤرة اهتمام هذه النظرية فى محاولة تفسير تخلف أمريكا اللاتينية ، ولم يتركز أساسا على طبيعة الأداء الوظيفى للنظام الرأسمالى . وذلك برغم أن هناك بعض المؤلفين الذين أكدوا أن جهودهم تتجه بالأساس نحو الاسهام فى فهم الرأسمالية وتناقضاتها .

ومن الممكن أن نعثر داخل منظور التبعية أيضا على عدة منظورات أساسية تشكل زاويا مختلفة لرؤية العلاقة بين المجتمعات المتخلفة (المحيطية)

والمجتمعات المتقدمة (المراكز) . وعلى سبيل المثال نجد أن راؤول بريبنش Raul Prebisch وهو أحد المنظرين البارزين لمدخل التبعية يؤكد على أن استمرار انخفاض أسعار المواد الخام أدى الى عدم تحقيق النتائج المرجوة من بيع هذه المواد ، والذى كان من المفترض أن تحقق فوائد لمنتجيها الى مركز متقدم وهامش متخلف ، نجد أن بريبنش يؤكد أن المراكز تحصل على فوائد التقدم التكنولوجى هذا الى جانب انها تحصل على الزيادة فى انتاجية القطاعات المصدرة فى الامم المحيطية لصالحها من خلال ميكانيزم التبادل التجارى غير المتكافىء . وتشكل الآثار السلبية لعلاقة التبادل هذه تبعية خارجية . ومن ثم يكون على المجتمع المحيطى أن يتجاوزها لينمو . وقد أوصى بربنتش وزملاؤه فى الاكلا ECLA (*) التابعة للأمم المتحدة بضرورة اتباع المجتمعات المتخلفة لاستراتيجية تتضمن ثلاثة عناصر : التصنيع من خلال استبدال الواردات ، دعم تصدير السلع المصنعة الى الخارج ، التغير النظامى الذى يدعم مكانة الأقطار المتخلفة على المستوى العالمى (١٠٢) .

وفى منتصف الستينات شهدت أمريكا اللاتينية ظهور موجة جـديدة من الكتابات التى شكلت قفزه كيفية الى الأمام فى مناقشات التخلف والتبعية . حيث تجاوزت أعمال كاردوسو وأندريه جوندر فرانك André Gunder Frank وسـانتوس ، وأوزفالدو سـونكل Osvaldo Sunkel وآخرين منظور بريبتش ، حيث قدموا تفسيرا لظاهرة التبعية فى اطار كلى وبالنظر الى أسلوب الانتاج الرأسمالى . حيث رأى هؤلاء المنظرون أن هناك علاقة بين العوامل المحليةوالخارجية ، بالاضافة الى وجود الرأسمالية العابرة للجنسيات باعتبارها المتحكم المشترك فى ديناميات هذه العلاقة . ولا تعتبر دولة — الأمة هى وحدة التحليل الأساسية فى أعمالهم ، ولكن هناك الى جانب ذلك وحدات تحليل أخرى كالجماعات الاجتماعية ، الطبقات ، المؤسسـات المتعـددة الجنسية . ويمكن القول بأن التأكيد قد تركز فى هذه الموجة النظرية على الدراسات ذات الطابع التاريخى ، وعلى طرق البحث المشتركة بين مختلف العلوم (١٠٣) .

(*) نعتبر هذه الحروف اختصارا لعبارة اللجنة الاقتصادية الأمريكا اللاتينية Economic Commission for Latin America.

وبالاضافة الى ذلك نجد أن هناك مجموعة من الكتابات التى تقدمها مفكرون ينتمون الى قطاعات أخرى من العالم الثالث نذكر من هؤلاء محبوب الحق من الباكستان ، وسمير أمين وعادل حسين المصريين (*) .

غير أنه أيا كانت طبيعة المنظورات المتضمنة داخل بنـاء نظرية التبعية فان هناك نقطة اختلاف هامة ينبغى الاشارة اليها . حيث يتعلق هذا الاختلاف بكيف تجاوز حالة التبعية والتخلف التى تسود العالم الثالث . ولا تعتبر هذه القضية موضوعا أيديولوجيا وان كان من الممكن أن يكون خلافيا . ولكنه يشير — نتيجة لطرحه — الى أن هناك أساليب مختلفة لتصور التبعية . وعلى سبيل المثال فاننا نجد أن هؤلاء الذين ينظروا الى التبعية باعتبارها مشكلة تتعلق بالعلاقات التى بين دول ذات قوى غير متكافئة ، يؤكدون على استراتيجية التفاوض مع المراكز للحصول على أكبر قدر من الموارد العالمية الكافية لدعم التنمية فى اطارها . ويختلف الوضع بالنسبة لهؤلاء الذين ينظرون الى التبعية من منظور عالمى شامل . حيث نجدهم ينظرون اليها باعتبارها نتيجـــة لأسلوب الانتاج الرأسمالى . ومن ثم نجدهم يؤكدون على أنه لكى نقضى على التبعية فانه من الضرورى التخلى عن أسلوب الانتاج الرأسمالى ، غيــر أننا من الضرورى أن نشير فى هذا الصدد الى أن تحديد الاســـلوب العملى لتجاوز التبعية لا يمكن أن ينفصل عن التحديد النظرى لطبيعة التبعية وأصولها .

وأيا كانت الاختلافات التى بين التوجهات النظرية داخل منظور التبعية فالمؤكد أن هناك اتفاقا حول بعض القضايا الرئيسية التى تشكل عنـــاصر محورية فى بناء النظرية ، نذكر بعضها ايجازا فيما يلى :

١ — فمنظور التبعية يرفض منذ البداية الافتراض الذى يقدمه منظروا التحديث الذين يمارسون تحليلاتهم بالنظر الى المجتمع القومى كوحدة تحليلية لدراسة التخلف ، حيث يؤكد منظروا التبعية فى مقابل ذلك أن الخصائص

(*) بالاضافة الى المؤلفات الأساسية لسمير أمين والتى أكدت على الخطوط العامة لنظريته حاول الدكتور محمود عودة فى مؤلفه الفلاحون والدولة، دار الثقافة ، للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٩ . أن يفسر واقع المجتمع المصرى بالنظر الى القضايا الأساسية لهذه النظرية ، هذا وقد قدم عادل حسين وجهة نظرة فى مؤلفه الشهير (الاقتصـــاد المصرى بين التبعيـــة والاستقلال) حيث شكلت وجهة نظر محددة ومتميزة فى اطار أدبيات التبعية .

الثقافية والنظامية المحلية فى أمريكا اللاتينية لا يمكن أعتبارها متغيرات هامة لفهم التخلف النسبى لمجتمعات هذه المنطقة . ذلك برغم أن الأبنيـة المحلية من الممكن أن تلعب دورها كمتغيرات وسيطة فى هذا الصدد . فالوجود النسبى لمجموعة الخصائص التقليدية أو الحديثة قد يساعد بدرجة أكثر أو أقل على تمييز المجتمعات عن بعضها البعض . غير أنها لا تكون قادرة بذاتها على تفسير جذور التحديث فى بعض السياقات الاجتماعية وعدم وجودها فى سياقات اجتماعية أخرى ، وبذلك يكون استقطاب التقليد — التحديث من المفاهيم ذات الأهمية الضئيلة من حيث فاعليتها للمساعدة على الفهم .

واستنادا الى ذلك يؤكد منظور التبعية على أنه يمكن ادراك تنميـة الوحدة القومية والاقليمية اذا ادركنا طبيعة ارتباطها بالنظام الاقتصادى والسياسى العالمى ومشاركتها فيه . وهذا النظام الذى ظهر مع موجة الاستعمار الأوروبى للعالم ، حيث ينظر الى هذا النظام العالمى باعتباره يتميز بنمو غير متكافىء لوحداته المختلفة ولو أنه مترابط فى ذات الوقت كما يؤكـد سونكل وباز حيث نجدهما يؤكدان (على أعتبار التخلف والتقدم جانبين لنفس الظاهرة ، فكلاهما متزامن تاريخيا ، وكلاهما يتصل وظيفيا بالآخر ، ومن ثم فهما على تفاعل مع بعضهما البعض . ولقد أدى ذلك فى النهاية الى تقسيم العالم الى أقطار (المركز) المتقدمة والصناعية ، اقطار المحيـط أو الهامش المتخلفة) .

٢ — وتتصل القضية الثانيـة بطبيعة دولة (المركز) كما تتصورها نظرية التبعية . حيث يدرك منظروا التبعية دولة المركز باعتبارها قادرة على النمو الدينامى استجابة لحاجاتها الداخلية هـذا الى جانب أنها المستفيد الرئيسى من شـبكة العلاقات الدولية . ومن ناحية أخرى ينظر الى الدولة المحيطية باعتبارها تمتلك نموذجا انعكاسيا للتنمية فى دولة المركز . حيث التنمية فى الدولة المحيطية مقيدة باندماجها فى النظـام العالمى . ويحدث التخلف فى الدولة المحيطية نتيجة لتكيفها مع متطلبات توسع تنمية دولة المركز . ويحدد ذلك ثيوتونيو سانتوس بقوله : (تعتبر التبعية موقفا تتحكم فية شروط التنمية والتوسـع فى أحـد الأقطار فى اقتصاديات عـدد من الأقطار الأخرى ... بحيث يضع ذلك الأقطار التابعة فى مركز متخلف تستغل فى اطاره من قبل الأقطار المسيطرة) (١٠٤) .

٣ — وتؤكد القضـــية الثالثة على ضرورة الفهم التاريخى لظاهرة التخلف • وفى هـــذا الصدد يؤكد منظروا التبعية على أنه من الضرورى التأكيد على أنه من الممكن فهم عمليـــة التبعية بالنظر الى البعد التاريخى • الى جانب التركيز على شـــبكة العلاقات المجتمعية الكلية كما تظهر فى سياقات تاريخية مختلفـــة عبر الزمن • ولهذا السبب تتميز نظرية التبعية بكونها تقـــدم تحليلا بنائيا وتاريخيا وكليا للتنمية ، أو ما يمكن تسمية تحليلا متكاملا للتنمية(١٠٥) .• وارتباطا بذلك يؤكد منظروا التبعية أنه يمكن ارجـــاع التنمية غير المتكافئة فى العالم الى القرن السادس عشر حيث بداية تشـــكل الاقتصـــاد الرأسمالى فى العالم • وهو الأبنية الاقتصـــادية التى تمكنت فى اطارها بعض أقطار المركز من التخصص فى الانتاج الصناعى للسلع المصنعة ، وذلك لأن أقطار المناطق الهامشية ، التى خضعت لاستعمار أقطار المركز ، وفرت المـــادة الأولية الخام الزراعية والتعدينية ، وهى المواد التى قدمت من أجل اســـتهلاك دول المركز .• وعلى نقيض بعض افتراضات النظـــرية الاقتصادية .• لم يؤدى هذا التقسيم العالمى للعمل الى النمو المتـــوازى بالنسبة لمختلف الأقطار ، ومن ثم الحصول على امتيازات متعادلة .• بل اننا نجد أن دول المركز قد حصلت على الكثير الذى استولت عليه على حســـاب دول الهامش أو المحيط .• ومع ذلك فقد كان للوظائف المتباينة لكل من مجتمعات المركز والمحيط تأثيرا كبيرا على الابنية السياسية والاجتماعية داخل كل منهما .• وأصبح مفروضا تحت وطأه هذا التقسيم أن تعمل الدول المحيطة علـــى تصـــدير سلعها الأولية ، كما أنه أصبح من المستحيل على أى من الأمم المحيطة أن تحاول تكرار خبرة النمو التى مرت بها الدول المتقدمة حاليا(١٠٦) •

٤ — وتتعلق القضـــية الرابعة بطبيعة التفاعلات الداخليـــة لأبنية الدول المحيطية • حيث نجد أن المتغيرات الداخلية تعمل فى المدى الطويل على تشـــكيل سلوك الأفراد والجماعات وتوجيهه وجهة محددة .• ومن ثم نجد نمو بعض الاتجاهات التى تسهم فى غياب سلوك بناء المشروعات أو التنظيمات المنظمة ، وهى الاتجاهات التى من شأنها ترسيخ التخلف • هـــذا الى جانب أن بناء الفرص فى المجتمع المحيطى يدعم المكاسب الخاصة للجماعـــات المسيطرة ، فى حين أنهـــا لا تدعم المكاسب الاجتماعية لتنميـــة موازية • وفى هـــذا الصدد يشـــارك منظروا التبعية منظرى الاقتصـــاد الكلاسيكى

فيما يتعلق بتصور الطبيعة الانسانية . فهم يفترضون أن الافراد فـى مختلف المجتمعات قادرون على السعى نحو تحقيق أنماط سلوك رشـيده ، وقادرون أيضا على الحصـول على المعلومات الموضوعية فى سعيهم لتحقيق أهدافهم النفعية . ومن ثم فالاختلاف بين الأفراد فى مختلف السـياقات الاجتماعية ليس فى درجة الرشد ، ولكنه يكمن فى الاسس البنائية لنظـم الدوافع أو الحوافز ، التى تخلق بدورها أشـكالا مختلفة من السلوك بغض النظر عن العملية الأساسية المتعلقة بالحساب الرشـيد . اذن فليست التحولات فى الاتجاهات هى التى ولدت التصنيع السريع الذى تأسس فى أعقاب فترة الكسـاد العظيم . ولكن ولدته الحاجة الى استبدال الواردات بانتاج محلى . أو حسبما يذهب كاردوسو فى دراسته لاصحاب الاعمـال بقوله (لم تكن القيم هى التى وجهت سلوكهم وتحكمت فيه ، بل اننا نجد أن التبعية التكنولوجية وتدخل الدولة فى الاقتصـاد ، وضعف قدرتهم السياسية فى مواجهـة الفاعلين الاقتصـاديين الاجانب والمحليين هى التى وجهتهم الى ذلك (١٠٧) .

٥ — وتتصل القضـية الخامسة بتأكيد منظرى التبعية على ضرورة الاهتمـام (بالاسلوب الذى تترابط به المكونات البنائية الداخلية والخارجية) لفهم السياق البنائى للتخلف ، وعلى هـذا النحو لا يعتبر التخلف نتيجة لظروف مفروضة من الخارج على المجتمعات المحيطة . ولا يمكن أن تتأسس التبعية بالنظر الى مجموعة المتغيرات الخارجية فقط . حيث تعتبر التبعية فى أى مجتمع من المجتمعات عبارة عن مركب من الترابطات تلعب فيه الأبعاد الخارجية بدرجات مختلفـة دورا له طابعه الحتمى . وقد تعمل المتغيرات الداخلية بدورها على دعم نمط العلاقات الخارجية . وتاريخيا من النادر أن تنمو المصالح المحلية فى المجتمع المحيطى بحيث تجعلها قادرة على رسـم سياسة ناجحة للاعتماد على الذات . حيث تعمل هـذه المصالح المحلية على الحفاظ على العلاقة بين هـذه المصالح المحلية وأنماط التبعية للخارج .

٦ — تؤكد نظرية التبعية على متصلين الاول يضم على تدرج واحـد المواصم الميتروبولينانية فى دول المركز ثم العواصم فى دول المحيط — بتدرجاتها المختلفة — ثم القطـاع الهامشى المتخلف فى دول المحيط . وينقل الفائض الاقتصادى من القطاعـات الاكثر تخلفا عبر الحلقات الوسـيطة

الى العواصم الميتروبوليتانية . تأخذ الأخيرة نصيب الأسد من هـذا الفائض ولا مانع من اعطاء بعض فئات الفائض لمختلف تدرجات المتصل . وعلى ذلك تنشأ علاقة عضوية مضمونها ، أنه كلما كان الفائض المستخرج أكبر ، كلما كان ذلك يعني مزيداً من التخلف لقطاعات الهامش المتخلفة ومزيدا من التقدم لعواصم دولة المركز .

أما المتصل الثانى فهو متصل طبقي حيث على طرف المتصل البرجوازية العالمية وعلى الطرف الآخر تقف جماهير الأقطار المحيطية . بالاضافة الى ذلك هناك على المتصل جماعات برجوازية عديدة تعكس درجات متباينـة من القوة والضعف ، ويتم اسـتغلال الجماهير في مجتمعات المحيط بواسطة برجوازياتها لصالح برجوازية المركز ، الأخيرة لها نصيب الأسد من الفائض المستجلب ، وللأولى بعض فتات المـائدة .

٧ — وتتعلق القضـية الأخيرة بتمفصل بناء ووسـائل الانتاج فى المجتمع المحيطى ، حيث ان وسـائل الانتاج المتخلفة والاقتصاد المعيشى المتكامل معها عادة ما يشـكل قطاعا يتعايش مع قطاع آخر متقدم يسوده اقتصـاد ووسائل انتاج حديث . وتسير عملية التحول فى اتجاه تخلـى المجتمع المحيطى عن وسـائل الانتاج القديمة وتبنى أخرى جديدة وبذلك يمكنه التكامل أو التكيف مع متطلبات النظـام العالمى . بيد أننا اذا نظرنا الى الأمر من زاوية أخرى فاننا سوف نجد أن ثمة تكامل قائم بين بعض القطاعات الاقتصادية فى المجتمع المحيطى مع اقتصاديات المجتمع المتقـدم أكثر من تكاملها مع القطاعات الاقتصادية المحلية الاخرى ذات الطابـع المتخلف ، وفى ذلك خصومة داخل البنية الاقتصـادية المحلية لحساب مزيد من التكامل أو الأصح التبعية للاقتصـاد العالمى المتقدم .

وختاما يمكن القول بأن الكتابات الأخيرة التى قدمت فى اطار نظرية التبعية استطاعت أن تقدم استراتيجات مختلفة للبحث فى ظاهرة التخلف والتنمية . وبصورة عامة نجد أن المراحل الأولى فى العملية التاريخية التى أسست التبعيـة قد نالت اهتماما ضـئيلا برغم أن اسهام والرشـتين I. Wallerstain فى فهم أصـول النظام العالمى يعتبر اضـافة هامة للفكر التنموى . وقد فضل معظم المفكرون بديلا لذلك التركيز على الموقف

الحالى للتبعية الحديثة • بينما ركز آخرون اهتمامهم على الرأسمالية التابعة باعتبار أن ذلك يمكن أن يشكل اسهاما فى التحليل الماركسى للمجتمع الرأسمالى . ويؤكد مفكروا هذا الاتجاه على استحالة نجاح الرأسمالية التابعة وبديلا لذلك فهم يرون أن الاشتراكية تقدم البديل التاريخى الحى والفعال . بينما ركز آخرون على تحليل بعض حالات التبعية الواقعية محددين طبيعة العلاقات بين القوى الداخلية والخارجية وملاحظين امكانية قيام أنواع مختلفة من التنمية التابعة . بينما وجه آخرون أنتباههم نحو تمييز طبيعة النظام الرأسمالى الحديث مع تأكيد خاص على ظهور (النظام العابر للقومية) الذى جعل مهمة التمييز القديم بين المركز والهوامش اكثر تعقيدا واشكالية وبالنسبة للاتجاهين الاخيرين بصفة خاصة ، فان التركيز اتجه الى تأسيس دراسات امبيريقية تحاول الدراسة المنظمة لبعض القضايا المتضمنة فى الاطار التصورى لمنظور التبعية (١٠٨) .

* * *

مما سبق يتضح لنا أنه برغم أدعاء كل من منظورى التحديث والتبعية أن باستطاعته تقديم الأدوات التحليلية والتصورية القادرة على تفسير التخلف . وبرغم أن كليهما يتناول التخلف باعتباره الحقيقة التى تشكل القاسم المشترك بينهما • الا أنهما يختلفان من حيث الافتراضات الأساسية . وأيضا من حيث الاستراتيجيات المتبعة فى البحث .

ففيما يتعلق بمستوى التحليل ، نجد أنه برغم التنوع الهائل فى الفكر النظرى لمنظور التحديث ، فان مستوى التحليل الذى يتبعه هو التحليل السوسيولوجى على المستويات الجزئية . حيث التركيز أساسا على الأفراد ، وتجمعات الافراد ، من حيث قيمهم واتجاهاتهم ومعتقداتهم . وعلى نقيض ذلك ، نجد أن منظور التبعية هو منظور بنائى أساسا يمارس التحليل السوسيولوجى على المستوى الشامل . فتركيزه عادة ما يكون على أسلوب الانتاج ، وأنماط التجارة العالمية ، ثم الروابط السياسية والاقتصادية بين الصفوات فى المجتمعات المحيطية من ناحية ، ومجتمعات المركز من ناحية اخرى ، والتحالفات أو الصراعات بين الجماعات فى الداخل . وأن كان المنظورين يهتمان بعملية التنمية فى المجتمعات القومية . فانه بالنسبة للمفكر من داخل

نظرية التحديث ، فاننا نجد أن المجتمع القومى يعتبر هو الوحدة الأساسية للتحليل ، بينما المفكر فى اطار التبعية يعتبر النظــام العالمى وأشــكال التفاعل الســائدة فيه بين المجتمعات القومية هى الهدف الأساسى للبحث .

يعتبر بعد الزمن بالنسبة لمنظور التبعية أحــد الجوانب الهامة للنموذج التاريخى الذى يعتبر هاما بالنسبة لهذا المنظور . حيث لا يفترض أن تكون المجتمعات قادرة بمفردها على تكرار نفس تطور المجتمعات الأخرى . وذلك لأن التحولات الأساسية للنظــام العالمى المتداخل قد تعــوق مثل هــذا الاختيار . . وينبغى النظر الى امكانية التحديث فى كل مجتمع على حده فى ضوء التغيرات بالنظر الى بعد الزمن فيما يتعلق بالتفاعلات بين المتغيرات الداخلية والخارجية . ومن الواضح أن منظور التحديث يهتم أساسا بأصول القيم التقليدية والحديثة ، وان كان بعد الزمن ليس أساسيا بالنسبة للمتطلبات التفسيرية للنموذج الذى يدعى (الصدق الشــامل) وذلك بدون معرفة الخصائص المعوقة للتحديث . ومن ثم فما يزال من الممكن أن نحددها بالنظر الى نظائرها فى السياقات المتقدمة .

ويشــكل الادراك المختلف بين المنظورين للطبيعــة الانسانية أحــد الاختلافات الأساسية بين المنظورين . اذ يفترض منظور التبعية أن السلوك الانسانى فى الأمور الاقتصادية عاملا (ثابتا) . اذ سوف يتصرف الأفراد بطريقة مختلفة فى السياقات المختلفة ليس بسبب اختلاف الافراد ولكــن بسبب اختلاف السياقات . اذ ينتج الاصرار علــى تحليــل البنــاءات ، وفى التحليل النهــائى ، على المقولة البنائية العريضة المتعلقة بالنظــام العالمى ، بصورة منطقية من طبيعة النظرية ذاتها . حيث نجد أن منظرى التبعية يؤكدون أن بناءات الفرص هى التى تحدد السلوك الانســانى ، ومن ناحية أخرى يعزى منظروا التحديث افتقاد أنماط سلوكية معينة الى نســبية السلوك الانســانى ، بغض النظر عن بناءات الفرص الكامنة وراء أنماط السلوك الاقتصادى . ومن ثم ، فان تصور التغير فى منظور التحديث باعتباره نتيجة للتجديدات التى تنتج عن تبنى الصفوة ومن ثم الاتباع للاتجاهات الحديثة . وبرغم أن منظرى التحديث أكثر تشاؤما الآن فيما يتعلق باحتمالات النمــو التى تتيحها هــذه التغيرات ، فان معتقدات التحديث تعتبر مطلبا أساسيا للتنمية . ويختلف تصور التغير بالنسبة لمنظور التبعية ، حيث ينتج التغير من اعادة تحديد علاقات التبعية بالنظر الى بعد الزمن . وسواء حدثت

التنمية أم لا ، وكيف حدثت ، فان ذلك يعتبر موضوعا خاضعا للحـــوار . واذا سلمنا بالتطور السريع للنظـــام العالمى . فاننا نجد أن التنمية التابعة تصبح ممكنة فى سياقات اجتماعية معينة ومستحيلة فى أخرى . وقد لا يؤدى الاستقلال ، من خلال كسر علاقات التبعية الى التنمية التى وصلت اليهـــا الأقطار المتقدمة فعلا ، وذلك بسبب العجز عن اعادة خلق نفس الظروف التاريخية .. غير أنه من الممكن أن يؤدى ذلك الى نوع مختلف من التنميـــة يؤكد على قيم مختلفـــة .

الى جانب ذلك يعتبر منظور التحديث من وجهة النظر التحليلية اقل من حيث متغيرات التفسير من نظيره . هـــذا الى جانب أن ادب التحديث يركز أساسا على مستوى التحليل السوسيولوجى الجزئى . وهو الأمر الذى جعل من المتيسر بالنسبة لكل من ماكليلاند وهيجان أن يؤسسوا قضايا تفسيرية محـــددة . وعلى النقيض من ذلك نجد أن منظور التبعية أكثر وصفية . وصياغاته عادة ما تكون على مستوى التحليل السوسيولوجى الشـــامل . غير أنه اقل امكانية من حيث قدرته على تحويلها الى مجموعة بسيطة من القضايا التفسيرية . اذ نجد أن كثيرا من جوانب التبعية وبخاصـــة تلك المتصلة بالعلاقات المتبادلة بين الظواهر الخارجية وعلاقات القوة والطبقة الداخلية غير واضحة ، وتحتاج الى الدراسة بدرجة أكثر دقة وتحديدا . ولهذا السبب يعتبر منظور التبعية مدخلا لدراسة التخلف وليس نظرية . وذلك بالتحديد لاعتماد نظرية التبعية على اطار تصورى بسيط ، ومن ثم فهى لا تغير كثيرا فى دراســـة الظواهر المعقدة للتنمية والتخلف .

وفى النهـــاية تكمن نقاط القوة فى منظور التبعية ليس فى حجم المـــادة المتوفرة له ، ولا فى الظواهر الأشمل التى يتناولها بالتحليل . ولكن من حيث كونه أكثر وعدا من الناحية المنهجية . أما منظور التحديث فاننا نجد أن به بعض العيوب الأساسية التى تجعل من الصعب عليه أن يقدم افتراضاته للاختبار العلمى الدقيق ، بل اننا نشـــهد الآن بداية انسحابه من على مسرح الأدب التنموى الحديث (١٠٩) .

* * *

المراجـــــع :

(١) Valenzuela, J. S & A Valenzuela (Mod. ernization American under development Perspectives in the Study of Latin Am. erican under deuelopment) (m) Heraldo Munoz (ed) : From Dependency to dev elopment, Strategies to over Come underdevelopment and inequality (Wesruivew Press, Inc. Boulder, Colorado 1981. pp. 15 — 16.

(٢) (2) Badie, Bertrand Brinbaum : The Sociology of the state (Trans by) Arthur Goldhanmer . University of Chicago Press. Chicago , 1983. p. 80.

(٣) على ليله : النظرية الاجتماعية المعاصرة ، دراسة لعلاقة الانسان بالمجتمع .. دار المعارف . الطبعة الثانية .. ١٩٨٣ . ص ٩٤ .

(٤) اندريه جوندر فرانك : البراجوازية الرثة والتطور الرث . ترجمة الهيثم الايوبى واكرم ديرى . دار العودة .. بيروت . ١٩٧٣ . ص١٦٩ .

(٥) اسماعيل صبرى عبدالله : نحو نظام اقتصادى عالمى جديد . دراسة فى قضايا التنمية والتحرر الاقتصادى والعلاقات الدولية . الهيئة المصرية العـــامة للكتاب . ١٩٧٦ . ص ٤٩

(٦) اندرية جوندر فرانك : مرجع سابق . ص ص ٢٣ — ٢٤ .

(٧) محمد الجوهرى وآخرون : تنمية العالم الثالث ، الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية .. دار الثقافة للنشر والتوزيع . القاهرة . ١٩٨٤ . ص ١٣٧ .

(٨) محبوب الحق : ستار الفقر ، خيارات امام العالم . ترجمة أحمد فؤاد بلبع . الهيئة المصرية العـــامة للكتاب ١٩٧٧ . الطبعة الأولى . ص ٤

(٩) Mountjoy Alan, B : The third warld, Problems and Perspectives. The Macmillan Press, 1978. p. 13.

(١٠) محبوب الحق : مرجع سابق . ص ٤

(١١) المرجع السابق . ص ١٨

(١٢) Myrdal, Gunnar : Rich lands and Poor. (New York and Cvan ston , Harper & Row 1957) p. 6.

(١٣) Samuel P. Huntington : Politicol order in Changing Society . New Haven, London, Yale Jniversity Press, p. 2 .

(١٤) اسماعيل صبرى عبد الله . مرجع سابق . ص ٤٥

(١٥) محمد الجوهرى وآخرون : مرجع سابق . ص ١٢١ .

(١٦) Alan Mountjoy : Op, cit. p, 15.

(١٧) Ibid. p, 17

(١٨) Ibid. p, 23

(١٩) Ibid. p, 13

(٢٠) Ibid. p, 87

(٢١) Ibid. p, 92

(٢٢) اسماعيل صبرى عبد الله . مرجع سابق . ص ص ٤٥ — ٣٧

(٢٣) بول بايروك : مأزق العالم الثالث . دار الحقيقة . بيروت . ١٩٧٣ . الطبعة الأولى . ص ١٥٩

(٢٤) أندريه جوندر فرانك . مرجع سابق . ص ٢٨

(٢٥) Rostow . W. W : The Stages of economic growth . Second edition. Combridge university press. 1979. pp. 1 — 7 .

(٢٦) أندريه جوندر فرانك : مرجع سابق . ص ص ٥٦ — ٥٧

(٢٧) اسماعيل صبرى عبد الله : مرجع سابق . ص ص ١٣٤ — ١٣٥

(٢٨) نفس المرجع السابق : ص ص ٤٥ — ٤٧

(٢٩) نفس المرجع : ص ص ٥٠

(٣٠) أندرية جوندر فرانك : مرجع سابق . ص ١٥٢ .

(٣١) سعد الدين ابراهيم : النظام الاجتماعى العربى الجديد ، دراسة عن الآثار الاجتماعية النفطية . مركز دراسات الوحدة العربية . الطبعة الأولى . ١٩٨٢ . ص ١٥

(٣٢) نفس المرجع : ص ص ١٥ — ١٦

(٣٣) Seers, Dudley & Leonard Joy : Development in a divided world. (ed) . Pelicon Books. 1971. P, 69.

(٣٤) Huntington, Samuel P. : Political order in Changing Societies, New Haven and London Yale university Press. 1968. p.

(٣٥) Ibid. p.

(٣٦) Parsons, Talcott . The Solial system. New York, Geleonce, 1951, p. 392.

(٣٧) Alan Mountjoy : op, cit. p, 92.

(٣٨) Ibid. p. 23.

(٣٩) Ibid. p, 87.

(٤٠) Ibid. p, 87.

(٤١) Hyman, Herbert H : Political Socialization, Gtencoe , the Freepress , 1959. p. 105.

(٤٢) Talcatt Parsons. Op, Cit .p, 36.

(٤٣) Herbert H. Hyman : Op, cit. p. 105.

(٤٤) Lipset. Symour Martin (Values , Educulion and entrepreneurship (in) Lipset & Aldosolari (eds) Elites in Latin Ameriica. New York. 1963. p. 15.

(٥٤) Ibid. p. 19.

(٤٦) Ibid. p, 30.

(٤٧) Silvert : (The Politics of Economic Change in Latin America) (in) Howard J. Wiarda , (ed) Politics and Social Change in Latin America , The distinct Tradition (Amherst, Mass, 1974) pp, 160 - 162 .

(٤٨) R. Scott (Political Elites) in Lipset and Solari Pp. 133 - 134 .

(٤٩) R. Scott : Latin American Modernization Problems (ed) (Urbana Ill ,) 1973. p, 112 .

(٥٠) C. F. Danton & L.L. Preston : Latin American Politics. A Developmental Approach (New York, 1975). p, 75.

(٥١) Howard J : Wiarda : op, cit. p, 269 .

(٥٢) Lucian W. Pue : Aspects of Political development (Boston. Little, Brown and Company.) 1966. p, 94.

(٥٣) Ibid : pp , 97 - 98 .

(٥٤) Lerner, Daniel : The Passing of Traditional Society (Glencoe : The Free Press, 1958) P. 128.

(٥٥) Lucian W. Pye : Op, cit . Pp. 99 - 100.

(٥٦) Ibid. Pp, 95 - 96 .

(٥٧) B. Malinowski : Dynamics of Cultural Change. (Londen. Alles and Uniwin.) 1930.p, 110

(٥٨) Creceluis, Daniel : The Couse of Secularizatlon in Modern Egypt. (in) John L. Esposito (ed) Islam and develop ment, Religion and Social Palitical Change. Syrcuse university Press, 1980. p. 61.

(٥٩) Baer, Gabriel. (Social Change in Egypt : 1800 — 1814 (in) P.M. Holt (ed) Political and Social Change in Modern Egypt (London, Oxford university Press 1968.) p, 160.

(٦٠) Shills, Edward:The intellectual Between Tradition and Modernity, The indian Situation (The Hogue, Mouton, 1961) p, 13 .

(٦١) APter, David E. (Political Religion in the New Nation s) (in) Clifford Greetz, (ed) Old Societies and New States. (New York. The Free Press of Glencoe, 1963) p, 83 .

(٦٢) Edward Shills : Op, cit. p. 15.

(٦٣) Erikson, E : Identity and the Life Cyrcle. New York International University Press. 1959, P. 68.

(٦٤) Durkheim Emile : Suicide, Astudy in Sociology (The Free Press ILlinois, 1951) p. 134.

(٦٥) Lucian W. Pye : Aspects of Political development. Op, cit. p, 105.

(٦٦) Gauhar, Altaf : Third world strategy : Economic and Political Cohesion in the South. Pheager, 1983) p. IX.

(٦٧) Ibid. p, X

(٦٨) Ibid. p, X

(٦٩) Ibid. p, X

(٧٠) Ibid. p, X11

(٧١) Ibid. Pp, XI — xii

(٧٢) محمد الجوهرى وآخرون : الاقتصاد والمجتمع فى العالم الثالث دار المعارف . الطبعة الاولى . ١٩٨٢ . ص ١١٦ .

(٧٣) روبرت مايرو : الاقتصاد المصرى ١٩٥٢ — ١٩٧٢ ترجمة صليب بطرس (الهيئة العامة للكتاب . ١٩٧٦) . ص ١٥٨ .

(٧٤) Felraband, Rosalind L : (Aggressive Behaviours Within Politics : 1948 — 1962, A Cross — National study, Journal of Conflict Resolution No. 10 sept, 1966. pp. 253 - 254.

(٧٥) Somuel P. Hantington : Op, cit, p. 4.

(٧٦) Ibid . p, 3.

(٧٧) Ibid . p, 6.

(٧٨) Ibid . p, 12.

(٧٩) Ibid. Pp. 7 — 8.

(٨٠) Wormuth, Francis. D : The Origins of Modern Constitutionalizalion. (New York, Harper : 1949) P, 4.

(٨١) Altof Gauhar : Op, cit. Pp, XIII - XIV.

(٨٢) Ibid. p, XIV.

(٨٣) Ibid. Pp, XV - XVI.

(٨٤) Ibid. p. ﺨVI.

(٨٥) Samuel P. Huntington : Op , Cit Pp, 9 , 11.

(٨٦) Munoz, Heraldo (ed) : From Dependency to develbpment, Strategies to Over Come Underdeve Lopment and Inequality . Westview Press, 1981, p, 17.

(٨٧) Weiner, Myon : Moderniztion : The Dynamics of growth. 1966. p, 32.

(٨٨) Ibid . P, 44.

(٨٩) Heraldo Munoz : Op , cit. p. 1.

(٩٠) Mayon Weiver : Op, cit. p, 113.

(٩١) Sutton, Frank (Social theory and Comparative Politics) (in) Harry Ecksèien and David Apter (eds) Comparative Politics . New York. 1963. p, 81.

(٩٢) J.S Valenzuela & other : Op, cit p, 18.

(٩٣) Ibid. p. 19.

(٩٤) Almond, Gabriel (introduction : A Functional Approach to Comparative Politics) (in) Almond and James S. Coleman (eds) The Politics of the developing Areas (Princeton. 1960) p. 64.

(٩٥) J.S. Valenz uela & other : Op, cit . P, 19.

(٩٦) Ibid. p, 19.

(٩٧) Gabrial Almond : Op, cit. p, 63.

(٩٨) J.S. Valenzuela & Other : op , cit. p. 20.

(٩٩) Ibid - p, 20.

(١٠٠) محبوب الحق ، مرجع سابق : ص ٨٧ .

(١٠١) J. S. Va Lonzuela & Other : Op , cit. Pp. 22 - 23.

(١٠٢) Heraldo Munoz : Op, cit . p, 2.

(١٠٣) Ibid. p, 2 .

(١٠٤) J.S. Valenzuela & Other : Op , cit. P, 26.

(١٠٥) Ibid . p. 26.

(١٠٦) Ibid . p. 26.

(١٠٧) Ibid . p. 27.

(١٠٨) Ibid . p. 31.

(١٠٩) Ibid. p. 32.

* * *

اطار نظام عالمى ، وله وطأته وتأثيره ، ثم هى فى النهاية برنامج يستهدف تطوير الواقع الاجتماعى ، وقد يتأثر بما هو قائم فيه . ذلك يعنى أنه لفهم السياسة الاجتماعية فانه من الضرورى أن نعطى اعتبارا لمتغيرات عديدة .

٤ ــ أنه نظرا لاتباع معظم بلاد العالم الثالث الأيديولوجيا الليبرالية الرأسمالية ، فقد اختارت هذه الدراسة التركيز على أبعاد السياسة الاجتماعية فى اطار هذه المجتمعات . ومن ثم فنحن نقصد بأبعاد السياسة الاجتماعية ، مجموعة المتغيرات التى تشارك فى تحديد هوية السياسة الاجتماعية ، واكسابها طبيعة أساسية . ويكشف البحث فى سياسات العالم الثالث عن تحديد طبيعتها بالنظر الى مجموعة المتغيرات الاساسية التالية :

١ ــ الصفوة صانعة السياسة الاجتماعية ، خصائصها ومنطقها .

٢ ــ أيديولوجيا التنمية الاجتماعية ، ملامحها وأهدافها .

٣ ــ البرجوازية دورها وسعيها لتنمية الجماهير .

٤ ــ التنمية القومية فى اطار النظام العالمى .

وسوف نستعرض فيما يلى التغيرات الأساسية المحددة لهوية السياسة فى العالم الثالث (٤) .

١ ــ الصفوة صانعة السياسة الاجتماعية ، خصائصها ومنطقها :

تشكل الصفوة الاجتماعية ، من حيث تركيبها وتوجهاتها الاجتماعية المتغير الرئيسى الذى تحدد بالنظر اليه هوية السياسة الاجتماعية من حيث معالمها الرئيسية . ودون الدخول فى تعريفات نظرية لطبيعة الصفوة ، نجد أن معظم العلماء الذين تعرضوا لهذا المفهوم يؤكدون على وجود جماعة أو جماعات تتحكم فى القرارات الأساسية ، وممارسة السلطات على نطاق واسع كالطبقة الحاكمة ، والصفوة السياسية ، أو القلة المسيطرة . وعلى الرغم من وجود اختلاف ملحوظ بين المعانى التى تشير اليها هذه المفاهيم ، الا أن القضية المشتركة هى وجود قلة مسيطرة تتحكم فى القرارات السياسية والاقتصادية (٥) . ونضيف الى ذلك أن هذه القرارات الاقتصادية والسياسية

التى قد تصدرها الصفوة ، تعبر الى حد كبير عن هويتها ، وموقعها الاجتماعى، وطبيعة المصالح التى تعبر عنها .

ويكشف البحث فى طبيعة الصفوة التى قادت التنمية فى العالم الثالث — غير البلاد الاشتراكية — عن انتماء أفرادها الى الطبقة الوسطى . حيث هى الطبقة التى تزود البلاد النامية بمفكريها ومثقفيها واطاراتها السياسية والادارية والفنية . هذه الطبقة نجد حياتها ممزقة بين مشاعر الوطنيـــة والاحساس بما تعانيه الشعوب من ناحية ، وبين عملية تشكيل الفكر الذى مارسه الغرب من خلال التعليم ووسائل الاعلام وأساليب الاعلان من ناحية أخرى ، ومن ثم فهى تعيش فى اطار قوالب تفكير تسد أمامها سبل الكشف ، والابداع ، وتعيش أسيرة نماذج استهلاك تنسل الى أعماقها وتكتسب فى نظرها قيم التحضر والهناء والمكانة الاجتماعية . وفى هــذه الدوامة من الأحاسيس المتضاربة تصدر التصرفات المتناقضة : نزوح العقول الى الغرب . سعى وراء المال ولو بغير الحق أحيانا ، حركات التمرد ومحاولات قيـــادة ثورات سياسية واجتماعية ، تغلب اتجاه الرأى الغالب بين الشىء ونقيضه فى سرعة مذهلة (٦) ... ومن ثم فقد بدت بلاد العالم الثالث التى تحكمها هذه الصفوة تعيش حالة من الاستقرار ، والتقلصات والتغيرات فى المواقف الفكرية والسياسية ، وفى النظم والأشخاص . وما يرتبط بذلك من عجز عن تصور استراتيجية تنمية شاملة تغطى عدة عقود ، أو تفضى الى تحقيق أهداف تحقيق الرخاء العام للمجتمع (٧) .

ويرتبط بذلك أن الصفوة الحاكمة فى معظم البلاد النامية تتميز بأنها صفوة غير متجانسة من الداخل سواء من حيث أصولها الاجتماعية أو من حيث تصوارتها الأيديولوجية . من حيث تباين أصولها الاجتماعية (*) غير أنها تنتمى فى النهاية الى الطبقة الوسطى ، وهى بطبيعة الحال طبقة واسعة لها

(*) اذ نجد أن جمال عبد الناصر قائد ثورة يوليو يؤكد (اننى الابن الأكبر لأسرة مصرية من الطبقة الوسطى الصغيرة . وقد كان أبى موظفا صغيرا فى مصلحة البريد ، يبلغ مرتبه الشهرى نحو ٢٠ جنيها ، وهو مرتب يكفى بصعوبة لسد ضرورات الحياة) وفى مناسبات عديدة يركز قائد الثورة على تجانس الخلفية الطبقية المتوسطة لرفاقه فى خلايا الضباط الأحرار (٩) .

حدود مع الطبقة العليا ، ولها أيضا حدود مناظرة مع الطبقة الدنيا . هذا بالاضافة الى أنه قد أضيف الى هذه الصفوة فى أحيان كثيرة عديد من أبناء الطبقة الكادحة الذين استطاعوا الصعود من خلال النظام التعليمى وميكانيزمات الحراك الاجتماعى (٨) . وهذا بالاضافة الى استمرار معظم الصفوات البرجوازية الحاكمة فى الاعتماد على أبناء البرجوازية الكبيرة ومن ثم استطاع أثناء هذه الشرائح فى مصر — فى غياب تنظيم جماهيرى فعال والشرائح من الطبقة الوسطى فى ادارة أجهزة الدولة وتسيير القطاع العام ... أن تعيد فرض سيطرتها على القطاع العام وأجهزة الدولة ، وأن تفرض مع هذه السيطرة طموحاتها الطبقية المضادة بطبيعة الحال للتحول الاشتراكى فى مرحلة من مراحل سيطرة الصفوة الحاكمة (١٩٥٢ — ١٩٧٠) . ثم بدأ تزواجها — ان حقيقة أو مجازا — مع بعض العناصر القيادية العليا فى السلطة من أبناء الطبقة المتوسطة الصغيرة يميع تدريجيا ولاء هذه الأخيرة للطبقات الكادحة (١٠) . وقد حدثت نفس الظاهرة فى أمريكا اللاتينية ، حيث نجد أن كبار زراع التبغ مثل بيدروسى وأدرتيجاس والتجار العاملون بالتهريب مع الانجليز والفرنسيين هم الذين كانوا على رأس من قادوا النضال من أجل الاستقلال . وفى فنزويلا كان القائد بوليفار من أبناء كبار الملاك الزراعيين . وقاد حركة التحرير فى ١٨١٠ فى شيلى الملاك الزراعيون وأصحاب المصانع ، وأغنى التجار . وكان خوان مارتينز دىروزاس

هو أشهر قائد فى الفترة ١٨١٠ — ١٨١١ أغنى رجل فى أسرته فهو تاجر ، ومالك زراعى ، ومحام (١١) .

أما فيما يتعلق بتباين التوجيهات الأيديولوجية للصفوة ، فاننا نجد فى هذا الصدد افتقاد وحدة التوجه الأيديولوجى ، وهى المسألة التى تجد انعكاسا لها فى التغيرات الأيديولوجية التى انعكست فى السياسات الاجتماعية المتغيرة لمجرد التغيير فى أفراد الصفوة (*) .

(*) نبرهن على ذلك بتباين التوجه الأيديولوجى لضباط ثورة يوليو الأحرار حيث تراوحت توجهاتهم الأيديولوجية بين الاتجاه الاسلامى والاتجاه الماركسى . وتكفى الاشارة فى هذا الصدد الى أن الخلية الأولى فى حركة الضباط الأحرار ضمت أسماء مثل السيد / حسن التهامى ، السيد كمال رفعت وجمال عبد الناصر ، برغم تباين توجهاتهم الأيديولوجية . مما يوضح أن حركة الضباط الأحرار لم تكن تمثل كيانا أيديولوجيا موحدا ، بل عرفت فى داخلها أكثر من اتجاه أو أكثر من تيار (١٢) .

ويتصل بذلك أنه اذا كانت الطبقة الوسطى — التى تنتمى اليها الصفوة — هى النطاق الذى تلتقى عنده كل التيارات الفكرية والقيم والهموم السائدة فى المجتمع . فهى بحكم موقعها الوسط على اتصال دائم بالطبقة الأعلى والطبقة الأدنى ، ويلتقى عندها استغلال الأولى للأخيرة وهموم الأخيرة وانسحاقها بسبب هذا الاستغلال لذلك نجد أن الطبقة الوسطى أكثر فئات المجتمع حساسية وتنبها لكل ما يجرى حولها . فهى كقاعدة عامة مصدر لا ينضب للآمال والطاقات النضالية الوطنية والاجماع حول الاستقلال والمسألة القومية ، ولكن حينما يأتى دور المسألة الاجتماعية فان هذه الطبقة تختفى أطماعها وتتشرذم الى فئات مختلفة بعضها يتطلع الى أعلى ويطمح الى مواقع وامتيازات الطبقة العليا ، أو على الأقل الالتحاق بصفوفها ، بينما يوجه بعضها الآخر تعاطفه الى الطبقات الدنيا ويحاول خدمتها وانتشالها من الضعة والاستغلال . ولكن فى كلا الحالين تظل عناصر هذه الطبقة توفيقية فى قيمها واطارها الفكرى وممارستها العملية . فاذا قيض لها أن تقود المجتمع فان هذه الوسيلة تعكس نفسها فى القرارات الكبرى . يتضح أنه فى مصر بينما ظلت مسيرة الثورة بين ١٩٥٢ — ١٩٧٠ تحت قيادة عناصر الطبقة المتوسطة الملتزمة بمصالح من تحتها من الطبقات ، فان تلك القيادة قد انتقلت تدريجيا ، ثم بشكل حاسم بعد رحيل عبد الناصر الى عناصر من الطبقة المتوسطة أكثر التزاما واهتماما بمصالح الطبقة الميسورة (١٢) .

الى جانب ذلك نجد أن هذه الصفوة المنبثقة عن الطبقة المتوسطة تكون بحكم تكوينها منفصلة عن الجماهير الكادحة ، خاصة الطبقات الدنيا . فهى صفوة لأنها تعلمت ، أو لأنها امتلكت ، وهى أشياء محرومة منها الجماهير العريضة والغفيرة . فالتعليم بطبيعته يعيد بناء قيم الشخصية ، ومن ثم يعيد ترتيب أهدافها وترتب هذه الأهداف — خاصة اذا كان تعليما برجوازيا غربيا شاملا يتجاوز حدود المحلية وليس محليا يركز على الذاتية الوطنية ، وبالتالى نجد شخصية غريبة على سياقها ، والأمثلة كثيرة على رفض أبناءالريف الذين تعلموا العودة اليه ، حتى لقد قيل أن القرية تخلق أعداءها ، ورفض أبناء البلاد النامية الذين تعلموا بالخارج العودة اليها . أما اذا كانت صفوة بحكم ثرائها فالمؤكد أن مصالحها تفرض عليها الانفصال منذ البداية

عن جماهيرها المحرومة والتى تشكل سياقها . ومن ثم فبرغم ادعاء هــذه الصفوة أنها تعبر عن الجماهير ، فهى فى قراراتها وسياساتها لا تهــدف سوى تأكيد استمراريتها فى السلطة ، حتى ولو كان ذلك بأسلوب انتهازى عن طريق مغازلة اشباع الحاجات اليومية للجماهير وصرف اهتمامها عن التفكير فى بناء مستقبل مشرق لها (١٤) .

ولأن التعليم والاعلام والاعلان غربى ليبرالى فى معظم بلاد العالم الثالث ، فان الصفوة فى هذه المجتمعات عادة ما تستدعى هذه القيم والأفكار والاتجاهات ، ومن ثم نجد أن توجهاتها الأساسية غربية ، وكما أشرنا فلأنها بحكم تكوينها الاجتماعى منفصلة عن الجماهير ، فاننا نجدها فى بعض الحالات المتطرفة تحاول التخلص من كل ما هو وطنى باعتباره ينتمى الى المجتمع التقليدى ، ومن ثم فهو بالضرورة متخلف يجب التخلص منــه أو على الأقل اهماله ، فكل التكنولوجيــا المتوارثة لا تعنى شــيئا ، والعلاقات الاجتماعية القائمة على غير الملكية الفردية واطلاق حرية الفرد على عنانها عقبة فى سبيل التنميــة ، واللغة الوطنية حــاجز يحول دون التعرف على منجزات الغرب المتقــدم . والقيم السلوكية الســائدة تقلل من الكفاية الانتاجية ، والتنمية تقتضى ضرورة الاعتماد الكامل على استيراد التكنولوجيا الغربية فى كل شىء . ولا يقتصر الأمر على التكنولوجيا الصلبة المتمثلة فى المعدات بل يتجاوزه الى التكنولوجيا الناعمة المتمثلة فى المعرفة الفنيــة والخبرة الادارية التنظيمية (*) . ويمكن القول بأن التجربة المصرية قد شهدت فى بعض مراحلها تفاعلا مغايرا لذلك . فقد نجحت الناصرية فى فترة محدودة ضمن عدد محدود من البلاد النامية فى رفض هذا التوجه الى الغرب ، ومن ثم فقد نجحت فى تكوين جيل كامل من المديرين والخبراء والفنيين والوطنيين

(*) تطبق بعض الدول الأفريقية مواعيد العمل الأوروبية . ولا تعترف بالقيلولة (راحة الظهيرة) بالرغم من أن ارتفاع درجة الحرارة يؤدى الى هبوط الكفاية الانتاجية بشكل ملحوظ . وللتغلب على ذلك لابد من الالتجــاء الى أجهزة التبريد وكلفتها العالية (١٨) . وعادة ما تطالعنا الصحف فى مصر فى الفترة الأخيرة عن فريق من العلماء الأجانب الذين يجرون دراسات عن مشكلة الاسكان ، أو الموازنة العامة أو الأراضى الصالحة للزراعة أو اســتصلاح الأراضى وكلها مجــالات تمتلك مصر فيها خبرات على مســتوى رفيع من الكفاءة (١٩) .

فى اطار القطاع العام وليس فى ظل الشركات الاستعمارية • كما طرحت مبدأ مشاركة الجماهير فى شئون الادارة بتمثيل العمال فى مجالس الادارة وبتقدير نسبة ٥٠٪ للعمال والفلاحين فى كل المجالس السياسية المنتخبة. واذا كان واقع التجربة لم يجعل من هذه المبادىء حقيقة ديموقراطية تغير جذريا أوضاع المجتمع ، فان مجرد اقرار هذه المبادىء فى أوائل الستينات يعتبر استباقا رائعا لأفكار لم تتبلور فى الأدب التنموى الا فى أواسط السبعينات (١٥) . وبرغم ذلك فاننا فى فترة لاحقة من تاريخنا نلاحظ برجوازية تتخذ من الاطار المرجعى للغرب اطارا رئيسيا لسياساتها . يتضح ذلك من ملاحظة خطب أن الغرب هو مصدر الحرية والديمقراطية للانسانية (١٦) . وحيث نلاحظ أيضا اشاراتها الكثيرة الى النماذج الغربية كالنموذج الكندى وأوروبا الغربية باعتبارها مجتمعات — حسب تصور هذه الصفوة — تؤكد على كرامة الانسان والديموقراطية والحرية ، ومن ثم فعادة ما تتخذ التعليم والتكنولوجيا الغربية وخاصة الأمريكية اطارا مرجعيا لسياساتها التعليمية والتكنولوجية (١٧) (*) .

ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد ، بل تتطرف ببعض الصفوات فى توجهها الغربى ، بحيث ينعكس ذلك على سلوكياتها وأساليب حياتها ، حيث تجرى بعض الممارسات التى تشير الى عمق انفصالها عن جماهيرها ، حينما تتبنى هذه الصفوة منطق الترف الغربى . اذ تمارس حياتها ملهمة بالطبقات الغربية المترفه ليس من حيث أسلوب المعيشة فقط ، بل أنها تريد أن تفرض نفسها بأن تعيش فى مستوى يبهرهم . ولذلك فهى تسرف فى الاستهلاك ، وتشيع أسلوب البذخ فى المجتمع كله(٢١) . ولعل صحافة البلاد النامية ممتلئة بالصور التى تشير الى حالة ترف تتمتع بها قيادات هذه البلاد ، تتناقض كثيرا مع الحرمان المأساوى الذى تعانيه الجماهير المحيطة ، كصورة زعيم تحيط السلاسل الذهبية بعنقه يداعب كلبه على الطريقة الغربية فى مجتمع تتجاوز نسبة الأمية فيه الى ما يزيد على ٧٠٪ ، ويقل متوسط الدخل الفردى فيه عن ٢٤٠ دولار فى السنة ، هذا غير بناء الاستراحات العديدة

(*) يعكس انشاء المجلس الأعلى للثقافة ، ومجلس الاذاعة والتليفزيون مدى تأثر هذه الصفوة بشكل التجربة الانجليزية والمجلس الثقافى البريطانى ، ومجلس الأمناء فى هيئة الاذاعة البريطانية (٢٠) .

والمتناثرة ، والتى تشير فى مجموعها الى سلب مدخرات كان ينبغى أن توجه لخلق مأوى لجماهير أصبحت تشارك الموتى قبورهم (*) .

ولعل من أهم خصائص هذه الصفوة أيضا أنها صفوة متناقضة على نفسها ، فبرغم عشقها للديموقراطية الغربية — ولكونها نشأت فى ظل مجتمع تسوده العائلية والجماعية — نجدها ترى السلطة فى المجتمع امتدادا للسلطة المستندة الى مفهوم الأبوية (٢٢) . ومن ثم فهم غالبا ما يدعون الوصاية على شعوبهم ، سواء فيما يتعلق باصدار القرارات الاساسية ، أو اتخاذ الاجراءات ذات الصلة الجوهرية بالتنمية لاجتماعية القائمة . يشهد على ذلك التنظيمات التى تأسست فى المرحلة الناصرية . وفى مرحلة تالية رفعت شعارات العائلة المصرية ، ورب العائلة ، وأخلاق القرية ، وهى توصيفات تؤكد على الطاعة وعدم الاختلاف ، على عكس ما تؤكده الديموقراطية الغربية .

بالاضافة الى ذلك تتميز الصفوة الحاكمة فى العالم الثالث لكونها تمثل جزءا صغيرا من الجناح العسكرى للطبقة الوسطى الجديدة ، الذى يكاد يحتكر السلطة بين صفوفه (٢٤) . ومن الواضح أن معظم صفوات العالم الثالث قد وصلت الى الحكم أما من خلال الثورة التى يتصدرها العسكريون ، وأما من خلال الانقلابات التى تشغل بذاتها مباحث مأساوية فى تاريخ العالم الثالث أو باعتبارها امتدادا أو وراثة لأيهما معا . ومن شأن ذلك أن ينعكس على أسلوبها فى الادارة السياسية أو اصدار القرار ، فهى صفوة نشأت فى ظل الانضباط والنظام وطوعت عليه . ومن ثم نجدها عاجزة عن استيعاب دروس الديموقراطية أو اباحة المشاركة الجماهيرية من أوسع

(*) كان ستالين وزوجته يسكنان فى بيت صغير فى الجناح الذى كان يجاور جناح الخدم فى الكريملين أيام روسيا القيصرية . وكان ماوتسى تونج يحيا عيشة بسيطة متواضعة ، وهوشى ميه كان يعيش فى مسكن خشبى بسيط أقيم فى حديقة القصر الذى كان مخصصا للحاكم الفرنسى العام قبل التحرير . أما تشى جيفارا وزير الصناعة الكوبى الراحل فطلب من زوجته أن تستقل الأتوبيس مع جماهير الشعب وهو القائل (علمنا أولادنا أن يحصلوا على ما يحصل عليه الطفل العادى ، وأن يحرموا مما يحرم منه الأطفال العاديون) (٢٣) .

أبوابها . فهى تصدر أخطر القرارات كما لو أنها تمتلك وكالة أو تفويضـا جماهيريا بلا حدود وهى قد تسمح بالمعارضة أحيانا ، لكنها قد تضيق ذرعا فى أحيان كثيرة أخرى بالنقد اذا هو قد توجه لتقييم سلوكياتها .

ولأنها قلة حاكمة ، فانها عادة تخشى البيروقراطية المدنية ومن ثم فهى عادة ما تفرز من داخلها العناصر العسكرية التى تتولى ادارة المؤسسات المدنية الأكثر خطورة وأهمية تحت وطأة شعار الادارة فى ظل أهل الثقة أكثر أمانا من تركها لفاعلية أهل الخبرة . والقضية الخطيرة فى هذا الصدد ان يستمر ذلك طويلا بحيث يسـلم الى وضع ، يتعمق فيه الاحسـاس الدكتاتورى لدى الصفوة فى مقابل السلبية وعدم الانتماء لدى الجماهير ، والنتيجة مجتمع مريض مصاب بحالة انفصام الشخصية .

ذلك أن هذه الصفوة — فى مجتمعات كثيرة — تكون منفصـلة عن الجماهير ، فهى تتأرجح فى العادة بين الارتباط بالقوى الخارجية اما لجلب الاستثمارات من الخارج لمجتمعاتها — فى أفضل الأحوال تفاؤلا — وأما للحصول على السلاح الذى يحقق بالقهر نوعا من الاستقرار الاجتماعى ، ومن ثم استمرارها فى السلطة . ولا مانع فى هذه الحالة من طرح شعارات واعلانات تارة ذات طبيعة ثورة راديكالية ، أو ذات طبيعية جماهيرية فى أحيان أخرى ، نجد أنها اذا سلكت هذا السبيل فانها تحيا حياتها منعزلة عن دعم الجماهير مستندة الى قوة السلاح . أو أنها قد تختار البديل الآخر ، الارتباط بالجماهير والتحرك به من خلال رحلة حرمان شاقة قد تطول ، ولأنها صفوة مترفة ، أو لأن هذه الجماهير قد عانت صنوف حرمان تاريخية طويلة ، فانها قد تصاب بالعزلة مرة أخرى ، اذا لم تحيا ذات الحياة القاسية فى معية واحدة مع جماهير الداخل ، ذلك يفسر دورة الصفوة التى تحدث فى مجتمعـات العالم الثالث من خلال مجمـوعة من الانقلابات العسـكرية المتعاقبة (٢٥) التى تهدد فى أحيان كثيرة باشاعة حالة من الفوضى السياسية . بالاضافة الى ذلك فهى صفوة تولى وجهها شطر العالم الغربى المتحضر ، وسواء كانت القيادة السياسية فى العالم الثالث ذات رؤية ماركسـية أو تعتقد فى فاعلية آليات السوق . فان هذه القيادة قد استوعبت بطريقة أو بأخرى يديولوجيا تنتمى الى جامعات بالخارج (السوربون أو شيكاغو على سبيل المثال) أو انها اخذت عن مدرس يعلمها فى أى من هذه الجامعـات

فمعتقداته المتعلقة بأى ظاهرة لا تشتق من تاريخ وبناء مجتمعاتها ، برغم أنه قد يكتشف ما يدعم هذه المعتقدات . فتوجهاتها نحو الخارج ، ومن ثم فهى غالبا ما تعجز عن نقل الثقافة المتقدمة بمجتمعاتها بقدر نجاحها فى جذب مجتمعاتها الى ساحة النظام العالمى من خلال التبعية .

خلاصة القول أن القول بأن صفوة البلاد النامية هى صفوة تنتمى بالأساس الى الطبقة المتوسطة قد تحتل أدناها أو تنتمى الى أعلاها ، الا أنه يظل مؤكدا أن تحالفاتها أثناء عملية التنمية هى تحالفات مرحلية ، فهى مع الجماهير الكادحة تارة ، بينما تتراوح تارة أخرى مع البرجوازية العليا . هى صفوة ذات توجه غربى لطبيعة حياتها وتدريبها الأكاديمى ، ومن ثم فهى قنطرة عبور مجتمعاتها الى النظام العالمى من خلال التبعية . ثم هى صفوة مترفة وغير نضالية ، توسطية تميل دائما الى الحلول الوسط ، أو لنقل استراتيجيات التنمية الاجتماعية المريحة وغير الشاقة ، ثم هى صفوة عسكرية تعشق الطاعة والانضباط ، ومن ثم فهى تكره المشاركة ، تنمو لديها الميول الدكتاتورية ، ذلك كله قد يقودها فى أحيان كثيرة بوعى أو بلا وعى الى السقوط فى براثن التبعية الكاملة للعالم الغربى ، ذلك أننا اذا تعرفنا على جوهرها الحقيقى ، فسوف نجدها ليست سوى امتدادا مشوها له .

٢ — أيديولوجيا التنمية الاجتماعية ، ملامحها وأهدافها :

تكشف محاولة البحث فى هوية أيديولوجيا العالم الثالث عن عدة حقائق أساسية . أولها أن هذه المجتمعات تشكل وحدات فرعية من نظام عالمى ومن ثم فأرضها ساحة لصراع أيديولوجى له طبيعته العالمية بحيث يصل الصراع أقصاه اذا كان ثمة فراغ أيديولوجى داخل الوحدة المحلية . وثانيها أن أغلب هذه المجتمعات حضارى ومن شأن المجتمعات الحضارية أن يكون لها تاريخ وتراث اذا لم تكن بينه وبين الأيديولوجيا المعاصرة التى تبنتها الصفوة ثمة صلة ، فسوف تكون التنمية صراعا صريحا يضاف على ساحتها الأيديولوجية . اما الحقيقة الثالثة فتتمثل فى أن هناك ازدواجية قيمية ، قد تعيشها بلاد العالم الثالث فثمة ثقافة شعبية تتصل بتراث المجتمع وروافد العالمية المعاصرة وثمة أيديولوجيا للصفوة ، قد تختلف معها ، والوضع المثالى أن تكون الايديولوجيا تحت الثقافة المجتمعية ، وتشتق منها ، أما اذا

كانت فى قدمتها أو اذا طرحت منظومة قيمية مضادة ومتباينة ، فثمة احتمال للصراع أيضا .

والتعرض لأيديولوجيا العالم الثالث ، يطرح السؤال متجسداً ، ما هى ملامح أيديولوجيا التنمية الاجتماعية ، تلك التى تتبناها الصفوة الحاكمة . الحقيقة الأساسية التى نؤكدها فى هذا الصدد أن هذه الصفوة صفوة هشة من حيث تكوينها الايديولوجى . بمعنى أنها تبدو فى أحيان كثيرة صفوة غير ملتزمة باطار أيديولوجى متماسك أو محدد المعالم . هذا الى جانب أنهـا صفوة تسودها ظاهرة الحراك الأيديولوجى ، تعكس سـلوكياتها مصـالح وتوجهات الطبقة الوسطى ، وربما مصالح البرجوازية الكبيرة . وان تحدثت فى بعض الأحيان عن بعض قضايا العدالة الاجتماعية ، فانما هى تتحدث من منطق التعاطف والاحسان البرجوازى ، غير أن هناك مشكلات كثيرة تواجه هذه الصفوة فى تحديد خيارها الأيديولوجى .

من هذه المشكلات ما يمكن أن نسميه بظاهرة التجريب الأيديولوجى التى تجسدها الصفوة فى هذه البلاد . فغالب هذه الصفوات يصـل الى الحكم ــ بتأثير حركة عسكرية ــ دونما أن يكون لديها التزام أيديولوجى واضح أو محدد المعالم . ويصبح مفروضا عليها حينئذ أن تطور تصورا لتنمية المجتمع وتطويره . فمثلا مجموعة الضباط الأحرار الذين تولوا السلطة فى ٢٣ يوليو لم يكونوا ملتزمين بتوجهات أيديولوجية محـددة أو بمذهب اجتماعى بعينه ، وأنهم قد اتبعوا فى المقام الأول منهجا ذرائعيا تجريبيا . وكان الرئيس جمال عبد الناصر يشير من آن لآخر الى الصـفة التجريبيـة لسياساته ، وعدم رغبته فى الالتزام الأيديولوجى بعقيدة جامدة ... واعترف عبد الناصر بوضوح بأن قادة حركة الجيش لم يكن لديهم فكرة واضحة عما يجب أن يفعلوه عندما وجـدوا أنفسهم فى مقاعد السـلطة (٢٦) وخلال مناقشات اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطنى ، ثم فى اجتماعات المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية أكد ــ عبد الناصر ــ أن أحد مثالب هذا النظام هو غياب الأيديولوجية التى تقود العمل الثورى . فقد كان غياب الأيديولوجية يعنى غياب الالتزام الفكرى للتنظيم ــ وفى نوفمبر ١٩٦١ أشتكى عبد الناصر صراحة من أن المثقفين لم يتعاونوا بحماس مع النظام ، وأن أمله قد خاب

لقلة الكتابات الأكاديمية حول النظام الاقتصادى والسياسى الجديد للبلاد ، ووصل الى القول بأن مصر تمر بتجربة تتقدم فيها الممارسة على النظرية (٢٧) .

الى جانب ذلك تمارس صفوات هذه البلاد ما يمكن أن نسميه بظاهرة الانتقاء أو التغيير الأيديولوجى . فبرغم المواثيق الرئيسية كالدستور والقوانين الأساسية التى تحدد هوية المجتمع ، نجد أن السياسات الاجتماعية لهذه البلاد عادة ما تستلهم من شخصية الحاكم أو الصفوة التى تعاونه . فمثلا برغم اعلان عبد الناصر للأيديولوجيا الاشتراكية كأيديولوجيا تقود التنمية الاجتماعية نجده فى عام ١٩٦٥ وفى ذروة الحديث عن الاشتراكية يعلن عن بورسعيد كمدينة حرة ، ولم يجد عبد الناصر حرجا فى ذلك أو عدم اتساق مع المناخ السياسى العام على أساس تأكيده — حينما سئل عن تعليل هذا التناقض — أنه (لا بابوية فى الاشتراكية) .

وتتكامل مع ذلك ظاهرة تغيير الأيديولوجيا بكاملها وليس فقط بعض عناصرها ، خاصة بعد وفاة معلنها أو رافع شعاراتها الرئيسية . فخلال الفترة ما بين ١٥ مايو ١٩٧٠ وحتى ١٩٧٣ ، بدأ الرئيس السادات يطرح أفكاره وسياساته بشكل تدريجى ومن خلال مجموعة من الوثائق الأساسية ، تدم فيها تغييرات جزئية أدت فى النهاية الى تغيير وجه مصر تغييرا جذريا بما فى ذلك مجموعة الأفكار والمفاهيم التى شكلت المناخ الفكرى للنظام الحاكم . ومست هذه التغيرات التنظيم السياسى والاقتصادى للمجتمع ، وكذلك السياسة الخارجية . ففى الحياة السياسية هاجم مفهوم الحزب الواحد حتى قضى عليه باصدار قانون الأحزاب فى مايو ١٩٧٧ ، الذى يعنى قبول مبدأ التعدد الحزبى فى اطار قيود معينة خلال مدة المجلس البرلمانى الحالى ١٩٧٦ — ١٩٨١ . كذلك أعلن عن عديد من الأفكار الليبرالية ، وفى المجال الاقتصادى دعا الى اطلاق المجال أمام القطاع الخاص ، وكذلك تشجيع رأس المال العربى والأجنبى ، وعدم اللجوء الى التأميم والمصادرة ، والتأكيد على مفهوم العائلة الواحدة ، التى تخلو من الصراع والتى تسعى الى حل خلافاتها بالأسلوب السلمى (٢٨) وهو ما يعنى التغيير الكامل لأيديولوجيا ما قبل ١٩٧٠ حيث التوجهات الاشتراكية .

حدث ذلك أيضا فى البرازيل ، حينما رفع الرئيس خوسلينو كوبتشيك

الذى تولى الفترة من ١٩٥٦ — ١٩٦١ شعار التنمية وفقا الأيديولوجيا الليبرالية وكان بذلك أكثر صداقة للولايات المتحدة ، بحيث شعرت الأخيرة باقترابه منها ومن ثم طرحت امكانية التعامل معه . غير أن هذه التوجهات الأيديولوجية قد تغيرت حينما تم انتخاب الرئيس خانيو كادورسى ، وهو حيادى معتز بنفسه ، حيث سبب للولايات المتحدة ازعاجا بسبب ميوله اليسارية هو ونائبه خواد جولار ، وقد تأكدت هذه الميول حينما استقال كادروسى وبقى جولار اليسارى الذى أعلن عن أيديولوجيا أقل ما فيها أنها لا تخدم المصالح الأمريكية (٢٩) . الى أن حدث انقلاب ١٩٦٤ برئاسة كاستلو برانكو الذى اعترفت به الولايات المتحدة على الفور ، حيث ترجم هذا الاعتراف فى شكل مساعدات كبير للنظام الجديد بلغت نحو ٥٠ مليون دولار من مؤسسة (ايد A. I. D)، وقروض فى الفترة ١٩٦٥ — ١٩٦٦ بلغت نحو ٣٠٠ مليون دولار من البنك الدولى ، فى مقابل ذلك احتفظت الحكومة الجديدة ببعض أشكال الديموقراطية البرلمانية ، وادعت أنها ستعيد توطيد النظام وكفاءة الاقتصاد . وكانت الحكومة مستعدة للذهاب أكثر من ذلك للحفاظ على العلاقات الطيبة مع الولايات المتحدة الأمريكية . واتجهت أيديولوجيا النظام السياسى فى هذه المرحلة الى توطيد الاستقرار الاقتصادى والسياسى ، والاحتفاظ بالأجور فى مستوى أقل من الأسعار ، والغاء القيود على المنتجات الزراعية ، وهى الاجراءات التى لم يستفد منها فقراء الريف . وبدأت صناعة السيارات المملوكة للأجانب فى ١٩٦٥ فى الانتعاش ، وذلك بسبب اجراء خاص بالضرائب التى يدفعها مشترو السيارات (٣٠) . وهو ما يشير الى أيديولوجيا تستهدف دعم القطاع الخاص ، وتشجيع الاستثمارات الأجنبية ، والتخلى عن أهداف العدالة الاجتماعية والغاء التباينات الاقليمية التى سادت المرحلة السابقة على ١٩٦٤ .

وتعتبر التوسطية الأيديولوجية احدى الظواهر التى تعانيها هذه الصفوة فى خيارها الأيديولوجى ، اذ نجدها تارة ترفع شعار معاداة الاقطاع والرأسمالية والامبريالية وتمضى فى طريق الاشتراكية من ناحية ، وتعادى الماركسية وتتردد ولا تمضى فى طريق الاشتراكية الى نهايته من ناحية أخرى . تقتلع الرموز البشرية للاقطاع والرأسمالية من المركز القيادية العليا فى المجتمع ، ولكنها لا تصفى أو تتخلص من أبناء هاتين

الطبقتين فى المستويات القيادية الأخرى (*) ... وقد دفع ذلك القيادة السياسية الى البحث عن أيديولوجيا خاصة . فصراعها مع الاستعمار وعدم استجابة البرجوازية الكبيرة لها فى أوائل سنوات الثورة جعلاها تخلص الى رفض النظام الاقتصادى الليبرالى الرأسمالى ، والتزامها بمصالح الطبقة المتوسطة التى تنحدر منها مما اضطرها الى رفض النظام الماركسى القائم على دكتاتورية طبقة البروليتاريا . ومن هنا سعت جاهدة الى بناء تصور أيديولوجى استراتيجى توفيقى يستند الى منجزات الغرب الصناعى بشقيه الليبرالى والاشتراكى من نحية ، ومحاولة تطويعه لقيم واتجاهات التراث المحلى والاقليمى ووضعه فى خدمة الطبقات الأقل حظا من ناحية أخرى . بحيث أنجبت هذه المحاولات وليدا شبه متكامل جسم نفسه فى أكثر وثائق الحقبة الناصرية عمقا من الناحية الأيديولوجية ، الا وهو الميثاق (٣١) .

وفى مرحلتنا المعاصرة نجد ممارسات توسطية غريبة من حيث طبيعتها . فهناك بلا شك نزعة ابوية تؤكد على مفهوم العائلة المصرية تحت قيادة رب العائلة (رئيس الجمهورية) من ناحية ، ومن ناحية أخرى نجد أن زعامة الصفوة تؤكد على ضرورة التعدد الحزبى الغربى ، وعلى ضرورة قيام المعارضة — لأن الحقيقة هى نقطة تقع بين الرأى والرأى الآخر — وهو تصور يعكس بذاته المساواة الندية وليس التدرج الأبوى . ومن ناحية أخرى فهى تدعو الى قيام المعارضة ، ثم تضيق ذرعا بها فى مرحلة تالية ، لكى يؤكد على المعارضة الملتزمة بأهداف قومية محددة (**) تشجع القطاع

(*) من الممارسات التى أقدمت عليها صفوة يوليو ١٩٥٢ أنها أصدرت قوانين الاصلاح الزراعى ، لضرب الاقطاع كأحد الأهداف ، غير أننا نلاحظ أن معظم الذين تولوا تنفيذ القوانين وتجسيدها من موظفى الدوائر الاقطاعية فيما مضى قبل الاستيلاء عليها ومن ثم فقد كانوا على تعاطف مع الاقطاعيين أو أنهم أقارب لهم ، مما كان لذلك تأثيره على فاعلية الاصلاح الزراعى فى جوانب كثيرة .

(**) من الامثلة الواضحة على ذلك الموقف الذى وقفه الرئيس الراحل السادات ، حينما شن فى سبتمبر ١٩٨١ حملة على المعارضة ، ناصرية ، أو يسارية ، أو دينية أو حتى شعبية لمجرد أن جريدة الشعب التى أغلقها ، والأهالى التى سبقتها فى الاغلاق عليها ، قد تطاولت بالنقد عليه ، واصفا اياها أحيانا (بقلة الحياء) وغير ذلك ومحاولة تشويه زعامات المعارضة ، أيا كانت التوجهات الأيديولوجية لهذه المعارضة .

الخاص وتطلق يده ، وتفتح الباب على مصراعيه أما الاستثمار العــربى والأجنبى . ومع ذلك ، حينما يثور الجدل حول القطاع العام، تعلن الحفاظ عليه ودعمة باعتباره عماد التنمية القومية . ثم أنها من الناحية الاقتصادية تحاول اتباع ما يمكن أن نسميه بالاقتصاد المختلط ، وهو الاختيار التوفيقى الذى أدى فى معظم الحالات الى تآلف أسوأ قسمات الرأســمالية والاشتراكيــة لا أفضلها . كما منع البلاد النامية فى أغلب الأحوال من تطبيق حوافز اقتصادية للأداء الجديد الأمين أو من الاستفادة من السريان الحر لنظام الأثمان فى تحقيق الكفاية فى اطار رأسمالى ، ان لم يكن فى تحقيق العدالة الاجتماعية .. وفى الوقت نفسه فان اختيار الاقتصاد المختلط قد منع المجتمعات من متابعة أهدافها فى اطار اشتراكى محدد . اذ أن مؤسسات الاقتصاد المختلط كانت فى أغلب الأحوال مؤسسات رأسمالية . ولذلك كانت النتيجة النهائية الوقوع بين شيئين كريهين ، يجمعان ما بين الحوافز الضــعيفة والاشــتراكيــة البيروقراطية . وهكذا لم تتحقق فائدة من مثل هــذا الخلط فى الأهــداف الاجتماعية والسياسية داخل اطار الاقتصاد المختلط (٣٢) .

والسؤال الهام ما هى طبيعة التوجهات التى تشكل جوهر ايديولوجيا الصفوة الحاكمة فى غالبية البلاد النامية .

أول هذه التوجهات أنها ايديولوجيا تعمل لصالح الطبقة البرجوازية ، بحيث تعمل الصفوة على تأسيس سياسات تخدم مصالح هــذه الطبقة أو الطبقات الحليفة . قد تعلن عن بعض الأهداف الاجتمــاعية كالاصلاح الزراعى — فى الحدود التى لا تمس مصالح أغلبية البرجوازية المتوسطة — نتيجة لتحالفها مع الطبقات الكادحة (١٩٥٢ — ١٩٧٠ فى مصر) بحيث نجد أن البرجوازية الصغيرة تكسب من اجراء على هذا النحو حوالى ٨٨ الف فدان بالنسبة للفلاحين الملاك فى الشرقية من ٥ — ١٠ أفدنة ، ١٦١ الف فدان بالنسبة للملاك بين ٢٠ — ٥٠ فدانا . هذا الى جانب أن قوانين الاصلاح الزراعى لم تحاول ابتداء من القانون الصادر فى ٩ سبتمبر ١٩٥٢ وحتى القانون رقم ٥٠ لسنة ١٩٦٩ أن تتجاوز الحد الأقصى ٥٠ فدانا للفرد ، ١٠٠ فدانا للأسرة فى مجتمع بلغ متوسط الملكية فيه نحو ١٨و٠ من الفدان ، وبه معدمين يتجاوزون نسبة ٤٠٪ من سكان القطاع الريفى (٣٣) . غير أنها

قد تتحالف فى مرحلة أخــرى مع البرجوازية الكبيرة (١٩٧٠ وما بعدها) تتوقف اجراءات الحراسة والمصادرة وتطلق يد القطاع الخاص (*) .

فى المجال الصناعى نجد أن التوجهات الأساسية تتجسد فى سياسات تخدم مصالح واحتياجات الطبقة الوسطى . ففى المجال الصناعى نجد أن الصناعات الاستهلاكية (السيارات ، الثلاجات ، الغسالات ، التلفزيون ، الراديو) ، فى الفترة من ١٩٥٦ — ١٩٦٠ استوعب نحو ٤٩٪ من الميزانية والصناعات الرأسمالية بحوالى ٨٪ . وهو ما يعنى أن التوجيه الأيديولوجى الذى حكم سلوك الصفوة فى هذه المرحلة هو اشباع طموحات الطبقــة المتوسطة والصغيرة ، واعطاء الأولوية لحاجاتها الاستهلاكية (**) (٣٤) .

غير أنها فى ذات المرحلة التاريخية تعلن عن تأسيس عديد من مبادىء العدالة الاجتماعية ، كمشاركة العمال فى الادارة ، أو القوانين التى تؤيد شريحة العمال فى مواجهة الادارة ، هذ بالاضافة الى حوافز الأرباح وعديد من الحوافز المعنوية التى منحت للطبقة العاملة ، علاوة على اعتبار القطاع العام أساس التنمية الاجتماعية مع منح الرأسمالية الوطنية ، دوراً ثانويا للمشاركة فى التنمية الاجتماعية .

بالاضافة الى ذلك اتخذت بعض الاجراءات لصـــالح جماهير الأغلبية كاجراءات مجانية التعليم ، ورفع مستويات الصــحة العامة والتوســع

(*) الى جانب ايقاف الحراسات فى الفترة من ٧٠ — ١٩٨٠ بدأت خلال هذه الفترة أصوات تطالب برفع ايجارات الأرض الزراعية ، وتعديل الايجارات ، بما يفهم منها أنها جهود تستهدف مصالح كبار الملاك .

(**) صرح الدكتور عادل جزارين بأن شركته (شركة النصر لصناعة السيارات) بدأت تحقق خسائر والسبب هو الأسعار . فأسعار السيارات لا تتحرك منذ خمس سنوات بينما أسعارها فى العالم كله تتحرك بسبب زيادة الأجور وزيادة تكاليف مكونات الانتاج . والشركة تستورد مكونات الانتاج بأسعار مرتفعة وهى ممنوعة من رفع السعر . (ثم تساءل) هل السيارة رغيف عيش ، أو صفيحة زيت أو كستور شعبى فلا ترفع أســعارها ، **وهو ما يعنى أن البرجوازية تدعم سلفها وتثبت أســعارها ، وليس ذلك بالطبع لصالح الجماهير الكادحة والفقيرة** (الأهالى . فى ١٩٨٣/١/٥ . الصفحة الثالثة . مقال الدعم أم الانفتاح) .

فى التأمينات الاجتماعية . هذا بالاضافة الى رفع شعار حل الصراع سلميا بين الطبقات فى اطار من الوحدة الوطنية .

غير أننـــا نلاحظ فى الفترة من ١٩٧٠ فصــاعدا تبدلا فى الأسس الأيديولوجية التى تحكم توجهات النظام ، بحيث نجد اتجاها نسبيا نحو التحالف مع البرجوازية العليا ، بحيث نجد رفضـــا للاجراءات التى تمس مصـــالح البرجوازية العليا ، كرفض اجراءات التأميم والمصادرة والحراسة . هــذا بالاضافة الى فتح الباب على مصراعيه أمام رأس المـــال العربى والأجنبى للمشاركة فى التنمية الاجتماعية والاقتصادية .

ومن الطبيعى أن نجد تجسيدا لهذا التغير فى التوجه الايديولوجى فى المجال الصـــناعى ، حيث اســـتكامل خط المرحلة السابقة مع ميل أكثر نحو الصناعات التصديرية ، والعمل على تنشيط مناشط كالسياحة ، والسعى دائما على تأكيد مشاركة رأس المـــال الخاص ورأس المـــال الأجنبى (*) .

أيضا تؤكد هذه المرحلة على اعتبـــار المشروع الخاص كأساس للتنمية الاجتماعية ومن ثم اتباع فلســـفة الانفتاح الاقتصـــادى تحت دعوى (أن الحكومة تاجر سىء ، وصـــانع أسوأ ، وأن الحكومة ما دخلت فى شىء الا أفســـدته) . ويترتب على ذلك زيادة القوة التحويلية للقطاع الخاص على حساب القطاع العام (٣٥) وبالطبع حدث مقابل ذلك تخل تدريجى عن بعض الأهداف الأيديولوجية المتعلقة بالعدالة الاجتماعية . كمحاولة التراجع عن تعيين الخريجين ومجانية التعليم ، ومحاولة بناء الجامعات الأهلية — التى

(*) من الحقائق البارزة فى هذا الصدد ان أمر الرئيس الراحل السادات باندماج الوحدات الناجحة للشركة العامة للبطاريات فى مشروع مشترك مع شركة كلورايد الانجليزية ، ومن ثم حمل اسم الأخيرة . ومقابل استخدام اسم كلورايد أصبح على الجانب المصرى أن يدفع أتاوة من جملة مبيعات المشروع المشترك وقدرت الاتاوة بمليون جنيه قابلة للزيادة ، ونتيجة لذلك قام الجانب الانجليزى برفع أسعار البطارية الى ٦٥ جنيها بدلا من ٢٦ جنيها . (الأهالى ١٩٨٣/١/٥ . الصفحة الثالثة) . ومن الواضح أن فى ذلك خسارة اقتصادية يتمثل فيما تأخذه الشركة الانجليزية ، وخسارة تمس الهوية الوطنية بالغاء اسم شركة وطنية لتحمل بدلا منه اسم شركة أجنبية تتحكم فى سياســـات الأولى .

تخدم شريحة معينة — واطلاق يد الادارة فى مواجهة العمال خاصة ادارة شركات الاستثمار ، كذلك اطلاق الأسعار ، ورفع الدعم تدريجيا عن السلع التى تمس احتياجات الجماهير . بغض النظر عن بعض الممارسات ذات الطابع الاجتماعى — من النخبة الظاهرية — كمد مظلة التأمينت أو رفع مستوى المعاشات وتوسيع نطاقها .

بالاضافة الى ذلك تعانى الأيديولوجيا الحاكمة للسياسة الاجتماعية فى العالم الثالث من ظاهرتى التسطيح والتحدد الأيديولوجى ونعنى بظاهرة التسطيح الأيديولوجى ان تقتصر الأيديولوجيا على مجموعة من الشعارات والاعلانات دونما محاولة التجسد الواقعى عن طريق التفاعل الجماهيرى والواقعى معها . هذا بالاضافة الى محدودية وأحادية التوجه الايديولوجى واقصد بالمحدودية اقتصار هذا الفهم للتوجه الأيديولوجى على الصفوة الحاكمة ذاتها ، أو شريحة المثقفين ان كنا أكثر تفاؤلا . اذ يكفى أن يلون المثقفون من أبناء البرجوازية القضايا الأيديولوجية . وهم بطبيعتهم طبقة ذات منطلقات نفعية ، وذات قدرة خارقة للنضال أو الدفاع اللفظى عن قضايا السلطة ، لكى تبرر هذه الشريحة مشروعية وجودها ، لكنها — أى الطبقة المثقفة — عاجزة — اذ لزم الأمر — عن التضحية فى سبيل اية قضايا (*) . أما عن الاحادية الأيديولوجية فترجع الى أن التفاعل بين البشر والشعارات أو الاعلانات الايديولوجية من القمة — السلطة — الى القاع — الأفراد فى المجتمع — دونما محاولة جادة من الأولى لسماع بعض وجهات نظر القاعدة فى منطلقات القمة .

ونتيجة لذلك تظل أيديولوجيات العالم الثالث مسطحة بلا عمق أولا لأنها مستوعبة من الخارج وطارئة على التراث ، بل لم تتح لها الفرصة الملائمة للتفاعل .. وثانيا لأنها تفتقر القنوات الحقيقية للتفاعل من الجماهير ، حتى ان جسد آمالهم فى غيبة وعيهم بذلك .. وأكبر مظهر لذلك أن العالم

(*) من الحقائق اللافتة للنظر أن هناك فريقا من المثقفين لعبا دورا تبريريا للتجربة الناصرية اثناء حياة صاحبها ، وهم نفس الفريق الذى كان له السبعة فى رفع شعارات نقد الناصرية ومباركة الساداتية ، ثم هم الذين هتفوا للسادات يوما ، ورفعوا السيوف على تذكاراته بعد وفاته ، ونجد توصيفا دقيقا لدور المثقفين فى الفكر النظرى خاصة النظرية الماركسية .

الثالث لا يشهد نضالات جماهيرية ذات طابع أيديولوجى واضح أو محدد المعالم (*) .

واستنادا الى ما سبق تميز الموقف الأيديولوجى لمجتمعات العالم الثالث باعتباره محكوما بالاعتبارات الأساسية التالية :

١ — أن للبنية الأيديولوجية لهذا العالم مجتمعا ، أو لمجتمعاته منفصلة ، موقفا يتميز بعدم التماسك الأيديولوجى ، فأيديولوجته انتقائية محدودة وأحادية ، متناقضة تفتقد أدنى قدرة على الاستمرارية ، هذا الى جانب غربة التوجه الأيديولوجى فى معظم مجتمعات العالم الثالث عن طبيعة التراث القائم .

٢ — الموقف من النظام العالمى ، بحيث يتخلق الموقف الأيديولوجى لأى من مجتمعات العالم الثالث بالنظر الى موقع هذا المجتمع على خريطة التفاعلات العالمية ، وأيضا بالنظر الى مدى اقترابه أو ابتعاده عن المحاور أو التكتلات الأساسية ذات التوجهات الأيديولوجية المتباينة .

٣ — طبيعة المشكلات الواقعية التى تواجهها الصفوة الحاكمة ، فحيثما تكون المشكلات حادة تمس مشاعر الجماهير بما قد يهدد استقرار الصفوة ، فاننا نجدها عادة ما تلجأ الى اعلان بعض السياسات التى تحاول أن تشير بها الى أن ثمة توجهات أيديولوجية جماهيرية قائمة .

٤ — طبيعة الانتماء الاجتماعى والطبقى للصفوة الحاكمة ثم طبيعة تحالفاتها التكتيكية والاستراتيجية ، وما هو موقع مصالحها فى هذا الاطار ، ثم طبيعة علاقات الاتصال والانفصال بين الصفوات المتعددة فى اطار المرحلة التاريخية الواحدة ومدى اختلافها أو اتفاقها على توجهات أيديولوجية بعينها .

(*) من الحقائق اللافتة للنظر أنه حينما سقطت الناصرية بوفاة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، وذلك برغم الانجازات الناصرية الواضحة فى اطار الواقع الاجتماعى فى الفترة من ١٩٥٢ — ١٩٧٠ ، انقلب عنها المثقفون ولم يدرك الشارع المصرى أنه افتقد هذه التوجهات الأيديولوجية لأنه لم يستوعب شيئا منذ البداية . واعتقد أنه اذا كانت كارثة عبد الناصر الأولى هى ١٩٦٧ — أيا كانت أسبابها — فان الكارثة الحقيقية أن تختفى الناصرية من على المسرح ولا تذرف الجماهير دمعا ، اللهم الا حفنة ضئيلة من المثقفين عاجزة عن أن تدعم أملا .

٥ — أنه باعتبار أن معظم الصفوات الحاكمة فى العالم الثالث صفوات عسكرية ، ولكونها نشئت على الطاعة والولاء والنظــام فانها لا تســمح عادة بالمشاركة الجماهيرية الفعالة ، ومن ثم نجد لديها قناعة أيديولوجية واضحة بعدم تسيس الجماهير . وهو ما يؤكد انفصــال جماهيرى عن مسارات التنمية ، وهو الوضع الذى يفرض على هذه الجماهير سلوكيات الانسحاب واللامبالاة ، ومشاعر عدم الانتماء أيا كانت المؤشرات الدالة على ذلك .

٣ — دور البرجوازية فى تنمية العالم الثالث :

يعتبر فهم البنية الطبقية للعالم الثالث مدخلا ملائما لفهم سياساته التنموية . ذلك أن المسألة الطبقية والموقف منها تعتبر من الأبعاد الأســاسية التى تشكل معالم السياسة الاجتماعية فى العالم الثالث . وأيا كانت طبيعة الهوية الطبقية للمجتمات النامية ، فالمؤكد أن لدينا تقسيمه طبقية معتادة ، حيث توجد على السطح قشرة رفيعة لقوم افتتنوا بحضارة الغرب ، وحاولوا تقليده وقذفوا بأنفسهم فى عصر الاستهلاك الواسع مباشرة ، رغبــة فى اختزال الزمن واغتنام الثروات مهما كان الثمن . قلبوا اعتصار شــعوبهم لحساب الشركات المتعددة الجنسية لينالوا بعض ما يعتصرون . فرطوا فى مفاهيم الوطنية والقيم الحضارية وأقدموا على أساليب من القمع لم تعرفها اكثر العصور بربرية . وطبقة ثانية هى الطبقة الدنيا ، وهى تشــكل قلب البركان الاجتماعى ، ويعيش فيها بثلث البشرية ، تعيش على مجرد ما يقيم الأود ، وكثيرا ما لا يجدون اليه سبيلا . فريسة للفاقة والأمية وأمراض سوء التغذية وانحطاط ظروف المعيشة (٣٦) .

اذ تتميز الاقطار الفقيرة بتناقضات رأسية واسعة ، اذ يستولى اغنى ٥٪ من السكان على نحو ٣٠٪ أو ٤٠٪ من اجمالى الدخل القومى وقــد تتجاوز النسبة ذلك كما فى بعض المستعمرات (٣٧) . فمن الخطأ مثلا ان نتصور أن كل الهنود اكثر فقرا من سكان الولايات المتحــدة . اذ عادة ما تستولى قمة الهرم الاقتصادى فى مجتمع فقير على دخول تفوق أعلى الدخول فى المجتمعات الصناعية . هذا الى جانب قدراتهم الخــارقة على

تطويع القوانين المحلية لصالحهم مع دفع أقل الأعباء الضرائبية (٣٨) (*) .

وسواء كانت الطبقة المـــالكة أو البرجوازية العليا لا يتجاوز عددها نحو ٢٢ أسرة كما هى الحال فى الباكستان والتى تتحكم فى ٨٠٪ من البنوك ، ٧٠٪ من شركات التأمين (٣٩) . أو سواء كانت هى البرجوازية الرثة التى قادت التنمية فى أمريكا اللاتينية لتسلبها استقلالها وتفرض عليها التبعية . هذه الطبقة التى يصل حجمها الى ٥٪ من السكان وتنال ما يقرب من ٣٣٪ من الدخل القومى ، أما أغنى أغنياء هذه الشريحة — والتى تبلغ نسبتها ١٪ من السكان — فانها تحصل على ١٧٪ من اجمالى الدخل القومى (٤٠) كما هى الحال فى البرازيل . وسواء كانوا الفئة التى يصل حجمها الى نحو ١٥٪ والذين يتجاوز دخلهم الشهرى ١٠٠ جنيه فى مصر ، فى مقابل ٣٥٪ يعيشون على دخل شهرى بين ٢٥ — ١٠٠ جنية أو ٥٠٪ يعيشون على دخل شهرى أقل من ٢٥ (٤١) فان هذه الطبقة تتجانس فى مختلف مجتمعات العالم الثالث من حيث أصولها الاجتماعية وسلوكياتها التنموية .

وفيما يتعلق بالأصول الاجتماعية لهذه الطبقة ، نجد أن أغلب أعضاءها ينحدرون من أصلاب كبار ومتوسطى التجار ، وأعيـــان الأرياف ، وهم يتميزون عن آبائهم وأسلافهم بما حصلوه من تعليم مدنى حديث ومن مهن عصرية مارسوها ، فضلا عم تميزون به من نظرات عصرية للامور (٤٢) . ويمكن القول بأن هذه الطبقة قد لعبت دورا مزدوجا خلال عقود التنمية التى مر بها العالم الثالث . فخلال مرحلة ما قبل الاستقلال ، شكلت هذه الطبقة الرصيد الاقتصادى والنضالى لمجتمعات العالم الثالث . حيث تشبعت هـــذه الطبقة باتجاهات قومية ووطنية وتقدمية ، لقد كانت ساخطة على السيطرة الأجنبية على أقدار بلادها ، وناقدة للنخبة التقليدية الحاكمة فى وطنها (الممثلة

(*) فى كثير من الدول النامية قد يتطابق مع هذا التقسيم الطبقى مجموعة من التباينات الجغرافية الأخرى . ففى البرازيل مثلا يصل متوسط الدخل فى ولاية جوانبارا Guanabara التى تضم ريو دى جانيرو Rio de Janeiro عشرة أضعاف متوسط الدخل فى ولايات شمال شرق البرازيل . وفى بيرو يصل متوسط دخل المناطق النائية أقل من ١/٤ من متوسط الدخل الفردى فى الاقليم الساحلى ، ومن ناحية أخرى ، فان متوسط دخول المناطق تختلف عن بعضها فى مدى ١٠٪ فقط حوالى المتوسط القومى للمجتمع البريطانى ككل .

فى الطبقة العليا القديمة) اما لأنها سلمت قيادة البلاد للمحتل الأجنبى ، أو أنها فشلت فى مقاومته ، أو تحالفت وأياه . وبالقدر نفسه شرعت هـذه الطبقة الوسطى الجديدة فى تبنى وطرح أفكار جديدة أيضا ، عن الليبرالية والاصلاح الاجتماعى والديموقراطية . لقد كانت هذه الطبقة ، هى التى تشكلت منها الأحزاب السياسية القومية والوطنية التى قادت بدورها النضال ضد الاستعمار الغربى، كما أنها أثارت الهمم للاصلاح الاجتماعى طوال الجزء الأول من القرن العشرين (٤٢) ويمكن القول بأن هذا التوجه النضالى — على كافة الأصعدة — جسد نفسه فى الانقلابات العسكرية التى قامت بهـا بعضها عند مستوى الانقلاب العسكرى فى حين اتخذ البعض الآخر شـكل النخب العسكرية التى تنتمى الى هذه الطبقات أساسا (*) والتى تجمدت القدرات الاجتماعية ذات التوجهات الأيديولوجية المحددة .

وفى أعقاب الاستقلال يمكن القول بأن هـذه الطبقة تتبنى سياسات اجتماعية تنموية تخدم مصالحها الخاصة أساسا . فتحالفاتها الاجتماعية تتم حسب مؤشرات مصالحها أساسا ، فهى تارة تتحالف مع العمال والفلاحين اذا كانت ثمة ضرورة تقتضى مواجهة عدو مشترك ، سواء تمثل هـذا العدو فى فلول الطبقة الاقطاعية العليا أو فى مواجة الامبريالية المعبرة عن رغبة

(*) لا يمكن التمييز الواضح بين الطبقة الوسطى فى هـذه المرحلة والطبقة العليا — على الأقل فى مصر — فيما يتعلق بتوجهاتها الأيديولوجية ، فمعظم أفراد هـذه الطبقة هم أبناء كبار الاقطاع والأعيان ورجال الصناعة ، والمتحالفون معهم ، ومن ثم نتصور نضال الطبقة الوسطى ضد الطبقة العليا على أنه نضال للحصول على ذات المكاسب التى يحصل عليها رفاق آخرون . ويشهد التاريخ المصرى على أن الطبقة المتوسطة — وان ساعدت فى الحصول على حل المسألة الوطنية المتمثلة فى الاستقلال السياسى فانها ناضلت ضد المسألة الاجتماعية ومضمونها المتعلق بالعدل الاجتماعى . وهى الطبقة التى انسحبت من تحمل عبء التنمية الاقتصادية خاصة فى المرحلة الناصرية التى تصدت لقضايا العدل الاجتماعى . هـذا الى جانب أن هـذه الطبقة حاولت الحصول على أكبر قدر من المكاسب ، ويكفى أن تعرف أن هذه الطبقة — الجناح الزراعى والصناعى — قد تضخمت صلاحية ملكياتها على حسـاب الطبقات العليا أو الدنيا . **انظر فى ذلك دراسـة لنا عن سياسـة التنمية الاجتماعية فى المرحلة الناصرية . ضمن أعمال ندوة (مفاهيم التنمية الاجتماعية فى مصر (تحليل للايديولوجيات وتقيم للمارسات) المنعقـدة فى ١٧ ، ١٨ ديسمبر ١٩٨٠ مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية .**

البرجوازية العالمية الى العودة . ولا مانع فى هـذه المرحلة ان ترفع شعارات السلام الاجتماعى والتحالف بين الطبقات — وهى شعارات تكتيكية — ولا مانع أيضا أن تسلم ببعض المكاسب للشرائح الدنيا ، لخلق مصالح لها فى هذا التحالف . غير أنه اذا انتهى هذا الظرف التكتيكى ، فانها عادة ما تقضى تحالفها لكى تتم تحالفات جديدة مع الطبقات العليا أو فلولها القديمة ، يؤكد ذلك التحالفات التى أقامتها البرجوازية المصرية فى الفترة من ١٩٦١ — ١٩٧٠ ، والتى أقامتها فى الفترة من ١٩٧١ — ١٩٨١ .

ويؤكد البحث فى التكوين البنائى لهذه الطبقة فى مصر على أنها تضم خليطا كبيرا من كبار الملاك (٥٠ فدانا فأكثر) الذين تزايد عددهم من ٦٠٠٠ر٦ الى ٢١٠٠٠ر٢١ مالك فى الفترة من ١٩٥٢ — ١٩٦٥ والذين ازدادت ملكيتهم من ٤٣٠٠٠٠ر٤٣٠ الى ٨١٥٠٠٠ر٨١٥ فدان (٤٤) (*) وهم أيضا تجار الجملة الذين بلغ عددهم ٢١٠ شخصا يتصرفون فى حوالى ٦٠٠ مليون جنيه ويحققون ربحا سنويا قدره ٣٠ مليون جنيه حتى عام ١٩٦٧ . وهم المقاولون الذين انجزوا مقاولات بلغت قدرها ٢٤٣ مليون كانت موضوعة تحت تصرف وزير التعمير فى ١٩٧٥ (٤٥) .

(*) يخضع الريف المصرى الآن لمجموعة من التفاعلات التى تساعد على تضخم حجم هذه الشريحة وخاصة فى علاقتها بالهجرة الى البلاد العربية . اذ نجد أن هناك شريحتين اجتماعتين تنتمى اليها العمالة الزراعية المهاجرة . فالعمال الزراعيون الذين ينتمون الى الشرائح الدنيا عادة ما يوظفون مدخراتهم فى سلوكيات استهلاكية وذلك لعاملين : أحدهما سيكلوجى ، وهو التعويض عن الحرمان التاريخى الذى عانت منه هـذه الشريحة ، يتضح ذلك من شراء الأدوات والأجهزة الحديثة أو بناء المنازل الحديثة فى القرى على غرار منازل كبار الملاك ، أما العامل الثانى فيتمثل فى قلة مجالات الاستثمار أمام الرأسماليات الصغيرة التى تشكلت لدى هؤلاء العمال . على العكس من ذلك العائلات الكبيرة من الريف (من حيث النمو) وهى الشريحة الثانية التى تمتلك المساحة الزراعية الملائمة للزراعة ، والتى لديها وفرة عددية من الأفراد بحيث يعمل بعضهم فى الأرض ، بينما يهاجر البعض الآخر الى البلاد العربية للعمل على أن يشتروا بمدخراتهم أدوات انتاج حديثة (جرارات ، موتورات الرى ، والماكينات الأخرى) أو تضاف هذه المدخرات الى مدخرات محلية قائمة لتوسيع رقعة الأرض الزراعية ، ومن ثم فرأس المال الناتج عن العمل فى اطار البلاد العربية يوجه فى اطار هذه الشريحة توجها انتاجيا .

بالاضـــافة الى ذلك تدخل فى هـــذه الشريحة الفئات البيروقراطية من قيادات القطاع العام . فهى بحكم موقعها فى السلطة تحصل على مرتبات مالية وبدلات ومكافآت ، ودخول غير رسمية وعمولات وهدايا ورشـــاو ، بحيث يتحول ذلك فى النهاية الى رأس مال بيروقراطى مصدره الأساسى الوظيفة ، يتحول بعد فترة الى رأس مال تجارى أو ربوى صناعى ، وقد أضاف الانفتاح فرصا جديدة لهذه الفئات عندما فتحت أمامها أبواب التوكيلات التجارية لرأس المـــال الأجنبى وكافة مجالات التصدير والاستيراد والتوسع فى المقاولات وادخـــال الرأســـمالية المحلية والأجنبية فى رأســـمال وادارة شركاته (٤٦) ثم الرأســـمالية التجارية التى تعاملت بنحو ٧٣٪ من حجم التعاملات فى تجارة السلع الاستهلاكية والتى بلغت نحو ٢٠٠٠ مليون جنيه ، بحيث كان نصيبهم فى تجارة السلع الغذائية اكبر ، اذ وصل فى تجارة الجملة الى نحو ٨٥٪ والتجزئة نحو ٩٧,٥٪ أما فى تجارة المنسوجات فنجدهم يسيطرون على نحو ٩٣٪ من قيمة دورتها السنوية (٤٧) مما يؤهل لهـــا وضعـــا احتكاريا .

وما يهمنا فى هـــذا المجال هى طبيعة الســـلوكيات التنموية التى تتبعها البرجوازية باعتبارها أن صفوتها فى أغلب البلاد النامية هى التى تتولى اصدار القرار التنموى . فمن حيث القيم التى تحكم هـــذه الشريحة نجدها تنشر فى المجتمع مثلا عليا لجمع المال بكل وسيلة. هذا بالاضافة الى حمى الاستهلاك . . . فهى طبقة تقاوم التقشف والفضيلة واعلاء قيمة العمل وآداء الواجب (٤٨) ثم هى تحاول التشبه دائمـــا بالطبقات الغربية الثرية ، حيث نجد لديها نزعة استهلاكية ، تسرف فى اطارها وتشيع البذخ فى المجتمع كله ، تساعد فى تبديد الموارد ، وفى رفع معدلات التضخم ، متجاهلة أن التقشف كان ســـمة المجتمعات الرأسمالية فى مراحل التنمية الاولى بما فى ذلك الرأسماليين أنفسهم — كما سبق أن أوضحنا — وفى حين أن أغنياء العالم الثالث يفوقون أغنياء الدول الرأسمالية الحاليين فى الانفاق البذخى وفى تبديد الموارد ، فهم — فى تبديدهم هذا — ينقلون جزءا أساسيا من الفائض الاقتصادى المحلى الى الخارج لاستيراد السلع والخدمات الاستهلاكية . وفى حين كان اســـتهلاك الطبقة الرأســـمالية (الغربية) فى القرن المـــاضى يعتمد على تنمية الانتاج المحلى (٤٩) هـــذا الى جانب تبنى هـــذه الشرائح لكثير من القيم المنحرفة .

فبيروقراطية الدولة ، وهى جزء من هــذه الشريحة ، تدرك بحس طبقى مرهف أهميتها الخاصة بالنسبة للقطاع الخاص ، فتوقيعهم يمكن أن يفتح الأبواب أمام القطاع الخاص ، ويمكن أن يفضل واحد منهم على الآخر لا بسبب الكفاءة ولكن بســبب العمولة الأكبر ، وهى التى يحملها القطاع الخاص لقطاع الدولة عند تقديره للعائد عليه من أية عملية . ومن ثم تتفشى الرشوة والاختلاس والسرقة والنهب والسلب بصــورة لم يسبق لها مثيل ، كأن يحاول أن ينال شــيئا مما تحت يديه ، فمال الدولة ســائب بلا رقيب أو حسيب . ومن ثم فقد أصبح لصــوص قطاع الدولة أشد هولا من قطاع الطرق (٥٠) . ومن الواضح أن لهم سلوكهم السياسى المتميز والضاغط على السلطة الحاكمة ، فاما أن تنصاع هــذه السلطة لمصالح واحتكارات هــذه الشرائح واما الاطاحة بهــا وتغييرها بلا ادنى معاناه . مثال على ذلك من الباكستان حينما حاول الرئيس أيوب خان وضع برنامج طوارىء لاصلاح بعض جوانب الخلل الاقتصادى والاجتماعى فى النظام ، حيث أطيح به من الســلطة بعد بضعة شــهور قبل أن يتمكن من تنفيذ أى تغير من هــذه التغيرات التى كانت الحاجة تدعو اليها ، وكان من الدروس المريرة التى لابد أن يكون قد تعلمها ، وتعنى أن تحالفات المجموعات الثرية صــاحبة الامتيازات... .كانت غير مستعدة على الاطلاق لأن تدعه يشذب امتيازاتها(٥١) .

مثال آخر من البرازيل حينما حاول الرئيس خانيو كوادروس ونائبه خواد حولار — وهما من ذوى الميول اليسارية التقدمية — أن يقوموا ببعض الاصــلاحات فى البنية الاجتماعية التى قد تمس مصــالح بعض شرائح البرجوازية العليا والتابعة (٥٢) حيث أطيح به بواسطة انقلاب ١٩٦٤ بعد أن احتلت السلطة حكومة عسكرية برئاسة كاستلو برانكو ، الذى عمل وزير اقتصــاده — دكتور روبرتو كاميدس — على تنفيذ كل ما تطلبه جماعات المصلحة أو هيئات الاستنزاف الدولى كالبنك الدولى ومؤسسة (ايد A.I.D.) ولقد بلغ مدى خضوعه لها حتى اطلقت عليه انه (ملكى اكثر من الملك) (٥٣) .

ولا ننسى ما حدث فى مصر حينما حاولت الحكومة فى ١٩٧٥ تنظيم عملية الاستيراد بالنسبة لسلع شارع الشواربى . اذ تكتل التجار حينما أحسوا بمساس لمصالحهم ، ليكسبوا انتصار على السياسة الحكومية فى ساحة القضاء تارة ، بل وصل الأمر انهم قتلوا فى الشارع أحد وكلاء الوزارات وهو وكيل وزارة المــالية تارة أخرى .

أما عن السلوك الاقتصادى لهذه الفئة فنجد أنها دائما ما تميـــل ناحية الاستثمار فى السلع التصديرية دون السلع الاستهلاكية التى قد تشبع حاجات الجماهير . ففى أمريكا اللاتينية تصرخ البرجوازية الوليدة بأعلى صوتها تحاول الضغط على شريكها الرئيسى فى اســتغلال الشعب كى تحصل منه على معاملة افضل فى توزيع أرباح الاستثمارات . مؤكدة انه اذا كان هناك اعتقاد فى أن قارتنا تتلقى مساعدة مالية ، فان بوسعنا أن نؤكد أن مريكا اللاتينية تساهم فى تمويل تنمية الولايات المتحـــدة وبعض الدول الصناعية الأخرى . وما تعنيه الاستثمارات الخاصة لأمريكا اللاتينية أن المبالغ التى نسحب منهـــا أكبر بعدة مرات من المبالغ المستثمرة فيهـــا . فكلما ازداد رأسمالنا ضمورا وفقرا ، ازدادت أرباح رأس المال المستثمر بصورة هائلة ... وما يسمى بالمساعدة ، وكل الشروط المتعلقة بذلك والتى نعرفها تؤمن سوقا وتنمية أساسية بالنســـبة للبلدان المتطورة ، ولكنها لا تنجح فى تعويض المبـــالغ التى خرجت من أمـــريكا اللاتينية لدفع الدين الأجنبى ، أو بسبب الأرباح التى تولدها الاستثمارات الخاصة المباشرة ، وهى الحالة التى عبر عنها جابرييل فالدس وزير خارجية شيلى لريتشارد نيكسون رئيس الولايات المتحدة فى قاعة البيت الأبيض بتاريخ ١٢ حزيران ١٩٦٩ (٥٤) .

واذا أردنا تحديد حجم الأموال التى تســـلبها البرجوازية العالمية من خلال البرجوازية المحلية لا تضح لنا حسب تقدير وزارة تجارة الولايات المتحدة الأمريكية أن حركة رؤوس الأموال بين ١٩٥٠ — ١٩٦٥ هى ٣٫٨ مليار من الولايات المتحدة الى أمريكا اللاتينية فى مقابل ١١٫٣ مليار دولار من أمريكا اللاتينية الى الولايات المتحـــدة . وهذا يعنى حركة رأسمالى صـــاف بقدر ٧٫٥ مليار استنزفت من أمريكا اللاتينية الفقيرة الى الولايات المتحـــدة كما أشـــار تقرير الوزير فالدس (٥٥) .

وتصبح الصورة أكثر قتامة اذا نظرنا الى أرقام عام ١٩٧١ ، حيث بلغت الاستثمارات الجديدة التى أجرتها الدول الرأسمالية الستة عشر فى العالم الثالث C.A.D. نحو ٢٨٩٠ مليون دولار ، واجمالى أسهم شركات محلية نحو ١٥١٠ مليون دولار . أما اجمالى ما تم تحويله من العالم الثالث الى العالم الرأسمالى من أرباح فقد بلغ فى نفس العام نحو ٢٨٨٠ مليون

دولار (٥٦) بحيث سلبت هذه الأموال من خلال البرجوازية المحلية التى تحاول دعوة البرجوازية العالمية للاستثمار ومشاركتها فى الأرباح ، وهو ما جعل فرانك يصفها بأنها برجوازية تعمق التخلف بدلا من دفعها للتنمية . وعلى هذا النحو يفتح الاستثمار الأجنبى والشركات متعددة الجنسية الباب أحيانا أمام كبار الرأسماليين المحليين ليصبحوا شركاء أقزاما فى نشـــاط الشركات الأم أو بعض فروعها بالخارج . وهكذا تندمج الفئات العليا من البرجوازية المحلية فى الرأسمالية العالمية وتنفصل عن الاقتصاد القومى ، وهو ما يسميه ســـونكل (الاندماج الرأســـمالى عبر الجنســـيات وانفصام الاقتصـــاد القـــومى) (٥٧) .

ذلك يعنى أن الطبقـــة الوسطى أو البرجوازية التى ناضلت ســـابقا من أجل الاستقلال ، بدأت أثناء العقد التنموى الأول والثانى تحاول الحصول على ثمن النضال ، بل أننا نجدها لافتقادها التوجه الأيديولوجى المجتمعى الشامل ، وسعيها الأنانى ضيق الأفق تسير فى سعيها الحثيث وراء مصالحها الخاصـــة ، حتى تجد نفسها على تحالف عضـــوى مع البرجوازية العالمية لاستغلال مجتمعاتها ، وفى العلاقة العضوية يعطى كل منهما الآخر ويدعمه . فمما لا شك فيه أن البرجوازية العالمية تحاول قدر الامكان دعم حليفتها المحلية وفرض سيطرتها على اقتصاديات المجتمع المحلى ، فمثلا فى مصر عقدت المجموعة الاستشارية لمصر والتى تتكون من الدول والمنظمات الاقليمية المعنية

بتمويل التنمية وتقديم المساعدات لمصر ، حيث عقد اجتماعها الاول فى مايـــو ١٩٧٧ والثانى فى يونيو ١٩٧٨ وكان آخر هـــذه الاجتماعات فى يناير ١٩٨١ بأسوان (٥٨) حيث أشارت وفود المجموعة الاستشارية الى (أنه لابد من تقديم ايضاح كامل لدور القطاع الخاص والتوصية بألا يسمح للقطاع العام بالتدخل الكبير فى تحديد هـــذا الدور) ... حيث امتد ذلك الى القول بتعديل القانون ٤٣ لسنة ١٩٧٤ (بالقانون ٣٢ لسنة ١٩٧٧) بما يعطى حافزا أكبر للقطاع الخاص (٥٩) . ولتأكيد ذلك أكد الجانب المصرى فى هذا الصدد على اهتمامه بدعم البرجوازية بقوله : (ان هناك خطوات تتخذ ... ولو أنها تتم فى حذر حتى يمكن الوصول الى اقتصـــاد مستقر دون أن يكون لذلك آثار اجتماعية غير مستحبة) ، (وأن هناك التزاما كاملا بتنفيذ الاتفاق الذى تم مع صندوق النقد ...) (٦٠) . وتمثل ذلك فى أمر هـــو تقليص دور

الدولة فى الحياة الاقتصادية (٦١) ؛ وهو ما يعنى أيضا - كما طالبت المجموعة بذلك صراحة - زيادة الدور الذى يلعبه القطاع الخاص وكسر احتكار القطاع العام والحد من التدخل فى الأسعار والأجور . بعبارة أخرى ان المطلوب من وجهة نظر الدائنين - وكلاء البرجوازية العالمية - لمصر هو زيادة درجة الاعتماد على قوى السوق (٦٢) .

وفى مقابل دعم البرجوازية العالمية للبرجوازية المحلية ، فاننا نجد أن هذه الأخيرة تدفع المقابل فى شكل سلوكيات كثيرة أقل ما فيها أنها سلوكيات تؤخر تنمية مجتمعاتها . فهى تظل رقيبا داخليا للتوجه الأيديولوجى للصفوة الحاكمة ، تنسحب من عملية التنمية اذا هى قد اتخذت خطا اشتراكيا يفجر المسألة الاجتماعية ، وعلينا أن نتذكر موقف البرجوازية المصرية فى المرحلة الناصرية بعد التوجه الاشتراكى حتى تسنح الفرصة لها لكى تقود انقلابا يحافظ على مصالحها ويدعم التحالف والبرجوازية العالمية ، والأمثلة كثيرة على ذلك ، فى شيلى الليندى ، وسوريا الكوزيرى ، وغانا نكروما .

أو أن هذه البرجوازية قد تدفع بأبنائها للهروب من مجتمعاتهم للعمل لحساب البرجوازية العالمية ، وهى الظاهرة المعروفة لهجرة العقول . حيث ظهرت سوق عالمية للمهن العلمية والهندسية وفى المقابل عدلت مجتمعات البرجوازية العالمية تشريعاتها لكى تسمح لهؤلاء المتخصصون من البلاد النامية للانضمام اليها ، ولعل سبب ذلك أن هؤلاء البرجوازيين المهاجرين نشأوا فى نظم تعليمية برجوازية تخلق لديهم قدرة على التعامل وقضايا المجتمعات المتقدمة (٦٣) ولذلك نتيجة تتمثل فى أن تسرب العمالة المؤهلة وبقاء العمالة غير الماهرة يعنى ، قطف ثمار ناضجة انفقت عليها كثيراً مجتمعاتها المختلفة ، والابقاء على قوى بشرية عالة على التنمية وغير قادرة على دفعها .

هذا الى أن جانبا أساسيا من السلوك الاقتصادى للبرجوازية الرثة أنها تتوجه الى الخارج لمشاركة البرجوازية العالمية فى استغلال محليتها ، وهى تحاول ذلك من خلال نشاط أساسى ترضى به البرجوازية العالمية ، وهو النشاط الصناعى ، هذا الى جانب أن هذا النشاط ليس موجها الى السوق المحلية ، ولكنه يتجه أساسا نحو السوق العالمية . فهى تشارك فى الصناعات الاستخراجية ، وهى تشارك فى صناعات احلال الواردات ،

هـذا بالاضافة الى الدخول فى صناعات تصديرية تشارك فيها الرأسمالية العالمية التى تحاول الاستفادة من المدخرات المحلية ، ومن توفر اليد العاملة الرخيصة . البرهنة على ذلك أن هناك فى أمريكا اللاتينية عدداً كبيراً من مصانع السيارات ، فالى جانب الأرجنتين والبرازيل — الذين لديهم صناعات للسيارات بالمعنى الصحيح — هناك أربعة بلدان أيضا (كولمبيا ، المكسيك ، شيلى ، فنزويلا) تدير مصانع لتجميع السيارات وفى طريقها الى الاندفاع لصنعها ، حيث يوجد بها ٤٠ مصنعا . وبرغم أن السوق المحلية لا تحتمل أكثر من ٣٠٫٩٠٠ عربة سياحية ، فان كل من هذه المصانع الأوروبية يقدم للسوق من ٢٥٠٫٠٠٠ سيارة الى ٥٠٠٫٠٠٠ وحدة سنويا (٦٤) . ذلك يعنى استفادة الرأسمالية العالمية من السوق المحلية ، من حيث التوزيع الضئيل نسبيا ، ومن رخص الأيدى العاملة ، وأيضا الاستفادة من المدخرات المحلية ، هـذا الى جانب تأسيس التبعية التكنولوجية للمجتمع النامى . فالتعديلات التكنولوجية (موديلات السيارات مثلا) تأتى من المجتمعات الأوربية . وهو ما يعنى قتل أية محاولات لتطوير تنموى فعال . وان كان ذلك لا يعفى من القاء بعض الفئات للبرجوازية المحلية حتى تساهم فى عملية الاستنزاف لمحليتها .

يبقى بعد ذلك طبيعة السلوك الاجتماعى نحو الطبقات الفقيرة أو الشرائح غير البرجوازية ، أو ما يمكن أن نسميه بمبدأ العدالة الاجتماعية . ولتوضيح ذلك نجد أن ثمة فوارق تفصل بين هذه الطبقة والشرائح الخارجة عن نطاقها . فاذا أخذنا أمريكا اللاتينية مثالا على ذلك فسوف نجد تزايدا فى القوة الاقتصادية لهذه الطبقة ، فى مقابل الافقار المتتابع للشرائح الطبقية غيرها . فمن فقر الجماهير المتزايدة فقرا تأتى الحصة النسبية المتنامية فى دخل الطبقات المتوسطة . ويظهر عدم التساوى أيضا فى توزيع الدخول الى حد كبير فى البرازيل ، التى تضم ثلث سكان أمريكا اللاتينية تقريبا . ويعتبر الفارق فى البرازيل أكبر بكثير من الفارق فى المكسيك التى أحدثت الثورة فيها توزيعا للدخول أكثر عدلا الى حد ما . ومن عام ١٩٥٥ الى ١٩٦٥ ، ازدادت القوة الانتاجية للعامل بنسبة ٢٫٥٪ سنويا ، على حين لم تتعرض الأجور الى الارتفاع بما يعادل ١٫٣٪ سنويا . وزاد دخل أصحاب الأعمال الكبيرة بصورة أكبر نسبيا ، على حين خسر أصحاب الأجور

بالمقارنة مع هـذه الزيادة ، ونقص دخل عدد متزايد من العمال الذين أسيء استخدامهم أو العاطلين الذين لا يملكون أجورا (٦٥) .

ذلك يعنى أن هـذه الطبقة تتميز بحالة من الأنانية المفرطة التي تجـد تعبيرا لها فى الحياة المترفة التى تعيشها على حساب الجماهير التى تعانى الحرمان . وعلى سـبيل المثال فمنذ عام ١٩٥٨ وحتى ١٩٦٨ اسـتوردت باكسـتان بنحو ٣٠٠ مليون دولار سـيارات خاصة ، على حين لم يكن باستطاعتها أن توفر مبلغ عشرين مليون دولار للاتوبيسات العامة . وفى الفترة نفسها لا يمكن وصف ٨٠٪ أو ٩٠٪ من التشييد للاسـكان الخاص بأقل من كونه اسكانا (فاخرا) . وبرغم الارتفاع الظاهرى لمعدلات الدخل القومى يعمق التفاوت بين دخل الفرد فى باكستان الشرقية عنه فى باكستان الغربية ، وانخفضت كذلك أجور عمال الصناعة المتمركزين فى بعض المناطق الحضرية الى الثلثين ، وكان واضحا أن أغلبية السكان لم تمسها من الناحية الفعلية قوى التغير الاقتصادى . ذلك يعنى أن التنمية الاقتصادية انحرفت عن مسارها لصالح أقلية متميزة (٦٦) .

والحقيقة التى تتبناها الطبقة البرجوازية فى هـذا الصدد أن الزيادة فى دخول هـذه الطبقات أمر مرغوب فيه من أجل التنمية ، وهى ضرورية بالنسبة للتصنيع ، وأى حديث عن العدالة الاجتماعية عند المستوى الضعيف للدخل لا يعنى الا توزيعا للفقر ، وان أرضى ذلك نزعة رومانسية نحو العدالة ، تضر بالاقتصاد القومى أبلغ الضرر وتسيء الى الفقراء أنفسهم ، لأنها تعجز المجتمع عن الادخار والاستثمار وركود الناتج القومى الاجمالى . ولمـا كان عدد السكان فى تزايد مستمر (وبمعدلات عالية) ، فان مستوى معيشـة المواطنين سيتدهور باستمرار اذا استجاب الحكام لمثل هذه الدعوة وتجاهلوا حقائق الاقتصـاد وقوانينه . ومن ناحية أخرى فان هذا النمط من التنمية وبصفة خاصة التصنيع القائم على انتاج السلع الاسـتهلاكية المعمرة ، تتشكل سوقه الداخلية من ذوى الدخول المرتفعة . ولذلك فان أى اجراء يهدف لاعادة توزيع الدخل القومى يضيق السوق المحلية نتيجة للاقتطاع من الدخول العالية . وضيق السوق المحلية يضعف مركز الصناعة المحلية فى المنافسـة الخارجية ، ويضرب جهود التصنيع وهى ما زالت فى مراحلها الأولى . وأخيرا فان الخير الذى يولده هذا النمط من التنمية فى شكل دخول

مرتفعة سيتساقط رذاذا على بقية أفراد المجتمع حتى يعمهم بالتدريج وبعد سنوات (٦٧) . غير أن وقائع التنمية التى طبقت هذه السياسة بنجاح لم تكشف عن أى اتجاه نحو تقليل التفاوت فى الدخول . بل ان ما حدث هو العكس تماما . فقد ازدادت الفروق بين الطبقات بشكل واضح ... ولا يقتصر الأمر على ضآلة الدخول النقدية لغالبية السكان ، بل فاقم الوضع قصور الخدمات الاجتماعية التى تقدم لهم ، وبصفة خاصة فى مجالات التعليم والصحة . فالامية فى البرازيل تلقى ظلها على نحو ٣٠٪ من السكان فى حين أن وفيات الأطفال تبلغ ٩٤ فى الألف (٦٨) .

وفى مصر ارتفع عدد السكان الذين يقعون تحت خط الفقر من ٣ر٦ مليون نسمة عام ١٩٥٩ الى ٩ مليون عام ١٩٧٥ ، بنسبة ٤٤٪ من أسر السياق الريفى . وكان توزيع نفقات الاستهلاك بين الأسر الريفية فى ١٩٧٥ ينم عن عدم المساواة بدرجة كبيرة عنه فى الخمسينات . اذ نجد أن ١٠٪ من الأسر الريفية (فى القمة) أصبحت تستهلك وحدها ثلث الاستهلاك . كذلك أوضحت احصاءات ١٩٧٢ المتعلقة بالزراعة أن هناك نسبة ٤٠٪ من أسر المجتمع الريفى معدمة ، ليست لديها أية حيازة سواء بالملك أو الايجار .

أما فيما يتعلق بالاسكان فنجد أن اسكان فقراء الفلاحين ، كما هو على طبيعته منذ آلاف السنين . اذ نجد نحو ٨٨٪ من المساكن مبنية بالطوب اللبن ، و ١٢٪ من الطوب الأحمر . وأن ٣ر٨٨٪ مسقوفة بفلق وسعف النخيل وسيقان الأزره ، ٧ر١١٪ مسقوف بالخرسانة المسلحة أو العروق الخشبية . هذا الى جانب نقص المرافق الأساسية . وأن نصف سكان مصر محرومون من الكهرباء ، و ٤٠٪ من سكان الوجه البحرى ، ٥٠٪ من سكان الوجه القبلى محرمون من المياه النقية حسب احصائيات ١٩٧٦ (٦٩) . هذا برغم أن تجربة التنمية المصرية فى الفترة بين ١٩٥٢ — ١٩٧٠ ركزت على الصناعة والزراعة والكهرباء ، أى التوسع فى القاعدة الانتاجية للاقتصاد القومى . وأنها أقرت مجانية التعليم وحاولت التوسع فى الخدمات الصحية . وأحرزت فى المجالين نتائج لا يستهان بها (٧٠) .

وقبل أن نترك البعد الطبقى للسياسة الاجتماعية نجد أن فاعلية هذا البعد — الذى ذكرناه — قد خلق مجموعة من المشكلات الأساسية منها

مثلا ازدواجية الاقتصاد ، حيث قطاع اقتصادى متقدم يسـود الحضر ، ويرتبط الى حد كبير بالتكنولوجيا العالمية ، فى مقابل قطاع اقتصادى آخر كالزراعة البدائية فى وسائلها التكنولوجية ، هذا بالاضافة الى أن وجودها المتخلف يعتبر قيدا على نمو القطاع الصناعى . كما أسهمت هـذه السياسة أيضا فى توسيع الفجوة بين الحضر الذى يتوجه بالأساس نحو الخارج ، وريف الزراعة الذى يخاف الاستثمار التوغل فى مجاهله ، باعتبـار أنه يفتقد الخدمات الأساسية ، وهو ما دفع الى تدنى الدخول الريفية ، ومن ثم انتشار حالة عامة من الفقر ، ومن ثم الهجرة الى المدينة لتخلق ما يمكن أن نسميه بالأكواخ أو مدن الصفيح حول العواصم الأساسية كبرازيليا ، والقاهرة وسان باولو .

هـذه السياسة تدفع أيضا الى تهميش الجماهير ، سـواء من حيث نصيبها من الدخل القومى ، ومن ثم فهى تعيش عند حد الكفاف أو دونه . وبرغم ذلك فهى تحمل أعباء تأسيس التنمية التى لا تسـتفيد من نتاجها ؛ تعيش فى المجتمع غير أنه مكتوب عليها أن لا تشارك فى صنع أقداره ، هى الأغلبية لكنها ترى نفسـها محرومة ، فى حين تسـتحوذ الأقلية على كل شىء . والنتيجة ارتفاع فى مخزون التوتر ، واذا تزاوج مع الوعى فثمة احتمال لانفجار البركان الاجتماعى ..

أما على مستوى المجتمع فان هـذه السياسة عادة ما تسلم الى تخليق عجز دائم فى ميزان المدفوعات بلغ فى البرازيل فى عام ١٩٨٤ نحو ٢٧٢٠ مليون دولار أى أنه كاد يستوعب كل قيمـة الصادرات السلعية البالغة ٧٨٤٦ مليون دولار (٧١) .

هذا بخلاف ظواهر عديدة كتشويه الذاتية الحضارية وتغريب الجماهير ، وفرض حالة من التبعية الثقافية ، واللامبالاه أو عدم الانتماء .

٤ — التنمية القومية فى اطار النظام العالمى :

ينصب الاهتمام فى هـذه الفترة على علاقة التنمية المحلية أو التنميات القومية بالنظام العالمى ، الذى تأكدت وطأته على تنمية العالم الثالث من

منطلقات كثيرة . وفى هـذا الصدد نذكر أنه اذا كان من الطبيعى أن نسمع عن حوار الشمال مع الجنوب ، فاننا نرى أيضا أنه من المنطقى ألا يسفر هـذا الحوار عن نتائج ذات قيمة . فبرغم النيات الحسنة التى عبرت عنها شعارات العالم المتقدم (*) لمساعدة العالم المتخلف على تجاوز تخلفه ، تشير الحقيقة الى موقف عالمى ينضح بالأسى ، حيث العالم الثالث فريسة لنفسـه ، أو بالأصح لبرجوازيته حسبما أوضحنا فى صفحات سـابقة ، وهو من ناحية أخرى فريسة نظام عالمى يفصل عن أنانية معادلة التخلف بالتقـدم ، وهـو ما يعنى أن تخلف المتخلفين هـو المدخـل الى تـرف المتقـدمين (**) .

ذلك يطرح الشك فى حقيقة أدعاء العالم المتقدم مسـاعدة العالم الثالث . فبرغم المساعدة ، والاعانات الانسانية الصادرة عن ضمير برجوازى

(*) أعلن الرئيس ترومان فى ٢٠ يناير ١٩٤٩ (أن علينا أن نبدأ برنامجا شاملا حتى نجعل فوائد تقدمنا العلمى والصناعى متيسرة لتحسـين نمو المناطق المختلفة) (٧٢) وهو التأكيد الذى جسده قول وزير الخارجية الأمريكية الأسبق هنرى كيسنجر بعـد حوالى ثلاثين عاما قائلا (ان لدينا أسـاسا نبنى فوقه يبعث على الفخر ... فقد كانت مساندتنا الاقتصـادية عونا لحلفائنا على استعادة قوتهم ، كما أسهمنا فى اقامة نظام عالمى للنقد والتجارة دعم الرخاء ونشره على نطاق العالم ... وبعد انقضاء ثلاثين عاما على تأسيس الأمم المتحدة ، نجد أنها حققت انجازات جوهرية ، تزخر بمستقبل عظيم) (٧٣) .

(**) هذه الحقيقة تؤكدها تيريزا هاييز فى باب وصفها لمساعدة الدول الغنية للدول الفقيرة ، حيث ذهبت قائلة : (لم تكن المساعدة نقلا غير مشروط للموارد المـالية . اذ عادة ما تهدف شروط المساعدة مباشرة وبوضوح الى خدمة الحكومات المانحة لها)(٧٤) وهو القول الذى تجسده بربارا وارد ، حينما تذهب الى القول بأنه (مضت ثلاثون عاما منذ أن كان التوقيع على ميثاق الأمم المتحـدة بمثابة اشارة البدء لبذل الجهود لاقامة النظـام دولى جديد .. (ومع ذلك) فان أعداد البشر التى تعانى اليوم الجوع والمرض ، والأمية ، ولا تجد المأوى ، أكبر من أعدادهم حينما قامت الأمم المتحـدة — ان ما لا يقل عن ثلاثة أرباع الدخل العالمى ، والاسـتثمارات والخدمات العالمية ، والجانب الأكبر من البحوث العالمية ، ما زالت حتى اليوم فى أيدى ربع سـكان العالم .. ان مصير البشرية فى الحاضر والمستقبل ، سيظل مرتبطا فى المقام الأول بأبنية أمم العالم وسياساتها وسلوكها ، سواء فى داخلها أم فيما بينها) (٧٦) .

فما زال واقع العالم الثالث يذهب الى مزيد من التردى ، هذا التردى حقيقة بنائية ليست ذات طبيعة معاصرة فقط ، بل هى ضاربة بجذورها فى قلب الماضى يتطلب فهمها ادراك العلاقة التاريخية التى تأسست فى ظل المرحلة الاستعمارية التى اخضعت خلالها العالم الثالث لعملية استغلال لا انسانية فادحة .

ذلك يعنى أن هناك علاقة عضوية ذات طبيعة تاريخية بين العالم الثالث والاول فى ظل النظـــام العالمى . ولم يكن العالم المتقدم — الاســـتعمارى حينذاك — هو الذى سعى وحده من الخارج الى العالم الثالث مدعيا ان حركته هـــذه تعبر عن ضمير انسانى خير لا يقاظ شـــعوب تعيش خارج الحضارة لكى تشارك فى الحضارة ، وهى العملية أو الحركة التى شقت طريقها من خلال قنوات عديدة — انسابت منها الثقافة الاستعمارية لكى تشـــيع التوتر والتمزق فى اســـتقرار المجتمع بأسره — بداية بالمبشرين والمستوطنين ونهاية بالتجار ، ثم الاستعمار الذى فرض — بحركة كاسحة — وجودا من الخارج (٧٥) .

نقول أن هذه العلاقة لم تكن من طرف واحد ، بل شارك فيها العالم الثالث من منطق الكرم ونكران الذات . وهى المشـــاركة التى عبر عنهـــا أحد مفكرى العالم الثالث بقوله (لقد كانت تربطنا بانجلترا خلال القـــرن التاسع عشر علاقة مشاركة ، حيث واجه البريطانيون تلك المشكلة البسيطة المتعلقة بتمويل ثورتهم الصناعية ، والتحول البنيانى لبلادهم ، فما كان منا الا أن قدمنا عن طيب خاطر ما لدينا من ذهب وماس ومنتجات زراعية بأسعار اسمية ، وطلبنا منهم أن يمضوا فى طريقهم ، والا يضيعوا الفرصة المتاحة امامهم للانطلاق التكنولوجى ، وقنعنا نحن بالبقاء فى ظل اقتصـــاد زراعى ، صفقنا للقفزات الصناعية التى تقطعها شريكتنا ، حيث أن يسمى شىء مثل هـــذا بالعبارات الحديثة نقلا للموارد . ولكن العالم فى ذلك الحين كان يحيا كجماعة سعيدة بحيث لم يدر بخلدنا قط مثل تلك العبارات ، أو لم نطلب مراجعة الآراء)(٧٧) . وفى محاولة لتحـــديد حجم الاستنزاف الذى حدث يحاول محبوب الحق أن يحـــدد حجم الموارد التى تم نقلها اذا قدرت تقديرا متواضعا بنحو ١٠٠٠ مليون دولار من شبه القارة الهندية ... وأننا اذا اعتبرنا هذا المبلغ قرضا اختياريا بفائدة ٦٪ ، وأنه ظل يتضاعف بنجاح عبر السنين بحيث أصبح الآن ٤١٠ ملايين دولار ، واذا كان المبلغ يتضاعف

كل ١٢ عاما ، فمن المفيد فى هذه المرحلة أن يترك لدى بريطانيا ، وسيصل بحلول عام ١٩٨٢ الى نحو ٨٢٠ بليون دولار (٧٨) .

ولم يتوقف استنزاف العالم الثالث عند مستوى الاستنزاف الاقتصادى للموارد ، ولكن تجاوزه الى استنزاف لا انسانى ورخيص . أليست الرأسمالية الغربية — التى تردد دعوة الحرية الفردية — هى التى لم تتردد فى تنظيم تجارة الرقيق على نطاق لم يسبق له مثيل حتى فى المجتمعات القديمة التى كان الانتاج فيها يعتمد على عمل العبيد . فخلال أكثر من ثلاثة قرون خطف الأوربيون زهرة شباب غرب أفريقيا واستخدموهم فى زراعة أراضى العالم الجديد . ونظرا لما كان يحيط بظروف الخطف من عنف ، ولظروف النقل عبر المحيط ، يقدر البعض موت عشرة أشخاص مقابل كل أفريقى وصل الى أمريكا . أليس هذا النزيف البشرى هو المسئول الأول عن تخلف أفريقيا(٧٩) . والى جانب الاستنزاف الاقتصادى والبشرى فما زال العالم المتقدم يستأثر باستغلال الموارد التى تمتلكها البشرية ملكية مشتركة ، مثل المحيطات والفضاء (٨٠) . وعجز العالم الثالث عن تطوير وسائل من أجل الاستغلال المماثل .

ويفترض فهم تخلف العالم الثالث فى اطار النظام العالمى ضرورة أن نعطى اعتبارا لعلاقة تاريخية خاصة مرت بأربعة مراحل اساسية .

فى المرحلة الأولى ، حيث الاستعمار المباشر أو الاستعمار القديم ، وهى المرحلة التى بدأت منذ بداية عصر الاستكشاف وحتى ١٨٢٠ فى أمريكا اللاتينية ، ١٩٥٠ فى آسيا ، و ١٩٦٠ فى أفريقيا(٨١) . وبصورة مؤكدة خضع العالم الثالث خلال هذه المرحلة — لعملية استنزاف قاتلة ، حيث اتجهت استثمارات العالم المتقدم الى المستعمرات بكثافة عالية . اذ اندفعت رؤوس الأموال الى المناطق الاستوائية ، لبناء الطرق والسكك الحديدية للتيسير على التجارة ، هذا الى جانب الاستثمار فى توسيع المناجم واستصلاح الأراضى . وتقدر الاستثمارات البريطانية خلال الفترة من ١٨٨٠ وحتى ١٩١٣ نحو ١٢ بليون جنيه استرلينى فى حين تقدر الاستثمارات الفرنسية بنحو ٦ مليون جنيه استرلينى . حيث اتجهت هذه الأموال اساسا لاستغلال الاقطار الفقيرة اليوم(٨٢) . ويمكن القول بأن هذه المرحلة قد تميزت بطابع

اســتغلالى فادح ، كان من أهم نتائجه تطوير ما يمكن أن يسمى بالتنمية المشوهة ، حيث اتجه قدر كبير من الاســتثمار الى تأسيس البناء التحتى الذى يخدم بالأساس الاقتصاد الاستعمارى وليس الاقتصاد القومى .

ثم جاءت المرحلة الثانية ، حيث حصلت معظم بلاد العالم الثالث على الاستقلال . والغريب ان هذا الاستقلال تم الحصول علية أحيانا بوسائل سليمة ، وهو ما يفرض علينــا ضرورة النظر الى خروج الاستعمار باعتباره رحيلا وليس طردا للاستعمار . وهو ما يعنى أن انسحاب الاستعمار قد تم بعد أن تحقق الاستنزاف الأساسى لموارد العالم الثالث ، أو على الأقل تأسيس القنوات التى تنساب من خلالها اقتصاديات العالم الثالث الى العالم المتقدم حسب احتياجات الثانى ، ورغما عن ارادة الأول . ولقد تميز هذا الرحيل الاستعمارى بتسليم مقاليد الأمور فى غالبية بلاد العالم الثالث للبرجوازية المحلية حليفة المرحلة القادمة . وهى الشريحة التى دربت بالأساس على الطريقة الاستعمارية . وترتبط بالبرجوازية العالمية بقدر ما تنفصل عن شعوبها ، وذلك يفرض ضرورة النظر الى عصر الانكماش الاستعمارى باعتباره كان مطلبا استعماريا بالاساس وان عبر ظاهريا عن ارادة العالم الثالث .

واذا كانت المرحلة الثانية قد ضمت بداخلها عقود الاستقلال والتنمية ، فالمؤكد أن العالم الثالث لن يحقق تقدما يذكر خلال هذه المرحلة وذلك لعدة أسباب رئيســية :

١ — أول هذه الاسباب ان هذا العالم لم تستطع الاستفادة من عمليــة الاستثمار الاستعمارى المكثف الذى تمت فى اطاره وامتدت الى ما بعــد الاستقلال . فارتفاع الدخول فى المجتمعات الصناعية لم يصاحبه ارتفــاع فى دخول المجتمعات التى فرضت عليها المشاركة فى النظام العالمى . ولعل هناك أسبابا تطرح لذلك ، منها افتقاد مجتمعات العالم الثالث للأســواق الملائمة التى تساعد على نمو الصناعة المحلية وتدعمها . وأيضا الى انخفاض المستوى التعليمى الملائم ، والى عدم تلاؤم البناء الطبقى للتحديث (وهــو البناء المستند الى ملكية الأرض ، والى النزعة القبلية ســواء بالنسبة للمستوطنين الجدد ، أو بالنسبة للسكان الأصليين ، كذلك افتقادها النظام

السياسى الذى يمتلك القدرة والمرونة لاغتنام الفرصة أو قبول التحدى الذى يطرحه عصر العلم .

٢ — السلوك البرجوازى فى التنمية — وهى مسألة عرضنا لها — فقد تلكأت كثيرا صفوته البرجوازية فى حسم خياراتها الأيديولوجية ربما لأسباب داخلية عديدة — . ومن ثم فقد انتهت الحقبة الثانية بانجازات لا تقيم أودا ، فهى انجازات اما موجهة لصالح البرجوازية واشباع احتياجاتها الأساسية . والمثال على ذلك أن ٤٩٪ من ميزانية الصناعة فى الخطة الأولى كان لصناعات احلال الواردات ، وهى صناعات تنتج سلعا تخص الاستهلاك البرجوازى بالأساس . وأن قوانين الاصلاح الزراعى حينما صدرت جعلت الملكية المسموح بها ٣٠٠ فدان للأسرة ٢٠٠ فدان للفرد (قانون الاصلاح الزراعى فى ٩ سبتمبر ١٩٥٢) فى مجتمع تصل نسبة المعدمين فيه الى نحو ٤٤٪ من سكان القطاع الريفى .

٣ — شهدت هذه المرحلة بعض النضالات بين البرجوازية العالمية وبعض البرجوازيات المحلية التى حاولت الخروج التخلى عن التحالفات القائمة . ومن ثم دخلت بعض بلاد العالم الثالث فى معارك جانبية أعجزتها عن تقديم النموذج التنموى الملائم . بحيث انتهى عقد الاستقلال وعقد التنمية الأول ، أما بمعدلات تنمية متدنية للغاية أو على الأقل بمعدلات سالبة ، مثلما حدث فى مصر حيث حققت التنمية المصرية معدلات سالبة بلغت ٢,٥٪ عام ١٩٦٩ (٨٣) . ومن المثير للدهشة أنه اذا كانت بداية الخمسينات قد شهدت نجاحا لاستقلال العالم الثالث فى اطار ما يمكن أن يسمى بالمسألة الوطنية ، فان هذا العالم حينما حاول التصدى للمسألة الاجتماعية فى الستينات ، فرضت عليه البرجوازية العالمية معارك أصابت تقدمه السياسى بنكسة فى كثير من بلدان العالم الثالث . فمثلا تراجعت مصر بعد نكسة ١٩٦٧ عن المسألة الاجتماعية للتصدى للمسألة الوطنية من جديد .

وقد فاجأته المرحلة الثالثة وهو يعيش آمال تنمية عاجزة فى ظل نكسات تنموية متوالية . فقد تطور التخلف لديه اما بفعل آليات السوق العالمى ، أو بفعل النكسات الوطنية التى أصابته والتى فرضت عبئا على ميزانيته العسكرية ، أو بفعل برجوازيته التى تلكأت عن حسن نية أو تآمر حتى

أسلمته الى وضع يسعى فيه هذا العالم الى قوي الاستنزاف العالمى تحت أمل انسانى وهمى أن تتقدم لكى تساعد على تطويره .

وأيا كانت الدوافع والظروف التى فرضت هذه المرحلة ، الا أنه من المؤكد أنه ثمة عوامل داخلية لعبت دورها فى اختزال التطور الداخلى لمجتمعات العالم الثالث ، واذا كان الاستعمار فى القرن التاسع عشر قد تميز سلوكه خلال المرحلة الاولى بالخشونة ، فان العودة الاستعمارية من خلال التبعية كانت عودة ناعمة الى حد كبير . واذا كانت القوى العالمية قد فرضت التبعية بقوة السلاح من الخارج اشباعا لحاجات هذه القوة ، فان هذه المرحلة — المرحلة الثالثة — تشهد العالم الثالث ، وهو يسعى حثيا الى التبعية تحت وطأة ظروف داخلية وخارجية عديدة .

وكرد فعل لمناخ الفشل التنموى الذى خيم على بلاد العالم الثالث فى نهاية المرحلة الثانية . قام جهد دولى — خلال الثالثة — لمساعدة البلاد الفقيرة على التطور الانسانى فى ظاهرة الاستغلالى فى جوهرة . حيث قامت مؤسسات دولية عديدة كالبنك الدولى للتنمية والتعمير I. B. R. I ومنظمة النقد الدولية ، وهذا بالاضافة الى مجموعة من المنظمات التى أسستها الأمم المتحدة ذاتها ، كمنظمة الفاو F. A. O. ومنظمة الصحة الدولية واليونسكو UNESCO والمنظمة الدولية للتنمية الصناعية U.N.D.P. (٨٤) . وبغض النظر عن الدور التطويرى الذى بذلته منظمات الامم المتحدة لتنمية العالم الثالث استنادا الى البعد الانسانى ، فاننا نجد أن مجموعة التنظيمات التى أسستها البلاد المتقدمة عادة ما تعمل لصالحها أولا . فمثلا نجد أن المنظمات الاقتصادية تعمل حسب فلسفة (دعه يعمل Laissez fair) حيث التأكيد على افتراض رئيسى يؤكد على أن التعاون الحر حسب آليات السوق سوف يؤدى الى تقدم ملحوظ ، بمجرد اعادة تنظيم الاقتصاد الدولى (٨٥) وهى الفلسفة التى تساعد بالتأكيد على دعم الاقتصاديات المتقدمة على حساب نظيرتها المتخلفة . هذا الى جانب أنه برغم أن هذه المنظمات قد تأسست لكى تعمل لصالح البلاد المتخلفة فاننا نجد أن معظم المساعدات المالية التى منحت ذهبت الى أوروبا الغربية ، حيث تفرض هذه المنظمات قيودا كثيرة على المساعدات الى العالم المتخلف تحت غطاء

الربحية ، والبحث فى قدرة البلد على السداد ، هذا الى جانب أن البنــك الدولى فى بداية سنواته كان يقرض الدول بالنظر الى حصص المشاركة فيها(٨٦) وهو ما كان يعنى فى النهاية انخفاض المنح أو القروض الموجهة الى الدول الفقيرة .

غير أن القضية الخطيرة فيما يتعلق بالخدمة التى تؤديها هذه المنظمات أنها تحاول — من خلال خدماتها المــالية — صياغة النظام العــالمى على الطريقة الغربية ، اى أن يعمل الاقتصاد حسب آليات السوق متناسيا أسسا هامة كالعدالة الاجتماعية ، وهو ما يعنى العمل على خلق اقتصاد محلــى نظير تزم ، مصادر فاعليته وأهدافه كائنة بالخارج أساسا(*) وهو ما يعنــى انحراف المساعدات تماما عن أهدافها الانسانية .

فاذا حاولنا أن نحدد الاشكال التى تنساب بها المساعدات الى العالم الثالث ، فاننا سوف نجد ثلاثة أشكال أساسية . وتمثل القروض التجارية والاستمارات المباشرة التى تدفعها الشركات أو المؤسسات الخاصة (والتى تدفعها الآن الشركات المتعددة الجنسية أساسا) . ويتمثل الشكل الثانى فى المدفوعات التى ترصد للاغراض العسكرية ، ثم المعونات التى ترصدها

(*) ينص خطاب النوايا بين مصر وصندوق النقد الدولى على سبيل المثال على أنه خلال فترة ١٥ شهرا (من أول أبريل ١٩٧٨وحتى آخر يونيو ١٩٧٩) لا يزيد الائتمان المصرفى القطاع العام بأكثر من ١٠٪ بينما يزيد الائتمان المصرفى للقطاع الخاص بنسبة ٩٥٪ وهذا يعنى تسهيل حصــول القطاع الخاص على الائتمان المصرفى بدرجة أكثر من القطاع العام . وهو ما يعنى أيضا دعم الأول لحساب اضعاف الثانى . بل وتهديده بالتوقف عن الانتاج . فاذا تذكرنا أن القطاع الخاص فى ظل الانفتاح يتكون من ملكية مشتركة مصرية وأجنبية فى أغلب الحالات ، واذا أخذنا فى الاعتبار الشروط الخاصــة بتحرير الصرف وتحرير الواردات ، لأدركنا مدى الخطر الذى يتعرض له المشروع الوطنى ، وبالذات القطاع العام فى ظل هــذا التوجه . يضاف الى ذلك أن القطاع العام يتيح ظروفا افضل من القطــاع الخاص لتحقيق العدالة الاجتماعية ، ومن هنا فان الاجراء المذكور بتقليص نطــاق القطاع العام وحركته ، انما يضر بقضية العدالة الاجتماعية (٨٧) .

الحكومات والمنظمات الدولية كالبنك الدولى (٨٨) . ولتوضيح حجم ديون العالم الثالث من خلال هذه الأشكال نجد ما يوضحه الجدول التالى :

جدول رقم (٤) يوضح ديون العالم الثالث وخدمات الديون

السنة	صافى الدين والمساعدة	خدمة الدين	حجم المساعدات
١٩٦٧	٧ر٩	٩ر٣	٨ر٥
١٩٧٤	٩ر١٤	٦ر١٠	٤٣ر

ويوضح الجدول السابق عددا من الحقائق الأساسية ، أولها أن نسبة تقترب من ٢ر٤٠٪ عام ١٩٦٧ ونحو ١ر٧١٪ من القروض الممنوحة عام ١٩٧٤ يذهب كفوائد لخدمة الديون ، وهو مبلغ ضخم يتنافى والاريحيـه الانسانية التى يتغنى بها العالم المتقدم . أما الحقيقة الثانية التى تتبدى من خلال هذا البيان ، فتتمثل فى ازدياد حجم القروض بين ١٩٦٧ ، ١٩٧٤ ، ويزداد الموقف الما اذا ادركنا أن هذه الديون لم تستطع أن تؤسس تنميـة حقيقية فى مجتمعات العالم الثالث . هذا فى حين تبرز الحقيقة الثالثة ــ والتى تعبر عن أوضاع جد متناقضة ــ والتى تذهب الى أنه فى حين تتزايد قروض العالم المتقدم الى العـالم المتخلف من ٧ر٩ بليون عام ١٩٦٧ الى ٩ر١٤ بليون عام ١٩٧٤ نجد صافى ما دخل فى خزانة العالم الثالث انخفض من ٨ر٥ بليون عام ١٩٦٧ الى نحو ٣ر٤ بليون دولار (٨٩) . وهو الوضع الذى أدى الى تراكم ديون العالم الثالث ، وهى الديون التى بدأت فى التصاعد المطـرد . حيث بلغت ديون العـالم الثالث ــ بخلاف مجمـوعة الأوبك ــ نحو ١٣٠ بليون دولار فى ١٩٧٦ ، دفعت منها البنوك التجارية نحو ٢٥ دولار ، وازدادت هذه الديون لتصل الى نحو ٢٥٠ بليون دولار فى مارس ١٩٧٨ ، ومازالت مطردة الزيادة . وفى مقابل ذلك تزايد عجز ميزان المدفوعات ــ فى البلاد المتخلفة غير البترولية ــ من ١١ بليون دولار فى ١٩٧٣ الى ٣٨ بليون دولار فى عام ١٩٧٥ . ومازالت المعـدلات مسـتمرة فى الزيادة بنحـو من ٢٥ الى ٣٠ بليون دولار سنويا . يؤكد ذلك ما يكشف عنه الوجه المقابل لهذه الحقيقة حيث نجد أن نسبة كبيرة من ميزانيات العالم الثالث أصبحت تعتمد على الخارج ، يوضح ذلك ما يكشف عنه تحليل ثمان خطط لبعض الاقطار

الأفريقية ، حيث نجد أنه بين ٢٧٪ الى ٥١٪ من احتياجات رأس المـــال تأتى من الخارج بالأساس (٩٠) .

فاذا حاولنا أن نحدد بصورة دقيقة مصادر أساسية :

١ — ويتمثل المصدر الأول فى مجموعة الدول الرأسمالية وهى التى تضم الأقطار المتطورة — كغرب أوروبا والولايات المتحدة واليابان ، وكذا ، واستراليا — وهم أيضا الذين شكلوا من أنفسهم لجنة المساعدة من أجـل التنمية .D.A.C المنبثقة عن منظمة التنمية والتعاون الأوروبية ، وهى تعتبر المصدر الرئيسى لرأس المال الاجنبى بالنسـبة لمعظم الاقطار ، ثم هـى المصدر الرئيسى لرأس المـال الخاص . ويوضح الجـدول التالى حجم المساعدات الواردة عن هذا المصدر (٩١) .

جدول رقم (٥) يوضح المساعدات من الدول الرأسمالية

نـوع المســاعـدة	١٩٧٠	١٩٧٦
١ — مساعدات التنمية الرسمية	٦٧٩٠ر٥	٣٦٥٦ر٢
٢ — التدفق الرسمى الآخـــر	١١٣٨ر٧	٣٠٢٣ر٦
٣ — التدفق الرســمى الخـــاص	٦٨٦٥ر١	٢٢١٨٥ر٧
٤ — الهبات من قبل الوكالات التطوعية	٨٥٧ر٥	١٣٥٨ر٢
المجمــــوع	**١٥٦٦١ر٨**	**٤٠٢٢٣ر٧**

وتكشف قراءة الجدول السابق عن عدة حقائق أساسية أولها أن التدفق الخاص (المشروعات الاستثمارية المملوكة ملكية خاصة) هو أقوى أنماط المساعدات . فقد بلغت النسبة فى ١٩٧٠ نحو ٤٣٪ من حجم المساعدات التى أعطيت للعالم الثالث ، فى حين بلغت نسبة ١٩٧٦ نجد ٥٥٪ . وهو ما يعنى أن التدفق الخارجى يتجه نحو الزيادة . هذا فى حين بلغت الهبـات من الوكالات التطوعية نحو ٥ر٤٪ من حجم ما أعطى للعالم الثالث نجدها

قد انخفضت فى عام ١٩٧٦ الى نحو ٣ر٣٪ . وهو ما يعنى اتجاه العالم الثالث فى اتجاه تقع فى اطارم استثماراته فريسة للمشروع الخاص . سواء كان ذلك عن طريق الدولة أو عن طريق الأفراد (٩٢) .

٢ — تشكل المساعدات الشيوعية المصدر الثانى لهذه المساعدات . وبرغم ندوة الوثائق المتعلقة بهذه المساعدات . وبرغم أن لها بعدها السرى ، فان حجم المساعدات التى قدمتها هذه الكتلة الى دول العالم الثالث غير الشيوعية نحو ٢٠٠ مليون جنيه استرلينى . وأن كانت هناك مساعدات أكثر من ذلك تذهب الى البلاد الشيوعية مثل كوبا ، منغوليا ، كوريا الشمالية ، فيتنام الشمالية (٩٣) . والملاحظ على مساعدات الكتلة الشيوعية أن لها طابعها السرى ، وهو ما يعنى أن السلاح يشكل المستهلك الرئيسى لهذا النمط من المساعدات . ذلك السلاح الذى يستخدم عادة لمواجهة الوجود الاستعمارى ، ومن ثم فهذه المساعدات ليست آلا بنادق فى يد الفقراء ، وهى وان وفرت لهم الحماية الا أنها تعجز عن توفير لقمة العيش أو بالأصح الأساس الاقتصادى الملائم للانطلاق ، هذا الى جانب أنها تساعد على نشر النموذج الشيوعى — على ما يذهب البعض — أما الخاصية الثانية لهذه المساعدات فتتميز فى أنها عادة ما تعطى بالأساس لدول شيوعية صغيرة ، وذلك لدعم بنائها الاجتماعى الموجه توجها اشتراكيا . ومن ثم فهى تمنح باعتبارها النماذج التى تشكل امتدادا للمشروع الشيوعى . اما الخاصية الثالثة فتتحدد بأن هذه المساعدات عادة ما تعطى لبعض مجتمعات العالم الثالث التى تتخلق بها قوى ذات امكانات اشتراكية ، أو تلك التى تنتهج خطا مواليا لأيديولوجية المجتمع الاشتراكى ، ومن ثم ينبغى الحفاظ على موقفها من خلال دعم هذا الموقف .

٣ — وتشكل الأقطار البترولية المصدر الثالث لتدفق المساعدات على العالم الثالث . وتشكل البلاد العربية المصدر الرئيسى من بين البلاد البترولية ، وقد بلغت الأموال التى ساعدت بها هذه الأقطار نحو ٥٢٥٠ مليون جنيه استرلينى فى عام ١٩٧٧ (٩٤) . وقد دفعت الدول البترولية هذه المساعدات كتعويض من ناحية للأزمة التى تعرضت لها البلاد النامية غير البترولية بسبب رفع أسعار البترول . حيث بدأ الارتفاع الجنونى للأسعار

فى أعقاب عام ١٩٧٤ ، اذ بلغ العجز فى ميزان المدفوعات بالنسبة للبلاد غير البترولية نحو ١١ بليون جنيه استرلينى عام ١٩٧٣ ، وارتفع ليصبح ٣٨ مليون جنيه استرلينى عام ١٩٧٥ . ثم بدأ يتصاعد تصاعدا سنويا بنحو ٢٥ الى ٣٠ بليون دولار سنويا منذ ذلك الحين (٩٥) . ومن ناحية أخرى تدفع

هذه المجتمعات هذه المساعدات ـــ خاصة الأقطار العربية الرجعية ـــ نيابة عن الرأسمالية العالمية ـــ اذ تصدر هذه المساعدات على غير ارادتها ، هذا الى جانب توفيرها لفرص العمل التى تجذب لديها اليد العاطلة من مختلف بلاد العالم الثالث ، وهو ما يعنى أن حجم المدخرات التى تتسبب فيها هذه العمالة ، يفوق كثيرا الرقم الذى ذكرناه للمساعدة .

٤ ـــ وتشكل الهيئات الدولية التابعة للأمم المتحدة المصدر الرابع لهذه المساعدات . ونظرا لصغر ميزانية الأمم المتحدة من ناحية ، وتأثرها بفاعلية القوى العالمية الأساسية من ناحية أخرى ، فان هذه المساعدات عادة ما تكون غير ذات قيمة تذكر بالنسبة لتنمية العالم الثالث . أو هى تتعرض لنفس المثالب التى تتعرض لها مساعدات القوى الأساسية فى النظام العالمى .

أما بالنسبة للأقطار التى تتسلم المساعدات فنجد أن هناك ثلاثة محكات أساسية تحكم ديناميات هذا التوزيع :

الأول : طبيعة التوجه الأيديولوجى للمجتمع المستقبل للمساعدة . وفى هذا الصدد نجد أن الدولة المانحة تفضل مساعدة الدولة النامية التى تسعى لتجسيد مشروعها الاقتصادى . وعلى هذا النحو نجد أن اسرائيل والأردن ، وفيتنام الجنوبية ولاوس تتلقى مبالغ كبيرة من لجنة المساعدة للتنمية D.A.C. بينما تحظى أقطار مثل فيتنام الشمالية ومصر (قبل ١٩٦٧) وكوبا بنفس الاهتمام من قبل الأقطار الشيوعية وهو ما يعنى أن كل معسكر من المعسكرات الدولية يمنح الدول المحتاجة التى تسير فى فلكها أو تدافع عن مصالحها الحيوية فى مناطق حيوية على الخريطة العالمية .

الثانى : حيث تتجه المساعدات استنادا الى الحاجة الماسة للمجتمع المتلقى لها . فقد أعلنت سياسة بريطانية جديدة فى ١٩٧٥ تسعى الى تركيز المساعدة لأشد الأقطار فقرا ، مع التأكيد على انتاجها الزراعى المتزايد .

اذ يشعر ذوو المستويات المعيشية المنخفضة بأكثر الحاجات الانسانية الحاحا . وعادة ما تذهب المساعدات — حسب هذا المعيار — الى أكثر الدول فقرا من حيث الكثافة السكانية ، ومنها الهند ، أندونيسيا والباكستان (٩٦) .

الثالث : حيث تتجه المساعدات الى الدول الفقيرة حسب معيار الفعالية . وهو ما يعنى محاولة دعم النمو الذاتى بالنسبة للأمة الأقل فقرا بدرجة كاملة . ومن ثم يمكن استخدام أية مساعدات أخرى فى مكان آخر . ومن ثم تصبح الأقطار المتسلمة مانحة . وربما يكون هذا النمط من المساعدات هو المسئول عن التناقضات التى ظهرت فى اللقاء الثالث لمؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية UNCTAD الذى انعقد فى شيلى سنة ١٩٧٢ حينما قامت اختلافات واضحة بين أكثر من ٢٥ أمة فقيرة ، أكثرها فى افريقيا بالاضافة الى بعض الأعضاء البارزين فى العالم الثالث ذات الحالة الأحسن بالمقارنة ، وهى البرازيل ، المكسيك ، سنغافورة ، الأرجنتين (٩٧) .

ذلك ينقلنا الى الفقرة التالية ، وهى المتعلقة بالقنوات التى تنساب من خلالها المساعدة من العالم المتقدم الى العالم المتخلف . وتكشف النظرة الفاحصة لهذه القنوات وما ينساب خلالها عن ثلاثة ظواهر أساسية . أولها ، أن هذه القنوات ربما لا تكون أكثر القنوات ملاءمة لتنمية العالم الثالث ، بقدر ما هى ذات نفع حيوى بالنسبة للعالم المتقدم . والثانى : أن ما ينساب خلالها من مضمونات قد يصلح لتأسيس التنمية يتم توجيهه من الخارج بحيث لا يخدم احتياجات البلد المتخلف قدر ما يخدم مصالح البلد المتقدم . والثالث : أن هذه القنوات وان تأسست لتأسيس الاستقلال الاقتصادى للعالم الثالث ، فانها لا تفعل سوى ترسيخ تبعية هذا العالم ، والتحرك به الى مزيد من التبعية .

ويحاول جون روبنسون تحديد أشكال المساعدة الى العالم الثالث بأنها تتضمن ثلاثة أنماط أساسية . أولها : يتمثل فى القروض التجارية والاستثمارات المباشرة للمشروعات الخاصة (والذى تمارسه الشركات متعددة الجنسية أساسا) ثم المدفوعات المقدمة لأغراض التسليح والجوانب العسكرية ثم المخصصات المالية التى تقدمها الحكومات أو المؤسسات الدولية كالبنك الدولى (٩٨) . ونضيف على ذلك التكنولوجيا المتقدمة التى تمنح

بافتراض امكانيتها على تأسيس التقدم فى اطار العالم المتخلف . وذلك يعنى أن القنوات الأساسية تتمثل فى التجارة ، والاستثمارات فى المشروعات الخاصة ، ثم القروض والمنح ، ثم المساعدة بالتكنولوجيا ، والاعداد بالتجهيز أو التسليح للأغراض العسكرية .

واذا اتفقنا على أن التجارة تمثل قناة أساسية للمساعدات فان ما ينساب خلالها عادة ما يتكون من المواد الخام للعالم الثالث فى مقابلة السلع الاستهلاكية الفائضة عن حاجة الاستهلاك فى العالم المتقدم . فاذا أخذنا تجارة المنطقة العربية مع القوى الأساسية ، فسوف نجد أنها تطورت الى مليار دولار عام ١٩٧٧ أى تضاعف اثنتى عشرة مرة .

ويكشف البحث فى مضمون التجارة أن العرب — كممثلين للعالم الثالث — يصدرون المادة الخام ولا سيما النفط ، فى حين يستوردون الأغذية والأسلحة وغيرها من السلع المصنعة . وقد تعمق هذا الاتجاه فى العقدين الأخيرين . ففى عام ١٩٦٠ شكلت المواد الخام نحو ٨٣٪ من جميع صادرات الوطن العربى . وفى هذا الاطار بلغ نصيب النفط نحو ٥٢٪ من الصادرات . وفى عام ١٩٧٧ زاد نصيب المواد الخام الى ٩٥٪ من مجموع الصادرات علما بأن نصيب النفط زاد بدوره على ٨٧٪ من مجموع الصادرات . أما فيما يتعلق بالواردات فقد بلغ نصيب السلع المصنعة والأغذية نحو ٧٧،٤٪ من مجموع واردات العالم العربى عام ١٩٦٠ . بعد هذا التاريخ بعشرين عاما وصلت الواردات العربية من هذه السلع والمواد نفسها نحو ٨٥٪ من مجموع الواردات (٩٩) .

وتتضح التبعية التجارية للعالم الثالث — اذا أخذنا العالم العربى مثالا — أنه فى حين أن قيمة هذه التجارة (الواردات والصادرات) لا تمثل أكثر من ٢٠٪ من الناتج الاجمالى للولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا واليابان ، فان متوسطها قد بلغ فى معظم الأقطار العربية ما يتراوح بين ٥٠٪ ، ٢٢٥٪ من الناتج المحلى الاجمالى لهذه البلدان ، وهو ما يشير بدوره الى نوع من الاندماج والتبعية للنظام العالمى (١٠٠) .

وتشكل الاستثمارات فى المشروعات الخاصة القناة الثانية التى تنساب

خلالها مساعدات النظام العالمى . وعادة ما تقوم شركات البلد المانح أو الصيغة الجديدة للشركات متعددة الجنسية بهذه المهمة . ومن الطبيعى أن يشكل هذا الرأسمال الخاص منافسة صعبة للاستثمار الوطنى الخاص (١٠١) . ومن الطبيعى أن تعمل المشروعات الخاصة ، سواء كانت أجنبية أو متحالفة — تحالفا غير متكافىء — مع الرأسمال الوطنى على انتاج سلع قد لا تحتاجها البلاد المتخلفة ، ومن ثم يصبح تصنيع البلد المتخلف على هذا النحو ليس الا خلقا لموقع متقدم للصناعات العالمية ، مستفيدة من التسهيلات المحلية ، كرخص الأيدى العاملة ، كما يحدث بالنسبة لصناعة السيارات فى أمريكا اللاتينية (١٠٢) . ومن الطبيعى ألا تتجه الاستثمارات فى صناعة السيارات فى الأرجنتين الى خدمة الأقلية الميسورة ، فى حين أنها كان من الممكن أن تكفى لمضاعفة شبكة الطرق فى هذا البلد خلال خمس سنوات . وتأمين خدمة شعبية أفضل بكثير ، لو أن جزءا من هذه الاستثمارات ذاتها استخدم لصنع سيارات النقل والأتوبيس بدلا من صناعة السيارات الخاصة (١٠٣) . هذا الى جانب أن هذه الاستثمارات الخاصة غالبا ما تكون القنطرة التى يعبر عليها رأس المال المحلى الى الخارج . وللبرهنة على ذلك نجد أن رؤوس الأموال التى انتقلت من الولايات المتحدة الى أمريكا اللاتينية فى الفترة من ١٩٥٠ — ١٩٦٥ بلغت نحو ٨ر٣ مليار دولار ، فى حين أن أمريكا اللاتينية صدرت عن نفس الفترة الى الولايات المتحدة نحو ٣ر١١ مليار دولار . وهذا يترك حركة رأس مال صاف يقدر بنحو ٥ر٧ مليار دولار من أمريكا اللاتينية الفقيرة الى الولايات المتحدة الأمريكية (١٠٤) . بالاضافة الى ذلك فان هذه الاستثمارات الخاصة عادة ما تؤسس مجموعة من المشروعات التى يكون من نتيجتها تشويه البنية المهنية للمجتمع . فقد أدت الاستثمارات فى أمريكا اللاتينية الى خفض العمالة فى الزراعة والمناجم من ٦٠٪ من قوة العمل فى عام ١٩٢٧ الى ٥٥٪ عام ١٩٥٠ الى ٤٣٪ عام ١٩٦٩ (١٠٥) . وبالطبع تتحول هذه العمالة الى قطاعات غير منتجة ، حيث بدأت قطاعات الخدمات والقطاعات الهامشية تتضخم داخل مجتمعات العالم الثالث (١٠٦) .

وتشكل القروض القناة الثالثة لانسياب المساعدات الى العالم الثالث ، أو بالأحرى لأحكام قبضة العالم المتقدم عليه . ويكشف البحث فيما يتعلق بهذه القضية عن تحديات أساسية تواجه العالم الثالث . فتوزيع الدخول فيه لا يحث على الادخار ، فهو عالم يسير فى حلقة مفرغة أو فى تخلف يتخذ

شكلا حلزونيا . فالشريحة التى تمتلك هذه المدخرات تتخلق لديها ظروف تدفعها الى استهلاك المنتجات الثابتة والكماليات وامتلاك الشقق الفاخرة ، والقيام بالرحلات الى الخارج (١٠٧) ، المهم هو تبديد هذه المدخرات ، وحرمانها من تأسيس قاعدة انتاجية ملائمة للانطلاق . ويتمثل التحدى الثانى الذى يواجه دول العالم الثالث ، أنها مطالبة بالانفاق لتأسيس التنمية فى اتجاهين ، الأول : هو تأسيس بناء خدمات ملائم ، وبالطبع هو يحتاج الى انفاقات . وهذا الجهد ليس له عائد سريع أو مباشر أو ربما ليس له عائد على الاطلاق . والثانى هو تأسيس بناء انتاجى ، قد ينتظر كثيراً حتى يكون له عائد ملائم ، فمثلا اذا قامت الحكومة القومية ببناء سد لتوفير الطاقة والمياه لزيادة الناتج القومى (١٠٨) ، فانها سوف تحتاج الى التمويل الملائم . والاعتماد على الضرائب المحلية قد لا يكون كافيا ، ويمكن أن يوقف على بناء الدخمات ، هذا الى جانب أن الحكومة تكون فى حاجة الى العملة الصعبة لتمويل معدات تنفيذ هذا المشروع . ومن هنا تظهر الحاجة الماسة الى الاقتراض من النظام العالمى ، ولذلك شروط ومحاذير .

والقروض قد تدفعها دولة واحدة ، وقد تكون ثنائية ، أو تدفعها مجموعة من الدول . وعادة تنقسم القروض الى صنفين : الأول ما يمكن أن يسمى بالقروض الناعمة ، والثانى القروض الخشنة . وتكتسب القروض الناعمة طبيعتها هذه بالنظر الى طبيعة ومستوى الفائدة المدفوعة عنها ، وأيضا بالنظر الى طبيعة ومستوى الفائدة المدفوعة عنها . فمثلا كان متوسط أجل هذه القروض فى ١٩٧٠ نحو ٢٩ر٩ سنة ، مع فترة سماح تبلغ نحو ٧ر٤ سنة قبل بداية دفع القروض ، وهو ما يعنى أن سداد الديون أو القروض لا يبدأ الا بعد ٣٧ر٣ سنة من استلامه وهو أمر ملائم الى حد كبير ، هذا الى جانب نسبة الفائدة المربوطة على الدين والتى بلغت فى هذه السنة نحو ٢ر٨٪ (١٠٩) . ويمكن القول بأن القروض الناعمة عادة ما ترتبط بمصدرين ، الأول الكتلة الشيوعية التى عادة ما تتسم قروضها الى العالم الثالث بطول مدى الأجل الذى تدفع بعده الديون ، وأيضا بانخفاض الفائدة عنها لعدم التوجه الربحى أو التجارى لهذه القروض أساسا . وتشكل المنظمات الدولية المصدر الثانى لهذا النمط من القروض . حيث يصل أجل هذه القروض فى بعض الأحيان من ٥ — ٥٠ سنة بفائدة نحو ٧٥ر٪ (١١٠) .

أما النمط الثانى من القروض فيسمى بالقروض الخشنة ، وعادة ما تتسم هذه القروض بقصر الأجل أو المدى ، حيث يصل فى بعض الأحيان الى مدة لا تتجاوز خمس سنوات ، وبفائدة قد تصل الى ١٢٪ من قيمة القرض . وعادة ما يكون مصدر هذه القروض اما الشركات العالمية الاحتكارية ، أو الدول الرأسمالية ، باعتبارها تغلب اعتبارات الربحية والعائد على أية اعتبارات أيديولوجية أخرى .

غير أن هذه القروض لا تعمل عادة على تنمية العالم الثالث وذلك لاعتبارين أساسيين ، الأول : أن هذه القروض عادة ما تتجه الى تصريف سلع راكدة . ففى أعقاب مؤتمر أورجواى لعام ١٩٦١ حصلت البرازيل على نحو ٥٠ مليون جنيه كمساعدة من قبل الولايات المتحدة الأمريكية . وبرغم أن تسديد القروض على مدى أربعين عاما بفترة سماح بلغت ١٠ سنوات ، وهو ما يخرجها عن دائرة القروض الخشنة ، فان البرازيل لم تحصل عليه فى شكل عملة صعبة ، وانما أخذته فى شكل سلع أمريكية تتوازى ومبلغ هذا القرض (١١١) . أما الاعتبار الثانى ، فيتمثل فى أن هذا القرض لا يستهدف عادة اقامة قواعد اقتصادية تساعد على تنمية العالم الثالث ، حيث تتجه نسبة كبيرة من المساعدات أو القروض الى توفير الغذاء تجنبا للمجاعات التى تهدد سكون العالم الثالث . أو تتجه الى صناعات الرفاهية (١١٢) . وبرغم حاجة العالم الثالث الى الغذاء ، فان هذا التوجه للقروض يحرمه من الاستفادة من هذه القروض من ناحية لكى يتجاوز أزمته التنموية مستقبلا ، ويشكل من ناحية أخرى منافسة غير ملائمة للزراعة المحلية ، وامكانية تطويرها ، ومن ثم اعاقة حقيقية للزراعة كمكون اقتصادى رئيسى فى اقتصاديات العالم الثالث . هذا الى جانب أن ذلك من ناحية ثالثة يشير الى حالة من الخمول والاسترخاء فى المسار الاقتصادى للعالم الثالث . وهو ما يضعف قدرتها على مواجهة التحدى . ويتمثل الاعتبار الثالث فى البعد الاستغلالى لهذه القروض . وعلينا مثلا أن نعرف أن حجم الاستثمارات التى أسستها لجنة معونات التنمية D.A.C. فى العالم الثالث بلغت نحو ٢٨٩٠ دولار فى ١٩٧١ ، فانها حققت اجمالى أرباح معادة نحو ٤٠٩٠ مليون دولار ، واجمالى ما اشترته من أسهم شركات محلية نحو ١٥١٠ مليون دولار . أما اجمالى ما تم تحويله من العالم الثالث من أرباح

نظير ذلك فقد بلغ فى نفس العام نحو ٨٨٢٠ مليون دولار (١١٣) وهى بالطبع خسائر فادحة تتجاوز كل تعليق .

ويشكل التسليح القناة الرابعة التى تنساب منها المساعدات الى العالم الثالث . ومما لا شك فيه أن هذه القضية تشكل أحد الأبعاد الأساسية لاستنزاف مدخرات العالم الثالث ومن ثم اعاقة تنميته . ويكشف البحث فى هذه القضية عن وجود ثلاثة أبعاد أساسية . البعد الأول ويتمثل فى أن القوى الأساسية فى النظام العالمى تلعب دورها فى تفجير صراعات العالم الثالث ، ومن ثم فالحاجة الى التسليح مفروضة من الخارج أساسا . فمثلا نجد أن الولايات المتحدة — فى نطاق سباق التسلح مع الاتحاد السوفيتى — تحاول محاصرته بمجموعة من القواعد العسكرية التى تتأسس فى اطار مجموعة من الأقطار الآسيوية ، ومن ثم فهى تعمل على مدها بالسلاح ، باعتبارهم — من الناحية الشكلية — حلفاء لها ، غير أن وجود قوى محلية مسلحة — ولو لصالح القوى الخارجية — يدفع القوى المحلية الأخرى — للحفاظ على أمنها — نحو السعى الى التسلح ، ولو بالتحالف مع القوى العالمية المضادة ، ولو على حساب متطلبات التنمية الاجتماعية والاقتصادية لديها ، مثال على ذلك علاقة كل من الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتى بكل من الهند والباكستان (١١٤) . وبالمثل يسعى الاتحاد السوفيتى الى تسليح مجتمعات العالم الثالث داخل المعسكر الاشتراكى ؛ حيث نجده خلال الخمسينات قد انطلق الى تسليح بعض الدول فى آسيا وشمال افريقيا (١١٥) . ثم اتجه بعد ذلك الى تسليح الجماعات الثورية التى تناضل ضد القوى المحلية التى تدعمها الرأسمالية العالمية أو الدول التى تناضل ضد هذه القوى .

ويتميز البعد الثانى — فى تسليح العالم الثالث — بالطبيعة التجارية البحتة . حيث تتسم مبيعات الدول الأوروبية من السلاح بالطبيعة التجارية البحتة ذلك أن صناعة السلاح فى هذه الدول تعتبر عبئا ثقيلا عليها . ومن ثم فبيع السلاح يعتبر من باب تخفيف العبء على الميزانية (١١٦) . غير أنه وان بدت مبيعات السلاح الى العالم الثالث ذات طبيعة بريئة فى هذا الاطار ، الا أن مبيعات السلاح الى القوى المحلية عادة ما يدور — تشكل

حقيقى — فى فلك الصراع بين القوى الاساسية للنظام العالمى ، هذا الى جانب أنها تساعد على اشعال الصراعات المحلية لان أدواتها جاهزة .

وتشكل صراعات الدول الصغيرة على الحدود المحلية — فى أعقاب رحيل الاستعمار — أحد الأسباب الرئيسية لسعى العالم الثالث الى التسليح . حيث أنه اذا تسلحت احدى الدول ، فانها سوف تفرض ضرورة التسليح على الدولة الأخرى المجاورة . حتى أصبح وجود جيش قوى مجاور يعتبر فى حد ذاته دعوة صريحة الى ضرورة تسلح الدول المجاورة لتحقيق الأمن (١١٧) . يؤكد ذلك أن معظم صراعات العالم الثالث تدور حول الحدود . نذكر منها على سبيل المثال العراق وايران ، الهند وباكستان ، الهند والصين ، اثيوبيا والصومال ، الصين والاتحاد السوفيتى . بل أننا فى كثير من الأحيان نجد أن الصراعات المحلية فى العالم لثالث قد أصبحت فى السنوات الأخيرة بديلا للصراع المدمر الذى قد ينشأ بين القوى العالمية الاساسية ، ومن ثم فهى تعتبر فى كثير من الأحيان مجالا أساسيا لاختبار القوى والارادات . وعادة ما تختار مجالات الصراع اما لثرواتها الكامنة ، أو لموقعها الاستراتيجى أو الحيوى بالنسبة لأى من هذه المعسكرات (*) .

ولتوضيح حجم التسليح الذى يستهلكه العالم الثالث ، نجد أن انفاقه العسكرى قد ارتفع من ١٥ بليون دولار عام ١٩٦٠ الى ٣٩ بليون دولار فى عام ١٩٧٤ .. وأن الزيادة الرئيسية قد حدثت فى الشرق الأوسط ، الذى اعتبر — لأسباب عديدة — مسرحا لكثير من الصراعات خلال هذه الفترة (١١٨) . ولعل الصورة تصبح أكثر وضوحا ، اذا نحن تفحصنا الأرقام التى يبرزها الجدول التالى ، الذى يوضح الزيادة فى قيمة واردات العالم الثالث من التسليح بالمليون دولار بالأسعار الثابتة لعام ١٩٧٣ حسبما يلى :

(*) عادة ما تستخدم القوى الكبرى الصراعات المحلية التى قد تقوم بين دول العالم الثالث كاطار لتجريب حجم الدمار التى تحدثه أسلحتها ، وهو اتجاه يتسم بحالة من الوحشية أو المشاعر اللاانسانية ، مثال على ذلك الدور الجانبى الذى تؤديه الحرب التى تشنها اسرائيل لاختبار فاعلية بعض الأسلحة الأمريكية .

جدول رقم (٦) يوضح المشتريات السنوية من السلاح مقدرة بالمليون دولار

المنطقة	٦٤ / ١٩٦٨ القيمة بالمليون دولار	٪	٦٩ / ١٩٧٣ القيمة بالمليون دولار	٪	٧٤ / ١٩٧٥ بالمليون دولار القيمة	٪
اجمالى العالم الثالث	١٥٢١	١٠٠٪	٢٥٢٧	١٠٠٪	٤٣٨٧	١٠٠٪
الشرق الارسط	٥٤٩	٣٦ ٪	١١٨١	٤٦ر٧ ٪	٢٤٥١	٥٥ر٩ ٪
الشرق الاقصى	٦٤٩	٣٠ر٨٪	٦٤٠	٢٥ر٣ ٪	٤٠٨	٩ر٣ ٪
غير فيتنام	٢٥٩	١٧ ٪	٩٨	٣ر٨ ٪	٣٧٨	٨ر٦ ٪
جنوب آسيا	١٩١	١٢ر٥٪	٢٧٧	١١ ٪	٢١٠	٤ر٨ ٪
شمال أفريقيا	٧٠	٤ر٦ ٪	٢٦٦	١٠ر٥ ٪	٣٣٢	٧ر٦ ٪
الصحراء الافريقية	١٣٠	٨ر٥ ٪	١٢٦	٥ ٪	٤٠١	٩ر١ ٪
أمريكا اللاتينية	١١٤	٧ر٥ ٪	٢١٦	٨ر٥ ٪	٤٩٧	١١ر٣ ٪

وتكشف قراءة الجدول السابق عن عدة ملاحظات أساسية :

أول هذه الملاحظات الازدياد المطرد فى الانفاق على التسليح فى اطار العالم الثالث . ففى حين كان الانفاق على التسليح فى عام ١٩٦٨/٦٤ نحو ١٥٢١ مليون دولار نجدها قد ارتفعت فى عام ١٩٧٥/٧٤ الى نحو ٤٣٨٧ مليون دولار ، أى أنها تضاعفت ثلاث مرات تقريبا بافتراض ثبات الأسعار .

اما الملاحظة الثانية فتتمثل فى استمرار تزايد تسليح الشرق الاوسط بين ١٩٦٤ — ١٩٧٥ ، ففى حين كان الانفاق على التسليح فى الشرق الأوسط نحو ٣٦٪ مما أنفقه العالم الثالث — على التسليح فى ١٩٦٨/٦٤ — نجده قد ارتفع ليصبح ٥٦٪ من انفاق العالم الثالث على التسليح فى عام ١٩٧٥ . وربما يرجع ذلك الى عاملين أساسيين . الأول الثروة النفطية والموقع الاستراتيجى للشرق الأوسط وهى الأمور التى تفرض أهمية الشرق الأوسط فى اطار النظام العالمى . ويتمثل الثانى فى قدرة مجتمعات الشرق الأوسط على الدفع الفورى لثمن مشتريات السلاح . وهى مسألة لها أهميتها فى ظل التضخم الذى يخيم على النظام العالمى .

وتتمثل الملاحظة الثالثة فى تباين مواطن الصراع العالمى فى مختلف المراحل التاريخية ، ومن ثم تباين توزيع الانفاق على التسليح داخل أنحاء العالم الثالث ، اذا اعتبرنا انفاقات التسليح مؤشراً على ذلك . فعلى حين احتلت فيتنام وجنوب شرق آسيا أهمية كبيرة فى عام ١٩٦٨/٦٤ حيث أنفقت على التوالى نحو ١٧٪ ، ٥ر١٢٪ على التسليح ، نجد أن هـذا الانفاق قـد انخفض فى ٧٤ / ١٩٧٥ الى ٦ر٧٪ ، ٨ر٤٪ على التوالى ايضا . والعكس صحيح بالنسبة لشمال أفريقيا ، وأمريكا اللاتينية . وهو ما يعنى اتجاه التسـليح عادة الى المجتمعات التى تشـكل بلادها مسرحا لصراع القوى العالميـة .

وتعتبر المسـاعدات الفنية هى القناة الخامسـة التى تنساب منهـا مساعدات العالم المتقدم الى الدول النامية . وتضم المساعدات الفنية الفنيين والمستشارين والمعدات اللازمة . وبرغم أنه من الواضح ظاهريا أن العالم المتقدم يزود البلاد النامية بالخبرات المتقدمة التى يفتقدها عادة ، فانه يفعل ذلك بهدف قطع الطريق على أية امكانات تنموية بالنسبة لهذه البلاد خاصة اذا أدركنا أن معظم البلاد النامية تمتلك هذه الكفاءات أو هى لا تحتاج خبرات ذات درجة عالية من التخصص .

وحســبما تبرز بعض الأرقام نجد أن المســاعدات الفنية من بريطانيا وفرنســا الى العالم الثالث تحتوى على نحو ۳۰٫۰۰۰ مدرس فرنسى ، ونحو ۷٫۰۰۰ مدرس بريطانى . ومما لا شك فيه ، فان هــذا النوع من المساعدات يجذب الدول المانحة ، حيث أنها تدفع المساعدات المــالية للبلاد النامية فى شكل مرتبات لمواطنيها (١٢٠) .

وتكمن الخطورة الرئيسية فى هــذا النوع من المساعدات فى أن قيمتها المــادية أولا تنفق لصالح البلد المانح وليس البلد المستقبل للمساعدة . ونأخذ مثالا على ذلك المنحة التى تقدمها وكالة التنمية الدولية لبنك التنمية الصناعية لمساعدة البنك فى تحسين امكاناته التنظيمية وتمكينه من تمويل القطاع الخاص المصرى ، حيث بلغت قيمة المنحة نحو مليون دولار أمريكى ، على أن تدفع الحكومة المصرية ۷٫۰۰۰٫۰۰۰ جنيه ، وهو ما يعنى أن على الحكومة المصرية أن تدفع دولارا لكل دولارين أمريكيين ، تنفق كلها لشراء السلع الأمريكية حسبما يوضح الجدول التالى :

جدول رقم (۷) يوضح ــ كمثال ــ انفاقات المنحة
التى قدمتها وكالة التنمية الدولية لبنك التنمية الصناعية
لتحسين امكاناته التنظيمية

الاستخدام	الف دولار أمريكى	الف جنيه مصرى
مستشــار أول	۲۰۰	۳٥
مكتب استشارى فى الادارة	۹۰۰	۱٤۰
مستشارين لاجل قصير	۱۳۰	۱۷٫٥
تدريب	۱۰۰	۱۷٫٥
معــدات	٥۰۰	٤۲۰
احتيــاطى	—	۷۰۰
المصادر	—	—
منحة الوكالة الدولية	۲٫۰۰۰	—
البنــك	۲٫۰۰۰	۷۰۰
المجمــوع	**٤٫۸۳۰**	**۲۰۳۰**

وتكشف قراءة الجدول الســـابق عن خدعة أخلاقية تذهب مجتمعات العالم الثالث ضحية لها . وبرغم ضآلة المبلغ الذى يتم الاستشهاد به ، الا أننا نناقشة كدلالة كافية لتحديد نوايا العالم المتقدم نحو تنمية أو تحديث العالم الثالث . فبرغم أن المنحة كانت ٢ مليون دولار فاننا نجد أن الخزينة المصرية دفعت فى المقـــابل نحـــو ٧٠٠٫٠٠٠ جنيـــه مصرى . ودفعتها للأغراض التاليـــة :

١ ــ ٢٠٠ ألف دولار أمريكى ، ٣٥ ألف جنيـــه مصرى للانفاق على المستشار الأول وهو أجنبى بطبيعة الحال .

٢ ــ انفاق ٩٠٠ ألف دولار ، ١٤٠ ألف جنيه على مكتب استشارى فى الادارة ، أعضاؤه اما أنهم ينتمون فى الغالب الى الوكالات الدوليـــة ، أو الى بعض المثقفين البرجوازيين الذين استناموا الى ترف العيش على حســـاب خشونة حياة الجماهير ، والذين لديهم أيضا امكانيات عالية على الخيانة الوطنية .

٣ ــ معدات بنحو ٥٠٠ ألف دولار ، ٤٢٠ ألف جنيه مصرى وهى بالطبع مبالغ تذهب لتصريف سلع أجنبية .

٤ ــ هـــذا بالاضافة الى ١٣٠ ألف دولار ، ١٣٫٥ ألف جنيه مصرى ، تذهب كمكافآت لمستشارين لأجل قصير وهم لن يخرجوا عن كونهم أجانب ، أو أذيالا محليين لهم .

٥ ــ رصد مبلغ لا يتجاوز ١٠٠ ألف دولار ، ١٧٫٥ ألف جنيه مصرى للتدريب . وهذا المبلغ يصل الى نحو ٥٠٪ من مرتب المستشار الأول ، وهو المبلغ الذى قد يساعد على تدريب وتنمية كوارد محلية .

ذلك يعنى أن مساعدات العالم المتقدم الى العالم الثالث تمثل فى العادة خدعة كبرى . ظاهرها المصالح الخيرة ، وباطنها مزيد من تعميق التخلف ، ومزيد من الاستنزاف للأرصدة المحلية ، وبحث دؤوب عن وكلاء محليين يمثلون أقنعة أو وسائل محلية لعملية الاستنزاف هذه .

والسؤال الذى يطرح نفســـه الى أين أسلمتنا هـــذه المساعدات ؟ او ما هى طبيعة الأوضاع التى وجدنا فيها أنفسنا بعد حقبة كاملة من تنمية اعتمدت على الخارج ، تنمية استندت على فتات النظام العالمى ، ولم تحاول الاعتماد على الذات .. أى أنها تنمية لم تنطلق صلبة من الداخل وانما فرضت مشوهة من الخارج . هـــذه التنمية فرضت ظروفا غير ملائمة تماما لانطلاق العالم الثالث .

١ — فقد ادى الاعتماد المفرط على المساعدات الخارجية الى قبـــول شروط عديدة تفرضها الدول المقدمة للمساعدات . لذلك فانه وان أضافت بعض المساعدات الى الموارد المتاحة للتنمية ، الا انها فى نفس الوقت قد انتقصت من قدرة المجتمع على تنظيم أولوياته وعلى السير فى طريقه الخاص فهناك دول سارت على هـــذا الدرب مثل الفلبين واندونيســـيا والبرازيل والهند . وقد كانت محصلة هـــذه العملية مخيبة للآمال ، بل ومثيرة للقلق . حيث انتهى الحال بهذه الدول بعد سلسلة من برامج الاستقرار وخطابات النوايا والقروض الى التضخم والقضاء على المشروع الوطنى ، وزيادة حدة التفاوت الاجتماعى وتصـــاعد المديونية . بل وتفشى النظم الدكتاتورية فى معظمها . كل هـــذا دون تنمية حقيقية . وعلى العكس من ذلك فقد نجحت دول أخرى مثل الصين وقبلها الاتحاد السوفيتى واليابان فى تحقيق أكبر قدر من التنمية دون الاعتماد على المساعدات ، بل ربما بسبب عدم الاعتماد على المساعدات (١٢١) .

٢ — أن مجموعة الشروط التى تحيط بهذه المساعدات ، عادة ما تجعلها فى خدمة الاقتصاد المانح على حساب الاقتصاد المتلقى . فمثلا من الفوائد الهـــامة التى تتوقعها الأقطـــار المانحة أن تزيد من صـــادراتها فى مقابل المساعدات ، وحسب مبادىء التجارة الحرة كان من الضرورى ان تكون الدول المتسلمة للقروض حرة فى انفاقها حسبما كان السوق ملائما لذلك . غير أن هـــذا المبدأ لا يعمل به عادة . ففى السنوات التالية للحرب العالمية الثانية مباشرة نجد أن مركز الولايات المتحدة كمصدر للتمويل (بالقروض) وأيضا كمصدر لاستيراد السلع بقدرة كاسحة قد تجاوز القدرة التى كانت تتمتع بها بريطانيا العظمى فى القرن التاسع عشر . فالأموال التى تمنح بالدولار

تنفق فى الولايات المتحدة . وأخيرا حينما نافست صناعات التصدير الخاصة بأوربا واليابان التصدير الأمريكى ، بدأت الولايات المتحدة فى استخدام القروض بالدولار لكى تشكل جوهر مساعدات وديون العالم الثالث . وقد حذت الدول الأخرى حذو الولايات المتحدة بأن تجعل المساعدات والقروض لصالح أسواقها التجارية .

ويرتبط بذلك أن تخفض الدولة المانحة القيمة الشرائية للقرض ، اذ أنه لما كان المصدرون فى البلد المانح يتمتعون بأسواق مغلقة عليهم ، فانهم عادة ما يمتلكون المقدرة على رفع أثمان السلع وتكون الدول الفقيرة عاجزة تماما عن الشكوى . وذلك لأنها اذا لم تقبل هذه المساعدة المقيدة بشروط ، فانها لن تأخذ شيئا على الاطلاق (١٢٢) (*) .

٢ — أن المساعدات التى تمنح للعالم الثالث — أيا كانت طبيعة أشكالها — وان كانت مساعدات اقتصادية فان لها طابعها السياسى الواضح

(*) فى الفترة التالية للحرب العالمية الثانية مباشرة تأسس نوع جديد من المساعدات التى تجسدت فى صادرات القمح الأمريكية حسب القانون المدنى رقم ٤٨٠ . والذى ظهر بمقتضاه نظام للبيع والأسعار يدعم المحافظة على الاعتبارات الداخلية للتجارة المتعلقة بالمحاصيل الزراعية ، وهى الاعتبارات التى قادت الى تراكم مخزون الحبوب فى الولايات المتحدة الأمريكية . وقد كان من المستحيل فى فترة الندرة الحادة للدولار فيما بعد الحرب العالمية الثانية ، وجود مشترين للحبوب عبر البحار . ومن ثم فقد ابتكرت نظاما بديعا جعل من الممكن منح الحبوب لمجتمعات العالم الثالث فى مقابل اعتبارها مبالغ مودعة فى هذه المجتمعات بعملاتها تستخدمها سلطات الولايات المتحدة للانفاق منها على شئونها فى اطار هذه المجتمعات . ومن ثم يمكن القول أن القانون المدنى رقم ٨٤٠ قد صدر فى ١٩٥٤ من أجل أن يسمح لسلطات الولايات المتحدة الأمريكية بامكانية ابرام مثل هذه الصفقات . ومن ثم تتمثل تكلفة الطعام بالنسبة للأقطار المستقبلة فى انسياب الدولار اليها ، بحيث يمكن ذلك الولايات المتحدة من انفاقه فى اطار الأقطار المعنية .

الذى نجد انعكاساته فى حقيقتين أساسيتين : الأولى ، أن الدول المتقدمة عادة ما تقدم مساعدتها الاقتصادية فى مقابل سياسى يتمثل فى أن تظل هـذه الدول فى حالة تبعية دائمة . هـذه التبعية التى تستثمرها اما كطريقة لصياغة النظام العالمى على طريقتها الخاصة . وهو ما يعنى خلق محيط عالمى يؤمنها كمركز لهذا المحيط ضد المراكز الأخرى الممكنة . أو ما يعرف بمحاولة تجسيد نموذجها فى اطار هذه المجتمعات . أما الحقيقة الثانية فتتمثل فى أن النظرة العابرة لبنـاء المجتمع الدولى المعاصر تكشف على الفور عن الارتباط المباشر بين نوعية وكثافة المسـاعدات الخارجية (بمختلف أنواعها) التى تحصل عليهـا الدول المتخلفة وطبيعة بناء القوة فى هـذه المجتمعات . كذلك تشير النظرة الخاطفة الى أن تدفق المسـاعدات الخارجية على الدول المتخلفة المتلقية يقل كلما عجزت الدول المتقدمة المانحة عن تغيير النظم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية السائدة فى الدول الأولى بما يتفق ورغبات الدول الثانية . وفى خضم هذه اللعبة نجد أن بعض الدول المتخلفة تحصل على عملات صـعبة فى مقابل أن تمنح تأييدها لمواقف سياسـية معينة (١٢٣) . وهـو ما يعنى أن المساعدات فى النهـاية ، ان لم تستهدف خلق محيط مماثل ، فهى تحافظ على بعض النطاقات — غير التابعة عن طريق امكانية التجانس والنموذج الأم — التى لم تتجانس نظمها بعد . هذا الى جانب أن هذه المساعدات الاقتصادية قد تستخدم فى ظروف قد تحاول فيها الدول المستقبلة لها ، التمرد على الدول المانحة . هنا تصبح المساعدات سلاحا تلوى به الدول المانحة ذراع الدول المتلقية كى تصوب الى الرشد من جديد . أى أن هذه المساعدات تستخدم عند الضرورة كوسيلة من وسائل الضغط أو الفرض السياسى (*) . وبالطبع تتخلق معادلة مفادها أنه كلما

(*) هذا ما حدث لنا مع الغرب ومع الشرق على حد سواء . فلقد سحب الغرب (ممثلا فى البنك الدولى وبريطانيا والولايات المتحـدة) عرضه بالمساهمة فى تمويل مشروع السد العالى فى منتصف الخمسينات حينما قدرت الولايات المتحدة وبريطانيا أن سياسة مصر الخارجيـة غير ملائمة . كذلك قطعت الولايات المتحدة مساعدتها فى منتصف الستينات لأسـباب تتعلق بالسياسة الداخلية والسياسية الخارجية لمصر ، وتبعها البنك الدولى فى ذلك بقطع المساعدات أيضا . كما أن الاتحاد السوفيتى رفض اعادة جدولة الديون المصرية عقب اختلافه مع مصر بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ (١٢٥) .

اعتمد البلد المتخلف كثيرا على هذه المساعدات ، كلما كانت قابليته للاستجابة للضغوط الخارجية المفروض عليه كبيرة ، وتصبح بالتالى امكانياته على مقاومتها ضعيفة للغاية .

ذلك يعنى أنه اذا كانت المساعدات تمنح لتشجيع التنمية والمناشط التى لدى القطر المتسلم لها والتى تلقى اهتمام القطر المانح — حسب أهدافه — فان أى اجراءات للاستقلال السياسى كالتأميم بدون تعويض أو القيود التى قد تفرض على رأس المال الخاص قد تدفعه الى الانسحاب . وبلا شك يمارس النفوذ فى هذا الاطار . وتصبح الفرص مفتوحة أمام التفسير حسب المصلحة الذاتية . وبذلك لم تعد المساعدة من الولايات المتحدة متيسرة حسب تعديل هايكنلوبر Hickenlooper بالنسبة للأقطار التى تؤمم المصالح المملوكة للولايات المتحدة . وتسود نفس الانتقائية المتطرفة للمساعدات من الاتحاد السوفيتى الى الدول المتعاطفة أيديولوجيا معه .

٤ — هذا بالاضافة الى أن المساعدات الخارجية عادة ما تساعد على تراخى التنمية الاجتماعية والاقتصادية . أو اصابتها بسوء التوجه أو التوجيه . فمثلا نجد أن حصول كثير من بلاد العالم الثالث على المساعدات الخارجية المتمثلة مثلا فى مساعدات الحبوب ، يدفع السلطات المسيطرة فى الأقطار المستقبلة الى تأخير اعادة التنظيم والتحديث السياسى والاقتصادى للقطاع الزراعى ، وهو الأمر الضرورى لتأسيس حالة من الاكتفاء الذاتى . مما يطرح للمناقشة امكانية أن تصبح هذه المساعدات ضارة أكثر من اعتبارها مفيدة بالنسبة للأقطار المستقبلة على المدى الطويل (١٢٦) . ويتمثل التأثير الضار الآخر الذى يصيب تنمية العالم الثالث من جراء هذه السياسات فى أن بلاد العالم الثالث تحاول اعادة تخطيط اقتصادها بما يتوافق مع المساعدات التى تتلقاها من العالم الخارجى . فمثلا قد تتراجع هذه المجتمعات عن انتاج سلع أساسية كالحبوب — باعتبارها من المحاصيل التقليدية — التى يمكن شراؤها بأسعار رخيصة من السوق العالمى ، أو باعتبار الاعتماد على المساعدات فى الحصول عليها ، والاتجاه الى محاصيل تحتاجها السوق العالمى . وفى هذا الاطار فاننا نجدها تقع فى خطأين ، الأول يتمثل فى قصورها

عن تطوير تكنيكات لزراعة المحاصيل المعيشية كالحبوب وهى المحاصيل التى تساعد على الاستقلال بدلا من التبعية فى هذا الصدد للنظام العالمى . والثانى يتحدد فى الاتجاه الى زراعة محاصيل هامشية بالنسبة للنظام العالمى — كالزهور — وغير صالحة لسد احتياجاتها الى الغذاء ، هذا الى جانب أن كلتا الحالتين تجعلها تابعة للنظام العالمى ، اما للحصول على الغذاء ، أو لبيع سلع الرفاهية فى السوق العالمى (*) .

٥ — بالاضافة الى ذلك تساعد المساعدات من العالم الخارجى على نشر مناخ الفساد فى مجتمعات العالم الثالث . وسواء كانت هذه المساعدات فى شكل تسهيلات تجارية أو فى شكل قروض لشراء سلع من البلد المانح أو مساعدات ، فانها عادة ما ترتبط بظواهر كثيرة مثل العمولات التى قد تعطى لبعض المسئولين (**) . أو الاتفاق على صفقات — يكون أحد أطرافها العملاء المحليون — قد لا تكون ملائمة أو صالحة للاستهلاك المحلى

(*) من المشكلات التى بدأت تواجهها الزراعة المصرية على سبيل المثال فى الفترة الأخيرة ، اتجاه كثير من المساحات الزراعية لزراعة الزهور والفاكهة والمحاصيل النقدية (كالبطاطس وفول الصويا) لحساب النظام العالمى ، باعتبارها محاصيل تباع بأسعار مرتفعة وتجلب العملة الصعبة . غير أن ذلك كان على حساب تطوير محاصيل القمح والذرة ، حيث يعتمد عليهـا الشعب — بقطاعيه الريفى والحضرى — فى الغذاء مما أدى الى الاعتماد على النظام العالمى فى استيراد هـذه الحبوب ، اما عن طريق الشراء الفورى أو القروض أو المساعدات . وهـذا يعنى أن تكون مصر فى حاجة الى النظام العالمى ، اما للحصـول على غذائها أو لبيع سلع لا تستطيع هى استهلاكها (الزهور والمحاصيل النقدية) وهى أوضاع بدأت تلقى قدرا من الاهتمام واعادة التخطيط من قبل المسئولين بمحاولة تطوير زراعة المحاصيل التقليدية رأسيا أو أفقيا .

(**) من الواضح أن مسألة الفساد المرتبط بالمساعدات أصبحت الآن قضية شبه مسلم بها . ذلك أننا نجد أن هـذه المساعدات ارتبطت فى كثير من بلاد العالم الثالث بتفجير قضايا مثل قضايا نقـل المعلومات عن المجتمع المانح لها ، ويعتبر ذلك افسادا لفئة المثقفين فى هذه المجتمعات ، باعتبارهم =

مما يعد فى أحيان كثيرة خيانة للضمير الوطنى ، أو خلق مناخ عام لامكانية الثراء باتباع سلوك انتهازى عام ، وهى قضايا يؤكد وجودها الفكر النظرى ، حيث تسود ادعاءات حول الفاقد من الانفاق على المشروعات ومدى اتصاله بالفساد بصورة عامة . قد يكون السبب فى ذلك أن الجهاز الادارى الذى يتسلم هـذه المساعدات على درجة منخفضة من الكفاءة . ومن ثم تتجه بعض المساعدات عن قصد نحـو الرفاهية بدلا من زيادة الانتاج ، أو عن غير قصد وانخفاض الكفاءة حينما تتساقط بعض هـذه المساعدات فى يد الأفاقين والانتهازيين .

٦ ـ تفرض المساعدات من الخارج مزيدا من التردى بالنسبة لبناءات المجتمعات المتخلفة ، وذلك حينما لا تستطيع البناءات المتخلفة استيعاب الانتاج العقلى لأبنائها ، ومن ثم تشكل سياقات معوقة أو غير ملائمة بالنسبة لهم . أو أن أبناءها أنفسهم أصبحوا مغتربين ، ومرتبطين بالخارج القادر على استيعاب انتاجهم العقلى ومكافأتهم عليه ، بل ان هـذا الغرب قـد يسلك سلوكا تآمريا حينما يكون قد تولى تربيتهم من خلال مناهجه ، ومن ثم فقد نجح فى فصلهم عن ذاتهم الحضارية ، وربطهم به . وفى هذا الصدد نجد أن هجرة العقول قد طرحت نفسها من خلال نمو السوق العالمى للمهن ، كالمهن العلمية والهندسية . بالاضافة الى أن الدول المتقدمة بدأت تعدل من تشريعاتها بحيث تسمح بدخول المتخصصين الى الأقطار الغنية بسـهولة

= الفئة التى تتولى انجاز هذه المهام . تأكيد ذلك النشاط المرتب الذى تمارسه مؤسسة A. I. D. الأمريكية فى مجتمعات العالم الثالث . هـذا بالاضافة الى الأخبار التى نقرأها فى الصحف عن تلقى بعض المسـئولين للعمولات أو محاولتهم تقنين الرشوة والبقشيش باعتبارها اكراميات . أو ذكر أسماء كثير من مسئول العالم الثالث فى قضايا تتعلق بالتجارة والاستيراد والتصدير واستفادتهم من ذلك . أو ممارسة أقارب بعض مسـئولى العالم الثالث لنشاطات اقتصادية مريبة . أو تعاقد بعض التجار على صفقات فاسدة . وبالطبع تعمل ظواهر الفساد هذه على اشاعة فساد أكثر على المستويات الدنيا ، مما يخلق مناخا عاما من الفساد فى اطار مجتمعات العالم الثالث ، وهى ممارسات فاسدة لا نجد نظيرا لها فى المجتمعات المتقدمة .

أكثر وتستبعد فى نفس الوقت العمالة غير الماهرة . وهو ما يعنى أن ما تحتاجهم التنمية المحلية وتدريبهم — مستنزفة مواردها فى هذا الصدد — يهاجرون منها . ومن المحتمل أن تتزايد هذه الظاهرة ، خاصة اذا كان التعليم الذى يتلقونه أصبح ملائما بدرجة أكثر لتخريج العلماء والمهندسين القادرين على مواجهة المشكلات القائمة فى البلاد المتقدمة . وعادة ما نجد الحكومات الوطنية — التى تحاول رفع أجور المهنيين لايقاف هجرتهم — نفسها عاجزة عن مواجهة الضغوط من الفئات الأخرى من أجل أجور أعلى ، وبخاصة فئة الادارة وأصحاب الرواتب . ومن ثم فقد تساعد هذه المطالب — اذا تمت الاستجابة لها — على التأثير على توزيع الدخل ، بدفعه الى مستويات أقل (١٢٧) .

٧ — وهناك ظواهر أخرى كثيرة ترتبط بتأثير المساعدات على التنمية الداخلية لهذه المجتمعات • من هذه الظواهر مجموعة الظواهر المرتبطة بسوء توزيع الدخل — التى أشرنا اليها سابقا — وانخفاض الاستهلاك . فمثلا نتيجة لسوء توزيع الدخل لغير صالح الاغلبية فان أقلية هى التى تستأثر به . (اذ نجد فى أمريكا اللاتينية أن ٥٠٪ من السكان الذين لا يتلقون سوى ١٢٪ من الدخل القومى لا يستطيعون شراء المنتجات الاستهلاكية الدائمة ، ولا يستثمر ٤٥٪ من المستفيدين من الدخل الا ٣٪ من دخلهم فى هذه المواد . اذا فكل انتاج مصانع السيارات الكبرى والثلاجات الخ — التى يملك الأجانب معظمها — ليست مخصصة الا لنحو ٥٪ من سكان أمريكا اللاتينية) (١٢٨) .

ويرتبط انخفاض الادخار بانخفاض الدخل . حيث يسير الادخار فى حلقة مفرغة أو تخلف يتخذ شكلا حلزونيا . فمع أن مدخرات القطاع الأعلى (الشرائح العليا) عالية بشكل يجعل امتصاصها غير ممكن كما رأينا ، فاننا نجدها تحث — فى الوقت نفسه — على استهلاك المنتجات الثابتة والكماليات وامتلاك الشقق الفاخرة والقيام بالرحلات الى الخارج . ببساطة شديدة الاتجاه الى التبديد الترفى لهذه المدخرات ، على المستوى الفردى . وعلى المجتمع — ككيان كلى — أن يتجه الى الخارج

طلبا للمساعدات من جديد ، والدائرة مفرغة تدور بصورة جنونية لكل ما هو فى غير صالح العالم الثالث .

وتعتبر البطالة من الظواهر التى تظهر على السطح كنتيجة لهـــذه التفاعلات . والدلالة على ذلك هو أن التقـــديرات تذهب الى أن ربـــع السكان الفعاليين — أى ما يعادل ٢٥ مليون شـــخص — محـــرومين من العمل . هـــذا الى جانب أن مشكلة البطالة على ما يذهب جوندر فرانك سوف تتفاقم فى العشر سنوات المقبلة (١٢٩) . بحيث تفرز مجموعة الظواهر هـــذه مجتمعا غير مستقر ، يسوده التوتر يطور نفسه نحو التخلف ، من خـــلال تنمية تابعة للعالم الخارجى ، نتيجة لاعتمادها على النظام العالمى بأى من أشـــكال الاعتماد .

وتأتى المرحلة الرابعة والأخيرة ، وهى المرحلة التى يستشرف العالم الثالث آفاقها . وهى المرحلة التى نسميها بمرحلة الانفصال أو العزل ، حيث العزلة مفروضـــة على العالم الثالث من الخارج أساسا . ومن المؤكد أن هناك عوامل كثيرة تدفع الى تخلق ملامح هذه المرحلة .

١ — من هذه العوامل حالة التضخم التى يعانيها النظام العالمى والتى سوف نجد انعكاسا لهـــا فى انخفاض ميزانيات المساعدات التى قد تمنحها الدول المتقدمة الى الدول الفقيرة أو المتخلفة . هـــذا الى جانب محاولة المجموعة الأولى الاستفادة من مؤسسات التمويل العالمية — كالبنك الدولى — وهى مؤسسات كان يجب أن تقتصر الاستفادة منها على العالم الثالث .

٢ — تزايد مساحة خريطة الفقراء فى اطار النظام العالمى . فبسبب الزيادة الســـكانية ، وتلكؤ معدلات التنمية — لبعض الأسباب التى أشرنا اليها — سوف تسقط الدول التى كانت على حافة الخروج من العالم الثالث الى أعماقه من جديد ، ونتيجة لذلك ســـوف يتخلق نظام عالمى يوجد فيه عالمان يعيشان فى اطار ملامح متناقضة للغاية .

فمثلا ســـوف تتجه الهوة بين دخول العالم الثالث والعالم الأول الى الاتساع والزيادة . وذلك أن هوة الدخول بين العالم الثالث والدول المتقدمة تخضع لتغيرات حاسمة . وبرغم المعطيات التى قد لا تتيسر لنا الآن فاننا

ســوف نستشهد بالفجوة بين العالمين فيما يتعلق بالدخــول بين فترتين ١٩٥٠/١٩٦٠ ، ١٩٦٠/١٩٧٠ وهى حسبما يوضح الجدول التالى (١٢٠) :

العالم المتقدم والعالم الثالث
جدول رقم (٨) يوضح تزايد فجــوة الدخول بين

الفترة الزمنيــة	الزيادة السنوية	متوسط النسبة المئوية
البيـــان	**١٩٥٠/١٩٦٠**	**١٩٦٠/١٩٦٧**
اجمالى الدخـــل :		
العالم المتقدم (الدول الغنية)	ـــر٤	٨ر٤
العالم الثالث (الدول الفقيرة)	٦ر٤	٠ر٥
متوسط الدخل الفردى :		
الدول الغنيـــة	٨ر٢	٦ر٣
الدول الفقـــيرة	٣ر٢	٥ر٢

وهو ما يعنى أنه وان تزايد متوسط اجمالى الدخل القومى فى العالم الثالث من ٦ر٤ الى ـــر٥ أى بزيادة ٤ر فاننا نجد أن العالم المتقدم يرتفع معدل الزيادة فيه بين ١٩٥٠ / ١٩٦٠ ، ١٩٦٠ / ١٩٦٧ من ٤ الى ٨ر٤ أى بزيادة ٨ر. وهو معدل يفوق زيادة العالم الثالث ، هذا الى جانب أن متوســط الزيادة فى العالم المتقدم تحدث فى اقتصاد دخل مرحلة الرفاهية فعلا ، فى حين أن زيادة العالم الثالث فى اطار اقتصــاد يعجز عن اشباع الحاجات الأساسية . هذا الى جانب أن نسبة الزيادة فى اجمالى الاقتصاديات الضخمة تتجاوز بالتأكيد نسبة الزيادة فى الاقتصاديات الصغيرة .

بيد أن الملاحظة الثانية التى تستوقفنا فى هذا الصدد أنه فى حين تتجاوز الزيادة فى اجمالى دخل العالم الثالث متوسط اجمالى الزيادة فى دخول الدول المتقدمة ، فاننا نجد أن ذلك لم ينعكس على الدخول الفردية ، ففى حين ارتفع متوسط الدخل فى الدول الغنية من ٨ر٢٪ عام ١٩٥٠ / ١٩٦٠ الى ٦ر٣٪ عام ١٩٦٠ / ١٩٦٧ — أى بزيادة قدرها ٨ر — نجد أن متوســط

الدخل الفردى فى العالم الثالث ارتفع من ٣ر٢٪ عام ١٩٥٠ / ١٩٦٠ الى ٥ر٢٪ عام ١٩٦٠ / ١٩٦٧ بزيادة قدرها ٢ر٪ فقط . وهو ما يعنى أن توزيع الدخول فى العالم المتقدم عادة ما يعكس مبدأ العدالة الاجتماعية ، المبدأ الذى أصبحت لا تطأه الاقدام فى العالم الثالث .

٣ — ويرتبط بذلك أن عزلة العالم الثالث أصبحت تتأكد من خــلال مؤشرات عالمية عديدة أولها أن العالم الثالث أصبح لا يقوم بتبادل تجارى حقيقى ، فهو عالم يتلقى من اقتصاديات النظام العالمى دون أن يقدم المقابل المتكافىء فى عملية التبادل ، يؤكد ذلك أن ديون العالم الثالث آخذة فى التزايد . ويعنى الدين — بطبيعة الحال — العجز عن التبادل المتكافىء ، وذلك حسبما يوضح الجدول التالى الذى يبرز مشكلة الديون فى العالم الثالث بالمليون دولار بين سنوات ١٩٦٧ — ١٩٧٣

جدول رقم (٩) يوضح ديون العالم الثالث

بالمليون دولار بين ١٩٦٧ — ١٩٧٣

الــدولة المدينــة	١٩٦٧	١٩٧٠	١٩٧٣
مجموع ديون العالم الثالث	٥٠ر٧٤٧	٩ر٧٣٩	١١٨ر٨٩٣
يحصى منها :			
الهنــــد	٧ر٦٩٥	٩ر٤٧٤	١٢ر٣٦٣
البرازيــــل	٣ر٤٣٤	٤ر٨٦٢	٩ر٢٩٧
ايــــران	١ر٨٣٠	٤ر١٣٠	٧ر٠٤٧
المكســيك	٢ر٦٧٥	٣ر٨٠٣	٧ر٠٣١
أندونيســيا	٢ر٣٠٢	٣ر٥٢٧	٦ر٦١٦
باكســتان	٢ر٩٠٧	٤ر٥٣٦	٥ر١٥١
الجــزائر	١ر٤٠٢	١ر٨٩٦	٤ر٧٨٩
كوريــــا	٤ر٠٢٢	٦ر٢٢٧	١١ر٠٠٢
تركيــــا	٤ر٠٢٢	٦ر٢٢٧	١١ر٠٠٢

وتكشف قراءة الجدول الســابق عن احساس مؤلم وحزين للحالة الاقتصادية التى بلغها العالم الثالث . ففى حين كانت جملة ديونه ٥١ مليون دولار تقريبا فى ١٩٦٧ أصبحت فى عام ١٩٧٣ ، أى بعد ســبع سنوات فقط ، نحو ١١٩ بليون أى ما يزيد على الضعف . ويتعمق هــذا الاحساس

اذا أدركنا أن هـــذه الدول ــ الواردة فى الجدول الســـابق على ســـبيل الاستشهاد ــ تمثل القطاع المتماسك نسبيا من الناحية الاقتصادية فى اطار العالم الثالث . فتركيا يدعمها حلف الأطلنطى ، والهند تقف على المقدمة الاقتصادية والسياسية للعالم الثالث ، ويدعى أن البرازيل قاربت الانطلاق من ســـجن العالم الثالث ، وايران والمكسيك وأندرنيســـيا والجزائر دولا بترولية ، كان من المفترض أن تشارك من منطق القوة فى النظام العالمى . غير أن السؤال الذى ينبغى أن نطرحه فى هذا الاطار ، الى متى سوف يصير تراكم الديون ؟ اذا ســـمحت اســـتهلاكات العالم الثالث ، فهل ستسمح اقتصاديات وخزائن العالم المتقدم - سؤال نطرحه ونحاول به استكشاف آفاق مستقبل الأحداث .

٤ ــ يرتبط بذلك أن التجارة ــ كنظام للتبادل العالمى ــ بدأت تعكس هى الاخرى العزلة التى قد يقبل عليهـــا العالم الثالث ، أو لنقل التى قـــد تفرض عليه . فالتجارة العالمية تخلت أخيرا عن حركتها العشـــوائية فى التبادل وبدأت تقتصر على الدول التى لديها امكانية حقيقية للدخول فى عملية التبادل التجارى . تؤكد ذلك بيانات الجدول التالى ، الذى يبرز اتجاهات التجـــارة بـــين الدول الغنية والفقيرة فى الفترة بـــين ١٩٥٣ ــ ١٩٦٩ بالبليون دولار .

جدول رقم (١٠) يوضح حجم التبادل التجارى بين الدول الغنية والفقيرة بين ١٩٥٣ ــ ١٩٦٥

المجمـــوع	١٩٥٣ حجم التبادل	٪	١٩٦٩ حجم التبادل	٪	نسبة التبادل فى ١٩٦٩ الى ١٩٥٣ كسنة أســـاس
بين دول غنية ودول غنية أخرى	٢٩	٤٦٪	١٣٨	٦٣٪	٤٧٥٪
بين الدول الفقيرة والفقيرة	١٤	٢٢٪	٣٦	١٦ر٤٪	٢٥٧٪
من الدول الفقيرة الى الغنية	١٥	٢٤٪	٣٥	١٦٪	٢٣٣٪
من الدول الغنية الى الفقيرة	٥	٨ ٪	١٠	٤ر٥٪	٢٠٠٪
أطراف التبـــادل	**٦٣**	**١٠٠٪**	**٢٣٩**	**١٠٠**	**٣٤٧٪**

ومعطيات هـــذا الجدول ليست فى حاجة الى تعليق . اذ تكشف قراءة الجدول عن الملاحظات الأساسية التالية :

(أ) ففى حين كان حجم التجارة — التى يعتبر العالم الثالث طرفا فيها — قد وصل الى نحو ٤٦٪ فى النظام التجارى العالمى عام ١٩٥٣ فى مقابل مشاركة الدول الغنية بنحو ٦٨٪ من حجم التجارة العالمية ، نجد أن مشـــاركة العالم الثالث قد انخفضت فى ١٩٦٩ حتى وصلت الى نحو ٣٦ر٩٪ فى حين بلغت مشـــاركة الأغنياء فى النظام التجارى العالمى بنحو ٩٧ر٤٪ . وهو ما يعنى التراجع التدريجى عن المشـــاركة الايجابية فى النظام العالمى .

(ب) انخفاض حجم التجـــارة بين دول العالم الثالث (الدول الفقيرة) من ناحية وبين العالم المتقدم (الدول الغنية) من ناحية أخرى ، ففى حين بلغ حجم التبادل التجارى فى ١٩٥٣ نحو ١٣ر٨٪ ، من حجم التبادلات التى وقعت فى اطار النظام العالمى ، نجدها قد انخفضت فى ١٩٦٩ الى نحو ٣٢ر٤٪ أى بانخفاض قدره ١٣ر٤٪ ، وهو ما يعنى تضاؤل فرص التبادل التجارى بين الأغنياء والفقراء لأسباب أشرنا اليها آنفا .

(جـ) ارتفـــاع التبادل التجـــارى بين الأغنياء وبعضـــهم البعض فى مقابل انخفاض التبادل التجارى بين الفقراء وبعضـــهم البعض . فما يتعلق بحجم التجارة بين الدول الغنية نجده قد ارتفع من ٤٦٪ من حجم التبادل التجارى العالمى فى عام ١٩٥٣ الى ٦٣٪ عام ١٩٦٩ ، نجد أنه فى مقابل ذلك أن التبادل التجارى بين الدول الفقيرة قد انخفض من ٨٪ عام ١٩٥٣ الى نحو ٤ر٥٪ عام ١٩٦٩ . وهو ما يعنى أن هناك اتجاها لتكتل الأغنياء فى مواجهة تبعثر الفقراء ، وأيضا أن هناك اتجاها للمشاركة الايجابية الأكبر من قبل الأغنياء فى التجارة العالمية فى مواجهة الانسحاب السلبى للفقراء أو لدول العالم الثالث دائرة التجارة العالمية .

والنتيجة المطروحة أمامنا ، أننا فى مواجهة نظام عالمى يفتقد كل حالات الاســـتقرار ، عالما يعيش حالة تحولات سريعة قد تفضى به الى احـــدى احتمالات ثلاث :

فاما أن يستعيد النظام العالمى وحدته وتفاعلاته المتآزرة من خــلال دعوة المنسحبين الى المشاركة الايجابية ، وتقدم الأغنياء للمساعدة الصادقة والجادة فى تطوير عالمهم الثالث ، ومن ثم التحرك نحــو خلق نظام عالمى عادل للجميع ، تسوده تفاعلات محكومة بمبادىء الحرية والمساواة والعدل ، سواء فيما يتعلق بالجوانب السياســية أو الاقتصــادية أو الاجتماعية ، يعنى ذلك أيضا أن تتقدم الدول الغنية للمشاركة فى تطوير الحاضر لخلق المستقبل ، مثلما كانت المشاركة فى الماضى عن طريق السلب والنهب . وقد تحدث هــذه المشاركة الخيرة من خــلال القروض الميسرة ، أو عن طريق المساعدة فى خلق التكنولوجيا الملائمة ، أو عن طريق التقدم الأعمال معرفة الأثرياء فى انتشــال الفقراء من فقرهم ، ذلك يعنى أن تعمل مســاعدات العالم المتقدم بمنطق مساعدة مريض ينبغى أن يسترد العافية . ذلك يعنى أن المتقدمين عليهم أن يتكيفوا وعالم المتخلفين . بيد أننا نتساءل : هل الحل يعتبر من وجهة نظرنا حلما ، وان كان أخلاقيا ومشرفا غير أنه — بتوقــع كبير — سوف ينهار أمام أنانية الأغنياء .

الحالة الثانية أن يواصل الأغنياء تقدمهم الأنانى وأن يواصل المتخلفون تخلفهم أيضا . غير أننا سوف نجد أنفسنا فى النهاية فى مواجهة نظام هش يسوده تناقض مدهش وغريب . حيث فيه يتآكل المترفون من رفاهية الترف . يفتقرون — فى اطاره — أبعادا انسانية كثيرة ، كالايثارية والعمل والبذل والعطاء ، وحيث أن فيه فى المقابل عالما فقيرا ينهار ، تسوده البطالة والجوع والمرض وامراض ســوء التغذية ، ويهجره أبناؤه الذين تعلموا أو الذين امتلكوا أى فرصة للحياة ، حينما امتلكوا بابا للخروج ، حالة تشبه الهروب من الأرض الخراب . أليس هــذا تناقضا ؟ ، وأليس هــذا جدلا تحكمه قوانين حديدية تعلو على ارادة الانسان ؟ اذا كان الأمر كذلك ، فالجدل حتما له نهاية .

وفى الحالة الثالثة قد يستثير ترف الأغنياء مشاعر الفقراء واحتياجاتهم . بل قد تدفعهم الحاجة غير المشبعة الى مستويات متدنية لممارسة الحياة الى مشاعر التمرد والغيظ . وفى لحظة ما ، قد تقف الأغلبية العالمية الفقيرة مستندة ظهورها الى حائط الموت جوعا . بحيث يترابط ذلك والمشاعر التى

تغلف النظرة الى أن سادة النظام العالمى الحالى ليســوا سوى لصوص الأمس . وتحت وطأة مشاعر الجوع والمرض والتخلف والوقوف على حافة الموت قد ينفجر البركان ، قد يندفع الفقراء الى البحث عن مكان تحت الشمس ، وقد يتخذ ذلك شكل ثورة عالمية ، قد يتخذ ذلك شكل حرب عالمية أو حركة عالمية للجماهير من المحيطات الى المراكز ، غير أنه من المؤكد أن هــذا العالم الفقير سوف يرفع صياغات جديدة لشعارات قديمة ، فبدلا من شعار ماركس : « يا عمال العالم اتحدوا ... » قد تظهر صياغة جديدة تؤكد « يا فقراء العالم اتحدوا وحطموا كل ما حولكم ، فليس ما حولكم سوى القيود والاغلال ، حطموا عالما بأسره لتكسبوا عالما بأسره » .



المراجـــع

(١) Turner, J. B (ed) : Neigbhoerhood organization for community Action. (New York, 1968,) pp. 194 - 195.

(٢) Seers, Duddley and Leonard Joy : Development in a devided world : (edited) (Pelican Books, 1971,) p. 69.

(٣) Nisbet, Robert: The social philosophers, community and Conflict in western thought - Heinmann - London. 1974. p. 430

(٤) Duddley sceers and others : op. cit., p. 42.

(٥) على ليلة : ملامح السياسة الاجتماعية فى اطار التجربة الناصرية للتنمية (مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، ندوة علمية فى ١٧ ، ١٨ ديسمبر ١٩٨٠) ص ١٠ .

(٦) السيد الحسينى : علم الاجتماع السياسى : المفاهيم والقضايا ، (١٩٨٠ الطبعة الأولى ، دار الكتاب للتوزيع) ص ٨٥ .

(٧) محبوب الحق : ستار الفقر ، خيارات أمام العالم الثالث ترجمة أحمد فؤاد بلبع (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٧ الطبعة الأولى) ص ١٣٢ .

(٨) المرجع السابق : ص ١٤٣ .

(٩) عمرو محى الدين : اشتراكية الدولة والنمو الاقتصادى مجلة الفكر العربى ٤ — ٥ . صص ٤٠ — ٦٦ .

(١٠) المرجع السابق : ص ٥٩ .

(١١) المرجع السابق : ص ٦٣ .

(١٢) ج . هالكرو فرجسون : ثورات أمريكا اللاتينية ، سلسلة الفكر السياسى والاشتراكى . ترجمة عبد الرؤوف عز الدين (الدار المصرى للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦) صص ٧١ — ٧٢ .

(١٣) عمرو محى الدين : مرجع سابق . ص ٥٦ .

(١٤) على الدين هلال . الفكر العربى ٤ — ٥ . ص ١٩ .

(١٥) اسماعيل صبرى عبد الله : نحو نظام اقتصـــادى عالمى جديد ، دراســـة فى قضايا التنمية والتحرر الاقتصـــادى والعلاقات الدوليـــة ، (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٦) . ص ١٥٩ .

(١٦) نبيل عبد الفتاح : الانفتاح كنموذج للتنمية فى فكر النخبة المصرية الحاكمة ، رؤية أولية : غير منشورة (مركز الدراسات السياســـــية والاستراتيجية . ١٧ ، ١٨ ديسمبر ١٩٨٠) ، ص ٢٤ .

(١٧) المرجع السابق ص ٢٤ .

(١٨) اسماعيل صبرى عبد الله ، مرجع سابق . ص ٨٠ .

(١٩) المرجع السابق . ص ١٥٨ .

(٢٠) نبيل عبد الفتاح : مرجع سابق . ص ٢٥ .

(٢١) اسماعيل صبرى عبد الله : مرجع سابق . ص ١٧٤ .

(٢٢) خيرى عزيز : المفهوم الماركسى للتنمية فى مصر (القسم النظرى) ضمن بحوث ندوة علمية . عن مفاهيم التنمية فى مصر . تحليل للأيديولوجيا وتقييم للسياسات ، (مركز الدراسات السياسة والاستراتيجية . ١٧ ، ١٨ ديسمبر ١٩٨٠) . مؤسسة الاهرام ص ١٣ .

(٢٣) المرجع السابق : ص ١٧ .

(٢٤) سعد الدين ابراهيم : النظام العربى الجديد ، مركز دراسات الوحدة العربية . ص ٢٤٠ .

(٢٥) Shils, E.A. : (The Military in Political development in New states) in, Huntington,s. (ed) The Roleof Military in underdeuelop ment Corutries (Princeron university press. Princeton. 1962) pp. 39 - 40.

(٢٦) على الدين هلال : مرجع سابق . ص ١٩ .

(٢٧) المرجع السابق . ص ٢٧ .

(٢٨) المرجع السابق . صص٣٤ — ٣٥ .

(٢٩) هالكرو فرجسون : مرجع سابق . صص ٢١٤ — ٢١٦ .

(٣٠) تيريزا هايبتر : امبريالية المساعدات (دار بن رشد ، ١٩٧٩). صص ١١٣ — ١١٥ .

(٣١) عمرو محى الدين : مرجع سابق . ص ٥٨ .

(٣٢) محبوب الحق : مرجع سابق . ص ٧٠ .

(٣٣) على ليله : الآثار الاجتماعية للاصلاح الزراعى ، دراسة ميدانية ضمن برنامج القانون والتغير الاجتماعى : اشراف الأستاذ السيد يس . (المركز القومى للبحوث الاجتمعية والجنائية . ١٩٨٠) . ص ٤٣ ،

(٣٤) عمر محى الدين : مرجع سابق . ص ٦٢ .

(٣٥) ابراهيم نوار : مرجع سابق . ص ١٢ .

(٣٦) محبوب الحق : مرجع سابق . ص ٤٧ .

(٣٧) Kuznents, S. : Quantitative Aspects of Economic Growth of Nations, Distribution of income by size'. Economic Development and cultural change. (Vol XI No. 2. Part II January. 1963.) p. 183.

(٣٨) جوندر فرانك : مرجع سابق . ص ٥٧ .

(٣٩) محبوب الحق : مرجع سابق . ص ٣٠ .

(٤٠) أندريه جوندر فرانك : مرجع سابق . ص ١٤٦ .

(٤١) خيرى عزيز : مرجع سابق . ص ٢٢ .

(٤٢) سعد الدين ابراهيم : مرجع سابق ، ص ٢٢٨ .

(٤٣) نفس المرجع : صص ٢٢٨ — ٢٣٩ .

(٤٤) خيرى عزيز : مرجع سابق . ص ٢٨ .

(٤٥) المرجع السابق ، ص ٣١ .

(٤٦) المرجع السابق ، ص ٣١ .

(٤٧) المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(٤٨) المرجع السابق ، ص ٧ .

(٤٩) اسماعيل صبري عبد الله ، مرجع سابق . صص ١٧٥ ، ١٨٠ — ١٨١ .

(٥٠) خيري عزيز ، مرجع سابق . ص ٢٨ .

(٥١) محبوب الحق ، مرجع سابق . ص ٣١ .

(٥٢) هاكور فرجسون ، مرجع سابق . صص ١٩٧ — ١٩٨ .

(٥٣) تيريزا هاييتر ، مرجع سابق ، صص ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ٢١٤ — ٢١٦ .

(٥٤) أندريه جوندر فرانك ، مرجع سابق . ص ١١٩ .

(٥٥) نفس المرجع ، ص ١٢١ .

(٥٦) اسماعيل صبرى عبد الله ، ص ١٦٩ .

(٥٧) نفس المرجع السابق ، ص ١٦٨ .

(٥٨) جودة عبد الخالق ، الانفتاح (تحرير) ، الجذور ، الحصاد ، المستقبل ١٩٨٢ . ص ٢٢٨ .

(٥٩) نفس المرجع ، ص ٣٣١ .

(٦٠) نفس المرجع ، ص ٣٣٢ .

(٦١) نفس المرجع ، ص ٣٣٣ .

(٦٢) نفس المرجع ، ص ٣٣٣ .

(٦٣) Duddley Sears and other : Op . Cit., p. 32.

(٦٤) أندريه جوندر فرانك ، نفس المرجع السابق . ص ١٣٧ .

(٦٥) المرجع السابق ، ص ١٤٨ .

(٦٦) محبوب الحق ، مرجع سابق ، ص ٣٠ .

(٦٧) اسماعيل صبرى عبد الله ، مرجع سابق . ص ١٧٠ .

(٦٨) المرجع السابق ، ص ١٧٨ .

(٦٩) خيرى عزيز ، مرجع سابق ، ص ٢٣ .

(٧٠) المرجع السابق ، ص ٢٣ .

(٧١) اسماعيل صبرى عبد الله ، مرجع سابق ، ص ١٦٠ .

(٧٢) محمد الجوهرى وآخرون ، الاقتصاد والمجتمع فى العالم الثالث ، (دار المعارف ، ١٩٨٢) ص ٢٨٥ .

(٧٣) محبوب الحق ، مرجع سابق ، ص ١٨٥ .

(٧٤) محمد الجوهرى وآخرون ، المرجع السابق ، ص ٢٨٥ .

(٧٥) محبوب الحق ، مرجع سابق . ص ١٦٤ .

(٧٦) Duddley Sears and other , p. 29.

(٧٧) محبوب الحق ، مرجع سابق . ص ١٦٦ .

(٧٨) نفس المرجع ، ص ١٦٧ .

(٧٩) اسماعيل صبرى عبد الله ، مرجع سابق ، ص ١٣٩ .

(٨٠) محبوب الحق ، مرجع سابق . ص ١٦٩ .

(٨١) السيد الحسينى ، التنمية والتخلف ، دارسة تاريخية بنائية . دار المعارف الطبعة الثانية . ١٩٨٢ . ص ١٢٨ .

(٨٢) Duddley Sears and other , pp. Cit., p. 17.

(٨٣) عمرو محى الدين . مرجع سابق ، ص ٥٩ .

(٨٤) Duddley seers and others : Op. Cit., p. 24.

(٨٥) Ibid. p. 24.

Ibid., p. 25.

(٨٧) جوده عبد الخالق (محرر) ، مرجع سابق ، صص ٢١١ ، ٢٢٧ .

(٨٨) Robinson , John : Aspects of development and underdevelopmen, (Cambridge university press, 1979) p. 86.

(٨٩) Ibid. p. 93.

(٩٠) Ibid., p. 101.

(٩١) محمد الجوهرى وآخرون ، مرجع سابق .

(٩٢) المرجع السابق ، ص ٢٨٧ .

(٩٣) المرجع السابق ، ص ٢٩١ .

(٩٤) المرجع السابق ، ص ٢٩١ .

(٩٥) John Robinson : Op. Cit., pp. 100 - 101.

(٩٦) محمد الجوهرى وآخرون ، المرجع السابق ص ٢٩٤ .

(٩٧) المرجع السابق ، ص ٢٩٦ .

(٩٨) John Robinson : op. Cit., pp. 86.

(٩٩) سعد الدين ابراهيم ، مرجع سابق ، ص ٢٥٨ .

(١٠٠) المرجع السابق ، ص ٢٥٩ .

(١٠١) أندريه جوندر فرانك ، مرجع سابق ، ص ١٢٨ .

(١٠٢) المرجع السابق ، ص ١٣٧ .

(١٠٣) المرجع السابق ، ص ١٣٩ .

(١٠٤) المرجع السابق ، ص ١٢١ .

(١٠٥) المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

(١٠٦) المرجع السابق ، ص ١٤١ .

(١٠٧) محمد الجوهرى وآخرون ، المرجع السابق ، ص ٢٨٩ .

(١٠٨) John Robinson, Op. Cit, p. 121.

(١٠٩) محمد الجوهرى وآخرون ، المرجع السابق .

(١١٠) نفس المرجع ، ص ٢٩٠ .

(١١١) السيد الحسينى ، مرجع سابق ، ص ٢٠٠ .

(١١٢) محمد الجوهرى وآخرون ، المرجع السابق ، ص ٢٨٨ .

(١١٣) اسماعيل صبرى عبد الله ، مرجع سابق ، ص ١٦٩ .

(١١٤) John Robinson, Op. Cit, p. 121.

(١١٥) Ibid., p. 121.

(١١٦) Ibid., p. 121.

(١١٧) Ibid, p. 123.

(١١٨) Sivard, Ruth . L . : World Military and Social expenditure, 1976, p. 211.

(١١٩) John Robinson : Op. Cit., p. 89.

(١٢٠) محمد الجوهرى واخرون ، المرجع السابق ، ص ٢٨٩ .

(١٢١) جوده عبد الخالق ، مرجع سابق ، ص ص ٢٤٠ — ٢٤١ .

(١٢٢) Eshag:The Cost of Aid Tying to Recipient Countries, ProgressReport by U.N.C.T.A.D. 8 Septemper, p. 32.

(١٢٣) السيد الحسينى ، مرجع سابق ، ص ١٤٥ .

(١٢٤) John Robinson : Op. Cit., p. 89.

(١٢٥) جوده عبد الخالق ، مرجع سابق . ص ٢٤٤ .

(١٢٦) Krishna, Raj, Government Operation in Foodgrains Economic-and Political weekly, 15 September, 1967, p. 311.

(١٢٧) Patel, S. J. The Distance between nations, Economic Journal. Vol. LXXIV. No. 293, 1964 pp. 119 - 131.

(١٢٨) أندريه جوندر فرانك : مرجع سابق . ص ١٤٨ .

(١٢٩) المرجع السابق ، ص ١٤٤ .

(١٣٠) Duddley Seers and other : Op. Cit.. p. 19.

(١٣١) محبوب الحق ، مرجع سابق . ص ٢٦٩ .

(١٣٢) Duddley Seers and other : Op. Cit.. p. 20.

* * *

الفصل الثالث

الدين وتحرير الدولة فى العالم الثالث
مرحلة الصراع مع الاستعمار

المحتـــويات

الفصــــل الثالث
الدين وتحرير الدولة فى العالم الثالث
مرحلة الصراع مع الاستعمار

بســـم الله الرحمـــن الرحيـــم

(ونريد أن نمن على الذين اســـتضعفوا
فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين)

صدق الله العظيم

أولا ــ مقـــــدمة :

بين بداية حركة الاستكشاف الأوربى ونهاية القرن التاسع عشر تمكنت أوربا من فرض سيطرتها على العالم من خلال عملية الاستعمار . واذا كانت صدمة الهزيمة قد انتهت بخضوع عدد من مجتمعات آســـيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية لقوى الاستعمار . فانها بعد أن استردت أنفاسها حاولت استعادة استقلالها المفقود . ومن الطبيعى أنه كان عليها أن تبحث عن أمضى أسلحة النضال . وبغريزة حب البقاء أو عن ادراك واع اختارت مجتمعات العالم الثالث ، خاصـــة المجموعة الاســـلامية الدين باعتباره سلاحا سوف يفرق الجماهير المناضلة عن أعدائها ، وأيضا باعتباره العنصر الذى سوف يكون قادرا على دفع الجماهير ودعمها باستمرار وقوة خـــلال مرحلة صراعها مع القوى التى استعمرتها .

ونستطيع القول أنه فى أعقاب انهيار الامبراطورية العثمانية خضعت المجموعة الاسلامية لموجة استعمارية جديدة عرفت تاريخيا باقتسام تركة رجل مريض . حيث كانت مجتمعات العالم الثالث خلال هـــذه الفترة ضمن مجموعة أشمل هى المجموعة التى تعرف الآن باسم مجموعة العالم الثالث

أو المستعمرات سابقا . غير أن الحركة الاستعمارية كان لها وطأتها على مجتمعات هــذه المجموعة لعاملين : الأول لأن هــذه المجتمعات كانت تمتلك تراثا دينيا وحضاريا شكل مانعا واضحا وقويا أمام استيعابها وضــياع هويتها . وثانيا لأن النضال من أجل استقلال الدولة اختلطت فيه المشــاعر الوطنية والدينية ، سواء فى نظر الجماعة المناضلة لذاتها أو فى ادراك أعدائها لها أو الاثنين معــا .

غير أنه فى مرحلة النضال هــذه كان على القوى الداخلية فى مجتمعات العالم الثالث وبخاصة المجموعة الاســلامية أن تخوض صراعا ضاريا استمر لفترات طويلة وتنوعت عناصره . بيد أن الخاصية الأكثر بروزا خلال مرحلة النضال هــذه ان الدين لعب دورا أساسيا فى الحصــول على استقلال الدولة . أولا لأن الصراع أدرك فى بعض الأحيان باعتباره صراعا دينيا ، أو تحملت عبئه جماعات دينية فى أحيان أخرى ، بحيث تمكن الدين خــلال هذه المرحلة النضالية من تحقيق استقلال الدولة ، لأنــه نجــح فــى الحفاظ على هويتها الحضارية والثقافية التى لعب الدين دورا محوريا فى اطارها . وهو ما سوف نوضحه فى الفقرات التالية .

ثانيا : الدين والدولة فى العالم الثالث

مكانة المجموعة الاسلامية

الذى لا شك فيه أننا نعيش مواجهة انسانية وحضارية شاملة بين الشرق والغرب ، أو بين الشمال والجنوب . وفى هــذا الصراع الحضارى تتداخل عناصر كثيرة أيضا . قد يدور الحوار حول حق الجنوب فى مساعدة الشمال له الآن فى مقابل استنزاف الشمال لاقتصاديات الجنوب فى فترات تاريخية ســابقة . أو قد يدور حول النموذج أو المشروع المستقبلى الذى

يريد الجنوب أن يكونه . هل هو نموذج الشمال ، أم أنه من الضرورى أن يسعى الجنوب للبحث عن نموذج جديد ، أولا لاختلاف الهوية ، وثانيا لتباين نقطة الانطلاق .

واذا كان الصراع قد دار على الأرضية السياسية تارة ، وفى اطار الاقتصـــاد والتنمية تارة أخرى ، فانه الآن يدور على الأرضـــية الثقافية والدينية . ذلك أنه باتت هنـــاك قناعة أساسية ان اعادة صياغة العالم الثالث ، سوف يعنى مزيدا من تعميق تبعية العالم الثالث . ومنـــذ بداية عصر الاستعمار وحتى الآن والمواجهة المستمرة ومتصاعدة ، الحضارة الغربية تحاول ترسيخ التبعية من كل الجوانب ، والحضارة الشرقية تحاول مواجهة الهجـــوم والتأكيد على الهوية ، بالاضافة الى أنها تســـعى جاهدة للبحث عن طريق جديد .

وفى قلب الصراع اختلفت أساليب ادارته ، فالحضارة الغربية كانـــت أهدافها المعلنة التى تناقض أغراضها الكامنة . واذا كانت الأخيرة قد ركزت على الاستنزاف الاقتصادى لدفع التقدم الاقتصادى فى الغرب ، فان الأهداف المعلنة كانت غطاءا جذابا لهذا السلب ، سواء اتخذ ذلك شـــكل التبشـــير المسيحى ، أو الادعاء بنشر الثقافة الغربية العقلانية ، أو استعمار المجتمعات المتخلفة لتعميرها ودفعها لتحتل مكانة تحت الشمس .

واذا كان هـــذا الصراع فى مرحلة معينة حضاريا امتد منـــذ بداية العصر الاستعمارى وحتى نشأة الدولة القومية ، فانه أصبح أخيرا الى جانب ذلك صراعا اجتماعيا حيث أصبحت المواجهة تتم على مســـتويين . المستوى الحضارى أطرافه حضارة الشرق فى مواجهة حضارة الغرب ، أو العالم الثالث فى مواجهة العالم الغربى المتقدم ، أو الجنوب فى مواجهة الشمال . أما المستوى الثانى فهو داخلى يتم على مستوى المشروع الاجتماعى أطرافه المجتمع والدولة داخل أبنية العالم الثالث .

وفى اعتقادنا تتحدد النقطة الفاصلة بين الصراع الحضارى والاجتماعى فى نشأة الدولة الحديثة بالعالم الثالث ، وذلك باعتبارها دولة تسوسها صفوة علمانية تسيطر على جماهير محكومة بالتراث أو على الأقل لم تستوعب العقلانية الكاملة بعد ولم تقطع شوطا يذكر على طريق العلمانية . واذا كان المجتمع قد ناضل بكل قوام التراثية والعلمانية للحصول للاستقلال ، فانه بعد أن حقق هدفه تأكد له ان الشىء الذى ناضل من أجله ليس هو ذاته . فالدولة التى ناضل من أجلها لا تعكس خطوط التراث بقدر ما هى نقل مشوة لتجربة الدولة الغربية على أرض الوطن (١) . وبدا الأمر وكأن هناك مؤامرة تاريخية صامتة ، مضونها أن ينسحب الاستعمار لكى ينتصر التراث والدين فى المعركة ، ولتتقدم الدولة ، لكنها ينبغى أن تكون علمانية تابعة . ومن هنا تبدأ المشكلة ، مشكلة التنمية ، أو التشوه ، أو لنقل مشكلة مجتمعات العالم الثالث فى مرحلة ما بعد الاستعمار .

واذا كانت هذه الدراسة تتعلق بالدين والدولة فى المجتمعات الاسلامية كمنطوقه داخل اطار العالم الثالث . فان ذلك يفرض تحديد طبيعة الخريطة الدينية للعالم الثالث . وهى الخريطة التى تكشف النظرة المبدئية اليها عن مسألة انها لا تشكل كتلة دينية واحدة . حيث أنه من الممكن أن نميز بداخلها اربعة مجموعات اساسية .

١ — المجموعة الأولى وهى المجموعة الاسلامية ، ويصل تعدادها الى نحو ٧٠٠ مليون نسمة (٢) . والاسلام فى هذه المجموعة يمتلك تصورا متكاملا للعلاقة بين الدين والدولة والمجتمع . وأن الدين يشكل مصدر الشرعية لكل من الدولة والمجتمع . وفى هذا الصدد ترفض النظرية الاسلامية مسألة انفصال الدولة أو المجتمع عن الدين . ومن ثم نجد أن هذه المجموعة تمتلك البديل الحضارى الذى يمكن أن يشكل اطارا يحكم حركة تحرير العالم الثالث أو حوار الشمال مع الجنوب . ولابد من القول بأن الصراع الذى تشهده المجموعة الاسلامية فى العالم الثالث بين الدين

والدولة — فى ايران ومصر ، سوريا ، الجزائر — يتصل بصورة ما بحوار الشمال مع الجنوب أو صراع العالم الثالث مع العالم الأول المتقدم .

٢ — أما المجموعة الثانية فى العالم الثالث فهى المجموعة المسيحية وبرغم أن هــذه المجموعة تمتلك هى الأخرى تصورا متكاملا للعلاقة بين الدين والدولة والمجتمع . وهو نفس التصور الذى يسود المجتمعات الغربية تقريبا . وتمتلك أيضا صفوة علمانية استوعبت قدرا كبيرا من الحضارة الغربية ، الا أننا لا نجد هــذه المجموعة على اتساق كامل مع هــذه الحضارة ، فهى تعيش حالة الصراع الثقافى المعهود بين الثقافة المتقدمة والغازية من ناحية والثقافة التراثية وربما المتخلفة من ناحية أخرى . ويكشف التحليل لأوضاع هــذه المجموعة أنها تقف الى جوار العالم الثالث ضد العالم الغربى المتقدم برغم اشتراكها مع الأخير فى ديانة واحدة . الا أنها تشترك مع العالم الثالث والمجموعة الاســلامية فى ظروف بنائية أكثر ، منها الخضوع للنهب الاستعمارى ، ومنها تردى التنمية والحاجة الى المساعدة ، ومنها الأمية ، وانخفاض الصحة العــامة والدخل والسقوط فى دائرة التبعية من جديد .

٣ — أما المجموعة الثالثة من ناحية الموقف الدينى فهى المجموعة التى تضم مجتمعاتها فئاتا دينية متباينة اســلامية أو مسيحية ، بغض النظر عن من الذى يشكل جمــاعة الأقلية أو الأغلبيــة . ومن الطبيعى أن نتوقع عدم استقرار تصور محدد للعلاقة بين الدين والدولة فاذا رأت الأغلبية دينها هو الذى ينبغى أن يكون مصدرا للشرعية فان ذلك يمس مكانة الأقلية ومصالحها ، وربما يدفعها ذلك الى ضرورة النظر الى دينها باعتباره مصدرا للشرعية ، أو ان الجميع ، ايثارا للســلامة ، قد يلقى بنفسه فى اطار العلمانية الغربية . ومن المتوقع أن تتسم بناءات هــذه المجموعة بصراعات عديدة بعضها بين الجماعة الدينية والدولة ، أو بين الجماعات الدينية داخل الدولة ، أو بينهما معا من ناحية وبين الدولة من ناحية أخرى . وبطبيعة الحال يتأجج الصراع اذا غذته الدول الاستعمارية حسب منطق فرق تسد ، أو اذا

تدخلت دول تنتمى لنفس المجموعة الدينية ، أو اذا تقاربت الأوزان الاجتماعية للقوى الدينية المتصارعة .

٤ — وتعتبر المجموعة الوثنية أو اللادينية هى المجموعة الرابعة فى هـذا الاطار ، وبرغم ضخامة هـذه المجموعة ، فاننا نجد أن مجتمعات لم تصمد كثيرا أمام الغزوة الاستعمارية ولأنها لا تمتلك البديل الحضارى ؛ فاننا نجد انها اكثر المجموعات تكيفا مع الثقافة الغربية ، لأنها لا تمتلك بديلا حضاريا أو دينيا ، ثم ان الدين لديها ليس له عمقه الراسخ بحيث يشكل اطارا مرجعيا لتفاعلها مع المجموعات الأخرى داخل المجتمع .

وتعتبر المجموعة الاسـلامية هى أكثر المجموعات فعالية من حيث المواجهة سـواء على مستوى المشروع الحضارى أو الاجتماعى وذلك لأنها تمتلك البديل الحضارى المستند الى الدين ، والذى يطرح نفسـه كعنصر فى الصراع أو كبديل يقود التقدم الحضارى فى حالة فشـل التنمية والتقدم على الطريقة الغربية . واذا كان الدين قد لعب دورا نضاليا فى تحرير المجموعة الاسـلامية ، وهى المجموعة التى قادت نضالا واعيا ومبكرا ضد الاستعمار فان هـذا الدور النضالى للدين لتحقيق اسـتقلال الدولة قد تحقق بل تجاوزه ليصبح دورا تحريريا لمجتمعات العالم الثالث ذلك يرجع الى مجموعة من العوامل الأساسية .

١ — وتعتبر كلية الاسـلام اول هـذه العوامل . فالاسـلام لا يوافق على اى فصل بين الدين والسياسة . فالجمع بينهمـا يعتبر عنصرا فـى الايمان (٣) . واستنادا الى ذلك تشـهد فترات الازدهار الاسـلامى فاعلية الدين فى تشكيل الحيـاة الاجتماعية والسياسية ، على عكس ذلك نجد أن فترات الانهيار هى تلك التى شهدت سعيا حثيثا لسيطرة الدولة على الدين . ومن ثم فتاريخ التيار النضالى للحركة الدينية يرتبط بتاريخ قيام كافة اشكال التسلط الاستعمارى (٤) . ولعل قيام هـذه الحركة النضالية الدائمة يرجع لامتلاك المجتمعات الاسـلامية لاطار مرجعى دينى واضح ومحدد المعالم ،

تستطيع بالنظر اليه تقييم فاعلية النظام الاجتماعى القائم فى أى مرحلة من مراحل التاريخ .

٢ — أن الاســـلام فى كثير من مجتمعات العالم الثالث — خاصة المجموعة الاســـلامية — كان القوة أو التنظيم القادر على الهام النضال السـياسى وتوجيهه . فمعظم اقطار العالم الثالث لم تمتلك فى بداية نضالها الحديث رؤية قومية توجه نضالها . ذلك لأن معظم القوميات جاءت نتيجة لنضـــال الجماعات القومية ولم تكن ســببا لها . ومن ثم فقد ظلت هـــذه الحركات لفترة طويلة من الزمن مجرد حركات تمرد ضـــد الوجود الغربى . بل انه يمكن القول بأن الأحزاب السياسية ذات التوجه العلمانى لم تكن قد ظهرت حتى العشرينات من هـــذا القرن الا فى مجتمعات محدودة من المجموعة الأفرو — اسيوية . ومن ثم فقد كان على الاســـلام بكافة الأبنية التى يمتلكها (الكتاب) والمدرسة الدينية ، والمســـجد ، الحج ، أن يقدم اطارا منظما لتوجيه الجهاد الاســـلامى ضد قوى القهر ، سواء تمثل ذلك فى مستعمر قائم أو حاكم منحرف عن مستوجبات الدين (٥) .

٣ — ويتمثل العامل الثالث فى أن الاســـلام من خـــلال علمائه قدم القيادة الدينية التى كانت موجودة وحدها على الساحة والتى استطاعت توجيه النضال حينما لجأت اليه الجماعة الدينية . اذ نجد فى معظم الأقطار الأفرو — آسيوية أن الجماعات القيادية العادية (الأمراء ، السياسيون ، الجماعة الاستقراطية ، طبقة ملاك الأرض ، هى الجماعات التى وقفت فى غالب تاريخها مع المستعمر الأجنبى . على خلاف ذلك وجدنا أن شـــيخ القرية ، القريب من البشر هو القادر على استيعاب مشاعرهم القومية ، ومن ثم فقد فرضت الظروف عليه أن تشكل القيادة المحلية للنضال (٦) .

٤ — أن النضال الاســـلامى كان يجد عادة الصيغة الملائمة للمواجهة . فالصراع الذى يقوده كان صراعا ضـــد الغرب المســـيحى اساسا (*)

(*) يعتبر المسلمون والمسيحين فى العالم الثالث فئة واحدة من =

وأن المبشرين المسيحيين هم الذين كانوا يشنون الحرب على الاســـلام عادة . يؤكد ذلك تعليق فرديناند ديلسبس (صاحب مشروع قناة السويس) فيما يتعلق بالصراع الجزائرى بقوله (ان الدين هو الراية الوحيـــدة التى يتمسكون بهـــا) (٩) .

٥ ـــ وتعتبر الخاصة الصراعية للاســـلام هى العامل الخامس فى هـــذا الصدد . فالاســـلام له مكانته انفعالة فى الحركات العسكرية مثلما أن له دوره فى الحركات السياسية المدنية . اذ تشن الحروب تحت راية الاســـلام باعتبارها جهادا ، أو حربا مقدســـة . فمثلا حينما طلب الأمير ديبنجورو Diponegoro قائد حرب جاوة فى أندونيســـيا متطوعين كان معظم الذين تقدموا حسبما يقال من رجال الدين فى القرى . بل اننا نجد أن معظم انتفاضات الفلاحين المتكررة والمطردة فى القرن التاسع عشر قد وقعت بلا اســـتثناء تحت راية الاســـلام ، بل اننا نجد أن حرب البدرى فى أندونيســـيا اتخذت من موقعة بدر الاســـلامية اسما ورمزا لها (١٠) .

وتبرز فاعلية اعلان حروب التحرير تحت عباءة الاســـلام من خـــلال بعدين أساسيين . الأول هو قوة مجموعة القيم الدينية لدى البسطاء من الجماهير . حيث نجد أن هـــذه القيم هى التى تشـــكل أساس عقلانيتهم واطار توجيه سلوكهم . ويتمثل البعد الثانى فى امكانية تحريك هـــذه القيم

= وجهة نظر الغرب المسيحى وهناك دلائل تاريخية تؤكد ذلك ، فقرب نهاية الحـــرب الصليبية فى (١٣٦٥) حينمـــا هاجم الملك بطرس ملك قبرص الاسكندرية ، اهتم جنوده بأمرين النهب وأسرقة من ناحية والقتل المباح للأقباط والمســـلمين واليهود من ناحية أخرى (٧) . وحينما فشلت الارسالية التبشيرية البريطانية التى وصلت الى مصر فى ١٨١٥ فى عملها التبشيرى بين المســـلمين فانهم لم يلبثوا أن حولوا اهتمامهم الى التبشير بين الأقباط (٨) . ذلك يعنى أنه ينبغى أن يكون ماثلا فى الأذهان أن هناك فارق كبير بين مسيحيو الغرب واقباط مصر ، فالفئة الأخيرة أقرب الى المســـلمين من حيث مواقفها التاريخية منها الى مسيحية الغرب التى تشكل عدوا مشتركا لهما معا .

لكى تشـــكل تناقضا مع القيم التى يحاول الاستعمار فرضها . ومن خـــلال هـــذا التناقض تظهر امكانية النضال ومشروعيته .

٦ — ويعتبر الوزن النسبى الذى تتمتع به المجموعة الاسلامية داخـــل نظام العالم الثالث وداخل النظام العالمى احـــد العوامل الأساسية للدور الممكن أن تلعبه داخل حركة تحرير العالم الثالث . فالنظر الى المجموعة الاسلامية مجتمعة يكشف عن امتلاكها لامكانيات هائلة . فمن الناحيـــة البشرية نجد ان هنـــاك ٧٠٠ مليون من البشر يدينون بعقيدة واحدة وقوية ومازالت لها فاعليتها . هـــذا الى جانب أن لها وزنها الاقتصـــادى أيضا ، حيث نجد ان الدول البترولية الأساسية هى دول عربية واســـلامية اساسا . بالاضافة الى ذلك فان بعضا من هـــذه الدول يمتلك الامكانات العلمية والفنية الفعالة والقادرة ، بحيث تيسر لها هـــذه الامكانيات شرعية احتلال المكانة القيادية لتوجيه نضال العالم الثالث .

٧ — يتصل بذلك ان المجموعة الاســـلامية داخل العالم الثالث تتصل ببقية مجتمعات هـــذا العالم من خـــلال الاشتراك فى خصائص عديدة . فهى من ناحية دول تنتمى الى الجنوب المتخلف ، ثم هى دول شاركت النضال فى حقبتى حروب التحرير والاســـتقلال ، ثم هى دول تمتلك اقتصاديات بدائية عادة الزراعة ، الرعى ، هـــذا الى جانب الاشـــتراك فى ارتفاع نســـبة الأمية وانخفاض الدخل ، وأيضا الخضوع لصنوف المعاناة اثناء عمليـــة التنمية الاجتماعية الاقتصـــادية (٢١) .

٨ — بالاضافة الى ذلك قدم الاســـلام فى احيان كثيرة الاطار القومى الذى يقدر العالم المتخلف . وفى هـــذا الصدد لعبت الطرق الاســـلامية دورا رائدا وفعالا ، كالنقشبندية والسهروردية والشـــاذلية والقادرية ، بحيث يمكن القول بأنها ساعدت فعلا على عمليـــة البعث القومى بالنســـبة لكثير من مجتمعات العالم الثالث . ولعل ذلك يرجع الى بساطة الاســـلام وتغلغله فى ثقافة هـــذه المجتمعات . بل اننا نجد أن بعضا من هـــذه الطرق

شــكل بذاته أساسا قوميا لبعض الدول الحالية . فاذا كانت السودان وليبيا تشــكلان كيانات قوميــة ، فان ذلك يرجع بالأســاس الى التنظيم الســنوسى فى ليبيــا ، والأنصــار ، والمهــدية ، الخاتمية والميرغنيــة فى الســودان (١٢) .

٩ ـــ بالاضافة الى ذلك فانه يمكن القول بأنه اذا برزت شعارات داخل العالم الثالث تحث الى البحث عن طريق جديد . وفى هــذا الصدد نجد أن الاســلام يمكن ان يقــدم البديل القادر على توجيه تقــدم العالم الثالث . يؤكد ذلك الصرخة التى أعلنها فرانز فانون .. يا رفاق ، دعونا لا نساعد أوربا بخلق دول ونظم ومجتمعات تستمد طموحاتها منها ، فالانسانية تنتظر شــيئا آخر يختلف عن مجــرد التقليد الذى قد يولد نماذج كاريكاتورية مختزلة ... اذ أردنا أن نقــدم الانسانية خطوات أكثر ، اذا أردنا أن نتقدم بها الى مستوى أكثر انسانية عن ذلك الذى قدمته لها أوربا ، فان علينا أن نبدع وأن نصل الى اكتشافات جديدة ... اذا أردنا أن نعيش حسب توقعات شعوبنا ، فان علينا أن نبحث عن اشباع هــذه التوقعات فى أى مكان آخر غير أوربا . أيها الرفاق ، لصالح أوربا ، ولنا وللانسانية فان علينا أن نتحول الى طريق جديد ، علينا أن نعمل بمفاهيم جديدة علينا أن نجعل الانسان الجديد يقف على أقدامه (١٣) .

* * *

ثالثا : الاسلام فى مواجهة الاستعمار ، النضال من أجل استقلال الدولة

بدت غالبية نضالات العالم الثالث فى عقدى الأربعينات والخمسينات باعتبارها نضالات تحملت أعباءها حركات قومية ذات طبيعة علمانية ، تسعى الى طرد الاستعمار ، وتسعى فى ذات الوقت الى التحديث ولو على الطريقة الغربية . وينطبق ذلك على الحركات التى قادت النضال فى مختلف الأقطار الأفرو ـــ اسيوية كأندونيســيا ، الهنــد ، مصر ، غانا . غير أنها وان قادت

النضال فى فترة ما قبل الاســـتقلال ، فانها لم تؤسس هـــذا النضال . ذلك أنها تعتبر الوريث الذى جاء متأخرا الى الســـاحة النضالية . اذ تكمن جذور معظم الحركات القومية الحديثة الى فترة النضال التى امتدت الى مائة وخمسين عام ســـابقة على الخمسينات من هـــذا القرن حيث كانت القوى والقيادة الاســـلامية هى الموجهة للنضـــال خلال هـــذه المرحلة . ومن ثم يمكن القول أنه يتأخر كثيرا أمل الحصـــول على الحرية ، فالتحالف بين الاســـلام المناضل والصراع من أجل الحرية هو المســئول عن تحقيق الاســـتقلال السياسى لمجتمعات كثيرة نذكر منها أندونيســـيا ، أفغانستان ، السـودان ، الصومال ، ليبيـــا ، الجزائر ، غرب أفريقيا ، بالاضافة الى ما حدث فى مصر وايران (١٤) .

ذلك يعنى أن الدور النضالى الذى نعزيه للاســـلام ليس دورا خياليا أو محتملا ، ولكنه دورا متحققا تاريخيا . حقيقة أننا لا نستطيع الادعاء بأن الاســـلام هو المســـئول عن اســـتقلال العالم الثالث ، أو حتى المجموعة الاســـلامية داخل العالم الثالث ، ولكن ما نشـــير اليه أن النضال الاســـلامى كان له الدور القيادى أو هو الذى حمل المشعل بحثا عن الحرية . فاذا حاولنا التحديد الدقيق لدور الاســـلام فى تحـــرير العالم الثالث وخلق الدولة ، فاننا ســـوف نجد أن الاســـلام بالنظر الى مختلف المجتمعات قد قاد ثلاث مستويات أو نماذج من النضـال .

١ — النموذج الأول ، حيث لعب النضال الاســـلامى دورا بارزا وفعالا فى تأسيس الدولة أو الحصـــول على استقلالها ، وهى الدولة التى اقتربت بدرجة أو بأخرى من التصور الاسلامى للدولة كالحال بالنسبة لايران ، باكســـتان . حيث نجـــد أن الدين فى هـــذا النموذج شـــكل الاطار المرجعى للدولة .

٢ — وفى النموذج الثانى لعب الاســـلام دورا نضاليا منفردا أو الى جانب مجموعة من القوى الأخرى ، وهو النضال الذى أدى الى تأسيس

الدولة ، غير أن هــذه الدولة وان ظهرت فى قلب اطار اســلامى الا أنها علمانية من حيث توجهاتها الأســاسية . فى هــذه الدولة اعتبر الدين أحــد عناصر الدولة ، وشكلت العلمانية الاطار المرجعى لكل من الدين والدولة والمجتمع ، وطبيعة العلاقة بينها . وتعتبر مصر والجزائر وتونس مثــالا على ذلك .

٣ ــ وفى النموذج الثالث تخلقت الدولة فى العالم الاســلامى وحصلت على الاســتقلال ، لكن من غير طريق النضال الاســلامى الظاهر . حيث تخلقت بعض الظروف فى مجتمعات هــذا النموذج أعاقت الدين عن أن يلعب دورا رئيســيا فى هــذا الصدد . غير أن ذلك لا يعنى انسحاب الدين ، حيث كان موجودا كأحد عناصر التراث الشعبى ، أو أحــد عناصر الذاتية أو الهوية الوطنية . ولعل العراق ســوريا ، لبنان خير من يمثل مجتمعات هــذا النموذج .

غير انه بغض النظر عن طبيعة الدولة المســتقلة التى نتجت عن النضال الاســلامى أو القومى ، فالمؤكد أن درجة فاعلية النضال الاســلامى ، ودرجة اقتراب الدولة المســتقلة من التصور الاســلامى للدولة قد تأثر بأربعة متغيرات أساسية .

١ ــ طبيعة القيادة أو الصفوة المسيطرة على الدولة الاســلامية ، وفى هــذا الصدد نجد أن لدينا ثلاثة أنمــاط من القيادات . حيث يمثل السياسيون المحترفون النمط الأول ، وهم بطبيعتهم علمانيون ، مغربون westernized ، وغير اسلاميون . وهم كقادة يدركون أن الاســلام ما زالت له قوته وحيوته ، ومن الممكن لهم الاستفادة منه فى تحقيق أهدافهم السياسية . وسوف نسمى هذه المجموعة القيادية بالمستغلين Exploiters

ويتكون النمط الثانى من البشر ذوى التوجيهات الدينية ،و هم ينقسمون من الداخل الى مجموعتين فرعيتين . حيث يوجد من ناحيــة رجال الدين المؤسسون estsblished ــ العلماء ، الشــيوخ ، آيات الله ــ الذين

لهم دورهم الفعال فى المجال السياسى . أما المجموعة الأخرى فتتكون من رجال الدين الأكثر سلبية ، وهم أعضـــاء الطرق الصوفية ، الذين برغم صوفيتهم لعبوا دورا مؤثرا . ومن ثم فلهم قوتهم السياسية فى بعض الأقطار الاســـلامية . المجموعة الأولى تضم السلفيون reiterators ، حيث يكفى بالنسبة لهم الرجوع الى القرآن والسنة ، وذلك عن طريق التطبيق الحرفى للتعاليم التى وردت بهما .

ويعتبر النمط الثالث هو أكثر الأنماط خطورة وفعالية ، وهو الذى يشـــكل القيادة الاســـلامية المناضلة . ومن خصائصهم أنهم ليسوا سياسيين محترفين ، وفى ذات الوقت ليسوا من رجال المؤسسة الدينية . هم متدينون غير أنهم بالنظر الى دينهم اتجهوا الى العمل بالسياسة وذلك فى محاولة لتجسيد مثلهم الاســـلامية فى اطار الحياة العـــامة للمجتمع . ويمكن النظر الى هؤلاء باعتبارهم الذين يحاولون تجديد الاســـلام ، وذلك لأنهم يتصدوا لتحقيق الهدف الأكثر صعوبة والذى يتمثل فى تجديد الاســـلام انطلاقا من منطق حديث (١٥) .

واستنادا الى ذلك فاننا اذا اعتبرنا عامل النضال الاســـلامى واحدا فى كل المجتمعات . فان قيادات هـــذه المجتمعات تختلف على متصـــل (القيادة الاســـلامية المناضلة ـــ القيادة العلمانية) ومن الطبيعى أن تختلف هوية المجتمـــع باختلاف عنصر القيادة التى وجهت النضال الاســـلامى واستوعبت نتائجه .

٢ ـــ ويتمثل المتغير الثانى فى مدى امتلاك المجتمع الاســـلامى لتنظيم دينى يربط الجماهير بدينها ، بحيث يمتلك هـــذا التنظيم القدرة على تعبئة الجماهير بالنظر الى قيمها الدينية . أو ما يمكن أن نسميه بالامكانية الدينية لدى الجماهير . وهى الامكانية التى تتحدد بالنظر الى مدى تمسك الجماهير بدينها ، وأيضا بالنظر الى مدى امتلاك هـــذه الجماهير للقيادات الدينية على مختلف المستويات . هـــذا بالاضافة الى قدرة هـــذه القيادات على تعبئة جماهيرها ودفعها فى اتجاهات محددة .

اذا توفرت هـذه الشروط الثلاثة فان الجماهير المتدينة تشـكل مجموعة ضغط هائلة قادرة على فرض توجهاتها الدينية على النظام السياسى .

واستنادا الى ذلك فبامكاننا أن نميز من حيث الوعى الدينى بين ثلاثة أنماط من الجماهير . تلك الجماهير التى تمارس سلوكها الدينى بشـكل طقوسى ، وهى بطبيعتها ذات طبيعة محافظة تتعامل مع الدين باعتباره مكونا للضمير الفردى . النمط الثانى تلك الجماهير التى تمتلك وعيا دينيا متكاملا ، وهى تدرك أنه مثلما يشـكل الدين مكونا للضمير الفردى ، فهو يمثل فى ذات الوقت اطارا كاملا وقادرا على تشكيل الحياة العـامة . أما النمط الثالث من الجماهير ، فهى تلك التى تمتلك وعيا اسـلاميا ناضجا وقيادة اسـلامية واعية وقادرة على التجديد . ويعتبر النمط الأخير أكثرها قدرة على ترسيخ مجتمع اسـلامى والتقدم به من خـلال التفكير فى الاسـلام من منطق حديث .

٣ ـ وتشـكل طبيعة الفكر الاسـلامى السائد فى المجتمع أحـد العناصر الأساسية فى تشـكيل نموذج الدولة أو المجتمع الاسـلامى . وفى اطار هـذا المتغير سوف نجد لدينا ثلاثة أساليب من التفكير . التفكير الصوفى وهو التفكير الذى تعمل بحسبه الطرق الصوفية . وفى اطاره يسعى المؤمنون الى الارتباط العضوى بالقيم والأفكار الدينية ، الا أن هـذا السعى عادة ما يظل على المستوى الفردى فالفرد فى نطاق هـذا التفكير يمارس تطهرا ذاتيا ، لكنه لا يهتم كثيرا بتطهير الواقع المحيط به . وعادة ما يسـود هـذا التفكير فى فترات الانهيار الاجتماعى وغلبة السياسة والدولة على الدين . وتنتشر الصـوفية بطبيعة الحال داخل كل من الفـكر الشيعى والسنى على السـواء .

ويشغل التفكير السنى قطاعا كبيرا فى الفكر الاسـلامى ، وهو التفكير الذى يرى تأكيد الارتباط بالقرآن وسنة الرسول . ويسود هذا التفكير فى المجتمعات الاسـلامية المحافظة . ومن خصائص هـذا الاتجاه أنه سلفى

يؤكد على الأصالة ، ولا يميل كثيرا الى اعادة التفكير فى الاســـلام من منطق حديث . يحاول دائمـــا التأكيد على صدق وفعالية المفاهيم الاســـلامية فى كل مكان وزمان . والدين فى اطار هـــذه المجتمعات خاضع للدولة . فأهل السنة بطبيعتهم ليسوا أهل ثورة وانما هم تقليديون ومحافظون .

على خلاف ذلك يشـــكل التفكير الشيعى الاتجاه الثورى فى الاســـلام . فجوهره يشـــكل سعيا دائمـــا الى المســـتقبل . ولا تختلف الشـــيعة عن السنة من حيث الرجوع الى القرآن الكريم والسنة المحمدية ، ولكنها تتبنى نظرة مختلفة لمـــا يحيط بها (١٦) . وتتأسس الطبيعة الثورية للفكر الشيعى لسعى هـــذا الفكر للخروج على ما تدعوا اليه السلطة بارهاب السيف أو ترغيب الذهب (١٧) . ويرى الفكر الشيعى أن الاســـلام فى أساسه ثورة لا طبقية وأن الكفاح ضد الارستقراطية كان يسير جنبا الى جنب مع الكفاح لنشر التوحيد . فدعوة التوحيد كانت دعوة موجهة ضد الآلهة من البشر ... الاســـلام من وجهة النظر الشيعية هو أيديولوجية الآهية جاءت لتحرر الطبقة المحكومة من ظلم الطبقة الحاكمة ولتحطيم القيم اللا أخلاقية للطبقة الحاكمة (١٨) . يجسد ذلك ميل الشيعة الى الثورة قول الامام الخامس الامام البـــاقر محمد بن على (ما كره قوم حر السيوف الا ذلوا) (١٩) . بالاضافة يتميز الفكر الشيعى بالميل الى التجديد فباب الاجتهاد فيه لا يزال مفتوحا للفقهاء فى غيبة الامام صاحب السلطة .

وقد لاحظ المفكرون أنه نظرا للقمع الذى تعرضت له الشيعة منـــذ بدايتها ، فاننا نجدها قد احتفظت بتقاليد المعارضة للسلطة الدنيوية ، وهو العامل الذى جعلها أكثر استجابة للأفكار الثورية من السنة التى تحالفت مع الدولة أو خضعت لها (٢٠) .

بالاضافة الى ذلك يمتلك الفكر الشيعى ايمانا بحتمية التاريخ وهو الأمر الذى ينشر نوعا من التفاؤل انتظارا لمستقبل أفضل . فانتظار الامام الغائب — أو المهدى المنتظر — الذى سيعود ليملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا يعتبر فلســـفة ايجابية نحو التاريخ والمستقبل . هـــذا الى أنه فى النهـــاية

مذهب اعتراضى على الواقع الموجود ومقاومة للقيم والنظم الحاكمة . فالتشيع ليس مقاومة سلبية أو دعوة الى التسليم والرضا بما هو سائد (٢١) فالفكر الشيعى اذا دعوة للعمل والتطور والسعى من أجل الحرية يؤكد ذلك قول الامام الخمينى فى عزاء الأربعين لابنه مصطفى للمعزين (لقد سكبنا ما فيه الكفاية من الدموع ، ولقد تذكرنا وفاة ابنى عدة مرات ، ومن الآن فصاعدا لن أتقبل آية تعزيات ، فما نحتاج اليه الا هو العمل) (٢٢) .

ذلك يعنى أننا لدينا فى الفكر الاسلامى — كعامل مساعد للنضال الاسلامى الذى يسعى لاكساب الدولة هويتها الاسلامية — متصلا للسلبية الايجابية ، بدايته الصوفية المنسحبة حتى نطاق الضمير الذاتى المحدود . ونهايته الفكر الشيعى الذى يتجاوز الحاضر سعيا الى المستقبل حيث الامام الغائب الذى يظهر ليملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا .

٤ — ويشكل النظام العالمى المتغير الرابع الذى يتفاعل مع النضال الاسلامى ليكسب الدولة هويتها الاسلامية المحددة . فالدولة أو المجتمع الاسلامى هى وحدة فى اطار نظام عالمى . ومن الطبيعى أن يشكل هذا النظام خلفية للمجتمع الاسلامى . وفى هذا الصدد فبامكاننا أن نلاحظ أن تأثير النظام العالمى فى المجتمع الاسلامى يتم عادة من خلال ثلاثة مؤثرات .

ويتخذ التأثير الأول شكل العداء للدولة الاسلامية ، فى محاولة لاظهارها فى صورة الدولة المتخلفة التى تعتنق دينا زراعيا أو دين ما قبل المجتمع الصناعى . ويدعم هذا التأثير تيارا فكريا متناميا بدأ بكتابات كثير من المستشرقين (٢٣) وانتهى بالموقف الذى وقفته بعض القوى العالمية من الثورة الايرانية باعتبارها ثورة اسلامية . ومن شأن هذا التأثير (باعتباره فعل) أن يشكل (رد فعل) حاد داخل المجتمع الاسلامى ، يحاول أن يقدم الاسلام فى صورة فعالة ومحدثة .

ويتمثل النمط الثانى لتأثير النظام العالمى فى محاولة ضرب المجتمع الاسلامى من الداخل . وهو الضرب الذى قد يتخذ شكلين أساسيين .

الأول علمنه الصفوة وذلك من خـــلال علمنه التعليم وخلق جماعات علمانية قوية داخل المجتمع الاســـلامى ، سواء اتخذت هـــذه العلمانية الطابع الاشتراكى أو الليبرالى . وهو الوضع الذى يؤدى فى النهـــاية الى عزل الصفوة عن جماهيرها ، ومن ثم ابتعاد أمل أن يحدث التلاؤم بينهما . هـــذا بالاضافة الى خلق صراع بين جماعات الصفوة العلمانية ذاتها . ويتمثل الشكل الثانى فى محاولة اســـتغلال التباين بين الجماهير المسلمة والأقليات غير الاســـلامية ، باثارة قضايا مثل وضع الأقليات الدينية داخل المجتمع (*) . وذلك لكى يعيش المجتمع حالة صراع مستمر بين تيارات عديدة تعوقه عن الوصـــول الى اتفاق حول هوية المجتمع ومن ثم هوية التحديث .

ويتحدد النمط الثالث لتأثير النظام العالمى فى تأييد بعض قوى النظـــام العالمى للهوية الاســـلامية للمجتمع .. وذلك كالحال فى التأييد والدعم الذى تمنحه القوى الاســـلامية المتمثلة فى البـــلاد البترولية لكل من الباكستان والســـودان ، وهو الأمر الذى دفع السلطة الباكستانية والســـودانية الى اصدار بعض القرارات التى تشير الى تعميق التوجه الاســـلامى للدولة تحت وطأة المساعدات من المملكة العربية السعودية (٢٤) .

ويوضح الشكل التالى اطارا لطبيعة التفاعل الذى يحدث بين المتغيرات الخمسة لتشكيل نماذج المجتمعات الثلاث باعتبار أن النضال الاســـلامى لعب دورا فى تأسيسها .

(*)تحاول القوى الأجنبية استغلال التباين الدينى القائم ، بما يســـاعد علـــى خلـــق توتـــرات وصراعـــات بـــين الجمـــاعات الدينيـــة فـــى مجتمـــع معـــين ، بمـــا يساعـــد على خلق فجـــوة من العـــداء بينهما . فمثلا بعـــد ضرب نابليـــون للقوى الاســـلامية التى حاربته عين المعلم جرجس الجوهرى مفتشا اداريا لمصر ، كذلك عين الجنرال يعقوب على رأس لواء قبطى لمطاردة قوات مراد بك فى الصعيد (٢٥) . هـــذا الى جانب ان الاستعمار البريطانى عمل على نمو الطبقة المتوسطة القبطية (٢٦) وكذلك تعيين بطرس غالى على رأس محكمة دنشواى (٢٧) . ومحاولة الرئيس كارتر الحديث مع البابا الســـابق شـــنوده فيما يتعلق بأحوال الأقباط (٢٨) وهى الممارسات التى تثير حفيظة كل من المسلمين والمسيحيين كل تجاه الآخرة .

نماذج الدول الاسلامية والمتغيرات التى شاركت فى تأسيسها

التغير / النموذج	النموذج الاول دولة ذات توجه اسلامى	النموذج الثانى دولة ذاتتوجه اسلامىوعلمانى	النموذج الثالث دولة ذات توجه علمانى
١ ــ القيادة أو الصفوة	اسلامية محددة	علمانية ودينية محافظة	علمانيــة
٢ ــ الوعىوالتنظيم الدينى	وعى وتيظيم دينى	وعى دينى جماهيرى وغياب التنظيم	الدين على مستوى الضمير الفردى
٣ ــ الفكر الاسلامى	شيعى	ســــنى	ســــنى صـــوفى
٤ ــ التأثير العالمى	مؤيد / معارض	ــ مؤيد العلمانية ــ معارض للتوجه الدينى	مؤيد للعلمانية
٥ــ النضال الاسلامى	لعب الاسلام دوراتأسيسيا	لعب الاسلام دورا محدودا	لم يلعب الاسلام دورا محددا
الدولة المثال	ايران ، الباكستان	مصر ، الجزائر ، أندونسيا	سوريا ، لبنان ، العراق

واستنادا الى مستويات التفاعل بين المتغيرات المشـــار اليها تتحدد طبيعة الدولة الاســـلامية التى أسهم فى تأسيسها النضال الاســـلامى ، فى اطار ذلك نجد أن هناك ثلاثة أساليب نضالية أسهمت فى تأسيس ثلاثة نماذج للدولة الاســـلامية . نعرض لكل منها بشىء من التفصيل .

* * *

١ ـــ النضال الاسلامى لتأسيس الدولة الاسلامية

والخاصية الأساسية لهذا النموذج ان النضال الاســـلامى ـــ ضد القوى الاستعمارية فى الخارج أو العلمانية فى الداخل ـــ هو الذى أسلم الى تأسيس الدولة الاســـلامية التى تقترب من النموذج الاســـلامى بدرجة أو بأخرى . قد تتبنى الصفوة توجيهات علمانية فى بعض الفترات ، تحت وطأة تأثيرات خارجية ، أو داخلية ، لكن يظل التنظيم الاجتماعى فى أساسه تنظيما دينيا ، بحيث نجـــد أن هـــذا التنظيم يتولى الحفاظ على هوية المجتمـــع الاســـلامية بغض النظر عن انحراف الصفوة السياسية أو تحريفها . وتعتبر ايران وباكستان من الأمثلة البارزة فى هـــذا الصدد .

وبالنسبة للمجتمع الايرانى نجـــد أن المكانة التى يحتلها علمـــاء الشيعة أقوى بكثير من المكانة التى يحتلها نظرائهم من أهل السنة . ومن ثم نجدهم الذين يشكلون القيادة الحقيقية للأمة فى أوقات الأزمات . بل وانتشالها من السقوط فى اسار العلمانية . وترجع قوة علمـــاء الدين فى المجتمع الشيعى وايران بصـــفة خاصة الى عـــدة أبعاد أساسية .

١ ـــ ويتحدد البعد الأول بالنظر الى النظرية الشـــيعية التى تضم المبادىء التاليـــة :

(أ) أنه لا فصل بين الدين والسياسة ، بين الدين وأنظمة الحكم . بل ان الدين يتكامل مع هـــذه الأنظمة أو يتناقض معها حسب درجة اقترابها أو ابتعادها عن مبادىء الدين .

(ب) أنه لا يمكن أن يكون هنـــاك قصور فى مبادىء الدين ومعطياته . فالدين صالح لكل زمان ومكان . أما مسائل الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فتلتزم بالقرآن منطلقا ، وكافة الاجتهادات والممارسات التى ارساها النبى محمد ومن بعده كافة الخلفـــاء الراشدين (٢٩) .

٢ — ويتحدد البعد الثانى بالنظر الى التنظيم الدينى لرجال الشيعة . حيث توجد ستة مراتب محددة للذين ينخرطون فى سلك الدراســـة ، المرتبة الأولى هى مرتبة (طالب العلم) وعند تخرجه يصبح (مجتهدا) أو (ملا) وهى تعنى حرفيا شخصا أجهد نفســـه لكى يكون رأيا . أما الثالثة فهى مرتبة (مبلغ الرسالة) والرابعة (حجة الاســـلام) والخامسة (آية الله) والسادسة وهى الاخيرة (آية الله العظمـــى) الذى يصبـــح بشـــكل آلى (مرجعا) دينيا أى شخص يرجع اليه فى كل شىء . وحسب التقاليد المتبعة لا يمكن أن يكون هناك أكثر من خمسة فى مرتبة (آية الله العظمى) فى نفس الوقت . ولا يمكن القبض عليهم طبقا لدســـتور عام ١٩٠٦ (*) .

والنواة الأساسية فى مدارس الشيعة هى (الحوزة) أو حلقة المرتدين الذين يتحلقون حول المعلم يتلقون شروحه . واذا وصل أحـــد الدارسين الى مرتبة حجة الاســـلام ، يمكنه أن يؤسس الحوزة الخاصة به . وكلمـــا زاد عدد المريدين الملتفون حوله كلمـــا اقترب من الوصـــول الى المرتبة التالية ، مرتبة (آية الله) . ولكن المرشح لا يستطيع الوصـــول الى المرتبة الأخيرة (آية الله العظمى) الا اذا قبله هؤلاء الذين هم فى هـــذه المرتبة بالفعل ، وكان فى مقدوره أن يقدم بحثا دينيا له قيمة عالية (٣٠) .

ويرتبط بهذا التنظيم القيادى المتدرج تنظيم اجتماعى مقابل • حيث يقسم المجتمع الايرانى الى مجتمعات محلية يقوم المجتهدون كل فى محليته

(*) ولذلك حينما كان الامام الخمينى مجرد (آية الله) كان من الممكن للشـــاه أن يأمر بالقبض عليه . لكنه حينما أصبح (آية الله العظمى) أصبح من المستحيل القبض عليه ، حسب نص الدستور . وبدلا من ذلك أرسل الى المنفى (٣١) .

على شئونها الدينية . وبذلك يصبح المجتهد أو الملا هو القيادة الدينية المحلية التابعة للقيادات الدينية الأعلى . ولهـــا مهامها الاجتماعية والاقتصـــادية والدينية والسياسية التى تؤديها .

٣ — ويعتبر الاستقلال المـــالى لعلماء الشيعة هو البعد الثالث فى التنظيم الشيعى . ففى البـــلاد السنية المذهب تقوم الدولة بتلقى الهبات الدينية ، ثم تدفع منها لرجال الدين والعلمـــاء مخصصاتهم . غير أن مجتهدى الشيعة ورجال الدين الآخرين يتسلمون مخصصاتهم مباشرة من النصيب الذى يهبه اتباعهم للانفاق منها على الشئون الدينية بما فى ذلك المســـاجد والمدارس وأوجه التقوى الأخرى . هــذا الى جانب من حقهم الحصـــول على خمس دخل المريدين فى الحوزة (*) وهو ما يعنى أنه اذا كان لهم استقلالهم وتنظيمهم الدينى ، فانه يصبح أقوى وأكثر فعالية اذا هو قد امتلك تنظيما واستغلالا اقتصاديا أيضا (٣٢) .

٤ — ويتمثل البعد الرابع فى الاستقلال السياسى للسلطة الدينية . حيث تتميز الدولة الشيعية بثنائية السلطة ، سلطة الحكم السياسى وسلطة المجتهد الدينى . حدث ذلك فى الدولة البويهية ، ثم الأليخانية ثم الدولة الصفوية التى استمرت حتى ١٧٢٧ ميلادية أى ١١٣٩ هجرية .

(*) فى سنة ١٩٢٠ حاول الشاه رضا أن يحد من قوة رجال الدين . وكان يأمل أن يجعل ايران تتبع نفس النمط السنى حيث سيطرة الدولة على الدين ، بتحويل رجال الدين الى موظفين فى الدولة . غير أنه قوبل بمعارضة قوية للغاية ليس من قبل رجال الدين فقط ولكن من مريديهم أيضا ، الذين استمروا فى تقـــديم يد العون لهم ، لدرجـــة أنه اضطر الى التخلى عن محاولته . فالمواطن الايرانى قد يكون على استعداد لخداع موظف الضرائب ، لكنه ليس على استعداد لخداع امامه أو نائب الامام .

وقد استخدم الامام الخمينى الاموال التى تلقاها فى المنفى من مريديه أفضل استخدام . فبالاضافة الى أنه كان ينفق بسخاء على المدارس والخدمات الاجتماعية ، قام أيضا باستخدام أحدث أدوات الدعاية ، مثل آلات تصوير الوثائق والكاسيت وعن طريقها أمكنه توزيع عظاته وتعاليمه فى طول ايران وعرضها (٣٣) .

وخلال هـــذه العهود والدول المتعاقبة كان يتم بناء على وفاق يتم بين الملك أو الشاه من ناحية وبين المرجع الشيعى الأعلى من ناحية اخرى . ولم يحدث خلاف كبير بينهما خلال هـــذه العهود . لكن الدولة القاجارية التى بدأ حكمها فى ١٨٤٨ ميلادية ١٢٦٤ هجرية شهدت صداما بين السلطتين ، بين الشاه ناصر الدين شاه من ناحية وبين الســـيد حسن الشيرازى من ناحية اخرى ... وفى نفس الوقت شـــهد عهد الدولة القاجارية تصاعد الحركة الدينية واطوارها على الاحتفاظ بامتيازاتها التى تجسدت فى دستور ١٩٠٦ بما يمنحه من صلاحيات لرجال الدين . وخلال هــذا العهد بالذات تأكدت السلطة المزدوجة فى حكم ايران : سلطة الحاكم السياسى وسلطة رجل الدين آية للـــه أم عالمـــا (*) (٣٤) . واذا كان الشاه يســـتمد سلطته

(*) بنـــاء على هـــذه السلطة التى أمتلكها رجال الدين توفرت لهم القدرة على القيادة الشعبية . وأبرز الأمثلة على ذلك ما حدث فى معركة كسر احتكار التنباك التى خاضها الشيرازى . حيث برز تحالف بين تجار البازار ورجال الدين . فتضرر البازار من ذلك الاحتكار دفع التجار الى دعم ثورة الشيرازى والملا أو رجال الدين والتجـــار ككل فى مواجهة الشـــاه والاحتكارات الأجنبية . ورغم أهمية البازار ، وهو الحى التجارى الرئيسى فى مدن ايران وخاصـــة طهران ، وهو عصب الحياة الاقتصادية فى بلد لا يوجد فيه تصنيع ، فان ثورته ارتبط بالثورة الدينية ضد الاحتكار والتسلط فى الداخل والخارج . وحتى فى ثورة القوى الوطنية والتقدمية بقيادة الدكتور مصدق حيث كان لرجال الدين والملا دورا بارزا أيضا . فقد واكب اية الله الكاشانى حركة مصدق ودعمها . ولقد أعلن عام ١٩٤٨ أن الكاشانى نفســـه شكل جيشـــا من الايرانيين للتوجه الى القدس لمحاربة الحركة الصهيونية لكن اعلان الهدنة حال دون ذلك (٣٣) . وهو نفس التحالف الذى حدث بين رجل الدين والشارع الايرانى فى فترة ايران الخمينى حيث انتصرت السلطة الدينية حينما تصادمت مع السلطة العلمانية . يؤكد ذلك محاولة فهم العلاقة بين السلطتين ، فاذا كانت القيادة السياسية هى التى تمتلك القوة السياسية والعســـكرية فانه يتوازى مع ذلك أن القيادة الدينية هى القيادة الأقرب الى الجماهير والتى لها السيطرة عليهم . واذا كانت الأولى قادرة على تعبئة الجيوش ، فان الثانية أكثر قدرة وفعالية على تعبئة الجماهير وهو نوع من التوازن الدقيق بين قوى السلطتين .

من حق طبيعى مفترض يعود الى سلالة أو عائلة ، وهو الحق الذى تفرضه قوة السلاح . فان شرعية سلطة رجال الدين فى ايران تتأسس بناء على حق دينى وطوته نظرية الامامة (٣٥) . وحدود سلطة نائب الامام أو ولاية الفقيه الى أن يعود الامام الغائب الذى سوف يملأ الارض عدلا بعد أن ملئت جورا .

خاتمة القول أن الدين فى المجتمع الشيعى الايرانى لعب دورا رئيسيا فى قيادة المجتمع الايرانى وتعديل سيرته التاريخية حتى وصل الى تأسيس الدولة التى تعمل حسب مقتضيات التصور الدينى للنظرية الشيعية التى تعتبر ولاية الفقيه عنصرا أساسيا فى بنائها .

وتشـــكل الباكستان النموذج الثانى ، الذى يشهد هـــذه المرة على فعالية المذهب السنى فى تأسيس دولة اســـلامية . ولتحقيق ذلك فاننا نجد أن الدين من خـــلال زعاماته الدينية قد لعب دورا نضاليا من أجل تأكيد الطابع الدينى للدولة .

ويبدأ النضال الدينى فى الباكستان حينما كانت جزءا من شـــبه القارة الهندية التى انتشر فيها الاســـلام . فى اطار ذلك لم يكن من الممكن القول بأن الهند يعتبر مجتمعا مسلما . غير أنه بتقدم الامبراطورية البريطانية الهندية فان المســـلحون شكلوا ردود فعل متتابعة من وقت لآخر . ومن خـــلال أحداث التمرد الكثيرة التى وقعت فى الهند عادة ما كان يظهر المتمردين الذين يقودهم الملا وراء العلم الأخضر يحمل رمز القرآن الكريم . هـــذا بالاضافة الى أن هناك جماعة من المتمردين سمت نفسها بالوهابيين . وصاحب قيام أحداث التمرد هـــذه قبل ١٨٦٠ نمو عاطفة قوية معادية للبريطانيين بين علمـــاء الدين . وقد تدعمت هـــذه المشـــاعر المضادة للانجليز بعد هـــذا التاريخ بسبب فتوى أصدرها العلمـــاء المسلمون ضدهم .

وبسبب اعتقاد البريطانيين بأن الطبقة العليا المسلمة هى المسئولة عن هذا التمرد ، وذلك فى محاولة منها لاستعادة امبراطورية المغول خضع المسلمون للقهر واستبعدوا من الوظائف الحكومية باعتبارهم أتباع الديانة المتمردة واستمر هذا الوضع لنحو عشرون عاما تقريبا ، هذا الى جانب الدور الفعال الذى لعبه الوهابين ذوى النزعة الاصولية ، الذين وجهوا تمردهم فى الشمال وفى البنغال ضد البريطانيين باعتبارهم كفارا . وفى ١٩١٢ ازدهرت عاطفة اسلامية شاملة بين المسلمين الهنود تدعمت بواسطة احداث كهزيمة تركيا فى حروب البلقان ، واستعمار ايطاليا لليبيا . فى هذه الفترة كثر الحديث عن ضرورة الجهاد الاسلامى لكن شيئا لم يقع (٣٦) .

غير أنه برغم هذه العاطفة القوية التى خلقت من المسلمين فى الهند مجتمعا له ملامحه المتميزة ، فان الأمر الأكثر وضوحا خلال هذه الفترة أن معظم علماء الدين كانوا معاديين لفكرة الباكستان وذلك كاتساق منطقى لمعارضتهم قيام عصبة أو تحالف اسلامى ، وهو التحالف الذى كان متهم بالولاء للبريطانيين فى العشرينات والثلاثينات من هذا القرن (٣٧) .

وتجنبا للاستطراد فى سرد تفاصيل الأحداث والتفاعلات الخارجية والداخلية ، وهى التفاعلات التى أسلمت الى تأسيس دولة الباكستان فى ١٩٤٧ ، فانه بعد ثلاثة شهور من تأسيس الدولة شن رجال الدين حملة شعواء تطالب باستناد دستور الدولة الى الشريعة . وقد كانت هذه الحملة ضارية وشعواء وذلك لانه قد تكشف للجميع ان الدولة بقيادة محمد على جناح تسرع الخطى لكى تصبح دولة علمانية وليست اسلامية . حيث أوضح محمد على جناح الامر بصورة لا تحتمل الشك فى خطابه الافتتاحى للمجلس التشريعى حينما قال (لكم ان تنتموا الى اى ديانة أو عقيدة أو أى طائفة ... فليس لذلك علاقة بالدولة ... ونتيجة لذلك فانكم سوف تجدون أنه بمرور الوقت سيتوقف احساس الهنود بأنهم هنود ، وكذلك يتوقف احساس

المسلمون بأنهم مسلمون ، ليس بالمعنى الدينى ، لأن الدين ايمان شخصى ولكن بالمعنى السياسى أى كمواطنين فى دولة) (٣٨) . واذا كان قد قال (أن يتوقف احساس المسلمون بكونهم مسلمين) فان ذلك ليس هو الهدف التى ناضلت من أجله الجماهير وواجهت الموت . وعند هـذا الحد لا يختلف جناح فى نزعته الليبرالية هـذه عن العواطف الليبرالية التى عبر عنها فى ذات الوقت تقريبا غاندى ونهرو عبر الحدود . بل أننا نجد أن محمد على جناح يذهب الى أبعد من ذلك حينما يقول (ان الباكستان لن تصبح دولة ثيوقراطية يحكمها رجال الدين بوحى الاهى) ثم يستمر لكى يؤكد على هـذه المسألة التى أكدها سوكارنو بعد عـدة سنوات بقوله (أن الدولة الدينية قد تجعل أهل الملة التى لا تنتمى الى ديانة الأغلبية يمثلون مكانة الأقليات) وقد كرر تابعه على خان نفس القول حينما أكد (ان تأكيد السلطة فى الشعب سوف يقضى على خطر اقامة دولة ثيوقراطية ... وأن أى شخص مازال يستخدم كلمة الثيوقراطية بنفس معنى الدولة الباكستانية اما انه يمزح بعبث أو انه واقع تحت تأثير فهم خاطىء ، ومنذ هـذه اللحظة أصبح الباكستانيون أكثر الذين ينتقـدون أى ربط بين الدولة المسـلمة والنزعة الثيوقراطية ، وعلى أى حال فقد بدأ التيار مع أول قيادتين سياسيتين (٣٩) .

غير أن هـذه الفجوة بين رؤية العلماء والجماهير الباكستانية من ناحية ورؤية القيادة السياسية من ناحية أخرى كانت السبب الرئيسى وراء كل النضالات والعذابات التى عاشتها الباكستان منذ هـذه اللحظة ومازالت تعيشها . وبعد عام ونصف من تأسيس الدولة ، أى فى عام ١٩٤٩ ، أصدر المجلس التشريعى للباكستان نصا يؤكد على أنه ينبغى أن تكون دولة (يسـاعد فيها المسلمون على تنظيم حياتهم فى المجالات الفردية والجماعية حسب تعاليم الاسـلام وفروضه كما تحدد ذلك فى القرآن الكريم والسنة) . وهو الأمر الذى ترك الباب مفتوحا لانواع كثيرة من التفسيرات المتناقضة . ولم يحدث اتفاق على هـذه الصياغة الغامضة الا فى ١٩٥٦ .

وقد أضيف فى دستور ١٩٥٦ الى الشرط الاسلامى شرطين آخرين وهما أن يكون رئيس الدولة مسلما وأن تكون الباكستان جمهورية اسلامية . هذا الى جانب شرطين يتم العمل بهما فى المستقبل ، الأول يتعلق بتأسيس منظمة للبحث والتعليم الاسلامى ، والثانى ينص على تعيين لجنة تقوم فى ظرف خمس سنوات بتحديد الأسلوب الذى تتلاءم به القوانين مع التعاليم الأساسية للاسلام . وأيضا لتحديد الأسلوب الملائم لاكتساب التوصيات الاسلامية فعالية تشريعية . غير أنه بعد موافقة البرلمان على كل هذه التوصيات لم يصدر قانون واحد يتنافى والتعليم الاسلامية .

ولمدة خمسة عشر سنة تالية استمر القادة السياسيون فى الباكستان بما فيهم الماريشال ايوب خان فى العبث بالعناصر السياسية فى دستور المجتمع . وفى ١٩٦٢ صدر دستور آخر فى باكستان توقفت بموجبه الدولة عن أن تكون جمهورية اسلامية ، وحدث تعديل آخر فى السنة التالية حيث اسقطت كلمة السنه من ديباجة الدستور وابقى على القرآن باعتباره المصدر الوحيد ، وان كان قد حدث تراجع عن كل ذلك مرة ثانية . مع اضافة ضرورة تأسيس مجلس استشارى للأيديولوجيا الاسلامية الى جانب بناء مركز للبحث الاسلامى . بحيث كان الهدف الرئيسى من هذه المؤسسات هو التأكيد على ضرورة أن تتوافق القوانين مع المبادىء الاسلامية (٤٠) وبرغم كل ذلك لم يقترب المجتمع الباكستانى — فى هذه الفترة — من النموذج الاسلامى الصحيح .

وفى اعتقادنا أن النضال الاسلامى فى الباكستان لم يستطع تحقيق ذات الصيغة الايرانية وذلك بسبب التوجه السنى فى الباكستان . هذا بالاضافة الى أنه برغم فعالية علماء الدين فى الباكستان الا أن افتقادهم للتنظيم الدينى المستقل عن سلطة الدولة الى جانب عجزهم عن امتلاك مصادر تمويلية مستقلة ، يضاف الى ذلك التوجه العلمانى للقيادة السياسية ، بحيث دفعت كل هذه الظروف الى تأسيس باكستان لنموذج المجتمع الاسلامى ولكنه نموذجا ناقصا بدرجة ما .

٢ ـ النضال الاسلامى وتأسيس الدولة العلمانية

وان كان النضال اسلاميا فى هذا النموذج ، الا أنه لطبيعته الأساسية أولا ولظروف أخرى عديدة لم يستطع أن يؤسس الدولة الاسلامية وان كان قد استطاع الحصول على استقلال الدولة ذات الطبيعة العلمانية . ويختلف النضال فى هذا النموذج عن النموذج الاول بالنظر الى عدة خصائص أساسية .

(ا) الطابع غير النضالى لغالبية القوى الدينية فى المجتمع اذ وجدت على الساحة الاجتماعية ـ من منظور تاريخى ـ مجموعة من القوى الدينية غير المنظمة ، بحيث لم تشكل فى مجموعها قوة ذات شأن بالنسبة للنظام السياسى القائم بحيث تكون قادرة على دفعة فى اتجاهات معينة .

(ب) أن هذه القوى الدينية وان تجانست دينيا الا أنها كانت لا تمتلك عادة الوسائل التى تستطيع بها تعبئة الجماهير اذا حاولت الوقوف فى مواجهة النظام السياسى . حقيقة أن لها اتباعها الا أن سيطرتها على الجماهير ظلت واهية الى حد كبير . فهى تمثل حركة صفوات دينية ذات تأثير محدود داخل الجماهير .

(جـ) أن مجتمعات هذا النموذج كانت هدفا لتأثير علمانى واسع النطاق . فقد كان للاستعمار السبق فى اعادة تشكيل جوانب أساسية من البنية الاجتماعية . بحيث تخلقت الى جانب القوى الدينية صفوات علمانية ، وقد حدث تحالف مرحلى بينهما من أجل الحصول على الاستقلال . ومن ثم فتأسيس الدولة لا يمكن أن ينسب الى نضالها ، ومن ثم فقد كان على القوى الدينية فى سبيل أسلمة الدولة أن تقود صراعا مع الاستعمار من ناحية ، ومع رفاق النضال ضد الاستعمار من ناحية أخرى . وفى الغالب كانت هذه القوى تقدم على تنازلات أثناء تحالفها مع القوى الأخرى ، وذلك لنجاح التحالف النضالى ضد الاستعمار .

(د) كانت معظم القوى الدينية سنيه من حيث اتجاهاتها الأساسية . ومن ثم فهى قوى لم يحسم تراثها قضية العلاقة بين السلطة الدينية والسياسية . وذلك على عكس الفكر الشيعى الذى حسم هذه العلاقة لصالح ولاية الفقية ، ومن ثم ففى أحيان كثيرة فوجئت هذه القوى بتحقق الاستقلال بينما هى لم تطور تصورا متكاملا بعد .

(هـ) اعتمد تميز الدولة المستقلة بالطابع الاسلامى الى حد كبير على حجم القوى الاسلامية المناضلة ، وأيضا على طبيعة نضالها ، ثم وزنها النسبى وانجازاتها بالنسبة الى القوى الاجتماعية الأخرى . هذا بالاضافة الى مدى استمرار هذا الدور النضالى أو انقطاعه ، أو تنوعه عبر مختلف مراحل التاريخ النضالى .

(ز) ان هذه القوى فشلت فى معظمها فى تطوير مكانة محددة وواضحة للاقليات الدينية الأخرى داخل بنائها العقيدى . ومنثم كان ذلك هدفا أساسيا لتوجيه القوى السياسية الأخرى سهام النقد اليها . وأيضا عدم عثور الأقليات الدينية الأخرى على صيغة ملائمة لكل الأطراف تستطيع من خلالها المشاركة فى دعم الدولة الاسلامية والحفاظ على هوايتها .

(ح) تضخم حجم الصفوة العلمانية وفاعليتها فى مجتمعات هذا النموذج ، اذا استطاعت القوى الاستعمارية فى مجتمعات هذا النموذج من خلال التعليم والاعلام والبعثات خلق صفوة علمانية كبيرة تحمل ثقافته ونفس توجهاته الأيديولوجية ، حقيقة أنها ناضلت متحالفة مع القوى الأخرى ، لكنها استطاعت السيطرة على الدولة بعد الاستقلال وفرض توجاتها العلمانية على كل القوى الأخرى .

وتوجد مجتمعات كثيرة داخل العالم الاسلامى تنتمى الى هذا النموذج نذكر منها مصر ، والمغرب العربى واندونيسيا ، ومجتمعات كثيرة نشاهدها من حولنا يسودها الاسلام لكن تتميز صفواتها الحاكمة بأنها صفوات علمانية .

وفى مصر — كأحد مجتمعات هذا النموذج — نستطيع التمييز بين ثلاثة مستويات للتدين . ويتعلق المستوى الأول بالاعتقاد الدينى البسيط الذى يركز أساسا على مراعاة القواعد الدينية على مستوى الضمير الفردى ، عملا بقول الرسول الكريم (اللهم الهمنى ايمان البسطاء) . بينما يتمثل المستوى الثانى من التوجه الدينى ، فى ذلك الارتباط بالدين الذى يسود المؤسسة الدينية المتمثلة فى الأزهر الشريف وما يضم من علماء لهم تاريخ نضالى تأكد فى بعض الفترات التاريخية ، لكنه تراجع فى فترات تاريخية أخرى . ويشير المستوى الثالث الى الاسلام المناضل الذى يستهدف تأسيس المجتمع الاسلامى بالدعوة الحسنة ، وبالعنف اذا استلزم الأمر ذلك .

ويكشف البحث فى مستويات الاعتقاد الثلاثة هذه عن امتلاك كل منها لعنصر قوة خاص به . فالمستوى الجماهيرى تكمن مصادر قوته فى الجماهير التى لديها استعداد للاندفاع والموت فى سبيل معتقداتها الخاصة . أما عنصر القوة فى الاتجاه الثانى فيكمن فى كونه التعبير الرسمى عن الاسلام والدولة والمجتمع وقد خاض ممثلوا هذا المستوى معاركهم من خلال هذا الاطار . ويكمن عنصر القوة فى المستوى الثالث فى أسلوبه النضالى ، وهدفه الواضح . فهو على استعداد للتضحية من أجل بناء المجتمع الاسلامى المحتمل . وبطبيعة الحال فانه اذا كان كل مستوى من هذه المستويات يمتلك عنصر قوة خاصا به . فانه من الممكن أن يقود تجمع هذه القوى الى نضال شامل يساعد على تحقيق المجتمع المرجو ، غير أن ذلك نادر الحدوث تاريخيا .

وفى اطار المستوى الاعتقادى الأول نجد أن مصر منذ أن أصبحت بلدا اسلاميا ، تميزت بأن الاسلام ضرب بجذوره فى أعماقها ، مؤشرات ذلك احتفاء البشر بمصر بالاحتفالات الدينية والمواظبة عليها ، وهو ما يخلق انتشارا للمشاعر الدينية . غير أن الأمر المهم هو انتشار نوع من

الاســـلام الشعبى فى القرى والمدن المصرية . مؤشر ذلك أيضا أن موالد الأولياء تعتبر فى مصر مناسبات للاحتفالات الدينية الشعبية . وهى الممارسات والمشـــاعر التى يغضب لها أحيانا ذوى التوجهات الاســـلامية الأرثوذكسية . ويدرك كثير من المصريين الاســـلام باعتباره رابطة تضمهم وعاملا يوحد بينهم . وبرغم وجود من يتساءل عن طبيعة مكانة الاســـلام فى المجتمع ، فان بين هؤلاء الذين يحاولون دعم القضايا الدينية بالأفكار الاقتصـــادية والاجتماعية للقرن العشرين ، وهؤلاء الذين تخلوا عن المحاولة واختاروا العلمانية . وبرغم ذلك يسمى هؤلاء العلمانيين أنفســـهم مسلمين . وفى هذا المستوى نجد أن البشر (ســـواء كانوا مثقفين دينيا أو عاديين) يمارسون حياتهم حسب تراث دينى ورثوه عن آبائهم . لا تقلقهم الشكوك أو التساؤلات . يرتبطون بالدين باعتباره أساسا لا يتغير فى عالم متغير . ويمكنك أن تدرك عمق الايمـــان فى وجوه النســـاء اللاتى يزرن أضرحة الأولياء بحثا عن الخصوبة ، أو فى وجـــه العلماء ذوى الكبرياء الذين يسيرون فيها بين البشر يعبرون عن ايمان مؤكد وثابت لا يهتز (٤١) .

ويعتبر المستوى الثانى هو المستوى الرسمى بين هذه المســـتويات . ويكشف تحليل تاريخ الفكر الدينى على هـــذا المستوى عن وجود مرحلتين تاريخيتين . الأولى هى المرحلة النضالية ، وخـــلال هذه المرحلة كان رجال الدين هم الذين تولوا قيادة المجتمع المصرى وهم الذين حملوا مشاعل الحرية ورفعوا لواء الجهاد . وقفوا فى وجـــه نابليون وكانوا أسبق الناس الى الاستشهاد . الثابت تاريخيا أن الأزهر قد كافح أبان الحملة الفرنســـية ، فقد قاس رجاله وعذبوا وقتلوا وشردوا ، حتى قاد العناد الفرنســـيين الى اقتحام الأزهر بسنابك الخيل . ومنـــذ هذا التاريخ لم يتأخر الأزهر فى الدفاع عن العروبة والاســـلام واستمر يحمل الرســـالة حتى سلمها للجيش فى ثورة عرابى الذى قام متسلحا بروح الأزهر يطالب بحقـــوق الوطن(٤٢) . وتحت تأثير الأفغانى وارتباطا به كان الشـــيخ محمد عبده من أنصار العنف اذا كان لازما لتجديد العالم الاســـلامى بقيم الأصولية الاســـلامية (٤٣) .

واستمرار لهذا التيـــار ظهر رشيد رضا الذى ظل يكتب لخمسين عاماً مضت ، والذى كان يحدوه الأمل فى انشـــاء (الحزب التقدمى الاســـلامى) ، وهو الحزب الذى تقف أيديولوجيته عند نقطة المنتصف بين رؤية علماء الدين من ناحية وبين المغربون أصحاب وجهة النظر العلمانية من ناحية أخرى . وهو الذى نادى بأنه من الممكن تأسيس بعض التغيرات مع مراعاة المحافظة على الأساس الأخلاقى للمجتمع الاســـلامى ، وقد قدمت هـــذه الجماعة برنامجها عن التغير ، وان لم يكن له ــ برغم ذلك ــ تأثير كبير ، ذلك لأن هـــذه البرامج عجزت عن تطوير مشروع اســـلامى واضح ومحدد المعالم فى قالب متغير (٤٤) .

غير أن رجال الدين وان مارسوا دورهم الايجابى حتى ســـنة ١٩١٩ فانهم كأعضاء فى المؤسسة الدينية الرسمية دخلوا فى المرحلة الثانية من خـــلال الخضوع للنظام السياسى والولاء له . ومن ثم حرموا أنفســـهم من القيام بأى دور قيادى فى النضال ضد البريطانيين . وان كان ذلك لا ينفى قيامهم ببعض الأدوار المحددة للغاية فى هـــذا النطاق (٤٥) . ذلك يعنى أنهم فى مرحلة قادوا النضال ضد الاستعمار للحصـــول على استقلال الدولة ، ثم دخلوا فى مرحلة الاستئناس من قبل قوى الخارج والداخل ، حتى انتقلوا أخيرا الى مرحلة الخضوع الكامل للصفوة العلمانية وقبول سيطرتها عليهم .

ويشـــكل تيار الاســـلام المناضل المستوى الاســـلامى الثالث . وقد بدأ هـــذا التيار الدينى فى ظل ظروف تاريخية يسودها الاحباط من وجهة النظر الدينية . حيث انتشـــار العلمانية من خـــلال التأثر بأفكار محمد عبده من خـــلال سعد زغلول ، لطفى السيد ، اللذان برز دورهم فى أعقاب ثورة ١٩١٩ . وبرغم أن هـــذه التيارات قد ملأت الحيـــاة السياسية غنى وحيوية الا أن الضعف بدأ يعتريها ، ومن ثم فقد كان من المنطقى أن يتولد تيـــار جـــديد (٤٦) . الذى تمثل فى التيار الاســـلامى لجماعة الاخوان المسلمين .

وقد أسس حسن البنا جماعة الاخوان المسلمين فى ١٩٢٥ وكان عمره

حينئذ خمسة وعشرون عاما . حيث ينسب اليه فقط تأسيس هــذه الجماعة ، بل انها ما زالت تحمل تأثير شخصيته الملهمة . وقد بدأ الأمر حينما كان عمره عشر سنوات حيث التحق كعضو باحــدى الطرق الصوفية ، وهى العضوية التى استغرقت من عمره عشرون عاما ، وهى المرحلة التى طبعت تفكيره بطابع صوفى . الى جانب ذلك كان حسن البنا عضواً فى عــدد من الجمعيات التى تهتم أساسا بتنقية الحياة الاســلامية فى مواجهة التبشير الدينى . ويتضــح الاهتمام الدينى المبكر لحسن البنا من اتصاله حينما كان طالبا بالقاهرة بسلطات الازهر بسبب عدم فعاليتها فى مواجهة الاتجاهات التبشيرية والملحدة . وأثناء التسعة عشر عاما التى عملها كمدرس فى المدارس الابتدائية الحكومية فى الاسماعيلية نجده قد أسس جماعة الاخوان المسلمين مع ستة أعضــاء آخرين عملوا تحت امرته باعتبارهم جنود الاسلام . وبعد أربعــة سنوات من العمل المضنى أصبح لجماعة الاخوان المسلمين فروع فى كل منطقة قناة السويس .

وقد خططت الجماعة لتجسيد برنامج مطرد لبناء المســاجد والمدارس والنوادى وبعض الصناعات المنزلية الصغيرة . وبعد انتقال حسن البنا مباشرة الى القاهرة بدأ فى تشكيل كتائب الكشافة ، واصدر المجلات التى تعبر عن وجهة نظر الجماعة . وفى نفس الوقت استمر بنجاح فى تجنيد الأعضاء ، حتى أنه بحلول ١٩٣٩ أصبح الاخوان المسلمين قوة لا يستهان بها جذبت انتباه الساسة المصريين .

وفى عام ١٩٤١ تم اعتقال حسن البنا بسبب تشهيره العنيف بالبريطانيين . وبعد سنة واحدة أسس البنا ما أصبح يعرف فيما بعد بالجهاز السرى الذى يضم الرجال المسلحون للتنظيم . وعلى المستوى الشــعبى استمر الاخوان المسلمون فى بناء المدارس والمعاهد لاستيعاب قدر أكبر من الدارسين ، هــذا الى جانب الاستمرار فى بناء الصناعات الصغيرة ، والخدمات الصحية فى المستشفيات والعيادات التابعة لهم .

وقبل ١٩٥٢ تمت بعض الاتصالات غير المنتظمة بعبد الناصر قائد حركة الضباط الاحرار من خلال أنور السادات وآخرين من الضباط الاحرار . وفى منتصف الاربعينات أيدت الحكومات المصرية المتعاقبة جماعة الاخوان المسلمين بسبب حجمها وانضباطها وموقفها المعادى من الشيوعية . بما فى ذلك السماح لها باصدار جريدة يومية فى ١٩٤٦ . وقد كان حتميا أن تقع منافسة عدائية بين الاخوان والوفد ، وهو الحزب القومى الرئيسى ذو التوجه العلمانى خلال هذه الفترة . وهو الأمر الذى دفع الى حدوث بعض الصدامات بينهم فى مختلف أنحاء البلاد ، وبخاصة فى الجامعات . غير أن هذه الصدامات توقفت مؤقتا حينما بدأت الحرب العربية الاسرائيلية بسبب مشروع تقسيم فلسطين فى ١٩٤٧ . حيث اندفع المتطوعون المسلمون المدربون من الاخوان الى سيناء ، وقاموا بدور بسيط فى القتال ولو أنه كان فعالا .

وفى نفس الوقت نظم الاخوان فى القاهرة فى ١٩٤٨ سلسلة من حوادث العنف ضد الاستعمار والسلطة المتحالفة معه بما فى ذلك أول اغتيال أقدمت عليه الجماعة . حدث ذلك حينما أدركت الحكومة صدفة تنظيمها السرى ، ومن ثم قامت بحل جماعة الاخوان فى ديسمبر من نفس العام . وبعد عشرة أيام من قرار الحل قام رجل مسلح من الاخوان المسلمين باغتيال النقراشى باشا رئيس الوزراء . وبعد ستة أسابيع أخرى أطلق البوليس السياسى النار على حسن البنا ذاته فأرداه قتيلا (٤٧) (*) .

(*) كان حسن البنا — فيما يبدو — قد أحل اغتيال النقراشى لكنه لم يلبث أن غير رأيه ... لكن تغييره لرأيه جاء متأخرا ... فقد مضى (النظام الخاص) فى خطته ونفذ بنجاح عملية الاغتيال ... وقد حاول البنا أن يتنصل من مسئولية الاغتيال . ومضى أكثر حينما أصدر بيانا بادانتها ؛ وكان عنوان بيانه الشهير فى ذلك الوقت (ليسوا اخوانا وليسوا مسلمين) يقصد بذلك الذين قاموا بالاغتيال(٤٩) .

وبعد ثلاث سنوات من الغاء الحظر على وجودها بدأت جماعة الاخوان المسلمين نشاطها تحت قيادة قائد جديد هو الهضيبى . وهو قاضى شيخ بالمعاش ولكنه رجل يختلف تماما عن حسن البنا . وفى أعقاب الغاء مصر لمعاهدتها مع بريطانيا ، وقعت الاشتباكات المسلحة داخل منطقة القناة الواقعة تحت السيطرة البريطانية ، حيث لعب متطوعو الاخوان دورا فعالا فى هذا الصدد . وقد بلغت هذه المصادمات أقصى معدل لها بحريق وسط القاهرة فى يوم الاحد الاوسط ٢٥ يناير ١٩٥٢ ، والذى شارك فيه الاخوان حسبما تذهب بعض الادعاءات . وهو الامر الذى ساعد على قيام حركة الجيش فى يونيو ١٩٥٢ بقيادة عبد الناصر . وبسبب اتصالاتهم بقيادة الحركة رحب الاخوان بها . وقد طلب من الاخوان المشاركة فى المجلس العسكرى الاول لكنهم رفضوا .

وقد أعفت حركة الضباط جماعة الاخوان المسلمين من قرار الحل الذى فرضته على الأحزاب الأخرى . غير أن هذه الحالة من الود لم تدوم ، وذلك لأن الاخوان المسلمين كانوا من القوة والاستقلال الذى لا تسمح به أى حكومة . ومن ثم صدر قرار بحلها مرة أخرى فى يناير ١٩٥٤ . غير أن القرار لم ينفذ بصورة دقيقة . ومنذ ذلك الوقت لم يكن هناك تعاون حقيقى بين النظام العسكرى والاخوان . وفى ٢٦ أكتوبر ١٩٥٤ حاول الاخوان أن يغتالوا عبد الناصر علنا فى الاسكندرية . وكان من نتيجة ذلك صدور حكم بشنق ستة من كبارهم بما فيهم الهضيبى نفسه غير أن الحكم خفف الى السجن فقط بالنسبة للهضيبى وقضى على الحركة تماما خلال هذه المرحلة (٤٨) .

وبغض النظر عن تاريخها النضالى ، فقد تميزت جماعة الاخوان المسلمين بتنظيمها الممتاز الذى وضعه لها حسن البنا . حيث نجد من بين مراكزها الأساسية ستة لجان تتولى التعامل مع المجالات المختلفة للعالم الاسلامى . منها مثلا اللجان التى تهتم (بالعمال والفلاحين) و (الطلبة) و (أصحاب المهن) ، ومن حيث البناء الداخلى يتدرج بناء الجماعة الى أربعة درجات متصاعدة تمر بها العضوية . وتسمى الوحدة الأساسية للتنظيم بالأسرة وليست الخلية ، وتتكون فى العادة من خمسة وأحيانا عشرة اعضاء .

أما فيما يتعلق بحجم عضوية الاخوان فنجد أن معظم التقديرات بشـــأن ذلك ظنية • حيث تؤكد بعض التقديرات على أن الجماعة ضمت فى عضويتها نحو مليون ونصف عضو ، هـــذا بالاضافة الى الأعضاء النشطين على قمة التنظيم • ومن الجوانب الطيبة لنشـــاط الاخوان نجد نزعتهم الانسانية الشاملة ، والمشروعات الصناعية الصغيرة ، ثم جمعية للتأمين الاجتماعى الاســـلامى • أما فيما يتعلق بكتائب الفرسان ، أو الجيش الخاص ، فيقال انها بلغت نحو ٤٠٫٠٠٠ فى وقت ما • ولم يكن للبنا ذاته ســـيطرة على الجهاز السرى ، وهو الجهاز الذى كانت الاغتيالات مهمته الأساسية • ومن هذا الجانب بدت جماعة الاخوان متطرفة من حيث نضالها ، وتحتوى على حظر ايجابى الا أنها كانت وما تزال سرية •

نجد ان لجماعة الاخوان جانب ثالث ، وهو الجانب التى حاولت أن تقـــدم فى اطاره — من خـــلال مطبوعاتها — اجابات اســـلامية للقضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية(٥٠)(*) •

وبغض النظر عن التوجه السنى لجماعة الاخوان المسلمين فقد كان بالامكان أن تطور جهازا دينيا قادرا على التعبئة الجماهيرية مثلما فعلت الشيعة • وقد كان فى امكانها أن تشكل قاعدة ثورية لتغيير المجتمع ، غير أنه ظهرت مجموعة من الظروف التى حددت من فعاليتها الى حد كبير •

أول هذه الظروف أنها كانت تقاتل على جبهات عديدة برغم قوتهـــا المحدودة نسبيا • فهى من ناحية تقاتل الاستعمار وتشارك الفئات الأيديولوجية

(*) على خلاف ما يذهب اليه الكاتب المصرى محمد حسنين هيكل (٥١) من أن الاخوان المسلمين لم يطوروا نظرية يصف حسن البنا جماعة الاخوان المسلمين بأنها ليست كما يعتقد البعض جماعة من المبشرين ، وليست جماعة صوفية كما يعتقد آخرون • وانما هى جماعة تنادى بالعودة الى الاســـلام الصحيح الذى هو عقيدة وممارسة ، وطن وقومية ، دين ودولة ، روح وجسم ، قرآن وسيف •• ويعكس شعار الاخوان المسلمين هـــذا التوجـــه وهـــو الشـــعار الذى يذهب (بأن الله غايتنا ، والرسول قائدنا ، والقرآن دستورنا ، والجهاد سبيلنا ، والموت فى سبيل الله هو أسمى أمانينا)(٥٢) •

الاخرى فى هـــذا النضال من اجل استقلال الدولة ، وهى من ناحية اخرى تقاتل الفئات الايديولوجية الاخرى خاصة الوفد والشيوعيين . هـــذا الـــى جانب مشاركتها فى المعارك القومية الكبرى كفلسطين ، بحيث شكلت هـــذه الجهـــود عبئا كبيرا عليهـــا وان كانت الاســـاس الذى وفر الشرعيـــة الاجتماعية لوجودها *

أما الظرف الثانى فيتمثل فى أنها تعجلت النضال والدخول فى مواجهة مع النظام السياسى ، وقد كان يمكن أن تقلل فى مراحلها الأولى الاعتماد على جناحها العسكرى ، وان توجه قدراتها التخطيطية والتنظيمية الى تعبئة الجماهير بحيث تصبح هذه الجماهير جنودها فى اللحظة الحقيقية والحاسمة . ومن ثم وجدنا أنها بقيت عند مستوى شريحة كبيرة من الصفوة فى قلب جماهير قد لا تستوعب توجهاتها ومن ثم تتعاطف مع حركتها .

ويتمثل الظرف الثالث فى افتقادها القيادة الكارزمية فى لحظات المواجهة الحاسمة مع النظام السياسى . ففى فترات التأسيس ساعدت الشخصية الكارزمية للبنا على بناء الجماعة ، بيد أن الهضيبى لم يكن هو القيادة الملائمة خاصـــة أن فترة قيادته كانت فترة الفاعليـــة الحقيقية للتنظيم والمواجهة مع النظـــام (*) .

(*) لا نتفق مع الكاتب المصرى محمد حسنين هيكل حينما يذهب الى القول (وفى الحقيقة فانه لم يكن هناك برنامج عمل محدد للاخوان المسلمين ، فلم يكن كافيا للشيخ (حسن البنا) أن يقول لكل من يسأله عن برنامج الجماعة أن ذلك البرنامج هو (القرآن) ، ولا كان كافيا أن يقول أن مطلبه هو (اقامة حكم اسلامى) ولا كان كافيا بنفس المقدار ان يزداد الضغط عليـــه للافصاح عن برنامجه فلا يجد ما يقوله غير (عندما تكون لدى الكلمة وتجىء الظروف المناسبة ، فسوف نتكلم عما يمكن عمله على ضوء الواقع الذى نجده . وحتى يحدث هـــذا فلن ندخل أنفسنا فى ضباب التفاصيل (٥٤) .

وفى الحقيقة فانه اذا كان حسن البنا لم يفصح عن برنامجه فان ذلك لأن الظروف لم تكن ملائمة للافصاح عنه . خاصة أن هـــذا البرنامج يعتمد على المواثيق الاســـلامية الأساسية . هـــذا الى جانب أن هـــذا البرنامج كان يهتم بالرد على التساؤلات التى تنشر فى مطبوعات الاخوان المسلمين ، =

وأيا كان تقييمنا لهذه الجماعة فقد لعبت دوراً أساسيا فى تأسيس الدولة والحصـــول على الاستقلال نتيجة للنضال مع الاستعمار لكنها برغم نضالها الاســـلامى لم تستطع أن تضفى الطابع الاســـلامى على الدولة بسبب مجموعة الظروف التى أشرنا اليها .

ويقترب الدور الذى لعبه النضال الدينى الاسلامى فى الجزائر من حيث الأسلوب والنتيجة التى وصل اليها . ولتوضيح هـــذه الحقيقة فان قراءة النضال الجزائرى يكشف عن وجود أربعـــة مراحل نضالية محددة .

وقد توجه النضال فى المرحلة الأولى ضد الاحتلال التركى للجزائر . وهو النضال الذى تحملت الطرق الصوفية أعباء قيادته فيما قبل ١٨٣٠ . فى هـــذا الصدد نجد أن الشـــيوخ والأشراف هم الذين قادوا رجالهم ضد ممثلى الداى ، مثل جامعى الضرائب ، أو ممثلى الداى فى ادارة مختلف شـــئون المجتمع ، بل اننا نجد أن العائلات والقبائل كانت تشـــكل فرق نضال مضاد لكل ما هو أجنبى خلال هـــذه المرحلة (٥٢) .

وخلال هـــذه المرحلة والتى امتدت منـــذ نهاية القرن الثامن عشر وحتى بداية القرن العشرين نجد أن الاخوان المسلمين الذين كانوا يتمتعون بنفوذ قوى فى الجزائر يقومون بشن هجمات قوية أوقعت الضرر البالغ بالبنـــاء السياسى للولاية التركية . حيث شاركت كل الطرق الصوفية القائمة فى تحالف وجـــه أساسا الى السلطة الحاكمة فى مدينة الجزائر . ويمكننا القول

= وهى الردود التى كانت تنطلق من اطار نظرى تمتلة الجماعة . بالاضافة الى ذلك فان التربية الاعتقادية لجماعة الاخوان التى انتشرت بهذه السرعة يفترض امتلاك هـــذه الجماعة لبرنامج نظرى قادر على اشباع التساؤلات الأساسية لأعضائها . هـــذا الى جانب أن هـــذه الحركة المنظمة لجماعة الاخوان سواء على صعيد انتشار التنظيم أو مؤسساته أو حركته فى مختلف المجـــالات الاجتماعية والثقافية ، كل ذلك ما كان يمكن أن يتم له النجاح بدون الانطلاق من وضوح نظرى كامل .

بأن انتشـــار الطرق الصوفية خلال هـــذه الفترة كان مســـئولا عن وضع نهـــاية للتحول المحتمل فى النظـــام الحكومى الذى استهدف السيطرة على المجتمع الجزائرى . حقيقة أن الطرق الصوفية لم تنجح فى الاطاحة بسلطة الداى ، وذلك يرجع الى أنها لم تنجح فى تأسيس التحالفات التى يمكنها الاستمرار حتى تتحقق أهدافها (٥٥) .

وفى المرحلة الثانية ، وهى المرحلة التى شهدت بداية الاحتـــلال الفرنسى للجزائر ، فانه برغم قدرة هـــذه الطرق على تعبئة المحاربين الا أنه من الثابت أنها كانت تعانى من عجز تنظيمى فادح ، جعلها غير قادرة على دفع قوى الاحتلال الفرنسى (٥٦) بل اننا نجد أنه حينما احتل الفرنسيون مدينة الجزائر لم يكن هناك القائد الدينى القوى القادر على ضم الاخوان والمرابطين تحت امرته وذلك لدفعهم لدحر الفرنسيين ، لم يكن هناك مهدى أو نبى يمكن التسليم به كأمير ، ومن ثم يكتسب شرعيته كرئيس للدولة وقائد للنضال . كان هناك حالة من الايمان الدينى المنتشر فى المناطق الزراعية التى توغل الجنود الفرنسيون فيها ، غير أن حالة الاعتقاد هـــذه لم تتحول من وضعها السلبى الى وضع أيجابى يشكل أساسا عقيديا لدولة جديدة (٥٧) .

بل زاد الأمرترديا حينما تمكن الفرنســـيون من السيطرة على الطرق الصوفية بنفس أسلوب الولاية التركية . حيث قام المحتلون بالتحالف مع بعض الطرق ، ومعاداه أخرى . بل اننا نجدهم قد عمدوا فى أحيان كثيرة الى خلق منافسة بين هـــذه الطرق وبعضها البعض بحيث أنه بعد عشرين ســـنة تحققت الهزيمـــة الكاملة لهـــذه الطرق وأجبرت بعـــد ذلك على تقليل نشـــاطها (٥٨) .

ويعتبر الجهاد الذى بداه الأمير عبد القادر الجزائرى نقطـــة بداية المرحلة الثالثة . ويعتبر جهاد عبد القادر الجزائرى المحاولة الوحيدة لتأسيس نظم وأبنية سياسية لا تنبثق عن نزعة صوفية وان كانت ترجع الى نزعة اســـلامية أرثوذكسية . وحسبما تذهب دراســـات عديدة ، فقد كان الأمير

عبد القادر هو الوحيد الذى حاول اعلان حكومة فى المنطقة التى خضعت له فى الفترة من ١٨٣٢ ـــ ١٨٤٠ ، فقد كانت هـــذه هى المرة الأولى لقائد جزائرى محلى (عضو فى جماعة اســـلامية) يحاول تأسيس سلطة جديدة على قطعة من الأرض تخلت عنها الادارة التركية ولم تحتلها العسكرية الفرنسية(٥٩) .

ويعتبر الجهاد الذى قاده عبد القادر الجزائرى فى ١٩٣٢ هو البحث الاول عن القومية الجزائرية ، الذى احتوى على مضمون اســـلامى واضح . واذا كان عبد القادر نفســـه ابنا لأحد قادة الطريقة القادرية ـــ أحد الأولياء أو مربوطا كما يسمى فى المغرب العربى ، وهو الأمر الذى دفع عبد القادر الابن الى أن يحاول أن يكون هو الآخر مربوطا ـــ فاننا نجده تحت تأثير عقيدة اســـلامية وحس قومى يعلن الحرب على فرنســـا فى مايو ١٩٣٢ بعـــد الفراغ من الصلاة ، باعتبار هـــذه الحرب جهادا اســـلاميا . ولأن الحرب اســـلامية ، فاننا نجده يرفع شـــعار ان أى مسلم يتعاون مع أعداء الأمير (الفرنسيين) لا يصبح مسلما ويعامل معاملة الكفار . ويعتبر الدعم القوى والمستمر الذى تلقاه الأمير عبد القادر الجزائرى من الطريقة القادرية خـــلال فترة النضال التى استمرت خمســـة عشر ســـنة أحد المصـــادر الرئيســـية لقوته (٦٠) .

وفى الفترة الواقعـــة بين حرب الاستقلال الأولى ـــ التى قادها عبد القادر الجزائرى ـــ وحرب الاستقلال الثانية التى تمكنت من الحصـــول على الاستقلال وتأسيس الدولة الجزائرية ، نجد أن النضال الدينى قـــد تحول من المقاومة الايجابية الى المقاومة الســـلبية . وهى المقاومة التى نجد مؤشراتها فى رفض السيطرة والقـــانون والثقافة الفرنســـية والابتعاد عن أى تعامل مباشر مع المستعمرين الجدد .

وخلال هـــذه المرحلة قام علماء الدين فى الجزائر بنضال دينى له أبعاده المتعددة . فهم من ناحية كان عليهم المرابطين وكل الحركات الدينية المحافظة التى أبقت على اســـاطير الأولياء الخرافيين أو المهدى المنتظر . هـــذا الى

جانب انهم كان عليهم أن يوجهوا النقــد الى الاســـلام الرسمى الخاضع للسيطرة الفرنســية . بالاضافة الى ذلك فقد كان الوقوف فى وجه أصحاب النزعات الاصلاحية ، اذ كانت لديهم حساسية فائقة نحوهم . لقد كان عليهم أن يؤكدوا فى هــذا الصدد أن البشر الذين تخلوا عن ايمانهم لكى يصبحوا فرنسيين قد اختاروا الموت نهــاية لهم . غير أنهم فى ممارستهم هــذه لم يتوقفوا عند مستوى نقد الجماعات الاخرى أو صد هجومها ولكنهم بذلوا جهودا جادة فى محاولة لاحيــاء الهوية العربية والاســلامية للجزائر . ومن ثم نجدهم قدموا — مستندين فى ذلك الى الخلفية الاســلامية الأصيلة — للمجتمع الجزائرى مجموعة من القواعد ذات الأصــول الثقافية الاســلامية ، يمكن أن تعتبر اطارا مضادا للاطار الاستعمارى . وبمعنى ما نجدهم قد حولوا المقاومة الســلبية الى مقاومة ايجابية ، ومن ثم فقد انتقلوا من الاتجاه الدفاعى الى الاتجاه الهجومى (٦١) .

وبرغم الصعوبات الكثيرة فقد تمكنوا من تأسيس سياسة لمواجهة المثل والثقافة الغربية ، تستند الى ثلاثة أبعاد تتمثل فى الأيديولوجيا الدينية ، اللغــة العربية ، الهوية القومية . وبرغم أن هــذه الأسلحة ليست عسكرية وليست سياسية ، فانها حولت ترابط العلمــاء الى حزب دينى حقيقى له مدارسه الخاصــة ، ومستوياته الثقافية ، ودورياته التى تصدر باللغــة العربية أو جهاز فعال للدعاية والاعلام (٦٢) .

ذلك يعنى أن رجال الدين قد انتقلوا بالنضال الاســلامى من النضال الصوفى السلبى المعتمد على أولياء الريف المقدسين الى نضال أكثر فعاليــة يحاول أن يقــدم رواسخ ثابتة للهوية الجزائرية ، ولقد كان لهذا الانتقال عوامله العديدة ويتمثل العامل الأول فى ضعف فاعلية المرابطين وانهيارهم ، فمع أحكام السيطرة الفرنســية وانتشارها فى مختلف أنحاء الجزائر فقد أولياء الله قوتهم التقليدية طالمــا أنه لم يعد باستطاعة البشر الاعتمــاد عليهم . هذا الى جانب تفتت البنية القبلية التى تشكل اطــارا لهــؤلاء

الأولياء بسبب هجرة البشر من الريف والبادية للعمل فى مزارع الفرنسيين . هـذا الى جانب أنه نظراً الى أن المرابطين محليين وقبائليين فانهم عجزوا عن مواجهة المسـائل التى تتجاوز حدود محلياتهم ، ومن ثم أنتفت فاعليتهم فى التعامل مع القضايا العـامة ذات الطبيعة القومية (٦٣) . ويتمثل العامل الثانى فى قوة الأصالة التى امتلكها هؤلاء العلمـاء ، الذين قدموا مجموعة من القضايا والأفكار الجديدة التى تستند الى التراث التقليدى وان كانت قادرة على التكيف مع التحديث الضرورى . والتى يمكن أن تستجيب لحاجات الافراد والمجتمع ... وهو ما يعنى أنهم قدموا صورة للهوية الجديدة للامة الجزائرية ... من خـلال الكتابات التى قدمت خـلال هـذه المرحلة ، وبخاصـة المقالات التى نشرها بن باديس Bin Badis فى الفترة من ١٩٣٦ — ١٩٣٨ فى مجلة الشهاب (٦٤) .

ويعنى ذلك أن التصدى النضالى الذى قدمه علمـاء الدين فى الجزائر وان لم يؤكد على العنف والوسـائل السياسية ، فانه اكد أن نجاح النضال لا يكون فقط من خـلال ابراز المتضاد القومى مع الفرنسين ، ولكن خـلال الصراع الدينى معهم . ولقد لاقى اعلانهم على هـذا النحو موافقة قوى كثيرة من سـكان المدن . حيث اسـتطاع العلمـاء كما ترى البرجوازية الصـغيرة ، وحتى بروليتاريا المدن — الذين جذبتهم الحضـارة الأوربية أو مستوى المعيشـة المرتفع أو الثقافة الفرنسـية — ان يقدموا اسـطورة العروبة والاسـلام كطريقة لبناء المجتمع الجزائرى فى مواجهة الأسـطورة الفرنسـية للتحول من خـلال الوسائل الغربية .

هـذا الى جانب انهم قد قدموا لسـكان المـدن امكانية التخلى عن الاسـلام الصوفى — الذى سـاد القبائل والمرابطين والمناطق الزراعية — واساليبه الدشاعية ، وهو الاسـلام الذى كان صالحا للماضى وان كان غير صالح للمستقبل . اذ رفضوا المرابطين لأنهم فقدوا اى تأثير ممكن ، ومن ثم قدموا أنفسـهم باعتبارهم حاملو لواء الاسـلام الجديد ، وهو الدين النقى

من خلال العودة الى أصـوله السـليمة ومن ثم خلعوا على أنفسـهم شرعية أنهم المؤمنون وهم البشر المقدسون وهو الأمر الذى يعنى أنهم أصبحوا القادة الحقيقين للمجتمع الجزائرى المسلم .

وفى مرحلة النضال الرابعة والتى شملت الفترة من ١٩٢٠ — ١٩٦٢ بدا وكأن العلماء الذين اختاروا عـدم المشاركة عن قصـد فى المعـارك السياسية — والذين تخلوا عن اللعبـة الانتخابية للجماعات والأحـزاب السياسية الأخرى — لم يستطيعوا الحصـول على الدعم الكافى لمكانتهم ومن ثم أمكن تنحيتهم جانبا من الناحية السياسية . وبدت مقاومة الفرنسيين خلال هـذه المرحلة غير مجدية اذا تمت على أسس دينية ، بل انها قد تؤدى الى نتائج عكسية تماما . ومنذ هـذه اللحظة بدأ العلمـاء يفتقدون رصيد الشرعية الذى استطاعوا الحصول عليه . وذلك لصالح الاسـلام الرسمى . وتحولت النزعة الاصلاحية للعلماء الى نزعة اصلاحية تخص الدولة وقد تم ذلك لعوامل عديدة .

من هـذه الأسباب ظهور مصدر جديد للشرعية ، وذلك من خـلال حرب التحرير ، حيث أصبح الكفاح المسلح هو الطريق الوحيد لوضع حـد للاستعمار . ولم يستطع العلماء المشاركة بطبيعة الحال . وذلك برغم أن بعض ممثليهم شاركوا فى جبهة التحرير القومية . أما العامل الثانى فيتمثل فى أن أصحاب الاصلاح الدينى فى الجزائر لم يكونوا وحدهم الذين طالبوا بالاستقلال ، فهناك قوى أخرى طالبت به وناضلت من أجله . هـذا الى جانب عامل ثالث يتمثل فى عجز مجموعة العلمـاء فى التحول الى هيئة الحزب السياسى حيث المعركة سياسية فى أكثر جوانبها ، ومن ثم فقد ظلوا عند مستوى جماعة الضغط فقط . وقد كان من نتيجة هـذه العوامل تعدد مصادر الشرعية ، وأيضا اشتراك الجميع فى التأكيد على الدين كأداة نظرية من أجل التحرير القومى (٦٥) . وهو الأمر الذى انعكس على تجمع الدور المحدد الذى يمكن أن يلعبه العلمـاء فى النضال الجزائرى .

وقد أدرك الجزائريون خـــلال سنوات الحرب أن ايمانهم الاســـلامى لم يدعمهم أخلاقيا ، ولكن الصلاة وارتياد المســـاجد كانت من المســـائل التى أكدت على الهوية الجزائرية . واذا كان قادة حرب التحرير لم يكونوا — على خلاف الأمير عبد القادر الجزائرى — من رجال الدين — بل اننا نجدهم قد استاؤا من عقيدة المرابطين — فان الأمر لم يعدم كونهم متدينين مثل الكولونيل بومدين الذى كان أحـــد الدارسين بالجامع الأزهر . ومن ثم فليس مما يثير الدهشــة بعد كل هـــذه الرحلة النضالية للاســـلام ان يصف الدســـتور الجزائرى الدولة باعتبارها دولة اســـلامية (٦٦) .

خلاصة القول فيما يتعلق بالدور النضالى للاسلام فى مجتمعات هـــذا النموذج ، انه كان نضالا فعالا ، تأسست فعاليته فى القدرة على تعبئة الجماهير ودفعها فى طريق النضال ، وأيضا فى ادراكه أن أسلحة النضال لابد أن تكون اسلامية أساسا هـــذا الى جانب سعيه للتلاؤم مع الظروف المتغيرة ، سواء أصـــابه النجاح أو الفشل . غير أن البحث فى ملامح النضال الاســـــلامى لمجتمعات هـــذا النموذج يكشف عن الخصـــائص الأساسية التاليـــة .

(أ) أن النضال الاسلامى لتحقيق استقلال الدولة ظـــل حكرا على شريحة ضيقه من البشر المؤمنين بضرورة بناء المجتمع الاسلامى ، أيا كانت توجهاتهم الدينية . الا أنهم فشلوا فى تعبئة الجماهير حسب نموذج المجتمع الاسلامى . ومن ثم فقد ناضلوا كقوة ضد الاستعمار بيد أنه كان من السهل سحقهم والقضاء عليهم ، لأنهم فشلوا فى أن يجعلوا من الجماهير قوة ضاغطة تكون وسيلتهم فى الحصول على استقلال المجتمع الاسلامى ، والتأكيد على هويته هـــذه .

(ب) عجزت هـــذه الجماعات النضالية عن توفير الاطار الملائم لالتقاء الاسلام الشعبى البسيط القائم على العاطفة بالاسلام العقلانى الذى يخاطب العقل والادراك . بل اننا نجد أن الكثير من هذه النضالات ظل عند مستوى

التعبئة العاطفية التى قد تصلح لمرحلة ، لكنها بالتأكيد لا تلائم كل المراحل . بل اننا نجد أن أيا من الجماعات النضالية فى اطار هذا النموذج لم تستطع أن يطور تصورا متكاملا لمجتمع اسلامى متجدد يستطيع أن يحدث نفسه على نفس التوازى مع المجتمعات الأوروبية الأخرى ، ولكن من طريق آخر . وحتى اذا اقتربت جماعات أخرى من امتلاك تصور ، فانه لم تمتلك القنوات الملائمة للترويج له جماهيريا .

(جـ) أن النضال شاركت فيه جماعات أخرى اتسع نطاقها بفعل الثقافة الاستعمارية التى بدأت فى التغلغل . وبرغم التغريب الذى حدث لهذه الجماعات ، فانها شاركت فى النضال من أجل الاستقلال ولكن وفقا لتوجهات مختلفة عن التوجهات الدينية ومن ثم فقد كان عليها أن تحصل على نصيبها من كعكة الاستقلال ولأن وزنها أكبر نسبيا ، ولأنها مدعمة بالقوى الخارجية فانها استطاعت السيطرة على دولة الاستقلال وصبغها بتوجهاتها .

ونتيجة لذلك فاننا نجد أنه برغم النضال الاسلامى فى مجتمعات هذا النموذج ، وبرغم الاستقلال الذى تحقق للدولة ، فان هذه الدولة لم تتبنى الطابع الاسلامى ، بل اننا نجدها قد تبنت توجهات علمانية ، بحيث تحقق نجاحها من خلال سيطرتها على الدين ذاته ، وهو الامر الذى سوف يكون أساس الصراع بين الدين والدولة فى مرحلة تاريخية تالية .

٣ — النضال العلمانى لتأسيس الدولة العلمانية

ويضم النموذج الثالث مجموعة المجتمعات التى لم يلعب فيها الاسلام دورا نضاليا مباشرا . اذ نجد أن النضال الاسلامى فى مجتمعات هذا النموذج قد اتخذ عدة اشكال . فى الشكل الأول نجد أن المسلمين قد جاهدوا من أجل الاستقلال ، الا أنهم حينما قادوا الجهاد تولوه على أسس قومية وليست دينية بدلالة مشاركة أبناء الملل الأخرى فى ذات الجهاد ، وربما لدفعهم الى المشاركة فى الجهاد . أما الشكل الثانى الذى اتخذه الجهاد فيرجع

بالأساس الى أن الاسلام ذاته يضم مجموعات ذات توجهات اسلامية داخل بنائه ، قد تختلف هذه الجماعات من حيث توجهاتها الاسلامية غير أن الأمر قد يتحول الى تباين أو تناقض اذا تحولت الاختلافات الثقــافية الى تباينات بنائية كما هى الحال بالنسبة للسنة والشيعة فى العراق ، وكما هى الحال بالنسبة للفئات الاسلامية فى سوريا بالاضافة الى أهــل الملل الأخرى . أما الشكل الذى قد يرجع الى أن الاسلام لم يناضل لسبب طبيعة الاتجاهات السائدة فيه كأن تكون اتجاهات صوفية أو محافظة . اذا حدث ذلك فاننا نواجه بفكر اسلامى محافظ وخاضع ويتسم بالطابع السلبى كما هى الحال فى تونس مثلا . ولعل تونس وسوريا وفلسطين والعراق من الدول التى لم يتح للاسلام المناضل أن يعلب دورا فيها . حقيقة أن المسلمين قد ناضلوا ، الا أنهم ناضلوا باعتبارهم قوميين ، وليس باعتبارهم مسلمين أصحاب دين .

وتعتبر تونس المثال الأكثر وضوحا لخضوع العلماء وتقاعدهم عن شن النضـــال . وبرغم مقاومة التونســـيون فى الداخـــل للغزو الفرنسى فى ١٨٨١ ، وهى المقاومة التى استمرت لعامين ، الا أن علماء الدين كانوا هم الأكثر طواعية فى تونس . بالاضافة الى ذلك فان الباى Bey الذى أبقاه الفرنسيون على عرشه كان دائما حسن السير والسلوك . هذا الى جانب أن العائلات الارستقراطية وكبار الملاك لم يخرجوا عن النهج الطيع الذى اتبعه الشعب التونسى مع الاســـتعمار . وخلال أيام الغزو والاحتلال كان التونسيون سعداء ، مختلفين فى ذلك الى حد كبير عن جيرانهم فى كل من الجزائر وليبيا (٦٧) .

أما فى سوريا ولبنان والعراق فاننا نجد أنه كان على الاسلام أن يبقى بعيدا عن المشاركة فى معركة التحرير ، اذا قدر لهذه الحركة أن تحصل على تأييد مختلف الديانات فى هذه المجتمعات . ففى سوريا فى ١٩٢٠ كانت الوحدة الوطنية بين أبناء الديانات والطوائف مطلبا ملحا حينما تولى الفرنسيون سلطة الانتداب . حيث اتبعوا على الفور سياسة (فرق تسد) . وفى هـــذا

الاطار تم فصل المناطق المسيحية على الشاطىء الجغرافى لسوريا لكى تشكل جوهر دولة لبنان بالاضافة الى بعض المناطق الاسلامية المتاخمة . أما بقية سوريا فقد تم تقسيمها الى أربعة مناطق مستقلة ومنفصلة . حيث يسكن اثنين من هذه المناطق طائفتين اسلاميتين ذوات توجه اسلامى تحريضى، احداهما طائفة الدروز فى الجنوب والأخرى طائفة العلويين فى الشمال الغربى . ولم يوافق السوريون حينئذ ، وما زالوا حتى الآن ، على فصل لبنان المسيحى . ونتيجة لذلك فانه فى ١٩٢٠ ، أو فى أى نضال لاحق ، فانهم لم يؤكدوا على الطبيعة الاسلامية لنضال التحرير ، حتى ولو كانت سوريا تشكل ثلاثة أرباعها قطر مسلم ، فانه كان من الممكن أن يدفعوا اللبنانيين — خاصة الطوائف غير المسلمة — بعيداً عن المشاركة فى النضال . وبالمثل حتى فى داخل سوريا فانه اذا حدث تأكيد على الطابع السنى للنضال باعتبار أن السنة هى الأغلبية ، فان ذلك قد يثير حفيظة المسلمين الدروز والعلويين . ومن ذلك الوقت فانه كان من الضرورى مراعاة هذه الحواجز كعنصر أساسى فى السياسات السورية ، وقد كان هذا الوعى هو القوة الفعالة مرة أخرى حينما نهض السوريون ضد الفرنسيين فى ١٩٤٥ (٦٨) .

وفى نفس الوقت كان لدى اللبنانيين احتجاجهم على الفرنسيين ، غير أن احتجاجهم كان بطبيعته قوميا محدودا ولينا . وذلك لأنه ليس فى لبنان جماعة قومية واحدة تستطيع الادعاء بأنها تشكل الأغلبية . ومن ثم كان من الممكن أن تضفى طبيعتها على النضال . فالأقليات فى لبنان تشكل منه نموذجا لمجتمع الموزايكو ، وهو الأمر الذى استبعد التأكيد على دور المسيحية أو الاسلام فى النضال السياسى لتحرير المجتمع (٦٩) .

وفى العراق بدأت الاضطرابات المتصلة بنضال التحرير بعد فرض الانتداب البريطانى مباشرة . وما زال هناك بعض العراقيين الذين يشيرون الى هذه النضالات باعتبارها (حرب التحرير القومية) حيث كانت خلال هذه المرحلة ذات طابع اسلامى . فقد كان رجال الدين الشيعة هم الذين قادوا

النضال انطلاقا من المدن المقدسة فى النجف وكربلاء . وهم الذين أصدروا الفتوى التى تطالب المسلمين بأداء الواجب الدينى المتمثل فى الجهاد . وهو الأمر الذى أعتبر نوعا من الاحتجاج على الوجود البريطانى . ولقد كتب أحد البريطانيين الذين عايشوا هذه المرحلة ، (أنه لو توفر قادة أقوياء لهذه النضالات ، لتنظيم وتوجيه قوى الاحتجاج المسلحة حينئذ بصورة جيدة ، ولو أمكن لهؤلاء القادة اثارة نخوه التعصب لدى المتمردين ، لكان من الممكن أن يسيطر على العراق لفترة طويلة مجموعة من القادة الدينية المتحمسين ، وهم بطبيعة الحال لن يكونوا أقل فاعلية من الوهابيين فى وسط الجزيرة العربية (٧٠) .

غير أن نجاح هذا الدور النضالى الذى لعبه علماء الدين فى العراق فى انتفاضة ١٩٢٠ أصبح ممكنا لأن السنة والشيعة قد قرروا بصورة مسبقة أن يتعاونوا أمام هذه الضرورة القومية . غير أنه بسبب التوازن المدعى بين هاتين الفئتين (وهو الادعاء الذى يعلن على المستوى الرسمى فقط ، لأن الشيعة تدعى منذ وقت طويل أنها تشكل الأغلبية . وهو ادعاء يعكس الحقيقة الى حد كبير) ومنذ هذه اللحظة — لحظة الوعى بالاختلاف والانقسام الدينى — لم تحـــاول حركة التحرير القومية الاعتمـــاد كثيرا على الدعم الاسلامى ، وذلك لعدم تكرار التوازن الدقيق الذى يدفع الى تعاون الفئتين . ومن ثم فهناك احتمال فى قلب النضال أن يحاول أحدهما العمل فى الاتجاه المعارض للآخر (٧١) أو على الأقل طبع النضال القومى بطابعة .

ذلك يعنى أن الاسلام لم يشارك بهويته فى نضال التحرير لهـــذه المجتمعات ، فهو لم يشارك فى لبنان لأنه لم تكن هناك الأغلبية المسلمة ، وهو لم يشارك فى سوريا ، لأن السنة كانت جماعة الأغلبية ، ولكى تحقق أهدافها ، فقد كان عليها أن تكسب القوى الاخرى الى جانبها (الدروز والعلويين) أما فى العراق فقد أدى ضياع التوازن بين فئتى الشيعة والسنة الى احتمال تفجر صراعات داخلية اذا أعلنت شعارات دينية للنضال . ومن ثم فقد فضل الجميع الشعارات ذات الطابع القومى .

ما سبق اذا يشير الى مجموعة العوامل التى اعاقت الاســـلام عن المشاركة فى نضال التحرير بصورة فعالة . غير أنه بالاضافة الى ذلك كانت هناك أسبابا ايجابية فى هذه الأقطار الثلاثة بالاكبافة الى مصر وفلسطين . حيث تمثلت هذه الأسباب فى امتلاك هذه الأقطار لأحزاب سياسية قومية ذات طبيعة علمانية ، شارك فى تأسيسها أبناء الملل المختلفة ، وهذا الأمر الذى سوف نجده أكثر وضوحا فى فلسطين (٧٢) .

وفى فلسطين نجد أنه فى ١٩١٨ قبل عدة سنوات من الصراع الذى ما زال مستمرا بين الشعب الفلسطينى والغزاة الصهاينة ، فاننا نجد أن الأقلية المسيحية قد شاركت الأغلبية المسلمة فى الصراع ضد الصهاينة . وقد ظلت دوافعهم كما هى حتى اليوم . اذ كان على المسلمين والمسيحيين أن يقفوا الى جوار بعضهم البعض ضد العدو المشترك . وفى ١٩١٠ كانت صـــحيفتى (الكرمـــل) (وفلســـطين) — المملوكتين لاثنين من الصـــحفيين الأرثوذكس من اليونان — هما اللتان حملتا لواء المعارضة ضد الصهيونية . ولقد كان حجم الجماعة المسيحية الفلسطينية حينئذ نحو ١٠٪ أو ٩٪ من المجموع الكلى للسكان . كان نصفهم من اليونانيين الأرثوذكس .

وفى ١٩١٨ تأسست الرابطة المسيحية الاسلامية كرد فعل لاعلان وعد بلفور ، حيث التزمت حكومة الانتداب البريطانى بانشاء (وطنى قومى لليهود) فى فلسطين . وفى السنة التالية أصبحت هذه الرابطة هى التنظيم الأساسى لحركة القومية الفلسطينية . وظلت هكذا حتى قبل الحرب العالمية الثانية . ولقد كان لها شبكتها التنظيمية المنتشرة فى جميع انحاء المجتمع (٧٣) . وحينما ظهر حزب عربى مناضل فى ١٩٥٣ ، فاننا نجد أن رئيس الحزب ونائبه كانا مسيحيين . وقد بدأت منظمة فدائية فى العمل النضالى سميت بالجهاد المقدس فى ١٩٣١ ، ثم تدعمت وزاد نشاطها فى ١٩٣٣ بقيادة اميل الجوهرى ، وهو مناضل مسيحى . وقد ادارت هذه المنظمة لجنة مكونة من أربعة عشر مســـلما وثلاثة من المســـيحيين . حقيقة أنه قد حدثت بعض التوترات بين

الجماعات الاسلامية والمسيحية بين ١٩٣٢ — ١٩٣٣ الا أنها وجهت من قبل القيادات النشطة كقيادة الحاج أمين الحسينى الذى أكد على الأهمية القصوى للجبهة الموحدة . وقد ظلت هذه الجبهة الموحدة قائمة خلال الضغوط التى فرضت فى الفترة بين ١٩٣٦ — ١٩٣٩ التى انتهت بالتغلب على الفلسطينيين ، حيث نجد الجبهة قد نظمت اضرابا عاما استمر لمدة ستة شهور ، ثم بدأ الصدام المسلح الذى استمر نحو عامين . وقد كانت اللجنة العربية العليا هى التى قادت النضال المسلح خلال هذه الفترة والتى يوجد اثنين من المسيحيين بين قادتها العشرة ، وقد كان مشروع تقسيم فلسطين من المشروعات التى دعمت هذه الوحدة الاسلامية المسيحية حيث نجدهم قد رفضوا مشروع التقسيم ، وبخاصة لأن منطقة الجليل المسيحية ، منحت — من خلال مشروع التقسيم — للدولة اليهودية (٧٤) .

وقد استمرت وحدة المجموعات الفلسطينية الدينية حتى اليوم ، حيث نجد أن قيادة مجموعتين من المجموعات الفدائية الفلسطينية هى قيادة مسيحية (جورج حبش ، نايف حواتمة) . ولا تستند الوحدة على أنهما يواجهان عدوا مشتركا فقط ، بقدر ما تستند على التضحية المشتركة من أجل القومية الفلسطينية والدولة الديموقراطية العلمانية . حقيقة أن كثير من القيادات الفلسطينية مثل ياسر عرفات هم قادة مسلمون متحمسون ، غير أن الحركة الفلسطينية كما يراها أعضاءها ، تتجاوز كثيرا مرحلة الاسلام المناضل منذ بداياتها الأولى وتدخل فى اطار علمانى يستوعب كل أبناء الطوائف الدينية المختلفة ، يجسد ذلك الشعار الذى رفعه قائد منظمة التحرير الفلسطينية ، والذى يذهب الى البحث عن دولة علمانية ديموقراطية تتعايش فيها كل الفئات .

الواضح أن الحركة النضالية الباحثة عن الدولة القومية فى مجتمعات هذا النموذج ، أنها ذات طبيعة علمانية ، أو غلبت عليها النزعات القومية والعلمانية ، بحيث أفرزت لنا نموذجا نضاليا لم يلعب الدين فيه دورا مباشرا

على النحو الذى أشرنا اليه بحيث نجد أن هذا النموذج قد تميز بالخصائص التـــالية :

(أ) أن نضال التحرير فى مجتمعات هذا النموذج لم يكن علمانيا صرفا وانما كان له فى كثير من الأحيان طابعة الدين . حقيقة أن الشعارات الدينية لم ترفع ، وذلك لحقيقة أساسية تتمثل فى تباين الشعارات بين مختلف الفئات الدينية . لكن الشىء المؤكد أن القيم الدينية على مستوى الضمير انفرادى كانت هى القيم الموجهة للنضال . فالحرب كانت أساسا بين فئات مختلفة دينيا لمجتمع تقليدى متدين من ناحية وبين آخرين تخلوا عن هذه القيم الدينية أو ربما يعتنقون قيما مضادة .

(ب) أن التغلغل العلمانى من قبل القوى الغربية المستعمرة كان قد أدى فاعليته . ومن ثم فقد شهدت مجتمعات هذا النموذج قوى علمانية قوية وذات فاعلية . ونظرا لقوة هذه التنظيمات العلمانية ، وجدناها هى التى تتصدر النضال من أجل الاستقلال القومى . ومن ثم فقد رفعت شعارات القومية ، محل الشعارات الدينية الرافضة للقومية — وذلك لغياب الاتفاق الدينى — هذا الى جانب أن مجتمعات هذا النموذج تعتبر هى الدول الأكثر تبلورا من حيث اكتمال الهوية القومية .

(جـ) أن الاستعمار ، وبخاصة الاستعمار الفرنسى ، عادة ما يستهدف غزو الهوية الثقافية للمجتمع بصورة مباشرة . وهو الأمر الذى يساعد على خلق اطار ثقافى مواتى للثقافة الغربية ويتكامل معها . وهو الأمر الذى يفصل المجتمع فى ذات الوقت عن تراثه الثقافى . واذا كان الدين يشغل جوهر التراث الاجتماعى ، فان ذلك يعنى تخلق معادلة تتمثل فى أنه كلمـــا استوعب المجتمع ثقافة غريبة عليه ، كلما ابتعد المجتمع عن أصوله الثقافية ، خاصة اذا كانت عملية الغزو الثقافى تدعمها قوى استعمارية قوية وعاتية . اما بالنسبة للعراق ، فالخوف من اثارة القضية الدينية على أرضية من عدم التوازن كان العامل الرئيسى فى عدم تبنى النضال الدينى بصورة مباشرة ، وهو نفس الوضع الذى تجسد فى مصر ، سوريا ، فلسطين .

رابعا : صراع الصفوات حول طبيعة الدولة

ابتداء من منتصف الأربعينات وخلال فترة الخمسينات تحقق الاستقلال السياسى لمعظم مجتمعات العالم الثالث وبخاصة الكتلة الاسلامية . بيد ان تحقق الاستقلال حول رفاق نضال الامس الى اطراف صراع ما بعد الاستقلال . بيد اننا قد نتجاوز الحقيقة اذا قلنا ان هذا الصراع قد حدث فى الأربعينات والخمسينات فقط . وانما يمكن القول انه قد امتد قبل ذلك بعشرات من السنين فى كثير من المجتمعات الاسلامية . فقد ظهر فى الباكستان فى اعقاب اعلان انفصال واستقلال الدلة الاسلامية . وهو قد حدث فى ايران قبل صدور دستور ١٩٠٦ وتقنين العلاقة بين السلطة الدينية والسلطة المدنية . وهو قد حدث فى مصر ابتداء من حكم محمد على ، ثم تجدد مرة اخرى بعد قيام ثورة ١٩٥٢ ، هذا الى جانب انه قد حدث فى أندونيسيا وهى الفترة التى اعقبت الاستقلال ، فترة زعامة الرئيس احمد سوكارنو .

ويمكن القول بأن الصراع بين الصفوات — وبالاخص بين الصفوة الدينية والعلمانية — كان يتفجر عادة فى الفترات التى تشهد ضعف فاعلية النظام السياسى ، أو فى الفترات التى يبحث فيها المجتمع تغيير توجهاته والبحث عن توجه جديد .

ويكشف البحث فى بناء الصفوات المتصارعة عن وجود ثلاث صفوات خلال هذه المرحلة ، مع احتمال وجود جماعات فرعية لكل من هذه الصفوات ، ولناخذ مصر مثالا لا يختلف كثيرا عن معظم مجتمعات العالم الاسلامى .

وتعتبر الصفوة الاسلامية أولى هذه الصفوات ، حيث يعتبر الاسلام هو العنصر الرئيسى المشكل لتفكيرها . وهى صفوة تؤكد على ضرورة أن تكون النهضة من خلال المنظور الاسلامى . وهم ينظرون الى الاسلام ليس من حيث اهميته بالنسبة للخلاص الفردى ، ولكن باعتباره قوة اجتماعية فعالة ،

ومصدرا للتضامن الاجتماعى الذى يرسخ وحدة الأمة . ومن ثم فهذه الصفوة تعمل على دعم الدين ، وتبرهن على فعاليته فى وجه الهجوم الثقافى الغربى .

ويوجد فى نطاق مدرسة التفكير الاسلامى عددا من الاتجاهات . فمن ناحية نجد هؤلاء المهتمون بالدفاع العاطفى عن الفكر الاسلامى فى طابعه الأرثوذكسى . اذ توحى كتاباتهم بتعلق عاطفى بالماضى أكثر من ارتباطهم بمجموعة من الأفكار والمعتقدات المتماسكة . وبدلا من محاولتهم فهم القضايا التى تواجههم وتواجه مجتمعهم ، فانهم عادة ما يسعون الى بعث تذكارات أمجاد الماضى بدون محاولة فهم الأسباب التى أدت الى زوال هذا المجد ، وكيف يمكن استعادته من جديد .

هذا بينما هناك قطاع آخر من هذه الصفوة أكثر انشغالا باعادة تفسير الاسلام ، لجعله على تلاؤم وانسجام مع الأفكار والحقائق الحديثة . وهم يحاولون تنشيط الاسلام عن طريق تنقيته من الممارسات الفاسدة والمعوقة وهى الممارسات التى علقت خلال مسيرته التاريخية . ويعتبر محمد عبده فى مصر ، وعلال الفاسى فى المغرب ، والبنهانى فى فلسطين ، وعلى شريعتى فى ايران والمودودى فى الباكستان من أهم الرموز الممثلة لهذه الصفوة . فمثلا كان محمد عبده مهتما بالملائمة بين الاسلام والتحديث . فقد صدمه تخلف المسلمين ، واعتبر ذلك مشكلة ينبغى التصدى لها . وهو يرى أن العلاج يكمن فى العودة الى الاسلام الصحيح ، وذلك من خلال استخلاص الأسس الصحيحة لهذه الديانة وهى الأسس التى تشكل الحد الأدنى من الأسس التى لا يصبح الاسلام بدونها اسلاما . ثم محاولة فهمها فى ضوء الاعتبارات الحديثة .

وتتكون مجموعة الصفوة الثانية من المثقفين الذين يعكسون الطبيعة الانتقالية للمجتمع . فهم يضمون فى توجهاتهم النظرية عديد من الأفكار الاسلامية والعربية ، وأيضا تلك المفاهيم الحديثة التى تنتمى الى الثقافة

الغربية ، وهو الأمر الذى يجعلهم يعانون من نوع من عدم الوضوح ، وعدم الاتساق وربما نوعا من الخلط فى بنائهم النظرى . فهم يدركون من ناحية أن الاسلام يشكل الميراث الثقافى القومى . غير أنه لا يمكن الموافقة عليه باعتباره مصدرا للتشريع والسياسية فى المجتمع ، هذا الى جانب اقتناع هذه الجماعة بأن الاسلام التقليدى قادر على حل مشكلات المجتمع الحديث .

ويعى أعضاء هذه الجماعة تماما طبيعة الازمة التى يعانون منـــا ، أو الازدواجية التى تصبغ حياتهم وأفكارهم ونظراتهم العامة . فهم يدركون أنهم ينتمون الى عالمين مختلفين . العالم القديم الذى ينتمى اليه الاسلام التقليدى ، والعالم الجديد الذى تنتمى اليه الثقافة الغربية . وهم عاجزون عن الاختيار بين العالمين . ويكمن اسهامهم الرئيس فى محاولتهم التوفيق بين القديم والجديد ، الايمان والعقل ، الشرق والغرب ، وأخيرا بين التراث والحداثة . وتشى أعمال طه حسين ، محمد حسين هيكل ، أحمد أمين ، عباس محمود العقاد ، قاسم أمين عن هذه العقلية المزدوجة ، وعن انتمائهم المتزامن لهذين العالمين المختلفين .

وتمثل جماعة الصفوة الثالثة تيارا ثقافيا آخر ، حيث تدافع هـــذه الجماعة عن ما يسمى بالتيار العقلانى العلمانى . وتعتبر الحضارة والثقافة الغربية هى نقطة البدء بالنسبة لهم . ويعتقد أعضاء هذه الصفوة فى الروح العلمية والدليل العقلى ويكمن هدفهم الرئيسى فى تأسيس المجتمع الحديث ، الذى يشبه الى حد كبير المجتمعات الاوروبية او امريكا الشمالية ، حيث مجتمع يبقى على التقاليد طالمـــا أنها لا تعوق التغير والتقدم ، ويضم هـــذا التيار وجهات نظر متعددة تمتد من الليبرالية وحتى المـــاركسية .

وهم ينظرون الى الحضـــارة الغربية بعناصرها المـــادية والثقافية باعتبارها كلا متكاملا . ومن ثم فانهم نظروا الى التقدم المـــادى المنقطع النظير لأوربا باعتباره لا يمكن أن ينفصل عن القيم الثقافية الكامنة وراءه . واذا كان الأمر على هذا النحو فانه يصبح من المستحيل أن تتبنى الانجازات

المــادية بدون تبنى الأسس العقلية والثقافية التى ارتبطت بها . ويتبع ذلك أن المهمة المباشرة التى ينبغى التصدى لها تتمثل فى العمل على تحديث المجتمع بالمعنى الأساسى للكلمة .. أعنى أن نتبنى الحضارة الغربية بكاملها .

ومن الواضح أن الهدف من استيعاب القيم والأبنية الغربية لهــذه الجماعة ليس لاستكمال النقص الذى قد يتواجد بالتراث أو التقاليد ، ولكن أن يستبدلها ، والمشكلة التى يرونها ، لم تعد كيف يمكن أن يلائموا القيم الاسلامية للحياة الحديثة ، ولكن تتمثل فى كيف يمكن تمثيل او استيعاب الفكر والتكنولوجيا الأوروبية . وقد تمثل افتراضهم فى أنه لا يمكن أن نتساوى مع الغرب اذا لم يتم تغريب مجتمعاتنا بصورة كاملة . ذلك ان التحول ينبغى أن يصل الى جذور المجتمع ونظرته العامة . وقد تولى قيادة هذه الصفوة مجموعة من المثقفين السوريين المهاجرين مثل فرح انطون ، فارس نمر ، يعقوب صروف ، شبلى شميل والمصرى سلامة موسى ، وللصدفة فانهم كلهم من المسيحيين (٧٥) .

بيد أنه برغم الدور التوفيقى الذى حاولت أن تلعبه الصفوة الاصلاحية (الثانية) التى حاولت صياغة نوع من الامتزاج بين التراث والتحديث . فان الاستقطاب أصبح حادا وتأسست بدايات الصراع بين الجماعتين الأساسيتين بين الصفوة الدينية من ناحية والصفوة العلمانية من ناحية اخرى . بحيث ساعد على هذا الاستقطاب عاملين :

ويتمثل الاول فى اقتصار العلمانية على الصفوات التى نالت حظا من التعليم الغربى أو تلك التى اتصلت اتصالا مباشرا بالمجتمعات الغربية من خلال البعثات مثلا . بحيث استطاعت من خلال التعليم والاتصال الشخصى استيعاب قيم الحضارة الغربية . بيد أن تضاؤل امكانية هذه الصــفوة أو انانيتها حال دون علمنة الجماهير أو تحديث قيمها الاساسية . بحيــث وجدنا لدينا الصفوة الدينية والجماهير من ناحية فى مواجهة الصفوة العلمانية

وقوة النظام السياسى من ناحية أخرى . حيث تنتمى الصفوة العسكرية فى مجتمعات العالم الثالث والعالم الاسلامى الى الصفوة العلمانية أساسا .

أما العامل الثانى فيتمثل فى الفشل الذى انتاب المشروع الاجتماعى للصفوة العلمانية . فمما لا شك فيه أن معظم مجتمعات العالم الثالث عانت من انتكاسات تنموية حادة فى فترة الخمسينات والستينات . قد ترجع هـذه الانتكاسات التنموية لظروف التضخم التى سادت النظام العالمى ، وقد ترجع لانسحاب الجماهير وعزوفها عن المشاركة لاختلاف قيمها عن القيم العلمانية الموجهـة للتنمية الاجتماعيـة . أو لظـروف نقص الموارد والامكانيات ، أو لسوء التخطيط ، أو ربما لصراع التوجهات الأيديولوجية داخل الصفوة العلمانية ذاتها . بحيث ادى هذا الفشل الى منح القوى الدينية الحجة بأن التنمية قد فشلت بسبب توجهاتها الغربية والغريبة على قناعة الجمـاهير العريضة .

ذلك يعنى أن هذه الأوضاع قد أفرزت استقطابا حادا بين الصفوة الدينية من ناحية ، والصفوة العلمانية من ناحية أخرى . بحيث نجد أن كل منها قدم نقدا للآخر وتصورا للطبيعة التى يراها ملائمة للمجتمع والدولة .

فمن ناحية نجد أن الصفوة الاسلامية ترفض فكرة الدولة القومية . وذلك لأن القومية تقسيم الأمم الاسلامية الى مجموعة من الدول القومية التى قد يتخلق بينها نوعا من التعارض . هذا الى جانب أن القومية تعبر عن نظرة ضيقة وشوفينيه ، ومن ثم فهى ليست اسلامية وغير دينية أيضـا (٧٦) . غير أن هذه المعارضة الاسلامية القوية للنزعة القومية قد تصبح غريبة وذلك لاستخدام عديد من الجماعات الدينية لبعض الأفكار القومية أثناء الصراع . وفى هذا الصدد نجد أن الاسلام المناضل يفارق بين القومية السلبية التى يراها ضرورية وهامة ، وبين القومية الايجـابية التى يرى أنها ضـارة دائما (٧٧) . فالقومية السلبية كما هو مؤكد هى التى ألهمت الصراع ضـد الغرب المسيحى الامبريالى ، ويمكن أن ننظر اليها باعتبارها حبا للمجتمع

و نزعة وطنية . حيث يعتبر هذا الصراع ضد القوى الأجنبية المعتديه جهادا حقا ، ومن ثم واجبا على المؤمن الحقيقى ، حيث أنه فى المجتمع الحر فقط يوجد احترام للهوية الدينية (٧٨) ..

على عكس ذلك يكره المصلحون الاسلاميون مذهب القومية الايجابية . ذلك أننا اذا قسمنا البشر الى وحدات قومية صغيرة ومتصارعة ، فان ذلك معناه أننا ننكر وحدة وشمول النوع الانسانى الذى يتحدث القرآن عنه (٨٩) . فالله واحد ، وينبغى أن يكون أبناءه كذلك . فاذا كان الاســـلام يرفض الاختلافات الطبيعية التى خلقها الله ، فاننا ينبغى أن نرفض الاختلافات المتعلقة بالجنس واللون واللغة ، وهى الحقيقة التى نجدها مؤكدة بدرجة بارزة فى الحج (٨٠) .

ومن ناحية ثانية تعتبر النزعة القومية نزعة خاطئة لأنها لا تقسم الانسانية فقط ولكنها تشق الأمة أيضا . ثم هى تضعف الأمة الاسلامية . وقد تمكنت هذه العاطفة الجديدة من تأسيس (الدولة الحديثة) غير أنهـــا حطمت وحدة العالم الاسلامى وجعلته يركع أمام الامبريالية والمسيحيـــة الغربية ، والصهيونية . وفى حين يتجه العالم بكامله نحو العالمية ، فان المسلمين الذين يمتلكون تقاليد العالمية يتراجعون الى الولاءات الاقليميـــة والوطنية (٨١) . وبدلا من أن تكون دار الاسلام هى الاطار الكبير والوحيد الذى يضم كل الأمة ، فاننا نجد بعض أفراد العائلة الذين يحاولوا أن يسجنوا أنفسهم فى غرف ضيقة ومنعزلة ..

ومن ناحية ثالثة ، وهى التى تشكل جوهر الخطيئة فتتمثل فى أن هذه النزعة القومية الضيقة التى تعتبر نتاجا غربيا ، قد أسست موضوعا جديدا للعبادة ، الذى يتمثل فى الأمة من حيث وجودها المــادى . وهو الأمر الذى يتناقض مع النزعة الاسلامية المؤكدة بالمبادىء الالهية ، والتى أصدر الله عقيدتها من خلال الاسلام . ومن ثم فقد أصبحت الأمة الحديثة شريكا لله ، وبذلك تعتبر القومية العلمانية نوعا من الشرك (٨٢) .. ومن الواضح أن

المصلحين الاسلاميين كانوا على حق فى احساسهم أن النزعة القومية تعتبر منافسا خطيرا للولاء الكامل للاسلام . ذلك لأن القومية هى القوة التى يمكن أن تشكل نقيضا للاسلام المناضل ، مثلما كانت هى القوة الوحيدة التى واجهت التيار الشيوعى الكاسح فى أفريقيا وآسيا (*) .

ومن ناحية رابعة ، فان الطابع الغربى للدولة القومية كان هو الآخر موضع تعليق ونقد . فالدولة القومية تعتبر ابداعا غربيا ، واستيراد لهذا الابداع من الغرب . ومن ثم فان جهـــاز الدولة القومية لا يمكن تشـــغيله الا بواسطة أعضاء الصفوة المغربة ، ليس بسبب تدريبها أو خبرتها الفنية والادارية فقط ، ولكن اطارها الغربى أيضا . منهم علمانيون وربما كان ضد الاسلام من حيث التوجه . وذلك هو السبب فى أن آية الله الخمينى قد تحدث بصورة جارحة ضد حقيقة أنه برغم الثورة ، فانه لا يبدو أن شيئا قد تغير ، فما زال العمل الحكومى ينجز داخل الأبنية الوزارية الكبيرة فى طهران (٨٣) . ثم يذهب مهاجما الصفوة الغربية بقوله أن (جهودنا داخل الدولة القومية تنحصر فى الحفاظ على ميراث المرحلة الاستعمارية ، حيث نحافظ على نظم الانتخاب الفاسدة ، وأساليب التعليم المغتربة ، والاجراءات الادارية غير الملائمة ... فنحن نقلد كل المهارات العلمانية فيما يتعلق بادارة شئوننا العامة ، نحن نتحدث فى القاعات الرسمية عن الحقائق الصلبة والتحركات البرجماتية ، وعن القهر المعاصر ، وحينمـــا نخرج من هـــذه

(*) يعتبر أميل دوركيم من أبرز رواد علم الاجتماع الذى أكد على فكرة القومية باعتبارها مصدراً لشرعية الأفعال . بل اننا نجد أن أميل دوركيم يرى أن المجتمع هو الكل الذى له حاجات أساسية ينبغى أن يتوجه الأفراد لاشباعها . فالمجتمع هو الكيان البارز فى الوجود الاجتماعى والانســـانى للأفراد ، وهو مصدر الدين والأخلاق وكل العواطف وما الأفراد سوى أدوات لاشباع حاجاته وتحقيق رغباته ، ولا يخفى الأمر أنه من الأفضـــل لدوركيم أن يعبد المجتمع بدلا من أن يعبد وهو اليهودى الديانة الغالبة فى المجتمع وهى المسيحية . فتأكيده على المجتمع كان محاولة للافلات من الشعور بالدونية لانتمائه الى الأقلية اليهودية (٨٤) .

القاعات فاننا نرفع شعارات عظمة الاسلام (٨٥) . ومن ثم يرى المصلحون الاســــلاميون فى الدولة القوميـــة من حيث مفهومها الأســــاسى وأصلها وأسلوبها فى العمل ، كائنا كريها وفاسدا .

ثم تصل الصفوة الدينية الى آخر معاقل هجومها حينما توجه سهام النقد الى الصفوة العلمانية ذاتها . حيث تؤكد هذه الجماعات سواء كانوا من العلماء أو الاخوان أو مجرد رجال دين ، أو مصلحين دينيين أن أكثر المــآسى خطورة ودرامية تتمثل فى أنه بينما دار الصراع لقرن ونصف ضد الحكام الأجانب فى اطار النضال ضد الاستعمار ، وهو النضال الذى قادته ونظمته الشخصيات والجماعات الاسلامية ، فان المستعمرين الذين رحلوا لم يسلموا السلطة أو القوة للعناصر الاسلامية التى تحملت وزر النضــــال ، بل اسلمته الى الصبية المتغربين الذين كانوا أعضاء فى الأحزاب القومية العلمانية فى مرحلة ما قبل الرحيل الاستعمارى . وهم يشعرون بأن هذا العمل كان مقصودا ، وأنه يشير الى مناخ تآمرى تم بين الغرب الاستعمارى من ناحية وبين الورثة الثقافيون والعقليون من ناحية أخرى ، أعنى الساسة المحليون ، المتغربون والمغتربون . وتشعر الجماعات الاسلامية أنه من خلال هذا الخداع المــاكر ، فانهم يشعرون بأنهم قد خدعوا فيما يتعلق بالثمن الذى كان يجب ان يحصلوا عليه مقابل نضالهم الطويل (٨٦) .

ثم يسوق اصحاب هــذا الاتجاه حجة أخرى تحاول أن تغزو بها عقل الصفوة العلمانية ، حينما تذهب الى أنه اذا كانت الحضـــارة الغربية قد عرفت الفصل بين الدين والدولة فان هــذا الأمر بالنســبة للبشر خارج الحضــارة المسيحية يصبح غريبا ومثيرا للدهشة . فالدين والسياسية هما فى العادة وجهين لعملة واحدة . وهو الأمر الذى يشــكل قناعة حقيقية بالنسبة للبشر ذوى الثقافة الاســلامية . اذ تعد النظم التى تستبعد الدين عن السياسة من وجهة نظرهم غريبة ولا يمكن التسليم بها . ومن ثم فان استجلاب هــذه النظم والعمل بها فى اطار العالم الاســلامى يعتبر هو

المصدر الرئيسى لعدم الاستقرار ، بل انه يعتبر سببا أساسيا للتوتر والتأرجح والحيرة التى تنتاب العالم الاسلامى الآن . جوهر الأمر اذا أن الموافقة على الأساليب السياسية العلمانية ينظر اليها عادة باعتبارها علامة على الانهيار ، ليس بالنسبة لاستقلال المجتمع ، ولكن بالنسبة للديانة الاسلامية أيضا . ومن هنا فليس من المثير للدهشة أن حركات الاحياء الاسلامى تعمل بدأب لاعادة تأكيد الصلة العضوية بين الاسلام والسياسة ، ويعتبر ذلك من وجهة نظر كثير من المسلمين الجادين والتقليديين ليس انحدارا الى الخلف ولكنه عودة الى جادة الصواب (٨٧) .

فى مقابل ذلك فان الجماعة أو الصفوة العلمانية والقومية كانت لها رؤيتها أيضا ، وهى بطبيعة الحال وجهة نظر مضادة . اذ نجد مثلا أن الرئيس سوكارنو يدافع عن القومية بتأكيده أن القومية ليست ضد الاسلام أو ضد أى أيديولوجية أخرى ، لأنها ببساطة عبارة عن الشعور بالرغبة فى أن يرجع الانسان الى هويته ، انها الرغبة فى الحرية ، الرغبة فى كسر السلاسل التى تقيد يد الانسان ، انها الرغبة فى أن يكون الانسان هو المتحكم فى مصيره ، تلك هى القومية .... والتناقض الذى يحدث سببه أن البشر فى أوربا يرغبون فى القضاء على الحدود القومية بينما على العكس من ذلك نجد أن البشر هنا يريدون تأسيس هذه الحدود . ويفكر البعض عن خطأ أنك اذا أصبحت قوميا فان ذلك يعنى أنك تعبد مجتمعك ، والخطأ هو أننى اذا كنت أحب مجتمعى فان ذلك لا يعنى أننى أعبده (٨٨) . ومع كل هذه اللباقة فاننا لا نعتقد أن سوكارنو قد أجاب على حقيقة الاعتراض الاسلامى على الدولة القومية . وذلك لأن القومية التى يتحدث عنها هى قومية ما قبل الاستقلال التى يوافق عليها الاسلام . غير أنه يقدم حجة أخرى يبدو ومن خلالها وكأنه على أرض صلبة ، حينما يذهب الى أنه فى الدولة الاسلامية ، فانه من الواضح أن المسيحيون سوف يصبحوا اقلية . والمسيحيون ، الذين شاركوا بدور فعال فى النضال القومى ، لا ينبغى أن

تخفض مكانتهم الى مكاية الأقلية ... اذ سوف يقول المسيحيون حينئذ اننا لم نناضل ونموت لكى نصبح أقلية ، وهنا نجد أن سوكارنو يضغط على أحد نقاط الضعف الأساسية فى الدولة الاسلامية (٨٩) (*) .

وفى صفحات من تاريخ حياته السياسية نجد أن أيوب خان يتصدى للتناقض الأساسى بين التأكيد على النزعة الدينية ذات الطبيعة الشاملة فى مقابل التأكيد على النزعة القومية ذات الطبيعة المغرقة فى الخصوصية . حيث يذهب (الى أن علماء الدين يفكرون بالنظر الى أمجاد الماضى غير الواضحة ، وأيضا بالنظر الى المستقبل العريض غير المحدد للاخوة الاسلامية . ولقد كان ذلك قبل أى شىء هو العامل الذى أعاق نمو القومية الاسلامية . وهو الذى أدى الى اعاقة تقدم المسلمين فى شبه القارة الهندية .... وفى الحقيقة فان هؤلاء الذين يعتقدون أن النظرة القومية تتناقض مع مفهوم الأخوة الاسلامية الشاملة يقترحون علينا — نحن المسلمين فى شبه القارة الهندية — أن لا نحاول تأسيس وطن لنا . ذلك لأن هناك أوطانا كافية فى مناطق أخرى من العالم قادرة على استيعاب المسلمين . لماذا تحتاج الى وطن لك طالما أن هناك أوطانا اسلامية كثيرة فى الشرق الأوسط ؟ (٩٠) . بل أننا نجد رئيسا باكستانيا آخر ذو الفقار على بوتو

(*) من الواضح أن الاسلام يحمل اتجاها ايجابيا نحو المسيحيين اذ يقول الله فى كتابه الكريم (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك أن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون . واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فأكتبنا مع الشاهدين) . سورة المائدة الآيات ٨٢ ، ٨٣ . وقد قال الرسول الكريم (أوصيكم بأقباط مصر خيرا فان لى فيهم نسبا ورحمة) والذى يتعمق فى النصوص القرآنية والتعاليم الاسلامية يجد أن الاسلام تصرف بعدل نحو المسيحيين ، فقد فرض الجزية على أهل الديانات الأخرى فى مقابل فرض الزكاة على المسلمين . وهناك كتابات كثيرة تعالج مكانة أهل الملل الأخرى داخل المجتمع الاسلامى . انظر مثلا د. يوسف القرضاوى ومؤلفه ، غير المسلمين فى المجتمع الاسلامى ، مكتبة وهبة . القاهرة .

يتحدث عن قضـــية التناقض هـــذه فيؤكد : ان هنـــاك غموضا داخل العقلية الاســـلامية فيما يتعلق بمكانة ودور النزعة القومية داخل الاســـلام ، ومدى انســـانية هـــذه النزعة وتأسيس المجتمع الاســـلامى . فالنزعة القومية باعتبارها القوى الدافعة لتحرير البشر ، هى قوة دافعة لا ينبغى أن تعمل شـــيئا لاضعافها . اذ يمكن للوطنية والولاء للاســـلام أن يتلاقيا على مستوى ترنسندنتالى ، فنحن كمسلمين يمكن لنا أن نرتفع فوق النزعة القومية بدون الاضرار بالاســـلام أو ايذائه (٩١) . ونحن نجد أنه كسياسى بارع أثار مشكلة حقيقية وذلك لكى يتجنب الخوض فيها بأسلوب بارع أيضا . وما زال الحوار بشأن هـــذه القضية قائما فى باكستان لكنه حوار (الطرش) الذى يقوم بين أصحاب النزعة القومية من ناحية والنزعة الاســـلامية من ناحية أخـــرى .

ثم يستجمع هـــذا الفريق شـــجاعته ليوجه الضربات الحقيقية الى الصفوة الدينية ، اذ يؤكد أنه نظرا لأن العلاقة مباشرة بين الله والانســـان بدون فئة رجال الدين ــ القساوسة فى المسيحية ــ فى الاســـلام فان التاريخ الاســـلامى دفع الى ظهور شريحة من الدارسين الاسلاميين ، هم علمـــاء الدين (٩٢) . ولمـــا كان المثال الاســـلامى لا يحتوى على أى مكان للكهنوتية أو أى ارتباط بين الدين والسياسة (*) فان الباحث منا يستطيع الاقتناع بالتفسير الذى طرحه دتلف خالد Detlev khaled والذى يذهب الى التأكيد على أن كل حركات الاصلاح الاســـلامى كانت تمردات علمانية ضد العلماء

(*) ليس صحيحا ما يذهب اليه المؤلف من انكار مكانة الفقهاء فى الاســـلام ، وهناك كتابات كثيرة خاصـــة فى الفكر الشيعى تؤكد على ولاية الفقيه ، باعتبار ان الفقيه هو العارف بأحكام الله فى مجتمع يؤكد على الحاكمية لله وليست للمجتمع أو الشعب . هـــذا الى جانب أنه يؤكد دائمـــا على اتصال الدين بالدولة والسياسة وأن كل الحركات الاســـلامية التى حاولت تجديد الاســـلام من داخله استهدفت التأكيد على العلاقة العضوية بين الدين والسياسة وأن فترات الانفصال بينهما هى فترات الانهيار الاسلامى .

أو الكهنوت التقليدين الذين يتحملون مسـئولية اعاقة التحديث الاجتماعى وتطوير النسق الدينى للاسـلام . وبهذا المعنى تعتبر كل حركات الاصلاح الاسـلامى علمانية ، وذلك لأنها تستهدف أن يكون للاسـلام معنى فى الحيـاة (٩٣) . بمعنى أنهم يريدون للاسـلام أن يتصل بشئون هـذا العالم ، وأنه قادر على تجاوز عقبات التحديث الاجتماعى فى الشرق الأوسط .

ثم توصل هـذه المجموعة هجومها على الصفوة الدينية مؤكدة أن التحديث الاسـلامى ، الذى على مستوى المبادىء أو العقيدة ، يحاول أن يجيب على القضية المتعلقة بسبب تخلف المسلمين اليوم وتقـدم الأوربيين الذين هم ليسوا مسلمين . وتعتبر العقيدة الاسـلامية والمناداة بها رد فعل لتغلغل العالم الحديث بما يمتلكه من تفوق للثقافة العلمية والفنية . وهو السياق الذى لم يتم تأمله من خـلال تفكير اسـلامى حديث . ونعنى بالعقيدة فى هـذه الحالة قضايا القرآن والسنة ، وهى هنا تحتل مكانة جوهرية ، لأن عليها أن تكشف عن مضمون الاجابة التى تطرح لتوضيح سبب تخلف المسلمين . حيث يقـدم القرآن والسنة مادة العقيدة التى تطبق بغض عن سياق العصر العلمى والتكنولوجى . وبذلك فهى تغفل روابط العصر الحديث التى ينبغى أن يتجه اليها التفكير الاسـلامى الحديث بالتفسير ، بل من النادر أن تعطى أى اعتبـار ، ومن ثم فالفكر الاسـلامى الحديث ما زال اعتقاديا (٩٤) .

ثم يحاول هـذا المعسكر أن يدفع الاسـلام الى ذات الطريق الذى سلكته المسيحية من قبل ، مؤكدا أن نمو الثقافة العلمية والتكنولوجية فى أوربا فى العصر الحديث أدى الى الغاء العلاقة بين ما هو دينى وسياسى ، وهى العلاقة التى كانت سـائدة فى ثقافات ما قبل الصناعة . أما اليوم حسبما يؤكد فرويد فان الادراكات الثقافية لم تعد دينية فى أصولها وانما هى عقلانية أساسا . وفى الاطار الاسـلامى فانه ينبغى أن يتحقق اقتناع بأن الثقافة الاسـلامية اليوم هى ثقافة ما قبل الصناعة ، فهى تسـتند على

العلاقة بين الدين والسياسية . وفى هـذا الصدد يعتبر الاسـلام أيديولوجيا سياسية تحتوى على عناصر هامة من النسق القانونى ، بما فى ذلك الشريعة أو القانون الاسـلامى ، بحيث يتحكم هـذا النسق القانونى فى كل مجالات الحيـاة (٩٥) . وهو الى جانب أنه ينظم الحيـاة الاجتماعية والثقافية فهو أيضا ينظم الحيـاة الاجتماعية الداخلية للانسـان .

ولم يحدث أن أدت الثورة الصناعية فى أوروبا والتقدم الثقافى والعلمى والتكنولوجى الذى ظهر عنها الى موت المسيحية برغم الأصـول العقلانية لهذه الثقافة . غير أنه قد تم فصل الدين عن السياسة ، بحيث تحدد مجال الدين أساسا بالمجال الداخلى للانسان ، وأنه اذا كان الأفغانى قد أعجب بمارتن لوثر ، وأسس فكره الاصلاحى مقتديا به بالنسبة للبشر المسلمين ، غير أنه قد أغفل مع ذلك حقيقة أن الأخلاق البروتستنتيه تهتم أساسا بالمجال الداخلى ، وأن الانسـان المتدين الذى يتصوره لوثر هو الشخصية الفردية المسيحية المسـئولة عن ذاتها . وأن على الاسـلام أن يتبع مسارا مماثلا فى المستقبل ، ففى أطار يقظة العلمانية يستطيع الاسـلام أن يعمق جذوره فى داخل أعماق الانسـان المؤمن (٩٦) .

ثم يحاول هـذا الفريق التأكيد على وجود تناقض بين الاسـلام والعلم . ويعتبر صادق جـلال العظم دهو فيلسوف ذو عقلية علمانية أساسا (*) أحـد المتحمسين لهذا الرأى . اذ ألف كتابا فى ١٩٦٩ بعنوان (نقد الفكر الدينى) ، وذهب فيه الى القول بأنه من غير المفيد أن نناقش الأسلوب الذى تتلاءم فيه بعض الأفكار الاسـلامية مع بعض المكتشفات العلمية كما يحاول

(*) يعتبر صادق جـلال العظم أحـد المفكرين العرب البارزين . وهو مسلم ينتمى لأحـدى العائلات المعروفة بدمشق ، كتب رسالته للدكتوراة بجامعة ييل Yale بالولايات المتحـدة الأمريكية ، وهو الآن يقوم بالتدريس بجامعة (دمشق) وبعد نشر كتابه فصل من الجامعة ثم اعيد اليها مرة أخرى ، وقد طبع كتابه عدة مرات .

ذلك بعض المفكرين الاسلاميين . وذلك الأن الفجوة كما يذهب جلال العظم تكمن عند مستوى أعمق من ذلك ، أنها تتعلق بالمنهج الذى نتبناه للوصول الى حقائقنا ومعتقداتنا ... وفى هـذا الاطار يوجد تناقض أساسى بين الاسـلام والعلم . فالمنهج الصحيح بالنسبة للاسـلام ، كما هى الحال بالنسبة لأى ديانة أخرى ، أن يأخذ نصوص مصدرها الوحى ، ويكون على الدارسين أن يبحثوا ويكتبوا الحواشى عليهـا باعتبار أن هـذه النصوص مصدرا للحقيقة ... ومما لا شك فيه أن المنهج العلمى يختلف تماما عن المنهج الدينى (٩٧) . ويذهب العظم الى أن محاولات المفكرين الاسـلاميين للمصالحة بين الاسـلام والثقافة العلمية ستظل فى اطار العقيدة الاسـلامية مستندة الى المنهج الذى تحدده .

ويتحدد نقد جلال العظم باشارته الى أن الثقافة العلمية الحديثة ذات أصـول عقلانية ومن ثم فهى لا تتطابق مع الاسـلام . غير أنه يوضح أنه من المهم والضرورى أن نميز بين الدين باعتباره يشـكل مضمون ثقـافة محددة وبين الوعى الدينى كنوع من الضمير الفردى . وفى الشرق الأوسط الاسـلامى (فانه تم قهر هـذا الوعى الدينى بواسطة الممارسات الدينية الأساسية وأشـكال المعتقدات التقليدية . هـذا الوعى الدينى ينبغى أن يتحرر من أغلاله ، وعليه أن يربط نفسـه بالأساليب التى يتكيف بها مع شروط ومتطلبات حضارة القرن العشرين التى يعيش فيها (٩٨) .

ويؤكد على هـذا الموقف باحث مصرى اسـلامى آخر هو الدكتور على عبد الرازق (*) الذى حاول تفسير النصوص الاسـلامية لكى يوضح أن الاسـلام يهتم بضمائر البشر وأعماقهم الداخلية ، ولكنه لا يختص

(*) يعتبر الدكتور على عبد الرازق مصريا ، تعلم فى الأزهر ، وعمل قاضيا ، وألف كتابا بعنوان (الاسـلام ونظم الحكم) فى ١٩٥٢ . وقد هاجمه رجال الأزهر ، وهو الهجوم الذى فقد وظيفته بالجامعة ومنصبه فى القضاء نتيجة له . وان كان قد أعيد اليها بعد ذلك .

بأشـــكال الحكومة ... ويعبر كتابة (الاســـلام ونظم الحكم) عن مضمون علمانى يتصل الى حد كبير بالحوار الاسلامى العلمـــانى الدائر اليوم . وهو يحاول أن يجيب داخل مؤلفة على ســـؤال رئيسى مفاده هل يستطيع الاســـلام أن يقدم نظاما للحكم فى العصر الحديث ؟ .. ثم يذهب الى طرح اجابة لهذا الســـؤال تؤكد أن الاســـلام ليس نظاما للحكم بقدر ما هو وعيا دينيا محددا (٩٩) .

ثم يذهب القول بأن التاريخ الاســـلامى سياسى مثلما هو دينى ، غير أنه ميز بصورة حادة بين مختلف جوانب التاريخ الاســـلامى . وهو يرى أن المسلمين العرب أسسوا امبراطورية عظيمة أثناء عمليـــة نشر الاســـلام . ولكنه أكد أنها كانت امبراطورية عربية . وفى تأسيسهم لهذه الامبراطورية تصرف العرب (باعتبارهم حكاما ومستعمرين) وليسوا كمسلمين . ولقد كانت الدولة الحديثة التى تأسست بواسطة العرب ، وحكمت بالطريقة العربية ، ومن ثم كانت دولة عربية . فالاســـلام كما أعرفه ، هو ديانة لكل البشر ، وليس خاصا بالعرب ، وفى ذات الوقت ليس خاصا بالأجانب (١٠٠) (*) .

خلاصة القول أن هـــذا الفريق يذهب الى استنتاج أساسى مضمونه أن العصر الحديث يســـتند الى العقلانية التى نجد أصولها فى الثقافة العلمية والتكنولوجية . ولقد تقدمت مجتمعات الغرب لأنها امتلكت هـــذه الثقافة ، بينما تخلف العالم الاســـلامى لأنهم لم يتبنوا هـــذه الثقافة ولقد خضع الغرب المسيحى لعملية اصلاح أدت الى فصل الجوانب الدينية عن

(*) من المدهش أن ينسب الدكتور على عبد الرازق الفتوحات التى تمت تحت راية الاســـلام للعرب وليس للاســـلام ، وهو يعلم أن نظـــام الدولة فى مختلف الجوانب كان نظاما اســـلاميا أساسا بل ان الاســـلام هو الذى حول عرب ما قبل الاســـلام الى عرب أهل حضـــارة فيما بعـــد الاســـلام . ومن ثم فالاســـلام هو المتغير الذى طرأ فدفعهم الى تأسيس امبراطورية اســـلامية واسعة ومن غير المنطقى أن يسير الاســـلام كحضارة بدون حملة له ومن ثم فالتجسيد للحضارة الاســـلامية ينبغى نسبته الى التصور أو المثال الاسلامى ، وليس للذين ساعدوا على تجسيد هذا التصور .

السياسية . ولقد أكد الأفغانى وهو من أعظم المفكرين الاسلاميين أن الاسلام لم يقدم مارتن لوثر بعد ، وقد اعتقد أن بامكانه أن يلعب هذا الدور . وقد أغفل هذا الرأى للأفغانى من قبل قرائه ، وعليه فان الاسلام ما زال ينتظر اليوم وهو فى حاجة الى اصلاح .

وسوف تتحقق العلمانية فى أعقاب الاصلاح ، غير أن هذه العملية تفترض نمو الثقافة المستندة الى تصنيع المجتمع الذى يعتمد بدوره على الأصول العلمية والتكنولوجية . ومثلما حدث فى أوربا لم تعنى العلمانية نهاية المسيحية ، ونفس الأمر فيما يتعلق بالشرق الأوسط حيث لن تؤدى العلمانية الى تخفيض مكانة الاسلام . كل ما فى الأمر أنه سوف يفصل الطابع السياسى عن الاسلام فقط . ومن ثم سوف يصبح نسقا فرعيا هاما من النسق الاجتماعى الكلى له أساسه فى أعماق المؤمنين من البشر . واذا كانت الصوفية فى الاسلام هى التى عارضت — فى أوجه الحضارة الاسلامية — سوء استخدام الدين كمصدر لشرعية القوى الحاكمة ، فانها بذلك قدمت لنا العناصر الأساسية لعملية العلمنة فى الشرق الأوسط (١٠١) (*) .

(*) نختلف مع وجهة النظر هذه ، وذلك باعتبار انطلاقها من الاطار الدينى — العلمانى لأوربا كاطار مرجعى لفهم الموقف الاسلامى من العلمانية وهو أمر يشير الى سقطة منهجية صارخة . اذ أن الاسلام يقدم نظرية تختلف تماما عن رؤية المسيحية فيما يتعلق بالفصل بين الدين والدولة . وهى الرؤية التى استندت اليها نزعة الاصلاح لمارتن لوثر ، والتى شكلت أساسا للفكر العقلانى والعلمانى بعد ذلك . فالاسلام يصر على العلاقة العضوية بين الدين والدولة ، وعلى أولوية الدين على الدولة . فالحاكمية فيه لله ، وهو الأمر الذى تجاهله المؤلف أو لم يدرك مضمونه .

هذا الى جانب أن الصوفية هى احتجاج منسحب عن المشاركة فى الحياة والى أن الاسلام لا يوافق على هذا الاتجاه المنسحب ، فهو دين يدعو الى الايجابية والمشاركة ، الا أن البحث فى الأصول التاريخية للسلوك الصوفى يكشف أنه ظهر كاحتجاج على اخضاع الدولة للدين باعتباره مصدرا لشرعيتها ، مع أن العلاقة الصحيحة هى أن يكون الدين فوق الدولة ، يخلع عليها الشرعية ويرفضها عنها .

غير أنه برغم النضال الاسلامى التاريخى الذى تحمل عبئه المسلمون على كافة الأصعدة السياسية والثقافية والاجتماعية حتى استقلت الدولة فى المجتمعات الاسلامية . وبرغم نجاح هذا النضال . فانه قد حدث الصدام بين الصفوة الدينية والصفوة العلمانية شركاء النضال فى مرحلة ما قبل الاستقلال . وقد كان الصدام والصراع ضاريا انتصرت فيه الصفوة العلمانية على الصفوة الدينية برغم امتلاك الأخيرة لقوى كانت هى الماضية ضد القوى الاستعمارية . ولقد تأكد انتصار الصفوة العلمانية بالنظر الى عدة عوامل أو ظروف أساسية نذكر بعضها فيما يلى :

١ — أن القوى الاستعمارية التى احتلت مختلف المجتمعات الاسلامية استطاعت أن تخلق حالة من الفوضى الثقافية داخل بنية هذه المجتمعات . هذا بالاضافة الى انها قبل خروجها استطاعت ان تخلق شريحة اجتماعية عريضة تؤمن بأفكارها وتستوعب قيم المستعمر وثقافته . ومن ثم فهى داخل مجتمعاتها فيزيقيا غير أن توجهاتها ترتبط بتوجهات القوى العالمية واحيانا القوى الاستعمارية الأجنبية بالنسبة لمجتمعاتها .

٢ — أنه خلال الفترة الاستعمارية وبدعم من قوى الاستعمار الى جانب بعض الظروف البنائية السائدة تشكلت صفوة علمانية لديها انفصال عن التراث وربما ادانة غريزية له . بحيث اصبحت تدافع عن توجهات العلمانية بحكم أنها التى يجب أو ينبغى أن تسود ، تدين التراث وتشيع مناخا من عدم الثقة فيه ، اعتدالية تسعى جاهدة الى الارتباط بالقوى الخارجية ، غير قادرة أو متصورة امكانية الاعتماد على الذات ، بغض النظر عن موقع مصالح الجماهير فى هذا الاطار ، وذلك ما دامت كل التحركات التى تنجزها تساعد على خدمة اهدافها وتحقيق مصالحها .

٣ — ارتكبت الصفوة الدينية ، التى تعبر بقدر ما عن تراث المجتمع ، هى الأخرى خطأ قاتلا ، حينما تمسكت حرفيا بالنصوص ، وانغلقت على ثقافتها فعجزت عن ادراك الاسهامات الثقافية التى قدمتها الحضارات الأخرى .

عجزت هـذه الصفوة أولا عن المساهمة فى جدل الحضارات بما يساعد على دعم تراثها وحضارتها ، ثم هى من ناحية أخرى عجزت عن تطوير تصورات منطقية لمواقف متغيرة ، بالاضافة الى أنها لم تدرك أن عصور فتح باب الاجتهاد على مصراعية كانت ذاتها هى عصور قوة الحضـارة وازدهارها ، وأن الالتزام الحرفى بالنصوص كان دلالة على فترات الانهيار والضعف . ونتيجة لذلك بدت هـذه الصفوة فى النهـاية ، هى وتراثها وحضارتها جامدة غير قادرة على الدفاع عن نفسـها حينما شنت عليهـا الصفوة العلمانية وابل رصاصها .

٤ — ويعتبر موقف الجماهير من طبيعة التطور الاجتماعى أحـد العوامل التى أسهمت فى تعقيد الموقف • فنظرا للحرمانات التاريخيـة والتاريخ النضالى لهـذه الجماهير ، فقد كانت مرحلة الاستقلال فى حد ذاتها غاية يسعى الجميع الى تحقيقها . غير انه لم تكن هناك تساؤلات أو أفكار واضحة حول طبيعة دولة الاستقلال ، ما هو الطابع الذى يجب أو يمكن أن تتبناه الدولة . ولقد سـاعد على ذلك عـدة عوامل فرعية ، منها عجز الصفوة الدينية عن تحويل الدين من مستوى الضمير الفردى الى مستوى العمل الاجتماعى الذى تعيه الجماهير من ناحية ، ومن ناحية أخرى فاعلية ظروف تتعلق بالفقر وارتفاع معدلات الأمية والظروف الصحية وانخفاض الوعى الثقافى واعتياد القهر التاريخى ، كل ذلك جعل الجماهير عاجزة عن المشاركة بصورة فعالة فى تحديد طبيعة دولة الاستقلال التى كان من الممكن أن تعكس قيمها الأساسية . هـذا الى جانب أن الصفوة العلمانية ، تدعمها القوى الخارجية أو فى مواجهة عجز القوى الداخلية ، حاولت أن تنفرد بتوجيه المجتمع بغض النظر عن انسحاب الجماهير أو احتجاج الصفوة الدينية ، واذا هى قد انفردت بالقرار الاجتماعى فهو علمانى بطبيعته ، أيا كانت طبيعة هـذه العلمانية ، ليبرالية كانت أم اشتراكية .

* * *

خامساً : الدولة القومية
اختيار العلمانية والسيطرة على الدين

أيا كانت طبيعة النضال الذى سلكته الجماهير طريقا للحصول على استقلال الدولة ، فان الدولة فى غالب المجتمعات الاسلامية قد حصلت على استقلالها . غير انه بسبب مجموعة الظروف السابقة التى اشرنا اليها ، فان السيطرة على دولة الاستقلال كان من نصيب الصفوة العلمانية وعلى حساب الصفوة الدينية . وهى الصيغة التى تكررت فى معظم مجتمعات العالم الاسلامى . وسوف نعرض لما حدث فى ايران كمثال على جمود الصفوة الدينية ، وان كان هذا المثال لم يتكرر كثيرا فى العالم الاسلامى الا بدرجة محدودة فى الباكستان . كما سوف نعرض لما حدث فى مصر كمثال شائع فى المجتمعات الاسلامية .

فبغض النظر عن تباين السياقات التاريخية ، فقد وقع الصراع بين الصفوة العلمانية من ناحية والصفوة الدينية من ناحية اخرى . حيث حاولت الأولى حرمان الأخيرة من مصادر قوتها الى جانب استحداث اسلحة واستراتيجيات جديدة فى النضال كمحاولة التداخل العضوى بين الصفوة العلمانية والعسكرية ، باعتبارهما يقودا الصراع من خندق واحد . ولقد حدثت هذه الصيغة تقريبا فى معظم المجتمعات الاسلامية ، وحققت نجاحات اقلها من حيث الدرجة فى مجتمعات النموذج الاول ، وهى التى كان نضالها من اجل الاستقلال اسلاميا صرفا ، غير ذلك نجد ان نجاح العلمانية كان كاسحا سواء فيما يتعلق باقرار الطبيعة العلمانية للدولة ، أو امتداد سيطرتها على الدين .

ففى ايران مثلا نجد انه نظرا لقوة المراجع الدينية واستقرارها على ما أشرنا . أدركت السلطة السياسية انه اذا تفجر الصراع فلن تكون النتيجة لصالحها ، أولا لفاعلية الشرعية الدينية وغلبتها على شرعية الدولة وثانيا

لطبيعة الخصائص النضالية للشيعة الايرانية • ومن ثم ظلت السلطة الدينية رقيبة على السلطة السياسية ، تتصادم معها اذا هى قد حاولت الخروج على خط الاتفاق • غير أن القاعدة الثابتة فى التاريخ الايرانى ، أن الحكم ثنائيا بين الشاه من ناحية والمرجع الدينى الأعلى من ناحية أخرى .

ولقد كان الصدام الذى حدث فى ١٨٤٨ من أقوى الصدامات فى التاريخ الايرانى الحديث ، حيث وقع الصدام بين ناصر الدين شاه من ناحية وبين المرجع الدينى آية الله حسن الشيرازى من ناحية أخرى • وقد ثار هـذا الصدام لأسباب بروتوكولية حينما لم يخف آية الله الشيرازى الى استقبال الشاه عند زيارته للنجف ، وان اجتمعا بعد ذلك بناء على الحاح الثانى فى مقام الامام على بن أبى طالب ، اشارة الى علو الامامة . أما الثانى فهو سياسى حينما منح الشاه حق احتكار التنباك لشركة بريطانية فى ١٨٩١ • هنا اصدر آية الله الشيرازى فتوى دينية بمنع تدخين التنباك ، مما دفع الشاه الى الغاء الامتياز ، وسجلت السلطة الدينية بذلك انتصارا حاسما على السلطة السياسية .

وقد قامت المواجهة من جديد فى عصر السلطة القاجارية بين الشاه من ناحية والمراجع الدينية من ناحية أخرى ، وذلك بسبب اغتيال ناصر الدين الشاه على يد أحد الاتباع الدينيين . وفى هـذا المناخ حدث ضغط شعبى بقيادة رجال الدين لوضع دسـتور فى فترة حكم مظفر الدين بن ناصر الدين ، وهو الذى عرف بدستور ١٩٠٦ حيث حافظت الحركة الدينية فى هـذا الدستور على امتيازاتها من خـلال ما منحه هـذا الدستور من صلاحيات لرجال الدين (١٠٢) . وخلال هـذا العهد تأكدت من جديد السلطة الفعالة والقوية لرجال الدين ، واصرارها على مراقبة رجال الدولة والسياسية . وتتبدى هـذه السلطة فى أن رجال الدين هم الذين اشاروا فى فترة تالية على رضا شاه أن يؤسس حكما ملكيا (شاهنشاهيا) فى ١٩٢٤ بدلا من الحكم الجمهورى ، هـذا الى جانب أنهم الذين عارضوا خلال هـذه الفترة اصدار دستور مدنى جديد (١٠٣) .

بل اننا نجد أن آية الله كاشانى هو الذى منح الزعيم الايرانى مصدق تأييدا قويا وفعالا خـلال ازمة البترول فى ١٩٥١ (١٠٤) ، مؤكدا بذلك موقف السلطة الدينية ضد كل القوى العلمانية الخارجية او الداخلية من ناحية ، ثم موقف المراجع الدينية فى الدفاع عن مصالح الجماهير من ناحية أخرى .

هذا الى جانب أن رجال الدين كانوا هم المسئولين عن شن حملات العنف ضد طائفة البهائيين فى ١٩٥٥ (١٠٥) باعتبارهم طائفـة منحرفة من حيث تعاليمها على ما وافقت عليه المراجع الدينية ، — ومع ذلك لم تخف السلطة السياسية الى نجدتها — هـذا الى جانب أن رجال الدين هم المسئولين عن الاضطرابات التى وقعت فى ١٩٦٣ ضد اصلاحات الشاه وبخاصـة الاصلاح الزراعى (١٠٦) باعتبـار تناقض المضمون الاصلاحى مع التعاليم الدينية الشيعية . بل انه حينما تجاوزت السلطة الدينية أو السياسية حدودها فى عصر الشاه الأخير نجد أن السلطة الدينية هى التى قادت حركة ثورية بقيادة آية الله الخمينى ، اطاحت بالشاه فى ١٩٧٩ . ذلك كله يبرهن بما لا يدع مجالا للشك أن الاسـلام الشيعى المناضل فى ايران ظل دائمـا فعالا ومناضلا ، وأن قادته كانوا الاقويا دائمـا (١٠٧) وهو الأمر الذى حال دون تحول ايران بصـورة مباشرة الى العلمانية ، بمـا فى ذلك سيطرة الدولة على الدين .

واذا كان الصراع بين السلطة الدينية والسياسية فى الباكستان قد أسلم الى قيام هدنة مؤقتة ، حينما استطاعت السلطة الدينية تحقيق بعض الانجازات فى عهد الرئيس ايوب خان على نحو ما أشرنا من قبل . فان المواجهة فى مصر كانت لغير صالح رجال الدين . حيث انتصرت السلطة السياسية حيثما حدثت المواجهة . وهى التى تمت فى فترتين تاريخيتين ، الأولى الفترة التى عاصرت بداية حكم محمد على باشا والثانية التى عاصرت عبد الناصر زعيما لحركة يوليو ١٩٥٢ .

وفى اطار المواجهة الأولى ، وهى التى شغلت فترة حكم محمـد على

(١٨٠٥ — ١٩٤٩) . فانه برغم أن رجال الدين هم الذين خلعوا الولاية على محمــد على ومنحوه الشرعية ، فان محمــد على عمل بعد ذلك على فصل الدين عن الدولة وذلك من خلال الهجوم المباشر الذى شنه ضد التأثير السياسى للعلماء . وفى الفترة من ١٨٠٩ — ١٨١٣ قام محمــد على بفصل بعض كبار العلماء الذين عارضوه ، مؤكدا بذلك حق الدولة فى تعيين أو فصل الشــيوخ الذين يشكلون جوهر الصفوة الدينية للمجتمع . والى جانب هــذا التقليم لدورهم السياسى نجده قد عمل على القضاء على مصدر استقلالهم الاقتصادى عن طريق الغاء نظام الالتزام الذى كان يوفر مصدرا للدخل الاقتصادى بالنسبة لكبار رجال الدين . هــذا الى جانب أنه سيطر على دخول الأوقاف الخيرية الذى تدعم اقتصاديا أداء النظم الدينية لوظائفها (١٠٨) .

ومن ناحية اخرى نجد أن محمــد على قنن أسلوبا جيدا فى الحكم يتمثل فى الخروج على المبادىء التقليدية للحكومة الاســلامية ، وذلك برفضه التسليم بضرورة استشارة كبار العلماء أو اشراكهم فى المجالس الاستشارية للدولة . ولقد كانت أساليب الرعب والتهديد التى مارسها محمــد على وابنه ابراهيم من العوامل الأساسية التى أسكتت العلماء ، والى جانب ذلك لم يعدم محمــد على السبل فى فرض التجديدات التى يرفضها رجال الدين داخليا ، وتأكيد موافقتهم عليها (١٠٩) .

ولقد كان النجاح حليف محمد على لأنه لم يحاول أن يتحدى مفاهيم وتقاليد العلماء صراحة ، هذا الى جانب أنه — خلال الفترة الأولى من حكمه على الأمل — لم يتخل كلية عن المفاهيم الأساسية للحكومة الاسلامية . فمثلا سلم بالشريعة باعتبارها مصدرا قانونيا أعلى . بل ان محمد على لم يعدم وسيلة الحصول على مشورة العلماء التى توافق على برامجه . حتى ولو بلغ الأمر الحصول على فتوى من عالم ينتمى الى فريق مضاد لآخر ، أو حتى عالم من الدرجة الثانية . هذا الى جانب أنه لم يتحد سلطة رجال الدين فى السيطرة على التعليم الدينى — وأن اتخــذ الاجراءات التى اضعفت

فاعليته ــ أو الشريعة أو سيطرتهم الأخلاقية على المجتمع (١١٠) . ونتيجة لأساليبه المباشرة وغير المباشرة هذه نجدة قد تمكن من فرض السـيطرة السياسية عليهم .

الى جانب ذلك حاول محمـد على تقويض البناء الدينى من الداخل ــ ليتيح المزيد من تغلغل العلمانية ــ ولقد كانت السيطرة على الموارد الاقتصادية الموجهة للأغراض الدينية هى الخطوة الاساسية فى هذا الاتجاه . وهى الموارد التى كانت تدعم بنـاءا دينيا هائلا يتضمن المسـاجد والزاويا والمدارس وتمويل الاحتفالات الدينية للمجتمع . حيث أدت هذه السيطرة الى تأسيس آثار تخريبية للنظم الدينية فى مصر ، وبسبب اهمـال النظـام الجديد لهذه التنظيمات الى جانب حرمانها من مواردها الاقتصادية فاننا نجد ان هذه التنظيمات الدينية قد دخلت مرحلة الانهيار السريع والمستمر . حيث انهارت كثير من الكتاتيب (مدارس التعليم الدينى) فى هذه الفترة . وبحلول سنة ١٨٧٥ حينما قام على باشا مبارك بمسحة الشهير للمساجد والمدارس ، وجد أن انهيارها أصبح شائعا . حيث تحولت معظم المدارس (الكتاتيب) الى مساجد ، وتوقفت مخصصات العلماء ما عدا علماء الأزهر . بل أنه وجد أن معظم المساجد أصبحت عاجزة عن توفير الأشخاص الضروريين للقيـام بخدماتها العـامة . ومن ثم تحولت الى اماكن للاجتماعات المؤقتة لبعض جماعات الدراويش والطرق الصوفية . ولقد واجهت التنظيمات الدينية نفس الانهيار . ونتيجة لذلك توقفت الوظائف الأسـاسية لكثير من المسـاجد والمدارس ، ومن ثم هجرها الناس ، وهو نفس الأمر الذى حدث للتنظيمات الدينية الأخرى (١١١) .

ونتيجة لذلك انهارت العلاقات الاساسية بين العلماء من ناحية والصفوة السياسية العسكرية من ناحية أخرى ، أو لنقل بين الدين والدولة . وحدث الانفصال بينهما فى اطار النمط الجديد الذى أسسه محمد على . وفى حين كانت صفوة الدولة (الصفوة السياسية) فيما مضى تحترم العلماء وتطيع

ايضا مشورتهم بل وتجعلهم شركاء فى الحكم ، كان النظام الجديد ينظر اليهم باعتبارهم عقبة فى طريق التحديث أو على الأقل يتنافسون معه للحصول على السلطة . وهم أولا وأخيرا معلمين للعلوم والاتجاهات والممارسات المسئولة عن التخلف الثقافى والاقتصادى للأمة ، وأصبح ينظر الى العلماء وتعاليمهم بصورة متزايدة باعتبارهم عوامل أساسية سببت الضعف والتخلف العسكرى للدول الاسلامية (١١٢) .

خلاصة القول أنه لكى يتمكن النظام الجديد — الذى بشر بالعلمانية ، كان عليه أن يؤدى فاعليته من خلال الاستراتيجيات الأساسية التالية :

(أ) الاضعاف المباشر لسيطرة رجال الدين على الدولة من خلال ايقاف مدخلاتهم السياسية والاقتصادية والابقاء بالكاد على سلطاتهم الأخلاقية فى المجتمع ، وهى الأمور التى ساعدت على تخفيض هيبتهم الاجتماعية واخرجتهم من دائرة الصفوات .

(ب) استعارة ونقل بعض الأفكار والمعتقدات والمستويات التكنولوجية الغربية تلك التى تهم فاعلية المؤسسة العسكرية بالأساس (العلم ، الطب ، الفن ، الصناعة) بحيث اقتصرت هذه الاستعارات من الغرب على قطاعات محددة ، وذلك لم يتح الفرصة للصدام مع المعتقدات الأساسية للجماهير ، بما لا يثير حفيظتها . بحيث ساعد ذلك على التغلغل العلمانى التدريجى بدون أن يشكل ذلك رد فعل من الثقافة المحلية .

(ج) تأسيس جهاز جديد للدولة العسكرية ، يرتبط بها جهاز بيروقراطى حديث ، حيث تم خلق مجموعة المؤسسات التى تستطيع امداد الدولة وبيروقراطيتها من خلال تدريب علمانى ، بحيث أدى ذلك الى خلق اطارين او بنائين داخل المجتمع . الأجهزة السياسية والعسكرية والادارية من ناحية ، فى مواجهة رجال الدين الذين تضاءلت قوتهم ومكانتهم من ناحية أخرى (١١٣) .

وإذا كان نظام محمد على هو الذى شكل ساحة المواجهة بين العلمانية الغربية والدينية الاسلامية . واذا كان الانتصار من نصيب الأولى ، فلقد شهدت الفترات التاريخية التالية تطورا لتغلغل التيار العلمانى فى مختلف المجالات الاجتماعية وانحسارا للدين عن ذات المجالات . واذا كانت البداية عسكرية وادارية ، فقد امتدت لتشمل الثقافة والفن والحضارة فى عصر اسماعيل ولتشمل سفور المرأة والشريعة وقوانين الأحوال الشخصية فيما بعد ذلك . بل ان التغلغل العلمانى فى بعض الفترات تحقق تحت سيطرة واشراف جنود الاحتلال البريطانى ، وحتى ظهور الأحزاب السياسية ذات التوجه العلمانى استكمالا للبناء السياسى المكتمل العلمانية (١١٤) .

واذا كانت ثورة ١٩٥٢ قد قامت لتأكيد الاستقلال القومى للدولة ، فانها من ناحية أخرى كانت الواقعة التى قدمت اللمسات لاستكمال سيطرة الدولة على الدين . واذا كانت الصفوة السياسية قد تمكنت من القضاء على جماعة الدين . واذا كانت الصفوة السياسية قد تمكنت من القضاء على جماعة الاخوان المسلمين فى ١٩٥٤ — تحت وطأة خطأ تكتيكى من هذه الجماعة — فان الصفوة السياسية استكملت ذلك بسيل من القرارات التى استهدفت بالأساس تأكيد سلطة الدولة على الدين . من هذه القرارات الغاء المحاكم الشرعية بالقانون رقم ٤٦١ لسنة ١٩٥٥ ، حيث قضت المذكرة الايضاحية (أن قواعد القانون العام تقضى بأن تكون سيادة الدولة تامة ومطلقة داخل بلادها ، كما تقضى أن يخضع جميع السكان على اختلاف جنسياتهم لقوانين البلاد ومحاكمها ولجهة قضائية واحدة) (١١٥) . والغاء الوقف الخيرى (١١٦) الذى كان مصدرا لتمويل بعض الجوانب الدينية . ثم صدر قانون تطوير الأزهر فى ٥ يوليو عام ١٩٦١ بالقانون رقم ١٠٣ (١١٧) حيث منح الدولة مزيدا من السيطرة على الأزهر بتعيين زعاماته متضمنا ذلك تعيين شيخ الجامع الأزهر الامام الأكبر ذاته ، هذا بالاضافة الى دفع الجامعة الأزهرية خطوات كبيرة على طريق العلمانية .

ويبدو أن نفس المسارات قد حدثت فى مختلف مجتمعات العالم

الاسلامى ، والتى كان من نتيجتها سيطرة الصفوة العلمانية التى رسخت توجهاتها الغربية ، وأسست بناءاتها التى تضرب بجذورها عمقية فى بنيـــة المجتمع .. وهكذا أغلق الستار على فصل من النضال والصراع التـــاريخى حتى تحقق استقلال الدولة .. لكنها أصبحت دولة قومية بالأساس واسلامية على مستوى الضمير الفردى . واذا كانت الصفوة الدينية هى التى قادت جهاد الاستقلال تحت رايات الاسلام الخضراء . فان هذه الصفوة فقدت حماسها عشية الاستقلال بل وجدت نفسها فى كثير من المجتمعات تقدم قربانا على مذبح الدولة الاسلامية . وكان من الضرورى أن يبدأ فاصل جديد . سوف نتعقبه بالتفصيل .

غير ان هذا التحول فى السيطرة على مقادير المجتمع وتحمل مسئولية قيادته من الصفوة الدينية الى الصفوة العلمانية ـــ أيا كانت آليات التحول ـــ فرض أن تكون التنمية علمانية أيضا ـــ اشتراكية كانت أم ليبرالية ورفعت شعارات التنمية باعتبارها تحديثا على الطريقة الغربية ، أو باعتبارها تخليا عن نموذج المجتمع التقليـــدى وتحركا الى نموذج المجتمع الغربى الحديث والمتقدم .. وكان ذلك بدورة فاصلا جديدا يستهدف دفع الجماهير الى العلمانية الغربية بعد أن تحقق اندفاع صفوتها .

غير أن هذه التحولات تركت آثارها الواضحة على بنية المجتمع خلال هذه المرحلة ، بحيث نذكر بعضا من هذه الآثار فيما يلى :

١ ـــ معاناة مجتمعات العالم الاســـلامى من ثنائية التوجه القيمى والأيديولوجى أو تعدده . فهناك الجماهير وقياداتها الدينية تحتـــل القيم الإسلامية لديها المكانة العليا فى سلم القيم ، فى مقابل الصفوات العلمانية المتعددة التوجه . واذا كانت التنمية تسير بقيم الأخيرة ، فقيم الأخيرة ليست هى قيم الأولى . واذا كان من حظ المجتمعات الاسلامية أنها امتلكت البديل الاسلامى والحضارى اذا فشلت التنمية لديها على أساس البديل الغربى ،

فانه كان قدرها القاتل أن يستمر صراع البدائل على أرضها دون أن تحسم اختيارا .

٢ — افتقاد الولاء ، أو الارتباط بقيم ، فأى قيم يمكن أن يعمل بهـــا الانسان . هل القيم التى استوعبها بداخله والتى تشكل جوهره الحضـــارى والتراثى ، أم قيم الغير الذى أعلن عنها وبغض النظر لمن الخداع القيمى الذى قد تمارسه الصفوة السياسية فى المجتمعات الاسلامية كالقول بأن الإسلام اشتراكى أو هو دين رأسمالى بالأساس . فان هذا يدل على ادراك الصفوة على امكانية دفع الجماهير للمشاركة من خلالها قيمها التراثية . وهنا تطرح تساؤلات عديدة عن الشرعية ، وعن الحاكمية ، وعن الولاء لمن ، وعن ضرورة البحث عن طريق يضم الصفوة والجماهير وما لم يحدث ذلك ، فهذه المجتمعات تعيش حالة من الفوضى .

٣ — انسحاب الجماهير من المشـــاركة الفعـــالة — أيا كان صعيد المشاركة سياسيا أو اقتصاديا — وتشهد مجتمعات العالم الثالث والمجتمعات الاسلامية أكثر منحنيات المشاركة انخفاضا . ذلك أننا اذا اعتقدنا حسب نظرية الارتباط الشرطى انه من الممكن اثارة الحافز لدى الحيوان غريزيا ، فان الانسان يتحرك حسب فكره ، حسب قيمة يؤمن بها ، ويتحرك نضالا لتجسيدها ، والمهم هو أن نصل الى قيم الجماهير القادرة على دفعهم وحفزهم للمشاركة الايجابية .

٤ — ركون الصفوة الدينية الى الدعة تحت الاحســـاس باليأس أو الشعور بالدونية ، ربما كان ذلك يعنى نوعا من الاحتجاج الصامت الذى قد يعبر عن نفسه أحيانا — مثل أئمة المساجد الذين ينتقدون دعوة تنظيم الأسرة التى يبشر بها النظام الاعلامى — أو قد يصاب بالصمت حيث يتحول السيد الى خادم السلطان يبرر أفعاله ويقدم شروحا لها على المتن . ويقدم نموذجا مثاليا لفقهاء السلطان حسبما يذهب نائب الامام آية الله الخمينى . والشعور بالدونية اذا تعمق فى داخل الانسان سوف يعنى الموت أو على

الأقل ضياع الهوية . غير أنه اذا أدركه الانسان ووعى أسبابه والطريق الى تجاوزه ، فسوف يتحول الى طاقة تجديد وتطور .

وهكذا تحقق استقلال الدولة القومية ، وأعيد ترتيب مكانات وأدوار الصفوات التى تحملت النضال سابقا بحثا عن استقلال الدولة . وبدأت عقود التنمية الاقتصادية الاجتماعية ، تشهد تنوعا لتجارب تنموية فاشلة أو محدودة النجاح . وفوجىء النظام العالمى بالبعث الاسلامى من جديد ، وتساءل البشر عن أسباب هذا البعث هل هو حديث الرسول الكريم القائل بما معناه (يبعث الله على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها) أم أسبابه تكمن فى فشل التنمية العلمانية ، أم تكمن فى البديل الاسلامى الذى ناضل ، ثم خلد الى السكون ، ثم انبعث مناضلا من جديد ؟ .

* * *

(١) Badie, Bertrand & Pierre Brinbaum : The Sociology of The state. Trans By : A. Goldhammer. The university Press of Chicago Press, Chicogo and London. 1983. Pp. 97 - 101 .

(٢) Jansen, G. H : Militant Islam, Harper & Row Publish ers.New York. 1979. P. 16.

(٣) Ibid. p. 18.

(٤) Burckhardt, Titus : Dimensions of islam. London : Auen & Unuiin , 1970. Pp 230 - 273.

(٥) Jonsen , Op, Cit . P 29.

(٦) Ibid. P. 31.

(٧) محمد حسنين هيكل : خريف الغضب .

(٨) المرجع السابق : ص .

(٩) Jansen , Op, Cit , Pp. 40 - 42.

(١٠) Ibid. P.

(١١) محمد الجوهرى وآخرين الاقتصاد والمجتمع فى العالم الثالث ، دار المعارف ١٩٨٢ ص ص ١٢٧ — ١٤٠ .

(١٢) Janson , Op, Cit, P, 113.

(١٣) **Fanon, Franz** : Violence will be the Midwife of The New World (in) Frank Tachnu (editor) : The developing Nations, what Path to Modernization. (Harper & Row, Publishers, New York . 1972) pp. 186 - 197. esp. p,

(١٤) Jansen. Op, Cit. p, 32.

(١٥) Ibid, P, 38.

(١٦) ابراهيم الدسوقى شتا : الثورة الايرانية الجذور والأيديولوجية (دار الكتب . بيروت ، ١٩٧٩) ص ١٧ .

(١٧) المرجع السابق . ص ١٧ .

(١٨) المرجع السابق . ص ١٧ .

(١٩) المرجع السابق . ص ١٩ .

(٢٠) محمد حسنين هيكل : مدافع آية الله ، قصة ايران والثورة . (دار الشروق . ١٩٨٢ . الطبعة الأولى) . ص ١٩٧٣ .

(٢١) ابراهيم الدسوقى شتا : مرجع سابق . ص ٣٩ .

(٢٢) محمد حسنين هيكل : مدافع آية الله ، قصة ايران والثورة ، مرجع سابق ص ١٨٦ .

(٢٣) Tibi, Bassam ; Islam and Secularizition, Religion and the Functional differentiation of the Social System . (in) Mourad Wahba (editor) Caino, 1983, Pp. 69 - 85.

(٢٤) Jonsen , Op, Cit - P. 103.

(٢٥) محمد حسنين هيكل ، خريف الغضب ، مرجع سابق ، ص ٣٢٦ .

(٢٦) المرجع السابق . ص ٣٢٥ .

(٢٧) المرجع السابق . ص ٣٢٦ .

(٢٨) المرجع السابق ، ص ص ٢٦١ — ٢٦٢ .

(٢٩) سامى ذبيان : ايران والخمينى ، منطلقات الثورة وحدود التغيير ، (دار السيرة ، بيروت . الطبعة الأولى ، ١٩٧٩) ص ١٧٨ .

(٣٠) محمد حسنين هيكل ، مدافع آية الله ، قصة ايران والثورة ، مرجع سابق ص ١١٢ .

(٣١) المرجع السابق . ص ١١٢ .

(٣٢) المرجع السابق . ص ١١١ .

(٣٣) المرجع السابق . ص ص ١١٣ .

(٣٤) سامى ذبيان : مرجع سابق . ص ٧٢ .

(٣٥) المرجع السابق ، ص ٧٣ .

(٣٦) **Ahmed, Aziz : Activism of the Ulama in Pakistan, (m) N.R. Keddie : Saints and Sufs, (Berkley, 1972) p, 257.**

(٣٧) Jansen : Op , cit, Pp. 100 - 101 .

(٣٨) Rosenthal, E : Islam in the modern national Statae, (Cambridge university Press 1965) pp, 212 - 213.

(٣٩) Jansen : Op, cit. P, 136.

(٤٠) E. Rosen thal , op, cit. p, 218.

(٤١) Hop wood, Derek : Egypt , Politics and society , 1945 - 1981 . Georg . Allen & Unwin - Lendon 1982 pp. 7-8.

(٤٢) حسن حنفى ، الدين والتنمية فى مصر . ص ٢١٨ .

(٤٣) محمد حسنين هيكل ، خريف الغضب ، مرجع سابق . ص ص ٢٧٦ — ٢٧٧ .

(٤٤) Janscn, Op, cit , p, 148.

(٤٥) Ibid. p, 104.

(٤٦) محمد حسنين هيكل ، خريف الغضب ، مرجع سابق . ص ص ٢٧٧ — ٢٧٨ .

(٤٧) المرجع السابق ، ص ٢٨٦ .

(٤٨) ريتشارد . ب . ميتشل : الاخوان المسلمون . ترجمة عبد السلام رضوان (مكتبة مدبولى . الطبعة الأولى القاهرة — مايو ١٩٧٧)
and See Also Jansen, op, cit .Pp, 148 - 150 .

(٤٩) محمد حسنين هيكل ، خريف الغضب ، ص ٢٧٥

(٥٠) Militant islam , op, cit p, 451.

(٥١) محمد حسنين هيكل ، خريف الغضب ، ص ٢٨٠ .

(٥٢) Dessouhi, Ali. E. Hillal : The Islamic resungence : Sources, Dynamics, and implication, (in) A. E. H. Dess wold. Praeger, 1982 - p, 18.

(٥٣) Vatin, Jean-Claude, Religion Resistance and State Power in Algeria (in) A.S. Cudsi & A.E.H.Dessouki : (editors) Islam and Power (Croorm. Landon. 1981) p.

(٥٤) محمد حسنين هيكل . خريف الغضب . ص ٢٨٠ .

(٥٥) J. C. Vatin, Op, cit. p. 134 .

(٥٦) Ibid. p, 135 .

(٥٧) Ibid. p, 135 .

(٥٨) Gellner, Ernest : The Unknown of Biskra : A Case Study of Algerian Puritansm, Government and, Opposition, Summer. 1974. Pp, 277 - 310.

(٥٩) J. C. Valnn, Op, cit p.

(٦٠) Jansen, Op, cit. p, 98.

(٦١) Ernest Gellner : op, cit. p, 285.

(٦٢) J. C. Vatin, op, cit p.

(٦٣) Ernest Gellnes, op, cit, p, 293.

(٦٤) J. C.Vatin, op, cit. p, 131 .

(٦٥) Ibid, p.

(٦٦) Jansen, op, cit. p. 99.

(٦٧) Ibid. p, 101.

(٦٨) Ibid. p, 100 .

(٦٩) Ibid, p. 106.

(٧٠) Longrigg, S. H. : Iraq, 1900 - 1950. (London, 1953.) P. 122.

(٧١) Ibid. p, 132.

(٧٢) Jansen : Op, cit. p. 106.

(٧٣) Parath , Y : The Emergence of the Palestinian-Arab Nationol Movement., 1929 - 1973 (1977. London. Coss) p. 183.

(٧٤) Ibid. p. 186.

(٧٥) A. E. H. Dessouki : The Resurgence of islamic organization in Egypt : An-intespretation, (in Dessouki & Cudsi. Pp. 111 - 112.

(٧٦) Jansen , op , cit. p, 136.

(٧٧) Adams, Charles, C:Islam and Modernism in Egypt. (London. Oxford university Press, 1933,) p. 109.

(٧٨) ريتشارد . ب . ميتشل : مرجع سابق . ص ٢٦٤ .

(٧٩) سورة سبأ الآية ٣٦ .

(٨٠) ريتشارد . ب . ميتشل . مرجع سابق ، ص ٢٦٤ .

(٨١) المرجع السابق . ص ٢٦٥ .

(٨٢) المرجع السابق ، ص ٢٦٧ .

(٨٣) Jansen : op, cit - p, 98.

(٨٤) Durkheim. Emill : The division of Londonr in soeiety. Trans by : George Seimpson. The Free Press of Glencoe. London. 1964.

(٨٥) Smith, W.C : Islam in modern world. (New York. Vintage Books. 1963) p. 124.

(٨٦) Jansen : Op, cit. p. 129.

(٨٧) De vries, Bert : The ocracy in islam (in) Cyriac K. Pauapilly : Islam in Contemporary world. Cross Roods Books, 1980) p. 71.

(٨٨) Feith , H & L. Costless (editors) : Indonesian Political Thinking. 1945 - 1965. Cornell. 1970. p, 164.

(٨٩) Ibid. p, 167.

(٩٠) Jansen : op, cit. p, 130.

(٩١) Ibid. p, 130.

Khalid, Detlev, H : Muslims and the Purpprt of (٩٢)
Secularism (in) islam and the modern age.(Vols. 1974.) No. 2. p. 30.

Ibid. p. 31. (٩٣)

Bassam , Tibi : Op, cit. Pp. 69 - 85. esp. p. 79. (٩٤)

Coulson . N. S : A Hisrory of islamic Law. (٩٥)
(Edinburgh, Edilnburg University Press. 1971.) p. 213.

Ibid. p, 216. (٩٦)

(٩٧) صادق جلال العظم نقد الفكر الديني (بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٦٩) ص ٢٢ .

(٩٨) المرجع السابق . ص ٧٨ .

(٩٩) على عبد الرازق : الاسلام وأصول الحكم (بصوت ، مكتبة الحياة ١٩٦٦) .

(١٠٠) المرجع السابق : ص ١٨٤ .

Bassam Tibi : Op, cit. p. 81. (١٠١)

(١٠٢) سامى ذبيان ، المرجع السابق . ص ص ٧٠ — ٧١ .

Jansen : Op, cit. Pp. 103 - 104. (١٠٣)

Ibid. p. 104. (١٠٤)

Keddie, Nikki : The Roots of Ulama-s' Power in (١٠٥)
modern iran. islamic studies XXiX (1969) Pp 31 - 53 . esp 38.

Ibid. p, 41 . (١٠٦)

Ibid. p. 51. (١٠٧)

(١٠٨) Crecelius, Daniel : The course of Secularization in Modern Egypt (in) John L. Esposito : Islam and Development, Religion and Sociopolitical change (Syracuse University press. 1980) p. 54.

(١٠٩) Ibid. p, 55.

(١١٠) Ibid. p, 56.

(١١١) Ibid. p, 55.

(١١٢) Ibid. p, 56.

(١١٣) Daniel Crecelius : op , cit - p. 57.

وأنظر أيضا : حسن حنفى ، مرجع سابق .، ص ١٨٩ .

(١١٤) Ibid. pp.

(١١٥) حسن حنفى ، مرجع سابق ص ص ١٩٥ — ١٩٦ .

(١١٦) المرجع السابق : ص ص ١٩٥ — ١٩٨ .

(١١٧) المرجع السابق . ص ص ١٩٩ — ٢٠٠ .

* * *

الفصل الرابع

الدين والدولة القومية
الصراع حول اختيارات التنمية

الفصل الرابع
الدين والدولة القومية
الصراع حول اختيارات التنمية

المحتــويات

الفصل الرابع

الدين والدولة القومية

الصراع حول اختيارات التنمية

أولا : الدين والدولة والمجتمع

البحث عن اطار نظرى

(يبعث الله على رأس كل مئة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها)
صدق رسول الله

(ليس دمنا اغلى من دم الامام الحسين الذى سال فى سبيل الاسلام)
آية الله الخمينى

تكشف القراءة التحليلية الواعية للتراث النظرى الاجتماعى والانسانى عن موقع متميز للمتغير الدينى فى علاقته بالبناء الاجتماعى . أو فى طبيعة العلاقة التى تربطه بالمتغيرات البنائية الأخرى ، كالعلاقة بين الدين والنظام السياسى ، أو بالأصح الدولة . أو تلك التى تتصل بعلاقة الدين بالبنـــاء الاقتصادى للمجتمع ، أو حتى العلاقة بين الدين والمجتمع باعتبار أن الأخير يشكل متغيرا اجتماعيا شاملا . بحيث نحاول من خلال هذه القراءة الكشف عن تباين مصدر الشرعية الاجتماعية وعلاقتها بكل من الدين والاقتصاد والسياسة . هل يعتبر الدين هو مصدر الشرعية الاجتماعية الكاملة بما فى ذلك الدولة والاقتصاد والمجتمع ، أم أن الشرعية الاجتماعية مصــــدرها أيا من المتغيرات الفرعية للمجتمع .

وفى المحاولة النظرية التى نشرع فيها سوف نحاول التعرض لوجهات نظر أربعة :

١ ـــ ماركس ونزع الشرعية عن المتغير الدينى .

٢ ــ ماكس فيبر ودعم فاعلية الدين كمتغير مستقل .

٣ ــ اميل دوركيم وأصل الشرعية الاجتماعية .

٤ ــ أبو الأعلى المودودى والشرعية الدينية المطلقة . وسوف نعرض بايجاز شديد لوجهات النظر هذه فيما يتعلق بالعلاقة بين الدين والمجتمع .

١ ــ ماركس ونزع الشرعية عن المتغير الدينى .

تعتبر وجهة النظر الماركسية أكثر وجهات النظر بروزا فى هذا الصدد . ويمكن القول بأن وجهة النظر الماركسية فى الدين كانت استمرارا حادا وراديكاليا لفكر الاصلاح الدينى . واذا كان الاصلاح الدينى قد وضع أساسا للتباين بين الدين والدولة والمجتمع ، فان عصر التنوير قد حاول أن يجعل العلاقة بين المكونات الثلاثة علاقة بين متغيرات مستقلة ، فقد حاولت الماركسية أن تخلع عن الدين استقلاليته بل وأساسيته بالنسبة للوجود الاجتماعى ، اذ تتخلق الظاهرة الدينية ــ من وجهة نظر كارل ماركس فى مرحلة ما قبل التاريخ الانسانى . فالدين يحتل مكانة زائفة ويؤدى وظيفة اجتماعية مفترية .

وتبدأ نظرية كارل ماركس عن الدين من خلال علاقته بهيجل ، بالاضافة الى حواره مع فيورباخ . واذا كان هيجل قد أكد نشأة النوع الانسانى حينما انقسم الله ذاته ، فاننا نجد تلميذه فيورباخ يرى وجود الله من خلال انقسام الانسان على ذاته . فوجود الله فى فلسفة فيورباخ شاهد على اغتراب الانسان عن ذاته . وهو الاغتراب الذى احتوى على مضمون جدلى أضفى من خلاله الانسان على الله أسمى ملكاته وقوام . بينما بدأ الانسان على نقيضة محدود وناقص . فالبشر ينظرون الى الله باعتباره كاملا وقادرا على كل شىء (١) .

واذا كان ماركس لا يوافق على المسحة المسيحية التى نلمح آثارها عند هيجل ، فاننا نجده يوسع من تصور فيورباخ وينظر الى الله باعتباره

ابداعا طبقيا الى جانب كونه ابداعا انسانيا . فالله والشعور الدينى وكل التصورات الغيبية هي مكونات لبناء فوقى أبدعته طبقة معينة لصالح تأكيد مصالحها فى قهر واخضاع طبقة أخرى (٢) . وأن عملية تحرير الانسان تعنى جمع النقيضين فى تآلف جديد ، أعنى أن يجتمع الله القادر والكامل مع الانسان الناقص والمحدود والمغترب ، فى اطار الانسان الممكن والكامل الذى يشكل عنصرا جوهريا من عناصر الطبيعة . كل ذلك يتحقق بطبيعة الحال من خلال ثورة بروليتارية تضرب فى عمق الانسان والمجتمع ، فتخلص الانســـان من اغترابانه وترد اليه قواه المفقودة والضائعة ، وليبدأ التاريخ الانســـانى من جديد .

وتجنبا للاستطراد فى شرح موقف المـــاركسية من الدين فاننا نجد أن الدين عند ماركس — استنادا الى عملية التباين الاجتماعى التى مر بها المجتمع الأوروبى — يشكل بناءاً فرعيا يلعب دوره فى المساعدة على تحقيق المصالح الطبقية الخاصة بطبقة معينة . ومن ثم فشرعية النظام الدينى تشتق أساسا من الشرعية الطبقية . وأن القضاء على البنية الطبقية يعنى القضاء على الشرعية الدينية . وهنا نجد ان المـــاركسية تعتبر استمرارا للاصلاح الدينى والتنوير لكن بمنطق أكثر راديكالية .

٢ — اميل دوركيم وأصل الشرعية الاجتماعية .

وتشكل نظرية أميل دوركيم فى الدين تصورا يتسم بذات الطابع الذى اتسمت به النظرية المـــاركسية (*) ويكشف تحليل الاطار الدوركيمى عن

(*) ليس من قبيل الصدف أن يكون كل من ماركس ودوركيم من اتباع الديانة اليهودية كأقلية فى قلب مجتمع الأغلبية المسيحى . وليس من قبيل الصدف أيضا أن تشغلهما المسألة اليهودية أيضا ، وليس من قبيل الصدف ثالثا أن يرفض الأول الدين باعتباره يستمد شرعيته من الوجود الطبقى للمجتمع الطبقى ، وأن يؤكد الثانى أن مجتمع التضامن العضوى (الصناعى المتقدم) لا يحتاج الدين لصياغة تماسكه ، الأول يرفض الدين تحت وطأة الغاء المجتمع الطبقى والثانى يرفضه تحت وطأة زوال مجتمع التضامن الآلى .

رغبة جارفة فى الانطلاق من الشرعية الدينية ألى الشرعية الاجتماعية .. ويتضح ذلك اذا نحن دققنا النظر فى نموذجى التضامن الآلى والتضامن العضوى ، باعتبارها نماذج مجتمعية تعكس واقعية المجتمع البدائى المتخلف فى مقابل واقعية المجتمع الصناعى المتقدم ، فاننا سوف نلاحظ مسألتين أساسيتين : المسألة الأولى وتتعلق بايمان دوركيم بأن الحركة الطبيعية للتطور هى نمو التباين الاجتماعى . وأن هذا التباين من شأنه أن يفصل الدين عن المجتمع ، ويجعل للأول دورا وظيفيا فى اطار بنية المجتمع . فالبدائيون يرقصون رقصة المطر ليس لادراك عقلانى بأن هذا هو الطريق الى نزول المطر ، ولكن لأن هذه الرقصات الدينية من شأنها أن تدعم وحدة الجماعة فى مواجهة الخطر (٢) .. فالدين يؤدى وظيفة اجتماعية لكائن أشمل هو المجتمع الذى يحتوى على الوجود الاجتماعى للأفراد .

وبرغم اعتراف دوركيم بوجود الدين كأحد مكونات نسق الثقافة والقيم فى مجتمع التضامن العضوى الا أننا نجده يرى أن نسق الثقافة والقيم ذاته يعتبر أحد مكونات الضبط الاجتماعى فى المجتمع . وأنه ككل العناصر البنائية يؤدى وظيفة اجتماعية محددة لصالح كلية المجتمع . ومن ثم فقيمة وجود الدين وكل العناصر البنائية الأخرى تشتق من الأداء الذى تحققه لصالح تكامل المجتمع واستقراره .

وهنا نجد أن شرعية الدين من حيث الوجود والأداء تشتق أساسا من المجتمع .. فالمجتمع أو الأمة هو مصدر الشرعية لكل ما يتضمنه وجوده . وهنا نجد أن دوركيم يتحرك الى موقف شبيه بالموقف الماركسى — وان انطلق من اطار مختلف — حيث نجد أن كلاهما اختزل الشرعية الدينية من شرعية دينية فى ذأتها الى شرعية بالنظر الى متغير آخر ، هو الطبقة عند ماركس ، والمجتمع عند دوركيم . كلاهما أيضا قدم موقفا متقدما على فكر الاصلاح الدينى والتنوير فيما يتعلق باختزال مكانة الدين فى المجتمع .

٣ ــ ماكس فيبر ودعم فاعلية الدين كمتغير مستقل : على خلاف وجهتى النظر السابقتين يقدم ماكس فيبر ــ وهو الاستمرار المثالى المخلص ، وان لم ينجو من بعض التأثيرات الوضعية ــ تصورا دينيا يختلف الى حد كبير مع التصور الذى قدمه كل من ماركس ودوركيم . وهو الموقف الذى يستعيد به الشرعية الدينية من جديد لكى تحل محل الشرعية الطبقية أو الشرعيـــة المجتمعية ، وفى هذا الصدد نجد أن ماكس فيبر يقدم نظرية تستند الى عدة مبادىء أساسية .

ويعتبر وجود اله ترنسندنتالى واحد ومطلق أول هذه المبادىء . هذا الاله هو خالق الكون وحاكمة . أفعاله وخصائصـــه ومجالات فعلة تصبح ــ بدون الوحى ــ بعيدة تماما عن مجال الفهم البشرى المحدود . وأن الله لأسباب غامضة قد خلق العالم ووضع الانسان بمفرده بداخله ، وذلك لكى يعمل على مضاعفة مجد الله فى الأرض . ومن ثم فعلى الانسان أن يعمل حسبما هو مقدر عليه ــ لتأسيس مملكة الله فى الأرض . وأن فعلة سوف يخضع أثناء ذلك لفاعلية القانون الالهى (٤) .

ويتمثل المبدأ الثانى فى موقف الاله المتعالى الواحد والمطلق . فنظرا للتعالى الكامل لله والانفصال بين المسائل الدنيوية والسماوية فان هذا الوضع استبعد تماما الاتجاه الصوفى للاتحاد بروح السماء والاستغراق فى اطارها . غير أن تصور خضوع الانسان القانون الالهى سوف يعنى تعيين الوظيفة الأساسية للانسان باعتبارها بناء مملكة الله فى الأرض وفقا لارادة الله . ومن ثم أصبحت الارادة هى علاقة الله الجوهرية بالانسان . ويصبح الهدف الانسانى هو خدمة الله فقط وليس الاقتراب منه أو الاستغراق فيه .

ذلك يدفع الى المبدأ الثالث ، وهو الذى يؤكد على ضرورة التوجه نحو هذا العالم توجها تقشفيا من أجل السيطرة علية ، وليس صوفيا سلبيا . ويعنى الاتجاه التقشفى عدم الاستغراق فى المسائل الحسية لهذا العالم

أو التكيف معها ولكن السيطرة على ما هو حى (٥) وتوجيهه حسبما تقتضى القوانين الالهية .

ويتحدد المبدأ الرابع .. فى ايمان ماكس فيبر بالأصل الواحد لكل الأديان العالمية . فثمة شيئا يعتبر نقطة ثابتة أو أصلا مشتركا لكل عمليات النشأ أو التطور الدينى . وكل الديانات بدأت عن طريق التباين مع هذا الأصل المشترك . وهو الأمر الذى يريد فيبر من خلاله أن يؤكد على أعتبار النسق الدينى منذ البداية متغيرا مستقلا بدأ مع نشأة الوجود الاجتماعى ذاته أو دفع اليه . اذ تعتبر كل ديانة عبارة عن تفرع جديد لأصل قديم موجود منذ الأزل حيث توجد الديانة البدائية المشتركة .

ويتمثل المبدأ الخامس فى انقسام العالم من خلال الدين الى عالم ما فوق الطبيعة حيث الآلهة والملائكة وحتى الشياطين وكل الرموز الدينية والعالم الأرضى الذى نعيشه . وأن النبوة ليست الا واسطة بشرية تمتلك قدرة كارزمية تبلغ من خلالها الى البشر أوامر السماء . فالنبى انسان له روابطه الخاصة مع ذوات أو نظم ما فوق الطبيعة ، وهو يبشر برسالته دون الاستعانة بآية وسائل انسانية . حيث يرفض النبى لا شعورياً كل هذه الوسائل ، فعيسى عليه السلام يقول (انه مكتوب ..... وأنا أقرأه عليكم) (٦) ومحمد عليه السلام يقول (اللهم قد بلغت ... اللهم فأشهد) .

أما المبدأ السادس فيتعلق بأن النبوة أو الديانة الجديدة عادة ما تمثل ثورة دينية جديدة تخاطب كل البشر وليس فئة محدودة منهم ، وبطبيعة الحال تشكل الديانة الجديدة أساسا لتنظيم اجتماعى جديد . وهنا نجد أن فيبر يؤكد أن التنظيم الاجتماعى يعتبر تجسيدا لرؤية حددتها العناية الالهية ، وهى الرؤية التى تصل الى الواقع من خلال كارزما النبوة .

ويؤكد فيبر أن نجاح الديانة الجديدة يساعد عليه توفر ثلاثة ظروف . أولها اهتزاز القيم التقليدية السائدة ذات الصلة بالوجود الدينى القديم ، ومن ثم تظهر الحاجة ماسة الى موقف جديد فى مواجهة هذا الانهيار . ويتصل

الشرط الثانى بأنه ينبغى أن يكون بالديانة الجديدة ما يشبع الحاجات الأساسية لجماهير المجتمع . وبطبيعة الحال سوف يختلف موقف مختلف الطبقات أو الجماعات بالنظر الى طبيعة المشاكل التى تواجهها الديانة الجديدة بالنظر الى المصالح الاجتماعية للجماعة أو الطبقة • ويتمثل الطرف الثالث فى تحدد فرصة انتشار الديانة الجديدة بمركز الجماعة أو الطبقة التى تبشر بها ، ومدى امتلاكها للقوة أو السلطة الاجتماعية (٧) .

ويتعلق المبدأ الأخير فى أنه بثبات الديانة الجديدة وانتشارها ، فانها تصبح فى العادة مصدرا للقيم والأفكار التى تشكل أساسا لتنظيم اجتماعى جديد . وهو الأمر الذى حدث بالنسبة للديانة البروتستنتية التى شكلت مصدرا لمجموعة من القيم الدينية التى دفعت لظهور النظام الرأسمالى بل وشكلت روحا له (٨) .

ومن الواضح أن ماكس فيبر يرى أن الدين هو مصدر الشرعية الاجتماعية . فالدين هو أساس المجتمع ، بل أننا نجده يبرر تقشف البروتستنتى واستغلال الطبقة العاملة حسب مبادىء شرعية دينية واضحة ، وهو يقدم نظرية تقف فى مواجهة المقولات النظرية لكل من ماركس ودوركيم والتى تصلح لمنح الشرعية للنظام الرأسمالى . هذا الى جانب أننا نجد أن فيبر يناقش بعد ذلك تحول الشرعية الدينية الى شرعية عقلانية منظمة ذات صلة الى حد كبير بأفكار التنوير .

٤ — المودودى والشرعية الدينية المطلقة

وتشكل نظرية أبو الأعلى المودودى الاطار الرابع الذى حاول أن يقدم فهما لطبيعة العلاقة بين الدين والمجتمع والدولة . وبرغم أن المودودى يمثل الجناح السنى فى الفكر الاسلامى ، الا أننا نجد أن النظرية الشيعية لا تختلف كثيراً عن النظرية السنية الا فيما يتعلق ببعض التفاصيل كتلك المتعلقة بقضية الامامة أو بتلك الظروف التاريخية والاجتماعية التى شكلت

طبيعة العلاقة بين الدين والدولة والمجتمع ، ومن الواضح أن النظرية الاسلامية كما يعكسها المودودى ، تتضمن عددا من المبادىء الأساسية نذكر بعضها فيما يلى .

ويتصل المبدأ الأول بمفهوم الحاكمية ، لمن الحكم ، لملك من الملوك ، أو لطبقة من الطبقات ، أو لأمة بأسرها أم لله تعالى ؟ (٩) . ومن وجهة نظر المودودى يطلق كلمة الحاكمية Sovergienty على السلطة العليا والمطلقة . وهى تعنى الصلاحيات التامة والسلطات الكلية غير المحدودة لحاكم له سلطة على افراد الدولة ، وهم مضطرون الى طاعته طوعا أو كرها ، وليس هناك شىء خارجى يحد صلاحياته فى الحكم غير ارادته ومشيئته هو نفسه ... ويصدر القانون عادة بارادة صاحب الحاكمية ، ويجب على الأفراد طاعته ( ) . فاذا تدخل أى قيد خارجى — أيا كانت طبيعته — فانه يحد من هذه الحاكمية ، ومن ثم تصبح حاكمية ناقصة وليست مطلقة .

وان الله تعالى حسبما يبين القرآن فى غير آية من آياته هو وحده الحامل لهذه الحاكمية ، وأنه هو الغالب المطلق الأعلى (فعال لما يريد) وأنه وحده غير مسئول عن أعماله (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) وأنه هو المقتدر القوى العزيز (بيده ملكوت كل شىء) وأنه وحده الذى لا تحد سلطته قوة من القوى (وهو يجير ولا يجار عليه) وأنه هو وحده المنزه عن الخطأ (الملك القدوس السلام) (١٠) . وأنه لا يحل لأحد غير الله أن ينفذ حكمه فى عباده ، فهذا الحق ليس الا لله وحده ، وذلك لأنه خالقهم (الا له الخلق والأمر) (١١) . وان هذه الحاكمية حاكمية قانونية تشريعية ، وهى حاكمية سياسية أيضا (١٢) .

ويذهب المبدأ الثانى الى أن الرسل هم ممثلوا الحاكمية القانونية أو التشريعية ، ومن ثم فعلى البشر طاعة الرسل طاعة تامة (اتقوا الله وأطيعون) وقد جعل القرآن هذا مبدأ قاطعا من مبادئه (وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله) (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر

بينهم ثم لا يجدوا فى أنفســـهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) (وما كان لمؤمن أو مؤمنة اذا قضى الله ورســـوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعصى الله ورســـوله فقد ضل ضلالا بعيدا) (١٣) .

ويتصل المبدأ الثالث بالحدود العملية المفروضة على ممارسة الحاكمية . من هـــذه الحدود أنه ينبغى العمل فى اطار الدولة والمجتمع حسبما أنزل الله .. وقد بين ذلك القرآن فى غير آية من آياته ليوضح حدود الله ثم يعقب ذلك بالقول تلك حدود الله فلا تقربوها ، أو يؤكد (يا أيها الذين آمنوا ، أطيعوا الله وأطيعوا الرســـول وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرســـول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) . ومن ثم ينبغى أن يتم العمل فى الدولة والمجتمع وفقا للقوانين الالهية . وأنه ليس من حق الدولة أو المجتمع أن تطالب الناس بالطاعة اذا كانت منسلخة من طاعة الله والرســـول . وفى ذلك يقول النبى (لا طاعة لمن عصى الله) وقوله (لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق) (١٤) .

ويتمثل الحد الثانى فى أنه ينبغى الرجوع فى كل المنازعات التى قد تقـــوم بين الأفراد والطوائف أو بين المواطنين والدولة للقضـــاء فيها الى القانون الأساسى الذى تلقيناه من الله ورســـوله . ويقتضى هـــذا المبدأ أن لا تكون الدولة خاليـــة من هيئـــة تفصل بين النـــاس بكتـــاب الله وسنة رســـوله (١٥) .

ويتصل المبدأ الرابع بالدور الذى تلعبه الهيئـــة التشريعية وهم الذين يمثلون (أهل الحل والعقد) (*) . وعليهم أن يمتنعوا عن اصدار أى قاعدة

(*) هناك بعض التفسيرات المحدثة التى تؤكد أن أهل الحل والعقد هم الى جانب أصحاب الفقه الدينى ، المتخصصون فى كل مجالات المجتمع . وهم الى حد كبير يقتربون من مفهوم الصفوة فى الفكر الاجتماعى الحديث كما يصورها باريتو مثلا . ومن ثم فليس من الضرورى أن يقتصر أهل الحل والعقد على فقهاء الدين ورجاله فقط .

تخالف كتاب الله وسنة رســـوله (وما كان لمؤمن أو مؤمنة اذا قضى الله ورســـوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) . وقوله عز وجل (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) . هـــذا بالاضافة الى أن عليهم أن يعدوا القواعد لتنفيذ أحكام الله . ولهم الحق فى افتراض تفسيرات معينـــة وتفضيل احداها على الآخر . بشرط الا يدخل التأويل فى دائرة التحريف . فاذا لم يرد نص من الله ورســـوله فيما يتعلق بموضوع محدد فعليهم البحث عن تكييف له من خـــلال فقة الفقهاء أو الاجتهاد مع ضرورة مراعاة قاعدة أن كل شىء ليس بمحظور فهو مباح (١٦) . وأنه لا ينبغى أن يتناقض أى اجتهاد مع القوانين الالهية وسنة الرســـول .

ويكشف النظر فى الأبعاد الأساسية للنظرية السياسية التى استخرجها المودودى عن تميزها بعدة خصائص رئيسية . أول هـــذه الخصائص التباين الذى حدث بين الدين والدولة والمجتمع . بمعنى أن خصائص الامام رئيس الدولة تتضمن بعض العناصر الدينية . هـــذا الى جانب اســـتناد التفاعل الذى يقع داخل المجتمع ، أو داخل الدولة أو بينهما وبعضهما البعض الى المراجع الدينية أساسا . وهو ما يعنى تداخل الدين والسياسة والاجتماع . ولا ينبغى أن يشـــير عدم التباين الى وضعية متخلفة — حسبما يذهب بعض المستشرقين — بقدر ما يشـــير الى اطار نظرى يختلف عن الاطار المرجعى للنظرية الغربية التى اعتاد الباحثين القياس عليها .

وتتمثل الخاصية الثانية فى أن الشرعية فى النظرية الاســـلامية هى شرعية دينية أو لنقل الهية أساسا . فالمجتمع والدولة لهما شرعة الوجود والاستمرار طالمـــا أن هناك اعتبارا ورعاية لمتضمنات القوانين الالهية ،

وفى اطار النظرية الشيعية تلعب الامامة كمفهوم دورا أكثر فاعلية من الدور المناظر فى الفكر السنى . فحتى يظهر الامام الغائب فان نائب الامام هو الذى يستطيع أن يحدد مدى اتســـاق مختلف القواعد والأحكام مع مقتضيات القانون الالهى وسنة الرســـول . ويلعب دورم كمراقب لفاعلية سلطات الدولة وتفاعلات المجتمع .

او سنة الرســـول ومن ثم تقترب كثيرا النظرية الاســـلامية التى استخرجها المودودى من نظرية ماكس فيبر فيما يتعلق بالعلاقة بين الدين من ناحية والمجتمع من ناحية أخرى ، مع الاختلاف فى التفاصيل كتأكيد المودودى على استمرار الشرعية الدينية للدولة والمجتمع حتى قيام الســـاعة . بينما تتوقف الشرعية الدينية عند ماكس فيبر عند حدود قيام النظام الرأسمالى وتطويره لآلياته الخاصـــة فى الاستمرار والوجود .

ويرتبط بذلك رفض النظرية الاســـلامية للأصل المزدوج لكل من الدولة والمجتمع ، فكلاهما ينبثق من أصل واحـــد تحدده المواثيق الأساسية للقرآن والسنة . ومن ثم فليس هناك انفصال بين الدين والدولة ، على عكس ما تذهب اليه النظرية الغربية من حيث الأصل المختلف — ولو نظريا — لكل من الدين والدولة ، ومن ثم الايمان بالانفصال الحتمى بين الدين والدولة أو بالأصح بين الدين والدولة والمجتمع (*) .

خلاصة القول فان هـــذا الاستقراء المبدئى المحدود لعدد من النظريات الاجتماعية يكشف عن بروز عدة قضايا أساسية نذكر بعضها فيما يلى :

١ — وتتمثل أول هـــذه القضايا فى الاتفاق حول الدين باعتباره أصلا

(*) قد يكون من غير المعتاد أن نحاول استعراض بعض النظريات التى تنتمى الى التراث النظرى لمجتمعاتنا ، بحيث بدا عرض نظرية المودودى غريبا على النظريات الاجتماعية الأخرى التى عرضنا لها . غير اننا نحن أبناء العالم الثالث علينا بعد أن تعرفنا على أدوات التحليل الغربية أن نحاول قراءة تراثنا . علينا أن تأخذ فى الاعتبار الصرخة التى أعلنها فرانز فانون أن علينا نحن أبناء العالم الثالث أن نبحث عن طريق جديد يعكس الى حد كبير هويتنا الحضارية . وفى اعتقادى أن البحث النظرى فى هـــذا التراث لبعثه يعتبر واجبا وطنيا وأخلاقيا وعلميا ، اذا كان لنا نحن مثقفى العالم الثالث أن نستحق ملح الطعام الذى نأكله ، قد نتفق مع هذا التراث أو نختلف معه ، الا انه يظل مؤكدا انه من خلال هـــذه العملية الجدلية ، فاننا قد نصل الى المنظومة الفكرية المتصلة غصبا بالتراث والقادرة على قيادة مجتمعاتنا فى قلب متغيرات متجددة . اذا كان اتقان أدوات التحليل الغربية مهمة أجيال ســـابقة . فأعتقد أن ذلك لم يعد مناسبا أو كافيا بالنسبة لجيلنا .

مشتركا لكل من الدولة والمجتمع . وانه قد وقعت أحداث فى بعض المجتمعات فرضت تباين الدين عن المجتمع . بحيث يدفع ذلك الى طرح افتراض يتعلق بأنه من الممكن أن تستمر العلاقة الأصلية بين الدين من ناحية والدولة من ناحية اخرى وذلك فى المجتمعات التى لم تشهد الأحداث التى فرضت تباين الدين عن الدولة والمجتمع . فمثلا لم يشهد المجتمع الاسلامى ذات الأحداث التى وقعت فى أوربا . ومن ثم فعلاقة الدين بالدولة والمجتمع ليس من الضرورى أن تكون هى ذات العلاقة الكائنة فى المجتمعات الغربية .

٢ — ربما من قبل الصدفة أن المفكرين الذين اكدوا على انفصال الدين عن الدولة والمجتمع . والذين اكدوا أيضا على الغاء الشرعية الدينية وتحويلها الى مجرد شرعية طبقية كما عند ماركس ، أو شرعية اجتماعية كما عند دوركيم ، هم مفكرين يهود أساسا . وهم لم يقولوا ذلك باعتبارهم يهودا اى بالنظر الى خلفيات دينية ، ولكن بالنظر الى وطأة المسألة اليهودية وتأثيرها عليهم فى مجتمعات شهدت فى بعض الفترات التاريخية تحيزا — أيا كانت مصادر أسبابه وعوامله — ضد الأقليات اليهودية . ومن ثم فالغاء الشرعية الدينية سوف يكون ، حينئذ ، فى صالح الأقليات الدينية أكثر منه لصالح الأغلبية الدينية فى هذه المجتمعات .

٣ — ارتباطا بذلك نجد أن هناك مجموعة من التصورات المتعددة فيما يتعلق بالعلاقة بين الدين والدولة والمجتمع . وأن هذه التصورات ما تزال تطرح باعتبارها قضايا أو فرضيات نظرية تحتمل الصدق والزيف معا — باستثناء النظرية التى طرحها أبو الأعلى المودودى باعتبار استنادها الى الكتب المقدسة — ومن ثم فان ذلك يمنحنا الشجاعة والفاعلية للنظر فى مدى ملاءمتها لمجتمعاتنا أو مدى ملائمة النظريات المأخوذة عن تراثنا لمجتمعاتنا . وهو ما يطرح أمامنا حرية البحث والتحليل سعيا وراء الاختيار النظرية دونما اتهام لنا بالسلفية أو النظر الى الوراء من أصحاب التوجيهات العلمانية أو بالتغريب من وجهة نظر أصحاب الاتجاهات السلفية .

* * *

ثانيا : العلمانية والدولة فى أوربا
انتقال التجربة الى العالم الثالث

اشرنا فى الفصل الســابق الى أن المرحلة الأولى من الصراع قد انتهت باستقلال الدولة فى المجموعة الاســلامية من العالم الثالث . غير أنه ــ حسبما اشرنا ــ كان استقلالا يحتوى على تناقضه الداخلى . بحيث أدى ذلك الى استمرار الجدل بين المتناقضات لمرحلة تاريخية تالية .

واذا كان التناقض الذى حكم الصراع الأول قد تأسس بين القوى الوطنية ــ دينية كانت أم علمانية ــ من ناحية ، وبين القوى الاستعمارية من ناحية اخرى ــ سواء تمثلت هذه القوى فى بقايا الخلافة العثمانية او فى القوى الاستعمارية التى حلت محلها خلال هــذه المرحلة كبريطانيا وفرنســا وايطاليا . فانه ينبغى التاكيد على أن هــذه القوى الوطنيــة قد تحالفت مرحليا ضد العدو الخارجى حيث كان تحالفا أشــبه ما يكون بتحالف أبناء العمومة ضد ما هو خارج عن نطاق العشيرة . ولقد انتهت هــذه المرحلة بنجاح القوى الوطنية فى تحقيق هدف الدولة المستقلة ، وهو الاستقلال الذى تحقق فى بعض المجتمعات فى لحظــة تاريخية قد تستغرق عامين أو عام أو أقل من ذلك . أو هو قد تحقق كما حدث فى مجتمعات أخرى من خــلال صراع تاريخى طويل استمر لعقود كثيرة ، وربما ضد قوى متنوعة ومتعاقبة . غير أن هــذا الصراع وان تضمن اتفاقا بين القوى الوطنية على الوسائل تضمن الى جانب ذلك ــ وفى ذات الوقت ــ اختلافا حول الغايات أو بالأصح حول طبيعة الغاية التى استهدفها النضال ، او لنقل حول طبيعة الدولة المستقلة .

ذلك انه قد حدثت مفارقة حادة ومدهشة . فالغالبية الدينية جماهيرا أم صفوانا قد ناضلت الى جانب الأقلية العلمانية ، وقد نجح النضال ، وكان من المنطقى أن تتبنى الدولة الجديدة وجهة نظر الأغلبية ، لكن ما حدث هو

العكس . حيث صبغت العلمانية تدعمها القوى العالمية والعلمانية الدولة الجديدة بطابعها ، وبدأت من خـــلال امتلاكها لوسائل القوة فى تأسيس تجربة جديدة ، هى تجربة الدولة العلمانية ، داخل الشرق الاســـلامى فى العالم الثالث . غير أن هـــذه التجربة كانت مثقلة بأعباء التناقض أكثر من امتلاكها لاحتمالات الاتفاق ومن ثم الانطلاق منه الى آفاق التنمية والتقدم .

كان ذلك مدخلا لصراع جديد ، مستمر تاريخيا بسبب امتلاك عناصر التناقض لقوى متوازية . فالصفوة الدينية قادرة بلا شك على تحريك الجماهير ودفعها للمشاركة فى تأسيس التقدم والتنمية ، لكنها فى ذات الوقت على خصومة والنظام العالمى مع ما يطرحه من نماذج للتنمية والتقدم . ثم هى الى جانب ذلك قد سقطت فى شراك النزعة المحافظة لم تستطع — حينئذ — أن تطور تصورا نظريا ملائما لقيادة التغير والتنمية فى دولة ما بعد الاستقلال . ذلك فى مقابل الصفوة العلمانية المحدودة النطاق على الخريطة الاجتماعية والبشرية للمجتمع ، لكنها التى تمتلك السلطة والسلطان ، وتمتلك القدرة على افراز التصورات النظرية القادرة على قيادة وتطوير المجتمع المستقل . ثم هى لها روابطها بالنظـــام العالمى وتتلقى دعمه . بحيث خلق ترتيب العناصر على هـــذا النحو احتمالية استمرار الصراع انتظارا لحســـمه على أرضية مرحلة تاريخية تاليـــة .

واذا كانت المرحلة السابقة هى المرحلة التى جرى فيهـــا النضـــال لتأسيس الدولة المستقلة التى استنزف الاستعمار مجتمعها ، فان المرحلة التالية سوف تكون مرحلة اصلاح ماكر أو تنمية ما قد تخلف . ومن ثم برزت التساؤلات الحادة ما هى طبيعة التنمية ؟ وما هى التصورات النظرية التى ينبغى أن تســـتند اليها ؟ ثم ما هى روابطها المحتملة مع كل من التراث ومنجزات النظـــام العالمى ؟ . واصبحت الاجابة على هـــذه التساؤلات محكومة بثلاثة اعتبارات :

١ — الأول ، أن الصفوة العلمانية رأت أمامها تجربة أوربية مزدهرة فى الشرق أو الغرب . كانت هـــذه المجتمعات مثلنا وينبغى أن ينقل تجربة

التحديث عنها ، وانطلاقا من النوايا الطيبة ، حاولت هـــذه الصفوات جاهدة ــ برغم اختلافها وربما صراعها الداخلى حول نموذج التنمية الغربية (اشتراكية أم ليبرالية) ــ أن تؤسس التنمية ، لكن شـــيئا ما قد حدث جعل التنمية لديها لا تحقق معدلات ذات قيمة ، أن لم تحقق معدلات سلبية ، هـــذا بالاضافة الى انسحاب الجماهير عن المشاركة ، وهى أمور ينبغى أن تســـعى لفهمها .

٢ ــ ويتمثل الاعتبار الثانى فى الصفوة الدينية أو التراثية التى نظرت الى الخلف فرأت لديها تصورا نظريا فى تراثها ، ورات أمجادا تاريخيـــة مشرقة ، ثم هى تمتلك سيطرة على جماهير تستطيع تجسيد تصورها النظرى ، لكنها أخطأت فى أنها لم تدرك أن الرضاء بالتصورات التاريخيـــة ليس الا دعوة الى الجمود والضعف وأن عصور التجديد والازدهار كانت عصور القوة والفعالية بالنسبة لمجتمعاتها ، ثم أنها لم تعثر على القناة الملائمـــة التى تتبادل من خلالها بخصوبة مع النظـــام العالمى ، تستوعب من خلاله منطق التقدم وأفكاره دون أن تتخلى عن هويتها . هـــذا الى جانب أنها كانت عاجزة عن فرض أى تصور لها لافتقادها القوة اللازمة لذلك ، بل انها بفعل ذلك خضعت لمطالب الصفوة العلمانية ، لكنها مع ذلك ما زالت تشكل مصدر المعارضة الكامنة والمحتملة .

٣ ــ الاعتبار الثالث حدوث حالة من الفوضى الشـــاملة داخل بنيان هذه المجتمعات . فمن ناحية التوجه الأيديولوجى نجد أن هـــذه المجتمعات قد تتبنى اكثر الأيديولوجيات العلمانية بعدا عن الدين ، وقد تخضع خضوعا كاملا للتصور الدينى . والكارثة أنه قد يحدث انتقال عشوائى بين هـــذه التوجهات الأيديولوجية المتناقضة ، أو تأليف انتقائى بين بعض عناصرها . ومن ناحية الصفوات قد تجد الصفوة العلمانية ضرورة الحفاظ على نقائها العلمانى ، لكنها قد ترى من اللازم عن وعى ــ تكتيكيا أو استراتيجيا ــ أو حتى عن غير وعى الاستعانة بعناصر من الصفوات المضادة . والكارثة أن هـــذا البقاء أو المشاركة لا يخضع لقاعدة أو قانون وانما هو محكوم

بقاعدة العشوائية .. من ناحية الجماهير فان هـــذه الصفوات عادة ما تصرح بأعلى صوتها طالبة مشاركة الجماهير ، غير أنها فى هذا الصدد لا تعرف نشيدا واحدا ، وانما نجدها تتحدث باسم الدين تارة ، وبالأمال المعقودة على التنمية الاقتصادية العلمانية تارة أخرى . ثم هى تتأرجح بين ذلك وذاك ، أو تجمع بينهما بعشوائية أيضا .

غير أنه يمكن القول بأن صراع الصفوات التى بدت تباشيره فى الأفق له جذوره التاريخية فى التجربة الأوروبية فيما يتعلق بالعلمانية والدولة وهـــذه التجربة نعرض لأبعادها الأساسية فيما يلى :

* * *

١ ــ انفصال الدولة عن الدين والمجتمع ، وانتقال التجربة الأوربية الى العالم الثالث

٢ ــ ظهور العلمانية فى أوربا وانتقالها الى العالم الثالث

وفيما يلى سوف نعرض بايجاز لكل من هذه القضايا السابقة :

١ ــ انفصال الدولة عن الدين والمجتمع انتقال التجربة الأوربية الى الشرق

من الثابت تاريخيا أن مفهوم الدولة الحديثة ارتبط الى حد كبير بمجموعة من التفاعلات التاريخية التى مر بهـــا المجتمع الأوربى ابتـــداء من القرن الحادى عشر أو مع نهـــاية الألفية الأولى . ومن الثابت حضاريا أيضا أن مفهوم الدولة بمعناه الحديث أو بمعناه الأوربى قد انتقل الى العالم الثالث ، من خـــلال قنوات الاتصال الثقافى تارة ، ومن خـــلال القهر الاستعمارى تارة أخرى ، بحيث يمكن القول بأنه اذا كانت القارة الأوربية قد عثرت على تصورها الحديث للدولة من خـــلال صراع بين توجهات حضارية متباينة ، فانه قد حدث بعد حوالى سبعة قرون أخرى صراعا حضاريا أخر حاول من

خلاله الغرب — انطلاقا من احساس مغترب يتمركز حول الـــذات — الى فرض تصوره على الآخرين الذين قد يتباينون حضاريا ، والذى لا يتداخل هـــذا المفهوم عضويا فى النسيج الحضارى لمجتمعاتهم . المهم أنه قد حدثت حركة تاريخية تمكنت فى اطارة حضارة من طبع ذاتها على حضارة أخرى ، كانت تعانى للصدفة التاريخية من حالة عجز وانهيار خـــلال هذه المرحلة . ونفهم تجربة الدولة الأوربية وانتقالها الى العالم الثالث والعالم الاســـلامى ، فاننا نرى من الضرورى أن نطوح الاعتبارات الأساسية التالية :

١ — أن ظهور مفهوم الدولة فى التاريخ الأوربى يرتبط بسياق تاريخى واجتماعى محدد . ومن ثم فدراسة هذا المفهوم من حيث مكوناته وخصائصه ، أو من حيث اعادة استنباته فى حضارة أخرى — فى اطار الواقع الاسلامى — ينبغى أن لا يغفل جذوره وملاءماته التاريخية والا أصبح تحليلنا لا تاريخى .

٢ — انه خلال مرحلة تاريخية طويلة ، استوعبت عدة قرون حدث فيها انفصال لتبلور مفهوم الدولة وذاتيتها . الأول الانفصال بـــين الدولة والمجتمع . أو ظهور الدولة ككيان سياسى أما الانفصال الثانى فيتصل بانفصال الدولة عن الدين أو الدين عن المجتمع وهو الانفصال الذى أهل الدولة لتصبح أداة أساسية للتحديث فى ظل المناخ العقلى الذى أكد ذلك . ومن ثم فانه لادراك ظهور الدولة من خـــلال عمليات الانفصال التاريخى هـــذه ينبغى أن يركز الفهم على جذورها فى السياقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لهذه المرحلة .

٣ — أن مفهوم الدولة الأوربية — التى يتواجد فى اطارها الفرد فى مواجهة الدولة — حسبما صور ذلك توماس هوبز — قد انتقل الى العالم الثالث والعالم الاســـلامى من خلال موجات الاتصال الثقافى أو حملات الاستعمار . حيث تصادف تاريخيا على ما أشرنا أن تواحدت حضارتان فى موقف تفاعل حضارى احداهما تمتلك امكانات القوة بينما تعانى الأخرى من مظاهر الجمود والانحلال . وبذلك يمكن القول بأن هـــذا الانتقال قد شـــكل ضربة قاصمة لمجتمعات العالم الثالث الحضارية — العالم الاسلامى — حيث

فرض ذلك عليها مدخلا محددا للتحديث — هو المدخل الأوربى — ولم يكن هو البديل الحضارى الوحيد للتقدم .

٤ — ان الحاح بعض المفكرين أو السياسيين للأخذ بهذه المفاهيم ينبغى أن يدرك فى اطاره ظروفه التاريخية أيضا . هــذا الى جانب أن ذلك يفرض علينا ضرورة الانتباه ، والمراجعة الذاتية للفكر والتراث والحضارة ، بحثا عن اطار للانطلاق لا ينفصل عن الجذور . بحيث تكمن شرعية الموافقة على التطور أو التقــدم فى تباين السياقات الاجتماعية والتاريخيــة ولس فى التباين الحضــارى الذى يعنى أن ننقل عن الآخرين ، هــذا الى جانب أنه من الضرورى الدراســة الدقيقة والمتعمقة لموقف الصفوة التى تولت نقــل وتجسيد مفهوم الدولة الأوربية فى العالم الثالث الاســلامى من وجهة نظر علم اجتماع المعرفة .

استنادا الى ذلك فانه لفهم ظهور الدولة وانتقالها نرى من الضرورى أن نتعرض لأربعة قضايا أساسية .

١ — انفصال الدولة عن المجتمع .

٢ — انفصال الدولة عن الدين .

٣ — انتقال التجربة الأوربية الى الشرق .

٤ — تأثير الانتقال على النسيج الاجتماعى .

وسوف نعرض بايجاز لكل من هــذه القضايا السابقة :

١ — وفيما يتعلق بقضية انفصال الدولة عن المجتمع : نجد أن الفكر الأوربى يؤكد على ظهور الدولة — كعنصر جديد فى التنظيم الاجتماعى — نتيجة لأزمة بنائية هددت تكامل المجتمعات الأوربية فى مرحلة تاريخيــة بعينها . حيث تضمنت هــذه الأزمة تراكم ظروف تستوجب التغير الاجتماعى فى مواجهة اتجاه المكونات الاجتماعية لهذه المجتمعات الى مقاومته . ذلك يطرح ســببا منطقيا للاعتقاد بأنه لكى نفهم نشأة الدولة الحديثة ، فان ذلك يستوجب البحث فى المــاضى الاقطاعى للمجتمعات الأوربية (١٧) . حيث يمكن

القول بأن بناءات هـــذه المجتمعات قد خضعت خلال هـــذه المرحلة التاريخية لعدة تفاعلات وعوامل شكلت الأساس لانهيار المجتمع الاقطاعى .

ويتمثل أول هـــذه العوامل فى السعى الشره من قبل سادة الأرض الاقطاعيين — خلال هـــذه المرحلة — نحو امتلاك عوامل القوة السياسية والسيطرة عليهـــا . ولقد كان من شـــأن ذلك أن يوقد حالة المنافســـة التى تأسست بين الوحدات الاقطاعية الصغيرة ، وهى المنافسة التى أدى الانتصار فيها الى تمكن البعض من احتكار السيطرة السياسية على نطاق أوسع . ولقد تدعم ذلك — بطبيعة الحال — بالظاهرة التى طالمـــا عانى منها النظـــام الاقطاعى والتى تتمثل فى الخلط الواضح للعوامل والأدوار فى اطار هـــذا المجتمع . حيث كان سادة الأرض هم الذين يمتلكون القوة السياسية والاقتصادية معا . وقد كان من الطبيعى نتيجة لذلك أن يؤدى هـــذا الخلط — أحيانا — الى استخدام السيف لصياغة تراكم الثروة . وهو التفاعل الذى دفع الى ظهور حالة أو موقف تميز بالمنافســـة والصراع الدائم بين مختلف الأقاليم والمناطق الجغرافية خلال هـــذه الفترة . اذ شـــكل الاحساس الدائم بالحاجة المتزايدة لمساحات أوسع من الأرض ، أو الخوف الدائم من سقوط الأراضى المجاورة فى يد الأعداء من سادة الأرض الآخرين ، أحد العوامل الأساسية للمشاركة فى هـــذا الصراع (١٨) .

ذلك يعنى أن هـــذه التفاعلات الصراعية قد أسلمت فى نهـــاية العصور الوسطى الى تخلق موقف اتجهت فيه ملكية الأرض الزراعية الى التركز — وهو الأمر الذى كان نتيجته سيطرة عـــدد قليل من ســـادة الأرض على مساحات واسعة كانت كافية — بحد ذاتها — لتشكل أساسا ملائما لدول صغيرة . ويمكن اعتبار هـــذا التطور من الناحية التاريخية ، المرحلة الأخيرة والســـابقة على تكامل هـــذه المقاطعات داخل نطاق حدود قومية آمنة ويمكن التى أطلقت عقال قوى التدمير الذاتى . وهى العملية التى أسهمت فى تخلق نظام سياسى فى مركزيته . وهو النظـــام الذى ذهب بعيدا نحو اضفاء الدفاع عنها (١٩) . ذلك يعنى أنه بينما كان المجتمع الاقطاعى مستقرا فى

ظل شروط الاقتصاد المغلق ، فان فاعلية بعض الظروف فى اطاره هى الطابع المنظم للسلطة السياسية التى تمكن من احتكارها والسيطرة عليها .

ويعتبر التغير فى طبيعة الحروب وأدواتها خلال هذه الفترة العامل الثانى الذى أسهم فى انهيار النظام الاقطاعى . فقد أدى ظهور المدفعية الحديث والمشاة فى الحروب الى انهيار أهمية القلاع الحصينة ، وأيضا الى بروز الأهمية الواضحة فى ذات الوقت لبعض الفئات الاجتماعية غير الارستقراطية ، وذلك باعتبار أن هذه الفئات هى التى أصبحت مسئولة وقادرة خلال هذه المرحلة على أداء المهام الدفاعية والعسكرية المتطورة (٢٠) . ومن جانب آخر فقد كان من شأن ذلك أن يؤدى الى تغير البناء الدفاعى لأوربا ، وهو البناء الذى تحمل عبئه فى الماضى فرسان الشريحة الاقطاعية ونبلائها . وهو الأمر الذى شكل احد مصادر شرعيتها السياسية والاجتماعية . مما كان له انعكاسه فى شكل افتقاد الارستقراطية تدريجيا لأحد مصادر شرعيتها الاجتماعية والسياسية .

ويعتبر نمو الاقتصاد النقدى العامل الثالث ، الذى كان له تأثيره القوى على انهيار النظام الاقطاعى . وذلك لأنه تولى هذه المبادىء الرئيسية التى يستند اليها هذا التنظيم فقد عمل الاقتصاد النقدى على اضعاف الروابط الاقتصادية والاجتماعية التى كانت سائدة بين الفلاحين وسادة الأرض . هذا الى جانب أنه ساعد أساسا على خلق البرجوازية الحديثة كقوة جديدة يمكن أن تشكل النقيض المعادل للأرستقراطية المسيطرة . هذا الى جانب أن سيادة الاقتصاد النقدى قد هدد بالقضاء على العبودية . ومن ثم الى دحض أسلوب الانتاج الاقطاعى الذى يستند الى القهر السياسى لاستخراج فائض القيمة من الفلاحين الذين يزرعون الأرض لصالح كبار الملاك (٢١) . ولقد تضخمت آثار هذه التحديات الاقتصادية للنظام الاقطاعى فى أوربا ، بحقيقة أنه حينما حاول سادة الأرض اعادة تأسيس حقوقهم السابقة ، واجهتهم مقاومة قوية من قبل مجتمعاتهم . بحيث وحدت هذه المقاومة من جماعة الفلاحين المتمردين .

ومن ثم أدى ذلك الى تخلق موقف اجتماعى يتسم بالخطورة التى تضمنت احتمالية أن يفر سكان الريف الى المدن (٢٢) . غير أنه بمجرد توقف الأشكال المعتادة للقهر السياسى والقانونى على مستوى القرية فان ذلك أفسح الطريق لاستبدال الميكانيزمات الاجتماعية التقليدية بنظم الدولة . كما اتضح من خلال الانتشار السريع لمفوضى الأمبراطور والموظفين الحكوميين فى المناطق الزراعية . ومن ثم السيطرة على قوة العمل الزراعية ، بحيث حاولت الحكومة — خلال هذه الفترة — اتخاذ الاجراءات اللازمة لتخفيض هجرة الفلاحين الى المدن (٢٣) .

ويرتبط بذلك نشأة البرجوازية الحضرية — كأحد القوى المقوضة لأركان النظام الاقطاعى — التى استطاعت الحصول على أرباح الاقتصاد النقدى المتنامى . ومن ثم يمكن القول بأن ظهورها شكل ظرفا ملائما لنمو الدولة الحديثة . هذا الى جانب أن مركز البرجوازية ذاتها يعتبر جديدا فى بناء الدولة الحديثة . ويمكن القول بأن هناك مجموعة من الظروف هى التى دفعت الى نمو البرجوازية الحضرية . من هذه الظروف تميز النظام الاقطاعى بتشتت الحاكمية . حيث ساعد ذلك على أن أصبحت المدن قادرة على أن تشكل كيانات مستقلة فى المناطق الفاصلة بين مقاطعة سيد اقطاعى وآخر . ونتيجة لذلك كانت المدن بعيدة تماما عن سيطرة الأرستقراطية الزراعية (٢٤) . وفضلا عن ذلك ، فقد كانت مدينة القرون الوسطى هى الوريث المباشر للامبراطورية الرومانية ، ومن ثم فقد شكلت مستودعا للتراث القانونى ، الأمر الذى يسر مهمة تنظيم علاقات الثروة ، هذا الى جانب أنه شجع أيضا على نمو الاقتصاد المستند الى التجارة . ومن ثم أرسى الاطار الملائم لتأسيس النظام السياسى المركزى المستند الى القانون المدنى (٢٥) .

واستجابة للازمة السياسية والاجتماعية التى ابتلى بها المجتمع الاقطاعى ، أسهمت البرجوازية الحضرية مباشرة أو بصورة غير مباشرة فى بناء الدولة الحديثة . حيث منع مجرد ظهور البورجوازية فى أوربا سادة

الأرض من التعامل مع الفلاحين بنفس الأسلوب الذى يتعامل به كبار الملاك فى الشرق مع الفلاحين (حيث حاولوا اعادة فرض العبودية من جديد) . وفضلا عن ذلك فمن خلال سعى البرجوازية لدعم قوتها باعتبارها قوة منافسة للارستقراطية ، نجدها قد ساعدت على القضاء على النظم الاجتماعية والسياسية التى استند اليها النظام الاقطاعى . وكنتيجة لذلك ظهرت الحاجة الى تشكيل اطار بديل لبناء الدولة يكون قادرا على ممارسة السيطرة على المدن ومراكز المال والسلطة . وأيضا له امكانية تنظيم الصناعة والتجارة . حيث شكلت هذه الأهداف مجال فاعلية وجهد الموظفين الرسميين ابتداء من القرن الخامس عشر فصاعدا . وقد دعم هذا الموقف التحالف الذى تم بين الملكية المتوسعة من ناحية والبرجوازية الحضرية من ناحية أخرى حيث تمكنت الأولى من تأسيس علاقات قوية مع الثانية عن طريق استخدام أعضاءها كوكلاء وأيضا من خلال تركيز الادارة والبلاط الملكى فى المدن .

واذا كانت البرجوازية قد ساعدت على تدعيم موقف المدن ، وتحويلها من كونها مراكز تجارية الى مراكز صناعية فانه قد ارتبط بذلك هجرة البروليتاريا من الريف الى مصانع المدن كأحد العوامل الأساسية التى ساعدت على نشأة الدولة القومية على أنقاض انهيار النظام الاقطاعى . فخلال الثلث الأخير من القرن الخامس عشر والعقد الأول من القرن السادس عشر ، اندفعت جماعات كبيرة من البروليتاريا الى سوق العمل من خلال تحطيم قيود العبودية حسبما ذهب سير جيمس ستيوارت . ويعتبر نمو مصانع الصوف وارتفاع أسعاره فى انجلترا أحد الظروف التى يسرت انطلاق الموجات البشرية ، بحيث ساعد على ذلك تبدد شريحة النبلاء القديمة بواسطة الحروب ، أو ضعفها بسبب التغيرات البنائية التى أشرنا اليها ، ومن ثم يمكن القول بأن البرجوازية الحديثة أو البنوك الجديدة كانت حقا ابنة زمانها . وذلك لأن النقود والاقتصاد النقدى أصبح قوتها التى تعلو على كل القوى الأخرى . ومن ثم فقد عملت هذه الشريحة الجديدة على تحويل الأراضى الصالحة للزراعة الى مراعى لرعى الأغنام (٢٦) . بحيث أدى ذلك فى النهاية

الى نقـــل مركز النشاط من الريف حيث بقايا الأرستقراطية الزراعية الى المدينة البرجوازية التجارية والصناعية .

وتعتبر التغيرات التى طرأت على مكانة الفرد فى المجتمع أحد العوامل ــ الى جانب العوامل الأخرى ــ التى أسهمت فى الانهيار البنائى للتنظيم الاقطاعى الى جانب كونه أحد مظاهره أيضا . فالمجتمع التقليدى الســـابق والمستقر كانت تسوده العلاقات الاقطاعية المتدرجة ، فقد شهدت دولة القرون الوسطى تحديات واضحة تتعلق بالمكانة الشخصية أو تتعلق بالعلاقة بين النبيل والعبد . بين عضو الحرفة ورئيسها ، بين القسيس والعـــامة . غير أنه بحلول القرن السابع عشر ، تحلل المجتمع الى أجزائه المكونه ؛ وأصبح البشر يواجهون بعضهم البعض ليس باعتبارهم أعضاء فى حرفة مشتركة أو مقاطعة واحدة ، ولكن باعتبارهم أفرادا أنانيين لهم مصالحهم الخاصـــة (٢٧) . وهو ما يعنى أنه اذا كانت المجموعة والجماعية شكلت أساسا للنظام الاقطاعى ، فان الفـــردية أصبحت الوحـــدة الملائمة لقيام الدولة الحديثـــة .

وبمجرد ظهور الدولة الحديثة ، وبرغم حداثة تكوينها فاننا نجدها وان قامت بحرمان الأرستقراطية من بعض سلطاتها السياسية الا أنها دأبت فى الدفاع عن امتيازاتها الاجتماعية والاقتصـــادية من الدرجة الثانية (٢٨) . اذ نجدها قد عملت من ناحية على حماية حقوق الثروة الخاصة . وقد ظلت هـــذه الحماية تحتل مكانة خاصـــة مشروعة خـــلال فترة ظهور الدولة ذات السلطة المطلقة . وفضلا عن ذلك قامت الدولة بتأسيس جهـــاز بوليسى يمتلك الامكانيات التى تساعده على اخماد أى تمرد من قبل الفلاحين أو أى طموحات ثورية . هـــذا الى جانب أن قيام السلطة المركزية للدولة بتأسيس نظام للضرائب يعفى النبلاء كلية ، بل من الممكن اعادة انتاج الأسلوب الاقطاعى لاستخراج الفائض على نطاق قومى . وفى هـــذا الاطار فاننا نجد من الصعب الموافقة على وجهـــة نظر بيرى اندرسون Perry Anderson القائلة بأن الدولة المطلقة كانت مجرد آداة أرستقراطية . اذ يكشف الفحص

الدقيق لهذه القضية أن الدولة الحديثة التى ظهرت خلال هـــذه المرحلة قد ركزت على الغاء الفاعلية السياسية لملاك الأرض ، وحينما تمكنت من ذلك فانها استطاعت تطوير نظم حكومية مستقلة ، كانت أدواتها لاستكمال التدخل فى المجال الاقتصـــادى ، وهو التدخل الذى حدث فى الغالب لاستكمال وجودها كدولة .

وبايجاز يتأكد لنا أن الأزمة السياسية والاجتماعية التى مر بها النظام الاقطاعى هى التى دفعت الى تشكيل الدولة ذات الطابع المركزى . ويمكن القول بأن هـــذه الدولة قد ظهرت كاستجابة لنوعية من المعوقات الوظيفية التى كانت لها فاعليتها فى بناء النظام الاقطاعى . ويتمثل المعوق الأول فى التشتت الكامل للحاكمية ، مع تواجد الوظائف الشرعية والاقتصـــادية والسياسية على المستوى الجزئى للمجتمع ، أعنى على مستوى المقاطعة . بينما يتصل المعوق الثانى بجمود التشكيل الذى أصبح عاجزا عن التكيف مع تقسيم العمل الجديد فى حالة غياب الميكانيزمات السلطوية لصياغة التآزر أو للمحافظـــة على ذاته فى مواجة التغيرات التى انطلقت من بيئتـــه المحيطة (٢٩) . وبذلك تعتبر الدولة هى الشكل السياسى الجديد الذى ظهر لكى يتلاءم مع مجموعة التغيرات الجديدة التى تتطلب فى مجملها ســـلطة مركزية تتولى صياغة التآزر بين العناصر المتداعية والعناصر الجديدة المنبثقة .

ذلك يعنى أن الدولة كمفهوم نشأت على انقـــاض النظـــام الاقطاعى المنهار . حيث أصبحت الفردية هى أساس التفاعل الاجتماعى ، وحيث سيادة الحاكمية الشاملة محل الحاكمية المتجزئة . وحيث مجتمع يسوده التخصص وتقسيم العمل كعملية نتجت عن عملية تباين تاريخى وقعت فى بنـــاءات المجتمعات الأوروبية . ومن خلال هـــذا التباين تحـــددت احتياجات المجتمع المدنى . واستندت الى بناءات فرعية مستقلة تتولى انجازها أو القيام بها . بحيث اعتبر ذلك مقدمة أساسية لقيام المجتمع المدنى والدولة كنظام يقـــوم بوظيفة السياسة والسيطرة فى اطار بناء هذا المجتمع .

٢ — ويعتبر انفصال الدولة عن الدين : هو الطور الثانى الذى عبر

عن التباين الذى مر به المجتمع الأوروبى بهدف استكمال بناء الدولة الحديثة .
واذا كان الانفصال الأول قد حقق مطلب ظهور الدولة وترتيب علاقتها بالمجتمع المدنى ، فانه قد أصبح مطلوبا أن تحاول الدولة القومية الناشئة تقنين طبيعة علاقتها بالدين . اذ افترضت الحاكمية المتجزئة للنظام الاقطاعى ضمنيا وجود حاكمية شاملة أو مطلقة كانت من نصيب الكنيسة خلال هذه المرحلة . بحيث تشرع لها امكانية منح الحاكمية الجزئية لأى من سادة الأرض . غير أن الدولة القومية بعد قيامها ادعت لنفسها امتلاك حاكمية شاملة أو مطلقة . بحيث شكل ذلك مقدمة منطقية وتاريخية للصدام بين حاكمية الدولة وحاكمية الكنيسة . ومن ثم فقد قدر على المجتمع المدنى أن يدخل مرحلة جديدة من الصراع . واذا كان الصراع السابق صراعا بين حاكميات جزئية افرزت حاكمية مطلقة فان الصراع الحالى قام بين كيانين — دينى وسياسى — يدعى كل منهما بأنه الأولى بامتلاك الحاكمية المطلقة .

واذا كانت الكنيسة المسيحية قد ادعت لنفسها خلال هذه المرحلة أحقية الحاكمية المطلقة استنادا الى حق الهى ، فان البحث فى الأصول الثيولوجية للمسيحية النقية يكشف عن تأكيد على انفصال السلطات . اذ نجد أن الفلسفة المسيحية تصر منذ البداية على التمييز بين ما ينتمى لقيصر وما ينتمى لله ، بين مدينة البشر التى يمكن تأسيسها بصورة ملائمة على الأرض ، وبين مدينه الله التى نجد لها موضعا فى السماء (٣٠) . بل اننا نجد أن السيد المسيح ذاته يؤكد على هذا الفصل فى قولته الشهيرة والمقدسة حينما أكد على ضرورة أن نرد لقيصر الأشياء التى تتصل به (أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله) (٣١) .

وبرغم تأكيد الثيولوجيا المسيحية على هذا الفصل منذ البداية . فاننا نلاحظ اختلاف الفرق المسيحية حول تفسيره . حيث نجد أن لدينا ثلاثة مواقف محددة فى هذا الصدد .

وتمثل الكنيسة الكاثوليكية الشرقية الموقف الأول . فقد رفضت — باعتبارها وريثة التقاليد البيزنطية — هذا الانفصال بدرجة ما . وذلك

لاقتناعها بأن الامبراطور هو ظل الله فى الأرض . ومن ثم فالسلطات الدنيوية تعتبر مسئولة عن حماية الكنيسة والقساوسة . ومن ثم فينبغى على الكنيسة أن تخضع لدورها للحاكم الدنيوى . وعلى هذا النحو فليس هناك تمييز أو فصل بين السلطات السياسية من ناحية ، والمكونات الاجتماعية والثقافية (بما فيها الدين والكنيسة) من ناحية أخرى . ومن ثم فقد برهن هذا النموذج من التفكير المسيحى على عدم فعاليته كاطار للدولة الحديثة ، هذا الى جانب مخالفته النص المسيحى حسبما ذهب السيد المسيح (٣٢) . هذا الى جانب أنه وان أكد على حاكمية واحدة ، هى حاكمية الدولة ، وبرغم أنه أكد على تبعية الكنيسة للدولة ، فانها لم يقدم تفاصيل علاقة التبعية هذه .

وتعبر الكنيسة الكاثوليكية — التى واجهت سلطة دنيوية ضعيفة الى حد ما ، بل كانت على حافة الانهيار — عن الموقف الثانى فى هذا الاطار . حيث جعلها هذا الموقف لا تواجه أى صعوبة فيما يتعلق باعلان المذهب الذى قدمه القديس جلاسيوس Saint - Gelasius فى القرن الخامس عشرة حيث يؤكد هذا المذهب على ضرورة الفصل بين سلطة البابا Pape . التى تنحدر اليه مباشرة من السيد المسيح ، وبين سلطة الملك king المقصورة على الشئون الدنيوية . وبدون شك فان ذلك قد شكل أساساً للفصل بين مجال السلطتين ومن ثم أساساً لقيام الدولة المستقلة التى تختص فاعليتها فى مجال معين (٣٣) غير أنها برغم هذا الفصل الواضح فاننا نلمح لديها أولوية لحاكمية البابا على حاكمية الملك ، باعتبار أن الأولى عن حق الهى بينما الثانية تعبر عن حق طبيعى . ومن ثم فقد تركت فتيل الاشتعال قائما فى مجال العلاقة بين الدين والدولة .

وتحتل البروتستنتية موقع التعبير عن الموقف الثالث فى هذا الصدد ، برغم تنوع التعبير عنه حسب طبيعة الطائفة المسيحية . فمثلا نجد أن النزعة الانجيلكانية — Anglicanism تعتبر من أكثر الاتجاهات تعبيراً عن موقف البروتستنتية فى هذا الصدد . وفى حين توافق النزعة الانجيليكانية على امكانية الفصل بين المجالات السياسية والدينية ، فانهم يفعلون ذلك لتأكيد

القول الذى يذهب الى أن النظام الارضى واحد ، وأن الكنيسة والتاج برغم انفصالهما من حيث الوظائف ، الا انهما لا ينفصلان من حيث الأساس أى من حيث الخضوع لذات القانون . الذى لا يمكن أن يكون قانون المسيح طالمــا أن هذا القانون يناسب عالمــا متعاليا او ساميا فقط (٣٤) . وبدون شك فقد استخدمت الملكية افكار هذا المذهب لكى تؤكد بها لنفسها على مصادر جديدة للسلطة والشرعية (٣٥) . ومن ثم فان النزعة الانجيليكانية وان آمنت بالفصل المبدئى بين السلطتين الا أنها قدمت موقفا يفهم منه التأكيد على اخضاع الدين للدولة التى ينبغى أن تعمل حسب قوانين أرضية أساسا .

وتعبر النزعة التطهرية المســيحية عن توجه آخر من داخــل الموقف البروتستنتى . حيث تجمع التطهرية السلطات الدينية والدنيوية عن طريق صياغة اتحاد مفترض بين مملكة الله ومملكة البشر . فالنظام السياسى الذى يلعب القهر فى اطاره دورا حاسما هو من شأن الانسان . وهو النظام الذى من المفترض أن يختفى من خلال عملية الاصلاح ، باعتبــاره كيانا مستقلا ومتميزا . ومن ثم فادارة البشر والأشياء ينبغى أن تخضع مباشرة للقانون السماوى . وبرغم أن كارت رايت Cartwriqht لم يتحدى القانون المدنى او نظم التاج . الا أن فكرة الدولة تصبح لا معنى لها من وجهة نظره اذا لم تكن هى السلطة العليا أو الحاكمية المطلقة . وأن النظام السياسى يعتبر وسيلة لفرض الأوامر الدينية ، وبخاصــة تلك التى تدعو الى الايجابيــة والفاعلية من جانب الفرد . أو التى تدعو الى التأمل والاختيار الحر (٣٦) وهو الأمر الذى يعنى أنه برغم التسليم بوجود الدولة من حيث المبدأ الا أنها ينبغى أن تعمل حسب قوانين الهية أساسا . وهنا تلمح خضوع الكنيسة للدولة ، وهو الموقف الذى انتهت اليه النزعة الانجيليكانية تقريبا .

وبغض النظر عن تباين توجهات المذاهب المسيحية . وبغض النظر ايضا عن مدى التزامها بالأصول المسيحية التى اتى بهــا السيد المسيح . فالمؤكد أن هناك دعوة عامة للفصل بين الدين والسياسة أو بين الكنيسة والدولة . وأن هذا الفصل قد وافق عليه البعض وآمن بوجود سلطتين .

غير أن الخلاف قد ظهر بينهما فيمـــا يتعلق بترتيب العلاقة المتدرجـــة بين السلطتين وبعضهما البعض . حيث ذهبت مواقف الى القول بأن سلطة البابا أولا ، بينما ذهبت مواقف أخرى الى القول بأولوية سلطة الدولة . وفى اطار هذا الموقف الأخير ظهر خلاف جديد ، ذهب البعض فى أطاره الى ضرورة أن تعمل الدولة حسب نص القوانين الالهية ، بينما ذهب البعض الآخر الى ضرورة أن تعمل الدولة حسب قوانين أرضية ، لأنها دولة مجتمع أرضى غير متعال .

غير أنه أيا كانت طبيعة التجربة الغربية فى الدولة ، فان هذه التجربة قد تميزت ببعض الملامح الخاصة التى ميزتها ، وجعلتها أكثر ارتباطا بسياقها الاجتماعى . مما يجعل عملية نقلها الى سياق آخر مسألة تحف بها مخاطر كثيرة ، بحيث يتطلب نجاحها فى سياقها الجديد اما تعديلا فى خصـــائص التجربة ذاتها أو تعديلا فى سياقها . وفيما يلى نذكر أهم خصـــائص هذه التجربة .

(أ) وتتمثل الخاصية الأولى فى الفصل المبدئى والأساسى بين الدين والدولة ، فحسبما قال السيد المسيح (أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله) فاننا نجد أنه برغم ذلك تميع هذا الفصل فى فترات تاريخية عديدة اما بسبب تجاوز البابوات لحدود مسئولياتهم الدينية أو تجاوز الملوك لحدود سلطاتهم . ذلك يعنى أن العلاقة الخاطئة بين الدين والدولة تحدث حينما تحاول الكنيسة اخضاع الدولة ومن ثم فقد كانت مهمة الاصلاح الدينى كما أسسه مارتن لوثر ليس النضال ضد المؤسسات الدينية والقساوسة ، ولكن الاتجاه أساسا الى الغاء الطابع السياسى للدين (٣٧) .

(ب) أنه برغم التراث الفكرى العريض الناتج عن تراكم الحوار المتعلق بهذه القضية ، فانه قد ظهر قبول عام للفصل بين الدين والدولة ـــ خاصة فى اطار الاتجاهات الاصلاحية ـــ وذلك التزاما بالمسيحية فى أصولها الصحيحة . وذلك برغم حدوث خلاف حول طبيعة القانون الذى ينبغى أن تعمل بحسبه

الدولة كأحد الكيانات المنفصلة ، هل هو القانون الالهى أم القوانين الأرضية ؟

(جـ) أنه ينتج عن ذلك أن هذا الحل الذى تطورت اليه الدولة القومية الأوروبية ليس ملزما للحضارات أو المجتمعات الأخرى ، وذلك نظرا لأن هذا المفهوم يمثل تطورا تاريخيا وتحديثيا فى اطار الحضارة الغربية . هذا الى جانب كونه التزاما بالأصول الثيولوجية للمسيحية التى تشكل جوهر الثقافة أو الحضارة الغربية . وبطبيعة الحال فاننا اذا نظرنا الى الدولة والدين فى أطار حضارة أخرى ولتكن الحضارة الاسلامية ، فاننا سوف نجد أن هذا الانفصال غير موجود منذ البداية . اذ يتداخل النسق السياسى والدينى تداخل عضويا فى اطار هذه الحضارة ، فى اطار بناء موحد يتولى انجاز الوظائف المتعلقة بذلك (٣٨) .

ويتفق مع ذلك أنه بينما كانت السلطة السياسية من الوظائف الأساسية للنبى والخلفاء الراشدين ، فان الحاكمية السياسية هى حاكمية الاهية أساسا باعتبار أن الله مصدر السلطات . واستنادا الى ذلك يخضع الحكام المسلمون — ككل المسلمين — لارادة الله ، ويعملون حسب الشريعة باعتبارها السلطة العليا فى المجتمع الاسلامى . وارتباطا بذلك فانه من الواجبات الأساسية للمجتمع هى طاعة الحاكم ، غير أن هذه الطاعة مشروطة بعدم مخالفة الحاكم للشريعة (٣٩) . فلا طاعة فى معصية .

(د) وتتمثل الخاصية الرابعة فى أنه يمكن ارجاع نشأة الدولة الأوروبية الى عملية التباين الاجتماعى التى مر بها المجتمع الأوروبى فى مرحلته الاقطاعية ، حيث حدث تمايز بين المجتمع المدنى من ناحية وبين النظام السياسى من ناحية أخرى . ويمكن القول بأن هذا التباين قد تمكن من فصل مختلف نظم المجتمع ووظائفها — بحيث اختص كل نظام بوظيفة محددة فى اطار بناء المجتمع ككل . وفى هذا الاطار يؤكد بسام طيبى أننا يمكننا أن نلاحظ نوعا من الارتباط بين ما هو سياسى ومقدس فى الانساق المتباينة وظيفيا . وذلك يرجع بطبيعة الحال الى افتقاد التباين . وفى هذا الصدد يمايز

الأنثروبولوجى الفرنسى بالاندير Balandier بين المجتمعات على أساس من درجة سيطرتها على الطبيعة . اذ يؤكد (أن الارتباط بين ما هو سياسى ومقدس واضح فى المجتمعات التى ليس لديها توجه للسيطرة على الطبيعة ، ولكنها ترتبط بها ، بل ترى هذه المجتمعات نفسها باعتبارها تعكس الطبيعة أو تعتبر امتدادا لها) (٤٠) . وهنا يمكننا أن نفسر عملية التصنيع والتكنولوجيا والعلم المتقدم الذى يعتبر مقدمة لها ، باعتبارها تستهدف السيطرة على الطبيعة ، ولكى تنجح فانها هى التى دفعت الانساق الاجتماعية الى التباين وظيفيا . وبطبيعة الحال يسود هذا النمط البنائى فى المجتمعات الصناعية . بيد أنه وان كانت الدولة الأوروبية قد ظهرت من خلال التباين الذى طرأ على المجتمع فانه لا ينبغى أن يكون هذا النمط من التفاعل هو الصيغة الوحيدة فى كل الحضارات سواء فيما يتعلق بأسلوب ظهور الدولة وانفصالها عن المجتمع المدنى أو فيما يتعلق بالتباين بين الدين والدولة .

٣ — وفيما يتعلق بانتقال التجربة الأوروبية فى الدولة الى العالم الثالث والشرق الاسلامى . فنجد أنه بعد استكمال هذا التطور البنائى لذاته ، بدأت عملية انتقال هذه التجربة من مراكز النظام العالمى الى هوامشه أو أطرافه ، أو ما يمكن أن نسميه بانتشار مفهوم الدولة الغربية عبر العالم . فارتباطا مع الفترة الاستعمارية التى قامت بها أوروبا ، ظهرت حاجة لدى الغزاة الأوروبيين الى ضرورة استناد العلاقات الانسانية وحل الصراعات أيضا الى مبادىء قانونية واضحة وذات طبيعة شمولية . وبالنظر الى التحرك الأوروبى المحموم لاستعمار العالم غير الغربى — كتجار ، أو مبشرين أو أصحاب مغامرات — فانهم حملوا معهم الاعتقاد بأنهم ينبغى تنظيم كل المجتمعات على هيئة دول . لها حق امتلاك الحاكمية Sovereignty وتلتزم بقواعد القانون . وحينما ذهب الأوروبيون فانهم كانوا يبحثون عادة عن من بيده الأمر ؟ وحسب منطق العقل الأوروبى ، فان كل اقليم ينبغى أن يخضع لسلطة معينة ، وأنه ينبغى أن يشعر كل البشر فى منطقة جغرافية معينة بنفس الولاء وبذات الالتزامات الشرعية .

ويمكن القول بأنه خلال القرون الثلاثة الماضية حيث الاتصال الثقافى بين أوروبا وبقية دول العالم ، بذل الأوروبيون جهودا مضنية لا تتوقف من أجل تحويل كل مجتمعات العالم الثالث الى دول قومية تعتبر صورة أمينة للأصل الأوروبى . اذ كان من غير المقنع بالنسبة للعقلية الأوروبية — حينئذ — أن يكون هناك شخص لا يخضع لحكم دولة محايدة ، ولا يشعر أنه جزء من أمة . واستنادا الى ذلك تطلب النسق الأوروبى ضرورة أن يخضع كل اقليم لأسلوب محدد من الادارة القانونية ، وأن يخضع كل شخص لمجتمع سياسى معين ، وأن على كل المجتمعات السياسية أن تتصرف باعتبارها دولا فى عائلة الأمم .

وحيثما ذهب الأوروبيون ، نجد أنهم رفضوا مباشرة أى تنظيم آخر للحياة الاجتماعية ، ومن ثم وجهوا معظم امكانياتهم وطاقاتهم بهدف دفع البشر الآخرين — المستعمرات — فى اتجاه الأخذ بمعايير الدولة أو الأمة الحديثة . وخلال هذه الفترة شعر البشر الذين يتحملون مسئولية الحفاظ على الاستقرار بأن الاشكال المحلية أو الأهلية للسلطة التى فشلت فى توفير الحد الأدنى من معايير الأمة أو الدولة تعتبر تهديدا قويا لنظام الدولة . ولقد ترك هذا الاهتمام تأثيره على العقلية الأوروبية . حيث شعروا بالعداء لكل هذه التنظيمات المحلية البديلة بحيث كان الشعور الأوروبى بالتمركز حول الذات هو الوجه الآخر لهذه العملية (٤١) . ولقد اعتقد الأوروبيون أيضا أن المجتمعات التى لا تتحرك طواعية للأخذ بنظام الدولة ينبغى دفعها — قسرا — فى هذا الاتجاه ، حتى ولو تطلب الأمر مساعدتها — حسبما يرى الأوروبيون — على ذلك من خلال التدخل الصريح فى شئونها (٤٢) . هذا الى جانب أن هناك بعض مجتمعات العالم الثالث التى شاء لها قدرها أن تشارك — قسرا — فى نظام عالمى لا سيطرة لها عليه ، أن لم تكن خاضعة له سياسيا وثقافيا واجتماعيا ، وهى الخلفية الاجتماعية التى تفرض على هذه الدول محاولة تقليد النماذج السياسية للمجتمعات المتقدمة ، وفى هذا الصدد فانه يمكن القول ، بأنه ثمة قوى ثقافية وسياسية واقتصادية وعسكرية هى التى تولت — شعوريا أو لا شعوريا — فرض نموذج الدولة فرضا تعسفيا —

رغما عن الارادات المحلية ــ على البناءات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى تشكلت من خلال أساليب أخرى للتفاعل والتفكير (٤٣) .

وفى محاولة تعقب انتقال تجربة الدولة فى أوروبا الى العــالم غير الأوروبى فاننا سوف نواجه بثلاثة نماذج أساسية لهذا الانتقال .

(ا) ويعتبر انتقال النموذج الأوروبى للدولة الى الدول القريبة من أوروبا أو الشبيهة بها أول نماذج الانتقال هذه ، حيث استوعبت الأقطار القريبة من أوروبا الأفكار السياسية الغربية باعتباره عنصراً من تأثير أشمل للثقافة الأوروبية من جانب ولعملية الاستغلال الاقتصــادى أو الاجتماعى العسكرى من جانب آخر ، وتعتبر تركيا أحد الأمثلة البارزة لهذا النموذج . فمع بداية القرن الثامن عشر حينما فرضت أوروبا على تركيا موقف الدفاع عسكريا واقتصاديا قام السلطان العثمانى أحمــد الثالث والصدر الأعظم ابراهيم باشا يدعم المحاولات التى اتجهت الى دراسة القوانين الأوروبية وأشكال الحكومات التى تسود بها . ومن ثم يمكن القول بأن الاصلاحات التنظيمية التى جاءت بعد قرن من الزمان تأثرت الى حــد كبير بالتصــور الأوروبى للدولة . هــذا الى جانب أنه قد تأسست خلال هــذه الفترة بيروقراطية حديثة تنقسم الى عدة وزارات ولا تخضع فى أدائها لدورها لسلطة شيخ الاســلام . هذا بالاضــافة الى تبنى مجموعة من التغييرات القانونية والعلمانية التى تغطى مختلف جوانب الحياة الاجتماعية بالاضافة الى بعض التطويرات العلمانية لقانون العقوبات ، وتأسيس عدد من المدارس الفنية المتخصصة ، ومن بينها الأكاديمية العسكرية التى تأسست فى ١٨٣٤ وأخذت نفس الشكل الأوروبى (٤٤) .

وتعتبر ايران المثال الثانى فى هذا الصدد ، حيث كان للأفكار الأوروبية تأثيرها أيضا ، وبخاصة منذ بداية تاريخ الدولة الصفوية . بحيث يمكن القول بأن ايران قد تمكنت مع منتصف القرن التاسع عشر ابان حكم كل من ناصر الدين شاه وأمير كبير Amir kabir من تحقيق استقرار داخلى كامل استند على تبنى الأفكار الغربية فيما يتعلق بالأشكال الحكومية وبنــاء الدولة ، بحيث

أعتبر ذلك مدخلا لتغيرات انتشرت فى النظم التعليمية والعسكرية باتجـــاه المؤشرات الغربية (٤٥) .

(ب) وتعتبر دولة المستعمرات غير الحضارية هى النموذج الثـــانى للمناطق التى انتشر فيها النموذج الأوروبى للدولة . ومن الواضح امتلاك هذه المجتمعات لأنماط محلية للسلطة ، تستند بالأساس الى الولاءات القبلية ، ومن ثم يتحدد نجاح القوى الاستعمارية فى فرض النموذج الأوروبى للدولة بثلاثة عوامل أساسية . ويتمثل العامل الأول فى طبيعة المستوى الثقـــافى والحضارى لهذه المجتمعات ، بحيث تتحدد بالنظر الى هذا المستوى امكانياتها على استيعاب التنظيمات السياسية الجديدة . وأيضا على قدرة هذه المجتمعات للمرور بذات عملية التباين التى مرت بها المجتمعات الأوروبية بما يؤهلها لابراز نموذج الدولة . اما العامل الثانى فيتعلق بأسلوب التعامل مع الســـلطات أو الولاءات المحلية ، بحيث يترتب على نجاح أو فشل أسلوب التعـــامل الرفض أو الاستيعاب الكلى لنموذج الدولة الأوروبية ، أما العامل الثالث فيتعلق بامكانية التحول تاريخيا بهذه السلطات أو الولاءات المحلية من الشكل القبلى الى الشكل الأوروبى الحديث وذلك من داخل هذه الولاءات المحلية استنادا الى العناصر البشرية التى تم تأهيلها على الطريقة الغربية . بيد أنه يمكن القول فى هذا الصدد أننا لا نعتقد أن فرض نموذج الدولة الأوروبية قد واجهته أية صعوبات أو رفض محلى يذكر اللهم الا ما يتعلق بنقص الامكانيات اللازمة لبناء الدولة الحديثة .

(ج) وينتمى النموذج الثالث الى عالم المستعمرات أيضا ، وهو فى ذلك يشترك مع مجتمعات النموذج الثانى ، ولو أنه يختلف من حيث امتلاكه للاطار أو التصور الحضارى . ويمكن أن تذكر المجموعة الاسلامية والهندية أمثلة واضحة لمجتمعات هذا النموذج . وأذا كان ادخال التكنولوجيا السياسية الغربية للمستعمرات — مجتمعات النموذج الثانى والثالث — قد تم بصـــورة فجائية ومقصودة ، بان فرض نموذج الدولة وما يرتبط به من أفكاره سياسية كان واسع التأثير ايضا . ولقد كانت خبرة الادارة الاستعمارية هى التى مهدت

الطريق لبناء الدولة — حسب الطريقة الغربية — بعد الاستقلال . ويمكن تفسير أوجه التشابه بين الانساق السياسية لأوروبا من ناحية وتلك الخاصة بأفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية بالتأثيرات الثقافية التى انتقلت الى هذه المجتمعات من خلال الادارة الاستعمارية . بل ان البيروقراطية التى أسستها السلطات الاستعمارية كانت موجهة بالأساس نحو تأكيد السيطرة الاستعمارية من ناحية والمساعدة على تبنى نموذج الادارة الغربية من ناحية أخرى (٤٦) .

ويعتبر الرفض أو العناد الحضارى أحد ملامح ردود الفعل التى أظهرتها مجتمعات النموذج الثالث . ذلك أن افتقاد مجتمعات النموذج لأية تنظيمات سياسية تتجاوز التنظيمات القبلية جعلها تستوعب نموذج الدولة الحديثة باعتباره يشكل عنصراً ناقصا فى بناءاتها وتحتاج استكماله ، أما بالنسبة للمجتمعات الاسلامية فاننا نجدها تمتلك التصورات المقابلة ، والأكثر تكيفا وملائمة لبناءاتها من النماذج الوافدة للدولة . ومن ثم ظل الرفض التاريخى ، الدائم والمستمر هو الصيغة التى تعبر عن امتلاكها لما يمكن أن يؤدى ذات الوظائف فى بناءاتها .

ويمكن القول بأن آليات الانتقال تراوحت بين أساليب ثلاثة :

ويتمثل الأسلوب الأول فى سعى القوى الاستعمارية لحث الحكام التقليدين فى الهند والصين وجاوة وبقية مجتمعات الآسيوية لاستيعاب لأفكار الغربية بما فيها أفكار القانون الدولى ونماذج الدولة الحديثة . ومن ثمة يمكن النظر الى انتقال الدولة من خلال هذه الآلية باعتبارها أحدى جزئيات الانتشار الثقافى .

تأتى الآلية الثانية حينما يثبت عدم فعالية المدخل غير المباشر . حيث تأتى المرحلة الاستعمارية التى يتمكن خلالها ممثلى نظام دولة الأمة فرض البناء التحتى لدولة الأمة على المجتمعات ذات الطابع التقليدى ، وذلك فى شكل فرض البناءات الأوروبية الغربية . واذا كانت النزعة الاستعمارية قد أشرفت على النهاية الآن ، فاننا نرى أن الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من البلاد الغربية تحاول من خلال الأشكال المتنوعة للمساعدة والعون الفنى ،

فرض استمرار للجهود التى تتولى صياغة بناءات المجتمات العديدة وتحويلها الى وحدات تستوعب طابع الدولة الحديثة (٤٧) .

وتتصل الآلية الثالثة بالنظام العالمى ، حيث هناك تفاعل فى اطاره يسعى الى خلق نموذج دولة الأمة باعتباره الوحدة القادرة على المشاركة فى العلاقات الدولية . وفى هذا الصدد يعتبر تطوير ودعم نظام دولة الأمة وظيفة آدائية فى نشر عناصر التحديث عبر العالم (   ) . فمن خلال القانون الدولى والانساق القيمية المقننة الأخرى ، نجد أن النظام العالمى القائم يدعم فكـــرة الدولة باعتبـــارها النموذج الصـــادق للنمو الســـياسى . وأن أى مجتمع يرغب فى الحصول على احترام جيرانه ، وأيضا فى تحقيق قدر من النمو أن يعمل على تأسيس نمط الدولة الحديثة فى اطاره (٤٨) .

٤ ـــ غير أنه أيا كانت الآلية التى اتبعت فى نشر نموذج دولة الأمة فى مجتمعات العالم الثالث وبخاصة مجتمعات المجموعة الاسلامية ، فان هذا الانتقال لهذا العنصر الاوروبى الى بناءات المجتمعات التقليدية كانت له آثاره الثقافية والاجتماعية والبنائية العديدة .

من هذه الآثار أنه بغض النظر عن حجم وفعالية الصفوات المحلية التى استطاعت استيعاب الأفكار السياسية للغرب ، فاننا نواجه بحقيقة أن اعادة غرس النموذج الغربى للدولة تم على المستوى الرسمى فقط ، ومن ثم نجد أن هذا النموذج لم يتفاعل عضويا مع بناء مجتمعات العالم الثالث . فهو نموذج استجلب فى بعض الأحيان بصورة صناعية ، وفى أحيان أخرى تم فرضه بالقوة ، أو أختير بصورة طوعية فى أحيان ثالثة . المهم فى الأمر ان هذا النقل للجهاز السياسى حرم البناءات التقليدية من النمو الطبيعى لأن السلطات الاستعمارية تسببت فى اعاقة نمو تقسيم العمل فى المجتمعات التقليدية ، ومن ثم فقد كانت بناءاتها عاجزة عن التكيف مع البناءات السياسية المستوردة . هذا الى جانب أن السلطات الاستعمارية أعاقت نمو الصفوات الاقتصادية والادارية المحلية ـــ كما هى الحال فى الجزائر ـــ وهو الأمر

الذى كان من نتيجته وجود الدولة وملحقاتها ككيانات بلا جذور ولا تتناسب مع سياستها المحيطة (٤٩) .

وبغض النظر عن اتهام البناءات السياسية المحلية بأنها المسئولة عن الفشل الاقتصادى والعسكرى الذى تعانية هذه المجتمعات . فان الدولة الحديثة ظلت حتى اليوم صفة مستوردة بالنسبة لمجتمعات آسيا وأفريقيا ، أو هى فى النهاية صورة باهتة لانساق سياسية واجتماعية أوروبية ذلك يعنى أن الدولة الحديثة ليست كائنا غربيا وعاجزا فقط ، ولكنها تعتبر عنصرا مولدا للعنف فى بناءات المجتمعات التقليدية (٥٠) فلا شك أن وجود ما يمكن أن يسمى بالولاء المزدوج بالنسبة للشخصية فى هذه المجتمعات من شأنه أن يخلق موقفا مؤثراً داخل الشخصية ذاتها ، ومن طبيعته أنه سوف يساعد على تفشى العنف حينما تتصادم الولاءات أو حيثما تهدد الدولة الحديثة بسمعة اشكال السلطة المحلية ، أو حينما تناضل لتصبح هى أساس نظام الضبط والسيطرة الشاملة .

ويعتبر وجود البيروقراطية على النحو الموجودة به فى مجتمعات العالم الثالث أحد المشكلات الأساسية الناتجة عن حقن نموذج الدولة الغربيـــة فى بناءات المجتمعات المحلية . فالدولة فى العالم الثالث من الزاوية البيروقراطية ليست أكثر من مجموعة من الجزر البيروقراطية المتناثرة ، والتى لا تشكل ــ على خلاف نظيرتها الغربية ــ تكاملا مع المجتمع السياسى . هذا الى جانب أنه ليس هناك مجتمعا مدنيا متكاملا له بناؤه القوى والمستقل الذى يستطيع التوازن معها . اذ نجد أن أقطار العالم الثالث تمتلك فى الغالب مرتكزات نظامية ضعيفة ، ونتيجة لذلك لا يمتلك حكامها مصـــادر مستقلة للســـلطة أو الشرعية ، ومن ثم نجدهم عاجزون عن توجيه بيروقراطياتهم أو استخدامها كأدوات فعالة ورشيدة (٥١) لتحقيق التغير والتنمية . وفى نفس الوقت فان انخفاض مستوى التنمية الاقتصادية والتعبئة الاجتماعية فى هذه المجتمعات يعنى أن المجتمع المدنى فى اطارها ليس منظما بالدرجة الكافية التى تمكنه من الاستفادة بصورة ما من التآزر والتنظيم البيروقراطى . وتسود

معظم مجتمعات العالم الثالث حقيقة تتمثل فى أنه لا سيطرة للبيروقراطية على الاقتصاد الذى يعتمد الى حد كبير على الاستثمارات الأجنبية ، ونتيجةلذلك تقتصر المهام البيروقراطية على الأمور الروتينية المتعلقة بجوانب السياسة والادارة والخدمات (٥٢) .

ومن هذا المنطق تكون وظيفة بيروقراطية الدولة قد أصابها الضرر ، وهو الأمر الذى يعتبر شاهدا على فشل نجاح التطعيم الغربى فى مجتمعات العالم الثالث . ونظرا لانعزال هذه البيروقراطية عن المجتمع ، فاننا نجدها فى غالب الأحيان مشغولة بدعم أو اعادة انتاج الصفوة السياسية التى تتولى السيطرة فى أكثر الحالات تفاؤلا على قطاع هامشى من الاقتصاد المحلى ، وفى هذا الاطار تحصل هذه الصفوة على مصادر شرعتها من الفساد أو من خلال مصادرة معظم الثروات القائمة (٥٣) . ويساعد استمرار علاقات العمالة Clientle relations على تفسير سبب قدرة البيروقراطيات ذات الخصائص الأبوية والشخصية على الاستمرار فى هذه المجتمعات ، برغم أن غرضها الأساسى يتمثل فى تضخم فعالية الصفوة الحاكمة التى لديها كل السلطات (٥٤) .

ويصبح الأمر أكثر سوءا اذا تخلقت فى العالم الثالث دائرة مفرغة تكون البيروقراطية والتنظيمات الغربية الأخرى غير متوافقة مع التقاليد أو التراث المحلى لكثير من مجتمعات العالم الثالث . ونتيجة ذلك نجد أن التنمية الاجتماعية تشق بنية هذه المجتمعات الى اثنين . حيث يحصل أحد أقسام المجتمع أو احدى جماعاته على شرعيتها من الرغبة فى التحديث ، بينما تناضل الأخرى من أجل الحفاظ على التراث والتقاليد القومية بدون أى جهد للتكيف مع الاصلاح الجديد . وقد اتضحت هذه الثنائية فى مصر تحت حكم الخديوى اسماعيل فى القرن الثامن عشر حينما كانت مصر تابعة للامبراطورية العثمانية . وقد حدث نفس الأمر بالنسبة للنظام السياسى — الغربى — الذى أسسه كمال أتاتورك ، الذى كان قادرا على العمل جزئيا ، حينما يستبعد القطاع الفلاحى — وهو كبير — من نطاق عملية التحديث (٥٥) . وفى

هذا الاطار فاننا نجد أنه كلمـــا حاولت الدولة تطوير ذاتها ، كلمـــا تزايد الاعتراض على ادعائها للسيطرة والسيادة . بحيث يفرض عليها ذلك أن تنفصل عن بقية المجتمع . وكلما فشلت الدولة فى ممارسة السيطرة على بقية المجتمع ، كلما كانت مجبرة على ممارسة الضغط ، استهدافا للتعبئة الأكثر ، بحيث قد يدفعها ذلك أحيانا الى استخدام وسائل سلطوية تتناقض أساسا مع مبادىء التباين والاســـتقلال التى تشكل خصـــائص أساسية لهـــا (٥٦) .

ويرتبط بذلك امتداد الثنائية أو التناقض الذى تعانيه مجتمعات العالم الثالث الى الزعامة أو الصفوة السياسية فى هـــذه المجتمعات ، فلأن اقرارها ذو انتماءات علمانية أساسا ، فاننا نجدهم يبشرون عادة بأفكار الحـــرية والديموقراطية وســـيادة القانون واللاشخصية فى العلاقات ، والتأكيد على الأسلوب التنظيمى فى العمل . غير أنهم من ناحية أخرى ينتمون الى مجتمعات تقليدية ذات طبيعة عائلية وأبوية يعملون فى اطارها . ومن ثم نجدهم فى قلب ايمانهم بمفاهيم وأساليب الدولة الحديثة يمارسون السلطة بنزعة أبويه صارمة ، فهم دائمـــا رؤساء العائلة المحليـــة ، وهم دائمـــا لديهم تفويض أبوى بالوكالة لاتخاذ القرارات الحاســـمة نيابة عن شـــعوبهم ، بل اننا نجدهم غالبا ما يتحدون مع الدولة ، بحيث يعتبرون أن أى نقد موجه الى الدولة أو أى قطاعاتها انما هو قدح فى ذواتهم فى العالم الثالث .

ويرتبط بذلك خطأ آخر من جانب الجماهير فى هـــذه المجتمعات . فالى جانب أن هـــذه الجماهير ــ تحت وطأة تصوراتها التراثية عن الدولة ــ ترى أن هـــذا الوجود الغربى غريبا عليهـــا ، ومن ثم ينبغى تعديله حتى يتوافق مع احتياجات المحليـــة ، والا تكون النتيجة انخفاض مستوى المشاركة فى كافة جهـــود التطوير التى تبتدعها الدولة الحديثة ، وهو الأمر الذى يحدث فى معظم مجتمعات العالم الثالث . بالاضافة الى ذلك ، نجد أن جماهير هـــذه المجتمعات ، استنادا الى النزعة الأبوية الســـائدة لديها ــ بحكم تركيبها العائلى والقبلى ، ترى أن الدولة مسئولة عن اشباع حاجاتها

الأساسية بغض النظر عن المشاركة أو عدم المشاركة الايجابية من جانب الجماهير عمــلا بالتزامات رب العائلة ، ومن هــذا الاطار يتوجه النقــد الجماهيرى للدولة ، فى أما خائنة للهوية أو التراث أو أنها عاجزة عن اشباع حاجاتها الأساسية . وقد تستخدم الدولة وســائل سلطوية لفرض المشاركة أو الدفاع عن العجز وهنا تبدأ دائرة من النقدية الخلفية المرتدة ، قوامها انعدائية بين الدولة أو السلطة من ناحية والجماهير من ناحية أخرى ، وتكون النتيجة هى تردى التنمية الاجتماعية الاقتصادية .

ذلك يعنى أن دخول الأفكار أو الأساليب الغربية المتعلقة بالدولة فى العالم الثالث ، تخلق أثارا حادة فى بناءات هــذه المجتمعات ، حيث يمكن القول بأن دخول نموذج الدولة الغربية فى العالم الثالث قد ارتبط بثلاثة أخطاء عجزت مرحلة الاستقلال الوطنى عن مواجهة أى منهما .

ويتمثل الخطأ الأول فى الاعتقاد بأن فشـــل الأفكار السياسية الغربية فى العالم الثالث يعزى أساسا الى تخلفه الاقتصادى ، وأن مزيدا من التنمية قد يســاعد على نجاحها . غير أن ذلك من الصعب حدوثه ، أولا لأن هناك تناقضا عكسيا بين السيطرة الاقتصادية للغرب من ناحية وبين سيطرته الثقافية من ناحية أخرى . هــذا الى جانب أن النمو الاقتصادى فى هــذه المجتمعات عادة ما يكون محكوما بالاحتكارات الغربية لثروات هــذا العالم . ومن ثم فان التبعية التكنولوجية عادة ما تكون مدخلا لاعادة انتاج هــذه الحالة من التبعية والاحتكارات . بل أن هــذا الموقف قد يدفع الى كارثة سياسية ، حينما تحاول الشركات المتعددة الجنسية ، والمستمرة النمو ، أن تحل محل الدولة القومية فى العالم الثالث ، باعتبارها الوحدة الأساسية للمجتمع الدولى (٥٧) .

ويتصل الخطــأ الثانى بطبيعة الظروف أو المشــكلات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التى واجهتها أوروبا وفرضت نشأة الدولة الحديثة ، ثم مدى تماثل هــذه المشــكلات والظروف مع ما هو موجود فى العالم الثالث الآن . ذلك أنه كان على أوربا أن تواجه أزمة النظـــام الاقطاعى التى تضمنت

مفهوم الملكية الخاصـــة بالنسبة للأرض الزراعية التى امتلكها سادة الأرض .
فى مقابل ذلك نجد أن معظم مجتمعات العالم الثالث ، وبخاصة أفريقيا تواجه أزمة مختلفة تمـــاما ، تتضمن بقاء البناءات القبلية ، واستمرار الأهميـــة الجوهرية للقرابة . ومحدودية الملكيـــة الفردية للأرض الزراعية (٥٨) .
وبينما كان على المجتمعات الأوربية أن تبحث عن الأسـاليب الملائمة لصياغة تكامل بين الصفوات الاقتصادية الموجودة فعلا فان الأقطار النامية تحتاج الى خلق اقتصاد السوق . هـــذا بالاضافة الى أنها ينبغى أن تعمل منـــذ البـــداية على تأسيس المجتمع الصناعى الكامل . وبينما كان على النهضة الأوربية أن تناقش الزيادة التدريجية المطالبة بالمشاركة الشـــعبية ، فاننا نجد أن الدول المستقلة حديثا تواجه زيادة درامية للرغبة فى المشاركة ، وهى الرغبة التى لم تستطع الولاءات التقليدية الحد منها . ومن الطبيعى أن تتطلب هـــذه المشكلات المختلفة حلولا مختلفة . ذلك يصل بنا الى استنتاج يذهب الى أنه من الصعب فى مثل هـــذه الظروف أن تكون الدولة المســـتندة الى القـــانون الرومانـــى قادرة على أن تحيى كحقيقـــة داخل العـــالم الثالث (٥٩) .

ويتصل الخطأ الثالث بطبيعة التفاعل الذى دفع الى نشأة الدولة . فنظرا لأن الدولة هى نتاج لثقافة تســـتند الى حد كبير على مبدأ التباين . فان هـــذه الدولة قد أصبحت عاجزة عن تحقيق تكامل بنائى مع المجتمعات التى تحكمها (الديانات العضوية Organic religiouns) كالاســـلام والهندوكية . وهى الديانات التى ترفض انفصال المجال الدنيوى عن المجال الروحى . وهنا يتضح ان الدولة التى ولدت فى عصر النهضة الأوربية — والتى تستند الى انفصـــال المجالين حسبما تذهب الثيولوجيا التى شكلت اطار لها — والتى تشكل نموذجا للدولة فى كل مكان ليست ملائمة لثقافات وحضارات تحكم التفاعل فى معظم مجتمعات العالم الثالث .

ومن السذاجة الاعتقاد بأن التحديث سوف يساعدنا على التخلص من حالة عـــدم التكيف هـــذه . غير أنه قد يكون مضللا بنفس القدر أن نفترض

أن دوام هـــذا التنوع الثقافى والبنائى يمكن أن يقود الى نوع من الابداع .
حيث أوضح عـــدد من المستشرقين أن ذات الوظائف التى تؤديها الدولة فى أوربا يمكن أن تؤدى بأساليب أخرى فى المجتمعات الاســـلامية (*) هـــذا مع اعتبار أن الدين يلعب دورا حيويا فى هـــذه المجتمعات ، بالاضافة الى أنه يتضمن في ذاته تصورا للدولة ، قد يتناقض أو يختلف مع التصور الغربى للدولة . هـــذا مع ضرورة التأكيد على أن مقاومة التغير فى الشرق الأوسط قد لا تعزى الى الدين ولكن الى الأسلوب الذى استخدم به الدين منذ قيام الخلافة العثمانية . أعنى أن الدين قد استخدم لمساعدة الصفوة الحاكمة للسيطرة على السلطة وللحفاظ على البناء الاجتماعى القائم كما هو (٦٠) .
ولقد كان هـــذا الاستخدام بالتحديد هو الذى دفع جمال الدين الأفغانى الى تطوير حركته الاصلاحية للاســـلام . وهى التى دفعت محمـــد عبده فى مصر الى تنظيم حركته المضادة فى نهـــاية القرن التاسع عشر (٦١) حيث نجد أن هنـــاك جوانب كثيرة فى الثقافة الاســـلامية تشجع على التجديد . حيث يعتبر الاجماع مثلا أحد المناهج الرئيسية المسلم بها من قبل كل مسلم ، حسبما تذهب المدارس الكلاسيكية ومن ثم من الممكن أن يعتبر مصـــدرا للتشريع والشرعية ، بل ويمكن الاستفادة منه كأساس للمشاركة الشـــعبية وفى تأسيس أشكال جديدة من الشرعية (٦٢) .

(*) من الواضح أننا نجد مصداقية لهذا القول فى أننا اذا نظرنا الى حجم الاستعدادات التى تتخذها البيروقراطية الغربية فى أى من الدول لعقد دورة الألعاب الأولمبية بها ، وهى الدورة التى تستوعب بالكاد أقل من المليون بكثير ، وتعقد كل أربعة سنوات . ماذا لو قارنا ذلك بالجهد الضخم الذى تبذله البيروقراطية الســـعودية والتى عليهـــا أن تستقبل سنويا نحو خمسة مليون حاج ، ومع ذلك تنجح فى توفير اشباع لحاجاتهم الأساسية وتجنب انتشار الأوبئة أو أى من انحرافات الحيـــاة خلال هـــذه الفترة . والمعتقد أن السبب يرجع الى حفاظ هـــذه البيروقراطية على هويتها الخاصة التى صاغت فى اطارها تداخلا بين القطاع الخاص من ناحية والقطاع الحكومى من ناحية ثانية . أو بين القطاع القبلى والعائلى (المطوف) من ناحية وبين القطاع الرسمى من ناحية ثانية . مثال يحتاج بلا شك الى الدراسة ، للتعرف على ملامحه وأســـباب نجاحه .

٢ — ظهور العلمانية فى أوربا
انتقالها الى العالم الثالث

يشكل ظهور العلمانية مرحلة جديدة فى تطور التاريخ الفكرى الأوربا واذا كان انفصال الدولة عن المجتمع ، ثم انفصال الدولة عن الدين قد شكلا تعبيرا عن عملية التباين التى مر بها المجتمع الأوروبى على مستوى التفاعلات الواقعية ، فان القول بالعلمانية يواجهنا بتباين جديد ولكن على المستوى الثقافى أو الاعتقادى . وهو التباين الذى فصل الفكر الدينى عن الفكر العقلانى تحت شعار العلمانية ، التى بعد استكمالها فى أوربا انتقلت الى الشرق لكى تكون لها آثارها على بناءاتها وبحيث يمكن أن توضح هذه العملية من خلال ما يلى :

(أ) العلمانية ماهيتها وأبعادها .

(ب) نمو العلمانية ، العوامل الأساسية .

(جـ) انتقال العلمانية ، الآليات الأساسية .

وسوف نعرض بايجاز لكل من هذه النقاط السابقة :

(أ) تعنى العلمانية منذ البداية أن كل شىء مآلة الى النقد ، ومن ثم فلا شىء خالد . حيث تفرض منذ البداية أن النسبية وليس المطلق هى القانون الأساسى الذى يحكم الفكر والثقافة بل ويحكم المجتمع أيضا . وفى تحديد آخر يرى نيقولا لومان Niklas Luhmann العلمانية باعتبارها تتصل بعملية التباين الوظيفى التى يمر بها المجتمع ، أعنى (أنها ترتبط بتطور البناءات الاجتماعية فى اتجاه التباين الوظيفى) . وتقع العملية حسب رؤية لومان حينما يتراجع النظام الدينى عن أن يشكل اطارا يحكم السلوك على المستوى الشخصى وعلى مستوى النسق الاجتماعى الى مستوى ان يشكل نسقا فرعيا للمجتمع تقتصر فاعليته على البيئة الاجتماعية الداخلية للانسان . ومن ثم يمكن القول بظهور العلمانية كنتيجة للدرجة العالية من التباين التى

وصل اليها المجتمع الحديث • وعلى هـذا النحو فانه يقصد بها تلك الآثار التى طرأت على النظام الدينى وبيئته الاجتماعية ، باعتبارها آثارا نتجت عن التحول فى اتجاه المجتمع الصناعى الحديث (٦٣) . وبذلك تكون العلمانية نتاجا لعمليات التطور المعقدة التى بلغت ذروتها فى المجتمع الصناعى الحديث . واستنادا الى ذلك لا تعنى العلمانية الغاء الدين بقدر ما تعنى اسناد وظيفة مختلفة اليه ، أو على تحديد مجال فاعليته • ويشترك بسام طيبى مع لومان فى تأكيده على اعتبار العلمانية أحد النتائج التى برزت نتيجة لاعادة توجيه المجتمع نحو نسق متباين وظيفيا فى أساسه . حيث يكتسب كل مجال من مجالات الآداء الوظيفى استقلالية تامة ، غير أنه يصبح فى ذات الوقت أكثر اعتمادا على الوظائف التى تؤديها له المجالات الاجتماعية الأخرى ، وعلى طريقة آدائها لهذه الوظائف أيضا (٦٤) •

أما براين ويلسون فيعرف العلمانية باعتبارها عملية تفقد من خلالها الأفكار والممارسات الدينية أهميتها أو دلالتها بالنسبة للتفاعل الاجتماعى على مستوى المجتمع الشامل . هـذا فى حين يعرفها آخرين بأنها تعبر عن الانفصال بين النظم الدينية وتلك الخاصة بالدولة أو المجتمع ، أو أنها التباين بين الوظائف السياسية والدينية (٦٥) •

ذلك أن العلمانية تعتبر هى الحركة الفكرية التالية لانفصال الدين عن الدولة — وان وجدت جذورها مع بدايات عصر النهضة الأوربية — وبغض النظر عن التعريفات العديدة والمشتقة فالمؤكد أن كل منها تركز على زاوية محددة فى النظر الى العلمانية ، بحيث يمكننا أن نحدد جوانب ظاهرة العلمانية من خلال أكثر أبعادها اساسية على النحو التالى .

١ — تعنى العلمانية أولا وأساسا تراجع الدين عن أن يشكل اطارا ضابطا لكل التفاعلات التى تحدث فى مختلف مجالات المجتمع الى كونه نظاما اجتماعيا يقوم بآداء وظيفة موكلة له من قبل المجتمع — ككل النظم الاجتماعية الأخـرى — فى ذلك تحويل للدين من مكانة المتغير المستقل الى مكانة المتغير التابع •

٢ — تعنى العلمانية أيضا تحدد فاعلية الدين من المستوى الشامل للحياة الاجتماعية ، وهو المستوى القادر على ضبط السلوك الانسانى من خارجه الى مستوى الاقتصار على الضمير الداخلى للانسان ، ومن ثم لا يصبح عنصرا له فاعليته على مستوى المجتمع بقدر ما تبدى أهميته على المستوى الفردى .

٣ — تعنى العلمانية كذلك الايمان بفكرة النسبية محل المطلق وذلك كنتيجة لاستبدال الرؤية الثيولوجية للحقيقة بالرؤية العلمانية أو لنقل الانسانية لها . ذلك يعنى أنه اذا كان الادراك الدينى مطلقا ولا زمانيا ، فان الادراك العلمانى نسبيا وزمانيا . ولأن الانسان يعيش فى قلب الزمان والمكان المحدد ، فمقولات النسبية تكون أكثر ملائمة لطبيعة ادراكه .

٤ — تعنى العلمانية التغير أيضا . فما دامت الادراكات والمدركات نسبية ، فقضايا الادراك ومتغيرات المدرك سوف تكون عرضة للتغير حسبما يتجدد الزمان والمكان وبطبيعة الحال فان القول بالمطلق على مستوى القضية أو الواقع يعنى القول بالثبات وعدم التغير .

٥ — تعنى العلمانية أيضا بأن العقل الانسانى هو صانع القدر والتاريخ الانسانى فى الماضى والحاضر والمستقبل وأن قدر الانسان لا يصنع له من خارجه . ومن ثم فان تطوير العقل يعنى تزويده بالمعرفة عن بيئته المحيطة ، هذه المعرفة وأن كانت عن الواقع الانسانى المحيط ، فهى نشاط انسانى الى جانب ذلك ، وهنا يبدو الاتصال واضحا بنظم التعليم الحديثة .

٦ — أن العلمانية كما ظهرت فى التاريخ الأوروبى تبدو متسقة الى حد كبير مع التراث الثيولوجى لهذا المجتمع أو اذا كان السيد المسيح قد ذهب الى القول المقدس أن ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، فان العلمانية تعنى أن العالم الانسانى المعاش ينبغى أن يتولى تنظيمه الانسان مستنداً فى ذلك الى قدراته الفعلية .

(ب) بغض النظر عن تعريفات العلمانية ، أو أبعادها الأساسية التى ذكرنا لها ، فالمؤكد ان العلمانية كما ظهرت فى التاريخ الأوربى ارتبطت بتفاعل اجتماعى دفعت اليه عوامل عديدة أسهمت فى تراجع الدين من ناحية ، وفى نمو الفكر العلمانى من ناحية أخرى . ونذكر فيما يلى بعض من هذه العوامل .

١ — ويتمثل أول هــذه العوامل فى الدعوة الى الحرية الدينية التى بدأت تسود أوربا ابان عصر التنوير الأوربى ولقد عبر عن ذلك الحوار الدينى الذى ساد أوربا ، والذى استهدف مناقشة سيطرة الفكر اللاهوتى كمدخل لادراك الحقيقة . اذ أدرك الفكر المسيحى ، بأجنحته المختلفة ، الحقيقة باعتبارها موحاه ، وأن التوراه تتضمن هــذا الوحى (٦٦) . وهو الأمر الذى يمنح الكنيســة كل السيطرة على الحيــاة الاجتماعية فى مختلف جوانبها . هــذه السيطرة يمكن أن نقول بأنها قد انتهت بعقد ميثاق الحلف المقدس الذى قاد توقيعه لويس الثامن عشر . وهو العقد الذى جاء فى أحد بنوده (أن الأمة المســيحية ، وكذلك الذين يشــكلون مع شــعوبها أحد اجزائها ، ليس لهم سيد سوى ذلك الذى يملك وحده القوة ، لأن به وحده توجد جميع كنوز المحبة والعلم والحكمة اللامتناهية ، التى ترجع الله ، مخلصنا الالهى يسوع المسيح ، كلمة الله العليــا ، وكلام الحيــاة) ... يؤكد ذلك ما ذهبت اليه المــادة الخامسة من القانون الأساسى الذى أصدره لويس الثامن عشر أن (لكل فرد أن يمارس حريته الدينية بصورة متساوية وله أن يحصل على نفس قدر الحماية لعبادته) (٦٧) .

وكرد فعل لذلك نجد أن البابا بيوس الســابع يهاجم هــذا القانون الأساسى قبل صــدوره قائلا (أن اقرار حرية جميع العبادات دون تمييز ، يعنى أنهم يمزجون الحقيقة بالخطأ . ويضعون زوجة المسيح المقدســة الطاهرة — الكنيســة — التى لا يمكن وجود خلاص خارجها فى نفس صف طوائف الهرطقة أو اليهودية الغادرة . وفضلا عن ذلك ، فان وعد — الموقعين على هــذا الميثاق — بالعطف على طوائف الهرطقة ورؤسائها ومساندتها

بل ضلالهم ايضـــا) .

يعنى أن هـــؤلاء الملـــوك لا يتســـاهلون أو يكرمون اشـــخاصهم فحسب

ويتابع بيوس هجومه مسفها حرية الصحافة التى ساندت ذلك قائلا (انها الحـــرية التى تهـــدد الايمـــان والاخلاق بأكبر الاخطار وبالخراب المؤكد) (٦٨) . ثم يتابع ليون الثالث عشر الهجوم فى منشـــوره البابوى فى ١٨٨٨ قائلا (أن تقديم هـــذه الحرية ــ حرية العبادات استنادا الى المبدأ الذى يبيح لكل فرد اعتناق اى دين يشـــاء ، او لا يعتنق اى دين ــ التى نتحدث عنها الى الانســـان يعنى منحه القدرة على افســـاد أقدس الواجبات دون أن يناله اى عقاب ، بل على أن يتخلى عن هـــذا الواجب ، مهملا الخير الدائم لكى يتجه الى الشر بدلا من ذلك . هـــذا الأمر ليس حرية ولكنه افســـاد للحرية وعبودية للنفس والهبوط بها الى مســـتوى دناءة الخطيئـــة) (٦٩) .

ذلك يعنى أن المطالبة بالحرية الدينية التى تبدأ من اعتناق الفرد لأى دين يشبع حاجاته الروحية وحتى رفضه الاعتقاد الدينى كلية ، اى الالحاد ، كانت الطلقة الأولى التى أطلقها المعســـكر المبشر بالعلمانية فى وجـــه جمود الكنيســـة واصرارها على التدين من خلال طريقة محددة .

٢ ــ وتشكل الدعوة الى حرية التفكير ، وقبل ذلك حرية التعليم الطلقة الثانية فى هـــذا الاطار . حيث كانت هـــذه الحرية أيضا مجالا للصراع بين بابوات الكنيســـة ومن سار على طريقهم ، وبين جماعة من المفكرين الأحرار الذين تحملوا ريادة قيادة معركة تحرير التعليم والتفكير العلمى .

وتبدأ المعركة من مواصلة البابا ليون الثالث عشر فى ذات المنشـــور البابوى الصادرة فى ١٨٨٨ هجومه حتى يصل الى رفض حرية التعليم كما رفض حرية الأديان سابقا . حيث ذهب قائلا أنه (لهذا السبب وجب أن يكون الموضوع مقصورا على الأشـــياء الحقيقية . ومن الراهن اذا أن الحرية بادعاء حق تعليم كل شيئـــا وفقا لمـــا تذهب اليه الاهواء ، يعتبر تناقضا واضحا مع العقل ، هـــذه الحرية لتخلق انقلابا كاملا فى النفوس ، ولا تستطيع

السلطة العامة فى المجتمع أن تمنح حرية كهذه فى المجتمع الا اذا كان ذلك على حساب احتقارها لواجباتها) (٧٠) .

ولا نستطيع القول بأن هذه المعركة قد شنها بابوات الكنيسة وحدهم ، بل ساعدهم فى ذلك مفكرين انبروا فى مناصرة هذا الموقف ، وهم مجموعة المفكرين لذين أدانوا بشدة مبادىء حرية التفكير ، معتبرين أياها (عصيانا ضد الله) . وفقا لتعبير جوزيف دى ميستير (*) .

غير أنه فى مقابل ذلك قام فريق من المفكرين الآخرين الذين شجعوا على تبنى موقف مضاد . هذا الموقف قاده مفكرين انقسموا الى ثلاث جماعات .

أما الجماعات الأولى فقد هاجمت مبدأ الكاثوليكية ذاتة وبعض المعتقدات الأساسية المرتبطة . بينما نجد أن الجماعة الثانية ، وهى المسماه بجماعة مفكرى الوحى ، هذه الجماعة وان هاجمت الكاثوليكية ، غير أنها حافظت على الاعتقاد بكائن أسمى يمجدون فيه العدالة والمحبة . ويعبر عن ذلك فيكتور هوجو الذى قال فى صراعة ضد الأكليروس (أيها الكاهن ، اننى انا المؤمن وأنت الكافر) (*) هذا فى حين قامت الجماعة الثالثة بمهاجمة افكار الكنيسة فيما يتعلق بالحرية ، وبرغم أنهم قد هاجموا عددا كبيرا من معتقداتها ، الا أنها حافظت على نوع من التعاطف مع المسيحية ذاتها .

(*) ناصر هذا الموقف أيضا مفكرين مثل دى بونالد ، ومونتالميرت ، اوزانان لاكوردير ، فيو ، دوبانكوب .

(*) من هؤلاء سان سيمون الذى قال (ان الدين الموحى به ينبغى أن يخلى مكانه للعلم . وأوجست كونت الذى أطلق قانون الحالات الثلاث (حيث تسير الانسانية من الحالة اللاهوتية الغيبية الى الميتافيزيقية ، وينبغى أن تسير الأخيرة الى الوضعية) وبرودون الذى قال (أن الكاثوليكية قد أصابها التلف منذ عهد الاصلاح) ثم أعلن عن (الاختفاء القريب للدين) والدارونيون الذين لم يهاجموا الدين مباشرة ، نظرياتهم الثورية أصابت سفر التكوين (٧١) .

ويمكن القول بأن هـذه الجماعات قد اسهمت في اضعاف مكانة الدين ، خاصـة التنظيمات الكنسـية ، لصالح الفكر غير الدينى ، يؤكد ذلك خطاب فيكتور هوجو الشـهير الذى أصبح دستوراً للحرية ، حينما اشتكى هوجو من النزعة الاكليريكية قائلا (ان تاريخها مكتوب فى تاريخ التقـدم البشرى ، ولكنه مكتوب على القفا ... انها هى التى جعلت برينللى يضرب بالقضبان لمجرد أنه قال ان النجوم لن تسقط . وهى التى عرضت كامبانللا للتعذيب لأنه أكد أن عدد العوالم غير محدود واستشف الخليقه . وهى التى اضطهدت هارفى لأنه أثبت دوران الدم . وباسم يسوغ بن نون سجنت جاليليو ، وباسم القديس بولس سجن كريستوف كولمب ، لقد كان اكتشاف السماء يعتبر كفرا ، واكتشاف عالم معناه هرطقه . وهى التى أدانت باسكال باسم الدين ، ومنتانى باسم الأخلاق وموليير باسم الدين والأخلاق معا . ثم قال هوجو (أتريدون أن أقول لكم ما الذى يزعجكم ؟ ... انها تلك انه ذلك القدر الكبير من نور الحرية التى استخلصتها فرنسا منـذ ثلاثة قرون ، نور مصنوع من العقل ، نور هو اليوم أكثر تألقا من أى وقت مضى ، نور يجعل من الأمة الفرنسية الأمة المستنيرة بحيث يشـاهد ضياء فرنسا على وجه جميع شـعوب الكون (٧٢) .

٣ ـ ويعتبر البحث عن مصـدر جديد لشرعية الدولة أحد العوامل الاساسية التى دفعت الى ظهور العلمانية ونموها . واذا كانت الكنيسـة هى التى تهب الشرعية فى اطار النظام الاقطاعى ، فان قيامها بهذا الدور كان مبررا لسمو مكانتها ، على بقية التكوينات الاجتماعية الأخرى . الا أنه بعد انفصال الدولة عن الدين ، فان نظرية الحق الالهى فى الحكم لم تعد النظرية الملائمة لتبرير مشروعية السلطة ، ومن ثم وجدنا مفكرا مثل توماس هوبز يقدم نظرية للشرعية يسـتند فيها الى القانون الطبيعى والعقـد الاجتمـاعى لتبرير هـذه الشرعية . ولم يتوقف الأمر عند هـذا الحد ، بل تحرك الفكر خلال هـذه المرحلة لاتخاذ موقف أخضع من خلاله الكنيسـة ونظامها الاجتماعى وأيديولوجيتها المتمثلة فى الديانة المسيحية لنقد صارم ،

وذلك فى محاولة لتحديد علاقة الكنيســـة بالنظام الاجتماعى الذى ينبغى أن يكون (٧٣) .

وفى هذا الاطار تكشف الأفكار النقدية لهذه المرحلة عن الدور الذى لعبته الكنيســـة الكاثوليكية فى تأسيس حالة من الجمود الثقافى والاجتماعى والسياسى ، ومن ثم شكلت عائق أمام التطور الاجتماعى ، وذلك نظـــرا لانحراف التفسيرات الكنســـية عن الأصـــول النقية للديانة المسيحية . وهو الموقف الذى طرح مشروعية الاصلاح الدينى ... هـــذا بالاضافة الى رفض حرفة القساوسة ذاتها ، وانكار الحاجة الى وسائط بين الانسان والله ... هـــذا الى جانب الهجوم على أية صفات خارقة يحاول القساوسة ادعائها كالالهام ، والوحى . وفى هـــذا الاطار نجد أن توماس هوبز وان اعتقد فى المسيحية الا أنه يرفض الاعتقاد فى الكنيســـة باعتبارها محكمة الله فى الأرض . ومن ثم ينفى أن تكون لها ســـلطة الى جانب ســـلطة الدولة (٧٤) . ومن ثم فاذا كانت القرون الوسطى قد شهدت تبعية ســـلطة الدولة لسلطة الكنيسة فيما يتعلق بمباشرة أمور المجتمع ، فانه كان منطقيا أن تصبح هـــذه التبعية موضع حوار وجدل ، ينتهى الى نتيجة يعبر عنها هوبز حينما يذهب مؤكدا على ضرورة أن تمارس الدولة سيطرة على عقول الأفراد ، لأن الديانة ما زالت تمتلك هـــذه السيطرة . ثم يذهب الى ضرورة ان يتحكم رئيس الدولة فى الحياة الدينية للبشر ، وهو الأمر الذى يعنى أن هوبز كان يؤكد على تبعية الكنيسة للدولة باعتبارها علاقة ملائمة للمناخ العقلى الجديد ... وبصورة حاسمة يؤكد هوبز على ضرورة أن تصـــبح الكنيســـة بالنسبة للدولة مؤسسة كأى المؤسسات الأخرى ، ومن ثم تفقد تميزها عن الدولة . ثم يذهب الى القول بأنه اذا كانت وظيفة الكنيســـة أن تعلم البشر أمور دينهم ، فان هـــذا التعليم لا يصبح مشروعا بدون أن تقره ســـلطة الدولة (٧٥) .

٤ ـــ ويعتبر نمو التفكير العلمى أحـــد العناصر الأساسية التى أسهمت فى تطور التفكير العلمانى . حيث خضع التفكير الأوربى خـــلال ثلاثة قرون

كاملة بدأت بالقرن السادس عشر وانتهت بالقرن الثامن عشر لحالة من اعادة الترتيب ، أو الصياغة لعناصره الرئيسية . هـذا الى جانب أن هـذه المرحلة قد شهدت مجموعة من التطورات التى وقعت فى المجال الفكرى . فمن ناحية حدث رفض للاتجاه الثيولوجى لصالح تأسيس التفكير العلمى والعقلى ، والانتقال من خلال الثورة والشك من مرحلة الثيولوجيات الغيبية الى مرحلة جديدة يتم فى اطارها اعمال المقولات الفكرية ، فلسفية كانت أم عملية ، لادراك وفهم النظام الاجتماعى ، وذلك لهدف تغييره واعادة صياغته وترتيب عناصره .

وتتمثل الخطوة التالية فى هـذا الاتجاه فى قيام النزعة الامبيريقية المستندة الى الاستقراء العلمى . وذلك لكى تحل محل الاتجاه العقلى المستند الى النقد والشك الفلسفى (٧٦) . بحيث يمكن القول بأنه قد حدث تطور ملحوظ فى هـذا الصدد انتقل من خلاله فهم وادراك الحقيقة من الاطار الدينى ، الى ادراكها بالنظر الى الادراك العقلى (الفلسفات المختلفة) ثم الى ادراكها بالنظر الى مقولات علمية تشكل تصورا متكاملا عن الواقع ، بحيث تشكل المعطيات الدافعية أساسا لهذا التصور .

٥ — وتعتبر الكشوف الجغرافية من العوامل الأساسية التى ساعدت على نمو التفكير العقلانى ، ومن ثم دعم موقف العلمانية . ذلك أن هـذه الكشوف أكدت أن ثمة عالما موجودا ، أو نظاما قائما لم تبشر به الأفكار الدينية ذلك أنه حينما اكتشف كريستوف كولمبس أمريكا لم يفكر لحظة فى الفلسفة التومائية ، ولم يكن ينتوى لحظة محاربتها ، ومع ذلك فقد وجه اليها ضربة قاسية . واذا كانت فلسفة أرسطو ، والأفكار الدينية الموروثة عن التوراة والانجيل قد شكلت اطار المعرفة الانسانية فى مرحلة سابقة ، هـذه المعرفة التى كان يعتقد بأنها معرفة كلية ، نجد أن هـذه المعرفة برغم ذلك لم تدرك ان كانت أمريكا موجودة أم لا . كذلك لم تخبرهم الكنيسة وأفكارها عن وجود بلاد واسعة بين أوربا الغربية والصين . وظهرت تساؤلات غطت هـذه المرحلة . هل المعرفة الربانية على خطأ ؟ وما هو موقع

ســكان هذه المجتمعات من قضــية الايمان ؟ وبطبيعة الحال فان الرحلة التى بدأها كريستوف كولبس استكملها فاسكو دى جاما الذى ســاهم فى اكتشاف الهند والصين (٧٧) .

اما الضربة الثانية فقد وجهها علم الفلك ، وذلك حينما أثبت العالم البولونى كوبرنيكس فى عام ١٥٤٣ أن الأرض ليست تركزاً ثابتاً للعالم كما هو معتقد ، وانما هى تدور حول نفســها بدورانها حول الشمس . مع أن الشمس على ما تذهب التوراة هى التى تدور حول الأرض . والدليل على ذلك أن يسوع (بن نون) قد أوقفها عن المسير . فهل يمكن أن تكون التوراة مخطئة ؟ ... لقد تجنب كوبرنيكس بحث هــذه القضية ومات متمتعا بسلام الكنيســة غير أنه ترك قنابل أكثر خطر وقابلة للتفجر فى أى لحظة (٧٨) .

وأيا كانت طبيعة العوامل التى شاركت فى نمو العلمانية فالنتيجة المحتمة أنه قد حدثت مناقشــة أساسية لدفع كل من الدين والعلم باعتبارها أنساقا فكرية أو مناخات عقلية بديلة عبر التطور التاريخى ، مع عــدم امكانية للتعايش أو التزامن بينهما ، فى هــذا الصدد وجدنا أن الايمان بالتعميمات العلمية المحددة عن الواقع هى أساس العلم . وأن الوصــول اليها يتم استقرائيا من خلال الايمان بمقولات الحرية الفكرية ، والعقل كطريق لادراك الواقع ، وأن المعطاة الواقعية هى الوحدة الأساسية لبناء القانون الذى يحكم الحياة . هــذا التفكير يفترض الايمان أيضا بنسبية الحقيقة العلمية — على خلاف اطلاق الحقيقة الدينية — ويفترض أيضا أن الانســان العارف هو ســيد عالمه ، يحاول ادراك الطبيعة المحيطة به لكى يغيرها بما يلائم معيشته فى اطارها . ذلك يعنى أن الانســان سيدا للطبيعة فى مقابل الفكير الدينى الذى يعتبره تابعا لها ، وهو أحــد مكوناتها ومن ثم فهو امتدادا لها . ذلك يعنى انتصار العلمانية من خلال التأكيد على الأســاس المــادى للمعرفة ، واعتبار ذلك المدخل الوحيد للمعركة ذات الطبيعــة العقلانية أو الرشــيدة .

(جـ) وفيما يتعلق بانتقال العلمانية ــ بعد اكتمالها فى أوربا ــ الى مستعمرات العالم الثالث ، ومنها الشرق الاسلامى ، فانه يمكن القول بأنه قد اتبعت عــدة آليات أساسية للوصـــول بها الى هــذه المناطق . على أننا ينبغى أن نذكر مرة أخرى ، ان العلمانية كالدولة ، كان انتقالها أكثر يسرا وســـهولة الى المجتمعات التى تفتقد الأبعاد الحضارية بينما ضاق نطاقها أو وجهت بعناد كبير من قبل المجتمعات ذات الأبعاد الحضارية أو التى تمتلك منطقا مختلفا من التفكير . نجد أنه كانت طبيعة رد الفعل الحضارى الذى قدمته المجتمعات المســتقبلة ، فالمؤكد أن الانتقال تم من خــلال الآليات الأساسية التاليـــة :

(ا) ويشـــكل الاستعمار بموجاته وقواه واتجاهاته المتعددة أول هذه الآليات . ومن الطبيعى أنه اذا كانت الكشوف الجغرافية شكلت الاستعلام الخارجى للمجتمعات غير الأوربية فى القرن الرابع عشر ، فان أوربا ابتداء من القرن الثامن عشر شاركت فى تأسيس حركة استعمارية واسعة النطاق . امتدت الى معظم مجتمعات آســيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية . حقيقة أن الهدف الأساس من الاستعمار كان هدفا اقتصاديا أو دفاعيا أساسا ، الا أنه لكى تتحقق هــذه الأهــداف ، كان من الضرورى خلق قاعدة من التجانس بين البلد المستعمر والمستعمر ، حتى تنساب المدخلات والمخرجات بينهما بلا عقبات أو صعوبة . ومن الطبيعى أن تكون الثقافة الحديثة ، واللغــة المستعمرة هى الوسائل الأساسية لخلق قاعدة التجانس هذه .

ومن الطبيعى أن نذكر فى هذا الصدد أن القوى المستعمرة دأبت على خلق قوى أو قواعد محلية تستوعب ثقافتها العلمانية ، وتكون قادرة ــ بحكم المراكز التى منحت لها ــ على التبشير أو الترويج لهذه الثقافة . ومن الطبيعى أن يكون أبناء الارستقراطية أو البرجوازية المحلية هم العنصر الجوهرى فى هــذه القوى . ويرتبط بذلك ما تفعله ارساليات البعثات التبشرية التى انطلقت فى موجات عاتية مرتبطة بالمد الاستعمارى ، تحاول بالأساس أن تنشر المسيحية بين أبناء العالم المتخلف ، فان لم يكن فعلى

الأقل نشر الثقافة التى توجد مرتكزاتها فى اطار المسيحية ذاتها . بحيث اسلمت هـذه الحركة الاستعمارية والتبشيرية الى خلق ملونين يتحدثون الانجليزية والفرنسية كأهلها تماما على ما يذهب البعض .

ذلك يعنى أن ثمة تبعية مقصودة كان من الضرورى فرضها — تاريخيا — على العالم الثالث والشرق الاسلامى ، بحيث أن هـذه التبعية سوف تتأكد من خلال اعادة صياغة هـذه المجتمعات حسب المفاهيم الأوروبية ، وهو الأمر الذى يحيلها الى مجرد هوامش ثقافية للمراكز الأوربية . هـذا الى جانب أن ذلك يحرمها من تطوير آية توجهات حضارية مستقلة تختلف عن ما هو موجود فى الغرب . حيث أنها اذا امتلكت مصادر القوة ذات يوم ، فانها قد تتحول الى مصدر لتهديد الحضارة الغربية .

ويكشف استقراء هجوم القوى الغربية على العالم الاسـلامى — كأحد تجمعات العالم الثالث عن تبنيها لعدة أهداف أساسية . فهناك من ناحيـة الهدف التجارى ، وهـو الدافع الذى كان واضـحا تاريخيا من خلال الحرب الصـليبية التى لبست غلالة الدين وبخاصة بالنسبـة للايطاليين الذين قدموا من جنوه وفينيسيا . بالاضافة الى ذلك كانت هنـاك الدوافع المـالية مثل تحصيل الديون ، وهى الدوافع التى لعبت دورا أساسيا فى الأحداث التى أدت الى احتلال بريطانيا لمصر . وأيضا فى غزو الفرنسيين لكل من تونس ومراكش . حيث شجع الدائنون الغربيون الحكام الضعفاء على الانفاق ببذخ على ترف لا قيمة له (*) ، هذا الى جانب أن هـذه المجتمعات كانت تقع على الطريق الى الهند (جوهرة التاج البريطانى) . والتى كانت تعنى بالنسبة لبريطانيا ضرورة احكام قبضتها على مصر ، عدن ، العراق ، والخليج العربى . ثم هناك الدفاع عن الهند ضد الروس فى الشمال

(*) مثال على ذلك بناء المركبات الفاخرة لحكام المغرب العربى ، بينما لا تمتلك مجتمعاتهم الطرق الملائمة لكى تسير عليها هذه المركبات . وما زال هناك استمرارا لهذا التقليد حينما يفرض منتجوا السلاح الأسلحة المتقدمة والباهظة الثمن على الحكام العرب والايرانيين ، وهى الأسلحة التى قد لا تستطيع القوة المسلحة لهذه المجتمعات استخدامها بكفاءة وفعالية .

الغربى ومن هنا نجد مبررا للحروب الأفغانية ، بالاضافة الى أنه ينبغى السيطرة على الطريق الى أفغانستان ، وهو الطريق الذى يجرى عبر بلوشستان ، والطريق الى بلوشستان عبر السند التى ينبغى الاستيلاء عليها أيضا .. وهكذا كان الأمر بالنسبة لكل قوى القارة الأوروبية ، وبخاصة فرنسا وبروسيا وايطاليا وألمـــانيا (٧٩) . وفى كل هذه المجتمعات كانت القوى الأوروبية تمارس السلطة مباشرة . أو من خلال وكلائها المحليين ، غير أن ممارسة السلطة كانت تتم على الطريقة الغربية أساسا ، ولنجاحها ينبغى التوسع فى نشر الثقافة الغربية وتأكيد غلبتها على الثقافات المحلية . خلاصة القول أننا يمكن أن نسمى هذه الفترة بفترة فرض المفاهيم الغربية بالقـــوة .

٢ ــ وتبدأ الآلية الثانية حينما أصبح فرض التبعية الثقافية بالقوة العسكرية منطقا غير مستساغا ولا يلقى الترحيب . ومن ثم بدأ الهجوم الحقيقى ــ من قبل القوى الاستعمارية ــ على عقل الأمة فى هذه المجتمعات . بحيث سبقت هذه المرحلة مرحلة من الاهتمام الاستشراقى الذى ركز على دراسة اللغة والدين والثقافة والتاريخ والحياة الاجتماعية وأساليب التفكير الخاصة بشعوب هذه المجتمعات . ويمكن القول بأنه حتى عام ١٩٥٥ تقريبا كان ٩٩٪ من المؤلفات المتعلقة بالاسلام كتبها دارسون غربيون . وبرغم أننا لا نستطيع ادانتهم على ذلك ، الا أننا ننظر بقدر من الشك الى هـــذا الاهتمام المكثف والغريب (٨٠) .

واذا كان الهدف هو اعادة صياغة عقلية الأمة فان التعليم والنظـــام التعليمى سوف يكون الطريق المباشر الى ذلك . ذلك يبرر خضوع التعليم فى مستعمرات العالم الثالث والمجتمعات الاسلامية لعملية تعديل كاملة . واذا كان التبشير قد حقق نجاحات لا تذكر فى المجتمعات الاسلامية ، فان التعليم كان هو المجال الوحيد الذى حقق من خلاله الحكم الاســـتعمارى نجاحا واضحا فى اطار هذه المجتمعات . ذلك أن الحكام الأجانب قد حاولوا عن وعى كامل أن يقدموا قدرا متدنيا من التعليم داخل هذه المجتمعات .

أو أن يقدموا نوعا من التعليم السىء ، أو أن يقدموا نظاما تعليميا يساعد على خلق انفصام أو انشقاق فى روح الأمة . هذا الى جانب العمل على قتل أية نظم أو جهود تعليمية تساعد فى الحفاظ على الهوية التراثية للأمة .

واستنادا الى ذلك يمكن القول بأن القوى الاستعمارية قد بذلت جهودا واضحة لتغريب التعليم فى هذه المجتمعات . فمثلا قبل الغزو الفرنسى للجزائر كان يسودها نظام تعليمى فعال له طابعة الاسلامى التقليدى من المستوى الابتدائى وحتى المستويات العليا ، وفى هذا الاطار ازدهرت الدراسات الاسلامية والعربية . وقد كانت نفس حالة التعليم فى تونس ، حيث المدارس الاسلامية التقليدية على رأسها جامعتى الزيتونة والقيروان . غير أنه بعد احتلال الجزائر فى ١٨٣٠ أسس الفرنسيون نظامين للتعليم . أحدهما ينتمى الى الخارج تماما — فرنسا — يلتحق به أبناء المستعمرين الفرنسيين والآخر يلتحق به الأطفال الجزائريون (أو الفرنسيون المسلمون) . بحيث يتبع هذا التعليم المناهج الفرنسية . ويستخدم اللغة الفرنسية كوسيلة للتعليم . أما اللغة العربية فتعتبر لغة أجنبية . هذا الى جانب اباحة المدارس التبشيرية . وفى ذات الوقت نجد أن المدارس التقليدية لم تتلق أى دعم مالى ، ومن ثم بدأت فى الانهيار والاختفاء . وبعد خمسين سنة من الاحتلال بلغ عدد الأطفال الجزائريين فى المدارس الفرنسية المسلمة نحو ثلاثة آلاف تلميذ ، أما فى المدارس الفرنسية نجد أنه بعد أربعين سنة من الاحتلال بلغ عدد الأطفال الجزائريين المسلمين فى المستوى الابتدائى نحو ١٥٠٠٠ جزائرى مسلم من بين ٥٧٠٠٠ تلميذ ، بينما فى المستوى الثانوى بلغ نحو ٢٢٦ تلميذ من ألفين . وحتى قامت الثورة فى ١٩٥٤ كان عشر الأطفال فى التعليم الأولى فقط من الجزائريين (٨١) .

وفى المغرب كانت الفرنسية هى لغة التعليم الوحيدة سواء فى نظام التعليم الفرنسى أو الاسلامى . والأمر الخطير أن الاستعمار حاول أن يخلق فجوة بين العرب والبربر بتأسيس نظام للتعليم البربرى باللغة الفرنسية ،

حيث كانت تستخدم فيه بعض اللهجات البربرية . بل اننا نجد أن الجنرال الفرنسى والحاكم الادارى يذهب الى القول (تعتبر العربية احد العوامل التى تدعم الاسلام لأنها لغة القرآن ، وأن من مصلحتنا أن نجعل العرب يتطوروا أو ينشأوا خارج نطاق عمل الاسلام) .

وما حدث فى الجزائر والمغرب حدث فى تونس ، فحتى بعد الحرب العالمية الثانية ، حينما تمت بعض الاصلاحات فى نظام التعليم ، فاننا نجد أن المدارس التى غطاها الاصلاح خضعت للاشراف الرسمى ، بحيث صرفت لها المساعدات ، فى مقابل أنه طلب منها أن تعلم بالفرنسية التى أعتبرت لغة التعليم الوحيدة (٨٢) .

وحينما احتلت بريطانيا مصر فى ١٨٨٠ كان هناك الى جانب عدد محدود من مدارس التعليم الحديث ، نظاما تعليميا تقليديا يضم ٥٠٠٠ مدرسة ، وكان بالأزهر وحدة ٨٠٠٠٠ طالب ، ٣٠٠ أستاذ أو مدرس . وقد اقترح الموظفون البريطانيون فى ١٨٨٣ أن اللغة العربية ينبغى أن تكون هى لغة التعليم العام والكلاسيكى — فى النظام التعليمى الرسمى — ، بيد أنه الى جانب هذا الاقتراح الثورى قدم البريطانيون الانجليزية كلغة فى مستوى التعليم الابتدائى . هذا الى جانب أنه قد تم تجاهل النظام التعليمى التقليدى لخمسة عشر سنة ، حتى قدمت له المساعدات فى مقابل الاشراف الرسمى عليه . وفى هذا الصدد نذكر أن اللورد كرومر وقف ضد أى محاولة لتأسيس الجامعة المصرية حينما قال أنها سوف تصبح (مصنعا لانتاج الديما جوجيا) وهى الجامعة التى أستكمل تأسيسها فى ١٩٠٧ . حينما حصلت مصر على استقلالها بموجب معاهدة ١٩٢٣ أصبح لديها قطاعا تعليما حديثا به أكثر من ١٠ مدارس ثانوية تضم ٣٨٠٠ تلميذ (من بينهم ٤٣ فتاة) (٨٣) .

وفى السودان تأسس نظاما تعليميا منفصلا كان جزءا من نظام العزل الذى فرضه البريطانيون على جنوب السودان . حيث منح المبشرين من اتباع الكنيسة الرومانية والانجيليكانية ، وغيرها من الطوائف المسيحية السيطرة الكاملة على النظام التعليمى ، كل منها داخل نطاق قطاع معين . وبرغم

تباين جنسيات هذه الطوائف فاننا نجدها قد قدمت ذات النظام التعليمى .
حيث كان التدريس فى المستوى التعليمى الادنى يتم بواسطة اللهجات القبلية
المكتوبة بالحروف اللاتينية ، بينما كان التعليم يتم فى المستويات الأعلى
باستخدام اللغة الانجليزية . وقد كان الهدف الرئيسى من ذلك توفير نظام
تعليمى يستمر الى نحو ٤ سنوات فى المستوى الابتدائى لتخريج صغار
الكتبة والمستخدمين الحكوميين ، ونتيجة لذلك أنه حتى ١٩٢٠ كانت هنـــاك
احدى عشر مدرسة أولية فى كل المنطقة ، وظل هذا العدد كما هو لعشرين
سنة تالية . وقد كانت كلية جوردون بالخرطوم هى المعهد العالى الوحيد
فى السودان . وكان التعليم بها يتم باللغة الانجليزية ، ماعدا تعليم اللغة
العربية والموضوعات الاسلامية (٨٤) .

وبالنسبة لسوريا ولبنان نجـــد انه بمجرد حصول فرنســـا على حق
الانتداب من قبل عصبة الأمم ، نجدها قد فعلت نفس الشىء الذى فعلته
فى الجزائر منذ ٩٠ عاما . فقد اسست فرنسا فى لبنان نظاما تعليميا شاملا
للمرحلة الأولية والثانوية يتولى التعليم فيه المبشرون الفرنسيون والبريطانيون
والأمريكيون . بالاضافة الى ذلك كان هناك عددا محدودا من المدارس الأولية
التابعة للدولة . وقد قدم الفرنسيون نظامهم فى التعليم الأولى ، وقاموا
بتدعيم مدارسهم على حساب مدارس الدولة وبعد خمس سنوات من الحكم
الفرنسى ، اصبحت المدارس منقسمة الى قسمين ، برغم أن اللغة الفرنسية
كانت لغة التعليم فى كل المدارس . الى جانب ذلك لم تحاول فرنسا تأسيس
مدارس ثانوية تابعة للدولة . حيث كان على اللبنانيين الذين يرغبون تحصيل
هذا المستوى التعليمى أن يذهبوا الى فرنسا او ان يلتحقوا بالمدارس الخاصة.
ولانه قد كانت هناك كليات فرنسية وانجليزية قائمة لم تكن هناك حاجة الى
جامعة قومية ، وقد حدث فى سوريا الشىء القريب من ذلك الى حد كبير (٨٥) .
وتشير التقارير فيما يتعلق بالتعليم فى ليبيا انه قد حدث نفس الشىء
الذى فعلته فرنسا فى البلاد التى احتلتها ، وحسب نفس المبادىء تقريبا .
حيث اهمل التعليم القومى ، وتمت صياغة التعليم حسب النظم الايطالية . وكما

اكد احـــد وزراء الاستعمار الايطالى ذلك بقوله (أنه قد حـــدث تقـــدم من حيث التغلغل الفعال للروح واللغة الايطالية فى عقول السكان الأصليين) ، وان كان هذا التغلغل لم يتم استئصاله بكفاءة حتى الآن [٨٦] .

وقد أنجز الهولنديون نفس التصرفات حينما احتلوا اندونيسيا ، وان كانوا اكثر ليبرالية من القوى الاستعمارية الأخرى . فقد تركوا النظـــام التعليمى التقليدى كما هو دون مساس به . وذلك لسببين ، الأول أن التعليم التقليدى كان بناء متكاملا فى اندونيسيا هذا الى جانب أنه كان جزءا من الحياة اليومية للبشر ، ومن ثم كان من الصعب القضاء عليه ، فقد كانت بكل قرية مدرسة يدعمها اهل المجتمع المحلى . بينما يتمثل السبب الثانى فى مضمون التعليم حيث كان تعليما دينيا بالأساس ، يستمر لمدة أربعة أو خمســـة أعوام تقريبا ، وكان الدين هو الدين الاسلامى . ومن الطبيعى أن هذه كانت مسألة حساسة للغاية ، فالأندونيسى قد يكون طيعا فى كل شىء لكنه يتحول الى وحش مفترس اذا اقترب أحد من ديانته .

الى جانب ذلك أسس الهولنديون ـــ مثل كل المستعمرين الآخرين ـــ نظاما تعليميا آخر حسب التعليم الهولندى ذاته . لكنهم لم يجعلوا اللغـــة الهولندية هى لغة التعليم على المستوى الأولى ولكن على المستوى الثانوى فقط . هذا الى جانب تأسيس عدد قليل من المدارس العليا التى كانت تقبل ابناء الطبقة الارستقراطية فقط . وفى ١٩٤٠ بلغ عدد التلاميذ فى المدارس الثانوية العليا نحو ٥٧٠٠ تلميذ منهم ١٧٠٠ فقط من الأندونيسيين . وقد كان هدف التعليم ، كأى تعليم استعمارى ، هو توفير فئة من موظفى الادارة . وفى ١٩٢٨ نجد أن ٦٠٪ من خريجى المدارس الاندونيسية العليا قد التحقوا بالخدمة الحكومية . غير أننا نجد أن الأندونيسيين كانوا على وعى بأهمية تأسيس تعليم قومى . ومن ثم فقد ناضلوا من أجل بناء نظام تعليمى قومى وعلمانى يعادل التعليم الهولندى ، برغم فرض المستعمرين لقيود كثيرة عليهم . بحيث اتسع هذا النظام فى ١٩٣١ ليشمل كل أنماط التعليم (٨٧) .

٣ ـــ ويعتبر التحديث هو الآلية الثالثة التى انتقلت عبرها العلمانية

من أوروبا الى الشرق . واذا تلنا التحديث على هذا النحو فانه يصبح من الواضح أننا نقصد عملية تاريخية طويلة تتضمن من مستويات عديدة من التغير ، وان لم يسود بينهما الانسجام على الدوام . وفى هذا الصدد فاننا نسمى هذا التغير بالتحديث . ونقصد به عملية التغير الاجتماعى الشاملة التى يفرض من خلالها على القرى ذات الروابط أو العلاقات التقليدية ، أو المجتمعات المستندة الى الأساس القبلى أن تستجيب لضغوط ومتطلبات المراكز الحضرية فى العالم الصناعية والحديثة . ويمكن لنا أن نسمى هذه العملية بالتغريب ، أو ببساطة التقدم والتطور . ومع ذلك ، فاننا اذا رغبنا توخى الدقة فان علينا أن نسمى هذه العملية بعملية انتشار الثقافة العالمية ، التى تستند الى التكنولوجيا المتقدمة وروح العلم الحديث ، وعلى النظرة الرشيدة للحياة ، والمدخل العلمانى الى العلاقات الاجتماعية ، والاحساس بالعدالة فيما يتعلق بالشئون العامة . وقبل كل شىء الموافقة فى النطاق السياسى على عقيدة أنه ينبغى أن تكون دولة الأمة هى الوحدة الأساسية فى النظام العالمى (٨٨) .

استخلاصا مما سبق نرى العلمانية كما ظهرت فى اطار المجتمع الاوروبى بداءة ، وكما انتقلت من أوروبا الى العالم الثالث والعالم الاسلامى تميزت بعدة خصائص أساسية نذكر بعضها فيما يلى :

١ — أول هذه الخواص أن العلمانية تمثل نموذجا من التفكير يختلف الى حد كبير عن التفكير الدينى أو الثيولوجى . وأن التحول الى التفكير العلمانى فرضته ظروف واقعية وفكرية كثيرة . أبرزها ظهور الدولة القومية وانفصالها عن الدين ، وأيضا الايمان بالعقل الانسانى والقوانين التى يصل اليها كأساس للتطور أو التقدم . ولقد تطلب ذلك بطبيعة الحال تغييرا فى طبيعة النظم التعليمية والعلائقية . وتطلب أيضا تطوير نمط من التفكير ناتجا عن ابداع الانسان وليس قادما اليه من أى مصدر خارجى عنه . وقد ارتضى الانسان تحت تأثير ازدهار العقلانية أن يكون هذا النمط من التفكير هو الذى يحكم واقعه ، وهو الذى يشكل أيضا نظرته الى الحياة .

٢ ــ ان العلمانية وان ظهرت من خلال الحوار الذى انعقد بين المفكرين تعتبر استمرارا لمناخ الاصلاح الدينى ، الذى اكدت بعض طوائفه ــ على ما اشرنا ــ على ضرورة ان يحكم العالم الواقعى او الارضى بقوانين أرضيـــة ايضا . مصدرها المعرفة بالتفاعلات التى تجرى فى اطار هذا الواقع ، وان القول بالعلمانية يعتبر ــ فى جانب منة ــ تأكيدا لأحد اطراف مقولة دينية مقدسة اطلقها السيد المسيح (دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله) .

الاحرار من ناحية ، وبابوات الكنيسة المتزمتون من ناحية اخرى . فانهـا

٣ ــ انه حسب قوانين التطور الفكرى والعقلى من ناحية ، والمجتمعى الواقعى من ناحية أخرى ، تعتبر العلمانية مرحلة جديدة من الرؤية أو النظرة الفكرية التى تتواكب كثيرا مع تطورات واقعية عديدة .. واذا كانت الثيولوجيا الدينية ذات تلائم والوجود الذى يضم الكنيسة المرتفعة المكانة والنظـــام الاجتماعى الاقطاعى الطابع ، فان العلمانية تعتبر تطورا مرتبطا بالكنيسة التابعة للدولة من حيث مكانتها وايضا بالدولة القومية ، وبالبرجوازية التجارية والصناعية الصاعدة المؤكدة على التقدم العلمى والتكنولوجى ، والمشاركة الشعبية الواسعة النطاق .

٤ ــ انه بحكم التقدم الذى حققته القارة الأوروبية فى قلب نظـــام عالمى يسوده التخلف ، وبحكم ان العلمانية هى العنصر الجوهرى فى تقدم القارة الأوروبية . فانه كان من المنطقى ان تسعى القوى الأوروبية الى السيطرة على العالم المحيط بها للتجارة معه او لاستنزاف مواردة .. فى بعض الأحيان غلفت ذلك بالدين ، كالحال فى الحروب الصليبية او فيما يتعلق بجهود التبشير . غير أن القضية الأكثر أهمية ان اوروبا قد اصيبت خلال هذه المرحلة بعقدة او احساس متضخم للتمركز حول الذات . وهو الاحساس التى جعلها تشعر بافضلية نظامها وحضارتها على كل التكوينات المناظرة فى العالم ، ومن ثم فلا بد من السعى نحو اوربة هذا العالم واضفاء الطـــابع الغربى علية .

٥ ــ انه منذ أن تأكدت لأوروبا هذه الحقيقة حدث سعى استعمارى

محموم اختلطت فيه أرباح التجارة ، وأفكار الدين وعقدة حب السيادة . ومن ثم ظهرت المرحلة الامبريالية لفرض النموذج الغربى للدولة والعلمانية . ولم يكن فرض هذا النموذج — الذى تأكد نجاحه فى الغرب — فى اطار المستعمرات حبا لهذه المستعمرات ، بقدر اعتباره مدخلا لاستغلالها وترسيخ تبعيتها . ومن ثم فيمكن النظر الى نشر العلمانية ونموذج الدولة الغربية خارج أوروبا باعتبارها ليست محاولة تنويرية أو تحديثية بقدر ما هى محاولة لتأمين مراكز التقدم والتحديث الاوروبية عن طريق خلق بيئات أو محيطات أو هوامش تشكل خطوط دفاع متتابعة عنها .

٦ — أن نقل هذه الرؤية العلمانية الى خارج اوروبا كان متلائما والسياق التاريخى الذى تحقق فى اطاره . ففى مرحلة مباركة الاستعمار العالمى بالقوة العسكرية ، كان الاستعمار المباشر هو الصيغة الأساسية المتبعة لتأكيد تبنى المجتمع المستعمر لنموذج المجتمع المستعمر من حيث نظامه السياسى أو اسلوب التفكير السائد فيه . وفى المرحلة التالية بعد التغلغل الاستعمارى كان التعليم لخلق صفوة علمانية تكون هى النواة الرائدة التى تتولى فرض النموذج الاوروبى داخل مجتمعاتها ، وفى مرحلة ما بعد الاستقلال كان التحديث هو النظرية التى طرحت لكى تسير المجتمعات المتخلفة عبرها لاكتساب النموذج الغربى ، تنظيما وفكرا .

٧ — انه يمكن اعتبار التعليم اكثر اليات الانتقال فاعلية . وذلك لأنه يتجه بالاساس الى ضرب النظام التعليمى التقليدى وهو النظام المرتبط بالهوية والتراث ، والذى يعمل على احيائه والحفاظ عليه . هذا الى جانب انه على الناحية الايجابية يعتبر الآلية القادرة على اعادة صياغة قطاع عريض من عقلية الامة . اذ عادة ما كان يتم انتقاء الصفوة التى يتم فرض التعليم الغربى عليها من أبناء الشرائح الارستقراطية ، وذلك لأنها الشرائح المؤهل ابناؤها لتولى السلطة فى مجتمعاتها بعد رحيل القوى الاستعمارية . بحيث يخلق تعليمها الحاضر وكالتها للقوى العالمية والاستعمارية فى المستقبل . ولا يمنع بالاضافة الى ذلك ان يتم تعليم ابناء الشرائح الفقيرة مستويات متدنية من التعليم بهدف تأهيلهم لأداء مهام الادارة الاستعمارية خلال هذه المرحلة .

٨ ـــ انه كان من شأن انتقال العلمانية ـــ مثل الدولة ـــ أن تواجه باستجابة متباينة من قبل المستعمرات . فالمستعمرات التى لم يكن لديها بنــاء حضاريا متكاملا يوجـــه تفاعلاتهــا على المستوى الفردى والمجتمعى كان من السهل عليها استيعاب العلمانية بأبعادها المختلفة ، أما المجتمعات التى كانت تمتلك تراثا حضاريا ودينيا يشكل نظرتها ذات الطبيعة الخاصة للحياة ، فقد دخلت فى صدام مع العلمانية والصفوة الممثلة لها ، خاصة بعد أن تمكنت الصفوة التراثية من تجديد ذاتها ، وامتلكت القدرة على التعامل مع المتغيرات الواقعية ـــ المحلية والعالمية ـــ المتغيرة بالنظر الى تصورها الخاص المتصل بهويتهــا .

* * *

ثالثا : دور الصفوة القومية
فى نشر العلمانية والسيطرة على الدين

أشرنا فى الصفحات السابقة الى تمكن الصفوة العلمانية من السيطرة على أسباب القوة عشية استقلال الدولة وهو الامر الذى صادف ـــ تاريخيا ـــ انهيار وضعف الصفوة الدينية خلال هذه الفترة . ومن ثم فقد أصبح الطريق ممهداً أمام الصفوة القومية لنشر العلمانية من أوسع الطرق ، قد يساعدها ضعف الصفوة الدينية فى ذلك . وقد يقف فى مواجهتها أن تعمل مع جماهير ذات توجيهات دينية وتراثية أساسا . غير أن القضية التى ينبغى الاشارة اليها فى هذا الصدد ، انه بينما كان ظهور العلمانية والدولة فى أوروبا انبثاقيا ، أى من داخل الظروف الأوروبية التى استوجبت ذلك ، فان محاولة استنباتهما فى الشرق يعتبر تعبيراً عن تغير مفروض من الخارج . وفى هذه الحالة قد ينجح التغير اذا كانت ثمة ظروف ملائمة تستوجبه ، واذا كانت الوحدات البنائية المفروضة من الخارج تؤدى وظائف يحتاجها البناء القائم ، بغير ذلك سوف يكون التوتر والصراع الذى قد يطول أمده أو يقصر حسب قوى أطراف الصراع ، وامتلاكها لتأييد بنائى من قبل المجتمع . ذلك يعنى أن

انتقال العلمانية الى العالم الاسلامى لا بد أن يكون محكوما بعدة اعتبارات أساسية نذكر بعضها فيما يلى :

١ — أن الصراع التاريخى الذى أدى الى ظهور مفاهيم الدولة والعلمانية كان صراعاً مرحليا ، انتصرت فيه صفوات المستقبل على صفوات الماضى ، أما الصراع فى الشرق فيحتمل دوامة لأنه بين صفوات تمتلك تصورات متناقضة وان امتلك كل منها قدرا من الرشد ، وسوف يحتد الصراع اذا استمرت موازين القوى دقيقة ومتوازية .

٢ — أن مجتمعات الشرق الاسلامى التى وفدت اليها هذه التصورات تمتلك دون معظم مجتمعات العالم الثالث تصورات مقابلة . ومن ثم فالتوتر أو الصراع هنا لن يكون من أجل التكيف ، ولكنه سوف يكون أكثر حدة لأنه سوف يتعلق بفرض تصور على آخر . والأكثر من ذلك أنه صراع بين صفوة تمتلك أسباب القوة لكنها تفرض تصورا غريبا من حيث جذوره البنائية وبين صفوة لا تمتلك أسباب القوة لكنها تمتلك تصوراً له جذوره البنائية والحضارية .

٣ — أن استمرار هذه القوى المتصارعة ، ومن ثم استمرار الصراع بينها سوف يكون له آثاره المدمرة التى قد تساعد على خلق تشوه بنائى قد تعانيه هذه المجتمعات ، أو انخفاض حجم المشاركة من قبل الذين لا ينتمون الى التصور الموجه للتنمية والتقدم ، أو الى تفجر العنف مرحليا حينما يختل التوازن بين القوى المختلفة ، ونتيجة لذلك مزيدا من التمزق للمجتمع ، ومزيدا من تلكؤ التنمية ، ومزيدا من انخفاض الانتاجية ، وانسحابا متزايدا من المشاركة فى دفع التنمية حسب تصور الطرف الآخر .

جوهر القضية اذا أنه قد تم انتقاء الصفوة القومية خلال المرحلة الاستعمارية ، ثم خضعت لنظام التعليم الغربى فأستوعبت العلمانية ، ثم عادت الى مجتمعاتها بعد مذهبتها لتتولى آداء دورها فى اعادة صياغة مجتمعاتها على غرار النموذج الغربى ، أو ما يمكن أن يسمى بالعمل على

نشر العلمانية داخل مجتمعاتها • ويمكننا أن نوضح ذلك من خلال القضايا الأساسية التالية :

١ ــ تشكل خصائص الصفوة القومية .

٢ ــ نشر العلمانية ومحاربة أسس النظام التقليدى •

٣ ــ السيطرة على الدين وتوجيهه لخدمة الدولة القومية •

٤ ــ التحول الذى حدث ، الآثار والاحتمالات .

وسوف نعرض فيما يلى بايجاز لكل من هذه القضايا التى أشرنا اليها :

١ ــ وتعتبر مهمة القيام بتشكيل الصفوة القومية حسب خصائص محددة ، أحد القنوات الاساسية لاختراق العالم الثالث وفرض تبعيته . واذا كان هذا الاختراق قد بدأ مع التعديلات التى تمت للنظام التعليمى فى هذه المجتمعات ، حيث أعيدت الصياغة الفعلية لشريحة عريضة من الشباب ، الذين يشكلون عنصرا من البشر المؤسسين لهذه المجتمعات .. ولكى تنجز القوى الاستعمارية ذلك ، فانها تبنت استراتيجيتين ، الاولى العمل على تحطيم النظم التعليمية التقليدية مباشرة أو حتى اهمالها حتى تصاب بالانهيار ، وبطبيعة الحال تضم هذه النظم التقليدية الاتجاهات العربية والاسلامية، وهى خطيرة ــ من وجهة نظر القوى المستعمرة ــ ومن ثم ينبغى القضاء عليها . وتتمثل الاستراتيجية الثانية فى تقديم القوى الاستعمارية لنظام تعليمى بديل يستخدم اللغة والمضامين الأوروبية ذاتها . ولقد استهدف النظام التعليمى ــ كما اشرنا ــ تحقيق هدفين ، الأول نظام تعليمى محدود يستهدف بالأساس امداد الادارة الاستعمارية بالكتبة والموظفين اللازمين لتسيير شئونها بالاعداد التى تكون قادرة على ذلك .. وفى هذا الاطار اغفلت الجامعات المحلية أو على الاقل حدد دورها ، ولم يقدم للمستعمرات بديلا لها . ومن ثم أجبرت الصفوة المثقفة ــ وهو اطار تحقيق الهدف الثانى ــ فى الأقطار الاسلامية للتوجه من اجل الدراسة ــ خلال سنوات تكوينهم الفكرى ــ الى جامعات الأقطار المتروبوليتانية ، التى كانت فعالة فى اجراء غسيل مخ كل من التحقوا بها .

بحيث أصبحوا فى النهاية مغتربين عن مجتمعاتهم،وهم الذين أصبحوا —فىنفس الوقت — حكامها الجدد . بحيث أسهمت هذه الممارسات فى النهايــة الى خلق بشر ينتمون من حيث تكوينهم الفيزيقى والشكلى الى مجتمعاتهم ، لكنهم من أعماق أعماقهم غربيون ، لغة ، وأفكارا ، وعاطفة حضارية (٨٩) .

غير أن الأمور لم تتوقف عند هذا الحد،فعندما جاءت القوى الغربية الحديثة الى الشرق ، استخدمت ميكانيزمات التغريب التى أشرنا اليها ، بحيث تمكنت فى النهاية من خلق نوع جديد من الشخصية ، شخصية المسلم المغرب Westernized Muslim الذى له توجهاته الغربية ، والذى يشــعر أنه يعيش فى منزله وفى وطنه حينما يعيش حسب معايير الثقافة الغربية ، ويخضع لاحساس الاحباط والغربة حينما يكون فى قلب ثقافته الاســلامية التقليدية ، وهى الثقافة التى ينظر اليها عادة من منظور التفكير الغربى . حقيقة أن هذا المسلم المغرب كان فى البداية ضمن أقلية فى اطار العالم الاسلامى ، غير أنه بمرور الوقت ، وبعد استكمال نظم التعليم الغربيــة ، فان العقلية التى خرجت منها أصبحت منتشرة ، حتى أصبحت مصدرا أساسيا للصفوة الحاكمة ذاتها . وأيضا لشرائح عديدة تمت صياغتها على هــذا النحو . ولم يحدث ذلك بالنسبة للجماعات الليبرالية أو الراديكالية فقط ولكنه حدث أيضا بالنسبة للصفوة المحافظة فى العالم الاسلامى . وبعبارة أخرى ، يمكن القول بأن العقلية التى تمكنت القوى الغربية من صياغتها فى اطار العقل الجمعى للمسلمين ، ليست بالتأكيد العقلية التقليدية التى تعتبر نتاجا للثقافة الاسلامية ، ولكنها عقلية خاصة تعمل على اعادة تفسير الاسلام من داخل المتولات الفكرية التى انتقلت من الغرب الى الشرق . غير أن اعادة التفسير هذه أصبحت فى النهاية لا غربية ولا شرقية . وعلى سبيل المثال نجد أن الملا الشيعيين فى وسط آسيا يرون أن اعادة احياء الاسلام يعتبر نتيجة نهائية لسلسلة من المراحل التى ينبغى أن يمر بها المجتمع ، وتعتبر الشيوعية احدى هذه المراحل . وعلى هذا النحو تعتبر طريقة الحياة الشيوعيــة أساسية كما تنظر اليها المــاركسية اللينينية الغربية . فهى تعتبر مرحلة فى طريق اعادة تأسيس المشروع الاسلامى . ومن الواضح أن ملا وسط

آسيا وكل المسلمين الآخرين الذين يتفقون معهم ، قد استعاروا فصلا من الكتاب الشيوعى يتعلق بالتكتيكات والاستراتيجيات المتعلقة بتجسيد المستقبل . وبدلا من أن يكون الاسلام محطة ضرورية فى طريق استكمال المجتمع الشيوعى ، فان الشيوعية هى التى أعتبرت خطوة ضرورية لبزوغ فجر الاسلام الصحيح على الأفق .

ويعتبر هذا المدخل المختلط لكثير من المسلمين — سواء كانوا رجعيين أو ثوريين — هو النتيجة الضرورية لغزو العالم الغربى للعقلية التى لهـا السيطرة على أرض المسلمين . وينبغى أن نأخذ فى الاعتبار أن احتلال الأرض بواسطة حاملى الحضارة الغربية ليس هو التعبير الوحيد عن الاستعمار ، ولكنه قد يتضمن أيضا اتجاها عدوانيا نحو العقلية الاقليمية السائدة فى الشرق . وهى العدوانية التى نجحت فى تأسيس الاستعمار الغربى فى عقول المسلمين فى الشرق . فبرغم تحقق رحيل الاستعمار عقب الحرب العالمية الثانية بعد نضال طويل أستهدف تحقيق الاستقلال ، نجد أن الجلاء الفيزيقى للغرب شيء ، وجلاء الغرب عن عقلية البشر فى العالم الاسلامى شيئا آخر . وهو الأمر الذى جعل كثيراً من المفكرين فى العالم الاسلامى ينقلون دار الحرب (العالم غير الاسلامى) الى داخل عقولهم . وهو الامر الذى يعنى اعادة تشكيل تصور المفكرين الاسلاميين عن الاسلام حسب النماذج الغربية . ذلك يفسر السبب فى أنه بالرغم من النظر الى قضايا كالجمهورية ، الاشتراكية الديموقراطية ، التطورية ، موقف المرأة — وكل ما يشبه ذلك — باعتبارها ذات أصول غربية . وتستخدمها الصفوة المسيطرة فى العالم الاسلامى ، الا أنه يمكن اعتبارها كذلك ، هجينا ، ونتاجا يفتقد النقاء لعقول بات أصحابها بلا جذور ، فلا هى غربية ، ولا هى شرقية فى ذات الوقت ، وهذه كارثة .

بل اننا اذا نظرنا الى حالة الاحياء الاسلامى التى تتم الآن فى العالم الاسلامى ، فاننا سوف نجد أنها قد تأثرت بهذه الظاهرة . حيث بدأت المدارس الفكرية المختلفة — التى تعتبر امتداداً للأيديولوجيات الغربية —

تنطلق من بدايات مختلفة . فالمسلم الذى له منطلقاته الاشتراكية يختلف عن المسلم صاحب التوجهات الرأسمالية . ونتيجة لذلك ، نجد أن تصوراته عن المجتمع الاسلامى المثالى سوف تكون متناقضة . فقد حدث فى الفترة التالية للحرب العالمية أن انتقلت كل الأيديولوجيات الغربية الى العالم الاسلامى بسهولة خارقة من كل منتجع وواد • وذلك يعزى — بطبيعة الحال — الى الفاعلية الواضحة والسريعة للاتصالات الحديثة . ونتيجة لذلك لا يوجد اتفاق داخل العالم الاسلامى على مثال المجتمع الاسلامى . وقد لا يتوفر هذا الاتفاق حول هذه الحالة المثالية ، لأن هذا التصور يتغير مع التحولات التكنولوجية للمجتمع ، التى تعتبر فى التحليل النهائى المتحكم الاساسى فى قدر الانسان الحديث . والآن فقد هاجم نفس هذا التحول التكنولوجى جوهر الثقافة الاسلامية مثلما هاجم المجتمع فى مناطق كثيرة من العالم الاسلامى . ولا نعتقد أن هناك نهاية لمثل هذا التفاعل حتى الآن ، طالما أن الحضارة الصناعية تتطلب لاستمرار وجودها تحولا دائما ، ليس فى العالم الطبيعى فقط ، ولكن فى النظام الاجتماعى أيضا . وهو الامر الذى اذا تركت تفاعلاته الى نهاياتها المحكومة فانه قد يحيل الاسلام الى مجرد ظل لرواسب تاريخية عظيمة (٩٠) .

ومن الطبيعى أنه اذا كانت هناك صفوة أعيد تدريبها من خلال نظام التعليم الغربى الحديث ، بحيث أهلها هذا التدريب لاستقبال واستيعاب الافكار الغربية الحديثة ، فانه كان من المنطقى أن تعمل هذه الصفوات على تعميق ارتباطاتها بالثقافة الغربية ، بل والعمل على ربط مجتمعاتها بها . واذا كان كمال أتاتورك قد اتجه مباشرة الى ربط مجتمعه بالغرب ، ومحاولة سلخه عن جذوره الشرقية والاسلامية بقوة القانون . فاننا نجد أن الصفوة المثقفة التى شكلت جزءا من الصفوة العقلية وربما السياسية قد حاولت هى الأخرى تعميق هذه الروابط ، من خلال مبررات فكرية وعقلية كثيرة . ويعتبر سيد أحمد خان فى الهند ، وطه حسين فى مصر ، خير أمثلة لعناصر هذا النمط من الصفوة .

وفيما يتعلق بسيد احمد خان (١٨١٧ ــ ١٨٩٨) فاننا نجد أنه برغم انجليزيته الضعيفة وغرابة أطواره ، فانه كان يمتلك ولاءا للحكم البريطانى المسيطر فى الهند ، وقد أنفق حياته لكى يقنع مجتمعه وأتباعه أن يكون لديهم ذات الولاء أيضا . بل نجد أنه كان فى العادة يحرضهم على عدم الانضمام للهندوس فى اطار حزب المؤتمر القومى الهندى . فلم يكن مقتنعا بالديمقراطية البرلمانية . ولكى يستطيع بناء الشباب المسلم الذى لديه هذا الولاء نجده قد سعى الى تأسيس كلية الاستشراق المحمدية الانجليزية Mohammadian Angle - Oriental College المؤسسة على غرار أكسبرج Oxbridge . حيث كان معظم أساتذتها من الانجليز الذين يعملون باللغة الانجليزية . وفى فترة لاحقة أصبحت هذه الكلية معهد التعليم الاسلامى الهندى الرئيسى . غير أننا نجد أن أفراد المجتمع الاسلامى فى الهند قد أصروا على رفض الولاء على طريقة السيد أحمد خان ، كما أصروا على عدم استخدام اللغة الانجليزية فى تعليم الاسلام بكليته (٩١) .

ويعتبر طه حسين هو المثال الثانى فى هذا الصدد وقد ولد طه حسين فى احدى قرى صعيد مصر فى ١٨٨٩ . وقد ترقى فى حياته الى أن اصبح عضوا فى مجلس الوزراء فى الفترة التالية للحرب الثانية مباشرة ، ثم أصبح وزيرا للتعليم ، وفى هذه الفترة عمل بقوة واصرار على تحديث نظام التعليم المصرى . وما يهمنا هنا هو طبيعة التوجه الغربى الذى بدأ يعمل وفقا له . والذى يتعلق بمكانة مصر على الخريطة الحضارية . حيث تولد لديه اعتقاد بأن مصر وأوربا لديهم ميراث ثقافى وعقلى مشترك . ووفقا لذلك ، لا تعتبر مصر جزءا من الشرق الذى تنتمى اليه أقطاركالهند والصين . ومن ثم فان على مصر أن تتوقف عن النظر الى جهة الشرق . وأن عليها بديلا لذلك ن تبدأ فى النظر الى أوربا عبر البحر الأبيض المتوسط . ويتساءل طه حسين هل تعنى موافقة مصر على الاسلام انها اصبحت شرقية ، ثم يجيب على ذلك بالنفى ، موضحا أن ذلك لا يختلف كثيرا عن القول بأن العقلية الأوربية التى اعتنقت المسيحية التى ولدت فى الشرق ، أصبحت ذات توجه شرقى (٩٢) . غير أن الحقيقة ليست

كمـــا رآها طـــه حسين ، فليس هنـــاك أى التقاء ثقافى أو عقلى بـــين جماعات الشـــعوب التى تواجه بعضها البعض عبر البحر الأبيض المتوسط . وأن الاعتقاد بأن الظروف الطبيعية والجغرافية ، وربما الظروف الاقتصادية والسياسية المترتبة على ذلك ، هى التى جعلتهما كل فى مواجهة الآخر ، وهو ظرف طبيعى بحت . أما القول بأن مصر تعتبر — ترتيبا على ذلك — جزءاً من أوروبا ، قول يجانبه الصواب والحق كثيرا . ولقد تجاهل الشعب المصرى — بحسه الحضارى — هـــذه الأفكار التى قال طـــه حسين . واذا كان هنا من يحتاج الى برهان يقنع البشر بغباء الســـلوك الذى يستهدف فصل الانســـان عن جذوره الثقافية والسلالية ، فلننظر الى مثال تركيا الحزين فى ظل الاصلاحات التى قام بها أتاتورك ، مثال يوضح بجلاء معنى أن يفقد الانســـان هويته ، وما يمكن أن يترتب على ذلك .

٢ — ولقد كانت الخطوة الثانية — بعد استكمال تشـــكيل الصفوة القومية ، أو لنقل العلمانية ، ثم صعودها على سلم القوة حتى أنها تمكنت فعلا من الســـيطرة على مقاليـــد الأمور فى معظم المجتمعات الاســـلامية — أن سعت هـــذه الصفوة الى نشر العلمانية داخل مجتمعات العالم الثالث . ولكى تنجح هـــذه الصفوة فى مهمتها فانه كان عليها أن تقلل من التزامهـــا بالنظرية الدينية أو الحضارية لتراثها ، وليس فك الاشتباك فقط مع جذورها . وذلك كخطوة ضرورية لحركتها نحو تبنى التزام جديد باعتبارها رسل العلمانية فى مجتمعاتها . ونستشهد فى هـــذا الصدد بحالتى الباكستان ومصر ، باعتبارها دول تحتل مكانة قيادية فى العالم الاســـلامى .

وتعتبر حالة ذو الفقار على بوتو رمزا معبرا عن الصفوة التى أعيد صياغتها من جديد على الطريقة الغربية . ومن الثابت أن ذو الفقار على بوتو قد صعد الى السلطة فى أعقاب الانقسام الذى أصاب الباكستان والذى أسفر عن تخلق دولة بنجلاديش . ومن ثم فنحن أمام رجل يواجه موقفا جديدا . رجل اذا بحثنا حالة .. أفكاره وتوجيهاته ، فسوف نجد أنه مغرب من قمة رأسه وحتى أخمص قدميه . اذ نجده وهو التلميذ السابق فى لوس أنجلوس

Los-Angeles يعترف صراحة بأنه لا يؤدى فروض الصلاة بصورة مطردة . ولا يراعى كل الفرائض بما فيها صوم رمضان . وهو على حد قوله (لم يحج) حتى الآن ، ومع ذلك (فأنا من الناحية الدينية مسلم فقير) . وبرغم ذلك (فلقد تداخلت اهتماماتى بالسياسية والاقتصاد والتراث الثقافى الاسلامى) . والسؤال الذى نطرحه كيف يمكن لزعامة على هـذا الحماس الدينى المتدنى أن تخلق مجتمعا اسـلاميا فى الباكستان ، (الذى كان سـببا أساسيا فى الانشقاق عن الهند) (٩٢) . ذلك يعنى أننا لابد ان نتوقع من هـذا النمط من القادة العمل على مزيد من التغريب للمجتمع ، وابعاده عن جذوره ليتغرب من جـديد .

ويشـكل الخديوى اسماعيل حفيد محمد على المثال الثانى فى هـذا الصدد . واذا كان محمد على قد قدم الجرعة العلمانية الأولى من خـلال اهتمامه بتطوير الجيش والحيـاة الاقتصادية للمجتمع ، محاولا قدر الامكان الاستفادة من الانجازات التكنولوجية للغرب . فاننا نرى أن الهدف الرئيسى الذى سعى اليه الخديوى اسماعيل (١٨٦٣ — ١٧٨٩) تمثل فى محاولته أن يجعل مصر (منطقة من أوربا) وذلك عن طريق المناشط المكثفة التى يمكن أن يتيحها مجتمع الأجانب الذى تزايد اتسـاعه فى مصر خلال هـذه الفترة . بحيث تكامل مع ذلك اندفاع الخديوى اسماعيل لافتتاح المدارس الحديثة ، ثم نقله التكنولوجيا المتقدمة الى مصر ، بحيث سـاعد ذلك بدوره على تقديم عادات وقيم واتجاهات جديدة . ولقد أيدت سياسات الادارة البريطانية ذلك ، وهى السياسات التى بدأت تمارس فعاليتها ابتداء من السيطرة التى تحققت فى ١٨٨٢ . هـذا الى جانب مساعدة جهود التحديث التى بذلتها الصفوة المحليـة . فى هـذا الصدد يمكن القول بأن العلمانية بدأت فى التغلغل من خـلال فاعلية قوى ثلاث : اتجاه وظائف الحكومة المستمر نحـو التوسع — وهو الأمر الذى سـاعد على خلق بيروقراطية فعالة — هـذا الى جانب مركزية الدولة ، وهو الأمر الذى سـاعدها على توجيه نشر العلمانية ، ثم الطبيعة الممزقة للتغير الاجتماعى الاقتصادى —

وهو البعد الذى أضعف روابط وأسس المجتمع التقليدى — هـذا بالاضافة الى انتشـار المفاهيم السياسية الغربية بين أبناء الصفوة الحديثة (٩٤) .

بالاضـافة الى ذلك يمكن القول بأن القوى التى عملت على تحطيم الأسس الأيديولوجية والاجتماعية والاقتصادية والنظامية للمجتمع التقليدى قد دفعت الى تولد مجموعة من القوى الجديدة . حيث ظهرت جماعات جديدة تماما لانجاز قدر كبير من المهارات التى قد لا تتوفر داخل المجتمع التقليدى . من هؤلاء مثلا المحامين الأطباء،رجال الصحافة،المهندسين ، وآخرين من الذين قد يكونوا هم أنفسهم نتاجا للتغير الاجتماعى والاقتصادى ، والا أنهم يعتبروا فى ذات الوقت القوة الأسـاسية الدافعة للتطور العلمانى وهو التطور الذى أصبح قادرا على التصدى للصفوة التقليدية ومنها قيادة جماعة العلماء ، ومن ثم يجبرونهم على تبنى أفكارهم الجديدة (٩٥) .

ومن الواضح أن ظهور صفوة سياسية واجتماعية جديدة بالاضافة الى الاصلاح الليبرالى المتعلق بانتشار النزعة القومية قد استندت كلها الى مبادىء العلمانية المأخوذة عن الغرب . حيث أمكن تطوير هـذه الصفوة من خـلال النمو التاريخى لهذه المبادىء . غير أنه بنمو هـذه الصفوة ذات التوجهات القومية والليبرالية ، فاننا نجدها قد تبنت ذات النظرة التى طورها محمد على لعلماء الدين وممارساتهم أو معتقداتهم الدينية المحافظة . غير أنهم على خلاف محمد على كان لديهم استعداد للنضال ضد سيطرة العلماء والنظم الدينية ، وذلك بهدف تحدى مفاهيمهم وتفسيراتهم علانية . ومن ثم فقد دخلوا معهم فى صراع من أجل الفوز بالقيادة الثقافية والأخلاقية للمجتمع . وبرغم أنهم قد أعلنوا صراحة عن مبادئهم العلمانية الواضحة ، فانه من الصعب أن نعتبرهم ضـد الدين . ومن الأمثـلة على ذلك فى مصر سـعد زغلول ، وطـه حسين الذين يمكن اعتبارهم نتاجاً لنظام التعليم الأزهرى . ولقـد تأكد لهم أن باستطاعة الدولة أن تفرض الاصلاح على رجال الدين ونظمهم . ومن ثم فرض السـيطرة السياسية عليهم وذلك فى محاولة لدفعهم الى التجديد ، وليس بهدف القضاء عليهم . ذلك أن هـذه الصفوة العلمانية

شعرت ــ كالصفوة الغربية ــ بضرورة استمرار المبادىء الدينية لكن فى حدود كونها تشكل الأساس الأخلاقى للمجتمع ــ وهى بطبيعة الحال نفس عملية التباين التى خضع لها الدين فى المجتمع الأوربى . ولقد كان الدفاع الناجح الذى قام به رجال الدين دفاعا عن نظمهم ومعتقداتهم هو الذى اجبر الدولة على أن تطور النظم العلمانية الى جانب النظم الدينية غير المتطورة . ذلك فى حين سعى النظام السياسى دائماً من اجل السيطرة على الأخيرة . ولقد كان دافع الصفوة ذات التوجهات الليبرالية والقومية لاخضاع النظم الشرعية والتعليمية والخيرية لنظام الدولة وسيطرتها ليس أقل أهمية بالنسبة للدولة القومية من الصراع للحصول على الاستقلال الكامل عن انجلترا (٩٦) . ويمكن القول بأنه اذا كانت الصفوة السياسية لمحمد على هى التى فتحت الابواب لتأثيرات العلمانية ، فان الصفوة المثقفة هى التى كانت احدى نتائج التغير الذى حدث ، ثم هى التى رفعت شعار ضرورة أن ينتاب التباين النظام الدينى . هذا الى جانب نضالها لفرض التحديث على النظام الدينى ذاته ، وتحويل الدين من دين ودولة حسبما تذهب الصفوة الدينية الى مجرد أساس أخلاقى للمجتمع .

وقد شكلت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ظرفا راديكاليا جديداً بالنسبة للحياة السياسية المصرية . غير أنه من الواضح أن الميل الى التباين فى الوظائف المجتمعية ، وكذلك الميل الى مركزية السلطة ، وهى الاتجاهات التى استحدثها محمد على قد بدأت تصل بسرعة الى نهاياتها المتوقعة بمجرد أن تمكن الضباط الأحرار من خلق دولة ذات سلطة مركزية تخضع لامرة مجلس الثورة الذى يمثل هيئتهما التنفيذية (٩٧) . وفى هذا الاطار نجد أن التيار الدينى قد فرض مشكلة سياسية خطيرة ومباشرة بالنسبة للضباط الأحرار ، وذلك بسبب قوة وانتشار الاخوان المسلمين ، وهو التنظيم السياسى الدينى ذو الطبيعة الأصولية فى ذلك الوقت . حيث شكل الاخوان القوة التى تدعو دائماً الى الاحياء الاسلامى (٩٨) . واذا كانت المرحلة الأولى من الثورة قد شهدت ودا متبادلا بين التيار الدينى وقيادة الثورة ، فان مرحلة العزل المتبادل قد انتهت بسبب محاولة غير ناجحة من قبل التنظيم السرى

للاخوان المسلمين لاغتيال ناصر فى ١٩٥٤ . حيث استغلت الصفوة القومية ــ مجلس الثورة ــ الفرصة للقضاء على هذه الجماعة ، ولقد أدى القضاء عليها الى اخضاع كل التنظيمات الدينية لسيطرة الدولة . بل اننا نجد أن حكومة الثورة قد حاولت أن تقدم بعض الحلول لمشكلات مصر الاجتماعية والمعقدة فيما قبل الثورة (٩٩) .

ذلك يعنى أن الصفوات العلمانية المتعاقبة قد تمكنت فى النهاية من القضاء على سيطرة الدين على الدولة ، بحيث استطاعت فى النهاية عبر صراع تاريخى طويل من فرض سيطرتها عليه . غير اننا نلاحظ انه فى قلب هذا الصراع قد تبدت ثلاثة أبعاد أساسية :

(أ) أن هناك خطا استراتيجيا ثابتا تبنته الصفوات السياسية فى البداية ، ثم الصفوة البيروقراطية ، ثم الصفوة العسكرية وأنها كلها كانت موجهة بالأساس الى دفع الدولة والمجتمع فى طريق العلمانية من خلال اضعاف قبضة رجال الدين عليها .

(ب) أن ثمة ظروف عالمية ساعدت على ذلك ، فبعد ازدهار مفهوم الدولة والعلمانية فى أوربا ، انتقل هذا المفهوم تارة من خلال السعى لاستجلاب التكنولوجيا والأفكار المتقدمة ، وتارة من خلال التغلغل الاستعمارى كما حدث فى عصر اسماعيل ، وتارة ثالثة من خلال سعى الصفوة العلمانية التى تم تشويهها من حيث بنيتها الأساسية فى النهاية .

(جـ) أن جمود الصفوة الدينية كان من العوامل التى ساعدت على هذا الاختراق ، وقد كان من الممكن ايقاف هذا الاختراق لهم ، لو أنهم تمكنوا من تطوير تصور ملائم قادر على تغطية التفاعلات الواقعية المتغيرة . لو أنهم فعلوا ذلك لكانوا قد قدموا جرعة تجديدية لتراثهم من ناحية ، ولقطعوا الطريق أمام الأفكار الغربية الوافدة من ناحية ثانية ، ولأكدوا أنهم وتصوراتهم عبارة عن عناصر تتكامل عضويا مع مجتمعاتها ، بحيث تكون أقدر على دفعها على طريق التطور أو التقدم .

٣ — ومن الطبيعى أن تكون الخطوة المنطقية التالية هى احكام السيطرة على الدين بهدف توجيهه الى خدمة الدولة والمساعدة على تحقيق أهدافها . وفى هـذا الصدد شـكل القضاء على الصفوة الدينية وحرمانها من مصادر قوتها أحد الآليات الأساسية لاختراق المجتمعات الاسـلامية . واذا كانت مكانة الصفوة الدينية بالنسبة للنظام السياسى تحددها الوثائق الأساسية للاسـلام ، فاننا نجد أن هـذه العلاقة قد طرأ عليها قدر من التغير والتعديل . فمن الخصائص الأساسية لهذه العلاقة أنه بمجرد اختيار المرجع الدينى الأول (أو شيخ الاسـلام) وتعيينه من قبل النظام السياسى ، فان ممثلى النظـام السياسى لا ينبغى أن يفرضوا عليه التبعية لهم ، أو أن يكون فى خدمتهم . لأن ارتباطه بهم وخدمتهم سوف يضر باحترام العلماء (١٠٠) . بالاضافة الى ذلك فانه من الضرورى التمويل المستقبل للمرجع الدينى . اذ ينبغى تحريره من الحاجة الى كسب قوت يومه ... بل انه حسبما يذهب الامام الغزالى لا ينبغى أن يأخذ الامام مالا من السلطان ، لأن هـذه الأموال ذاتها قد لا تكون قد جمعت بطريق الحلال (١٠١) . بحيث تشير هـذه المعانى فى مجملها الى محاولة الفكر الاسـلامى والدينى المحافظة على الاستقلال المـالى للصفوة الدينية حتى لا يكون ذلك مدخلا للضغط عليها .

وبرغم الدور النضالى الذى لعبته الصفوة الدينية فى تاريخ المجتمعات الاسـلامية ، فاننا نجد أنه قد بذلت جهودا واضحة لاخضاعها وان اختلفت الظروف التى تحقق فيهـا ذلك من مجتمع لآخر . ففى دولة الباكسـتان نجـد أن الرئيس أيوب خان يكتب فى مذكراته صـفحات عديدة لتوبيخ الصـفوة الدينيـة وادانتها والهجـوم عليهـا . حيث نجد أن هجـومه عليهـا قد انقسـم الى قسـمين : أولا ، أنهم — من وجهـة نظره — لا يعرفون شـيئا عن العالم الحديث . وأنهم ثانيا يريدون دولة اسـلامية ليس بسبب الاعتقاد الدينى ، ولكن لأننا سوف نجد أن الصفوة الدينية بنظرتها الضيقة هى التى سوف تكون مؤهلة حينئذ للامساك بالسلطة . ومن خلال اشـارة أيوب خان الى رفض الصفوة الدينية فى مرحلة تاريخية سابقة

لتكوين دولة الباكستان نجده يواصل هجومه قائلا (اذا كانوا عاجزين فى الماضى عن انقاذ المسلمين فى الباكستان فانهم ينبغى أن يكونوا قادرين الآن على انقاذ باكستان من المسلمين) (١٠٢) .

ذلك يعنى أن نقد النظام السياسى للصفوة الدينية كان أساسا بالنظر الى الاطار المرجعى الغربى والعلمانى للصفوة التى توجه النقد ، وهو الأمر الذى انسحب على تقييمها لتخلف الصفوة الدينية عن العالم الحديث بدلا من توجيه النقد الى الصفوة العلمانية التى انفصلت عن جذورها . هذا الى جانب أن نقدهم كان بالنظر الى فكرة القومية أو الوطنية التى تشكل مرتكزا أساسياً للصفوة العلمانية وموضع رفض من قبل الصفوة الدينية ، بحيث انتهى الأمر فعلا خلال هذه المرحلة فى الباكستان الى اخضاع الصفوة الدينية بالنظر الى تخلفها وعدم قدرتها على استيعاب متطلبات العالم الثالث .

وتعتبر ايران المثال الذى فشل النظام السياسى فيها فى اخضاع الصفوة الدينية . ولعل السبب فى ذلك يرجع الى أن رجال الدين يحصلون على التمويل المستقل من خلال نصيبهم فى مال المسلمين ، بحيث ساعد ذلك فى الحفاظ على بناء وقوة النظام الدينى . وأيضا فى الابقاء على السلطة السياسية والاجتماعية لرجال الدين ، بل اننا نجد أن مستوى القهر والظلم والفقر الذى مارسة النظام الامبراطورى كان هو الذى يدفع رجال الدين الى ممارسة نوع من الرد على ذلك النظام بتقديم المساعدات لفقراء المسلمين ، أو استخدام هذا التمويل لتقويم النظام ذاته (١٠٣) .

بل اننا نجد أن شاه ايران حينما حاول فى صراعة الأخير مع الصفوة الدينية أن يوقف تمويلها ، وفرض تبعيتها للدولة ، حاول أن يجعل رجال الدين يحصلون على رواتب من الدولة ، فاننا نجد أنه الى جانب رفض رجال الدين ذلك ، فان الجماهير كانت حريصة أيضا على دفع الخمس الذى يتضمن (سهم الامام) أكثر من حرصها على دفع الضريبة الحكومية للشاه (١٠٤) .

بحيث يمكن القول بأن هـــذا الاستقلا ل المـــالى لرجال الدين فى ايران شكل الأساس الملائم الذى ساعدهم فى الانتصار على الشـــاه .

واذا كانت الباكستان ـــ فى مرحلة ما قبل نظام ضياء الحق ـــ قد نجحت فى تحجيم دور الصفوة الدينية ، وان ظلت لهـــا هويتها المستقلة نســـبيا . واذا كانت ايران قد شكلت النموذج الذى احتفظت فى اطاره الصفوة الدينية باستقلالها ، بل تجاوزت ذلك حتى فرضت خضوع النظـــام السياسى لها . فاننا نجد أن ما حدث فى مصر شـــكل نقيضا لذلك . حيث نجح النظـــام السياسى نجاحا يكاد يكون كاملا لاخضاعهم . ولانجاز ذلك نجد أنه قد اتبعت فى ذلك استراتيجيات عديدة .

وتتمثل الاستراتيجية الأولى فى هـــذا الصدد فى العمل على اخضاع المؤسسات الدينية لسيطرة الدولة واشرافها . وفى هـــذا الصدد نجد أن الدولة فى خضم القول بالاعلانات الاشـــتراكية أصدرت فى ٥ يوليـــو عام ١٩٦١ القانون رقم ١٠٣ بشـــأن اعادة تنظيم الأزهر والهيئات التى يشملها ، بحيث ألغى بناء على ذلك القـــانون رقم ٢٦ لســـنة ١٩٣٦ . ويتمثل أهم تعـــديل جاء فى هـــذا القـــانون فى التأكيد على تبعية الأزهر لرئاسة الجمهورية ، حيث يعين وزير شـــئون الأزهر بقرار جمهورى ، وبالتالى فهو ليس هيئة مستقلة . ومن ثم يسهل على الدولة اعطاء توجيهاتها الى شـــيخ الأزهر وهو أيضا معين بقرار جمهورى (١٠٥) . هـــذا الى جانب نص هـــذا القانون على أنه لرئيس الجمهورية الحق فى تعيين شـــيخ الأزهر من خارج المجمع ... كما يعين وكيل الأزهر أيضا بقرار جمهورى ، ويشترط أن يكون عضوا بالمجمع ، ولكن رئيس الجمهورية له الحق فى تعيين الوكيل من خارجه ، وبالتالى يصبح عضوا فى المجمع بقوة القرار الجمهورى (١٠٦) . بالاضافة الى ذلك الغيت للمحـــاكم الشرعية بفاعلية القـــانون رقم ٤٦١ لســـنة ١٩٥٥ ، كما نص القـــانون رقم ٤٦٢ لســـنة ١٩٥٥ باحالة الدعاوى التى تكون منظورة امامها الى المحاكم الوطنية ...

وبطبيعة الحال لم تظهر أى معارضة من جانب رجال الدين ، بل على العكس قام شيخ الازهر مع بعض المشـــايخ بتهنئة ناصر على أخذه هذه (الخطوة التحررية) نحو اصلاح النظام القانونى فى مصر (١٠٧) .

ولم تعفى الدولة الطرق الصوفية كأسلوب متميز للممارسة الدينية من هـــذه السيطرة ، اذ صدر القـــانون رقم ١١٨ لســـنة ١٩٧٦ بشأن تنظيم الطرق الصوفية ، حيث أكد على ضرورة التزامهم فى ممارسة نشـــاطهم بالكتاب والسنة والمبادىء الصوفية الصحيحة ..... ثم أكد القـــانون على ضرورة تعيين شـــيخ مشايخ الطرق الصوفية بقرار جمهورى من بين مشايخ الطرق الصوفية ... وتبلغ محاضر جلســـــات (المجلس الأعلى للطرق الصوفية) الى الوزراء المثلة وزاراتهم فى المجلس وذلك خـــلال خمسة أيام من تاريخ الجلســـة .... ويصـــدر لانشـــاء أى طريقة جـــديدة قرار من وزير الأوقاف وشـــئون الأزهر بالاتفاق مع وزير الداخلية بناء على موافقة المجلس الأعلى للطرق الصوفية (١٠٨) . ومن الواضح أن التعديلات التى طرأت على مكانة الطرق الصوفية لم تستهدف المساس بطابعها التنظيمى ، وانما استهدفت الســـلطة السياسية من ذلك وضعها تحت المراقبـــة حتى لا تستغل لأغراض سياسية .

وتتمثل الاستراتيجية الثانية فى السعى الى تطوير آداء المؤسسات الدينية وفاعليتها باتجاه العلمانية . وقد تمثل أهم جهد فى هـــذا الصدد فى اجراءات تطوير الأزهر التى اسست فى بنائه الى جانب الكليات التقليدية مجموعة من الكليات الحديثة مثل كلية المعاملات والادارة ، كلية الهندسة والصناعات ، كلية الزراعة ، كلية الطب ، هـــذا الى جانب اجازة انشـــاء كليات أخرى ولكن بقرار من رئيس الجمهورية . بالاضافة الى أنه رغم التأكيد على اللغـــة العربية باعتبارها لغة الدراسة ، فان قانون التطوير أكد على امكانية التدريس بلغة أخرى بعد موافقة رئيس الجامعة (١٠٩) .

بالاضافة الى ذلك فقد عملت الدولة على علمنة التربية الدينية ذاتها ، وذلك من خـــلال جهدين . الأول وضع مقرر للتربية القومية يختلف بالتأكيد

عن مقرر التربية الدينية ، وان كان يتضمن تأكيداً أساسياً فى أن لا يص... الدين هو أساس الوطنية أو القومية . أما الثانى فيتمثل فى محاولة فصل الدين عن الدولة أو السياسة فى عملية التربية ومن ثم ارجاع الدين الى مستوى مجموعة من المعتقدات أو العبادات اذ نجد مثلا أن المرحلة الابتدائية تؤكد فى السنة الأولى على مفاهيم المحبة للانسـان والحيوان ، والثانية على محبة النظـام ، والثالثة آداب الطريق ، وحب الأصدقاء والصدق والألفة والادخار (١١٠) . وهكذا فى مختلف الفصول ، بحيث يقتصر التعليم الدينى على غرس مجموعة من القيم الأساسية البعيدة كل البعد عن المشـاركة السياسية الايجابية ، ان لم تمنع الفرد من المشاركة أيضا . هـذا الى جانب حصره فى نطـاق لا يستطيع فيه تطوير تصور لطبيعة العلاقة بين الدولة والمجتمع بصورة عامة .

ويشـكل فرض التبعية المـالية الاستراتيجية الثالثة التى اتبعتها الصفوة العلمانية لتقليم أظافر الصفوة الدينية . وقد حدث ذلك عبر مراحل تاريخية متتابعة ، اذ نجد أن محمـد على قد استخدم هـذا السلاح فى صراعه مع هيئة العلماء الذين عارضوه . واذا كان نظام الالتزام فيما قبل محمـد على ، والأوقاف الخيرية ، قد شـكل مصدر التمويل المستقل لرجال الدين خاصـة المراجع الدينية العليا منهم . فاننا نجد أن محمـد على فى صراعة مع العلماء يتقدم ليلغى نظام الالتزام ويتحكم فى مصادر الدخل الناتجة عن الأوقاف الخيرية ، وهى المصـادر التى دعمت النظم الدينيـة وآدائها لوظائفهـا (١١١) .

واذا كان اسماعيل قد سار على نهج جده فى الحد من سلطة رجال الدين فى مقابل توسيع نطاق العلمانية وتعميقها فاننا نلمس لديه محاولة واضحة للاحياء الدينى . بل اننا نجد أنه فى غمرة عمليـة الاحياء هـذه قد نجح فى مسألتين . الأولى انقاذ اسـتقلال ومضمون التعليم الدينى ، والثانية الحفاظ على الاستقلال النسبى للأوقاف (١١٢) .

بيد أن الصراع التاريخى ظل مستمراً بين الصفوتين وذلك حينما قامت

قيادة النظام السياسى لثورة يوليو ١٩٥٢ ، بفرض سيطرتها الكاملة على القطاعات الدينية المستقلة نسبيا ، ومنها الأوقاف الخيرية ، حيث ضمنت ضمن الاصلاح الزراعى الذى أصدره النظام السياسى فيما يتعلق باصلاح الأراضى المصرية . وبذلك فهو قد جسد الاقتراحات التى قدمها الصفوات الليبرالية والقومية فى مناقشاتها المتعلقة باصلاح الأوقاف فى العشرينات . حيث بدأت الدولة منذ ١٩٥٢ سلسلة من الاصلاحات ، التى تضمنت الالغاء الكامل للأوقاف الخيرية الشخصية ، ومن ثم أضعفت الدين بصورة كاملة وتامة لسيطرة الدولة (١١٣) .

غير أنه اذا كانت الصفوة العلمانية — أيا كانت طبيعتها الخاصة — قد سيطرت على جهاز الدولة — منذ مرحلة الاستقلال فان هذه الصفوة قد خاضت صراعا حادا كى تنفرد بقرار تحديد هوية المشروع الاجتماعى الذى ينبغى أن تتبناه التنمية . ولقد كان من نصيبها الانتصار على الصفوة الدينية ، بحيث حولتها من مكانة المتغير المستقل تاريخيا وتراثيا الى مكانة المتغير التابع الذى عليه أن يخضع فى آدائه لمتغيرات أكثر شمولا وفاعلية . وهكذا ، فبينما وقعت عملية التباين — بين الدين والمجتمع — فى أوربا حسبما اقتضت التفاعلات ذلك ، فانه فى الشرق — والعالم الاسلامى خاصة — فرض هذا التباين على الواقع . ومن ثم تحول الدين من اطار شامل يحكم تفاعل المجتمع فى استقراره وتطوره الى مجرد جهاز أو وسيلة يستخدمها النظام السياسى لغرض تصوره .

وبغض النظر عن المحاولات التى تمت فى اطار النظام الملكى قبل قيام الثورة لاستخدام الدين فى تسويغ أو نقل أو تمرير بعض الأفكار أو القرارات العلمانية ، فاننا نجد أن النظام الثورى فيما بعد ١٩٥٢ قد استخدم الدين استخداما متباينا حسب متطلبات الظروف .

ففى المرحلة بين ١٩٥٢ — ١٩٦١ حيث اعلان القرارات نجد أن النظام السياسى لم يكن قد حدد توجهه الايديولوجى بعد . ومن ثم فاننا نجده يتخذ

من التوجهات الاســـلامية أساسا لتوجهاته الأيديولوجية . هـــذا الى جانب الاعتماد على الدين كمصدر للشرعية المؤيدة للنظام السياسى (١١٤) .

أما فى الفترة التى تبنى فيها النظام السياسى التوجيهات الاشتراكية، فاننا نجده قد اســـتخدم الدين لتأكيد مشروعية المكونات الثلاثة للنظـــام السياسى خـــلال هذه المرحلة . فقد أصبح الدين من ناحية مصدرا لشرعية الدولة والنظام السياسى . هـــذا الى جانب الاستناد الى الدين كمصدر لتأكيد التوجه الثورى للنظام السياسى . فاذا كانت الجماعة الثورية من قلب الجيش هى التى أسست النظـــام الثورى فلقد كان ذلك اســـتمرارا أو امتدادا لثورة رجال الدين لتأسيس النظـــام السياسى العادل والثورى أيضا (١١٥) . بل اننا نجد أن الميثاق يؤكد على الطابع الثورى للدين حينما يذهب الى أن رسالات الأنبياء كانت فى جوهرها ثورات انسانية استهدفت شرف الانســـان وسعادته . ولقد كانت الاشتراكية هى المكون الثالث الذى استخدم الشرعية الدينية أيضا . حيث أبرزت المقولات الاشتراكية فى الدين . فالاســـلام فى أول أيامه أسس أول دولة اشتراكية وأول من طبق سياسة التأميم فى حديث (أن الناس شركاء فى ثلاث : المـــاء والكلأ والنـــار) . وهكذا نجد أن النظام الثورى فى المرحلة الناصرية قد استخدم الدين كوسيلة لاضفاء الشرعية على النظـــام السياسى بمختلف جوانبه . بل اننا نجد أنه حينما واجه النظـــام السياسى أزمة الهزيمة فى ١٩٦٧ . نجـــد أنه قـــد اســـتخدم الدين فى تعبئـــة الجمـــاهير وراء النظـــام السياسى لدعم المعركة العسكرية التى ينتوى أن يخوضها سعيا الى النصر . وفى هـــذا الاطار تحـــدث المماثلات التاريخيـــة الكثيرة بـــين الغزوات الاســـلامية وبين ما يواجه النظـــام السياسى ، أو التماثل مع المســـلمين الأوائل فيما يتعلق باليهود كعدو تاريخى مشترك .

ولا يختلف الأمر كثيرا فى المرحلة بين ١٩٧١ ـــ ١٩٨٠. حيث أضفت الزعامة السياسية على نفســـــها مســـحة من الايمـــان (الرئيس المؤمن) و (دولة العلم والايمان) . بل اننا نجد أن النظام السياسى خلال هـــذه

الفترة ، هــو الذى شجع على نمو الجماعات الدينية التى استخدمهــا النظام الســـياسى فى ضرب الجماعات السياسية الأخرى المناوئة كالناصريين والماركسيين (١١٦) . خلاصة لقول أن االنظام الســـياسى والصفوة العلمانية قد تمكنت من التوجه بالدين الى طريق العلمانية ، ومن ثم فرضت عليــه التباين ، وهو ما يعنى أن يلعب الدين دوره فى دعم سلوكيات الدولة العلمانية .

رابعا : أزمـــة التنميـــة
وظروف الاحياء الاســـلامى

اتضح لنا مما سبق أن الصفوة العلمانية قد تمكنت من اخضاع المؤسسة الدينيـــة فى المجتمع الاســـلامى وبدأ فى تأسيس التنميـــة الاقتصـــادية الاجتماعية على أساس من المشروع الغربى . بسواء كان هــذا المشروع رأسماليا أو اشتراكيا . غير أن هــذه التنمية واجهتها نكســـات عديدة ، بعضها يرجع الى ظروف داخلية بحتة حيث لم تستطيع التنمية تحقيق كثيرا من الوعود المتعلقة باشباع الحاجات الأساسية . أو بسبب ظروف خارجية بسبب تأثير من النظام العالمى ، كما حدث فى التأثير السلبى لهزيمة يونيو ١٩٦٧ على التنمية المصرية ، بحيث دفعت هــذه الظروف الى حالة من البحث فى الذات ، ومن ثم الاحياء الاســـلامى فى مواجهة أزمة التنمية فى ظل المشروع الغربى وهو الفاعل الذى سوف نتعرض له من خلال القضايا التالية :

١ ـــ الاحياء الاسلامى وأهدافه وأبعاده .
٢ ـــ تفسير الاحياء الاسلامى ، المنظورات الأساسية .
٣ ـــ الاحياء الاسلامى ، ظروفه وعوامله .
٤ ـــ الاحياء الاسلامى ، مظاهره ، ودينامياته .

وفيما يلى سوف نعرض بايجاز لكل من هذه القضايا .

١ ـــ الاحياء الاسلامى ، خصائصه وأبعاده :

حسبما أشرنا فى الفقرة الســـابقة نالت معظم المجتمعات الاسلامية استقلالها السياسى فى فترة الخمسينات . وبرغم الدور النضـــالى الذى

قاده المناضلون الدينيون للحصـــول على الاســـتقلال فقد سيطرت الصفوات العلمانية على النظـــام السياسى . وبدأت محاولاتها الدؤوبة فى تحديث المجتمع من داخل الاطار الغربى . وجاءت رياح السبعينات بغير ما تشتهى السفن الاســـلامية . فالتنمية التى حاولتها معظم هـــذه المجتمعات تعيش أزمة حقيقية بل انها تحقق معدلات سالبة فى بعض المجتمعات . والاستقلال الســـياسى افتقدته فعلا بعض المجتمعات بعـــد حروب تآمرية قادتها القوى الغربية ضـــد قواعد التحدى فى هـــذا العالم . وبدأ البعض الآخر يفقد استقلاله الاقتصـــادى ليدخل فى دائرة التبعية ممهدا الطريق لسقوطه فى دائرة التبعية الســـياسية من جديدة .

غير أنه برغم حالة اليأس القاتلة التى بدأت تســـود العالم العربى والاســـلامى والعالم الثالث . بدأت تباشير الاحياء الاســـلامى ، حيث بدأت فترة زمنية شـــهد خلالها تكاثر الحركات وجماعات وأفكار اســـلامية ، بدأت تشـــكل فى مجموعها بدايات احياء اســـلامى ، بحيث انتهت هـــذه الفترة بانتصـــار الثورة الاسلامية فى ايران ، وقيام المقاومة الافغانية فى أفغانستان (١١٧) ومقتل الملك فيصل واحتلال المســـجد الحرام فى مكة ، حتى مقتل السادات فى مصر مرورا بأحداث الهلاك الخصيب ولبنان .

وأدرك العالم أنه أمام ظاهرة جديدة يمكن تحديدها بأنها بعثا أو احياء اســـلاميا . وتساءل الباحثون هل يعنى الاحياء الاســـلامى احياء للتعاليم الاســـلامية ، أم أنها حركة دينية راديكالية تستهدف أن يكون الاســـلام أساسا للســـلطة السياسية ، أو ممارسة الحكم بالنظر اليه من خـــلال تأسيس حكومة ثيوقراطية أم الاثنين معـــاً ؟ (١١٨) . أم أن هـــذا الاحياء وان كانت له أصـــوله فى القرآن والسنة ، الا أن هـــذا المفهوم قد يشير الى انتظار ظهـــور المهدى المنتظر أو الامام الشيعى الغائب ، أم يشير الى اعادة الحيوية للعقيدة والطقوس الاســـلامية ؟ (١١٩) أم أنه يستخدم لكى يعنى شـــكلا فعالا ومسيسا للاســـلام ، هـــذا الى جانب الاستخدام المتزايد للشرعية والرموز الاســـلامية على مســـتوى الفعل السياسى ...

وعلى هذا النحو يشير الاحياء الاســلامى الى التسيس المتزايد للأيديولوجيات والرموز الاســلامية فى المجتمعات الاســلامية والحياة العــامة للبشر من المســلمين (١٢٠) . وهــو ما يعنى تميز الاحياء الاســـومى بالخصائص الأساسية التاليــة .

١ — فهو عودة الى الوثائق الاســلامية فى أصولها النقية والصحيحة . هــذه الوثائق هى القرآن كتاب وسنة الرســول .

٢ — وهــو من ناحية ثانية عودة الى اعتبار الاســلام دين ودولة يشــمل الحياة العــامة للمجتمع مثلما يشــكل الضمير الخاص للفرد . ومن ثم فهو حركة سياسية الى جانب كونه احياءاً دينيا .

٣ — أن احياء السبعينات يتميز بكونه حركة جماهيرية تقودها صفوات دينية متنورة وملتزمة بالأصــول لفرض التصــور الدينى على الصفوات السياسية فى العالم الاســلامى .

٤ — أنها حركة لها رؤيتها المستقلة فهى تنطلق من مأساوية الحاضر نحــو اعادة ترتيب دار الاســلام ، وهو تجســيد لايمان مستمر ورمزى بالمهــدى المنتظــر أو الامام الغائب الذى يأتى ليملأ الأرض عدلا بعــد أن ملئت جورا .

٥ — ان هــذا الاحياء قد تقوم به جماعات المعارضة الاســلامية للنظــام القائم . وقد تقوم به الحكومات فى المجتمعات الاسلامية بحثا لاستكمال الشرعية الناقصة ، وقد تقوم به الجماهير والقيادات الدينية فى مواجهة فســاد الصفوات المغربة كما حدث فى ايران .

واســتنادا الى تحــديد الخصائص الموضوعية للاحياء الاســلامى نجد انه قد برزت ثلاثة اتجاهات أو مواقف بشأن هــذه الظاهرة .

ويعتبر موقف القائمون بالاحياء هو الموقف الأول ويحاول هــذا الموقف تبرير شرعية الاحياء الاســلامى تارة من خلال البرهنة الدينية ذاتها كالقول

بالامام الغائب عند الشيعة .. أو القول بحديث الرسـول الذى يذهب الى أنه بعد كل مائة عام سوف يظهر فى أمتى رجل يصلح لها امـور دينها .
أو قد تتجه الى تفنيد شرعية السلطة العلمانية القائمة . حيث قامت هـذه السـلطة بتأسيس التنمية الاقتصادية الاجتماعية فى ظل الاطار الغربى متخلية عن الاطار الاسـلامى . وهو الأمر الذى دفع الجماهير للانسحاب من المشـاركة ، لكى تعطى المبرر للسـلطة العلمانية لتمارس حكمها فى ظـل شروط غير ديموقراطية وهو الأمر الذى يتنافى وروح الاسـلام .
بالاضافة الى ذلك تولت الانظمة السياسية اخضاع السـلطة الدينية تحت دعـوة أن ذلك من متطلبات التنمية ، غير أنه مع انتكاسة التنميـة فانه آن الأوان لرفض الصفوات العلمانية وتصوراتها . وأنه اذا كانت الصفوة المغربة قد فشلت فى التنمية ، وسقطت فى اسار التبعية فلنجرب البديل الاسـلامى لانه يدعو الى التقشف ، والى البناء الاقتصادى والى الاعتماد على الذات .

ويشير الموقف الثانى الى موقف الصفوة السياسية الحاكمة فى الأقطار الاسـلامية . فهناك مجموعة من الصفوات التى تدين القيادات الدينية التى تحاول تسيس الاسـلام بأنهم سلفيون جامدون يريدون الرجوع بالمجتمع الى الوراء ، وأنه ينبغى ارشادهم الى جادة الصواب ، ولا مانع من سحب البسـاط من تحت أقدامهم باصدار بعض القوانين المسـتندة الى الشريعة الاسـلامية كقانون الأحوال الشـخصية وقانون الردة كما فعل السادات فى مواجهة الجماعات الاسـلامية فى مصر (١٢١) . بينما قيادات سياسية أخرى تؤكد بأنهم يفعلون ذلك لكى يستولوا هم على مقاليد الحكم وأنهم بذلك انانيون لا يتصرفون عن تجربة كما ذهب الرئيس أيوب خان وذو الفقار على بوتو فى الباكستان . بينما يذهب فريق آخر من الصفوات السياسية الحاكمة الى القـول بأنهم مرتدون أو أنهم عصبة من المنحرفين الذين أساؤوا فهم الاسـلام ، أو أنهم مجموعة من البشر تعانى من نوع من الهلوسة الدينية(١٢٢) كما ذهبت السـلطات السعودية فى تشخيصها لمن قاموا باحتلال المسـجد الحرام فى اليوم الأول من القرن الخامس عشر الهجرى . وهو ما يعنى أن

النخب الحاكمة فى العالم الاســلامى ترفض ظاهرة الاحياء وتحاول ادانتها باعتبارها لا تعبر عن روح الاســلام .

ويعبر الموقف الثالث عن موقف القوى الغربية ــ التى استعمرت غالبية المجتمعات الاســلامية فى المــاضى ومازالت تواصل عمليــة استنزافها ــ من ظاهرة الاحياء الاســلامى ، وهو الموقف الذى يتحدد من خلال ثلاثة عوامل أساسية . ويتمثل العامل الأول فى الأهميــة والتأثير الاقتصادى المتزايد للأقطــار البترولية ، خاصــة أن معظمها مجتمعات اســلامية . أما العــامل الثانى فيرتبط باهتمام القوى الغربية بأمن واســتقرار أقطار الخليج العربى وبخاصة أمن المملكة العربية الســعودية ، حيث تهدد الأمن الاستراتيجى لمنطقــة الخليج بواسطة ســقوط نظام الشاة وتأثير الثورة الاســلامية فى ايران على المنطقــة ، والتدخل العســكرى السوفيتى فى افغانستان ، ثم سيطرة بعض المتحمسين الدينين على المســجد الحرام فى مكة فى نوفمبر ١٩٧٩ . ويرتبط العامل الثالث والأكثر أهميــة بموجة الاحياء الاســلامى الجديدة التى بدأت تنتشر فى المجتمعات الاســلامية حيثما يعيش المســلمون . فقد أدى انهيار القومية الثورية فى العالم العربى فى الستينات باعتبارها الأيديولوجيا الأساسية الى خلق مناخ ملائم لنمو وانتشــار البديل الاســلامى . وفى السبعينات بدأت تشــكل حركات الاحياء الاســلامى الأيديولوجيا الرئيســية لجماعات المعارضة بغض النظر عن طبيعة النظام الســياسى السائد (١٢٣) . ويعتبر العداء التاريخى بين الغرب والاســلام هو العامل الرابع الذى أسهم فى تحــديد موقف الغرب من هــذه الظاهرة . وهــو الموقف الذى تميز بادانتها تارة أو تقــديم تفسيرات تآمرية لهــا تارة ثانيــة (*) .

(*) من التفسيرات التى يطرحها مفكروا الغرب لظواهر الاحيــاء الاســلامى القول مثلا بأن ارتداء الفتاة الشرقية للحجاب لظروف اقتصادية بحتة ، حيث ترتدى الفتاة الجامعية هــذا الزى لكى تغطى عجزها الاقتصادى عن متابعة خطوط الموضة لزميلاتها ، أو القول بأنهم يرتدون الحجاب لاخفاء سلوكهن المنحرف أمام المجتمع ، لأن هــذا الزى يمنحهم قدراً كبيراً من الحرية

٢ ـ تفسير الاحياء الاسـلامى ، المنظورات الأساسية :

تباينت مواقف القوى المختلفة المتصلة بظاهرة الاحياء من هـذه الظاهرة فقد رأته بعض القـوى باعتباره وسـيلة للتغيير والثورة(١٢٤) ومن ثم فهو يشير الى بداية عصر جديد للمجتمع الاسلامى • بينما رأت فيه قوى أخرى تهديدا لمصالح أساسية لها فى الأوضاع الراهنة ، وتطرفت قوى أخرى فرأت فيه تهديدا لأمن النظام العالمى فهو يهدد بشمول ٧٠٠ مليون من سـكان العالم ، وهو فى منطقـة تضم البترول الطـاقة الرئيسية التى يعتمد عليهـا النظام العالمى ، هـذا بالاضافة الى الخوف من عمليـة البعث الحضارى لهذه المنطقـة ، وهو بعث سوف يضيف بالتأكيد ـ من وجهة نظر هـذه القوى ـ عناصر فوضى جديدة الى الفوض التى يعانى منهـا النظام العالمى . بيد أن المدهش فى القضية أن هنـاك اقترابا فى المواقف بين بعض الصفوات السياسية الحاكمة من ناحيـة وبين القوى الغربية من ناحيـة أخرى .

واسـتنادا الى هـذه المواقف الأيديولوجية طرحت تفسيرات نظرية كثيرة تحاول فهم أقرب الى الموضوعية والحقيقة لظاهرة الاحياء الاسلامى . بحيث يمكننا أن نميز فى الكتابات الكثيرة التى تناولت هـذه القضية بين أربعة منظورات أساسية حاولت تفسير هـذه الظاهرة .

(ا) ويعتبر منظور التحديث من المنظورات التى تقـدم وجهة نظـر متكاملة فى هذا الصدد . حيث يدرك منظروا التحديث أنه من خـلال عمليـة التحديث خضعت بعض الأقطار التى استعمرت سابقا ـ ومنها معظم

والثقة بهم . أو القول بظهور الاحياء الاسـلامى كرد فعل لفشـل التنمية أو أزمتهـا ، ومن ثم فلولا أزمة التنمية لمـا كان هناك احياء اسـلاميا . والمدهش والمثير للحزن أن يكرر بعض الباحثين العرب هذه التفسـيرات التآمرية دون القدرة على التفرقة بين المتغيرات المستقلة والتابعة والوسيطة فى تناول القضـية .

المجتمعات الاسلامية — لتغيرات جذرية فى نظامها الاجتماعى والسياسى التقليدى ، بما فى ذلك الدين والقيم الدينية انتقلت بها الى نظام اجتماعى حديث . ويشارك فى هذا الرأى جمع كبير من الباحثين سواء كانوا ذوى توجهات ماركسية ثورية ، أو ذوى توجهات ليبرالية . وبغض النظر عن اختلافاتهم الأيديولوجية فالشىء المؤكد أن كلا الفريقين يبدأ من رؤية مزدوجة للحقيقة الاجتماعية .

ويتمثل جوهر عمليـة التحديث فى أنها العمليـة التى من شأنها أن تولد أبنية ورموزا تتـولى صياغة التكامل الاجتماعى وتحل محل نظائرها القديمة . بحيث يسـاعد ذلك على وضع أساس جديد للمجتمع ، وللهوية وللشرعية . واذا كان المفكرون الثوريون فى هـذا المنظور يرون أن بامكان القيم والبناءات التقدمية والحديثة أن تحل محل القيم والأبنيـة التقليدية والمحافظـة فان ذلك يتم عادة من خـلال الثورة . فى حين ترى المجموعة الليبرالية أن ذلك يحدث من خلال تغير تدريجى متعدد المراحل . غير انهم وان اختفاء تكنيكيا الا أنهم يتفقوا على أنه مقدر على الدين والقيم الدينية أن تفقد دورها الاجتماعى الصريح . ومن ثم فاذا تلكأت البناءات والقيـم الحديثة فى الظهـور — أيا كانت العوامل المسـئولة عن ذلك — فان ذلك من شـأنه أن يدعم عملية أحيـاء القيم الدينية التى كان مقدر عليهـا أن تفقـد دورها .

وبغض النظر عن التباينات الأيديولوجية داخل معسكر التحديث فالمؤكد أن وجهة النظر هـذه لا تقدم تفسيرا مقنعا لظاهرة الاحياء الاسـلامى . أولا لافتراضها تناقض التحديث مع الاسـلام ، وهو أفتراض غير صحيح منطقيا . وثانيا لأنها تفترض أنه لولا أزمة التحديث لمـا كان الاحياء الاسلامى وثالثا أن وجهة النظر هذه تفشـل فى تفسـير استمرار بقـاء حركات الاحياء الدينى برغم اطراد التحديث وعـدم تعرضه لأزمة .

(ب) ويتعلق المنظور الثانى بمفهـوم المجتمـع المزدوج أو المهجـن Daul or Hybird Society . وهو المنظور الذى يسـود عادة لدى بعض

علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا • ويشير هـذا المنظور الى احتمالية استمرار بقاء الولاءات والمعايير والأبنية الاجتماعية التقليدية أثناء عمليـة التغير الاجتماعى . ويؤكد هـذا المنظور على قدرة البناءات والتوجهات التقليدية على البقاء من خلال التكيف أو اكتساب أدوار جديدة . وفى كثير من الاحيان تستفيد هـذه الأبنية من الوسـائل التكنولوجية الحـديثة لدعم التقاليد (كما هو الحال فى العربية السـعودية) . والنتيجة الحتمية لذلك هو وجود مجتمع يضـم بنائين اجتماعيين ، ونسـقين قيمين يتعايشان مع بعضهما البعض .. من ثم تميل التفاعلات — الخاصـة بالتعاون والصراع — بينهما الى الزيادة . هـذا الى جانب تغير ميزان القوة بينهما من وقت لأخر ، بحيث يعتمد ذلك على طبيعـة الظروف . بدون أن يكون فى مقدور أى منهما أن يفرض انتصارا كاملا . ويعتبر هذا التناقض جوهريا بالنسبة لمعظـم الأقطـار التى خضعت للاستعمار . ومن ثم ، فانه حسب هـذا الرأى ، فان البعث الاسـلامى يعكس الظروف الخاصـة بالعالم الاسـلامى أو بدرجة أكثر تحديدا — يعكس الظروف الخاصة بعدد من الأقطار الاسلامية و (توازن القوى) الذى يسـود فى اطارها •

ويصف هـذا المنظور أوضاع المجتمعات النامية أثناء عمليـة التحديث هـذه . غير أنه اذا اسـتمرت البنـاءات التقليدية الى جانب الحـديثة باعتبارها شـكلا بنائيا دائمـا ، فان هـذا الشكل البنائى المزدوج يكون مشوها الى حد كبير ، ذلك أنه من المفترض أن تكون الازدواجية حالة سريعة ومؤقتة فى تاريخ المجتمع الذى يواجه بعمليـة النمو • بالاضافة الى ذلك نجد أن هـذا المنظور ينطلق من فرضية أساسية خاطئة وهو أن التحديث لا يمكن الا أن يكون شـكلا بنائيا يحل محل الأشـكال البنائية القـديمة وبطبيعة الحال يلغى فكرة الاستمرارية البنائية أو امكانية أن تتحدث الابنيـة التقليدية من خلال استيعاب الجديد أو من خلال تطـوير ذاتها للتكيف ما هو جديد . الى جانب ذلك يعانى هـذا المنظور من التمركز حول شـكل التحديث الغربى باعتباره الشـكل الذى لابد من التوجه نحـوه اذا أردنا تطـوير المجتمعات التقليدية وتنميتها .

(جـ) ويشكل منظور الأصالة ــ التغريب Westernisation - authenticity المنظور الثالث فى هــذا الاطار . ويقدمه مناصروا الجماعات الاســلامية . ويبدأ هــذا المنظور من قناعة أساسية تؤكد على أساسية الاســلام والتعاليم الاســلامية فى تاريخ المجتمعات الاســلامية . وحســبما يذهب هــذا المنظور ، ينظر الى مجيء البناءات الغربية الحديثة ، أو مجموعة القوانين والأفكار الغربية باعتبارها جزءاً مكملا لعمليــة الاستعمار . ويتبع ذلك اعتبار كثير من جوانب التحديث الذى يستلهم الأيديولوجيا الغربية كجزء من الميراث الاستعمارى ، أو من حيث كونه رمزاً للتبعية ونتيجة للســيطرة الاستعمارية التى ينبغى القضاء عليهــا . وحينئذ تعتبر العودة الــى الاســلام عودة الى الأصــالة وتأكيداً على الكبرياء القومى واســتقلال التفــكير (١٢٥) .

وبرغم صدق الوصف الخارجى الذى يقدمه هــذا المنظور لعمليــة التفاعل بين الأصــالة والتغريب . الا أنه لا يصف لنا ديناميات التقابل هذه ، ولا أسباب العودة الى الأصالة والاســلام والظروف التى حكمت ذلك . ثم أنه لم يوضح لنا أى أصالة وأى اســلام ينبغى الرجوع اليه . هــذا الى جانب اغفاله تحــديد الأساليب التى تتكيف بها الأصالة والاســلام مع ظروف الواقع المتغير فى المجتمعات الاســلامية .

(د) ويتحدد المنظور الرابع بناء على طبيعة بناء ودينامية الاســلام ذاته كعقيدة تحكم توجهات المســلمين . ويستلهم هــذا المنظور الحديث النبوى القائل (على رأس كل مائة عام يظهر رجل فى أمتى يصلح لها أمور دينها) . وهو ينطلق من ادراك أن الاســلام يمتلك تصوراً لمــا ينبغى أن يكون عليه المجتمع الاســلامى . وإذا كان النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) قد تمكن فى البداية من تأسيس المجتمع الاســلامى حسب مبادىء التصور الاســلامى فانه كان من المنطقى أن تحدث فجوة بين التصور والواقع لثلاثة عوامل : الأول بسبب التغيرات المتجددة التى قد تطرأ على الواقع بما يجعله

يختلف عن الواقع الذى تطابق مع التصور الاســلامى الأساسى . ويتمثل العامل الثانى فى خفوت نزعة التجديد والابتكار والابداع الاســلامى حسب مناهج أقرها الاســلام ذاته ، ومن ثم فسيادة حالية من الجمود تعنى تخلف الفكر عن متابعة حركة الواقع وتفاعلاته • ويشير العــامل الثالث الى خطوات جذوة الحماس الذى ميز المرحلة الاولى من تاريــخ الاســلام ، وهى المرحلة التى تميزت بالبنــاء والنضال ، وهو الأمر الذى يؤدى الى تردى أحوال المسلمين من البشر ، وفى ظل ذلك قد تظن بدعا جديدة تدفــع بطبيعتها الى ظهــور من يذكر بأصــول التصور الاســلامى ومتطلباته ومدى انحــراف الواقع عنه تجسيدا لقول رسول الله : (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمــان) .

وتطبيقا لذلك نجد ان عصور الانحطاط فى المجتمعات الاسلاميــة تشهد عادة دعاة اســلاميون يذكرون دائمــاً بالأصول الصحيحة للاســلام ، ويطالبون أن يتطابق الحاضر والمستقبل مع الماضى من حيث قدرته علــى الفعالية والأصالة والابداع والتجديد .. فمع بداية التحلل الذى بدأ يصيب الخلافة العباسية التى شــاع فى بلاطها الترف الذى تسرب اليهــا من الامبراطورية البيزنطية فى العصر الأموى أو من الامبراطورية الفارســية المعاصرة لها ، ظهر الفقيه الاســلامى أحمد بن حنبل الذى حمل لواء الدعوة السلفية ونادى بالعودة الى الاســلام فى أصــوله النقية والصحيحة . وعندما زحف المغول بقيادة هولاكو للقضــاء على معالم الخلافة العباسية ، وبرغم اعلانهم لاسلامهم ، فقد كانت دار الاســلام فى خطر . وكان لهذه الفترة أن تثبت فكرها بظهور الفقيه الأصــولى أحمد بن تيمية الذى قاد دعوة صلبة للجهاد ضد المغول ، بل اننا نجد أن أحمد بن تيمية قد أصبح الآن من أبرز مصــادر الالهام للحركة الأصولية الاســلامية الجديدة (١٢٦) .

واستنادا الى ذلك يمكن النظر الى الدعوات النضــالية التى قادها محمد بن عبد الوهاب فى الجزيرة العربية وجمال الدين الافغانى فى العــالم

الاســــلامى ومحمـــد عبده ورشـــيد رضا فى مصر والمهدية فى السودان والسنوسية فى ليبيا باعتبارها دعواتها قامت فى قلب انهيار المجتمعـــات الاســـلامية ونادت بضرورة العودة الى الاســـلام فى أصـــوله الصحيحة . بل أن هذه الدعوات قد تمكنت فى بعض الاحيان من تأسيس دولا اســـلامية كالوهابية بالنسبة للســـعودية والسنوسية فى ليبيــا ، بينما نجح البعض الآخر فى التحول الى أحزاب سياسية كالمهدية فى السودان(١٢٧) . وبنفس المنطق يمكن تفسير ظهـــور شخصيات مثل حسن البنا وأبو الأعلى المودودى ، وســـيد قطب باعتبارهم بشرا حاولوا الرجوع الى روح الاســـلام حينما دب الفســـاد والتردى فى دار الاســـلام (١٢٨) .

ويقترب هـــذا المنظور من تقـــديم رؤية دورية لتاريخ الحضـــارة ، وعبورها بين مراحل القوة والضعف ، وبرغم أنه يمتلك قدرا من المعقولية المنطقية والامبيريقية الا أنه يحتاج الى قراءة دقيقة ومتعمقة تتناول الظروف التى تفرض دخول المجتمعات والحضارة الاســـلامية مراحل الانهيار والضعف ثم ظروف الانســـان الذى يظهر لكى يصلح أحوال أمته ثم مدى النجاح الذى يصيبه أو الفشل الذى يواجهه تهدف الوصول الى مجموعة من القوانـــين والتعميمات التى تحـــكم ديناميات انتقال الحضارة الاســـلامية وحركتها داخـــل التاريخ .

وتكشف القراءة المتعمقة والدقيقة للمنظورات الأربعة الســـابقة التى حاولت أن تقـــدم فهما للاحيـــاء الاسلامى عن تبينها لمجموعة من الفرضيات التى تحتاج الى الاختيار بالنظر الى المعطيات المتوفرة لتحديد مدى صدقها ، ونذكر فيما يلى أهم هـــذه الافتراضات .

١ — يذهب الفرض الأول الى أن الصفوات الحاكمة فى المجتمعات الاســـلامية قد تشجع نمو الجماعات الاســـلامية كوسيلة لكسب الشرعيـــة أو استكمال الشرعية الناقصة ، أو كتكتيك لتوجيه الانتباه العـــام عـــن موضوعات معينة . أو للقضـــاء على مناوئيها . وبصـــفة عامة نجد أنه كلما افتقدت الصفوة الحاكمة فى المجتمع الاســـلامى لشرعية وجودها ،

كما لجأت الى الرموز الاســـلامية للحصول على موافقة الشرعية الدينية او استكمال شرعيتها بالدين .

٢ ــ على مســـتوى الجماهير نجد أن الاســـلام يقدم اطار مرجعيا لهويتها الجمعية ، ورمزا لاعتدادها بذاتها ، ووعيا له جذوره فى تاريخهـــا وتراثها .. وذلك فى مواجهة التغلغل الأجنبى والســـيطرة الثقافية . ومن ثم فتأكيد المفكرون الاســـلاميون على الأصالة يتم عادة كدفاع فى مواجهـــة الأفكار المستوردة .

٣ ــ ويتبع ذلك أن الاحياء الاســـلامى يعتبر فى جانب منه رد فعل للتحديث ، ليس باعتباره تحديثا ولكن لنوع معين من التحديث ، أعنى التغريب الذى يتجاهل وفى بعض الاحيان يستخف بالتراث القومى ورموزه الثقافية . ومن ثم فهى تبرز فى المقدمة أهميـــة المكون الثقافى والتراثى فى عمليـــة التحديث ، وضرورة تعبئة الموارد الداخلية غير المـــادية لتحقيقه .

٤ ــ انه يحدث عادة فى الموقف الذى تسوده الضغوط الاقتصادية والاغتراب الاجتماعى والثقافى ، أن تجـــد الشرائح الدنيا من الطبقـــة المتوسطة نفسها منجذبة لدعوات الجماعات الاسلامية . حيث تعـــد هـــذه الجماعات ميكانيزما دفاعيا تستخدمه هـــذه الشريحة لحماية مكانتها الاجتماعية من الانهيـــار والتردى الاكثر ، بل وتساعد من ناحيـــة أخـــرى على تكامـــل نســـقها القيمى .

٥ ــ أدى التوسع الشـــامل فى التحضر فى الفترة الأخيرة الى توفير المـــادة البشرية الخام للجماعات الاســـلامية . فمثلا شهد العالم العربى هجرة جماعية داخلية من الريف الى المدن مما أدى الى زيادة كثافة الاخيرة . ولقد تعددت نتائج هـــذه العملية ابتداء من التأثير على اضعاف المصـــادر التقليـــدية للتضامن ، الى جانب بروز مشـــكلات الهوية والشـــعور بالاغتراب والتوتر (١٢٩) .

٦ ــ يتحمـــل التركيب الديموجرافى ذو الطبيعة الخاصة للعـــالم

الثالث بعضا من مسئولية عدم الاستقرار الذى يعانيه هذا العالم . اذ يضم تركيبه الديموجرافى تضخما فى حجم الشريحة الشبابية . وبسبب التعليم ، وتسبب استناد البناء الاقتصادى والمهنى الى التأهيل المهنى الذى ينجزه النظام التعليمى ، وأيضا بسبب صراع الأجيال وثورة الشباب العالمية ، فاننا نجد أن هذه المجتمعات يسودها — لأسباب كثيرة — الرفض الشبابى . واذا كان الشباب فى المجتمعات المتقدمة يتمرد على التعقيد الذى أصاب الحياة بحثا عن انبساطة ، فليس هناك ما هو أكثر بساطة من الاسلام فى مواجهة تعقيدات الحضارة الغربية القادمة .

٧ — من الواضح أن كثيرا من مجتمعات العالم الثالث وبخاصة المجتمعات الاسلامية تعانى من ظاهرة الفراغ الأيديولوجى . حيث لا يمتلك النظام السياسى ايمانا محدداً ، بمعنى توجها أيديولوجيا واضحاً يقود حركة المجتمع ويتم استيعابه من خلال تدريب وتنشئة الجماهير حسب معاييره . وفى موقف الفراغ الأيديولوجى يبحث الشباب عن ايمان يوجه فعله ويحكم مشاركته فى التفاعل خاصة اذا داهمته طلائع الثقافة والتوجهات الغربية بقيم لا يستطيع التكيف معها — لظروف مادية ومعنوية — هنا وفى مواجهة هذا المأزق لا يجد الشباب أمامه سوى الرجوع الى الدين . فى أصوله النقية والبسيطة ، خاصة اذا نشطت الجماعات الاسلامية لتقديم البديل الاسلامى اشباعا لهذه الحاجة وملئا للفراغ .

٨ — ان الحضارة الاسلامية — التى يشكل الدين عنصرها الجوهرى — ككل الحضارات ، تمر بفترات من الضعف والقوة . هذا الى جانب تميز نموذج هذه الحضارة بسيطرة الدين على الدولة . ومن ثم تتميز فترات الضعف والانهيار الحضارى بضعف هذه السيطرة أو انحسارها . بينما تتميز فترات القوة باستعادة هذه السيطرة لفاعليتها . واذا كان القرن التاسع عشر قد شهد عملية شاملة خضع فى اطارها المجتمع والحضارة الاستعمارية للقوة الغربية ، فانه كان منطقيا أن يشهد القرن العشرين بداية الصحوة الحضارية . فقد تبدأ هذه الصحوة الحضارية

بالحصـــول على الاستقلال السياسى لكنها سوف تتجه بالتأكيد نحـــو بناء الهوية الصحيحة للأمة المستقلة والمسلمة .

٣ ـــ الاحياء الاســـلامى ، ظروفه وعوامله :

يتركز جهدنا خلال هذه الفترة على محاولة تحديد الظروف والعـــوامل المســـئولة عن بروز ظاهرة الاحياء الاســـلامى فى هـــذه الفترة التاريخية بالذات ، وبهذه المنطقـــة بالتحديد . وفى هذا الصدد يمكن تصنيف العوامل أو المتغيرات المســـئولة عن هـــذه الظـــاهرة بالنظـــر الى المســـتويات أو الأنماط التاليـــة :

(أ) مجموعة المتغيرات المتعلقة بجوهر بناء الدين الاســـلامى ذاته . وفى هـــذا الصدد نحاول تحـــديد الوزن النسبى للمتغير الدينى باعتباره متغيرا فاعلا فى عمليـــة الاحياء ، بغض النظـــر عن الظروف الداخليـــة أو الاقليمية التى استوجبت ذلك .

(ب) مجموعة المتغيرات المتعلقة بالبنـــاء الداخلى للمجتمعات التى شهدت محاولات للاحياء الدينى فى اطارها . ما هى الظروف والأزمات التى استوجبت عودة البشر فى المجتمع الى التمسك بمعتقداتهم وتعميق الارتباط بها .

(جـ) مجموعة المتغيرات الاقليميـــة ، ذلك بافتراض أن المجتمعـــات الاســـلامية تقع فى أى من الأقاليم أو النظم الثلاثة أو فيهما معا ، ومن ثم فهناك بالطبع تلك التأثيرات التى يعتبر النظام الاقليمى مصدرا لها .

(د) مجموعة المتغيرات المتصلة بظاهرة الاحياء الاســـلامى ، ويشكل النظـــام العالمى مصدرا لها ، من حيث فاعليـــة تأثيره على التفاعل داخل هـــذه المجتمعات .

بيد أنه برغم هـــذا التصنيف المبدئى لمجموعة المتغيرات التى يحتمل تأثيرها ، فاننا نرى من الضرورى تحديد طبيعة الدور الذى لعبته فى ظاهرة الاحياء حسب الصيغة المنهجية المتفق عليهـــا ، بمعنى تحديد ماهية المتغيرات

المستقلة بينها وهى المتغيرات التى بدونها يستحيل التفاعل الاجتماعى ، ثم مجموعة المتغيرات التابعة ، تلك التى يشهد تواجدها على فاعلية المجموعة الأولى ، فهى تعتبر نتائج لها ، ذلك بالاضافة الى مجموعة المتغيرات الوسيطة وهى التى تشكل فى مجموعها اطارا ملائما لقيام التفاعل بين المجموعة الأولى والثانية . فمن شأن هذه التفرقة أن تساعدنا كثيراً على معرفة الأسباب الحقيقية للظاهرة موضع الدراسة . وسوف نعرض بايجاز لكل مجموعة على حدة .

(ا) الدين كمتغير أساسى فى عملية الاحياء

لطبيعة بناء الدين الاسلامى وعناصره البنائية المكونة فانه يمكن اعتباره أحد العناصر أو المتغيرات ذات الفاعلية فى ظاهرة الاحياء الاسلامى . ذلك انه منذ هبوط الوحى المبشر بهذه الديانة ، لم يكن القصد اعادة توجيه سلوكيات البشر بما يتسق ومعايير الخير والنقاء ، بقدر ما قدم الاسلام تصور متكاملا لامكانية قيام تنظيم اجتماعى يستند الى الدين بصورة كاملة . واذا كان القرآن قد قدم التصور الشامل لهذا المجتمع من حيث طبيعته وعناصره المكونة ، فان أحاديث الرسول وأقوال الصحابة والخلفاء الراشدين وأفعالهم حاولت أن تقدم منهجا لطريقة التعامل مع الاحداث اليومية التى يواجهها المجتمع الاسلامى بالنظر الى المقولات التى وردت فى القرآن المنزل . بيد أن استكشاف التصور الذى يمتلكه الاسلام فيما يتعلق بهذه الظاهرة يوضح تميزه بالخصائص التالية :

١ — يرفض الاسلام الفصل بين العام والخاص ويعتبر ذلك خطأ(١٣٠). وهو الأمر الذى يعنى ان هناك علاقة عضوية بين المجالين ، بحيث يمكن القول بأن هذه العلاقة العضوية بين الدين والسياسة ، هى التى تميز المجتمع الاسلامى الصحيح . فعلى خلاف المسيحية ، لا يقتصر الاسلام على المجال الخاص ، وهو المجال الذى يتحكم فيه الضمير الفردى . فالاسلام بطبيعته ديانة وتنظيما اجتماعيا (دين ودولة) ومن ثم فهو يتغلغل فى كل

جوانب السلوك الانسانى . ويعتبر هذه بايجاز خاصية أساسية للمجتمع الاسلامى (١٣١) .

ومن شأن ذلك أنه اذا تراجع التصور الدينى الى مستوى الضمير الفردى الخاص ، فمعنى ذلك أن البعد السياسى فى الاسلام وهو الخاص بالتنظيم الاجتماعى مغفل أو معطل ولا فاعلية له . وابطال اعمال حدود الدين يدخل فى دائرة الاثم وهو الامر الذى يفرض ضمنيا أنه على المسلمين لكى يتجاوزوا هذا الوضع الآثم أن يناضلوا لكى يتم العمل فى التنظيم الاجتماعى بالنظر الى الاسلام عملا بقول الرسول (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، وان لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الايمان) وهو الأمر الذى يمنح مشروعية واضحة لجماعات الاحياء الاسلامى فى نضالها لفرض التصور الاسلام .

٢ — ويرتبط بذلك أنه نظرا لعدم انفصال الدين عن الدولة فى الاسلام كما هو حادث فى المسيحية . أنه اذا تراجع الدين فى بعض الفترات الى مستوى الضمير الفردى فان ذلك يعنى حدوث فجوة بين المجتمع والدين ، وهى الفجوة التى يكون لها آثارها على التنظيم الاجتماعى وعلى الأفراد الذين استوعبوا الدين متكاملا ، ومن ثم فكلما تفقه الانسان دينيا كلما أدرك هذه الفجوة . ومن ثم نجد أن أئمة الدين هم أول من يدركوا أن ثمة خطأ قائم ، ومن ثم يصبح واجبا عليهم بحكم قيادتهم الدينية المفوضة اليهم من قبل الجماهير والمعينة عليهم من قبل الدين ، أن ينبهوا الى ذلك ، بل وفى حالة عدم الاستجابة عليهم أن يعبئوا الجماهير المسلمة الى اصلاح الخطأ . بحيث جعلهم ذلك أدوات للدفاع عن الاسلام ، داعين دائما الى يقظته . هذا الى جانب اعتبارهم الهدف الرئيسى الذى ينبغى اخضاعه اذا أردنا اخضاع الاسلام .

ويكشف البحث التاريخى أن أئمة الاسلام هم الذين عادة يدركون الفساد القائم وعدم تطبيق حدود الاسلام ، ومن ثم فهم الذين يدعون عادة الى الأصولية الاسلامية ، أى الرجوع الى الاسلام فى أصوله

الصحيحة والنقية اذا كان ثمة خطر يتهدد دار الاسـلام من الداخل . فقد ثار الفقيه أحمـد بن حنبل داعيا الى الأصولية حينما دب الفسـاد داخل الاسـلام ابان الخلافة العباسـية ، حيث نادى بضرورة العودة الى الأصـول الأولى والنقية للاسلام . فالاسلام كان صالحا فى المـاضى ، وما يزال صالحاً فى الحاضر والمسـتقبل ، فالقوة والعظمة التى حققتها مبادىء الاسـلام يمكن اسـتعادتها فى أى وقت بنفس المبادىء (١٣٢) . وقد أكمل الفقيه أحمـد بن تيمية الدعوة الى الأصولية حينما هدد فسـاد المغول بقيادة هولاكو الخلافة العباسـية من الخارج . واذا كان احمد بن تيمية يعتبر من أبرز مصـادر الهام الحركة الأصولية الاسـلامية الجديدة ، فاننا نجده قد قاد ــ فى زمانه ــ دعوة صلبة للجهد ضد المغول ، اذ اعتقد أنه لا يكفى لصحة اسـلامهم مجرد اعلانهم اعتناق الاسـلام (١٣٣) . وقد ظهر الفقيه محمد بن عبـد الوهاب حينما ظهرت ممارسات فاسدة فى الجزيرة العربية تهدد بالعودة الى حالة شبيهة بالوثنية من جديد . وظهر جمال الدين الأفغانى الذى حرض على اغتيال ناصر الدين شاه فى ايران وناصب الخلافة العثمانية العداء حينما دب فيها الضعف والتحلل ، وهكذا بالنسبة لمحمد عبده ورشيد رضا فى مصر ، والسنوسية فى ليبيـا ، والمهدية فى السـودان (١٣٤) . وفى القرن العشرين حينما أشاعت الصفوة العلمانية الفسـاد فى البـلاد وحينما أخضعت الاسـلام للدولة ظهر حسن البنـا وأبو الأعلى المودودى وسـيد قطب (١٣٥) .

ذلك يعنى أن الاسلام كنظام فكرى ثيولوجى له ديناميانه الخاصة ، التى تذهب الى الظهور التلقائى لدعاة ينادون بالعودة الى الاصول اذا تهدد المجتمع خطر الانهيار . وفى العادة تظهر الدعوة الى الأصولية الاسـلامية أو الدينية اذا توافرت الشروط التالية .

(ا) عجز الاطار الاسلامى عن التكيف مع متغيرات الحاضر التـى استجدت ، وقد يتمثل سبب العجز فى استحداث بدع جديدة لم تكن بالاسـلام بل وقد تتناقض مع مسلماته الأساسية ــ كما حدث فى الحركة الوهابية ــ

بحيث تتكثف هــذه البدع وتتراكم حتى تكاد تقضى على هوية الأمة . ومن ثم تصبح الحاجة ملحة لضرورة تنقيح كل ما هو حاضر عن طريق العودة الى الأصول الأولى باعتبارها محكا للقياس والحكم .

(ب) تعرض المجتمع الاســلامى لتيارات تجديد قادمة من الخارج ، كما حدث بالنسبة لتأثير الثقافة الغربية وانتقالها الى الشرق • خاصــة اذا كان مضمون التأثير لا يتكيف أو يتلاءم ومتطلبات التصور الاســلامى ، ومما يزيد الأمر سوءا ان الصفوة السياسية داخل المجتمعات الاســلامية قد تأخذ جانب الثقافة الغربية فى عمليــة الصدام الحضارى . فى مقابل ذلك نجد أن الجماهير بتراثها وقياداتها الدينية تقف على الطرف المضاد . قد تنجح الصفوة السياسية فى فرض قيم الثقافة الوافدة ، غير أن الانتصار الحاسم والنهــائى يظل فى جانب الجماهير الحاملة للقيم الاســلامية ــ والتى تطالب باستيعاب القيم الجديدة ــ خاصــة اذا تواجدت قيادة دينية مجددة وقادرة على تطــوير متغيرات تراثها كما حدث فى تركيا بعد الانتصار المرحلى لكمال أتاتورك ، حيث تشهد تركيا الآن صحوة اســلامية جديدة .

(ج) ان حــركة الاحياء تحدث اذا توفرت ظروف الصدام . ومن ثم يحدث الاحياء فى أكثر المناطق والأزمنة التى يسودها تهديد بانتشار الفساد ، غير أنه لابد من ادراك هــذا الفساد ، وادراك عــدم تلاؤمه مع التصور الاســلامى ، وادراك أخطاره أو آثاره المحتملة على بنية المجتمع الاسلامى .

(د) ظهــور القيادة الدينية الواعية والمجددة والقادرة على الابداع . فليس يكفى وجود القيادة الدينية المحافظــة بصرامة على أصــول الدين أو المدركة لمخاطر الفساد ، وانما لابد أن تكون هــذه القيادة قادرة على ابراز قدرة الأصــول على التعامل مع متغيرات الواقع المتجددة واستيعاب متضمناتها بدون أن يؤثر ذلك على ملامح أصالتها .

اذا توفرت هــذه الشروط ، فان الاحياء لابد أن يقوم من داخل بناء الاســلام ذاته تصديقا لقول الرســول عند كل حول سوف يظهر فى أمتى رجل يصلح لها أمور دينها . وهو الأمر الذى يجعل الاســلام فى ذاته متغيرا

أساسيا فى الاحياء الاســـلامى اذا تعرضت المجتمعات الاســـلامية لما يهدد بانتشـــار الفساد فى اطارها .

٣ ـــ وتشـــكل نظرية الاســـلام فى التاريخ الخاصية الثانية فى هذا الصدد . فالبحث فى الدين الاســـلامى يكشف أن لديه مفهوما محددا عن التاريخ . اذ يدرك المسلمون التاريخ باعتباره عملية تغير يستبدل من خلالها المجتمع الطبيعى بالمجتمع الاســـلامى الحقيقى ويحل محله . بحيث يتجسد ذلك فى صراع وقع تاريخيا ، ووصل الى منتهاه فى شكل تأسيس المجتمـــع الاســـلامى الأول تحت قيادة النبى محمد . وبتحقق هـــذا الانجاز التاريخى ، الا يصح لدى التاريخ دروسا نتعلمها منه . ومن ثم فاذا بدأ تغير فى الأفق عن ما هـــو قائم ، فهو بالتأكيد تغيرا الى الأسوأ ، والأسوأ ضرر ينبغى التصدى له بالعلاج ، ليس من خلال ابتكار شىء أو علاج جديد ، ولكن عن طريق تجديد ما هو قائم فعلا . وبهذا المعنى ينتشر الصراع فى التاريخ الاســـلامى حينما يبتعد تنظيم المجتمع الاســـلامى عن النموذج الحقيقى للمجتمع الاســـلامى . ومن ثم تظهر الحاجة الى المجدد (المجتهد) الذى يعتبر الخطوة التمهيدية لظهور حركات الاحياء الاســـلامى (١٣٦) .

ذلك يعنى أن التغير فى المجتمع الاســـلامى لا يعنى انتقال المجتمع من مرحلة الى مرحلة تالية حسبما تذهب النظرية الغربية ، وان الطور التالى عادة ما يكون أكثر ارتقاء من الســـابق عليـــه كما تذهب مقولات هـــذه النظرية .. ولكنه يعنى بالأساس قدرة المجتمع على صياغة تكيف بين المتغيرات الجديدة التى طرحتها النسبية المكانية والزمانية التى تشـــكل بيئة المجتمع الاســـلامى من ناحية وبين التصور الجوهرى لنموذج المجتمع الاســـلامى الحقيقى كاطار مرجعى من ناحية أخرى . وهو ما يعنى ضرورة أن يكون التجديد من الداخل أصلا ، ثم عـــدم تغيير أى من العنـــاصر الأساسية المكونة للتصور الاســـلامى . يؤكد ذلك ما يذهب اليه الفقيه أحمـــد بن تيمية انه اذا كان استلهام مبادىء الاســـلام صالحا فى المـــاضى ، فانه لا يزال

صالحا فى الحاضر وصالحا فى المستقبل . ان القوة والعظمة التى حققتها هــذه المبادىء يمكن استعادتها فى أى وقت بواسطة نفس المبادىء(١٢٧) .

٤ — وتشــكل نظرية المعــرفة فى الفكر الاســلامى أحد خواصه الرئيسية . فنظرية المعــرفة الاســلامية القديمة ليست بحثا عن المجهول . ولكنها عملية ميكانيكية تتمثل فى تجميع ما هو معروف ، وهو الذى يدرك باعتباره أبديا ومسلما به . ومن الواضح أن وضع النظرية الاســلامية فى المعرفة بالنسبة للواقع يختلف عن وضع النظرية الغربية فالأولى تمتلك مقولاتها صدقا مبدئيا يصل بها الى مرتبة القوانين التى لا استثناء لها . ويصبح دور المنظر (المجتهد الدينى) هو توضيح كيف يمكن للنظرية أن تستوعب متغيرات الواقع المتجددة عن طريق مناهج الاســلام المختلفة فى هــذا الصدد . أما الثانية — النظرية الغربية — فمقولاتها تمتلك صدقا احتماليا وتظل ساعية أبدا للتحول الى مرتبة القوانين ، ومن ثم فهى تطور نفسها حسب تغيرات الواقع وتعدل من بنائها لتلاحق تغيراته وقد تختلف صــورة بدايتها عن التصور النهــائى الذى وصلت اليه — هــذا بخلاف اختلافات كثيرة أخرى ليس محلها الآن — . وكنتيجة لذلك لا يمكن التخلى عن أى من عناصر التراث الاســلامى باعتباره قد أصبح قديما ، أو يمكن تجاوزه أو لم يصبح موضع اتفاق (١٢٨) . وفى نفس الوقت يسلم المسلمون بأن الحلول التى تطرح للمشكلات الاجتماعية فى أيامنا هــذه تعتبر مسائل معقدة وتتطلب تشريعا جديدا ؛ وهو الأمر الذى يثير بدوره قضايا جوهرية تتعلق بمن الذى يحق التشريع ، وبالنظر الى أى سلطة . وفى هذا الاطار نجد أن كل فلســفة القانون الاســلامى متضمنة فى هــذا الاطار . بحيث تثير قضايا أخرى يتعلق بالدســتور السياسى للدولة ، والتمثيل السياسى وطبيعة الســلطة السياسية . ومن ثم تكون فى حاجة الى اطار جديد للمعرفة ، اطار ينبغى أن يحتوى على الأفكار الحديثة التى يوافق عليهــا الاســلام . وقد يتضمن ذلك انتقاء بعض المفاهيم ورفض أخرى ، أو تعديل ثالثة بما يتم الاتفاق عليــه فى ضوء تعاليم الاســلام . ولا يعتبر بين ما ينبغى ولا ينبغى استيعابه غريبا على التراث الاســلامى . حيث تمت ممارسته من

قبل أهل السنة والجماعة تحت قيادة الخلفــاء الراشدين . ولكى يمكن انجاز ذلك فى القرن العشرين ، فان ذلك يتطلب التسليم بالسلطة الاسلامية الكاملة على الدولة والمجتمع . وقد شـــكل البحث عن هــذا التنظيم الالهام الذى ألهم كثير من الاتجاهات المعاصرة فى الاحياء الاســلامى (١٣٩) .

٥ — ويعتبر وجود المســجد بوظائفه المتعددة أحد الخواص الرئيسية المميزة للدين الاســلامى . وأيضا أحد الوســائل الأساسية فى عمليــة الاحياء الاســلامى . واذا كانت بعض المجتمعات الاســلامية قد شهدت تكاثرا فى الثمانينات للجماعات والحركات الاســلامية فان المسجد قد أصبح مرة ثانية مركزا للتعبئة والاشــارة السياسية . تستخدمه هــذه الجماعات لتنتقى عضويتها من بين أكثر أعضائه طهارة واعتقادا . ولقد أهل المســجد لآداء هــذا الدور باعتباره بيت الله ، محرم الاقتتال أو اللغو به . ثم هــو أكثر الأماكن ابتعادا عن يد الســلطة السياسية . ثم هو أكثر أماكن الحديث صدقا وتدينا . فاذا تحول المســجد من مجرد مكان لآراء طقوس الصلاة ، الى مكان تناقش بداخله شــئون المسلمين والمجتمع المســلم ، فانه بلا شك سوف يلعب دوراً أساسيا وهاما فى عمليــة الاحياء الاســلامى . يؤكد ذلك الملاحظات الكثيرة التى تذهب الى تغير الدور الذى لعبه المســجد فى فترات الانهيار والدور الذى لعبه فى فترات النشــاط والفاعلية . الدور الذى لعبه المســجد فى ايران أبان الثورة الايرانية مقارنا بالدور الذى لعبه المســجد فى المجتمعات السنية المحافظة .

(ب) عوامل الاحياء من داخل المجتمعات الاســلامية :

تأكد لنا من استعرضنا للمتغير الدينى فى عملية الاحيــاء امتــلاك هــذا المتغير لفاعلية مستقلة بغض النظر عن التفاعلات التى تتم فى اطار الواقع الاجماعى التى يمكن اعتبارها ظروفا مهيئة لاكتمال فاعليته . وفــى هــذه الفقرة سوف نعرض لمجموعة الظروف أو العوامل التى لعبت دورا فى نشأة ظاهرة الاحياء الاســلامى . ويكشف الاستعراض المبدئى لهذه العوامل أو الظروف عن انتمائها للمستويات البنائية التالية :

١ ـــ الظروف أو العوامل المنتمية الى نسق الثقافة والقيم .

٢ ـــ الظروف أو العوامل الناشئة الناتجة عن التفاعل فى النسق الاجتماعى .

٣ ـــ الظروف أو العوامل المتعلقة ببناء الشخصية لأعضاء جماعة الاحياء .

١ ـــ الظروف أو العوامل المنتمية الى نسق الثقافة والقيم :

والحالة الافتراضية والأساسية التى ينبغى أن يكون عليها نسق الثقافة والقيم فى أى مجتمع من المجتمعات ، تستوجب امتلاك هذا المجتمع لنسق من القيم والمعايير قادر على توجيه المجتمع على مستوى التفاعلات الاجتماعية ، وقيادة الفرد على مستوى سلوكياته الاجتماعية والفردية . والمفترض أيضا أن يمتلك المجتمع مجموعة من المؤسسات التى تعتبر وسائله فى تنشئة الأفراد الجدد فى المجتمع حسب منظومته القيمية المتفق عليها . فاذا امتلك المجتمع نسقين قيميين ، أو عانى من عدم امتلاكه كلية لنسق من الثقافة والقيم ، أو أعلن نسقا قيميا لكنه لم يمتلك الوسائل التى تتولى تطبيع الافراد وتنشئتهم حسبما يذهب نسق القيم والمعايير ، فان هذا المجتمع يعانى من حالة الانومى ، جزئيا أو بصورة كاملة ، وهو الأمر الذى يفرض قدرا من الحيرة والتناقض والتوتر الناشىء عن السلوكيات الفردية التى تفتقد الأطر التى تتولى توجيهها وقيادتها . واستنادا الى ذلك نجد أن بناء الثقافة والقيم فى المجتمعات الاسلامية قد عانى من مظاهر الضعف التالية :

فمن العوامل التى أسهمت فى اضعاف بناء الثقافة والقيم فى المجتمعات الاسلامية ، أن هذه الأخيرة قد تعرضت منذ اتصالها بالعالم الغربى الى انتقال القيم والثقافة الغربية اليها من خلال الاستعمار العسكرى تارة ، أو من خلال الصفوات الوطنية العلمانية التى تولت نقل هذه القيم تارة أخرى . وبرغم انتقال هذه القيم الى الشرق

الاســــلامى فانها لم تكن القيم المســـيطرة اجتماعيا . وفى هـــذا الصدد فنحن لا نستطيع أن ننكر أن التكنولوجيا والقيم الغربية كانا لهما تأثيرهما على الصـــفوات الحاكمة فى المجتمعات الاســـلامية ، بل وعلى خلفياتها الاجتماعية . غير اننا لا نستطيع أن ننكر فى ذات الوقت غياب هـــذا التأثير الفعال عن ٩٠٪ من جماهير المجتمعات الاســـلامية . واذا كانت الجماهيرية قد تعرضت بصورة واضحة لفاعلية الثقافة الغربية فى العشرينات والثلاثينات من هـــذا القرن ، فان بامكان المرء أن يتساءل هل أصبحت الجماهير علمانية كالصفوة ؟ الرد على ذلك يؤكد انه ليس هناك دليل كاف على اهتزاز اســـلام البشر العاديين أو أن الاســـلام قد توقف عن أن يصبح مصدراً للشرعية من وجهة نظر غالبية هـــذه المجتمعات . قد ير نفى بعض المسلمين الاســـلام — بعد التعليم فى الخارج — الاسلام كمصدر للشرعية ، غير أنه من العسير على الفلاح الذى هاجر الى القاهرة أو طهران أن يتجاهل خلفيته الدينية(١٤٠) بعد أن هاجر الى مجتمع المدنية .

ذلك يعنى أنه وان تغلغلت قيم التحديث الغربية ، فانها مازالت مقصورة على نطـــاق ضيق للغاية ، بل ومازالت على مستوى القشرة الخارجية فقط . ومن ثم فاذا كان التحديث مقصورا على الصفوة العلمانية ، وهى شريحة ضيقة . الا أن هـــذه الصفوة هى التى تمتلك مقاليد القوة . ذلك فى مقابل الجماهير التى وان حافظت على قيمها الاســـلامية غير أنها تفتقد امتلاك القوة اللازمة لفرض تصوراتها ، بل اننا نجدها خاضعة للقهر . فاذا تأسست ظروف الصدام فاننا نجد أن الأيديولوجية الاســـلامية المعاصرة تمجد قيم الأصالة الاســـلامية فى مقابل انتقادها للقيم الأجنبية خاصـــة القيم الغربية . وفى اطار الفكر الاسلامى وأيديولوجيته الدفاعية نجد ان كلمة الغرب West والتغريب Westernization ترتبط عادة — فى معظم المجتمعات الاسلامية — بالنزعة الاستعمارية الحديثة ، أو الصليبية المعادية للاســـلام . ومن ثم تصبح كل المفاهيم الغربية بغيضة بالنسبة لذوى التوجهات التقليدية . ومن ثم

فينبغى رفضها بقوة . وأن كانت هـذه المفاهيم تثير فى نفس الوقت اعجاب الشباب المسـلم الذى تجاوز الولاءات التقليدية بحثا عن التقدم والتحديث والحرية الثقافية ، وذلك من خـلال الوسائل التى تثبتت فعاليتها فى تاريخ الحضارة الغربية منـذ نهاية القرن الثامن عشر (١٤١) .

ويمكن القول بأن هـذا التناقض فى بناء الثقافة والقيم قد أدى من ناحية الى الانفصال بين الصفوة المكلفة بقيادة المجتمع وتوجيهه ، وبين الجماهير التى ينبغى أن تعمل على تجسيد توجيهات الصفوة ، مما أدى امكانية أن تطرح الصفوة العلمانية تصوراً لامكانية التنمية حسب قيم التغريب التى اعتقدتها ، وانسـحاب الجماهير عن المشـاركة لأن هـذه التنمية لا تعكس قيمها ، وقد يسوء الأمر فتعمل على تقويض قيمها وممتداتها ، ولذلك آثاره فى شكل مزيد من تخلف المجتمع وانفصال القيادة عن الجماهير .

— وتعتبر الازدواجية البنائية من الظواهر التى تسود المجتمعـات الاسـلامية وتؤثر على بنية الثقافة والقيم بها . واذا أخذنا مثالا على ذلك ، فسوف نجد أن المثقفين المصريين قد فشلوا فى صياغة تأليف بين الاسـلام والتحديث . أو فى تحديد دور الاسـلام فى نطاق عمليـة التحديث . ونتيجة لذلك ظهرت حالة من الفوضى المستمرة . حيث نجد علاقة ذات طبيعة خاصة بين التحديث والقديم . يتواجدا دون تفاعل أو استبدال للعناصر الجديدة لكى تحل محل نظائرها القديمة . هـذا التعايش المعى من شأنه أن يؤدى الى خلق حالة من الازدواجية البنائية . وفى مجال الفكر والقيم ، نجد أن هناك مجتمعين قد قررا الاستمرار فى البقاء ، كل له عالمه الثقافى والعقلى ، ووعيه الجماعى المختلف ، كل منهما له نظامه التعليمى والتربوى ، ورواده ورموزه الثقـافية . ويوضح نمط التنميـة الذى بدأ فى مصر منـذ نهاية القرن التاسع عشر هـذه الازدواجية .

وكمثال على تأسيس هـذه الازدواجية نجد أن محمد على واسماعيل قد اتبعوا فى نهاية القرن السـابق استراتيجية تنموية قاموا خلالها بتأسيس النظم والأبنية الجديدة بدون القضاء على نظائرها القديمة . ووفقا لذلك

فقد تأسست نظم المحاكم والقوانين الحديثة الى جانب قواعد الشريعة الاسلامية . وتأسست المدارس الحديثة الى جانب المدارس والكتاتيب القديمة . وقد اتبعوا هذه الاستراتيجية لتجنب المواجهة مع رجال الدين . غير انه حسبما يذهب دانيل كريسليوس Daniel Crecelius فان هذه الازدواجية قد أدت الى نوع من التشعيب المدمر فى كل المجالات . حيث نجد أنفسنا فى النهاية فى مواجهة مجتمعين ، أحدهما حديث حول المفاهيم والنظم المستوردة ، بينما يرتبط الآخر بقوة — وأحيانا بقدر من الحيرة والتردد الموتر — بالقيم والعادات التقليدية ، ومن الطبيعى أن يدخل كل منهما فى حالة من المنافسة الضارية مع الآخر (١٤٢) . وبطبيعة الحال فان احتمالات الصراع تظل قائمة فى داخل هذا البناء المزدوج تتفجر حينما يتجاوز أى المجتمعين على رموز الآخر ، ويدوم طالما استمرت هذه الازدواجية ، وطالما امتلك كل من طرفى انصراع القوة التى من المحتمل أن تساعده على كسب نتائج الصراع لصالحه .

— وتشكل ظاهرة الفراغ الايديولوجى أحد مظاهر اهتزاز نسق الثقافة والقيم فى المجتمعات الاسلامية . ونقصد بظاهرة الفراغ الأيديلوجى عدم امتلاك الصفوة السياسية لتوجهات أيديولوجية واضحة تستطيع بالنظر اليها توجيه المجتمع وقيادة الجماهير ، أو أن تذيع الصفوة السياسية الحاكمة توجها أيديولوجيا يتباين وتوجهات الجماهير . وكمثال على الحالة الأولى نجد أن المجتمع المصرى قد عانى من مشاعر الاحباط التى انتشرت فى اطاره بين ٦٠ — ١٩٨٠ . فقد ظهر خلال هذه الفترة جيل من الشباب واجه هزات عنيفة وساحقة . فقد عرف هذا الجيل أن عبد الناصر قد حقق كثيراً من المنجزات . فقد أسقط الملكية ، وأمم قناة السويس ، وجعل مصر زعيمة معترفا بها فى العالم العربى ، وأسس نظاما اجتماعيا أصبح مثالا يحتذى فى العالم الثالث . وبدأ هذا الجيل يدرك أن أكبر الأهداف يمكن أن تقع فى متناول يده وفى نطاق قدرته . وفجأة تقع كارثة يونيو ١٩٦٧ ، وبدأ أن كل شىء قد ضاع ، وأن كل منجزات الماضى كانت سرابا قضت عليه كارثة الحرب (١٤٣) .

وفى لحظة أدركت أجيال الشـــباب ان كل الشعارات التى رفعت أصبحت لا معنى لها . وقد اكتشف أن قيادته لا تمتلك ايمـــانا حقيقيا ، ومن ثم فهو بالتالى لا يفتقد ايمانا ، ومن ثم فعليه أن يبحث عن ايمان يوجه فعله وسلوكه ، واذا كان الشـــباب فى المجتمعات المتقدمة قـــد هـــرب من تعقيد الحيـــاة الى البســـاطة حيث حياة أشـــبه بحياة الطبيعة فى بساطتها . فانه بالنسبة للشـــباب المسلم ليس هناك ما هو أكثر بســـاطة من الاســـلام ومن ثم فاذا كان ناصر قد نجح فى ضرب الاخوان المســـلمين لأنهم لم يقتنعوا بشعاراته الأيديولوجية ، فان الســـجون قد قوت ايمانهم بالتضحية . واذا كان حسن البنـــا قد سلك سلوكا مسالما فى مواجهـــة صفوة علمانية مراوغة لكنها ليست شرسة.فقد كان أبو الأعلى المودودى هو الذى الهم الشباب هـــذه المرة ، حيث أصبح لهم اماما مثلما أصبح سيد قطب بالنسبة لهم شهيدا . وكرد فعل لهذا الفراغ أو عـــدم الصدق الايديولوجى فقد قرروا الدخول الى اطار الفكر المطلق حيث لا مساومة بين جتمعين وعقيدتين ، لم يعد أمامهم الا الجاهلية أو الاســـلام وآلا حاكمية البشر تعترض الطريق أمام حاكمية الله (١٤٤) .

وتتمثل ظاهرة التباين الأيديولوجى فى امتلاك الصـــفوة لتوجهات أيديولوجية تختلف عن توجهات الجماهير . ومن ثم نجد أنه بغض النظر عن مصداقية وفعالية الشعارات الأيديولوجية التى تعلنها الصـــفوة فانها عادة ما تكون مقصورة عليهـــا وعلى خلفيتها الاجتماعية والجهاز الادارى الذى يجسد سياساتها ، فى مقابل ذلك نجد أن الجماهير تمتلك توجهاتها التى تختلف بالتأكيد عن توجهات الصـــفوة . ويتســـع التباين اذا لم تحاول الصـــفوة تدريب الجماهير على أيديولوجيتها ، أو اذا لم تستجيب الجماهير لأيديولوجية الصـــفوة بالنظر الى اعتبارها مغتربة عن تراثها ، وغير فعالة فى تحديث مجتمعاتها .

وتشكل ظاهرة عـــدم الاستمرار الأيديولوجى احد المظاهر الهامة لضعف البنية الثقافية والقيمية فى المجتمعات الاســـلامية . حيث تتيح

الاستمرارية امكانية التربية للجماهير فى ظل التوجه الأيديولوجى ، وامكانية استيعاب الجماهير لها من خلال التفاعل معها ، وهو الأمر الذى لم يتسح بالنسبة لمعظم المجتمعات الاسلامية . واذا أخذنا مصر مثالا على ذلك فسوف نجد أن السادات يوجه النقد الى المرحلة الناصرية ويرفض التراث الاشتراكى لعبد الناصر ويؤكد فى مقابلة له مع ممثلى الغرف التجارية والصناعية أن الرأسمالية لم تعد فى مصر جريمة ، بل اننا نجده يسخر من التفرقة بين الدول العربية على أساس أنها تقدمية أو محافظة . والسعودية التى كانت عدو المرحلة الاشتراكية ، أصبحت هى الصديق الأول لمصر فى مرحلة الانفتاح وهو الأمر الذى دفع الى تأسيس محور الرياض — القاهرة بين ١٩٧٢ — ١٩٧٧ . وعلى المستوى العالمى رفض النظام المصرى الاتحاد السوفيتى باعتباره معاديا وانتهازيا وله ميول استعمارية . هذا فى مقابل الاقتراب من الولايات المتحدة بل وزيارة اسرائيل فى نوفمبر ١٩٧٧ . ثم عقد معاهدة الصلح فى كامب ديفيد .

هذه التقلبات شكلت صدمة لأجيال الصغار ، فقد رأوا الناصرية قد اختفت . فلم تعد صور ناصر ، ولم تعد تذاع الأغانى له . لم يكن ذلك تقييما لسياسة ناصر ، ولكن ابرازا لآثاره السلبية أمام الشباب فى مصر . وفضلا عن ذلك فشل النظام فى تقديم الرموز البديلة للناصرية . وقد تكون سياسة الانفتاح — التى شكلت أيديولوجيا المرحلة التالية — ملائمة للمقاولين أو رجال الأعمال ، غير أنها تحمل القليل الذى يمكن أن تقدمه للشباب الذين يطرحون تساؤلات تتعلق بهوية دورهم فى المجتمع . والنتيجة تخلق حالة من الفوضى الأيديولوجية والاغتراب والتسطيح وهو الموقف الذى يشخص بأنه حالة من الأنومى التى يمر بها المجتمع حيث يجد الشباب أنفسهم محاطين بالقيم القديمة التى نشأوا فى ظلها ، وقيم الموقف الجديد الذى عليهم أن يتعاملوا معه . وفى قلب هذه الحالة من الفوضى ، يقدم الاسلام مجموعة القيم والمعايير الشاملة ، والفعالة أو القادرة ، حيث يقدم الهوية المؤكدة التى يبحث الشباب عنها (١٤٥) .

ذلك يعنى أن نسق القيم فى المجتمعات الاسلامية كان يعـانى من جوانب ضعف عديدة بعضها يرجع الى وطأة القيم الغربية أو لحدوث ظاهرة الازدواجية البنائية ، أو تأسس ظاهرة الأنومى الجزئية أو الشـاملة . وهو الأمر الذى دفع الى ضرورة البحث عن بديل مستوعبة قيمه فى بنـاء الشخصية للبشر فى المجتمع المسلم وقادر فى نفس الوقت على تطـوير المجتمع والانتقـال به الى أشكال أخرى كتلك التى وجدت فى مراحل قـوة الاسـلام . وقد تمثل هـذا البديل فى الرؤية الاسـلامية التى قدمتها الجماعات الاسـلامية المناضلة .

٢ ــ الظروف أو العوامل الناتجة عن التفاعل فى النسق الاجتماعى :

يعتبر النسق الاجتماعى هو الاطار الذى يتم فى نطاقه التفاعل بين البشر الافراد فى المجتمع . والنسق الاجتماعى يتم بداخله مجموعة المجالات التى يتحرك ويتفاعل فى اطارها الانسـان ، وهى المجالات التى تعرف اصطلاحيا بالنظم الاجتماعى كالنظام الأسرى ، السـياسى ، الاقتصادى ، والدينى ، وشـبكة العلاقات الاجتماعية ، وغير ذلك من النظم الاجتماعية . وسوف نحاول فى هـذه الفقرة تحـديد مجموعة العوامل التى تنطلق من مختلف النظم الاجتماعية والتـى كان لهـا تأثيرها فى اثـارة ظاهـرة الاحياء الاسـلامى .

وتعتبر أزمة التحديث والتنميـة التى وقعت فى بعض المجتمعـات الاسـلامية من العوامل التى ساعدت على ظهـور الاحياء الاسـلامى فى اطارها . ومنطق ذلك أنه اذا كانت الصفوة العلمانية قد اختارت التحديث على الطريقة الغربية ، فان عـدم تقديم انجاز تنموى واضح فى هـذا الاتجاه سوف يكون مؤشرا على فشلها ، وهو الأمر الذى يعنى أن عليهـا أن تخلى الطريق لغيرها . هـذا الى جانب أن فشل التنمية على الطريقة الغربية سوف يعنى بالتأكيد مزيدا من الارهاق والتوتر لجماهير لم تشـارك أصلا فى هذا الاختيار ولم تباركه . واذا كان دانيل ليرنر قد ذهب الى أن

الأقطار التى واجهت التحديث فى الشرق الأوسط هى الأقطار الأكثر سعادة واستقرار مقارنة بتلك التى مازالت تعيش فى اطار التراث التقليدى (١٤٦) . فاننا لا نتفق معه لأن الأقطار التى واجهت التحديث فى الشرق الأوسط هى بالتأكيد الأقطار التى واجهت التوتر والتمزق وهى التى ظهر فيهـا الاحياء الاسلامى . ولنا أن نتساءل ، اليست ايران ومصر وتركيا هى الأقطار التى سبقت الى التحديث ؟ ثم اليست هى الأقطار التى تعانى قدرا أكبر من التمزق ؟ ومن ثم كانت هى الأقطار التى ظهرت فيهـا عمليات الاحياء الرافضة التحديث على الطريقة الغربية .

ولتوضيح علاقة أزمة التنمية والتحديث بظهور الاحياء ، نجد أن التنمية تعنى منـذ البداية العمل على رفع مستوى المعيشـة ؛ فان هـذا الهدف لم يتحقق فى المجتمعات الاسـلامية التى حاولت التحديث والتنميـة . ولنأخذ تركيا مثالا على ذلك . حيث قدم أحـد الاقتصاديين ورجال التخطيط الأمريكيين تقريرا عن الأوضاع الاقتصادية فى تركيا فى ١٩٤٩ . حيث ذهب الى انه برغم حدوث الثورة الشـعبية وبرغم مرور ربع قرن من الزمان ظهرت خلاله شـعارات النجـاح المدوية فقد ترك معظم البشر (١٨ من ٢٠ مليون) حيثما كانوا بالضبط قبل قيام الثورة التى الغت وجه الاسـلام من تركيا . ويمكن القول أن الأحوال الاقتصادية قبل الثـورة يعتقد أنها كانت أفضل اذا قورنت بما هو سائر الآن (٤١٧) .

بالاضافة الى ذلك فان التحديث والتنمية الغربيـة يؤدى فى بعض الأحيان الى اشـاعة التوتر وعـدم التكيف فى المجتمع . ونستشهد بحالة ايران كمثال فى هـذا الصدد . حيث أدى ارتفاع أسـعار البترول فى ١٩٧٤ الى زيادة الدخل القومى مما دفع الشـاه الى البدء فى برنامج هائل للتنمية الاقتصادية . ولقد استوجب ذلك اعادة ترتيب معظم عناصر البناء الاقتصادى ، وربما قطع أواصر النسيج الاجتماعى للمجتمع التقليدى نصف القبلى . وقد أدى البرنامج التنموى الذى بدأ فى ١٩٧٦ الى تذسيس مشاعر متنامية من التوتر والغيظ . فقد صاحب القضـاء على النظم التقليدية خلق

نظم سياسية بديلة لا تستطيع أن تؤمن التكيف مع التغيرات الجديدة التى تقع • وقد بدا أن هــذه التغيرات ليست الا ممارسات عقيمة وجهدا خاويا لا يستطيع أن يجذب دعم الا حفنة ضئيلة من التجار والمثقفين المستفيدين من هــذا المشروع الاقتصادى الجديد . ولقد أدت الانفاقات الهائلة التى أنفقها الشــاه لجعل ايران يابان الشرق الأوسط الى أن أصبحت القوة أكثر تركيزا بل جعلت النظــام يستند بدرجة أكثر الى بيروقراطية متخلفة متخمة بطاقة عالية من الفساد لم يسبق له نظير (١٤٨) .

الى جانب ذلك فقد تضل التنمية الطريق الى الاســتخدام الأمثل للموارد . وفى هــذا الصدد نجد ان الخطأ الأساسى الذى وقع فيه الشــاه أثناء عمليــة التنمية اتجاه نظامه الى الاستفادة من كثافة رأس المــال ، وليس من كثافة اليد العاملة فى تأسيس المشروعات الاقتصادية . وارتباطا بذلك كان هناك مال وفير وسلع مستوردة أكثر ، بحيث أدى هــذا الوضع الى غياب العــدالة الاجتماعية . بالاضافة الى ذلك فقد أدى نقص العمالة المــاهرة فى ايران الى استيراد العمالة الجماعية من الهند والباكستان وكوريا الجنوبية . ولقد أدى وجود هــذه العمالة الى اثارة التوترات . ولقد أدت كثافة رأس المــال المشاركة فى التنمية وبناء المشروعات الجديدة واستيراد الســلع الى التعجيل باندفاع حــركة جماهيرية للســكان من القرى الى المــدن والعاصمة طهران . ومثال ذلك أنه فى عشرين ســنة (١٩٥٦ ــ ١٩٧٦) نمت طهران من ٥ر١ مليون نسمة الى ٥ر٤ مليون نسمة حيث كانت الزيادة ٢٠٠٪ تقــريبا . وزادت أصفهان من ٢٥٠ر٠٠٠ الى ٦٧٠ر٠٠٠ وسجلت تبريز والأهواز ، ومشــهد وشيراز ذات الزيادة . وقد يجد المهاجرون العمل فى المــدن والعواصم ، غير أنهم فقراء يظلوا بلى مأوى أو خدمات . ومن ثم تكاثرت المناطق المتخلفة ، وضاع تماسك المجتمعات الريفية ، غير أنهم مع ذلك ظلوا مسلمين شيعيين يستجيبون لدعوات قادتهم الدينيين المضاديين للشــاه . وفضلا عن ذلك فقد كان معظم الســكان تحت سن العشرين ، وفى نفس الوقت هم الذين يعيشون فى المناطق المتخلفة ، وقد التحقوا بالمدارس والجامعات حيث كان ظهر

الســـائك ينتظرهم ليمارس عليهم وهى الظروف التى فجرت النزعات الراديكالية لديهم (١٤٩) (*) .

ويتصل التحضر المشوه فى العالم الثالث بعملية التحديث على الطريقة الغربية • ونقول التحديث المشوه نظرا لأنه لا يأخـــذ فى الاعتبار تحديث المجتمع فى معية واحـــدة ، ولكنه بدلا من ذلك يشيع حالة من الانقســـام البنائى . حيث يتم تركيز الجهد التنموى فى المدن والعواصم الأساسية . أولا لأن بها الحشد الحضرى . الذى يخشاه النظام الســـياسى ولتركز الجهاز الادارى فى الدولة بهذه المناطق . هـــذا الى جانب توفر بنـــاء الخـــدمات الأساسية بدرجة ملائمة أو أيضا توفر فرص الحياة المختلفـــة فى اطارها بدرجة تتجاوز كثيرا مستوياتها المناظرة فى الحياة الريفية • بحيث ادى ذلك فى مجمله الى انطلاق عقال الهجـــرة من الريف الى المدينـــة . وهو الأمر الذى له عادة نتائجه الخطيرة . فمثلا بلغ عـــدد سكان المجتمع الريفى المصرى فى سنة ١٩٦٠. نحو ٦٠٪ فى مقابل سكان الحضر الذى لم يتجاوز نحـــو ٤٠.٪ فى هـــذه الفترة . نجـــد فى ١٩٧٦ أن حجـــم ســـكان الحضر قد بلغ نحـــو ٤٤٪ بينما تناقص ســـكان الريف ليصلوا الى نحـــو ٥٦٪ ومازال الاتجاه الى التناقص مستمرا (١٥١) . ومن شأن ذلك أن يثقل كاهل بناء الخـــدمات فى المدينة ويفرض أعبـــاء متجددة غلية ، ومن ثم تظهر مشـــكلة الاسكان والمواصلات ونقص المياه وندرة فرص الحياة بصورة عادة .. ومن ثم فأمام الطموحات المرتفعة للريفيين المهاجرين من

(*) تذكر السيدة (رحمات مختارى) وهى ربة عائلة هاجرت من خمين الى طهران أن راعى الغنم كان لا يتقاضى أكثر من ٣٠ ريالا فى السنة أى نصف دولار لقاء سنة كاملة .. وتذكر أنها كانت تسكن فى كوخ من غرفة واحـــدة بين النفايات القديمة حيث لا نور ولا دفء ووسط جحيم من الرطوبة . ومع الوقت تمكنوا من الصعود الى الوادى لبناء بيت وصلته الكهرباء ، ولوصول المياه كان عليهم أن يدفعوا ٣٦ الف دولار لأن مخطط المياه لا يصل الى هـــذه المنطقة . وحينما ارتفع بناء كبير من شقق مخيمة فى الشـــارع نفســـه يملكه (غلام رضا) شقيق الشاه ، وصلت المياه فى الحال (١٥٠) .

هـذا الجيل . أو الجيل السـابق عليه ، وأمام التواجد المكثف للجهـاز الادارى والسـياسى فى المدينة ، فاننا نجد أن الجماهير الحضرية تكون عادة هى البادئة بالعنف فى مواجهة النظام السـياسى ، وذلك لمعاناتها من مشـاعر الاحباط التى تتخلق فى المسـافة الواقعة بين الطموحات الصاعدة من ناحية وعمق الحرمانات الواقعية من ناحية أخرى . البرهنة على ذلك أن غالبيـة العنف الذى قامت به الجماعات الاسـلامية ، بل والجماهير الحضرية كان فى المـدن والعواصم الأساسية كالقـاهرة والاسـكندرية (١٥٢) .

ولقد ظهرت نفس النتائج والآثار فى طهران ، حيث سادت مشاعر عـدم الرضا بين فقراء الحضر ، وبخاصة هؤلاء الذين هاجروا من الريف ، من المناطق الريفية الى المـدن الأساسية كطهران ، وأصفهان ، والذين تم استيعابهم مباشرة فى صناعات الخـدمات والتشييد والبنـاء . وفى هذه البيئات الحضرية الجـديدة ، اظهر هؤلاء البشر المحافظون أصلا ، رفضا واضحا لتغيير قيمهم التقليدية ونظرتهم للحيـاة . كما أنهم رفضوا أيضا التخلى عن معتقداتهم الدينية فى مجتمع يتغير بسرعة . وفى هـذه الحالة اصبح الكثير منهم مغتربا تماما مرتبكا ، وفاقدا لهويته ، حتى أن أى ملاحظ للأوضاع الاجتماعية الايرانية يمكن تحديدهم باعتبارهم « الأرواح الهائمة Lost,souls » أو أهل الكهف ، أو أنهم أبناء عصر جديد من الجاهليـة ، وهو اللفظ الذى له ايماءاته الدينية الواضـحة ، وبسبب غياب النظم السياسية والاجتماعية التى تستطيع تنظيم مصالحهم والتعبير عنها والسعى لتحقيقها ، فانهم يجدون أنفسهم منجذبين بلا وعى الى النظـام الوحيد الذى يعرفونه ولهم الفة معه ، الى المسجد . وفى المساجد حيث رجال الدين من الملا والمجتهدين الذين يتحدثون بحمية عن الامام الغائب . ويقدمون من خـلال ذلك الراحة والسلوان والأمل . ومن ثم تتكون لدى الجماهير مصلحة متابلة فى ضرورة عودة الامام الغائب . ويصبح الملا هم المتحدثون باسمهم ، والمجتهدين قادتهم طالمـا أنهم لا يستطيعون افراز قادتهم من داخلهم .

وفضلا عن ذلك فان العناصر التى حققت قدرا من المكاسب ، وهم الذين يمكن أن نحددهم بأنهم الطبقـــة المتوسطة ، عادة ما يختلفون هؤلاء البشر وراءهم ، بل ويزدردونهم باعتبارهم أميين أجلاف . وفقراء الحضر أنفسهم لا ينظرون الى المثقفين باعتبارهم قادتهم وذلك بسبب الفجوة الثقافية التى ظهرت بينهما . وهنا يبدأ طوفان الخمينى ، باتجاهاته الشـــعبية لتبنى أحزان المقهورين . ومن ثم يصبح ذلك هو العنصر الرئيسى فى السياسة والحيـــاة الايرانية (١٥٣) . ولا تختلف الأحـــوال كثيرا فى مصر وتركيـــا وكل المجتمعات الاســـلامية التى شهدت ظواهر للاحياء الاســـلامى . فلجوء المســـلمين الى الدين فى أوقات الأزمات ليس ظاهرة جديدة عليهم .

وتعتبر الأزمة التى يعيشها النظـــام السياسى ابان مرحلة التحديث والتنمية أحـــد العوامل الرئيســـية الدافعة لظهور ظواهر الاحياء الدينى . حيث يعانى النظـــام السياسى العديد من الأزمات التى تنتاب بناءه وفاعليته .

ومنـــذ البداية نجد أن معظم الصفوات فى مجتمعات العالم الثالث لها انتماءاتها الطبقية الواضحة التى ترجع الى الشرائح الأرستقراطية كما فى النظم الملكيـــة ، أو الشرائح البرجوازية فى حالة النظم الجمهورية . ومن شأن هـــذه الصفوات السياسية أن تكون لها توجهاتها ذات الطابع الغربى أساسا . وذلك لأنها نشئت فى نظام تعليمى على الطريقة الغربية ، هـــذا الى جانب أن أغلبها ليس له توجهاته الجماهيرية الواضحة . فاذا تواجدت صفوة دينية تغذى انفصال الجماهير عنها على أساس من توجهات الآخرة الدينية . فان الحالة سوف تزداد سوءا اذا فشلت هـــذه الصفوة فى العثور على التوجه الأيديولوجى الواضح ، ومن ثم يتبدى عجزها عن اعادة صياغة التوجهات الجماهيرية .

وتعتبر مسألة الشرعية من القضايا التى تقلق كثيرا بال النظـــام السـيـاسى . وفى هـــذا الاطار نجد أن معظم دول الشرق الأوسط تعانى من مشـــكلة الشرعية الناقصة (١٥٤) . فليس هناك اتفاق شامل وواضح

لحقوق السيادة الخاصة بالقيادة والأنظمة السياسية . بالاضافة الى أن خوف الأنظمة السياسية يتفاقم بسبب حالة عدم الاستقرار التى من الممكن أن تتولد نتيجة لنقص الشرعية ، خاصة اذا ارتبط ذلك بنقص أو تحديد المشاركة السياسية . وفى هذه النقطة يتدخل عامل التعبئة الاجتماعية فى المعادلة . ومن بين الآثار العديدة نشر المعايير الديموقراطية ، وهى المعايير التى — كما لاحظنا سابقا — يمكن ادراكها باعتبارها تتطابق وأفكار الاسلام عن الشورى والمساواة . غير أننا نجد أن القيادات أو النظم السياسية التى تحاول تأسيس بعض قواعد الشرعية الملائمة ، تميل أحيانا من ناحية الممارسة الى دفع حركات المعارضة الى نوع من النضال الأيديولوجى . وعادة ما تعمل النظم القائمة ، فى محاولتها تأكيد ذاتها ، من خلال سلوكها القهرى على تضخيم ونشر المعارضة وأحيانا دفعها بعيدا عن النشاط السياسى السوى (وهو النشاط الذى تمارسه المعارضة الوطنية المخلصة فى الأنساق السياسية القوية) . وفى أحيان أخرى دفعها فى اتجاه نوع من الاعتماد على بعض المنظمات ذات الطابع العسكرى . والى تطويرقدراتها على التعبئة الجماهيرية ، والى العمل السرى ، والتطرف الأيديولوجى . ولما كان على حركات المعارضة وبالمثل رجال السلطة فى المجتمعات الضعيفة نظاميا — والتى تمر بعملية تحديث — أن تعمل لكى تؤمن شرعيتها . فان كلا من المعارضة والسلطة يبحث عادة عن الرموز القادرة على تعبئة الدعم لها . وحسبما تأكد لنا يصبح الاسلام هو الاطار الذى يمكن أن يكون فعالا بصورة كاملة فى تأكيد شرعية المعارضة ، وفى نفس الوقت ، كما حدث تاريخيا فى تأكيد شرعية الأنظمة السياسية القائمة (١٥٥) . ويتوقف موقف الجماهير من دعم المعارضة أو النظام السياسى القائم على حجم الحرمان الحالى الذى تعانيه من ناحية وعلى قدرة المعارضة على اثارة الآمال فى امكانية الاشباع المحتمل لهذه الحرمانات .

وهو موقف يجعل مرتكزات النظام القائم مستندة على بحر من الرمال .

وقد يحاول النظام السياسى ذاته التعامل مع النظام الدينى

اما بضرب رموزه ومؤسساته الدينية ، أو بمحاولة تطـوير موقف القيادات الدينية لصالحه . وفى كلتا الحالتين تعتبر قدرة النظـام السياسى على الاتجار وأيضا على اشباع حاجات الجماهير هى المعيار الرئيسى لقدرته على الكسب . ويمتلىء العالم الثالث ومجتمعات الشرق الأوسط بالقادة الذين يجيدون هـذا الاستخدام البراجماتى للدين . فقد تحاول بعض الأنظمـة السياسية مواجهـة الجماعات ذات التوجهات الدينية بالقهر المباشر . وهو الأسـلوب الذى سلكه النظـام الايرانى فى مواجهته للقيادة الدينية فى المجتمع الايرانى ، حيث قام النظـام بنفى رجال الدين وعلمائه ، والتنكيل بهم حتى أنه من النادر أن توجد مدينـة لم تقدم شـهداء من رجال الدين من مختلف المراتب الدينية فى عصر الشاه ، ابتداء من طهران الى قم الى تبريز ، وشـيراز ، ويزد ، وزنجان ، وكازرون ، أصـفهان ، خمين ، وبابل ومشهد ، وغيرها (١٥٦) . أو كما فعلت الصفوة السياسية لنظـام يوليو ، حينما تحين النظـام الفرصة للقضاء على جماعة الاخوان المسلمين ، ذريعته فى ذلك محاولة النظام الخاص لهذه الجماعة اغتيال جمال عبد الناصر فى ٢٦ أكتوبر ١٩٥٤ فى ميدان المنشية . وهى الواقعة التى أقدم النظام فى مقابلها على عقـد سلسلة من المحاكمات التى قضت بمجموعة من الأحكام كان من نتاجها تنفيذ حكم الاعدام فى سـتة من قادة الجماعة ، بالاضافة الى أنها زجت ببقية التنظيم فى السـجن تنفيذا لأحكام استمرت لمدد طويلة (١٥٧) . أو كما فعلت الأسرة السـعودية حينما وجهت انتقامها الى المجموعة الدينية التى احتلت الحـرم الشريف بمكة المكرمة (١٥٨) . أو حينما ضاق السـادات ذرعا بالجماعات الاسـلامية فى مصر فحاول ضربها لكنها ناصبته العداء حتى انتهى الأمر باغتياله (١٥٩) .

غير أن هناك بعض الزعامات السياسية التى قد تقرر — لادراكها عمق الوعى الدينى لدى الجماهير — استخدامه لصالح تأكيد شرعيتها السياسية . ومن أمثلة ذلك محاولة ناصر اللجوء الى الدين لتبرير هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، حيث أشـار الى الهزيمة فى خطاب التنحى بقوله انها قدر مصر ، وأنها

ارادة الله التى لا مفر منها . بل اننا نجد أن الحكومة فى هــذه المرحلة تشجع النشـــاط الدينى كمنفذ لتفريج التوترات المختزنة بدلا من انفجارها . وتنفس الأسلوب نجد جريدة الأهرام فى ١٩٦٧ تسجل على صفحاتها ــ وهى الجريدة القومية ــ أكبر مسيرة تأييد للطرق الصوفية حدثت فى مصر . ولقد شاركت الطائفة المســيحية بالمثل ، حيث أعلن عن ظهــور السيدة العذراء فوق القــاهرة لفترة زادت عن أســبوع . وهو الاعلان الذى دفع البشر الى الانتقال من كل مكان فى المجتمع المصرى فى محاولة لمشاهدة السيدة العذراء بالقــاهرة . بل بلغ الأمر أن الاتحاد الاشتراكى العربى (وهو التنظيم الســياسى الوحيد خلال هــذه الفترة) يبحث عن دور فى هــذا الاطار فيقوم بالمحافظة على النظام وتنظيم جلوس البشر ، انتظارا لظهور السيدة العذراء (١٦٠) . وكأن الاتحاد الاشتراكى قد أدرك المعنى العميق للقضية التى أطلقها ماركس بأن « الدين أفيون الشــعوب » .

ولم يضيع الرئيس السادات هــذه الفرصة التى سنحت له . حيث شــجع اللجوء الى الدين من قبل سياسات النظــام ، بل اعتبر الدين جوهريا فى توجهاته . بل اننا نجد أن الرئيس السادات يقــدم نفسه بأنه الرئيس المؤمن . بالاضافة الى ذلك نجده بعد أن فرغ من القضــاء على معارضيه من بقايا نظام عبــد الناصر فى ١٥ مايو ١٩٧١ ، يتجه الى استخدام الدين لأغراضه الخاصة . بل أن الدولة ذاتها قامت فى مرحلة معينة خــلال الفترة بتشجيع الجماعات الدينية فى الجامعة كحليف لها فى مواجهة الناصرين والماركسيين (١٦١) . ولم يتوقف الأمر عند هــذا الحد بل صدرت مجموعة من القوانين كقانون الأحوال الشخصية ، ومنع الخمور ، والردة ، فى محاولة لابراز الوجه الدينى للنظــام (١٦٢) . ويعتمــد نجاح النظــام السياسى فى ضرب الجماعات الدينية أو تجنيدها للعمل لصالحه استنادا الى الشروط الأساسية التاليــة :

١ ــ جماهيرية النظام الســياسى ، ومدى انجازه اشــباع الحاجات الأساسية للجماهير . وفى هــذا الصدد فانه كلما كان النظام الســياسى

أكثر تعبيرا عن الجماهيرية وقدرة على اشـــباع حاجاتها الأساسية . كما امتلك النظام الســـياسى القدرة على اســـتخدام الدين لصالحه ، كما هى الحال فى اســـتخدام النظام الناصرى للدين . فبرغم الضربات المتتالية التى وجهها النظام الناصرى للاخوان المســـلمين فان ذلك لم يؤثر كثيرا على اســـتقرار النظام وذلك لأنه قدم اشباعا لحاجات الجماهير ، وجذب الغالبية الفقيرة باجراءاته ، ومن ثم وضع عائقا أمام امكانية الاثارة الدينية .

٢ — قوة النظام الســـياسى وامتلاكه لشرعية اجتماعية قوية وواضحة ومتفق عليهـــا ، بحيث يؤدى توفر الشرعية على هـــذا النحو الى امتلاكه القـــوة السياسية والاجتماعية التى تمكنه من فرض رؤيته على الواقع الاجتماعى وهو الأمر الذى توفر وجوده فى المرحلة الناصرية وغاب عن المرحلة الساداتية وبالمثل فى الفترة التى سبقت قيام الثـــورة الايرانية فى ايـــران .

٣ — تأسيس التنمية الاجتماعية وتحقيقها لمعدلات تنموية واضحة ، تصبح فى حد ذاتها أساسا لشرعية النظام الســـياسى ومبررا لاستمراره . بل ان نجاح التنمية ســـوف يعنى ارتفاع اجمالى الدخل القومى ، ومن ثم ارتفاع متوسط الدخل الســـنوى للفرد ، ومن ثم خلق جماعة المصلحة لاستمرار هـــذا النظام ، حيث تتعلق قوى اجتماعية اكتسبت مصالحها من التنمية ومن استمرار النظام الســـياسى ولديها استعداد للدفاع عنها فى مواجهة أى احتمالية للاعتداء .

٤ — وجود تنظيم ســـياسى قوى وفعال ، يمتلك الامكانات المـــادية والتنظيمية الملائمة التى تجعله قادرا على تعبئة شرائح عريضة من البشر فى المجتمع . وله رموزه السياسية والأيديولوجية الواضحة ، وهنـــاك اعتراف اجتماعى بشرعية وجوده ، ذلك فى مقابل وجود تنظيم دينى مقابل يمتلك ذات الامكانيات والفعالية . ويتوقف نجاح النظام الســـياسى على مدى سيطرة التنظيم الأخير على مشاعر الجماهير وقدرته على تعبئتها .

ويدخل فى هـــذا الاطار أيضا اهتزاز بناء القوة السياسى فى المجتمع . ويحدث اهتزاز بناء القوة فى المجتمـــع حينما يحاول النظام الســـياسى السيطرة من خلال مركزية متطرفة تقترب الى حد العزلة عن الجماهير . بحيث يفقد فى اطارها النظام الســـياسى أى دعم جماهيرى (١٦٣) . ونستشهد على ذلك بالنظام الســـياسى لايران فيما قبل الثورة ، حيث تحققت انجازات هائلة فى مجال التعليم والاقتصاد والخدمات وقطاع التشـــييد والبناء . ولقد أدت هـــذه الانجازات الهائلة الى هز اســـتقرار السكان المحافظين خاصـــة القادمين من المناطق الريفية . ومن ثم فقد طور ذلك لديهم بعض الاتجاهات المتطرفة ، خاصـــة أن النظام الســـياسى لم يحاول تقـــديم شرح أو توضيح منطق هـــذه الانجازات للجماهير ، بل اننا وجدنا الشـــاه ، بديلا لذلك ، يعتمد ورجال بلاطه المقربين لمتابعة التحول الذى يحدث فى ايران . والأخطر من ذلك أن القوى الجديدة التى ظهرت كنتيجة لهذا التحول لم تجد مكانا فى اطاره أو فى الاطارات التى تخلقت عنه . منها الجماعات المهنية ، وجماعة المثقفين ، التجار ، صغار رجال الأعمال . هـــذا الى جانب أنه كنتيجة للتحول من نظام الحزبين فى ١٩٦٣ الى نظام الحزب الواحد فى ١٩٧٨ . فاننا وجدنا أن الشـــاه لم يسمح بأى ممارسة سياسية خارج هـــذا الاطار . وعلى هـــذا النحو نجد ان النظـــام قد خلق وضعا انجذبت فى اطاره كل هـــذه الجماعات تجاه المعارضة . ذلك ان المشاركة المحدودة فى التى قدمها الشـــاه لها لكسب تأييدها لعملية التنمية قد رفضها غالبية هـــذه الجماعات (١٦٤) . ومن ثم فقد كان من المنطقى أن تنضم فى أعقاب ذلك الى صفوف الجماعات المعارضة للنظام الســـياسى .

وقد يلعب النظام الاعلامى هو الآخر دوراً بارزا فى اثارة عواطف الاحياء الاســـلامى . ويمكن أن يؤدى الاعلام دورا فى هـــذا الصدد من خـــلال زاويتين . ويمكن اعتبار الزاوية الأول بالزاوية السلبية ، وهى تلك التى تتمثل فى بث الجهاز الاعلامى لمـــادة اعلامية فيها اثارة للشـــعور الدينى مثل السخرية من رجال الدين وسلوكياتهم هـــذا الى جانب التركيز على بث القيم والأفكار الغربية الحديثة من خـــلال مادة اعلامية متنوعة

كالمسرحيات والروايات والأحاديث . وذلك من شأنه أن يسـاعد على نراكم مشاعر التوتر والرفض . التى تظل مختزنة حتى تمتلك القنوات التى تنساب من خلالها فى شـكل انفجار بركانى مدمر . أما الزاوية الثانية فهى الزاوية الايجابية ، وهى التى يعتمد النظام السـياسى فى اطارها الى مغازلة الحس الدينى عن طريق الادعاء الظاهرى بدعم القيم الدينية فى المجتمع ، ولقد حدث مثل ذلك فى مصر حينما حاول النظام السـياسى ذلك فى الفترة بين ٧٠ ــ ١٩٨٠ . فمثلا عمـل النظام السـياسى على تقوية محطـة القرآن الكريم ، وامتد ارسالها لساعات طويلة . بل كانت برامج الاذاعـة والتليفزيون تقطع حينما يجىء موعد الآذان وقد كان التناقض الناتج عن ذلك فى بعض الأحيان مروعا . فقد أصبحت معظم برامج التليفزيون مسلسلات أمريكية وأفلام اثارة ومسرحيات هابطة ، وفجأة وفى وسط هـذا كله ينبعث صـوت المؤذن مناديا المؤمنين الى الصـلاة (١٦٥) . واذا كانت الزاوية السـلبية من شأنها أن تثير القيادات العاملة والمفكرة فى المد الدينى ، فان من شأن الزاوية الثانية أن تثقف الجماهير دينيا من ناحية ، ومن ناحية تثير عاطفتها ومشاعرها الدينية ، لتتصل فى النهـاية بقيادتها الدينية ، وليحفر النظام السـياسى حينئذ قبره بيده .

المسـألة الطبقية هى الأخرى من الأبعاد التى لعبت دورا فى اثارة الجماعات الاسلامية . فالاسلام بطبيعته دين أقرب ما يكون الى الاشتراكية . وأبعد ما يكون عن الأطر التى تدفع الى بروز الطبقات الطفيلية . واذا كانت أقوال النبى والصحابة والخلفـاء الراشدين وممارساتهم تؤيد مطالب العدل الاجتماعى . كالممارسات التى سلكها الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ، أو القول المـأثور للصحابى الجليل أبى ذرالغفارى الذى قال أ ن(الناس شركاء فى ثلاثة ، النار والمـاء والكلأ) . حيث كانت تلك وسـائل الانتاج فى عصره ، وهى التى اعتبرها أبا ذر ملكا للمجتمع . وبهذا القول نجده قد سبق الفكر الاجتماعى الحديث بأربعة عشر قرنا كاملة (١٦٦) . وعلى سـبيل المثال نجد أن بعض الجماعات الاسـلامية فى مصر وان كانت توافق

على التباين الاجتماعى باعتباره قضية يوافق عليها الاســلام عملا بقول القرآن الكريم (لقد رفعنا بعضكم فوق بعض درجات) غير أن عمل الانسان يعتبر هو الآلية الوحيدة التى يمكن أن تشــكل أساسا لهذا التباين ، وليس الجنس أو اللون أو الســلة أو العائلة . ومن ثم نجد أن التباين على أســاس قدر العمل هو الذى يحدد مكانة الفرد ، فى الحياة الدنيا والآخرة . وتعتبر مفاهيم العدل والقسطاس من المفاهيم الأساسية بالنسبة للمجتمع المسلم ، وتصبح من مسئوليات الحاكم أن يلاحظ مراعاة العدل والقسطاس . فالحقيقة ان العدل أساس الحكم . وقد ذكر أعضــاء الجماعات الاســلامية ان هــذه المبادىء قد روعيت بدقة فى عصر النبى والخلفاء الراشدين .

ونستطيع القول بأن تصــور الموقف الطبقى الذى استطاعت الجماعات الاســلامية تطويره يقترب الى حــد كبير من مستوى محدد من الاشتراكية . وان كانوا يرفضون هــذه التسمية . فالاســلام لا ينبغى أن يقارن بأى مذهب فلســفى بشرى . وقد يستخدم أعضــاء الجماعات الاســلامية كلمات مثل (الفقراء) (المستضعفين) (المســاكين) لكى تعنى ما يقصده اليساريون العلمانيون بالطبقة العاملة ، المستغلة ، والبروليتاريا . وبنفس الأسلوب نجد أن أعضــاء الجماعات الاســلامية يستخدمون مصطلحات مثل (المفسدين) (الظالمين) لكى تشــير الى المستغلين والظالمين بالمعنى العلمــانى (١٦٧) .

ولا تختلف كثيرا الحالة فى ايران قبل الثورة ، حينما امتلك الشــاه ورجال أسرته قدرا كبيرا من ثروات البــلاد ، فى مواجهة فقراء الريف والحضر المقهورين . بحيث شكل هــذا الوضع اطاراً طبقيا استطاعت فى نطاقه الجماعات الاســلامية (والتى كانت لها انتماءاتها الى الشرائح الدنيا من الطبقة المتوسطة) أن تحرك الجماهير الفقيرة على أساس طبقى تارة ، وتارة أخرى على أساس من الاثارة الدينية بسبب ثراء المفسدين الفاحش على حساب فقر المساكين وفقراء الأرض .

ويعتبر الفســاد هو الآخر أحــد الأسباب المعبرة عن أزمة التنمية

الاقتصـــادية والاجتماعية من ناحية ، ومن ناحية أخرى باعتباره يعكس انحراف السـلطة السياسية والعلمانية ومن ناحية ثالثة لكونه مضادا لكل القيم الاســلامية التى تؤكد على الطهارة والنقاء . ومن ثم يعتبر أحـد العوامل الأساسية فى اثارة الجماعات الاســلامية . وتطبيقا لذلك ما حدث فى ايران . فبرغم الدخول العالية حدث فســاد هائل فى أوساط كبار الموظفين ورجال البلاط واغراق لقادة الجيش ، هــذا الى جانب حدوث تنافس هائل فى اطار الأسرة المالكة على المــال والسلطة (١٦٨) . بل اننا نجد أن هــذا الفساد قد امتد ليضم الجهاز الادارى والبيروقراطى فى البــلاد (١٦٩) . وبنفس القــدر أدركت الجماعات الاســلامية المجتمع المصرى باعتباره مجتمعا يســوده الفساد فى فترة السبعينات . حيث ادركت مشــكلات مصر الاقتصادية باعتبارها نتاجا لسوء التصرف فى الموارد الأساسية ، وتطبيق سياسة الاستيراد على نطاق واســع . والاستهلاك الشــامل الذى تغلغل فى معظم جوانب المجتمع . هــذا الى جانب فساد كبار الموظفين والانخفاض العام للانتاجية . أما مسألة الزيادة السكانية ، وضيق مساحة الأرض الزراعية وندرة المصــادر الطبيعية الأخرى ، وتضخم اعباء الدفاع والحرب ، لم تعتبر — من وجهة نظر الجماعات الاســلامية — عوامل او أسباب رئيســية فى أزمة مصر الاقتصادية المعاصرة . وفى مواجهة ذلك اكدت الجماعات الاســلامية على ضرورة البحث عن منطق ســليم للتعامل مع مشــكلات مصر الاقتصادية ، حيث توصى هــذه الجماعات ببرنامج يؤكد على التقشف ، العمل الجاد ، والاعتماد على الذات ، وبناء الصناعات الأساسية ، وتطــوير التكنولوجيا الملائمة ، بحيث أعتبر كل ذلك جوانب هامة فى الاقتصاد الاســلامى (١٧٠) . وهــو الأمر الذى يعنى أن البديل الاســلامى الى جانب امتلاكه لمجموعة من القيم يمكن أن توجه سلوكيات الفرد المســلم ، وأيضا لاطار اجتماعى يقــدم تصورا للمجتمع المســلم ، فهى تمتلك الاستراتيجية الملائمة لتأسيس تنمية اجتماعية واقتصادية اكثر كيفا وأوضاع مجتمعات العالم الثالث وبخاصة المجموعة الاسلامية والعربية .

ويتمثل البعد الأخير للعوامل الداخلية التى تنطلق من الأوضاع الداخلية للبنـــاء الاجتماعى فى بناء الشخصية . وسوف نتعرض فى اطاره لثلاثة أبعاد . ويتعلق البعد الأول بالملامح العامة للأشخاص المشاركين فى العنف ، بينما يتصل الثانى بالظروف التى انجذب فى اطارها أعضـــاء هذه الجماعات الى بنائهـــا .

وفيما يتعلق بالملامح العـــامة للأشخاص المنضمين الى جماعات الاحياء الاســـلامى ، فاننا نستطيع التفرقة بين مستويين . المستوى الأولى وهو المستوى الذى يتصل بمستوى الأعضـــاء القيادين فى هـــذه الجماعات . ونستند فى تحـــديد خصائص الأعضـــاء فى هـــذا المستوى الى دراســـة ميدانية اجريت على بعض الجماعات الدينية فى مصر . حيث تؤكد الدراسة أنه بالنســـبة لجماعتى التكفير والهجرة وشباب الاســـلام ، نجد أن هناك بعض الخصـــائص المشـــتركة فى قيادات هـــذه الجماعات فمن حيث السن نجد أن كلا قائدى الجماعتين كان فى سن الثلاثينات من عمره ، كلاهما تد تلقى درجـــة عالية من التعليم ، كلاهما له خبرته النضالية الطـــويلة ، فقد قبض عليه وأودع السجن ، كلاهما قد كان عضوا فى جماعة الاخوان المســـلمين حينما كان صغيرا ، كلاهما حسبما يؤكد أعضـــاء هذه الجماعات يتمتع بمستوى عال من القيادة الكارزمية ، ويحكم علاقتهما ببقية أعضـــاء الجماعة متصل الحب — الخوف . هـــذا الى جانب الثقة والاعتقاد الراسخ من قبل كليهما فى القرآن والسنة ، الى جانب امتلاك كل منهما لفهم كامل للشـــئون القومية والاقليمية والعالمية . كلاهما كان ينظر الآخرين اليـــه باعتباره رجلا فاضلا . شجاعا ، لا يهاب الموت ، وبعبارة قصيرة لديه شوق للاستشهاد (١٧١) . وهو الأمر الذى يعنى أن فترة الشـــباب هى الفترة الملائمة للانضمام الى الجماعات الاســـلامية ، وذلك لتميز هـــذه الفترة بالنقاء والبحث عن الايمان والطهارة ، والبساطة ، وهى الملامح التى يقدمها الدين الاســـلامى باقتدار . يلى ذلك التفقه فى شـــئون الدين والحيـــاة الواقعية ، وهو ما يعنى امتلاك قدر من المعارف الذى يتيح لهم امكانية

المزاوجة بين الاطار الاسلامى ومعطيات الواقع المتجددة . بل ويتيح لهم طرح البدائل المنطقية والتصورية للصفوة الاسلامية . هذا بالاضافة الى توفر مجموعة من الخصائص الشخصية التى تؤهلهم للقيادة .

أما فيما يتعلق بملامح الأشخاص الذين ينضمون الى هذه الجماعات فنجد أنهم يتميزون أيضا بعدة خصائص اساسية :

— من هذه الخصائص مثلا انتماء الغالبية العظمى منهم الى الشرائح الدنيا للطبقة المتوسطة . ولعل انتماء معظم أفراد الجماعات الى هذه الطبقة يرجع بالأساس الى أن الطبقة المتوسطة تعتبر الوعاء الأخلاقى للمجتمع .ونحن اذا نظرنا تاريخيا الى ذلك فاننا سوف نجد أن الطبقة الوسطى هى التى أخذت بالسفور أولا ، وهى التى انتشر الحجاب بين اناثها أولا أيضا . وينتمى اليها معظم أعضاء الجماعات الاسلامية ، هذا الى جانب أن الطبقة الوسطى هى التى تعانى عادة من المشكلات الاقتصادية التى يعانيها المجتمع . فهى التى تعلم شبابها ، وهى التى يعانى أفرادها من مشاكل الاسكان والمواصلات والدخل المنخفض . بايجاز نجد أن أفراد الطبقة الوسطى هم الذين تتكثف لديهم مشاعر الاحباط بسبب الطموحات الحالية المتصاعدة ، والتى أثارها أعصار الانفتاح من ناحية هى التى تعانى من الحرمان فيما يتعلق باشباع حاجاتها الأساسية ، وبين الطموح المتصاعد والحرمان المفروض تظهر الفجوة التى يشعر فيها الانسان بالاحباط ، ومن ثم محاولة البحث عن طريق جديد . وقد أكدت دراسة ميدانية عن ظاهرة المحجبات فى مصر أنهم ينتمون الى شرائح الطبقة المتوسطة فى المجتمع فقد وجد أن ٣٥٫٢٪ من عينة المحجبات يقع اجمالى دخل أسرهم فى الشهر بين ٥٠ — ١٠٠ جنيه ، يلهم نسبة تصل الى حوالى ١٤٫٤٪ يقع اجمالى الدخل الشهرى لأسرهم بين ١٠٠ — ١٥٠ جنيه (١٧٢) . هذا الى جانب أن ٥٣٫١٪ من مهن آباء المحجبات من أصحاب المهن الادارية والتنفيذية المتوسطة والمشتغلين بالتجارة وأعمال البيع ، وأن متوسط الدخل الشهرى للفرد من هذه الفئة يتراوح بين ٥٠ — ١٥٠ جنيها (١٧٣) . أما بالنسبة

للمسكن فنجد ان نسـبة ٤٤٪ من أسر المحجبات تقيم فى مسكن مكون من أربعة حجرات ، وأن ٤ر٣٤٪ يقمن فى مسكن مكون من ثلاث حجرات ، وأن ٧ر١٣٪ من أسر المحجبات يقطن مسكنا مكونا من خمس حجرات فأكثر ، وأن هناك نسـبة ٨٪ يقطن فى مسكن مكون من حجرتين . وهى الملامح التى تعكس من ناحية المسكن الشرائح المختلفـة للطبقة المتوسطة (١٧٤) . هـذا الى جانب انتمائهم الى أسر تعكس حجم الأسر السـائدة فى الطبقة المتوسطة . اذ نجد أن نسـبة ١ر٢٥٪ من أسر المحجبات مكونة من سبعة أفراد ، ونجد ٦ر٢٣٪ تنتمى الى أسر مكونة من ست أفراد ، وأن ٣ر١٧٪ يصل عـدد أفراد الأسرة عادة الى ٤ أفراد ، وأن ١٢٪ ينتمين الى أسر مكونة من ثمانية أفراد ، ٤ر٩٪ ينتمين الى أسر مكونة من تسـع أفراد ، وأن ١ر٣٪ ينتمين الى أسر مكونة من عشرة أفراد (١٧٥) . وتؤكد دراسـة أخرى أن معظم أعضـاء الجماعات الاسـلامية هم أبناء لعائلات عادية ومتماسكة ، بمعنى أنها أسر لم تعانى من الطلاق ، أو الانفصال ، أو موت أى من الأبويين ... أما عن انتماؤهم الطبقى فيرجع بالأساس الى الشرائح المتوسطة والدنيا للطبقة المتوسطة (١٧٦) .

— أما فيما يتعلق بطبيعة السياق الاجتماعى للمشاركين فى الجماعات الاسـلامية التى قادت عمليـة الاحياء الاسـلامى ، فنجد انه لوحظ أن السياق الحضرى هو الذى يسـود بصفة أساسية . ويكشف المتتبع لظروف الثورة الايرانية أن الاحياء الاسـلامى قد بدأ أولا من المنـاطق الحضرية وبخاصة الأحياء الشـعبية فى العواصم الأساسية (١٧٧) . والى جانب الشـعبية فى المنـاطق الحضرية نجد أن المنـاطق المتخلفة تكون عادة هى الأطر التى تستقبل القادمون الجدد من الريف . يؤكد ذلك الدراسـة التى أجرها سـعد الدين ابراهيم عن اثنين من الجماعات الاسـلامية فى مصر ، حيث تأكد له أن ثلثى الأعضـاء ذوى خلفية ريفية أو قادمون من المـدن الصغيرة . حيث ولدوا فى الريف أو المـدن الصغيرة ، وقد جاءوا أخيرا الى المـدن الكبيرة حينما التحقوا بالجماعات الاسـلامية . وقد جاء

معظمهم الى القـــاهرة والاسكندرية واســيوط ليلتحقوا بالجامعة بعـــد ان انهوا دراستهم الثانوية . ويعيش نصفهم تقريبا فى المدينة بمفردهم وليس مع أسرهم . وحوالى ثلث الأعضـــاء ولدوا فى مراكز حضرية وعاشوا فى مجتمعات محلية صــغيرة خلال سن العشرين (١٧٨) . وقد أكدت دراســـة زينب رضوان عن المحجبات فى مصر انه من حيث الميلاد نجد أن ١ر٥٤٪ ولدوا فى القـــاهرة ، والاسكندرية ٥ر٪ وحضر الوجه البحرى بنسبة ٥ر١٥٪ وحضر الوجه القبلى بنسبة ٢ر٢١٪ (١٧٩) وهى وان اختلفت قليلا عن نتائج الدراســـة السابقة الا أنها تؤكد على السياق الحضرى باعتباره السياق الذى يشـــكل اطاراً لعمليات الاحياء . يؤكد ذلك البيانات المتعلقة بمحل اقامة المحجبات اذ نجد أن ٧ر٧١٪ من عينة الدراســـة يعيش فى مدينـــة القـــاهرة ، وأن ٣ر٥٪ يقيمون فى حضر الوجه البحرى ، ٥ر٢٢٪ يعيشـون فى حضر الوجه القبلى (١٨٠) وهى المعطيات التى تؤكد ما ذهبنا اليه من أن الســـياق الحضرى يكون الســـياق الملائم عادة لظهـــور حركات الرفض والاحياء (*) . وبرغم التأكيد على انتماء أعضـــاء الجماعات الاســـلامية الى الســـياق الحضرى الا أن هـــذا لا يمنع أنهم ذوى أصـــول ريفية . بل ان هـــذه الجماعات بعد تكونها تعتبر الريف هو مجال نموها وانتشارها الطبيعى . ويرجع بروز الســـياق الحضرى كاطار للمشاركين فى عمليات الاحياء لعدة عوامل . من هـــذه العوامل أن السياقات الحضرية ، خاصـــة الشـــعبية والمتخلفة هى فى العادة السياقات التى تعانى فعلا من مشكلات هائلة . فالى جانب أن أبناءها هم المتعلمون فانهم الذين يعانون من مشكلات الاســـكان وارتفاع الأســـعار وانخفاض الدخل وتدنى فرص الحياة بصورة عامة . أما العامل الثانى فيتمثل فى أن الســـياق الحضرى تحدث على

(*) من النتائج المثيرة التى برزت من خـــلال دراسة زينب راضون عن المحجبات ان الوجه القبلى يقيم فيه نحو ٥ر٢٢٪ مقارنا بنحو ٣ر٥٪ من المحجبات يقمن بالوجه البحرى . وهو الأمر الذى يؤكد ان عملية الاحياء هى نتاج للصدام بين القيم التى تؤثر مشـــاعر الثقافة التقليدية من ناحية وبين الثقافة التقليدية التى يحتل الدين عنصرا جوهريا فى اطارها .

ساحته كل ما يسبب الاثارة وازدياد التوتر ، وذلك بسبب تعرض هـذه السياقات لانتشار السلع المستوردة وسلع الاستهلاك الوافرة ، والتناقض الاعلامى الذى أشرنا اليه . وذلك فى مواجهة ارتفاع الأسعار والدخول المنخفضة . وهو الأمر الذى يعمق لديها مشاعر الاحباط . ويجعلها اكثر استهدافا لمزيد من التوترات . هـذا الى جانب أن ساكنى هذا السياق يمتلكون غالبا تماسكا قيميا ودينيا يتصادم عادة مع أية قيم أو أفكار غريبة قد تجرح هـذا الحس الدينى . ويتمثل العامل الثالث والأساسى فى التواجد المكثف للنظام السياسى والصفوة العلمانية المسئولة عن كل هذه المشكلات فى السياق الحضرى ، ومن ثم بامكانية متابعة السلوكيات الاجتماعية والسياسية للصفوة مطروحة ، أمكانية النقد مطروحة . ولأن المشكلات قائمة والتوترات مختزنة ، فالبحث عن بديل لما هو قائم يكون عادة هو المخرج المنطقى والطبيعى فى هـذه الظروف .

وفيما يتعلق بعمر المنضمين لهذه الجماعات ، فانه من خلال المعطيات التى نشرت عنهم فى الصحافة اليومية فى الفترة الأخيرة نجد أن حوالى ٩٠٪ منهم فى عمر الشباب ، ويقعون دون سن الأربعين . وتؤكد احدى الدراسات عن الجماعات الاسلامية ان أعضاء الجماعة عادة ما يتراوح عمرهم بين ١٧ — ٢٦ سنة حينما التحقوا بالعضوية الكاملة فى اطار تنظيمات هـذه الجماعات . وأن متوسط العمر كان يتراوح بالنسبة لاحدى الجماعات حوالى ٢٢ سنة بينما هو ٢٤ سنة الأخرى . وعادة ما يكون سن القادة أكبر من سن الأعضاء (١٨١) . واذا نظرنا الى فئة الشباب التى تقع فى اطار المدى العمرى المشار اليه سوف نجد أن هـذه الفئة هى أقل الفئات استيعابا لما هو قائم وأقلها تكيفا معه . فروابطها بالحاضر هزيلة للغاية ، فهى الفئة التى تهتم بالمستقبل أساسا ، هـذا الى جانب أن فئة الشباب هى اكثر الفئات طهارة ونقاء . ومن ثم فلديها امكانية الاستثارة من قبل أى مظاهر للفساد قد تواجهها . ثم أنها الفئة الأقل خضوعاً للقواعد الذى يسنها المجتمع هـذا بالاضافة الى أنهم مازالوا فى غالبيتهم وبخاصة من هم

دون سن الثلاثين يخضعون لعملية تشـــكل . ومن شأن هـــذه العملية أو المرحلة أن تجعلهم أكثر استهدافا للتوترات ، ثم أنهم فى الغالب هم الذين يعانون من المشـــكلات الاجتماعية والاقتصادية الناتجة عن سلوكيات النظام السـياسى ، ثم هم الفئة التى تبحث عن ايمان نقى وبسيط ، وهو ما يمكن أن يقدمه الاســـلام عملا بقول النبى الكريم (اللهم الهمنى ايمان البسطاء) .

بالنسـبة للتعليم نجد أن نسـبة عالية من الذين انضموا للجماعات الاســـلامية التى تصدرت عمليات الاحياء الاســـلامى من الذين نالوا حظا كافيا من التعليم (التعليم فوق المتوسط ، الجامعى) ومن الواضح فى ذات الدراســة التى تمت عن الجماعات الاســـلامية أن معظمهم من خريجى الجامعـــة أو ملتحقين بها وقت القبض عليهم ، بينما كان الباقى مازال فى المدارس الثانوية . وأن معظم الذين قبض عليهم فى هـــذه الجماعات من المثقفين أو المهنيين فمثلا كان هناك ١٢ من بين ١٦ مستخدمين فى الحكومة خمســة مدرسين ، وثلاثة مهندسين ، وأثنين من الأطبـــاء ، وثلاثة من المتخصصين فى الفلك ، ومنهم ثلاثة يزاولون عملا خاصا صيدلى ، طبيب ومحاسب (١٨٢) ، وهو الأمر الذى يؤكد انتماءاتهم للطبقـــة المتوسطة الحضرية التى عادة ما تجد أن التعليم هو القناة الوحيدة التى من خلالها يمكن تحقيق قدر من الحراك الاجتماعى . يؤكد ذلك أن المستوى التعليمى والمهنى الذى حققه أعضـــاء الجماعات أعلى بصورة واضحة من المستوى الذى حققه آباءهم (١٨٣) . هـــذا الى جانب أن التعليم حينما يرتبط بعامل السن فى طابق الشبابى ، فانه يخلق فى النهاية مجتمعا شبابيا تســـوده ثقافة مشتركة ، لها قيمها ومعاييرها ولها اختلافاتها وربما تناقضاتها مع الثقافة العـــامة ، التى هى ثقافة كبار السن أو المؤسسة الاجتماعية والسياسية القائمة . هـــذا بالاضافة الى أن التعليم هـــو المتغير الذى يســـاعد على ادراك الطبيعة الأساسية للاســـلام ، ثم ما هو موقف التحديث وآثاره والمشكلات التى تخلقت عنه . فالتعليم هو الذى بامكانه أن يوفر لديهم الحس النقدى لمـــا هو قائم ، ثم هو الذى يجعل بامكانهم وقدرتهم طرح البديل لذلك .

(ج) النظام الاقليمى ، متغيرات الاحياء فى اطاره :

يعتبر النظام الاقليمى هو الاطار الثالث الذى انطلقت منه مجموعة من العوامل التى ساعدت على عملية الاحياء الاســلامى . ومن الطبيعى أن هــذه الوقائع وان وقعت فى المجتمعات الاســلامية كلّ على حــده ، الا أن تأثيرها فى كثير من الأحيان كان يتخطى حدود مجتمعاتها الى مجتمعات أخرى فى النظام الاقليمى ، أو النظام الاقليمى بكامله . بل ان هناك بعض الأحداث التى كان لهــا آثار أعمق كثيرا على المستوى الاقليمى تتجاوز كثيرا الآثار التى أسستها فى المجتمعات التى ظهرت فيها . وفى هــذا الصدد فنحن نقصد بالنظام الاقليمى مجموعة الدول التى تشارك أساسا مشتركا . ولها تفاعلاتها الداخلية المتميزة عن ما هو خارج عن دائرة النظام الاقليمى . بل اننا نجد أن مجموعة الدول المكونة للنظام الاقليمى لها مكانتها المحددة فى النظام العالمى باعتبارها تشــكل مجموعة فرعية فى اطاره . بل ان النظام العالمى — من خلال مؤسساته — أحيانا ما يتعامل معها باعتبارها تشــكل كتلة واحــدة أو نظاما متماسكا .

ويكشف البحث فى منطقة الشرق الأوسط أن هــذه المنطقة تتداخل فى اطارها عــدة أنظمة تنتمى لها معظم دول هــذه المنطقة . وأن لكل من هــذه النظم أساسه المشترك . وأن الفارق بين نظام اقليمى وآخر يتمثل فى دخول أو استبعاد بعض الدول من اطار أى من هــذه النظم . فالنظام العربى يضم مجموعة الدول العربية التى تســود بينها قواسم مشتركة عديدة وتضمها جامعة الدول العربية . بينما النظام الشرق الأوسطى يضم مجموعة الدول العربية الى جانب اسرائيل وتركيا وايران ، برغم عــدم عروبة هــذه الدول الأخيرة . بينما يضم النظام الاســلامى كل الدول العربية والاســلامية ما عدا اسرائيل . واذا تعمقنا الأمر فسوف نجد ان لكل نظام أساسه . فاللغــة العربية والتاريخ الواحد والمشترك أساس النظام العربى ، والجغرافيا أساس النظام الشرق أوسطى ، بينما يشــكل

الاســــلام الركيزة الأساسية للنظام الاســــلامى . ومن الواضح أن هناك تداخلا كبيرا بين هــذه الأنظمة الثلاث ، وأن كان موضع الاهتمام هــذا هو النظام الاســــلامى . ومن المؤكد أن النظام الاســــلامى شهد مجموعة من العوامل التى دفعت الى ظهور الاحياء الاســــلامى فى اطاره ، نذكر فيما يلى بعضا منهــا .

١ ــ وتعتبر كارثة يونيو ١٩٦٧ من العوامل الهامة التى جعلت المسلمين يشــــعرون بأن سقف دار الاســــلام قد انهار فوق رؤوسهم . حيث واجــه العرب وهم قلب دار الاســــلام هزيمة عســكرية ساحقة فى الحرب العربية مع اسرائيل فى ١٩٦٧ ، بحيث أصابهم ذلك بحالة من الاذلال لم يتم الشعور بها على المســتوى الشخصى فى كل من ســوريا ومصر والأردن فقط (وهم الشــعوب التى حاربت بصورة مباشرة) ، ولكن شعرت بها كل الأقطار العربية والاسلامية . ولقد كانت الهزيمة ساحقة حتى أنها لم تكشف ضعف الجهاز العســكرى العربى فقط ، ولكنها كشفت عن ضعف وتهرؤ المجتمع العربى أيضا ، وهو المجتمع الذى يعتبر اســلاميا (١٨٤) . وقد انتقلت هــذه الواقعة من النظام الاقليمى العربى الى النظام الاســــلامى عبر آليات ثلاث . وتتمثل الآلية الأولى فى اشــتراك العرب وغــير العرب المســلمين فى الاســــلام جوهر النظام الاســــلامى الذى يعتبر العرب حراسة . ومن ثم فسقوط العرب سوف يعنى سقوط أصــحاب المكانة الجوهرية فى هــذا النظام . ويتمثل العــامل الثانى فى العداء التاريخى والثيولوجى بــين الاســلام واليهود . واذا كان الاســــلام دين العرب ، واليهودية دين اسرائيل ومن ثم فقد انتقلت الهزيمة العربية عبر قنطرة الدين الى المســلمين غير العرب واصبحت هزيمة اســلامية من دولة يهودية . ويتصل العامل الثالث بدولة اسرائيل باعتبارها رأس حربة للحضــارة الغربية الاســتعمارية . وهنــاك خطر يدركه المســلمون فعلا من الغرب على الاســــلام ــ كان فى المــاضى حروبا صليبية واصبح فى الحاضر غزوا ثقافيا ــ ومن ثم الا يمكن ان تكون الهزيمة هى مقدمة لضرب النظام الاســــلامى .

واذا اتخذنا مصر نموذجا لما حدث فى العالم الاسلامى فسوف نجد أنه قد ظهر تيار دينى كاسح شمل المجتمع فى أعقاب هزيمة يونيو ١٩٦٧ . وقد بدأ هذا التيار صوفيا غيبيا ، يعبر عن بحث على المستوى الفردى عن ايمان أو معنى أو خلاص بالتحول الى الداخل . غير أن ذلك ارتبط بنمو مجموعة من التنظيمات التى توجهت الى الخارج أساسا . ومن ثم فقد عمل أعضاء التنظيم ليس على تغيير حياتهم الفردية فقط ، ولكن الاتجاه الى تغيير عالمهم المحيط بالمثل . وقد ساعد المد الدينى هذه الجماعات على جذب أعضاء جدد ، والاتجاه الى مهاجمة النظام السياسى (١٨٥) . واذا كان هذا المد الدينى قد أدى الى مهاجمة النظام على مستوى المجتمع بسبب تغريبه أو بسبب أزمة التنمية والهوية التى تسبب فيها . وهى الأزمة التى كان لها آثارها على مستوى النظام الاسلامى ، حيث دفعته الى حالة من البحث عن الذات ، ومحاولة الاتصال بالجذور ، وضرورة التميز عن النظام العالمى ، وتحقيق الاستقلال الكامل فى اطاره . وهو التيار الذى أفرخ عدداً كبيرا من الجماعات الاسلامية بالاضافة الى مجموعة من الكتابات التى تحاول الاستناد الى الاسلام فى تحديث المجتمع .

٢ — وتشكل الحرب الاسلامية بين شطرى باكستان فى ١٩٧٢ الضربة الثانية التى تلقاها العالم الاسلامى . ففى هذا العام حدث الانفصال بين شطرى أكبر دولة اسلامية . وهو الانفصال الذى أسس قدرا كبيرا من مشاعر الحقد والمعاناة الجماهيرية الناتجة عن الحرب . هذا الى جانب أن هذه قد أكدت أن الرابطة الاسلامية ليست كافية لكى تحافظ على تماسك الدولة الاسلامية ضد أى نزعات اقليمية أو انقسامية (١٨٦) . وأيا كانت الأسباب الموضوعية لهذا الانفصال . فلقد كان مؤلما للضمير العربى أن يتعاون المسلمون فى بنجلاديش مع الهنود ضد المسلمين فى اقليم البنجاب . هذا الى جانب أنه من المخيف أيضا هذا الانهيار السريع الذى أتى على ركيزة أساسية من ركائز النظام الاسلامى . بحيث وجدنا مدا اسلاميا شاملا فى الباكستان أولا ، حتى ظهر ضياء الحق الذى بدأ يرسخ شرعيته مستندا فى ذلك الى

الاســـلامية . وحتى بدأ التقارب بين الباكستان والسعودية كقضية اعتبرت أساسية بالنسبة للنظام الاســـلامى . ومرة أخرى ترددت الأقوال التى تؤكد صـــناعة الباكستان للقنبلة الذرية بتمويل خليجى ، أو تمويل الخليج البترولى لخطط تنمية الباكستان باعتبارها بلدا اســـلاميا .

٣ ــ بالاضافة الى ذلك هنـــاك بعض الوقائع الأخرى التى حدثت داخل النظام الاســـلامى وكانت كافية لهز توازنه . فقد كانت هنـــاك الحرب بين الجزائر والمغرب وهى بلاد اســـلامية حول منطقة الصحراء . والتوتر بين ايران والعراق الذى أدى الى حرب لا معنى لها . والأوضاع غير المستقرة فى تركيا ، واغتيال الملك فيصل حامى أحـــد الحرمين الشريفين . وفضلا عن ذلك فقد تناثرت على الأرض زعامات اســـلامية كانت تملأ الأرض صخبا . فقد سقط سوكارنو ، وبن بيلا ومات ناصر ، وأعدم ذو الفقار على بوتو . الى جانب ذلك فانه برغم الاســـتقلال السياسى الذى حصلت عليه معظم الدول الاســـلامية فى الخمسينات ، فان أيا من النظم السياسية التى اختارتها هـــذه الدول لم تعمل بفاعلية . فقد حاولت هـــذه الدول الأخذ بالديموقراطية البرلمـــانية لكنها فشلت ، وهى الأنظمة العســـكرية التى حاولت تأسيسها لم يثبت نجاحها . وبنفس القدر لم تنجح الدول التى اتبعت نظام الحزب الاشـــتراكى الواحد ، وظهر تساؤل هل بامكان الأقطار الاســـلامية أن تبحث عن أسلوب جديد تحاول من خلالها أن تحكم نفسها بصورة صحيحة ومن ثم فقد كان من المنطقـــى أن يكون البديل الاســـلامى هو الحل المطروح وليس غـــيره .

٤ ــ ويعتبر وجود اسرائيل فى قلب النظام الاســـلامى أحد العوامل المباشرة فى الاحياء . وكمـــا أشرنا ســـابقا فان عداء النظام الاســـلامى لاسرائيل ينبثق من كونها دولة يهودية وهى ديانة عادى أصحابها المســـلمين الأول تاريخيا . وثانيا من حيث كونها رأس حربة للقوى الغربية . وأيضـــا باعتبـــارها البرهنة الواقعيـــة لفاعليـــة هـــذه الحضـــارة فى تأسيس التقدم حتى داخل البقاع المتخلفة من العـــالم اذا خلصت النيات ، وثالثا لأنها عامل عدوان مستمر مسلط على العرب وهم ــ كما أشرنا ــ جوهر

النظام الاســــلامى . ورابعا لأنهم الذين استولوا على القدس أحــد الحرمين الشرفين . من هنا وجدنا أنه برغم عدم التوافق بين العالم السنى والشيعى داخل النظام الاســـلامى ، أن الخمينى الزعيم الشـــيعى الايرانى يجسد فى بياناته الأساسية رفض الحــركة الثورية الاســـلامية الايرانية لاسرائيل ، بل والدعوة الى الجهاد ضدها مؤكدا (أن معظم مصائبنا من أمريكا واسرائيل التى هى جزء لا يتجزأ منها) وأننا ضد اغتصاب الأراضى ، وضد الصهاينة ، ولا نهادن أعداء الاســـلام (أن الشعب الفلسطينى المســلم يجب أن يعود الى أرضه ويجب ان تزول اسرائيل) (لن نشرب النفط بالتأكيد ، وسنبيعه بالأسعار العادلة لمن لا يجاهر بالعداء للاســـلام ، ولن نبيعه لاسرائيل(١٨٧) . وقول الخمينى (اذا قتلت وأنا أحارب خلف رشاش فلسطينى فأريد أن ادفن فى فلسطين) (١٨٨) . وهو الأمر الذى يعنى أن أى أنتصار لاسرائيل أو أى نصر عليهـــا سوف يكون له بالتأكيد تأثيره ومردوده على النظام الاســـلامى . واذا كانت الصفوات العلمانية التى أصابها التغريب عاجزة عن قيادة النضال فليكن البديل هو الاســـلام والصفوة الاســـلامية .

٥ — يضاف الى ذلك الاحساس بالمذلة والهوان والقيم المبتذلة التى اشاعته الثروة العربية (١٨٩) . وقد كان من المتوقع بعـــد أن تفجرت الثروة النفطية فى اطار العالم العربى الاسلامى أن تتجه هـــذه الثروة الى التنمية العربية والاســـلامية العقلانية من ناحية ، ولضعف التوجهات الاقليمية من ناحية أخرى حدث تبذير واسراف وتبديد لهـــذه الثروة . وبدأت تطالعنا الصحف العربية والغربية بصور وأخبار شـــيوخ البترول وأمرائه فى المنتديات الليلية لأوروبا . يمارسون الانحراف والغواية . وبدأنا نسمع عن الأرقام الفلكية التىتودع حسابات البنوك الأجنبية والسويسرية ، عن شراء السيارات الفارهة والفيلات والمساحات الواســـعة من الأراضى داخل اوروبا لقضاء أوقات فراغ منحرف . وبدأت كل هـــذه الممارسات تتصادم ورموز الاســـلام الذى يتحدث عن البساطة والتقشف ومساعدة المساكين والمستضعفين فى الأرض . وبدأنا نحس توترا وكراهية من داخل النظام العربى والاســـلامى

موجهــا ضد شــيوخ النفط الذين شوهوا الصورة العربية والاســلامية الشامخة والشجاعة المتقشفة والتى تخف دائما الى نجدة الغير .

وفى هــذا الاطار نجد أن كثيرا من الذين تابعوا التغيرات الاجتماعية التى تقع فى العربية الســعودية ــ وهى أكبر الدول المنتجة للبترول ــ ومجتمع الخليج ــ وهى التغيرات التى من شأنها أن تحطم النسيج الاجتماعى والأخلاقى للمجتمع . ولقد زاد هــذا الاهتمام بسبب أسلوب الحياة المبتذل الذى يتبعه بعض أعضــاء العائلة المالكة . ومن ثم فقد كان تأثير الثروة النفطية أنهــا خلقت فجوة كبيرة بين الأفكــار الوهابية المتطرفة النقاء ، وهى الأفكار التى شكلت أساسا لقيام الدولة من ناحية وبين أساليب الحياة المتغيرة والمترفة للصفوة الحاكمة . ومن ثم فلم يكن من المدهش أن يصــدر الملك فهد اشــارة الى الحاجة الى أن يضرب أفراد العائلة المالكة المثال . وقد أكد أنه من الضرورى تطبيق القوانين على الجميع بما فيهم الأمراء . وقد اتخذت بعض الاجراءات لمجارات العواطف المحافظة ، مثل تحريم شرب الخمر ، واختلاط الرجال والنساء فى المناطق العامة (١٩٠) .

٦ ــ وتعتبر واقعة الاســتيلاء على الحرم الشريف من الأحداث الهامة التى وجهت الانتباه الى ما يحدث داخل دار الاســلام . وقد بدأت هــذه الواقعة فى الســاعة الرابعة من صباح يوم ٢٠ نوفمبر ١٩٧٩ . حينما احتل مجموعة من ذوى الميول الدينية المتطرفة مآذن الحرم الشريف فى اليــوم الأول من القرن الخامس عشر الهجرى (١٩١) . وقد قدر عــدد الذين شاركوا فى هــذه الواقعة بين ٣٠٠ وألف شخص . كلهم مدربون ومسلحون تسليحا جيدا . والمدهش فى الأمر أنه الى جانب بعض الســعوديين الذين ينتمون الى أربعــة قبائل ســعودية هناك العــديد من الباكستانيين والمصريين والفلسطينين واليمنيين . وبرغم انطلاق الجماعة المهاجمة من الدين الاسلامى الا أننا نجدهم قد قدموا المطالب التالية ذات الطابع السياسى .

١ ــ اقرار العائلة الســعودية المالكــة بأنها انحرفت عن تعاليم

الاســـلام وأحد مظاهر ذلك العلاقة الوثيقة بين الأسرة الســـعودية والولايات المتحـــدة الحليف الأول لاسرائيل .

٢ ـــ المطالبة بوضع نهاية للفساد والرشوة وتبديد ثروة الأمة .

٣ ـــ المطالبة بفصل ومحاكمة الشـــيوخ المنافقين الذين ليســـوا سوى دمى فى يد النظـــام .

ومن الواضح أن العوامل الدافعة لهذه الحـــركة هى خليط من العوامل الدينية والسياسية (١٩٢) . ونحن من جانبنا لا نوافق على بعض التفسيرات التى أعطيت للحـــركة والتى حاولت ربطها بالمجتمع الســـعودى ، وانما نراها حـــركة تتصل بالأساس بالنظام الاســـلامى ، فهى مواجهة للدولة التى تشكل جوهر هـــذا النظام وذلك لاعتبارات كثيرة نذكر بعضها فيما يلى :

١ ـــ أن الجماعة بدأت حركتها من مكة وليس من الرياض . وقد كان من الممكن أن تكون أكثر فاعلية لو أنها انطلقت من الرياض فسيطرت على بعض المراكز الحساسة . وعلينا أن نفارق بين (مكة) كمدينة تخص النظام الاســـلامى (والرياض) كمدينة تشكل عاصمة الدولة الســـعودية وهى هامة بالنســـبة لها .

٢ ـــ مشاركة جنسيات مختلفة (اســـلاميا أساسا) فى هـــذه الحركة أخرج الحركة عن طابعها القومى ونقلها الى الاطار الاســـلامى . والسؤال الذى يطرحه ما هى مصلحة غير الســـعوديين فى تغيير الأسرة الحاكمة أو نقد ممارساتها . لكن هـــذه الجنسيات لها بالتأكيد مصلحة حينما يكون المطلوب تغيير المجتمع الذى يمثل جوهر النظام . والمدهش أن الجنسيات التى شاركت فى هـــذه الواقعة هى الجنســـيات التى تتصل بطـــريقة ما بنتائج الثروة التى خلقها النفط .

(٣) أن معظم المطالب مطالب تتصل بالنظام الاســـلامى أساسا فهى تؤكد على الولايات المتحـــدة واسرائيل ، وعلى المـــال العربى ، وهو الأمر الذى يجعلنا نفارقها باعتبارها احياء من داخل النظام الاســـلامى .

٧ — ويعتبر فشل القيادات المحليـــة داخل مجتمعات النظام الاســـلامى فى التعامل مع القضايا والمشكلات المحليـــة ، والاجتماعية والسياسية من العوامل الهامة التى شجعت على الاحياء داخل النظام الاســـلامى . فقد أدى هـــذا الفشل فى التعامل مع قضايا التغير والتكيف معه — التحديث — من داخل اطار أيديولوجية سياسية مغتربة الى اعادة الاحياء ليس فقط لقضية الهوية ، ولكن ذلك دفع أيضا الى ظهـــور أزمة الشرعية . ومع ذلك فان اعادة ظهور الاســـلام المناضل كرد فعل لهـــذه الأزمات ليس حـــركة واحدة ، وليس ثورة ذات مركز تنظيمى واحد بل على العكس من ذلك ، نجد أن عملية الاحياء هـــذه منتشرة ومتعددة المراكز . وبرغم ذلك فان مراكزها ومناشطها المتعددة تشارك نفس الادراكات ونفس الشكوى المشتركة ، من فشل الصفوات العلمانية — كتلك التى قادها أتاتورك فى تركيـــا ، وبهلوى فى ايران ، والصفوات العريقة فى الهلال الخصيب ، والقوميون القدامى والأنظمـــة العســـكرية التى أعقبتهم فى مصر ، والبعث فى كل من ســـوريا والعراق — فى بناء المجتمع الســـياسى الحديث والمؤسسات السياسية الفعـــالة . هـــذا الى جانب ادراك أنهم فشـــلوا فى توفير التنمية الاجتماعية والاقتصادية والعدل الاجتماعى الذى وعدوا به . وما هو أكثر من ذلك هزيمتهم العســـكرية بواسطة أعداء الاســـلام بسبب عـــدم كفاءتهم ، وفسادهم وانحرافهم عن العقيدة الصحيحة .

وبرغم أن هـــذه الاتهامات ليست جديدة ، فان الرد على هـــذه الأخطاء ومختلف جوانب الفشل هـــذه كان من الضرورى أن يسيس الاســـلام ويطالب بايجابية المســـلم باعتباره محاربا فى حرب مقدســـة . غير أن هناك جذورا فكرية بعيدة لهذا العنف أو الفاعلية الاسلامية أو النضالية الاسلامية ، وهى الجذور التى ترجع الى التطهر والنقاء تلك التى نادى بها محمد بن عبد الوهاب فى الجزيرة العربية فى فى القرن الثامن عشر ، أو الأفغانى الذى نادى بالجامعة لاســـلامية الشاملة ، أو المهدى فى الســـودان فى نهاية القرن التاسع عشر . أو حسن البنـــا والاخوان المســـلمين فى مصر ، وأبو الأعلى المودودى فى الباكستان ، وشريعة مدارى فى ايران خـــلال هذا القرن .

ولقد كان من حظ المسلمين المناضلين فى هذا القرن أن يستفيدوا من التغيرات الديمجرافية التى حدثت فى الأقطار الاسلامية ، وبالمثل التغيرات الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية فى العالم . فقد شهدت الخمسة وعشرين سنة الأخيرة اتجاها لعدم تسييس الاسلام فى كثير من الدول الاسلامية ، بحيث ارتبط ذلك بزيادة قوة الدولة على حساب انخفاض المشاركة السياسية للمواطنين ، بحيث ادى ذلك الى الاغتراب الأكثر للجماهير عن السلطة ، بحيث يمكن القول بأن السيطرة الحكومية الكاملة ادت فى النهاية الى اعاقة ممارسة النشاط السياسى .

ولقد كانت الاجابة الطبيعية على هذه الظروف التى تسودها الفوضى واليأس هى ظهور اسلام المناضل الذى رفع شعار اعادة الحيوية للاسلام والمجتمع الاسلامى . وامتدادا لذلك استعادة القوة السياسية للاسلام . وفى مواجهة القومية المرفوضة ذات الطابع الراديكالى فى الستينات والتى تواجه الانهيار الآن فقد حاول الاسلام المناضل أن يقدم ليس فقط أساسا أخلاقيا للمجتمع ولكنه حاول أيضا أن يقدم حلا لمشكلة الهوية ، ومن ثم فقد مهد الطريق لتغير سياسى مستندا الى المبادىء التى تحفظ كبرياء كلا من الفرد والمجتمع ، وتؤكد على العدالة والاستقلال .

وفضلا عن ذلك فقد حاول الاسلام المناضل من خلال استعادة الماضى من خلال حركة استرجاعية قوية ، واستنادا الى ذلك فانها سوف تكون حركة ضعيفة من حيث القدرة على الابداع والتجديد . اذ يعوق غياب الحرية الفردية فى معظم المجتمعات الاسلامية القدرة على التجديد ، ومن ثم يقضى على الحركة بالفشل . بالاضافة الى ذلك فاننا نجد أن حركات الاسلام المناضل يكون عليها أن تعمل فى اطار بيئات عدائية ، اعنى دولا تحكمها افراد أو جماعات معادية لها . هذا الى جانب أن هذه الجماعات قد ظهرت أيضا فى المناطق التى كان للقوى الأجنبية مصالح هامة بها (١٩٢) .

واذا كانت العوامل السابقة ذات اسهام سلبى فى ابراز ظاهرة

الاحياء الاســـلامى من داخل المجتمع الاســـلامى أيا كانت مصـــادر التأثير . فان هناك مجموعة من العوامل ذات الاســـهام الايجابى فى تأثيث ظاهرة الاحياء هـــذه ونذكر بعضها فيما يلى .

١ — وتعتبر الثورة الايرانية أحـــد العوامل الأساسية التى دعمت موقف الجماعات التى تستهدف الاحياء الاسلامى داخل المجتمعات الاسلامية . فقد شاهدت الجماهير نظاما امبراطوريا عاتيا تســـنده قوة عســـكرية هائلة نقلت اليها أفضل ما فى الترسانة الأمريكية من ســـلاح ، ويحيط بأعدائه جهاز السافاك الذى فاق فى براعته وقدرته على الاستخبار فاعلية جهاز المخابرات الأمريكية بل اننا نجد أن السافاك هو الذى تولى نيابة عن المخابرات الامريكية تدريب رجالها العاملين فى جنوب شرقى آســـيا • نقول أن الجماهير المسلمة شاهدت هـــذا النظام وهو يسقط وينهار أمام الخمينى برغم كونه اماما أعزلا ليس معه الا الايمان والارتباط بالجماهير ، ومع ذلك فهود يقود انتصارا ساحقا عليـــه يدفعه الى مغادرة ايران (١٩٤) . ثم يتولى هـــذا الامام بعد ذلك اعلان الجمهـــورية الاســـلامية التى تمتلك الصـــيغة الملائمة لتحديث الاســـلام بما يســـاعد على استيعاب متغيرات التنمية والتغير والتحديث .

وفى هـــذا الاطار طرح الخمينى نفســـه كبديل اســـلامى قوى وبدأ بالاضافة الى التنمية الداخلية التى شرع فيها ، يوجه النقد الى الأنظمـــة العربية المجاورة له ويتولى فضحها ، فهو ينتقد النظـــام المصرى الذى منح الشـــاه مأوى ، وهو الذى أذل الشعب الايرانى الصديق . وهو النظام الذى وقع صلح كامب ديفيد ، وهو الصلح الذى تم على حساب الاســـلام ولصالح أعدائه (١٩٥) . وبدأ هـــذا النجاح يغازل طموحات قيادات الجماعات الاســـلامية ، وألفت الكتب عن الخمينى وبدأ الحديث عن مناصرة الثـــورة الايرانية ومجاهدى افغانستان ، ونقد الأنظمـــة الحاكمة يميز سلوكيات بعض الجماعات الاســـلامية .

٢ — وتعتبر المساعدات الســـعودية الى الجماعات الاســـلامية عاملا أساسيا فى نشاط هـــذه الجماعات . حيث حاولت المؤسسة الســـعودية

أن تخلق حولها مجموعة من الدول الاسـلامية المحافظة ، ومن ثم فقد بدأت تجعل من نفسـها الحليف الذى يتولى مد يد المسـاعدة للجماعات والتنظيمات الدينية المناوئة للنظام فى الدول المجاورة . كما حدث بالنسبة لاستضافة الاخوان المسـلمين الذين هاجروا الى السـعودية بعد صدامهم مع نظام عبـد الناصر . وحينما جاء نظـام السادات حاول الملك فيصل أن يرتب اجتماعا بين السادات وبين مجموعة الاخوان المسـلمين الذين ذهبوا الى الخارج للمصالحة وعقـد الاجتماع فى (جاناكليس) فى اطار من السرية الكاملة (١٩٦) . فقد حاول السادات استمالتهم خلال هـذه المرحلة لكنه لم ينجح فى ذلك .

بالاضافة الى ذلك تذكر تقارير كثيرة أن قوى اليمين كانت تتلقى دعما من الخارج ففى ١٩٧١ على سـبيل المثال عقـد الملك فيصل اتفاقية مع شـيخ الأزهر الأسبق . عرض فيها على مشيخة الأزهر اعتمادا قيمته الى نحـو ٤٠ مليـون دولار لكى ينفق منها على تمويل حملة دعـوة ضد (الشـيوعية والالحاد) (١٩٧) . والى جانب ذلك ذكرت تقـارير القبض على جماعتى الفنية العسـكرية بقيادة صـالح سرية ، وشـكرى مصطفى قائد جماعة التكفير والهجرة أنهما قد تلقيا بعض المسـاعدات السـعودية أيضا . وهـو الأمر الذى يعنى أن البترول السـعودى لعب دورا غير مباشر ـــ بالاضافة الى دوره المباشر ـــ فى عملية الاحياء الاسـلامى .

٣ ـــ بالاضافة الى ذلك هناك مجموعة الظروف التى أعادت الثقة الى المجتمعات العربية والاسـلامية . فبعد قرن كامل من الخضوع للسـيطرة الأوروبيـة ظهر شـعور لدى الشـعوب الاسـلامية بأنها لا ينبغـى أن تنمـو بدون الغرب فقط بل عليهـا أن تتقـدم حتى تقف معـه على قدم المسـاوة . وهنـاك بعض الأحـداث الرئيسـية المسـئولة عن استعادة الثقة هـذه . فمثلا أعلنت الناصرية فى الخمسينات أنه باستطاعته دولة صغيرة أن تتبنى طريقا جديدا غير الانحياز الى جانب أى من القوى العظمى . هـذا الى جانب الثورة الجزائرية الناجحة التى أوضحت أنه بامكان الدولة المستعمرة أن تلقى الى الخارج بأسيادها الأوروبيين ، مقدمة بذلك المثال

والقدرة على الفعالية والتضحية بالذات والكبرياء القومى . وحتى النجاحات الأولى التى تحققت فى المعارك الأولى لحرب أكتوبر ١٩٧٣ ألغت الخجل من الهزيمة المتكررة للدول العربية على يد اسرائيل ، وأكدت أنه اذا استمدنا عقائدنا فبامكاننا تحقيق الانتصار ، ولقد ارتبط بذلك نجاح الحرب البترولية التى قادتها بلاد اسلامية (السعودية وايران) من داخل منظمة الأوبك (١٩٨) . بل لقد فرض هذا المد من النجاح المتتابع الاستقبال الحماسى الذى قوبل به ياسر عرفات فى الأمم المتحدة ليلقى خطابه الذى تحدث فيه عن ضرورة استعادة فلسطين كبلد اسلامى . بحيث يمكن القول بأن هذه الظروف خلقت فى مجموعها حالة من الثقة لدى الجماهير الاسلامية بأنها من الممكن أن توجه مقاديرها اذا هى ابتعدت عن التبعية للقوى الأساسية فى العالم ، وبحثت عن طريق مستقل ، ومن ثم امكانية مناقشة البديل الاسلامى كحل لكل هذه المعضلات .

(د) النظام العالمى ، متغيرات الاحياء فى اطاره :

الى جانب المتغيرات ذات التأثير على ظاهرة الاحياء الاسلامى من داخل المجتمعات الاسلامية أو النظام الاسلامى ككل . هناك بعض المتغيرات التى انطلقت أساساً من النظام العالمى ، وبالتحديد من المعسكر الغربى الذى له تجربة مع هذا العالم . واذا كان الغرب الاستعمارى قد نعت الاسلام ساخرا باعتباره دين الحرية الجنسية واباحة الشهوة ، فان الاسلام من خلال قياداته المناضلة هو الذى يتهم الغرب الآن بحشن العالم الاسلامى بنفس هذه الشرور (١٩٩) . وهو الأمر الذى يعنى أن هناك نظرة عدائية متبادلة بين الغرب والاسلام ، وأن هذه العدائية المتبادلة لها أبعادها التاريخية والحضارية والواقعية .

وانطلاقا من هذا العداء التاريخى نجد أن كل معسكر يحاول متابعة الآخر ، وتأكيد ذلك أن اهتمام الغرب الكامل بالاحياء الاسلامى والثورة الاسلامية قد تجدد مع قيام الثورة الايرانية بقيادة الخمينى . الشاهد على ذلك الكتابات والتعليقات الاعلامية الكثيرة المتعلقة بقضايا الاحياء والثورة .

بحيث يذكرنا ذلك بفترة تاريخية سابقة ، حينما اهتم الغرب باحياء أو انبعاث الشرق فى نهـاية القرن التاسع عشر . ويرجع هـذا الاهتمام فى كلا المرحلتين فى جانب منه الى الاحساس بالمواجهة المحتملة . فبرغم الاختلاف النسبى للأسـباب التى أدت فى كل مرة الى الاحياء الا أن التماثل بينهما مازال قويا . ففى القرن المـاضى نجد أن هـذه الأسباب تضمنت المصالح الأوروبية فى الشرق ، وبخاصـة قناة السويس وخطوط المواصلات التى كان يسير عبرها التبادل التجارى بين المستعمرات والامبراطورية البريطانية ، وهو التبادل الذى كان فى صالح القوى الاسـتعمارية دائما . بينما تتصل هـذه الأسباب فى أيامنا هـذه بتأمين المصادر الحيـوية للطاقة اللازمة للصناعة الغربية . والقيمة الاستراتيجية للحوار العالمى بين الشرق والغرب . حسبما أشرنا ، اذ أنه برغم اختلاف الأسباب الا أن كل مرحلة شهدت نوعاً من الاحياء (فقد حدث الاحياء فى الجزيرة العربية فى القرن الثامن عشر ، وفى الهند ومصر والسودان فى القرن التاسع عشر ، وفى شمال أفريقيا فى القرن العشرين) .

أما فيما يتعلق بالاحياء الحالى ، فبرغم اختلافه المحتمل من حيث التركيب والاندفاع ، فانه ليس غريبا أو فريدا . وأن الظروف العالمية التى ظهـر من خلالها هى التى جعلته مختلفا . بالاضافة الى التهديد الذى يفرضه بالنسبة لاستقرار منطقة استراتيجية وحساسة فى هـذا العالم .

وتركز معظم التعليقات المتعلقة بالاحياء الاسـلامى على اعادة اكتشاف المسلمين لهويتهم الثقافية والدينية ، واصرارهم على ضرورة تأكيدها فى مواجهة التهديد الموجه لاضعافها والذى ينطلق من حضارة الغرب الصناعية . متضمنا فى ذلك الحكم بافتراض انه لأن المسـلمين قد حاولوا التحديث من خلال التغريب ، فانهم قد أدركوا أن هـذا الأسلوب يسلم عادة للفساد ، ومن ثم فهم يرفضون الآن . وأن محاكاتهم للغرب لم تكن مثمرة بل كانت مدمرة . وذلك لأنهم يعتقدون بأن الغرب قد بلاهم بالفوضى الاجتماعية والاذلال القومى . وعلى أى حال فقد اقتصرت محاولات التقليد على صفوات محدودة ،

استطاعت من خلال وجودها فى السلطة أن توسع من وظائف وسلطات الدولة المركزية على حساب الدين ومؤسساته ، ومن ثم فقد أدت الى تقويض الأخلاق الاسلامية التى تشكل أساس المجتمع . هذا الى جانب أنها ربطت نفسها بالقوى الأجنبية على حساب مصالح مجتمعاتهم . ومع ظهور الثروات الهائلة مع البترول ، فقد اعتقدوا بأنه قد آن الأوان ، لتأكيد قوة الأخلاق الاسلامية ووجودها فى دار الاسلام وضرورة فرضها بخارجها أيضا . ومن ثم برز الوعى بالتاريخ الاسلامى وبالمثل ادراك البشر فى المجتمعات الاسلامية للماضى المجيد الذى ضاع نتيجة لضياع امتلاك القوة . ومن ثم فقد أصبح من المستحيل استعادة هذه القوة وهذا المجد من خلال تبنى الأساليب الغربية أو الأوروبية . بل يمكننا تحقيق هذا الماضى المجيد وانجازه من خلال الالتزام الدقيق بقيم وأخلاق الاسلام . ويبدو أن هذا هو جوهر رسالة الخمينى فى ايران ، ورسالة الاخوان المسلمين ، ومختلف الجماعات الاسلامية المناضلة فى مصر اليوم . وهى رسالة الجماعة الوهابية الراديكالية التى لقبت نفسها بالمهدى المنتظر . والتى فجرت العنف نتيجة لاحتلالها المسجد الحرام فى مكة ١٩٧٩ . اذا فكل أحداث الاحياء قد ظهرت نظرا لفشل العلمانية ، أعنى الدولة والسلطة ، والحكام الذين يفترض ايمانهم بالتحديث فى التكيف أو التوافق مع متطلبات مجتمعاتهم (٢٠٠) .

ويتمثل العامل الثانى الذى يعكس تأثير النظام العالمى على ظاهرة الاحياء الاسلامى فى وطأة الثقافة الغربية على المجتمع الاسلامى ، ولقد بدأ هذا التأثير بغرض التحديث الغربى على المجتمعات الاسلامية عند نهاية القرن الثامن عشر بمجىء حملة نابليون على مصر ، واستمر التحديث بطيئا فترة طويلة من الزمن الى أن تفجر البترول فأدى الى مجموعة جديدة من التغييرات الهائلة . واذا كان الماضى قد شهد ترحيبا بالتحديث من قبل الحكام الذين وجدوا أن التحديث قد يساعدهم على الاستمرار فى السلطة والبقاء بها . وفى فترة زمنية حديثة نسبيا ، انتشر التحديث

ولم يعد مقصورا على أفراد الصفوة ، حيث تبنى عـــدد هائل من البشر الأجهزة المـــادية الحديثة والتى جعلتهم يسقطون أسرى الفوضى التى نتجت عن التغير الاجتماعى والاقتصادى والسريع . حيث انهارت الأساليب القديمة ، وحلت محلها الفوضى والضياع وعدم الاحساس .

واذا كان هـــذا التحديث له طابعـــه الأجنبى وغير الاســـلامى ، فان الحكام المســـلمون المستبدون هم الذين فرضوه على المجتمع الاســـلامى التقليدى . ومن ثم فقد تسببوا بفعلهم هـــذا فى تخلق أزمة الهوية وخاصة فى اطار الحياة العـــامة . ويمكن الحـــكم على انجاز حكام المجتمعـــات الاســـلامية داخل اطار التحديث المستورد بالنظر الى الادراكات والمعايير الاســـلامية . ومن ثم فان اندفاع الجماهير للتحرر من وهم وسطوة الحكام سوف يعنى أيضا التحرر من وهم اطار التحديث المغترب .

وبطبيعة الحال فلم ينتهك الغرب حرمة هـــذه المجتمعات من خـــلال التحديث فقط ، ولكنه استعان فى ذلك بالقوة العســـكرية ، وبذلك توفرت لديه القدرة على حكم المجتمعات الاســـلامية والسيطرة عليهـــا . ولقد ادى ذلك ليس الى تحـــديد ادراك المســـلمين للعالم غير الاســـلامى فقط ، ولكنـــه ذكرهم أيضا بقواهم المشتتة ، وبافتقاد الاســـلام للقوة . وفى المـــائة والخمسين سنة الســـابقة فان الخبرة التى اكتسبها المســـلمون عن الأجانب هى الخضوع الذليل لسلطتهم . وهو الأمر الذى يرفضه المسلم التقليدى المحافظ ولا يوافق عليه . ونتيجة لذلك تولد لدى المسلمين فى السنوات الأخيرة تراث من الشك فى حكامهم . حيث نظرت الجماهير الى معظمهم باعتبارهم مغتصبين للســـلطة مستبدون ، طغاه ، محدودون ، ملحدون ، يعتنقون مذاهب الكفار .

وما نشاهده اليـــوم فى ايران والباكستان ، والاحتجاجات المؤقتة فى كل من مصر وتركيا ليس الا رفضا لهذه الثقافة المغتربة . بحيث يتضمن ذلك رفض الحكام الوطنين الذين حاولوا استعارة أو تقليد هـــذه الثقافة المغتربة واستنباتها فى أوطانهم ، وقد يتخذ الاحتجاج عند المســـلمين المحافظين

شـــكل الدعوة لاستعادة سلطة الاســـلام ، وذلك على الرغم من ان غير المســـلمين هم الذين يسيطرون على مراكز القوة فى عالمنا المعاصر (٢٠١) .

ويعتبر الاستعمار الأجنبى من العوامل ذات الأهمية الجوهرية لكونه قد لعب دورا أساسيا فى اثارة حركات الاحياء الاســـلامى . فمثلا نجد ان الاخوان المســـلمين قد عبأوا مئات الآلاف من المصريين كرد فعل للتدخل البريطانى فى مصر ، وأيضا كرد فعـــل لتدخل بريطانيا والصهيونية فى فلسطين . وقد حصلت الثورة الايرانية على دعم غير عادى من خـــلال موقفها المضاد لانتهاك الغرب للمجتمع الايرانى والتسلل لاستلاب موارده وهو الأمر الذى تجسد فى العلاقة الوثيقة بين حكومة الولايات المتحـــدة وشركات البترول من ناحية ، وبين الشـــاه من ناحية أخرى . ومن الطبيعى أن يتسع رفض الجماعات الاسلامية للاستعمار لكى يشمل رموزه الثقـــافية والاجتماعية ذات الطابع الأجنبى(*) .

(*) هناك من يؤكد على ضرورة فهم الصراع الذى تعتبر الجماعات الاســـلامية وحركة الاحياء الاســـلامى طرفا فيه باعتباره جانبا من الصراع السياسى بين دول العالم الاســـلامى من ناحية وبين القوى الصناعية التى تحاول التأثير على الأمة الاســـلامية من ناحية أخرى . وفى هـــذا الصدد فان الحديث عن احياء اســـلامى شامل فى مواجهـــة الغرب فيه تبسيط للقضية . فما يقع هو عبارة عن سلسلة من الصراعات السياسية التى تســـتخدم فيها الاســـلام باعتباره أيديولوجيا تســـاعد على تأسيس التكامل والتضامن من أجل دعم مركز القادة والأنظمـــة وحركات المعارضة التى تقاوم ما تعتبره انتهاكا مستمرا تمارسه القوى الأجنبية ضد مجتمعاتها . فاذا حاولنا أن نعزى بعض الأبعاد الاســـلامية باعتبارها ســـببا للصراعات العديدة بين الشرق والغرب ، فاننا نغفل فهم القضية باعتبارها سياسية وليست دينية ، ومن ثم فان هـــذه الصراعات لا تختلف جذريا عن الصراعات التى بين العـــالم الثالث والغرب . وفى هـــذا الاطار يعتبر الاســـلام والشرق الأوسط أحـــد الأساطير العديدة التى تســـاعد فى دعم التضامن ، — كالقومية — وهى التى تستخدم عادة فى حالة الصراع مع عدو خارجى(٢٠٢) ومن الواضح أن وجهة النظر هـــذه ترى فى الاحياء الاســـلامى ظاهرة مؤقتة وليست ذات طابع استراتيجى يستهدف احياء الهوية الاســـلامية كأساس التنظيم السياسى والاجتماعى ، وباعتبارها يمكن أن تشكل بداية لمقدمة حضارة جديدة غير حضارة الغرب التى أصابها الموت والتلف .

ويشـــكل الجانب الاقتصادى أحـــد الجوانب الهامة لاختراق قوى النظام العالمى لمجتمعات العالم الاســـلامى ، باعتبارها تدخل فى نطـــاق العالم الثالث أو العالم المتخلف . وحسبما تذهب نظـــرية التبعية فان العلاقة الاقتصادية بين القوى العالميـــة والمجتمعات المتخلفة عادة ما تعبر عن تبادل غير متكافىء بين الأولى باعتبارها المراكز وبين الثانية باعتبارها الهوامش أو المحيطات . ومن خـــلال هذه العلاقة غير المتكافئة تســـتورد المراكز المـــادة الخام والمحاصيل الأولية من الهوامش لقاء عائد منخفض . وذلك فى مقابل تصـــدير السلع الصناعية والاستهلاكية بأســـعار عالية ، بحيث تعبر الفجوة بين الاثنين عن حجم الفائض الذى يستلب أو يتم نقله من الأقطار الفقيرة الى الأقطـــار المتقدمة والأقوى صناعيا واقتصاديا .

وتتبع المجتمعات المتقدمة فى العادة لانجاز هـــذا الاستلاب وسائل عديدة ومنها الاحتكار القهرى لخامات المجتمعات المتخلفة ، كالحصول على البترول من العالم الاســـلامى ، واستثمار نسبة عالية من عائداته فى المجتمعات المتقدمة (المراكز) ، فاذا حدث اســـتثمار فى العالم المتخلف فانه يكون فى العادة من خـــلال الشركات المتعددة الجنســـية التى تمتلكها المجتمعات المتقدمة . ومن الوســـائل التى تتبعها الدول المتقدمة أيضـــا تصـــدير السلع الترفية واشـــاعة روح البذخ والاستهلاك فى المجتمع المتخلف ، بل وخلق شريحة طبقية موالية لهـــا دؤوبة على اتباع أساليبها وقيمها ، ومن ثم تشكل الفصائل المتقدمة لغزو القوى العالمية للعالم المتخلف . وقد عبرت صفوات العالم الثالث عن هـــذه العلاقة غير المتكافئة بسياسات الانفتاح الاقتصادى أو التنمية على الطـــريقة الليبرالية أو الرأسمالية . ومن طبيعة هـــذا التغلغل الاقتصادى أنه يفرض حالة من التبعية الاجتماعية والثقافية ، ومن ثم السياسية لارتباط اقتصـــاد المحيط بدوران عجلة المركز . ونتيجة لهذه العمليـــة المدمرة من كل جوانبها يفقد المجتمع قدرته على التقشف والاعتمـــاد على الذات ، وهى رموز اســـلامية أساسية وملائمة لصناعة التنميـــة والتقدم .

ولعل سياسة الانفتاح — الذى اتخذ الطابع الاستهلاكى — التى تبناها النظام السياسى فى مصر فى الفترة ١٩٧١ — ١٩٨٠ ، بكل آثارها الاقتصادية والاجتماعية ، وزيادة النفوذ الأجنبى المرتبط بذلك وسيادة قيم المجتمع الاستهلاكى الذى أفرخت فيه ظواهر الانحلال والفساد ، من العوامل الجديدة والقوية التى أضافت الى الجماعات الاسلامية شعورا بعدالة قضيتهم(٢٠٣) . بل ان ذلك هو الذى دفع الخمينى الى انتقاد الشاه فى اعتماده على استيراد المواد الغذائية من الخارج ، مؤكدا أنه كان من الممكن لايران أن تنتج غذاءها مستقلة لولا الفساد السياسى الذى فرض عليها هذه التبعية الاقتصادية(٢٠٤) (*) .

ويعتبر أسلوب الحياة الغربية هو الآخر من العوامل التى تهدد المجتمع الاسلامى . ومن ثم من العوامل التى أثارت حفيظة الجماعات الاسلامية . واذا كان الاسلام قد استطاع بعد مائة وخمسين عاما من الصراع أن يهزم الضغوط الدينية والروحية والسياسية والعسكرية التى فرضها الغرب من الخارج ، فان على الاسلام أيضا محاولة الاستجابة للتحدى الثقافى الجديد الذى يحاول الغرب فرضه على العالم الاسلامى فى الخمسة وعشرين سنة الأخيرة . وهو التحدى الذى يتجاوز فى خطورته كل التحديات السابقة باعتبار أن العدو هذه المرة ليس أجنبيا كلية ، ولكنه يتشكل من المواطنين الذين يشكلون طابورا خامسا داخل المجتمع . ونحن هنا لا نشير الى التحدى الحضارى الشامل للغرب ككل ، والذى

(*) أكد آية الله روح الله الخمينى أن الشاه قد أعلن دون أن يشعر بالحياء والخجل عن استيراد مليونين ونصف مليون طن من الحنطة ، وأربعمائة ألف طن من الأرز ، مع العلم أن كثيرا من ذوى الخبرة يعلمون أن أحد أقاليم ايران (خراسان على سبيل المثال) قادر على انتاج الحنطة التى تسد حاجة البلاد كلها ... لقد ضاعت الامكانيات الزراعية ، كما ضاعت فرص الصناعة الوطنية ... ولم يبق من الصناعة الوطنية المستقلة سوى الاسم ، ولن تكون للبلاد صناعة وطنية مستقلة الا ان يشاء الله تغيير هذا النظام(٢٠٥) .

يتضمن قوى معقدة تشير اليها بواسطة مفاهيم (كالتحضر) (وانسان الجملة) (والتقدم التكنولوجى) (ومجتمع الوفرة الاستهلاكية) . ذلك لأن هذا التحدى سوف يتطلب حسمه استمرار الصراع لأجيال عديدة قادمة .

أما التحدى الجديد الذى يواجهه العالم الاسلامى فيتميز بأنه أكثر تغلغلا ، وذلك لأن له وطأته على ثقافة الشباب . وهو الأمر الذى يفرض مشكلات هائلة على المجتمع الاسلامى فى عصرنا التالى لعصر جماعة البيتلز . فمن وجهة نظر الملاحظ الخارجى يمكن النظر الى الشباب الأربعة الذين شكلوا جوهر جماعة البيتلز باعتبارهم ثوارا حقيقيين فى عصرنا . حيث أنهم قد تمكنوا من تأسيس شىء أكبر كثيرا من مجرد أسلوب موسيقى جديد .

وقد حدد آية الله الخمينى هذا العدو الجديد فى تشهيره القاسى بالحضارة الغربية ، من حيث جذورها وفروعها ، من خلال تذكيره بالموسيقى الغربية ، وهو هنا لا يشير الى موسيقى باخ Bach أو ستوكهاوش Stockhauseu . ولكنه كان يشير الى موسيقى الجاز التى أصبحت عالمية بسبب راديو الترانسستور الرخيص الثمن والتى شاركت فى تكنولوجيته كل من اليابان والغرب .

فما هو الخطير اذا فى موسيقى وأغانى الجاز مما جعلها تثير حفيظة واحد من أكثر المناضلين الاسلاميين قوة ؟ من ناحية فانها بريئة — وان لم تكن كذلك فى اطار ثقافة الشباب . حيث تذهب أغانيها العاطفية الى القول بأن لاثنين من الشباب أن يختار كل منهما الآخر ، حتى ولو كان فى ذلك القضاء على العائلة (بسبب الفجوة الجيلية) بل ولو كان فى ذلك القضاء على المجتمع . وتذهب الأخلاق الكامنة وراء ذلك الى التأكيد بأن بامكان اثنين من الأفراد — وليس أسرتين كما كان يحدث فى المجتمعات الشرقية والاسلامية منذ زمن بعيد — أن يختارا طريقهما فى الحياة . واذا وافقنا على هذه السلوكيات فى المجتمع الاسلامى ، فان ذلك سوف يعنى نهاية بناء الأسرة ونهاية المجتمع التقليدى المستند الى العائلات التى تسود بينها شبكة من العلاقات المتبادلة . وقد يقال أن الشباب المسلم

قد لا يتأثر بذلك ، غير أنه من غير المعقول أن نفترض أن الشـــباب الذى يتأثر لا يمكن أن تستمع بانتباه عاطفى لشىء ما عاما بعد آخر دون أن يؤثر ذلك على آرائه وســـلوكه الاجتماعى ، اذا لم يكن قد انطلقوا فعلا لانجاز ما تقوله لهم موسيقى الجاز وأغانيها العاطفية .

وتعتبر الأغانى مجـــرد جانب من هـــذه الثقافة الموسيقية المنتشرة قبل العالم بكامله ، فهناك الى جانب الاعجاب بثقافة وجماعة بوب pop هنـــاك أيضا جاذبية لأسلوب حياتهم ، بما فى ذلك الممارسات مثل تناول المشروبات الكحولية ، والشعارات التى تؤكد أن يفعل الانسان ما يريد ، أن أن يغادر الانســـان مؤسسات كالمدرسة أو الجامعـــة أو الأسرة ، وأن يترك شـــعره مرسل ، وأن يلبس الثياب غير المنظمة والكثيرة الألوان ، وبخاصة الجينز الأزرق الرمز أنبارز لثقافة الشـــباب (٢٠٦) ومن الواضح أن هذه الثقافة ـــ بما فيها الموسيقى ، والأغانى والسلوكيات ـــ تضرب المجتمع الاســـلامى بقسوة ، ذلك لأن الاســـلام هو المستهدف ، وهو الأكثر قوة من حيث بنائه ، وهو المجتمع الأكثر بقاء بين تلك المجتمعات التى تسودها الديانات الآســـيوية الأفريقية الداخليـــة . وقد يتساءل الانســـان منا هل يهتم كثيرا الآباء الهنود أو البوذيون فى جنوب شرق آســـيا بعبادة أبنائهم للأوثان ، على عكس ذلك يهتم بذلك كثيرا الآباء المســـلمون فى باكستان أو ســـوريا أو الجزائر (٢٠٧) .

ذلك يعنى أنه اذا كان الشـــباب هم أمل المستقبل وعماد جماعات النضال والاحياء الاســـلامى ، فان التسلسل الى الشـــباب من خلال بنائهم العاطفى ومن خلال اقبالهم على الحيـــاة سوف يعنى اذا نجح ضربة مقتل للاحياء الاسلامى ، وهو الأمر الذى أثار كثيراً الامام الخمينى أكثر من أى شىء آخر . فهى محاولة لهزيمة المجتمع الاســـلامى من الداخل ، بعـــد أن فشل الهجوم عليه من الخارج فى مراحل تاريخية سابقة أبرزها المرحلة الصليبية .

* * *

٤ — الاحياء الاسلامى ، مظاهره وديناميابه :

عرضنا فى الفقرة السابقة لمجموعة العوامل أو الظروف التى أدت الى ظهور الاحياء الاسلامى فى المجتمعات الاسلامية ، وهى العوامل التى لها أسبابها فى البناء الداخلى للاسلامى ، وهو البناء الذى يتضمن تصوراً يميل الى التكامل — باعتباره اطارا مرجعيا — مع الواقع من خلال الضمير الفردى للانسان المسلم . غير أن التكامل يكون فى العادة ملحا اذا كان ثمة انهيار يتهدد المجتمع الاسلامى . وحسبما عرضنا فى الصفحات السابقة نجد أن حالة الانهيار أو الضعف المرتبط بأمل التخلص منه هى التى تدفع عادة الى ظهور الاحياء الدينى . فاذا حاولنا تأمل الأوضاع فى المنطقة العربية أو الاسلامية فسوف نجد أن هناك مجموعة من المؤشرات التى ظهرت فى المنطقة الاسلامية والعربية والتى يمكن فهم ظاهرة الاحياء التى بدأت تطفو على السطح بالنظر اليها .

(أ) ويعتبر سقوط كثير من المجتمعات الاسلامية فى اسار التبعية بعد أن أثارتها آمال الاستقلال ، فيه اثارة لمشاعر البحث فى محاولة لتحديد الهوية ، وتواجه فى اطار عملية البحث هذه بعدة حقائق أساسية ، منها أنها كانت مجتمعات مستقلة ، رغم أنها تمتلك الامكانيات الحقيقة لتحقيق تنمية قوية وفعالة . غير أن صفواتها اتجهت عن حسن نية أو عن سوء قصد الى الارتباط بالغرب ، هذا الغرب الذى شن الحروب الصليبية فى مرحلة سابقة للاستيلاء على بعض الأراضى الاسلامية ، وهى خبرة محفورة فى الضمير الاسلامى ، خاصة الصفوات الدينية المثقفة ، ثم كان الغرب أيضا هو الذى سيطر على المجتمعات الاسلامية خلال الموجة الاستعمارية ، وقام بسلب الموارد الاقتصادية لهذه المجتمعات ، ومن ثم فقد ساهم فى تأسيس التخلف ، وللتخلف آثاره على كل المستويات البنائية ، وهو الأمر الذى خلق اتجاها من التوجس والريبة نحو كل ما هو غربى ، ثم أن هذه التبعية المعاصرة هى النقيض المقابل للمجد الاسلامى المقابل ، ذلك يشكل ظرفا يمكن أن تنمو فى اطاره بذور اليقظة الاسلامية ،

التى يمكن أن تشـــارك فيها القيادة والجماهير فى البحث عن للوهن الحالى الذى أصاب المجتمعات الاســـلامية ، ومن شأن ذلك أن يشـــكل اطار قد يستغله الجماعات اليسارية أو ذات التوجهات الاســـلامية الراديكالية .

٢ — ويعتبر وجود العالم الاســـلامى ضمن كتلة العالم الثالث من الوضعيات التى لاءمت ظهـــور الاحياء الاســـلامى فى اطارها . اذ نجد أن هـــذا العالم مضطر — من خلال وضعيته هـــذه — الى الاستعارة الثقافية من الخارج . بيد أن تجربة الغرب مع الشرق ، أو الشـــمال مع الجنوب أثبتت أن التقدم لا يمنح أو يقلد ، وانما تؤسسه السواعد القادرة على البنـــاء والعقول القادرة على التجديد . واذا كان العالم الاســـلامى قد حاول التنمية بعـــد حصوله على الاســـتقلال الا أن العالم المتقدم لم يمنحه وســـائل التنمية وانما صـــدر اليه مظاهر الضعف فى بنائه وثقافته . فقد صـــدر اليه الســـلع الاستهلاكية التى تستفز المشـــاعر وتغير توجهات الجماهير لغير صالح التنمية ، وقد صدر اليه موسيقى الشباب وثقافة الجينز والغياب عن الوعى فى عالم المخدرات ، ومن ثم حول قطاعاً كبيراً من الجماهير من الايجابية الى الانسحاب . ثم أن التحديث الغربى هو الذى خلق أزمة الثقافة والقيم وأزمة الهوية . ومن ثم خلق وضعا مشـــوها يعيش حالة أزمة ويستلزم — أو يفرض حسب تلقائية التفاعل — محاولة البحث عن اطار لاصلاح هـــذه الحال ، اطارا تعرفه الجماهير وتتبناه الصفوة ، وهو ما يعنى البحث عن البديل الاســـــلامى .

٣ — ويعتبر وجود الاطار الاســـلامى المستند الى المواثيق المقدسة والتراث الذى تطور حولها ، هو البديل الذى يمكن أن يقود المسيرة التاريخية من الانهيار الى القوة . وقد اثبت هـــذا البديل كفاءته فى فترات التاريخ المـــاضى ، فقد استطاعت الجماهير الاســـلامية أن تؤسس بالنظر اليه امبراطوريات اسلامية كبيرة ومترامية الأطراف . وفى قلب حالة الضعف التى تنتاب المجتمعات الاســـلامية ، وفى مواجهة التهديد بضياع الهوية ، واســـتنادا الى يقين امتلاك امكانية النجاح والقوة يصبح الاســـلام هو

الملجأ الذى يتجه اليه المسلمون فى حالة الأزمة . وفى قلب هذا الموقف المتجهم يستجيب المسلمون استجابة الماريشال فوشيه Foch فى الأيام السيئة التى مرت بها جيوش الحلفاء فى ربيع ١٩١٨ حينما قال (ان جيوشى تتراجع وموقف دفاعى ليس ثابتا ، ومن ثم فسوف أهاجم) فلعل الهجوم يسفر عن أمل بتجاوز الواقع السىء . وقياس على ذلك يتجه المسلمون الى الاسلام بسبب النكسات المتعددة التى واجهوها ، واتجهوا بالتحديد الى الاسلام المناضل . وفى هذا الصدد يمكن اعتبار الروح الاسلامية الجريئة التى تميز نضالية الاسلام هى التى بدأت تسود عديدا من أقطار العالم الاسلامى فى تزامن واحد هى التى جذبت انتباه العالم . وهى الروح التى شكلت الأساس لموجة مازالت تتحرك نحو الذروة . وفى هذا التحول نحو الجرأة النضالية ميزت استجابة العامة نحو الأحداث فان هناك شعورا اسلاميا آخر تنامى على التوازى مع التحول السابق وهو الشعور الذى نبت مباشرة من تربة الضعف والوهن ، ومن ثم فقد تميز (بحالة من الرعب والخوف) للبحث عن شىء دائم يمكن أن يمنح القوة والأمان . وبدأ كل تيار يغذى الآخر . وكلما تعبد كثير من البشر فى منازلهم ، كلما كثر الذين يترددوا على المساجد ، وفى قلب هذا المد الاسلامى قرر قادة المجتمعات الاسلامية ، بعضهم عن اخلاص حقيقى ، وبعضهم عن انتهازية ، أنه قد آن الآوان للاتجاه الى تبنى سياسات اسلامية مناضلة وجريئة داخل دار الاسلام وخارجها (٢٠٨) .

وارتباطا بهذه الظروف بدا الاحياء الاسلامى تيارا عارما تتفاعل بشأنه مختلف الصفوات والجماهير . غير أن التعمق فى داخل ظواهر الاحياء هذه يكشف للباحث امكانية تصنيفها فى اطار ثلاثة أنماط أساسية .

ويمكن أن تسمى النمط الأول بالنمط الانسحابى حيث يشكل هذا النمط الى جانب طبيعية هذه المرحلة الأولى فى تصاعد الاحياء الاسلامى الحقيقى . ويتميز هذا النمط ببداية تجمع البشر الذين على خصومة حقيقة مع النظام القائم من مختلف الروافد ، ومن ثم بداية تأسيسهم لجماعة تتحول

الى مجتمع يمتلك ثقافته الخاصـــة ورموزه وعاقلاته الاجتماعية المتميزة وقادر على تقـــديم اشباع للحاجات الأساسية لأعضائه المكونين له • وآذا كان الشـــباب الغربى فى مواجهة الحيـــاة التكنولوجية المعقدة قد انسحب الى حيث انتجمعات الطبيعية أو الى اللاوعى من خـــلال المخدرات والماريجوانا ، فاننا نجد أن شـــباب الاســـلام فى مواجهة الحيـــاة التى يدب فيها الوهن والانهيار يتجهوا الى بساطة الاســـلام كما تحددها المواثيق الأساسية ، فاذا اتجه الشـــباب فى هـــذا الاتجاه ، فان ذلك سوف يعنى أن الشـــباب قد بدأ يدق الأبواب ، وأنه قد آن الأوان لأن تكون لهم كلمتهم .

ويعتبر النمط المتمرد هـــو النمط الثانى لظواهر الاحياء وحركاته . وفى اطار هـــذا النمط يبدأ المنسحبون من الحيـــاة التى يرفضونها فى المجتمع فى التجمع ، ومن ثم الاتجاه الى تشكيل مجتمعات لها ثقافتها الخاصـــة والمحددة • ولها علاقاتها وتفاعلتها الاجتماعية الموجهة برموز هـــذه الثقافة . وبهذا التحدد الثقافى والاجتماعى يبدأ انفصالهم عن المجتمع . وهو الانفصال الذى يدعمه عادة الوعى الدينى للأعضـــاء . وهو الوعى الذى أصبح واضحاً ومحدداً . ومن هنا يبدأ التفاعل داخل المجتمع بين ثقافتين ، ثقافة المجتمع العـــام ، والثقافة الخاصـــة بمجتمعات الجماعات الاســـلامية ، وتصبح الثقافة الغربية ـــ التى تنتمى الى المجتمع العـــام ـــ مثيرة للشـــباب ذوى الخلفيـــة الاجتماعية المرتبطة بالتراث والتقاليد ، وهم الذين يشـــعرون بأنهم يجتثوا من جذورهم . ونمثل لهـــذا الوضع بحـــالة كثير من الاناث المتعلمات فى كثير من الأقطار العربية وايران ، فحينما واجهن أفكار تحرير المرأة ، وطوفان القيم الاستهلاكية ، نجد أن صورهم قد بدأت تظهر بشـــكل عام وهم يلتفون بالشادور الأســـود داخل الحرم الجامعى لجامعة طهران . أو فى الثوب الطويل الأبيض وخمار الوجه داخل الحرم الجامعى لجامعة الأردن بالقرب من عمان . واذا سألتهم فسوف يجيبون عليك بأنهم قرروا أن يلبسوا هـــذه الملابس التقليدية ـــ حتى ولو كان ذلك على غير رغبة آبائهم أو أجدادهم الذين عارضوهم فى هـــذا الصدد ـــ ليس لأسباب دينية

فقط ، ولكن لأن هـــذا الزى يمنحهم شـــعورا بالهوية أو احساساً بالذات .
فاذا لبسوا هـــذا الزى ، فانه سوف يصبح من الواضح من هم . أما اذا لبسوا الجينز الأزرق فقد يصبحوا شـــيئا لا عربيا ولا أجنبيا (٢٠٩) .

وفى ســـؤال للمحجبات المصريات بالجامعة عن الأســـباب التى دفعتهم الى ارتداء زى الحجاب أجابت عينة البحث بنسبة ٢ر٣٢٪ لأن هـــذا الزى يتسق مع الشرع الاســـلامى ، بينما قالت ٨ر٣٠٪ لأن هـــذا الزى يقربنى من الله ، بينما ذهبت نسبة ٦ر٢٠٪ بأن ذلك لخوفى من عذاب الآخرة ، وذكر نحـــو ١ر١٠ بأن ذلك لعمق قراءاتى الدينية ، ونحـــو ٢٪ بأن ذلك لمجاراة بعض الصديقات (٢١٠) . ذلك يعنى أن السبب الدافع الى الحجاب أو الأخذ بالزى الاســـلامى يرجع بالأساس الى الشـــعور الدينى المختلط بالحنين الى الهوية الاســـلامية المستقلة .

واذا كان ذلك قد حدث بين الاناث ، فان ما يقابل ذلك قد حدث بين الذكور . اذ اتجه الشـــباب الذكور الى اطلاق اللحى ، وخلعوا الزى الغربى ، وعادوا الى الجلباب الاســـلامى وغطاء الرأس . وهو الأمر الذى ظهر فى البداية على هيئة أفراد مشتتين على أرض الواقع الاجتماعى ، بيد أنهم بكثافتهم المتصاعدة بدأوا يشكلوا مجتمعاً يرفض ما تواضع عليه البشر فى المجتمع المحيط . ورفض الزى الذى يوافق عليـــه المجتمع هو أول بدايات الرفض ثم بعد ذلك تزداد الكثافة من حيث العضوية ، ثم الكثافة الاجتماعية والثقافية المترتبة عليه ، ثم يبدأ الانفصال عن المجتمع المحيط (*) ومن ثم

(*) من خلال دراسة ميدانية على الجماعات الاسلامية ، اتضح ان جذب الاعضاء يتم من خلال القرابة ، الصداقة ، الروابط الدينية . فهم عادة ما يجندون أعضاءهم الجدد من بين الذين يواظبون على الصلاة . وفى هذا الاطار يلاحظ كبار اعضاء الجماعة الشباب الذى يواظب على الصلاة فى المساجد المجاورة . فاذا وجد شاب يتميز بعمق التدين ــ مؤشر ذلك المواظبة على صلاة الفجر ــ فانهم يتقربون منه من خلال المناقشة فى الامور الدينية بعد الصلوات العادية . وخلال هذه المناقشة يتم اكتشاف الاعضاء الجدد للجماعة . ثم يؤهلوا بعد ذلك لكى يكون لديهم الوعى السياسى . ويكون البعد الدينى عادة هو المدخل الى الشخص ، ثم محاولة تسييس الشاب بمجرد قبوله عضواً (٢١١) .

تتخلق فجـوة بين مجتمع الشـباب المتحمس لاسـلامه ، وبقية البنـاء بالمجتمع من خـلال العنف أو البطش به . وفى هـذا الاطار تدخل الجماعة فى صدام مع النظـام القائم حول بعض التفاصيل ، لكنها تكون حتى هـذه اللحظة لا تستند الى دعم جماهيرى كاف ، ولا تمتلك قوة اجتماعية ، ثم أن تصوراتها قاصرة على الحاضر عاجزة عن أن تطور تصوراً للمستقبل .

ويعتبر النمط الثورى هو النمط الثالث فى الاحياء الاسلامى ، وهو فى العادة أكثر الانماط اكتمالا وايجابية . ويظهر هذا النمط اذا توفر انسحاب كامل للجماعات الدينية ومن ورائها الجماهير تدعم حركتها ، بعيداً عن النظام الاجتماعى والسياسى القائم أن تتناقض معه ، وذلك بسبب ادانتها له بأنه لم يشبع حاجاتها الاساسية أو لا يعبر عن ضميرها واعتقادها . هذا الى جانب امتلاك الجماعة أو الجماعات الاسلامية أولا لرموزها الخاصـة ، وثانيا لقواعدها الجماهيرية الواسعة التى يمكن أن تعتمد عليها اذا دعت الحاجة الى ذلك . ويصبح حينئذ ان كل انسحاب للجماهير من التحالف والنظام القائم هو فى ذات الوقت ارتباط ايجابى بالجماعات الثورية التى تعد بتوفير الاشباع ، خاصة اذا كانت هذه الجماعات تتجانس وجماهيرها فى عمق العقيدة . هذا بالاضافة الى امتلاك الجماعة أو الجماعات الثورية لايديولوجيا مستقبلية . تحدد طبيعة الطريق الذى ينبغى السير فيه بعـد تحقيق النجاح المرحلى بالانتصار على النظام المعرب من حيث توجيهـاته وممارساته . وحينما تصل الجماعة الثورية الى أقصى قوة لها ، أذا عملت الظروف السابقة لصالحها ، وحينما يحرم النظام الاجتماعى والسـياسى القائم فى مقابل ذلك من قواعده الجماهيرية . حيث يعانى من العـزلة والضعف ، فاننا نكون حينئذ فى مواجهة لحظة الصفر الذى ينطلق فى اطارها الاعصار الثورى متصاعدا ليقضى على النظام الى غير رجعة وليؤسس مجتمعا جديدا وتكون الجماعة الثورية قد حققت بذلك غايتها ، أليس ذلك هو الذى حدث بالتحديد فى ايران ؟ .

المراجـــع

١ — على ليلة : النظرية الاجتماعية المعاصرة ، دراســة لعلاقة الانسان بالمجتمع (دار المعارف — الطبعة الثانية ، ١٩٠٣) ص ٣١٤

٢ — المرجع السابق ص ٣١٣

3 — E. Durkheim : The Elementary Forms of the Religius Life ( ) P. 444.

٤ — على ليلة : مرجع سابق ص ٣١١

٥ — المرجع السابق ص ٢٩٦

٦ — المرجع السابق ص ٣٠٧

٧ — المرجع السابق ص ٣١٢

٨ — المرجع السابق ص ٢٩٧

٩ — أبو الأعلى المودودى : نظرية الاسلام وهديه فى السياسة والقانون والدستور ، ترجمة : خليل حسن الاصلاحى (مؤسسة الرسالة ١٩٨٣) ص ٢٥١

١٠ — المرجع السابق . ص ٢٥٢

١١ — المرجع السابق . ص ٢٥٥

١٢ — المرجع السابق . ص ٢٥٦

١٣ — المرجع السابق ص‌ص ٢٥٧ — ٢٥٨

١٤ — المرجع السابق ص٢٦١

١٥ — المرجع السابق ص ٢٦٢

١٦ — المرجع السابق ٢٦٥

17 — Bertrand Badie & Plerre Birnbaum : The Sociology of the State , Trans By ; Arthur Goldhummer (The University of Chicago Press, Chicogo, London.. 1983) p. 83.

18 — Ibid. p. 79.

19 — Ibid. p. 79.

20 — Gerhard Ritter : Origins of the modern state (in) Hienz Lubasz : The development of The modern State (New York . Macmillan, 1964) p. 19 .

21 — Bertrand Badie & other : Op. cit. p. 80.

22 — Ibid . p. 80

23 — Ibid. p. 81 .

24 — Ibid. p. 81 and See also Lewis Mum ford :
The City in history (New York : Har Caurt .
Brale and world 1961 . p. 126 .

25 — Ibid p. 81

26 — Ernst Fischer & Fronz Mark : Marx in his Own words . Trans by : Anna Bostock (Bonguin Books. 1968) p. 65 .

27 — Bertrand Badie & other : op . cit. p. 82 .

28 — Ibid. p. 82 .

29 — Ibid. pp. 82 — 83 .

30 — Ibid. p. 86

31 — G. H. Jansen : op , cit. p. 29 .

32 — Bertrand Badie : op , cit - p. 87 .

33 — Walter Ullmann : A History of Political thought, The middle ages (Baltimore , Penguin, 1965) p. 52 .

34 — David Little : Rougian, order and law (New York . Harper & Row , 1969) p. 147 .

35 — Ibid. p. 152.

36 — Bertrand Badie : op, cit . p. 90

37 — Dauid Little : op , cit . pp. 97 — 98 .

38 — Bassam Tibi : op , cit . pp. 72 — 73 .

٣٩ — محمد سليم العوا : فى النظام السياسى للدولة الاسلامية (المكتب المصرى الحديث للطباعة والنشر ١٩٧٥) ٨٠ — ٩٠

40 — Bassam Tibi : op , cit . p. 71 .

41 — Lucian W. Pye : Aspects of Political development (Boston, Brawn and company. 1966) pp. 6 — 7 .

42 — Ibid . p. 7 .

43 — Ibid. p. 98 .

44 — Ibid. p. 93.

45 — Ibid p. 98 .

46 — Ibid. p. 98

47 — Lucian W. Pye : op. cit. pp. 7 — 8 .

48 — Ibid. p. 8 .

49 — Bertrand Badie : op. cit. p. 99

50 — Ibid . p. 99.

51 — Ibid. p. 99 .

52 — Ibid. p. 99 .

53 — Lucian W. Pye : Op, cit. p. 5 .

54 — Bertrand Badie : Op, cit . p. 99 .

55 — Ibid p. 100 .

56 — Ibid . p. 100 .

57 — Ibid . p. 100 .

58 — Ibid . p. 101 .

59 — Ibid . p. 101 .

60 — Ibid . p. 101 .

61 — G. H. Jansen : Op, cit. p.

62 — Ibid . p.

63 — Bassam Tibi : Op. cit. p. 70 and see also Donal O Bien Islam and Power in Black Africa (in) A. E. H. Dessouki & A.S. Cudsi (eds) islam and Power . Op, cit. p. 174 .

64 — Ibid. p. 70 .

65 — G. H. Jansen : Op, cit . p.

٦٦ — البير بايه : تاريخ الفـكر الحـر ، ترجمة بهيج شـعبان (منشورات عويدات ، ١٩٦١ ، الطبعة الأولى ، بيروت) .

٦٧ — المرجع السابق ص ١٣٢

٦٨ — المرجع السابق ص ١٣٣

٦٩ — المرجع السابق ص ١٣٥

٧٠ — المرجع السابق ص ١٣٦

٧١ — المرجع السابق ص ١٣٦

٧٢ — المرجع السابق ص ١٣٧

٧٣ — المرجع السابق ص ١٤١

٧٤ — على ليلة : مرجع سابق ، ص ٨٤ .

٧٥ — المرجع السابق ص ٨٥

٧٦ — المرجع السابق صص ٨٧ — ٨٨

٧٧ — البير باية : مرجع سابق صص ٨٤ — ٨٥

٧٨ — المرجع السابق ص ٨٥

79 — G. H. Jansen : Op. cit. p. 67.

80 — Ibid. p. 50 .

81 — A. L. Tibawi : Islamic Educalion (Luzac - London 1972) p. 118 .

82 — Ibid . p. 120 .

83 — J. H. Jansen : op, cit . pp. 70 - 71 .

84 — Ibid . p. 71 0

85 — Ibid. p. 71 0

86 — A. L. Tibawi : Op. Cit . p. 126.

87 — G. H. Jansen : op . cit. p. 73 .

88 — Lucian . W. Pye : op. cit . p. 8

89 — G. H. Jansen : Op, cit . pp. 107 — 108 .

90 — Ibid . p.

91 — Ibid. p. 112 .

92 — Ibid . p. 113 .

94 — Daniel Crecelius : Op, cit. pp. 57 — 58 .

95 — Ibid. pp. 59 — 60 .

96 — Ibid . p. 60 .

٩٧ — انور عبد الملك : مصر مجتمع يحمه العسكريون ص ١١٢
) ص

٩٨ — ريتشارد ، ب . ميتشل : مرجع سابق ص ٩٦ .

99 — Daniel Cracelius : Op. cit. p. 64.

١٠٠ — محمـــد حسنين هيكل : مدافع آية الله ، قصـــة الثورة فى ايران ص ٥٧

١٠١ — المرجع السابق : ص ٥٩ .

102 — G . H. Jansen op. cit . p. 145

١٠٣ — محمد حسنين هيكل : مدافع آية الله ، قصة الثورة فى ايران : ص ١١٣

١٠٤ — المرجع السابق . ص ١١٤

١٠٥ — حسن حنفى : مرجع سابق . ص ١٩٩

١٠٦ — المرجع السابق : ص ٢٠٠

١٠٧ — المرجع السابق ص ١٩٦

١٠٨ — المرجع السابق . صص ٢٠٩ — ٢١٠

١٠٩ — المرجع السابق . ص ٢٠١

١١٠ — المرجع السابق . ص ٢٠٦

111 — Doniel Crecelius op, cit. pp. 54 — 55

112 — Ibid. p. 58 .

113 — Ibid. p. 64 .

١١٤ — حسن حنفى : مرجع سابق : ص ٢١٦

١١٥ — المرجع السابق . ص ٢١٩

١١٦ — محمد حسنين هيكل : خريف الغضب ، قصة بداية ونهاية عصر السادات . مرجع سابق . ٩٦ ، ١٩٧.

117 — A. E. H. Dessquki & A.S. Cudsi : Islam and power (Introduction) op, cit. p. 5.

118 — P. J. Vatikiotis : Islamic Resurgence : A Critical View (in) A. E. H. Dessouki & A. S Cudsi : op, cit. p. 162.

119 — Cyriac K. Pullapilly : Islam and islamic Civilization : An histarical sketch (in) C. K. Pu'lapilly (ed) : Islam in Contemporary world : op, cit. p. XXVI.

120 — A. E. H. Dessouki : Ihe is'amic Resurgence : Sources. Dynamics , and implications (in) A. E. H.Dessouki (ed) Islamic Reseirgence in the Arab world (Praeger Publisher. 1982)p. 4.

١٢١ — محمد حسنين هيكل : خريف الغضب ، قصة بداية ونهاية عصر السادات . مرجع سابق . ص ٢٩٧

122 — G. H. Jansen : op. cit. p. 78.

123 — A. E. H. Dessouki : The Islamic Resurgnce : Saurces. Dynamics, and implicaticn . Op, cit p. 3 .

124 — Ibid. p. 14.

125 — A. E. H. Dessouki & other : Islam and Power (introduction) op. cit. pp. 6 7 .

١٢٦ — محمد حسنين هيكل : خريف الغضب ، قصة بداية ونهاية عصر السادات . مرجع سابق ، ص ٢٧٦

١٢٧ — المرجع السابق . صص ٢٧٦ — ٢٧٧

١٢٨ — المرجع السابق . صص ٢٥٨ وما بعدها .

129 — A. E. H. Dessouki:The Islamic Resurgence : Sources, Dynamics and implication . Op. cit. pp. 22.

130 — G. H. Jansen. Op. cit. p. 80.

131 — A. E. H. Dessouki & other . Islam and Power (introduction) op. cit. p. 8.

132 — Ibid. p. 8.

١٣٣ — محمد حسنين هيكل : خريف الغضب ، قصة بداية ونهاية عصر السادات . مرجع سابق . ص ٢٤٠

١٣٤ — المرجع السابق . ص ٢٤١

١٣٥ — المرجع السابق . ص ٢٣٩

136 — A. E. H. Dessouki & Other : Islam and Power (introdvction) op. cit. p. 10.

١٣٧ — محمد حسنين هيكل : خريف الغضب ، قصة بداية ونهاية عصر السادات . مرجع سابق . صص ٢٧٤ — ٢٧٥

138 — H. A. R. Gibb : Modern Trends in Islam (Octogan Books, New York, 1975) p. 64.

139 — A. E. H. Dessouki : The is'amic Resurgence, Sources, Dynamics and inplication : op. cit. p. 76.

140 — Michael C. Hudson : Islam and Political development ment. Op. cit p. 140.

141 — Ali Merad : The ideology of Islam in The contemporary Muslim world (in) A. E. H. Dessowki & other. op cit. p. 40.

142 — A. E. H. Dessouki & Other : The Resurgence of Islamic organization in egypt : An introduction (in) A. E. H. Dessouki & other : Op. cit. pp. 110 — 111

١٤٣ — محمد حسنين هيكل : خريف الغضب ، قصة بداية ونهاية عصر السادات . مرجع سابق صص ٢٦٥ — ٢٦٦

١٤٤ — المرجع السابق ص ٢٩٠

145 — A. E H. Dessouki The Resurgence of Islamic organization in egypt. An interpretation op, cit. pp. 114 - 115.

146 — Daniel Lerner : The passing of Traditional Society. Modarnizing the middle east (Glencoe . ILL : The Free Press , 1958) p. 73 — 147 — G. H. Jomsen : op , cit. p. 119 .

148 — Abbas Kelidar : Ayatolla H Khomeinis' Concept of islamic Gorernment (in) A. E. H. Dessouki & Other (ed) op. cit . p. 86.

149 — p. J. Vatikiotis : Islamic Resurgence : A Critical View : (in) A. E. H. Dessouki & orher. Op. cit. pp. 181 - 182.

١٥٠ — سامى دبيان : مرجع سابق صص ١٠٧ — ١٠٨

١٥١ — المرجع السابق . ص

١٥٢ — على ليلة وآخرين : العنف التلقائى الجماهيرى فى المجتمع المصرى . منشـــورات المركز القـــومى للبحوث الاجتماعية والجنائية م ١٩٧٦ . ص ٩٣

153 — Abbas Kelidar : op, cit. p, 87.

154 — Michael C. Hudson : Arab Politics, the Search for Legitimacy (New York, New Haues, Yale Uniersity. Press, 1977, p. 183 .

155 — Michael C. Hudson : Islam and Political developmet. Op. cit. p. 12 .

١٥٦ — سامى ذبيان : مرجع سابق . صص ١١٨ — ١٢١

١٥٧ — محمد حسنين هيكل : خريف الغضب ، بداية ونهاية عصر السادات . مرجع سابق . ص ٢٨٤

158 — A. E. H. Dessouki : The islamic Resurgence. Sources, Dynamics and implications. op. cit. p. 16 .

١٥٩ — محمد حسنين هيكل : خريف الغضب ، بداية ونهاية عصر السادات . مرجع سابق ، ص ٢٨٢

160 — A. E. H. Dessouki:The Islamic Resurgence , Sources Dynamics and implications. Op, cit. p. 56.

١٦١ — محمد حسنين هيكل : خريف الغضب ، بداية ونهاية عصر السادات . مرجع سابق ، ص ٢٧٩

١٦٢ — المرجع السابق . ص ٢٨٣

163 — Talcolt Parsons : The Social System p. 76.

164 — Abbos Kelider : Op, cit. p. 87

١٦٥ — محمد حسنين هيكل : خريف الغضب ، بداية ونهاية عصر السادات ، مرجع سابق . ص ٩٣ .

١٦٦ — المرجع السابق . ص ٩٣ .

167 — Saad Eddin Ibrahim : Islamic Militancy as a Social movement : The Cars of two groups in Egupt (in) A. E. H. Dessouki, op, cit. p. 123 .

١٦٨ — محمد حسنين هيكل : مدافع آية الله ، قصة الثورة فى ايران ، مرجع سابق . ص ١٥٨ .

١٦٩ — المرجع السابق : ص ١٥٨ .

170 — Saad Eddin Ibrahim : Op, itc. p. 123.

171 — Ibid . p. 123 .

١٧٢ — زينب رضوان : ظاهرة الحجاب بين الجامعيات . منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية — ١٩٨١ . ص ٤٥ .

١٧٣ — المرجع السابق : ص ٤٥ .

١٧٤ — المرجع السابق : ص ٤٥ .

176 — Saad Eddin Ibrahim : Op, cit, p. 131 .

١٧٧ — زينب رضوان : مرجع سابق ، ص ٣٥ .

178 — Saad Eddin Ibrahim : op, cit, p. 129.

١٧٩ — زينب رضوان . مرجع سابق . ص ٣٣ .

١٨٠ — المرجع السابق . ص٣٥ .

181 — Saad Eddin Ibrahim : Op, cit . p. 129 .

182 — Ibid . p. 130 .

183 — Ibid . p. 130 .

184 — G. H. Jansen Op, cit . p. 121 .

185 — Saad Eddin Ibrahim : Op, cit. p. 125

186 — G. H. Jansen : Op, cit. p. 121.

١٨٧ — سامى ذبيان : مرجع سابق . ص ١٥٧ — ١٥٨ .

١٨٨ — المرجع السابق : ص ١٦٠ .

١٨٩ — محمد حسنين هيكل : مدافع آية الله ، قصة الثورة فى ايران . ص ص ١٦٥ ، ١٦٨ ، ١٦٩ .

190 — A. E. H. Dessouki:The Islamic Resurgence : Sourcos, Dynamics and implication : op cit p. 16.

191 — Ibid. p. 14 .

192 — Ibid. pp. 15 — 16 .

193 — P. J. Vatikiotis : op, cit. pp. 190 - 192 .

١٩٤ — محمد حسنين هيكل : مدافع آية الله ، قصـــة الثورة في ايران ص ١٦٠

١٩٥ — المرجع السابق ، ص ١٦٤

١٩٦ — محمد حسنين هيكل : خريف الغضب ، قصة بداية ونهاية عصر السادات ، مرجع سابق ، ص ٢٦٩ .

١٩٧ — المرجع السابق ، ص ٢٦٨ .

198 — Bert Devries : Theocracy in Islam (in) Cyriac. K Pullapilly (ed) op, cit. pp. 80 - 81

199 — G . H. Jansen : Op, cit. pp. 125 - 126.

200 — P.J. Vatikiotis : op, cit. pp. 170 - 171 .

201 — Ibid, pp. 177 - 178.

202 — Michael C. Hudson : op. cit. pp. 12 - 13 .

٢٠٣ — محمد حسنين هيكل : خريف الغضب ، قصـــة بداية ونهاية عصر السادات . ص ٢٩٠ .

٢٠٤ — سامي ذبيان ، مرجع سابق : ص ص ١١٣ — ١١٤ .

٢٠٥ — المرجع السابق : ص ١١٤ .

206 — G. H. Jansen : op, cit. pp. 123 — 124.

207 — Ibid . p. 125.

208 — Ibid. p.

209 — G. H. Jansen : op, cit . p. 125 .

٢١٠ — زينب رضوان : مرجع سابق ، ص ٨٦ .

211 — Saad Eddin Ibrahim : op , cit. p. 128.

* * *

الفصل الخامس

الشباب والمجتمع فى العالم الثالث

علاقات الانفصال والاتصال

المحتـــويات

الفصـــل الخامس

الشباب فى العالم الثالث
أبعاد الانفصال والاتصال

أوصيكم بالشباب خيرا ، فانهم أرق أفئدة . ان الله بعثنى بالحق بشيرا ونذيرا فحالفنى الشـــباب وخالفنى الشيوخ ، ثم تلى قـــول الله تعالى (فطال عليهم الأمـــد فقست قلوبهم) .

محمد النبى

أولا : قضية الشباب ، استكشاف للآفاق :

ابتداء من عام ١٩٦٨ هبت عاصفة شبابية فأطاحت باستقرار نظام عالمى عجوز ، واحتلت هذه الظاهرة جوهر حوار علمى عريض يدور حول سؤال رئيسى مضمونه لماذا ثورة الشباب ؟ بيد أن الاهتمام بالظاهرة الشبابية بدأ حثيثا قبل ذلك . وهو الاهتمام الذى ظهر كنتيجة لانبثاق تمردات الشباب دفعـــت الى ظهور الهيبز Hipies مع بداية الستينـــات والتـــى واحتجاجاتهم التى بدأت فى نهايـــة الخمسينـــات والتى استمرت حتى بلغت أوجها فى التصاعد الهائل لتمرد الشباب مع نهاية الستينات . بحيث ظهر اتجاه للنظر الى هذه الحركات باعتبارها واحدة من أهم الظواهر فى مجتمعنا العالمى المعاصر ، وبدت هذه الحركات بالنسبة للبعض باعتبارها تنبؤا بفشل الحضارة الحديثة وموتها . بينما كان ذلك يعنى بالنسبة لاخرين تبشيرا بفجر حضارة جديده (١) .

وبظهور الشباب على ســـاحة النظام العالمى فى معية زمانية واحـــدة أصبحوا هم جوهر التركيز والاهتمام . وذلك باعتبار انهم مضمون الحركة فى النسيج الاجتماعى . قد يكونوا جزءا منه ، الا انهم أيضا قوته الضاغطة

والحـــركة ، وهم بذلك يمثلون جوانب التطور والدينامية . وهى الدينامية التى تتخلق عادة من نظرتهم المستقبلية ، فهم ليسوى ذوى ماض يتحسرون عليه ويرتبطون به . وهم أيضا ليسوا ذوى حاضر ممتلىء بالمســئوليات والمشاغل ومن ثم فنظرتهم دائما ما تكون منطلقة الى الامام ، الى المستقبل تود أن تؤسس جذور هويته فى الحاضر الذي قد لا يكون ملائما دائما لصياغة المستقبل المبتغى . ومن هنا فقد تكون نظرتهم حالمة ، واهمة الا انها دائما ما تكون متقدمة فى جميع الحالات ، لانها الى الغد والى المســتقبل . وبين رفض الحاضر وطلب المستقبل تتأسس عادة بين الشباب حركة تلقائية ترتبط دائما بالتغيير الذى قد يتطرفوا فى فرضه حتى استخدام العنف ضد واقعهم المقيد لحركتهم مطالبا دائما بضرورة الانحراف عن مساره (٢) .

يكشف البحث فى قضية الشباب أيضا ان لهم حضورهم فى المعادلة الجيلية أو الاجتماعية ، وأن لهم دورهم فى مراحل التاريخ المختلفة ، لان لهم فعالية صناعة الحركة فيه . فلهم مكانتهم فى التدرج الجيلى ، غير أنهم الى ذلك أصبحوا طرفا فى معادلة أكثر بروزا هى المعادلة الاجتماعية . ومن ثم بدأ وضعهم يكتسب ملامح جديدة ويتخلى عن أخرى قديمة . ونتيجة لذلك تخلق ملامح جديدة لموقفهم وبناء شخصيتهم . وفى اطار ذلك قد تثارتساؤلات عديدة . هل ما زال موقف الشباب موقفا جيليا تلتقى حوله صراعاتالنسيج الاجتماعى ويميز دوره الاجيال التاريخية ؟ أم أن هذا الموقف أصبح موقفـــا اجتماعيا طبقيا ؟ محور الاختلاف والصراع فيه يدور حول الموقف من العملية الاجتماعية ، من الذى يعطيها دعمها وينتجها ، ومن الذى يحصل على نتاجها أو فائضها ؟ مع كل النتائج الاجتماعية والاقتصادية المترتبة على ذلك .

استكشاف قضـــية الشباب يفرض علينا الانتباه الى مجموعـــة من المتغيرات ذات الطابع العالمى . كالحضور المفروض لتغير العالمية الذى تأكد من خلال ثورة المواصلات والاتصال . كذلك الحضـــور المكثف لبعض لبعض الاحداث المحلية التى اتخذت طابعا عالميا ، فبرغم بروزها فى محلية محددة الا انها اكتسبت اهتماما انسانيا عاما ، لأن تأثيرها لم يقتصر على حدود محليتها ، كالثورة الفيتنامية مثلا ، وأحداث نقابة تضامن البولندية أيضا

بالاضافة الىذلك ميكنة الحياة المحيطة بالانسان كأحد آثار العلمية والصناعية تعتبر متغيرا أثار الرفض الشبابى لهذه الحضارة بحثا عن واقع حضارى جديد . كل ذلك وغيره كان له تأثيراته العديدة على تماسك المحليات ، ومن ثم التأثير على استمرارية تراث هذه المحليات نقيا دونما اختلاط . غير انه حينما يقع التفاعل ، يطرح التغيير كضرورة ، ومن الطبيعى أن يكون لذلك أعباء ومعاناة يتحمل وقعها الشباب كى ينتقل بالمحلية الى العالمية ، بحيث يتوازى مع ذلك الانتقال من الحاضر الى المستقبل . غير أنه لانجاز ذلك هناك محاذير وضرورات لابد وأن نأخذها فى الاعتبار .

فمحظور علينا أن نطرح قضية الشباب طرحا تصميميا . كالقول بأن المسألة الشبابية مسألة معاصرة ، أو ارجاعها أو بعض تفاعلاتها الى عوامل أو متغيرات أحادية منفردة . ذلك لان المسألة الشبابية فيها قدم وفيها جدة وأنها اذا أصبحت الآن بارزة فلأن ذلك يرجع اساسا الى عوامل تتعلق بالسياق العالمى أو التفاعلات المحلية ، ثم الخصائص والملامح الجديدة التى بدأت تنتاب البناء الدافعى للشخصية الشابة فيما يتعلق بعلاقتها بسياقها المحيط وموقفها من مكوناته وعناصره .

محظور أيضا القول بالتعميم الذى يذهب الى أن الفئة الشبابية ذات ملامح انسانية شاملة . وذلك لمجرد اشتراك التجمعات الشبابية عالميا فى بعض الخصائص التكوينية او العمرية ، ومن ثم الوصول الى استنتاج خاطىء من خلال ذلك يؤكد أن القضايا واحدة والمواقف متماثلة . ومن ثم فلا بد من منهج واحد متميز . ذلك لان حقائق الشباب هى حقائق اجتماعية ترتبط بحدود المحلية ، وتوجب أن يسير التفاعل وجهة معينة مرتبطة أساســا بحقائق هــذه المحلية ، ذلك يفرض ضرورة البحث عن منهج علمى ملائم لادراك تفاعلاتها وتحديد القواعد والقوانين التى تحكم حركتها .

محظور علينا أيضا ، أن نتصور نحن الكبار ، نحن الذين ندعى دور الوصاية ، نحن الذين نمثل المكانة المؤسسية أو التامة الصياغة ، بأننــا المثال الذى يجب أن يحتذى . ففى ذلك خطأ فادح . نطلب خلاله من المستقبل

او الطبيعة المتحركة أن يتوقف لكى يتطابق مع الماضى الساكن فى جوهره . علينا دائما أن نتخلى عن النظرة الى الشباب باعتبارهم خرافا ضالة ، علينا أن نحمل المشاعل لننير بنورها طريق المستقبل دون قسر على السير فيه ، وأيضا دون حجب لاماكنه الوعرة . علينا أن نتذكر القول المسيحى بانهم (خراف ضالة ، فيها براءة ، فيها سذاجة ، فيها صلاحية ، الا أنها تستقيم فقط تحت رعاية الراعى الصالح والامين) أو القول الاسلامى (ريح الجنة فى الشباب ، فلا تحولوا تياره الى النار) .

الى جانب ذلك علينا أن نتخلى عن أى ادراك مستقطب للشباب فهم ليسوا ملائكة لا يأتون الخطأ ، وهم أيضا ليسوا أشرارا لا سبيل أمامهم الى الهداية • وانما هم بشر لديهم كل ملامح البشر . ومن ثم فهم بحاجة الى اللهو لانعاش الحياة بقدر ما هم تواقون الى التضحية والفداء من أجـل الحياة . هم بحاجة الى ممارسة كل ما يرتبط بسير الحياة الكاملة للانسان . ومن ثم فليس علينا أن نعايرهم بأنهم ذوو عنف ولاهون . وليس علينا أن ننصب أنفسنا دائما باعتبارنا أصحاب أجراس تدق لتعلن انحرافهم أو رجوعهم الى جادة الصواب .

ذلك يعنى انه من الضرورى أيضا أن نرفع مظلة الوصاية عن الشباب ففى ذلك اطلاق لكل طاقات الحاضر للانطلاق ، بقوة وموضوعية الى المستقبل فى اطار ذلك لابد أن ندرك المسألة الشبابية من خلال رؤية الشباب لها . علينا أن نتجنب محاولة فهمهم فى غيابهم أو بالوكالة عنهم . فذلك يعنى أنهم دون النضج وهذا حكم اتهامى ، ويعنى أيضا نظرة تآمرية من الخارج لاتدرك بما فيه الكفاية تفاعلاتهم الداخلية .

ومن الضرورى أيضا أن نتبنى منطقا ادراكيا جـديدا يتخلى عن آية مسلمات أو عواطف مسبقة . علينا أن ننظر الى الشباب من خلال التفاعل المؤمل الذى يركز على ايجابياتهم ، ويستثير حافزيتهم الى العمل والانطلاق بالمجتمع . علينا أن نتعفف عن النقد الهادم الذى لا يخلق فى اطار الشباب

سوى نماذج متمردة على الوصاية أو هاربة من مجالها ، أو مصابة بالعجز والمرض ، نتيجة للتعرض المكثف لتأثير الوصاية .

بالاضافة الى ذلك فانه من الضرورى أن تكون نظرتنا للشباب محكومة باعتبارات عديدة . من هذه الاعتبارات أنه وان تباين الشباب مع جيل الشيوخ مما دعا الى قيام الصراع الجيلى الذى قد يبدو هادئا احيانا ، أو يصبح ممزقا فى أحيان أخرى . يؤثر فى الشخصية الشابة فيملؤها بمشاعر الغضب و شخصية الشيخ فيصيبها بمشاعر الاسى . غير اننا نجد أن الصراع الجيلى يخلى السبيل أمام الصراع الاجتماعى . حيث نجد أن للشباب موقفا باعتباره طرفا فى المسألة الاجتماعية . يقف الشباب والفقــراء فى ناحية بينما الشيوخ والاغنياء على الطرف الآخر من خط المواجهة الساخن كيف نفهم أو نفسر هذه المعادلة .

من الاعتبارات التى ينبغى أن تراعى أن تمرد الشـــباب لم يعد يثور حول قضايا تتصل بمطالب محددة لاشباع الحاجات الأساسية . حيث تجاوز الشـــباب ذلك . وأصبحت لهم مطالب قد لا تتصل باشـــباع حاجاتهم الأساسية ، ولكنها تتصل بالتأكيد باشـــباع حاجات اجتماعية ملحة . يتطلب اشباعها اعادة صياغة النظام الاجتمعى والاقتصادى والسياسى بكامله . أعنى أن الشـــباب بدأوا يتحركون من الاهتمام بالقضايا الخاصة بالشـــباب كفئة الى القضايا العـــامة المتعلقة ببنية المجتمع . كيف يمكن أيضا فهم هـــذه القضية .

من الاعتبارات الهامة أيضا أننا فى البلاد النامية لا نجد فى مواجهتنا شريحة شبابية واحدة ، فاذا أمعنا النظر فسوف نجد فى مواجهتنا شريحتين أساسيتين . بينهما من أسباب الانفصال أكثر مما بينهما من أسباب الاتصال . الشريحة الشبابية العريضة ، التى تضم العمـــال والفلاحين فى مواجهة الشريحة الشبابية الضيقة والمثقفة ، وهى الشريحة التى تضم أساسا الشـــباب الجامعى فى البلاد النامية . غير أنه مع التسليم بهـــذا الانفصال

داخل البنية الشبابية ، فانه اذا قامت حـركة شبابية فاننا نجد اتصالا عضويا بين كل ما هو منفصل على السطح • تلك أيضا معادلة تستحق الفهم والتفسير والاعتبار .

ثانيا : مفهوم الشباب
البحث عن تصنيف موضوعي

استنادا الى التفاعلات العالمية والمحلية المعاصرة برز مفهوم الشباب باعتباره يشير الى فئة لها نشاطها وفاعليتها فى بناء المجتمعات المعاصرة * وبدأ تساؤل عن من هم الشباب . كما نعرف فالبلوغ حقيقة بيلوجية بحته ، غير أن الشباب يعتبر حقيقة اجتماعية . وليس هناك ضرورة بيلوجية لغرض الفكرة التى تؤكد أنه ينبغى استمرار عزل الأشخاص الصغار عن عالم البالغين ومن ثم منعهم من ممارسة الأدوار الاجتماعية والاقتصادية والجنسية . ففى حدود سن الثامنة عشر على الأقل يصبح كل انسان بالغ من الناحية الفسيولوجية ، بل يكون قد وصل الى حالة النضج الجنسى ووصل أيضا الى قمة النضج العقلى والفيزيقى . وعلى هذا النحو لا تعرف ثقافات كثيرة فكرة تصنيف البشر وعزلهم(٢) .

اذا فظهور الشباب كمفهوم يشير الى متغير واقعى برز بالنظر الى بعدين أساسيين ، أولها يتمثل فى الفاعلية التى ارتبطت بهذه الفئة وهى الفاعلية التى تشكل جوهر الحركة ومضمون التجديد فى النسج الاجتماعى . بينما يتصل الثانى بطبيعة الوضع الثقافى الذى يعيشه النظام العالمى .

(*)فى العصور الوسطى وحتى بداية العصر الحديث ولفترة طويلة بعد ذلك كان الأطفال يختلطون بالبالغين فى الطبقات الدنيا طالما أنهم قادرون على الاستمرار بدون أمهاتهم . فبعد فطامهم مباشرة وهو الذى يحدث فى سن السابعة تقريبا نجدهم يلحقون بمجتمع الرجال يشاركون فى العمل ويلعبون مع رفاقهم الصغار والكبار على السواء .... ويعنى ذلك الصغير بمجرد فطامه يصبح رفيقا طبيعيا للبالغ وهو ما يذهب الى تأكيد عجز الثقافة التقليدية عن تمييز فئة الشباب(٢) .

ذلك انه اذا عجزت الثقافات التقليدية عن التفرقة ، فتقليدية الثقافة تنهار أمام طوفان التحديث واذا كانت الثقـافة التقليدية لم تعرف فروقا على أساسها تميز شريحة الشـباب فان التحديث سوف يفرض عليهـا أن تنجز ذلك . وبمجرد ظهور المفهوم حاولت مختلف النظم العقلية أن تقـدم تحديدا له ، كل من خلال زاوية تخصصه ، ومن ثم فمن المنطقى أن نتوقع اختلاف هـذه التحديدات عن بعضها البعض لاختلاف زاوية الرؤية .

ويعتبر علمـاء السـكان هم أول من حاول تقـديم تحديد لمفهوم الشـباب . وفى هـذا التحديد نجدهم قد استندوا الى معيار خارجى يتمثل فى السن أو العمر الذى يقضيه الفرد فى أتون التفاعل الاجتماعى . ويختلف علمـاء الديموجرافيا فيما بينهم فى تحديد بداية ونهاية هذا السن . فهناك من يؤكد أنهم من هم تحت سن العشرين وبذلك فهو يحدد نقطـة النهاية دونما تحديد لنقطة البداية . وهناك من يؤكد أنهم من يقعون ابتداء من سن الخامسة عشر الى سن الخامسة والعشرين . أو هم من يقعون بين سن الخامسة عشرة الى سن الثلاثين على ما يذهب آخـرون(٤) . بينما يذهب فريق رابع الى القول بأنه اذا كان مقنعا أن تستمر فترة الطفولة حتى الثالثة عشر ، وأن فترة المراهقة تغطى السـنوات بين الثالثة عشر والسادسة عشر ، ومن ثم فان الشـباب يصبحوا هم الأشـخاص الذين يزيدون عن السادسة عشر ، ومن ثم فقد انضموا الى قوة العمـل ، والى المشاركين دائمـاً فى بنـاء المجتمع والتفاعل الاجتماعى . وفى الحقيقة يرجع هـذا الاختلاف بين العلمـاء داخل هـذا النظام العقلى الى طبيعة السياق الاجتماعى . الذى يعيش بداخله هؤلاء العلمـاء أو الذى يضم الشـباب موضع الاهتمام . اذ يختلف المدى العمرى الذى تقع فيه هـذه الفئة فى المجتمعات النامية عنها فى المجتمعات المتقدمة ، حيث تمتد فترة الشـباب والمراهقة فى الأخيرة عنها فى الأولى ، بحيث نجد أن الحد الأقصى لسن الشباب ينتهى فى الأولى مبكراً عن الثانية(٥) .

أما علمـاء الاجتماع ، فلهم هم الآخرين تحديدهم العلمى والموضوعى ،

الذى يؤكد أنه بالاضافة الى التحديد العمرى الســـابق فان فترة الشـــباب تبدأ حينما يحاول بنـــاء المجتمع تأهيل الشخص لكى يحتل مكانة اجتماعية ويؤدى دورا أو أدوارا فى بنائه ، وتنتهى حينما يتمكن الشخص من احتلال مكانته وآداء دوره فى السياق الاجتماعى ، وفقا لمعايير اللعبة الاجتماعية . وهم يؤكدون أن الشخصية تظل شابة طالمـــا أن صياغتها النظامية لم تكتمل بعد . وفى اطار ذلك يفرق علمـــاء الاجتماع بين الدور فى مرحلة الاعداد ، والدور فى مرحلة الاكتمال والفاعلية . فدور الطالب وصبى الحرفى يعد من النوع الأول بينما يعتبر دور العامل والموظف والمهنى من النوع الثانى. وبذلك يعتمد تحديد علمـــاء الاجتماع للشـــباب كفئة على طبيعة ومدى اكتمال الأدوار التى تؤديها الشخصية الشابة . ويستتبع ذلك تأكيدهم على انتشـــار الرفض والعنف والتظاهر عند هؤلاء الذين لم تكتمل أدوارهم بعد . أو مازالت فى طور الاعداد ، وذلك نظرا لنقص اكتمال صياغتها النظامية ، كانتشـــار هذه الظواهر بين الطلبة أو العمـــال والموظفين الذين شـــغلوا أدوارهم المهنية حديثا(٦) .

ويربط علمـــاء النفس وعلمـــاء النفس الاجتماعى بداية ونهاية مرحلة الشـــباب بمدى اكتمال بنائهم الدافعى . فاذا ولد الفرد كمستوى بيلوجى ، فانه كذات أو هوية يتم بناؤها اذا استوعبت مجموعة التوجيهات القيمية الكائنة فى السياق الاجتماعى من خـــلال عملية التنشـــئة التى تقوم بها نظم اجتماعية عديدة . ثم اذا هى نتيجة لذلك ، استطاعت أن توائم بين هـــذه التوجيهات القيمية من ناحية واشباع احتياجاتها واهتماماتها الأساسية فى مستوياتها الوجدانية والادراكية من ناحية أخرى . بحيث تشير هـــذه المواءمة الى امتلاك الشخص لبناء دافعى متكامل يمكنه من التفاعل السوى فى المجال الاجتماعى(٧) .

واذا كان علماء السكان والاجتماع والنفس قد حاولوا تقديم تحديدهم الموضوعى للشـــباب فلعلماء البيلوجيا رؤيتهم أيضا . وهى الرؤية التى تؤكد على ربط نهاية هـــذه المرحلة باكتمال نمو البناء العضوى والفيزيقى .

من حيث الطول والعرض ، أو من حيث نمو واكتمال كافة الأعضاء التى لها وظائف معينة فى بناء الجســم سواء كانت أعضـــاء داخلية أو خارجية كالغدد وما غير ذلك(٨) ».

تذهب هـــذه النظم العقلية أيضا الى أنه اذا اصطلحنا على تقسيم دورة حياة الانســـان بين الطفولة والشـــباب والرجولة والشيخوخة . فان المرحلة الأولى فى غالبها بيلوجى بينما الثانية اكتمـــال بيلوجى نفسى واجتماعى ، وتعتبر الثالثة امتدادا بهـــذا الاكتمال الى أقصى مستويات النضج ، وهو المستوى الذى يبدأ فى التحلل فى المرحلة الرابعة ، حيث الشيخوخة . وأن المرحلة الثانية — مرحلة الشـــباب — هى مرحلة المعاناة ، لأنها مرحلة الاكتمال ، والاكتمال مرحلة فيها اضـــافة وتولد، فيها غرس ورفض ، فيها فعل ورد فعل ، وهـــذا ما يحكم تفاعلات هـــذه المرحلة . ذلك يعنى أن الشخصية الشـــابة تعتبر بناءا يتكون من مجموعة من العناصر البيلوجيـــة المتفاعلة والتى يســـود بينها نمط من التوازن يعكس ملامح الشخصية الشـــابة ، وفيما يلى نذكر بعضا من هـــذه العوامل :

١ — ويعتبر العنصر البيلوجى هو العنصر الأول فى بناء الشخصية الانسانية والشخصية الشـــابة . ويولد الفرد بهـــذا العنصر ، فهو من خلاله يعتبر امتدادا للطبيعة ، ولا يختلف الانســـان عن الحيوان فيما يتعلق بمكوناته العضوية والبيلوجية ، هـــذا العنصر يتضمن بعدا هاما هو الحاجات الأساسية التى تتطلب اشباعاً ، بحيث تخلق هـــذه الحاجات لديه ميلا الى خارج بنائه العضوى ، الى التفاعل مع الآخر بحثا عن الاشباع .

٢ — ويعتبر العنصر الاجتماعى هو العنصر الثانى فى بناء الشخصية الشـــابة . وهى تقـــدم البيئة المحيطة بالفرد والتى بامكانها أن تقـــدم اشباعا لحاجاته الأساسية ، بل اننا نجد أن هـــذه البيئة الاجتماعية عادة ما تزود الشخص ببعض الحاجات الاجتماعية الأخرى التى عليه السعى لاشباعها الى جانب حاجاته البيلوجية الأساسية . ويتم غرس هـــذا العنصر من الخارج من خـــلال عملية التنشـــئة الاجتماعية التى يتم انجازها بوسائل

عديدة كالأسرة ، المدرســـة ، ومؤسسة العمل أو المهنة ، وعادة ما تتكون الخبرات التى يكونها الشخص نتيجة للتعامل مع العالم الخارجى آلى جانب البيلوجى والعنصر الاجتماعى .

٣ — ويعتبر العنصر السيكلوجى هو العنصر الثالث ويضم مجموعة الخبرات التى يكونها الشخص نتيجة للتعامل مع العامل الخارجى آلى جانب اتجاهاته نحو هـــذا العالم . وتتكون هـــذه الاتجاهات والخبرات لدى الشخص نتيجة للتفاعل الذى يتم بينه وبين العالم الخارجى ، فالعنصر السيكلوجى اذا ينتج عن التفاعل بين العنصر البيلوجى والاجتماعى . ومن ثم فهو يختلف من شخص الى آخر نتيجة لطبيعة تكوينه البيلوجى بدرجة ما وبدرجة أكبر بالنظر الى طبيعة البيئة الاجتماعية التى تشـــكل أطار تأهيله الاجتماعى(٩) .

٤ — ويشـــكل المكون الثقـــافى العنصر الرابع فى بناء الشخصية الشـــابة ، ويتم استيعاب هـــذا البعد فى بناء الشخصية الشـــابة من خلال مؤسسات التنشـــئة الاجتماعية . ويلعب هـــذا البعد دورة فى ضبط حركة الفرد فى الســـياق الاجتماعى ، وتتباين القيم الموجهة للســـلوك الفردى بين كونها قيما وجدانية تلمس الجوانب العاطفية والشاعرية ، أو تتصل بالقيم التقويمية التى تســـاعد الفرد على المفاضلة بين الاختيارات . أو القيم الادراكية التى توجز معرفة الانســـان بواقعة المحيط والأســـلوب العلمى أو الموضوعى للتعامل معه(١٠) .

واذا كانت هـــذه العناصر الأربعة هى آلتى تكون بناء الشخصية الشـــابة ، فان طبيعة التفاعل بينها ، وحجم المشـــاركة التى يؤديها كل عنصر بالنظر الى العناصر الأخرى هو الذى يحدد طبيعة الشخصية الناتجة . فغلبة العنصر البيلوجى من حيث فاعليته على العناصر الأخرى يعنى أن هـــذه الشخصية لم تصل الى طور الاكتمال بعد أو هى لم تصل الى مرحلة النضج . بينما تعنى غلبة العنصر الاجتماعى أو الثقافى الى درجة عالية

من اســتقرار الشخصية ، أو هى الشخصية التى تعيش مرحلة الرجولة المتأخرة والشــيخوخة بينما يعنى التعادل بين هــذه المكونات الى أن الشخصية تعيش مرحلة الرجولة الحقيقية ، وأن نقص التعادل والاستقرار تعنــى احتمالية عالية لوجود الشــخصية فى اطار مرحلة الشــباب أو بداية الرجولة ".

فاذ انصبت اهتمامات التحديد السابقة على محاولة تشخيص ملامح الشخصية الشــابة ، فانه يلزم ضرورة التركيز على طبيعة الفئة الشبابية الأولى بالاهتمام . فمن الطبيعى لا يشكل قطاعا واحدا يتقاطع والحدود المحلية لمجتمعات النظام العالمى . وانما نحن نجد أمامنا قطاعات شبابية عديدة تتنوع بالنظر الى متغيرات كثيرة كالجنس واللغــة والقومية والدين والتعليم ، والمستوى الاقتصادى والنوع والســياق الاجتماعى . واذا كانت كل الدراسات الســابقة قد ركزت على الشــباب المثقف من ناحية وعلى الصراع أو التناقض الجيلى من ناحية أخرى ، فاننا نرى أنه من الضرورى فى تحديد من هم الشــباب أن نأخذ فى الاعتبار الأبعاد التالية :

١ — أن التركيز على شــباب المثقفين والطلبــة قد تم باعتبارهم الصفوة الأكثر وعيا بفئتها والأكثر امكانية من حيث التناول العلمى . وقد لا يوجد هــذا التباين بين الصفوة والقاعدة الشــبابية فى المجتمعات المتقــدمة ، الا أننا نجد أن هــذا التباين موجود وواضح فى المجتمعات النامية ، حيث لا يحمل المثقفون والطلبة نفس خصائص الشريحة الشــبابية العريضة . ذلك لأنه قد وجدت بعض المتغيرات ـــ كالتعليم وما الى ذلك ـــ التى جعلت قلة من الشــباب صفوة لها خصائص ومكانة محددة . وبالتالى مصالح قد تختلف الى حد ما عن مصالح فئات الشــباب العريضة ، بحيث يمكن أن يتعمق هــذا الاختلاف بالنظر الى طبيعة الســياق الاجتماعى(*) ..

(*) بدأت نظرية العلوم الانسانية تتخلى عن هــذا التميز الواضح لقطاع الشــباب المثقف ، ومن ثم فقد أصبحت نظرتها أكثر شمولا ، حيث تحاول أن تتقــدم فهما للقطاع الشــبابى ككل . وقد ظهرت بواكير ذلك

٢ — أن التركيز على شـــباب المثقفين والطلبة قد حدث لأنهم فئة الشـــباب الأكثر استعدادا لحمل لواء الثورة والتغيير والتظاهر والعنف والرفض . وقد يكون السبب باعتبارهم أكثر ادراكا بطبيعة التفاعل الاجتماعى والأيديولوجى الســـائد . أو لكونهم القاطنين بالمراكز الحضرية التى عادة ما تسبح فى بحر من التفاعلات والتيارات العديدة والمتباينة . ولعل هـــذا يلقى ضوءا على كون الجماعات الثورية والرافضة فى المجتمعات النامية كانت من بين شـــباب المثقفين والطلبة أساساً .

٣ — أن الشـــباب يعيش خلال هـــذه الفترة أوضاعاً اجتماعية متميزة تستحق التركيز بالبحث والدراسة . فلأول مرة فى التاريخ نجد أن حوالى نصف البشر فى العالم يقعون فى الفئـــة العمرية بين ١٦ — ٢١ ســـنة وهم يوجدون كأعضاء عاملين فى قوة العمل . وأن هنـــاك نسبة عالية مازالت فى التعليم ، وقســـم كبير فى القوات المســـلحة . بينما نسبة لها اعتبارها تعانى من البطالة ، أو البطالة المؤقتة ، أو هم يتسكعون فى الشـــوارع . وفضلا عن ذلك ، فهناك ٢٥٪ من الشـــباب الذى يقع بين ٢١ — ٢٥ سنة ، مازال فى المدارس وهو رقم لم يسبق له مثيل فى التاريخ . ويعتبر ذلك من أكثر التطورات الاجتماعية وضوحاً فى ســـنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية . واذا اتفقنا على وجود الشـــباب فى كل فترات التاريخ ، فانه يمكن القول أنه لم يحدث أن كانت نسبة عالية من الســـكان صغار السن شبابا على هـــذا النحو(١١) ومن ثم ينبغى أن تركز الدراسة العلمية على الشـــباب باعتبارهم يمثلون ظاهرة انســـانية جديدة وأنه من الضرورى استكشاف العوامل التى دفعت الى ظهورها على هـــذا النحو .

على المستوى العالمى فى بحوث كثيرة رائدة . هـــذا الى جانب دراسات عديدة على المستوى المحلى كالدراسة التى أجرها المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية تحت عنوان البناء الاجتماعى للشـــباب فى مصر . حيث حاولت هـــذه الدراسة تناول الشـــباب المصرى بالدراسة العلمية على أساس مراعاة متغيرات عديدة كالسن ، الجنس ، التعليم ، المهنة ، الدين والمستوى الاقتصادى والنطاق الأيكلوجى .

وبغض النظر عن التحديد الذى نوافق عليه لمفهوم الشخصية الشـــابة أو تحديد الشريحة الشـــبابية الأولى بالدراسة والبحث ، فقد طورت النظرية الاجتماعية بعض المواقف النظرية لادراك المسألة الشـــبابية فى محاولة لفهمها . فى هـــذا الصدد نجد أنفســـنا فى مواجهة منظورين . ويعتبر المنظور الليبرالى هو المنظور الأول فى هـــذا الصدد . ويرى هـــذا المنظور فى الشـــباب فئة جيلية مازالت فى مرحلة التشكل والصياغة النظامية . فهى فئة ناقصة التكوين اجتماعيا . وهـــذا يبرر وجود كثير من مظاهر عدم الاستقرار ورفض التكيف مع المجتمع ، فاذا اكتمل تكوينها ، فان مظاهر عدم الاســـتقرار هـــذه سوف تختفى . فالشـــباب مرحلة مرضية بطبيعتها ، يملك المجتمع بالنسبة لها ميكانيزمات علاجية عديدة . فاذا حدث تمرد أو رفض شبابى ، فان هـــذا المنظور يذهب الى ضرورة البحث عن أسبابه فى بناء الشـــباب الرافض عوامل الرفض ومن ثم مواجهة ذلك بالعلال والتأهيل(١٢) .

على نقيض ذلك نجد المواقف النقدية أو الراديكالية التى ترى فى موقف الشـــباب باعتباره يشـــبه الى حد كبير الموقف الطبقى . واذا كانت البروليتاريا هى التى تشـــكل قوى الثورة فى المنظور الماركسى ، تثور لكى تستعيد فائض القيمة الذى سلب منها . فاننا نجد أن الاتجاهات النقدية الحديثة تؤكد أن الشـــباب والطلبة هم قوى الثورة والاجتماع التى يمكن أن تحل محل قوى الثورة التقليدية . واذا كانت البروليتاريا هى التى تثور ضد البرجوازية المستغلة لها فالشـــباب فى المجتمعات الانســـانية المتقدمة هى التى تثور رفضا للقهر وبحثا عن الحـــرية الانسانية الشـــاملة فى مجتمع تحاول تطور نموذج الانسان ذو البعد الواحد(١٣) .

ثالثا : المسألة الشبابية فى العالم الثالث
البحث عن متغيرات التفسير

حاولنا فى الفترة الســـابقة تحديد مفهوم الشـــباب باعتباره يشير الى فئة من البشر لها وجودها البارز على صعيد النظام العالمى . وفى هذه

الفقرة سوف نحاول تحديد الاطار النظرى الذى يمتلك القدرة على تفسير التفاعلات الشبابية فى مجتمعات العالم الثالث . وجهة نظرنا فى هـذا الصدد أن هـذا الاطار ينبغى أن يضم المتغيرات التالية :

١ — المتغيرات المتصلة بالنظام العالمى ، حيث نجد أن هـذا النظام العالمى يضم مراكز متقدمة فى النظام العالمى ينطلق منها التأثير الى حيث المناطق المتخلفة فى هـذا العالم ، ولا شك ان العالم الثالث يحتل قلب هـذه المناطق أو يقع فى اطارها .

٢ — المتغيرات المتصلة ببناء المجتمعات المحليـة فى بناءات العالم الثالث . ما يتصل بالأبعاد التاريخية لهذه المجتمعات ، أو ما يتصل ببناء الثقافة والقيم أو تلك العوامل التى تتصل بالنسق الاجتماعى لهذه المجتمعات .

٣ — المتغيرات المتصلة ببناء الشخصية الشـابة فى هذه المجتمعات ، ما هى طبيعة تكوين بناء الشخصية الشـابة ، وكيف تتفاعل هذه الشخصية مع واقعها المحيط وسوف نعرض لذلك فيما يلى .

أ — الشباب والنظام العالمى
متغيرات التأثير والفاعلية

الذى لا شك فيه أن النظـام العالمى الذى نعيش فى اطاره يضم مجموعتين من المجتمعات ، المجتمعات المتقدمة والمجتمعات المتخلفة ، ثم هو الى جانب ذلك تفاعلات تتصل بطبيعة العلاقة بينها ولهذه التفاعلات والعلاقات تأثير على البشر فى مجتمعات العالم الثالث ، وعلى الشـباب باعتبارهم الأكثر حساسية والأكثر قابلية للتأثر بهـذه المؤثرات القادمة من العـالم الخـارجى .

فالمجتمعات المتقدمة تتميز بأنها مجتمعات تجاوزت مرحلة التغيرات الطفرية السريعة بكل تفاعلاتها الدينامية المصاحبة . وبدأت تخضع فى

تفاعلها لمــا يمكن أن يسمى بالتغيرات التدريجية الهادئة . فى هــذا الاطار فاننا نجد أنها مجتمعات يسودها نوع من الاتســاق الثقافى والاجتماعى . فالأخلاق والمصلحة الفردية والتعامل فيها يســتند عادة الى قيم السوق . وهى قيم رشيدة ، وفى هــذه المجتمعات حلت جماعات رســمية كالأحزاب والنقابات فى فاعليتها محل الجماعات غير الرســمية كالقرابة وجماعات العزوة فى المجتمعات التقليدية والمتخلفة .

يرى من يحاولون فهم التفاعل فى هــذه المجتمعات أن دور السلطة فى هــذه المجتمعات ، يماثل دور السلطة الأبوية فى المجتمعات التقليدية أو النامية . حيث تعمل كل جهدها من أجل غرس ثقافة المجتمع . وأيديولوجيته فى بناء شخصية أفراده . فمثلا تحاول المجتمعات الاشتراكية تنشئة أطفالها وشبابها وفقا لمجموعة التوجيهات القيمية المنبثقة عن الأيديولوجيا الاشتراكية مســتعينة فى ذلك بعديد من التنظيمات الرســمية وغير الرســمية . وفى انجازها لعملية التنشئة هــذه قد تلجأ الى اجراءات التغيير والثورات الثقافية التى تهدف الى الرجوع بالأيديولوجيا الى حالة نقائها الأساسى وفرض الالتزام بها . ويتم نفس الاجراء فى المجتمعات الرأسمالية حيث تحاول تنظيمات السلطة فيها فرض أيديولوجيتها بعديد من الوسائل ، ومن ثم فهى تواجه أى انحراف بعديد من الاجراءات التى قد تبدأ من استخدام القمع الصريح لكل من جانب الصواب ، وحتى اســتخدام آليات تصريف التوتر . والنتيجة أن بعض هذه المجتمعات المتقدمة ــ اشتراكية كانت أو رأسمالية ــ تهدف الى خلق ثقافة واحــدة متجانسة ، والى خلق ما يســمى بالمجتمع الجماهيرى mass society ، الى خلق الانســان الخاضع لنظامه ، الانســان ذى البعد الواحد(١٤) .

يضاف الى ذلك ، انتشــار الظاهرة التكنولوجية ــ كخاصية أخرى ــ تميز سياق هــذه المجتمعات . وهــذه الظاهرة وان يسرت على الانســان الاستفادة من رقيه والتمتع بحياته الا أنها سلبته متعة العمل . بل وسلبته حريته أحيانا (وأصبح الانســان يعانى من سلسلة من الاغترابات التى

تبدأ باختزال انســــانيته ، وتنتهى الى جعله عبداً وتابعا لآلة كان سيدا وخالقا لها . فى هــذا السياق قد يتساءل الفرد فى بعض المجتمعات المتقدمة ــ وخاصة تلك التى تجهض كل أبعاده الانســــانية ــ عن مصيره فى هــذا السياق . عن معنى المسخ الذى ينتاب النموذج الانسانى . عن معنى أن نكون على قمة الحضارة ومطلوب منا أن نعيش حياة القطيع ، والأنانية الفردية ، وعدم احترام الحياة الخاصة والقضاء على معان سامية لتنظيمات هامة كالأسرة ؟ عن معنى اســتخدام أفضل منجزات العقــل البشرى فى قتل الانســـان لخلق عصر استعمارى جديد ؟ من هنا لابد وأن يظهر رد فعل يتمثل فى رفض هــذا الوجود المتقدم . وقد يتخذ الرفض أشــكالا عديدة ، قد يبدأ بالرفض الايجابى للنظام القائم ، بالتمرد عليــه والتظاهر ضده وهــذا ما تقوم به الجماعات الراديكالية والمناهضة للعنصرية فى اطار ما يمكن أن يســمى بالثورات الحمراء والخضراء والســوداء . أو قد يتخذ شــكل الرفض السلبى بالانسحاب من هــذه الحياة المغتربة ، والبحث عن حياة خاصــة منسحبة قد تتمثل فى العودة الى الطبيعــة والبيئات الطبيعية كما هو الحال فى فلســفة الهيبيز مثلا ، أو قد يكون هروبا من هــذه الحياة والاتجاه للاندماج فى حالة دائمة من الغياب واللاوعى بالتعاطى الدائم للمخدرات(١٥) .

والى جانب هــذه الواقع التى ظهرت فى المجتمعات المتقدمة باعتبارها المجتمعات المسيطرة على النظام العالمى هناك مجموعة من الأحداث والظروف التاريخية ذات التأثير على الشــباب والتى تنطلق أساساً من النظام العالمى . ويمكن تصنيف هــذه الأحداث الى نوعين من الأحداث أو الظروف التاريخية . أحدهما يرتبط بمجتمعات معينة ويقتصر على حدودها بينما يحدث الآخر فى مجتمعات غير أن تأثيره له طبيعته الانســانية الشاملة ، بالنظر الى ذلك نجد أن حركة الشــباب قد تأثرت فى عالم اليوم بمجموعة من الأحداث ذات الطبيعة التاريخية البارزة .

وتعتبر الثورة التكنولوجية أول هــذه الأحداث ، وهى تتمثل فى تلك

الطفرة الهائلة فى العلم والتكنولوجيا مع التغير المترتب على ذلك فى وسائل الانتاج . ويمكن القول بأن الثورة التكنولوجية كان لها تأثيرها على الصعيد العالمى من خلال ثلاثة أساليب . أولا تأثير المكانى ، ثم الزمانى ، ثم ذلك المتعلق بالملامح البنائية للمجتمعات المعاصرة .

وفيما يتعلق بالتأثير المكانى أدت الثورة التكنولوجية الى ضيق مسافات الامتداد المكانى وقصرها . بحيث جعلت المسافات الاجتماعية داخل المجتمع الواحد أبعد كثيرا من المسافات الجغرافية بين مجتمعات عديدة . ذلك أدى الى تطلع الفئات المتماثلة الى بعضها البعض من حيث الارتباط بنفس القضايا ، أو الى تطلع الفئات الاجتماعية من سياق الى سياق جغرافى آخر تحاول البحث فى اطارها عن اشباع ملائم لطموحاتها . ومن هـذا المنطلق نستطيع أن ندرك هجرة الشـباب من مكان لآخر بهذا العالم بحيث تحدث تداخل مكانى واجتماعى فى اطار هـذه الفئة على مستوى العالم كله .

ويتمثل التأثير الزمانى للثورة التكنولوجية فى كونها أدت الى سرعة تطور العلم والتكنولوجيا . ومن ثم اتساع المسـافة بين مختلف الأجيال فى المجتمع الواحد ، بالنظر الى قدرتهم على الاستيعاب المتفاوت لنتائج العلم والتكنولوجيا . فقد كانت التطورات العلمية والتكنلوجية تحدث مرة واحدة فى كل عدة أجيال . ولكنها اليوم تحدث مرات كثيرة فى الجيل الواحد . ونتاجاً لذلك أننا نجد فى مجتمع البالغين جيلين : الجيل الأول تخلق فى اطار مناخ من الاستقرار ومن ثم فهو غير قادر على استيعاب متضمنات التغير وعدم الثبات ، هـذا الجيل هو جيل الشيوخ . بينما تخلق الجيل الآخر فى مناخ من طبيعة غير مستقرة ، تفاعلاته ذات طبيعة دينامية ومتغيرة أبدا . ومن ثم ، فهو جيل يمتلك القـدرة على استيعاب نتاج مجتمع التقنية الكاملة ، قادر على التلاؤم معه . وهؤلاء هم جيل الشـباب . هـذا الجيل عبر العالم كله يمتلك موقفا أساسياً من الأجيال الأخرى ، ولديه اتجاهات فيها قدر كبير من التماثل بالنظر الى بعض القضايا ذات الطبيعة العالمية العـامة . الدليل على ذلك أنه فى عام ١٩٦٨ تأسس ما يمكن أن نسميه بالتمرد الشـبابى

الشـامل ، حيث تخلق فى اطار الشريحة الشـبابية عبر العالم تفاعلا اجتماعيا متماثلا ، برغم وجود التجمعات الفرعية لهذه الشريحة الشـبابية فى ظروف محلية مختلفة تماما . بحيث واجهنا فى هـذه السنة موقفا شبابيا من المؤسسات الحاكمة فى كل من البرازيل ، وفرنسـا ، ويوغوسلافيا ، والولايات المتحـدة الأمريكية ، ومصر ، والصين .

بالاضافة الى ذلك أدى التغير فى وسـائل الانتاج الى احداث تعديلات أساسية فى بناء المجتمعات المعاصرة . فقد ظهر ما يمكن أن نسميه بالانتاج الواسع الذى يغطى الاستهلاك المحلى أو يهدف الى فرض أسواق استهلاكية جديدة فى خارج المجتمع المنتج . بحيث ساعد على خلق صيغة عالمية جديدة .. يرتبط المشتغلون فى اطارها عضويا على الصعيد الداخلى . هـذه الصيغة هى بالتأكيد نتيجة لفاعلية الثورة التكنلوجية . وهى الثورة التى ساعدت على انهيار أشـكال التجمعات السـائدة منذ بداية التاريخ ، كالتجمعات العائلية والقرابية بحيث حلت محلها المجتمعات الصناعية والطبقية ، وبرزت الفردية على حساب انهيار الحواجز التقليدية ، وظهر ما يمكن أن يسمى بقضايا الانسـان المعاصر كالديموقراطية والحرية وعـدم الاستغلال ، وما الى ذلك من القضايا التى بدأت تتشكل بشأنها مواقف انسـانية متماثلة ومن الطبيعى أن يكون الشباب فى مقدمة الذين يتخذون موقفا انسـانيا شـاملا بشأن ذلك(١٦) .

وفى أعقاب الحرب العالمية الأولى ظهرت واقعة أخرى كان لها تأثيرها على النظام العالمى ، فقد برز النظام الاشتراكى الى الوجود ، حيث أدى ظهوره الى طرح مثال جديد لامكانية التقدم والنمو . غير أن وجوده بسـاعد على تخلق تناقضات وصراعات عديدة فى إطار النظام العالمى خاصة فى اطار تلك السياقات التى فضلت اختياره نموذجا تتجه اليه مسيرة التنمية . بحيث شكل ذلك مصدر اثارة وحساسية لفئات عديدة تؤيده وأخرى تناقضه . ولقد كان الشباب وشباب العمال فى أحيان كثيرة من أصـحاب المواقف

المؤيدة(١٥) . أليس النظام الاشتراكى هو الذى يرفع رايات (يا عمـــال العـــالم اتحدوا ...(١٦)) .

ويمثل انهيار الامبراطوريات القديمة الواقعة التاريخية الثالثة التى وقعت فى اطار النظام العالمى لتؤثر فى الشباب . ذلك بالاضـــافة الى مجموعة الحروب الصـــغيرة التى شنتها القوى الكبرى تحاول بها فرض الاستقلال والســـيطرة بهدف التحكم فى بقايا الامبراطوريات المنهارة . هذه الحروب نجدها فى مجملها حروبا ضد شـــعوب صغيرة كحرب فيتنام . واظننا ندرك كم كانت هـــذه الحرب مصدر الهام لكل الحركات الشبابية فى العـــالم ، بحيث شكلت أساسا لصيغة عامة من الرفض الموجه ضد المؤسسات الخارجية التى تنتمى للدول المتدخلة أو المؤسسات الداخلية المتعـــاونة .

بالاضافة الى الوقائع الســـابقة ذات الطابع التاريخى هناك مجموعة من الأحداث أو الظواهر التى تقع فى عالمنا المعاصر ، وهى تفترق عن مجموعة الســـابقة فى خاصية التزامن أى أننا نعايشها ، نشـــاهد تخلقها وطبيعة التفاعل الذى تثيره ، والنتاج الذى تتمخض عنه . ومرة أخرى تتأكد عالمية هـــذه الظواهر لكونها قد انبثقت أو تخلقت عن ظروف ومؤثرات عالمية شاملة ، ومن ثم فلها تأثيرها على محليات هـــذا العالم . ربما تتخلق أو تنبثق فى أطر محلية محددة ، الا ان لها صلتها بالتفاعل الذى يقع فى المحليات الأخرى لمجرد أن قضاياها تتصل بمضامين انســـانية شاملة وهو الأمر الذى يسبغ عليها طبيعتها العالمية(١٧) .

أول القضايا فى هذا الصدد هى قضية الاستمرار (التقليد) والانقطاع (التجديد) الذى ترغبه المحلية وتتيحه العالمية . بمعنى أن هناك علاقة بين موقف الشـــباب على بعد المحلية ـــ العالمية من ناحية وموقفهم على بعد التقليد ـــ التجديد من ناحية أخرى .. فى اطار ذلك تبرز القضية الجيلية . فلا شك أن الموقف الجيلى والمســـألة الشبابية فى اطاره ذات صيغة عالمية

بارزة انطلاقا من عمومية دورة الأجيال فى كل المجتمعات وتقارب طبيعـة التفاعل بين مختلف هـذه الأجيال . بيد أن للقضية وجها آخر يتعلق بمدى وصاية جيل الآباء على الأبناء ، ومدى تمرد الأبناء على الآباء . بيد أن ادراك هـذا الوجه من القضية على هـذا النحو من الاستقطاب فيه تجنب للمنهج العلمى . بينما يطالبنا الطرح العلمى للقضية أن ندرك بشكل محدد قدر الاستمرار الذى نريده وقدر التجديد الذى نسمح به . ما هو القدر الذى نسمح به للأجيال القديمة أن تنشىء الأجيال الجديدة على هويتها ؟ ثم ما هو القـدر الذى نطالب فى اطاره الأجيال الشـابة أن تصنع أو تؤسس اختياراتها وتصوغ قراراتها بمفردها .

يتعلق جوهر القضية بمدى السماح للمحلية ممثلة فى جيلها المحافظ لها بالاستمرار . ومدى السماح للمتغيرات العالمية بالتغلغل والتفاعل المؤثر مع مكونات هـذه المحلية . ومن ثم تقطع عليها مسيرتها الأحادية . حيث يتأسس هـذا السماح مرتبطا بعملية التغير كعملية أساسية يعيشها عالمنا المعاصر ، ومن ثم تتأكد المتغيرات العالمية من خلال تحديد مدى ارتباط الشريحة الشبابية بالتغير ومدى ايمانها بتفاعلها وسلوكها ديناميا وفقـا لايقاعه . ومن ثم فقد التغير الذى تسمح به المحلية سوف يعنى قدر الانقطاع الذى لابد أن يحدث بين أجيال الشـيوخ والشـباب . فالشريحة الشبابية التى تركز على اسـتخدام وسائل انتاج استخدمها الأجداد (كالطنبور مثلا) فان ذلك يعنى أنها تحيا حياة راكدة ، سـاكنة وجامدة مثل أجدادها . هنا يكون للمحلية دورها البارز ولعناصر الاستمرار سطوتها الأكثر فعالية وغلبة على عناصر التجديد . اذا فمدى التعرض للتغير بسرعاته المتعددة يعتبر الأساس لقياس مسافة الاقتراب من العالمية والاندماج فيها والتفاعل مع متغيراتها . من هنا فلابد أن نتأسس معادلة تؤكد على أن ثمة علاقة بين الشـباب والعالمية تقف فى مواجهة وجود علاقة بين الشيوخ والمحلية ، بين البحث عن طريق جديد للانطلاق من اسار عالم مغلق وضيق وبين الانجذاب الى الخلف ، حيث واقع محليات متناثرة فى قلب عالم شـامل لا متناهى الحدود ، وفى هـذا الاطار تتأسس حيوية الدور الشبابى .

نقول أن عالمنا المعاصر منذ فترة تاريخية بعيدة تتأسس مرتكزاته على تفاعلات التغير الاجتماعى . فمنذ عصر النهضة والثورة الفرنسية ، والثورة العلمية والتكنولوجية وثورة المواصلات ، نجد أن العالم يعيش فى اطار مناخ جديد تهتز على ساحته أكثر التقاليد رسوخا ، وتنهار فى سياقه أكثر المؤسسات قداسة وعراقة . ويتولد عنها ايمان جديد مضمونه أن الثبات قد انسحب من على المسرح ، وأن الدينامية هى القاعدة ، وأن التغير هو المنطلق الذى يتخلق من خلاله هذا العالم . الذى يتحرك فيه المتخلف الساكن من خلال التنمية — وهى التغيير الارادى — ليلحق بالمتقدم الذى تندفع فى اطاره ايقاعات التغير بسرعات يصعب ادراكها(١٨) . فى أثناء ذلك تنهار مؤسسات رئيسية ، بينما تتأسس أخرى . فالأسرة يصيبها الانهيار لأن المثل والمعايير التى تنشىء عليها الابناء تختلف كثيرا عن تلك التى يواجهونها فى واقع الحياة الاجتماعية المحيطة . بالاضافة الى ذلك فقد أسس التقدم التكنولوجى واقعا جديداً ، فيه علاقات وأدوار جديدة ، وربما وجهات نظر جديدة وفرها التقدم التكنولوجى من خلال وسائل الاتصال . بحيث جعل فئات شبابية عديدة خارج أنساقها الأساسية تتواصل مع نظائرها ، وأثناء ذلك تجلب الى محليتهم ما يجعلها أكثر عالمية(١٩) .

فى اطار ذلك تتأثر الفئة الشبابية كمتغير فى موقف التفاعل العالمى بعاملين . الأول يتعلق بتأثير التقدم التكنولوجى والعلمى على الشريحة الشبابية . فقد أدى التقدم التكنولوجى وتراكم المعرفة العلمية وتعقد وتضخم المؤسسات التعليمية الى اتساع الهوة بين النضج الفسيولوجى من ناحية والنضج الاجتماعى من ناحية أخرى ، ففى فترات سابقة كان الشخص يمارس دوره الاجتماعى بمجرد تحقق نضجه الفسيولوجى ، ومن ثم لا توجد هوة بين طرازى النضج ، بيد أنه بالنظر الى ذلك تخلقت مشكلة فى المجتمعات المتقدمة خاصة المجتمعات الأوربية نتيجة لاتساع الهوة بين نوعى النضج . فنتيجة لتضخم حجم المعلومات التى على الشباب تحصيلها لكى يصبح صالحا لاحتلال دوره الاجتماعى ، أن ازدادت فترة التكوين والتعليم . ومن هنا تخلقت الفجوة بين نضجه الفسيولوجى وبين

اعتراف المجتمع به كمواطن مســـتقل له دوره الاجتماعى الذى يؤديه وله اســـهامه . ذلك يفسر وجود أزمة الشـــباب فى المجتمعات المتقدمة . ويفسر ايضا تأسس هـــذه الأزمات بين فئات الشـــباب البرجوازى أو المثقف . فليس صدفة اذا أن الانفجارات الشـــبابية التى حدثت فى عام ١٩٦٨ وقعت معظمها فى مجتمعات متقدمة ، وكانت أساسا بين شباب المثقفين ، أو شباب المؤسسات التعليمية الذين يبحثون عن انتماء . ويعنى أن تبنى المجتمعات المتخلفـــة لبعض خواص التقـــدم ، كاعتبار التعليم أساسا لممارسة الدور الاجتماعى بشكل فعال ، سوف تحدث أزمة شبابية فى اطارها ، وسوف يتحدد عمق واتساع هـــذه الأزمة بقدر الملامح التى سوف تتمكن من استيعابها أو اكتسابها . وهو الأمر الذى يؤكد أن أزمة الشباب لها أسبابها العالمية(٢٠).

ويرتبط العامل الثانى بموقف القطاعات الاجتماعية من التغير الاجتماعى كصيغة عالمية . ذلك أن هناك اختلافات عديدة بشأن ذلك . اذ تراها النظريات الغربية من خـــلال التناقض بين الكبار والصغار ، أو الرجال والنســـاء ، أو بسبب اختلافات الريف والحضر . وهو الأمر الذى تعتبره المـــاركسية تمييعا للقضـــية وذلك لأنها تنظر الى ذلك من خـــلال المصالح الطبقية ، فهى تعتبر أن التغير الاجتماعى ينشأ من خـــلال تناقض المصالح الطبقية بين فئات المجتمع أو طبقاته العديدة(٢١) .

واذا كانت القضية الجيلية هى التى تربط الشباب بالتغير الاجتماعى فان الطبقات الاجتماعية تربط الشـــباب باتجاه التغير الاجتماعى . اذ تختلف فئات الشريحة الشبابية حول مسار التغير واتجاهه . وفى هـــذه الحالة يعبر الموقف الشبابى عن مصالح طبقية . فاذا قلنا أن الشباب يتميز بالرؤية المستقبلية ، فان السؤال الذى يجب أن نطرحه لابد وأن يتعلق بطبيعـــة المستقبل . هنا أيضا يختلف تصور المستقبل باختلاف الطبقة الاجتماعية التى ينتمى لها الشاب . فتصور المستقبل عند الفلاح يختلف بالتأكيد عن تصور المستقبل كما يراه الشـــباب الجامعى برغم احتمالية انتمائهم لمحلية واحدة . فجميعهم لديهم تصور للمستقبل . وكلهم لديهم الامكانية القادرة على تجسيد

هـــذا المستقبل المتخيل فى واقع ملموس . واذا اختلفت التصورات على مستوى المحلية فانه قد تنشأ تماثلات أو اتساقات على مستوى العالمية ، على أساس من الطبقة أو الشريحة الاجتماعية التى ينتمى اليها الشباب . ومن ثم فمن المحتمل أن يتفق المثقفون الذين ينتمون الى محليات عديدة حول تصور موحد فيما يتعلق بقضية معينة . وهم فى اتفاقهم هـــذا قد يختلفون جذريا مع تصورات فئات شبابية أخرى من نفس المحلية (٢٢) .

ويعنى ذلك انه اذا كان تبنى تصور معين للمستقبل يعتبر من السمات الأساسية للشباب . فان من سماته أيضا اختلاف التصورات باختلاف الشريحة الاجتماعية . وذلك يأتى بنا الى رفض تصور شبابى موحد للمستقبل . ففى ذلك وصاية ، وتحقيقه غير ممكن لأنه غير مطلوب . بل انه من الضرورى بدلا من ذلك أن نؤمن بامكانية تأسيس تصورات شبابية متباينة . ففى ذلك افلات من اسار المحلية المتخلفة التى تفرض بالوصاية منطقا واحداً . والانطلاق نحو عالمية تؤمن بالتقدم كهدف . والتغير كوســـيلة ملائمة للمستقبل حيث مجال الوعد ، يتحرك نحوه الجميع من دروب ومسالك عديدة فى نطاق عالمية عقلانية وشـــاملة(٢٣) .

خلاصة القول أن هناك فريق من الباحثين الذين قد ينتمون الى مواقف نظـــرية متباينة الا أنها تتفق فى ايمانها بالمنطلقات النظرية الشـــاملة ، التى تؤكد على الادراك الكلى الشـــامل للواقع الانسانى ومن ثم فان متغيرات التأثير فيه عادة ما تكون ذات طبيعة شمولية فى تأثيرها . حقيقة أن متغيرات التأثير قد تتخلق منبثقة عن واقع محلية واحدة ، فعلى ســـبيل المثال تخلقت الثورة الدينيـــة فى ايطاليا . وتخلقت الثورة السياسية فى فرنســـا ، والصناعية فى انجلترا ، والرأسمالية فى الولايات المتحدة ، والثورة الاشتراكية فى روســـيا ، الا أنه يظل مؤكدا أن أسباب تخلق هـــذه المتغيرات قد يرجع لمحلية معينة وانتشارها قد يكون فى اطار مجتمعات محلية أخرى . قد ينتمى الحصاد الى سياق بينما تنمو الجذور فى سياق آخر .

ومن ناحية اخرى تتأسس عالمية أوشمولية تأثيرها بالنظر الى التكرار المتماثل لفاعليتها فى مختلف محليات النظام العالمى . فالتشكيل الجيلى موجود فى كل المجتمعات . وهناك تناقض جيلى فى الموقف والرؤيا لطبيعة التفاعلات الجارية ، هناك أيضا فئات متماثلة كالعمال والشباب والطلبة لها خصائص اساسية متماثلة . تجعل امكانية أن يكون رد فعلها للمؤثرات الواحدة متماثل تقريبا . مثل حركة الستينات الشبابية وموقفها من المؤسسات القائمة . وبذلك تتأسس الصيغة العالمية لكل من المتغيرات المستقلة والتابعة .

استنتاجا مما سبق نصل الى مجموعة الاستخلاصات الأساسية التالية :

١ — أنه بغض النظر عن انتماء شريحة الشباب فى العالم الثالث لمجتمعاتها ، فانه لفهم السلوك والتفاعلات الشبابية لابد أن نعطى اعتبارا للبعد العالمى أى التأثيرات التى يرجع مصدرها للنظام العالمى .

٢ — ليس من الضرورى لكى تصبح الواقعة ذات تأثير عالمى أن يشمل تأثيرها النظام العالمى أو تنتمى الى بنائه الأساسى ، وانما من الممكن أن يصبح لواقعة معينة تأثيرها العالمى برغم انتمائها لمحلية محدودة فى اطار النظام العالمى . وفى هذه الحالة فان تأثيرها يرجع الى تماثل الظروف المحيطة بها مع الظروف القائمة فى المحليات الأخرى التى استوعبت تأثيرها .

٣ — أن هناك بعض الآليات التى استحدثت فى النظام العالمى ساعدت على تأسيس عالمية المسألة الشبابية والظروف المحيطة بها من هذه الآليات التدرج الجيلى فى مختلف المجتمعات ؛ هذا الى جانب وسائل الاتصال وثورة المواصلات الحديثة ، هذا الى جانب وقوع بعض الأحداث التى شكلت مصدراً لالهام الشريحة الشبابية كالحرب الفيتنامية ، وثورة الشباب فى ١٩٦٨ .

٤ — تتباين الاستجابة المحلية للتأثيرات العالمية بالنظر الى البعد الجيلى من ناحية . كأن نجد أن أجيال الشباب أكثر استجابة للأحداث

العالمية من أجيال الشيوخ ، وذلك لطابع التجديد الكامن فى بناء شخصيتهم ، بالاضافة الى أن التباين قد يحدث من ناحية أخرى بالنظر الى المجموعة الشبابية ، فمن المؤكد أن الشباب المثقف والشباب الجامعى أكثر استجابة من الشباب العامل أو الفلاحين الشباب .

٢ — بناء المجتمعات المحلية فى العالم الثالث
متغيرات التأثير فى اطارها

شكلت بداية الموجه الاستعمارية البداية الحقيقية لنشأة العالم الثالث كتجمع رئيسى يحتل مكانة محددة فى بناء النظام العالمى ، وكرست الحرب العالمية الأولى والثانية وعقود التنمية التى تلت حصول معظم مجتمعات هذا العالم على الاستقلال فى الخمسينات هذه المكانة . وظهر حوار حاد خلال هذه المرحلة يدور حول البحث عن أفضل الطرق ملاءمة لتنمية العالم الثالث . وفى هذا الاطار ظهرت ثلاثة مواقف تجتهد كلها فى البحث عن مخرج لانطلاق هذا العالم .

(أ) فهناك موقف الصفوة العلمانية التى خاصمت التراث وأغلقت أبوابه خلفها ، ورأت التحديث على الطريقة الغربية هو أفضل محطات الانطلاق .

(ب) وهناك موقف الصفوة التراثية ، التى وافقت على جمود البناء والتراث كمسلمة مبدئية لكن هذا لا يعنى رفضه واغفاله اذا أردنا تطوير المجتمع ، ولكن علينا أن نتقدم به وأن نثير مكامن الدنيا فيه لكى تنمو من خلاله . ألم يكن هذا التراث هو الذى صنع مجتمعات الماضى القوية والمجيدة ما نحتاجه اذا لكى ننمو صفوة قادرة على التجديد .

(جـ) وهناك الصفوة التوفيقية الحائرة فى اختيارها بين مراحل التاريخ الخلاقة فى مجتمعها وبين الانجاز الفعال القائم فى المجتمعات الغربية ، ومن ثم فقد رفعت هذه الصفوة شعار الانتقائية ، أن تخلق اطار تنمويا

جديدا يضم أفضل عناصر الأصالة والتراث وفى ذات الوقت أرقى ممكنات التحديث ، لتخلق مجتمعا به أفضل ما قدمته تجربة التحديث وأكفأ ما هو قائم فى التراث أيضا (٢٤) .

بيد أن هذه المواقف الثلاثة اتفقت على مسلمة أساسية مؤداها أن العالم الثالث يشكل عالما مختلفا عن العالم المتقدم . وهم فى ذلك ينطلقون من قضية واضحة تؤكد على فارق التطور بين محليات العالم الثالث من ناحية والعالم المتقدم من ناحية أخرى ، وأن التطور قد وسع درجات الخلاف بينهما حتى تكاد أن تنتقل من خلاف فى الدرجة أو الكم لتصبح خلافا فى النوع أو الكيف . ومن هنا فالدعوة لادراك المسألة الشبابية باعتبارها ترتبط بأبعاد وعوامل عالمية تعتبر دعوة متطرفة ، وتحمل فى طياتها مخاطرة الانزلاق الى هوة تخلف أكثر رجعية . فالادعاء بأى تجانس أو اتفاق بين المتقدم والمتخلف لا يعنى سوى تأكيد خضوع الأخير دون وعى للأول ، وربما أيضا عدم قدرته على الاستفادة من انجازات التقدم التى قد يحققها المتقدمون . فهى اما أن تصيب المتخلفين بالتخمة والاعتلال وعدم القدرة على الهضم . أو قد تصاب بالانميا الحضارية حينما تقف موقفا استهلاكيا من منجزات التقدم تستوعب نتائجها دون أن تحاول تطوير مقدماتها(٢٥) . ويذهب دعاة الاهتمام بالأوضاع المحلية للعالم الثالث الى أن الثورة العلمية بدلا من أن تعمل على توحيد العالم ، جعلت الهوة أكثر اتساعا بين مجتمعاته . ولنا أن نتساءل بعد انحسار الاستعمار التقليدى ، هل تقدم المتخلفون أم انهم تحولوا بالأحرى الى مناطق للتنافس والصراع أو ساحة تصفى عليها قوى العالم المتقدم حساباتها وصراعاتها . لا ينبغى أن ننكر ان العالم يضم الآن قسمان ، المتقدمون والمتخلفون ، فما هو طريق الخروج من المعضلة ؟ ما هو أسلوب الادراك الأمثل لقضية الشباب ؟ ليس هناك من طريقة سوى الحفاظ على الهوية المحلية أو نطور تصورا منطلقاته داخلية أساساً . ولا يمنع ذلك من انتقاء متغيرات خارجية نرى أنها قد تساعد

على تحقيق التقدم شريطة أن تستوعب فى حياتنا ، وألا يزيد ما ينتقى من حضـــارة التقدم على ما هو كائن فى حضـــارة الأصالة . ذلك سوف يؤدى الى الانطلاق الواعى نحو عالمية شـــاملة فى ظروف أكثر ملاءمة لنا كما هى كانت لغيرنا . فاذا حدث غير ذلك ، الانطلاق بغير وعى ، فاننا قد نتوحد مع العالمية فى ظل ظروف غير ملائمة لنا ، لأن فيها فناء لهويتنا ، وربما اجتثاث وجودنا من أساسه . قد يقال أن حركة الشـــباب فى الستينات واحـــدة تقريبا ، ذصيغتها متماثلة ، لا تخرج تقريبا عن الرفض والتظاهر أو الهروبية ، ولكننا نؤكد أن المضمون لم يكن واحـــدا • حقيقة أن الرفض انتشر فى محليات عديدة . لكن لمـــاذا ؟ وكيف ؟ ولأى هدف ؟ كان ذلك موضع التباين وفقا لطبيعة السياق الذى وجدت فيه حركة الشـــباب(٢٦) .

يذهب دعاة البحث عن متغيرات التفسير فى البنية المحلية لمجتمعات العالم الثالث الى أن ثمه مغالاة أو تجاوز فى تقـــدير آثار الثورة التكنولوجية على الشـــباب من خلال ثورة المواصلات المفتوحة القنوات . الا أن الحسم النهائى يظل قائما ، كم من شباب المجتمعات المتخلفة يتعرض لفاعلية هـــذه القنوات . كم من الشـــباب يقرأ ويكتب ويتابع تفاعلات مجتمعه المحلى . فما بالك بالتواصل مع العالمية ؟ كم من الشـــباب يتعرض ابصارا أو سمعا لفعالية هذه القنوات ؟ حقيقة أن القنوات مفتوحة وتأثيرها منساب ومرسل ، لكن هل ادراكه يتم بســـهولة وبلا عوائق ؟ هـــذه هى القضية .

وبغض النظر عن رفض دعاة البحث عن متغيرات التفسير فى بناء المجتمع المحلى ، لقدرة المتغيرات العالمية على التفسير . فاننا نجدهم ينظرون الى الموقف فى مجتمعات العالم الثالث باعتباره أكثر معضلة واثارة فيما يتعلق بموقف الشـــباب وقضاياهم . فهذه المجتمعات تحاول اجتياز الهوه الكائنة بين وضعها المتخلف والوضع الذى تعيشه المجتمعات المتقدمة من خلال عمليـــة التنمية الارادية المكثفة . وهى مكثفة لأن عليها أن تتجاوز هوة التخلف بسرعة مضاعفة لكى تعوض التغير والتقدم الذى حققته المجتمعات المتقدمة عبر قرون عديدة ، ثم لكى تعوض التغيرات المعاصرة التى يحققها العالم

المتقدم ، وقد يساعدنا فى ذلك أن هناك نماذج كثيرة للتنمية هى بمثابة خلاصة تجارب عانتها الشـعوب المتقدمة . الا أن الاختيار بين هـذه النماذج صعب وتحكمه متغيرات — ذات صلة بتفاعل القوى العالمية — يتطلب اعتبارها حساب واع ودقيق(٢٧) .

فمعظم هـذه المجتمعات كانت تعيش واقعا اقطاعيا واستعماريا . ومن ثم ، فقد تكون على كراهية تاريخية لنموذج التنمية الرأسمالية . ويصبح الخيار الباقى أمامها هو نموذج التنمية الاشتراكية بأى من درجاته وأنواعه . أو لأن هـذا النموذج فيه وعد كثير لكل الكادحين وفيه أسـلوب لاستثمار قوى العمل والانتاج من البشر . بيد أن الاختيار الاشتراكى قد يواجه فى هـذه البلاد موقفا صعبا ، فقد تتعارض الاشتراكية مع بعض عناصر التراث أو الثقافة المحلية . ثم هى نموذجا قد يلائم سياقا دون آخر . ثم هى قد لا تعطى عائدا سريعا فى شـعوب طالما عانت وأستنزفت من كثرة العطاء فى المرحلة الاستعمارية . وهى مطالبة فى ظل الاشتراكية — ولو لمرحلة — بعطاء جديد بالرغم من كونها جماهير عانت وناضلت واستقلت واختارت الاشـتراكية لتأخذ . وبذلك تتخلق أرضـية أساسية لظـواهر فريدة ومعضلة(٢٨) .

وبغض النظر عن الاختيار الاشـتراكى أو الليبرالى التى تؤسسه الصفوات الحاكمة فى هـذه المجتمعات ، فان أيا من هـذه الاختيارات غريب على التراث فى هـذه المجتمعات . فهناك قناعة لدى الصـفوة بضرورة التحديث — اشتراكيا كان أم ليبراليا — ولو على حساب التراث ، بل ومن الضرورى أن يتم ذلك على حساب التراث . بيد أن التراث والأصالة قيم مستوعبة فى بناء شخصية الأفراد داخل المجتمع من خـلال مؤسسات التنشـئة كالأسرة والمدرسـة ومؤسسة العمل ، فاذا حسم الاختيـار على مستوى الصـفوة ، فان صراع الاختيار سوف يبدأ على مستوى الأفراد فى المجتمع ، قد ينتصر اختيار الصـفوة فتجذب معها الجمـاهير على طريق التنمية ويحدث الانطلاق . وقد لا تستجيب الجمـاهير لهذا

الاختيار ، فتعاند التحديث مختبئة وراء درع الأصـــالة والتراث وهنا تحدث الكارثة ، حيث تفادى الصفوة بضرورة الاندفاع لتحقيق التنمية بينما الجماهير منسحبة أو تســـير متاكئة ترفع فى صمت تساؤلا لمــاذا لا يكون التحديث من خلال تجديد التراث ؟ ولأن الشـــباب هم المستهدفون من التنمية ، وهم الذين يتفاعلون عضويا مع نتاجها . فان صرخاتهم تكون عالية ، وحينما تتغافل الصفوة صرخات الشـــباب ، فالعنف هو المطية الملائمة . وكلما امتلك المجتمع تراثا فعالا وقويا كلما كانت احتمالات الصدام والعنف أكثر .

ذلك يدفعنا الى استكشاف دقيق وواع لموقف الشـــباب فى سياقات المجتمعات النامية . ذلك أن الشخصية تعكس عادة ملامح الســـياق الاجتماعى الذى تعيشه وتتفاعل معه . فالشخصية على ما يذهب علماء الاجتماع هى الوحدة المصغرة للبناء الاجتماعى ، وان كانت فى ذات الوقت أحد عناصره . وفى الواقع الاجتماعى الأكثر تخلفا والأكثر تقدما تصبح الشخصية واضحة محددة الملامح ، وذلك بالنظر الى وضوح وتحدد ملامح الســـياق الاجتماعى . غير أن الوضع يختلف بالنسبة للمجتمعات الانتقالية أو النامية(٢٩) .

وبالنسبة لعلاقة الشخصية الشـــابة بالتنمية ، فان العلاقة تصبح لها أبعادا كثيرة . أبرزها أن الشخصية الشابة بطبيعتها شخصية انتقالية اذا نظرنا اليها على المتصل الجيلى . ومن ثم فهى تتصف عادة بعـــدم الاستقرار النسبى ، وعـــدم التحدد النسبى للهوية والملامح . أما البعد الثانى فيتعلق بطبيعة الســـياق الاجتماعى . ومن الواضح أن سياق التنمية انتقالى بطبيعته . ومن ثم فملامحه غير محددة نســـبيا . فكل شىء فى اطاره منساب ومنطلق كالنهر ، تشكلاته عديدة ، تتباين رأسيا وأفقيا فى كل لحظة زمانية . من هنا فان ناتج التفاعل بين الشخصية والسياق الاجتماعى يتصف الى حد كبير بعـــدم الاستقرار والدينامية ذات السرعات العالية(٣٠) . فى اطار ذلك تبرز المعاناة التى يخضع لها الشباب فى مرحلة التنمية ، حيث البحث عن أسس ثابتة تحكم الســـلوك الواقعى بينما الواقع منساب وسائل .

ويرجع عدم توفير هذه الأسس الى عدم القدرة ، أو بطبيعة المرحلة التى يمر بها المجتمع ، وذلك فى حد ذاتهمعضلة(٣١) .

وحتى لا يكون الحديث عاما فسوف نتحدث عن وضع الشباب فى المجتمع المصرى باعتباره بالدرجة الأولى أحد المجتمعات النامية . ولأنه يعكس فيما يتعلق بقضية الشباب معظم التفاعلات التى تقع فى غالبية هذه المجتمعات وذلك لاعتبارات كثيرة . منها أن المتجمع المصرى يتسم بناؤه الديموجرافى بالطابع الشبابى ، فنحو ٥٨٪ من سكانه فى سن الشباب بين ١٥ — ٣٠ سنة . وهو وأقع موجود فى المجتمعت النامية . وثانيا الأن المجتمع المصرى يعانى بشكل حقيقى من معضلات المرحلة الانتقالية ، بصورة حادة كما فى معظم مجتمعات العالم الثالث . وثالثا لأن المجتمع المصرى قد عانى من الصراع بين الجماعات التى تحكمها توجهات أيديولوجية متباينة كان التاريخ المصرى دائمــا ساحة لمواجهات التصفية الصراعية . ثم ان المجتمع المصرى من ناحية رابعة هو المجتمع الذى يدور فى اطاره التفاعل ساخنا بين الأصالة والتراث من ناحية وبين رياح التحديث وتياراته من ناحية أخرى . وأخيرا فهو المجتمع الذى استفزت تفاعلاته توترات الشباب وطهارته ، فانطلق يطلق الرصاص على من استفز مشاعره(٣٢) .

ذلك يعنى ان استعراض علاقة الشباب ببناء المجتمعات النامية من خلال معطيات الموقف فى المجتمع المصرى ، يعنى اننا سوف نهتم بالتركيز على بعدين . الأول يتعلق بطبيعة المجتمع المصرى كأحد المجتمعات النامية . اذ نعلم كلنا أننا نعيش فى فترة متخمة بالتغيرات السريعة ، والكثيفة والثورية . وأثناء ذلك قد تقع أخطاء وقد تحدث تصميمات ، والشباب هو المتحمل لآثار الخطأ وأعباء التصحيح . وتمتاز مرحلة التنمية أيضا بتعرضها لمتغيرات عديدة ينبغى التعامل معها لكى نستوعب منها القدر الذى يدفع التنميــة دون أن يطمس الهوية . ذلك يستوجب الاختيار الدقيق الذى قد لا يشارك الشباب فى فرضه بالقدر الملائم . وفى هذا الطار تصبح

مشـــكلة الشباب هى امكانية التعبير عن رأيه وعن قدرته على المشـــاركة الفعـــالة .

ويتعلق البعد الثانى بالكثافة الشـــبابية فى البناء الديموجرافى للمجتمع المصرى حسبما أشرنا ، وهو الأمر الذى يعنى أن هـــذا المجتمع يمتلك دينامية وايجابية بناءة اذا حدث توظيف ملائم للطاقات الشبابية الفعالة ، واستثمار أفضل لقدراتها . فاذا لم يحدث ذلك .. واذا بقيت قدرة المجتمع غير قادرة على استيعاب هـــذه الطاقات الشبابية ، فسوف يصبح المجتمع — حسبما يذهب علمـــاء الاجتماع الســـياسى — مهددا بانفجارات اجتماعية عديدة قد تحمل قدرا من الفوضى الا أنها بالتأكيد سوف تؤدى الى تدمير عديد من المظاهر الاجتماعية المعوقة . فنحن لا نعلم الى أى مدى يتحمل شبابنا الذى يعانى من ظروف الاختناق فى مستوى المعيشة والمسكن ، والمواصلات وممارسة حياته اليومية بشـــكل موتر . الى متى سيصمت الشـــباب فى مجتمعنا ، وهم يشاهدون أحلى ســـنوات العمر تضيع نتيجة لعجز النظام الاجتماعى عن اشباع حاجاتهم ، بما يوفر لهم حياة كريمة وملائمة خـــلال هـــذه المرحلة(٣٣) .

نصل من ذلك الى أن التغير ينتاب كل مجالات المجتمع ثقافة كانت أم اجتماعية . بيد أن التغير فى مرحلة التنمية يكون مكثفا فى العادة . تستهدف من ورائه البلاد النامية تحقيق قدر من التطور حققته المجتمعات المتقدمة فى قرون عديد .. ومن ثم فقد كان عبورها لهذا التطور متجانسا ومتسقا . أما التطور فى البلاد النامية — لظروف عديدة — عادة لا نجده متسقا ولا متجانسا. ونتيجة لذلك تواجه خلال هـــذه الدينامية المتحركة التى يعيشها هـــذا العالم بمواضع ثابتة لا تتلاءم فى درجة تغيرها مع الجوانب الأخرى ، ومن ثم فهى قد تختلف أو حتى تتناقض مع منطق الحركة العامة .. ومن الطبيعى أن يكون لهذا التناقض تأثيره ووطأته على الشـــباب خلال مرحلة التنمية .

ولتوضيح طبيعة هـــذا التأثير الذى ينطلق من الســـياق الاجتماعى

أو من تناقضات التنمية على الشـــباب . فاننا سوف نعرض له من خلال الأبعاد الأساسية التاليـــة :

(ا) الشباب والتاريخ ، أبعاد المشاركة الايجابية .

(ب) الثقافة والتاريخ والقيم ، معضلات الشباب فى اطارها .

(ج) الشباب والمجتمع ، علاقات الانفصال والاتصـــال .

(د) الشخصية الشابة ، طبيعتها وخصائصها الدينامية .

وفيما يلى سوف نستعرض بشـــكل موجز موقف الشـــباب فيما يتعلق بكل من هـــذه القضايا .

(ا) الشباب والتاريخ ، أبعاد المشاركة الايجابية :

لا ينبغى أن تجذب التفاعلات المعاصرة التى كان الشباب المصرى طرفا فيها انظارنا عن الدور التاريخى لهذه الشريحة . فقد كان الشباب فى تاريخنا المصرى دورهم البارز ، كانت لهم قضاياهم وكانت لهم مواقفهم من قضايا مرحلية كانت ذات أهمية اجتماعية خلال مراحل التاريخ المختلفة . قد تختلف قضايا الأربعينات عن قضايا الخمسينات أو الستينات أو السبعينات . وسوف تختلف هـــذه القضايا بالتأكيد عن قضـــايا الثمانينات أو التسعينات أو سنة ٢٠٠٠ . غير أن القاسم المشـــترك بينها كلها يتمثل فى المشـــاركة الايجابية من قبل الشـــباب فى مواجهة هـــذه القضايا .

وبنظرة سريعة الى التاريخ المصرى الحديث فاننا سوف نجد أن شباب الفلاحين هم الذين حملوا معاول محمد على فشقوا الترع والقنوات واستزرعوا الأرض ، واستنبتوا أحدث المحاصيل ومن ثم فقد أسسوا تنمية مصر ورخاءها خلال هـــذه المرحلة . وشباب الفلاحين هم الذين تولوا تجســـيد أحلام محمد على وخياله واقعا يفرض نفســـه على جغرافية هـــذا العالم ، ويطرح

العظمة المصرية وامكانياتها فى الانتشار ابتداء من هضبة الاناضول على مشارف أوربا وانتهاء بأعماق افريقيا فى جنوب مصر .

وشباب الفلاحين أيضا هم الذين دفعهم وعيهم التاريخى بمصالحهم الى الاهتمام بقضايا سياسية عامة كانت ذات أهمية حادة بالنسبة للمجتمع المصرى خلال هـــذه المرحلة . اذ نجد فى أوراق الثورة العرابية محاضر وعرائض وقعها أو بصم عليها شباب الفلاحين أو عمال التراحيل فى مصر الذين كانوا يعملون فى حفر الرياح التوفيقى ، يفوضون بها عراتى للدفاع عن القضية المصرية . قد يقال أن بصماتهم وتوقيعاتهم جمعت عن غير وعى منهم . الرد على ذلك أننا جميعا ندرك مدى حرص الفلاح المصرى على معـــرفة ما يبصم أو يوقع عليـــه ، حتى لا يفقد فى مقابل ذلك أرضه ، وهو الانســـان المرتبط عضويا وتاريخيا بها(٢٤) .

فى ثورة ١٩١٩ كانت هناك تحركات واســـعة وحادة تحمل عبئها شباب الفلاحين . حقيقة أن هناك صعوبات كثيرة أمام — رصدها الا أن ذلك لا يجب أن يكون مدعاة للتجهيل . وشباب الأزهر — أبناء الفلاحين والفقراء — الذين هاجروا سعيا الى المعرفة واجهوا الرصاص بصدورهم زودا عن الوطن وتلبية لداعى النضال . ولا نستطيع الجزم بأن شباب الحضر وعمال الحرف قد غابوا عن المشـــاركة فى هـــذه المرحلة النضالية . بل ان البحث الدقيق سوف يصل الى الوثائق التى تؤكد ذلك .

ويكشف تاريخ الفترة الواقعة بين ثورة ١٩١٩ وأحداث ١٩٤٧/٤٦ عن تميزها بايجابية الشـــباب . فلدينا الأدلة والبراهين التى تؤكد تصدر الشـــباب المصرى لقيادة الحركة الوطنية خلال هـــذه المرحلة ليس فى المجال الدينى أو الســـياسى فقط ، ولكنه اتسع ليشـــمل كافة المجالات الاجتماعية الأخرى . فقد امتدت الايجابية حتى وصلت الى حمل الســـلاح فى مواجهة المستعمر فى شـــكل تنظيمات الكتائب التى برز وجودها فى الفترة الســـابقة على ١٩٥٢ ، لمحاولة اخراج المستعمر بالقوة المســـلحة

وأحيانا كان الرصاص المصرى يتجه الى صدور زعامات استعمارية أو زعامات مصرية متعاونة مع الاستعمار . قد ندين الاغتيال السياسى ، الا أن مقتل السردار فى مصر يجب أن يدرك باعتباره تعبيرا عن ايجابية الشباب لرفض الاحتلال الجاثم على أرض الوطن(٣٥) .

قد يرى البعض أن وجود الاحتلال الكائن فى أرض الوطن هو الذى ألهب شعور الشباب وحماسة للنضال ، وهو الوضع الذى كان من المنطقى أن يستثير كبرياء المصريين وفى مقدمتهم الشباب باعتبارهم مرهفى الاحساس . لكن ماذا عن الجمعيات التى شكلها الشباب فى مطلع القرن العشرين لمحو الأمية ؟ فقد تأسست هذه الجماعات باعتبارها تنظيمات مساعدة للحزب الوطنى لمحو الأمية(٣٦) . كان الطالب فى اطارها يكلف تكليفا محددا فى أجازة الصيف بعد الفراغ من الدراسة . أن ينشىء فى قريته جمعية أو مكانا صغيرا يجمع فيه الفلاحين ويعلمهم مبادىء الكتابة والقراءة . بل جند شباب الأعيان أيضا لتوفير الاحتياجات المادية الملائمة لانجاز هذا التكليف(٣٧) .

وفى ١٩٤٦/١٩٤٧ تأسست لجنة الطلبة والعمال . بحيث اعتبرت احدى القيادات البارزة للحركة الوطنية فى هذه المرحلة . حقيقة ان هذه اللجنة لم تعمر طويلا ، وانهارت بسبب الخلافات الداخلية بين الطلبة والعمال حول أسلوب النضال ومنهج التحرك السياسى . الا أنها كانت كلها اختلافات تكتيكية حول استراتيجية رفض اجراءات المؤسسات الحاكمة ، وأسلوب القيام بتحديات كثيرة تتصدى من خلالها لاجراءاتها . ويمكن القول بتنوع الجماعات الشبابية المناضلة خلال هذه المرحلة ، وأيضا تنوع الأهداف التى يستثير النضال من الأهداف السياسية الى العسكرية الى الدينية الى الاجتماعية . بحيث بلغت الموجهة بين الشباب من ناحية والاستعمار والسلطة المتعاونة معه من ناحية أخرى ، ذروتها فى حريق القاهرة سنة ١٩٥١(٣٨) .

ذلك يعنى أن المشاركة الشبابية فيما قبل ١٩٥٢ كانت موجودة وبارزة . مشاركة تخطت حاجز الكلمات الى حمل السلاح واطلاق الرصاص وحتى احراق البيت على ساكنيه والى جانب هذا الاستعداد الايجابى للفداء ، اتسعت المشاركة الى المجال السياسى والى كافة المجالات الاجتماعية والثقافية . وذلك بهدف النهوض الشامل بالمجتمع . ذلك يجعلنا نطرح تساؤلا لابد من الاباحة عليه . ماذا حدث لهذه المشاركة فيما بعد ١٩٥٢ ؟ والذى حول هذه الايجابية الى سلبية أو لنقل حيادة أو لامبالاة لما يحدث فى المجتمع ؟ ما هى العوامل المسئولة عن تغير علاقة الشباب المصرى بمجتمعه فيما بعد هذا التاريخ . الاجابة على ذلك تطرح أمامنا عوامل وظواهر عديدة(٣٩) .

منها أن الثورة المصرية التى قامت فى ١٩٥٢ كانت كأى ثورة فى حاجة الى ايمان . فقد كان للثورة الفرنسية ايمانها ومثلها . وكذلك الثورة البلشفية . وتكمن أهمية الايمان فى كونه يساعد على تأسيس فكر اجتماعى وسياسى متماسك حتى لا يتمزق الفكر الشبابى فى أى اتجاه . ففى أعقاب ثورة ١٩٥٢ لم يتوفر وضوح كاف لمثل هذا الايمان . بل اننا نجد أن الفترة الأولى من عمر الثورة ١٩٥٢ — ١٩٦٠ كانت محاولة دؤوبة للبحث عن هذا الايمان ، ونتيجة لذلك تعددت انتماءات المجتمع بين الانتماء الأفريقى ، العربى والاسلامى والاشتراكى والليبرالى . وقد انعكس ذلك على سلوك البشر وتفاعلاتهم فى المجال الواقعى . ومن ثم افتقد المجتمع امكانية تأسيس النماذج الواجب احتذاؤها هل هى فردية رأسمالية أم جماعية اشتراكية ، أم أنها تنتمى الى التراث والدين والأصالة . وفى ظل ذلك تمعيت القيم والمثل لغياب الايمان الذى تتخلق عنه هذه القيم والمثل . هذا بالاضافة الى عدم تأسيس القنوات الحرة والملائمة والتى يمكن أن تيسر انسياب الفكر الشبابى من خلال الحوار المخلص والصريح لكى يسهم فى امكانية تخلق ايمان يقود المسيرة(٤٠) .

بالاضافة الى ذلك وابتداء من ١٩٥٢ بدأ التخطيط للشباب والعمل

الشـــبابى يأخذ شـــكل الوصاية . بل امتدت هـــذه الوصاية أحيانا لتشمل المجتمع المصرى بأكمله ، وفى جو الوصاية هـــذه ، رفضت المشـــاركة كفكرة أساسية . وهو رفض مازلنا نعانى منه حتى الآن . ولقد أدى رفض الوصاية ورفض امكانية المشـــاركة ، وهدم قيم المجتمع القديم دون تأسيس فعال لسياق قيمى فعال يقود مسيرة التنمية فى مجتمع الثورة الى تخلق نوع من الفراغ ، الذى انصرف الشـــباب فى اطاره الى عديد من التنظيمات اليسارية واليمينية ، وحتى الجماعات الرافضة لكل ذلك باعتباره تغريب وعلمانية والعائدة الى الدين فى أصوله النقية . فى اطار هـــذا الفراغ برزت فجوتان : الأولى تتعلق بافتقاد القدوة والمثال . وتكمن الثانية فى الفارق بين ما يقال وما يمارس . ومن ثم ، فقد كان من نتيجة ذلك انتقال الشـــباب المصرى من مرحلة المشـــاركة الفعالة والقيـــادة الرائدة التى حدثت قبل ١٩٥٢ ، الى مرحلة السلبية والهجرة سواء كانت مادية جغرافية أو معنوية سيكلوجية . يعيش فى اطارها الشـــباب غريبا عن واقعة فاقدا الانتماء له . اذا فقد جاءت مرحلة الســـلبية فيما بعد ١٩٥٢ اثر مرحلة الايجابية البارزة التى سادت قبل ١٩٥٢ . بحيث مهد ذلك المناخ لمرحلة من الرفض بأشكاله العديدة ، سواء كان رفضا شبابيا من الداخل حيث الأقدام على تراب الوطن حتى ولو كان التعذيب والقهر هو رد الفعـــل المقابل . أو كان هروبا من المجتمع الى خارجه ، حيث تحولت البيئة المصرية لأول مرة فى التاريخ الى بيئة طارده . وأصبحنا نجد المصرى — الذى يؤكد عنه التراث أنه محب لوطنه متمسك به — مهاجرا الى حيث عالم بلا وطن بعيدا عن القهر . وقد استهلكت هـــذه الفترة حقبتى الستينات والسبعينات ومع بداية الثمانينات تحول الرفض الى العنف المســـلح الذى أطلق الرصاص تحت واطأة القهر والاثارة . والسؤال الذى نطرحه : لمـــاذا حدث كل ذلك ؟

البحث عن اجابة لهذا السؤال يكشف أن المجتمع المصرى قد تعرض فى أعقاب ١٩٥٢ لمجموعة من الأحداث والظواهر التى هزت توازنه من أساسه . ففى ١٩٥٢ صدرت قوانين الاصلاح الزراعى والتى كان تعنى

شـــكلا ومضمونا التبشير بمنطق ايديولوجى جديد . وفى هـــذا الاطار ضربت قوى الاقطاعيين وحررت قوى الفلاحين المعدمين ، وفى ١٩٥٤ احسمت الثورة اتجاهها العلمـــانى مؤكدين ان الدين تحت الدولة واستوجب ذلك ضرب الجماعات الدينيـــة . واستمر الحال على هـــذا النحو حتى ١٩٦١ ، وخلال الفترة الســـابقة لم تمتلك الثورة ايمانا ايديولوجيا واضـــحا ومحدداً . وفى ١٩٦١ صدرت مجموعة قرارات التأميم التى أكدت المنطلقات الســـابقة وسارت شوطا فى تعميقها ، بحيث شهدت هـــذه المرحلة انتقالا واضحاً ومحددا نحـــو المنطلقات الاشـــتراكية . حيث أدت هـــذه المنطلقات الى اعادة ترتيب التوازن فى الحضر مثلما أعادت قوانين ١٩٥٢ وما بعدها ترتيب التوازن فى الريف ، غير أن ذلك أضر بمصالح جماعات ومنح أخرى مصالح جديدة عليهـــا . وبرغم وضوح التوجه الايديولوجى ، ان أن هـــذا التوجه اقتصر على الصـــفوة الحاكمة لعـــدم امتلاكها الوســـائل التى من خـــلال يمكن تربية الجماهير اشتراكيا ، هـــذا الى جانب أن النظام الســـياسى بدأ يدرك أنه ينبغى أن يكون قويا فى مواجهـــة القوى المتربصة فى الداخل والخارج ، وهو الاعتقاد الذى شكل أرضية لممارسات من القهر والكبـــت والدكتاتورية وأبعاد الجماهير عن المشاركة . وهناك قول صريح حاول أن يصور هذه المرحلة حينما ذهب (الى ان بمصر اشتراكية بلا اشتراكيون)(٤١).

وفى ١٩٦٧ واجه المجتمع المصرى هزيمة عسكرية ساحقة لم تظهر فقط ضعف العســـكرية ولكنها أظهرت أيضا عجز هـــذا النظام فى مواجهة تحديات التنمية وتحديات التدخل فى شـــئونه . ولقد كان لهذه الهزيمة آثارها التى انتشرت فى كل الأرجاء . بل ان هناك مفكرون يؤكدون ان الآثار النفسية لحرب ١٩٦٧ سوف تســـتمر لسنوات كثيرة قادمة . حيث أدت الهزيمة ومحاولة البناء العســـكرى من جديد الى تواجد الشباب المثقف بكثافة داخل القوات المســـلحة ، تخرجوا من كليات الطب ، والآداب ، والتجارة والهندسة وارسلوا الى الجبهة مباشرة دون ان يمارسوا مهنتهم أو يتعرفوا عليها لفترة كافية، فقدوا خلال هذه المدة تخصصاتهم واستقرارهم، وهى الحالة التى سوف يكون لها آثارها الكثيرة والمتنوعة(٤٢) .

ثم جاءت الفترة بين ١٩٦٨ — ١٩٧٣ لتفرض آثار الهزيمة والاستعداد للمعركة كعامل جديد فى الموقف الاجتماعى . فقد كانت القضية الأساسية خلال هـذه الفترة هى تحرير الأرض . غير أنه خلال هـذه المرحلة وقعت احداث جسام ، فقد مات الزعيم الذى شكل الهاما لفترة تاريخية كاملة ، وأدرك الشباب أن المثال قد مات وماتت معه نضالات وأحلام فترة تاريخية كاملة ، وأنهم على أبواب عهد جديد أو لنقل على أبواب المجهول . وعلى عتبة المجهول تربصت القوى الاجتماعية لبعض ، كل تعيد حساباتها من جديد تأهبا لما هو قادم . وبدأ النظام السياسى يغير هويته ، يصبح ليبراليا بعد أن كان اشتراكيا ! وتحول الشباب الطلائع الاشتراكيون ليجدوا أن صيغة الحزب الواحد قد تحول الى أجنحة ثم الى أحزاب ذات توجهات أيديولوجية متباينة(٤٢) . وبدأ نقد الاشتراكية والناصرية والترحيب بالانفتاح والرأسمالية فى الخطب العامة ، وفى ١٥ مايو تم القضاء على آخر رموز النظام الاشتراكى ، واستقبلت زعامة النظام رواد الاستثمار ورجال الانفتاح . وأدرك الشباب أن النظام السياسى على وشك أن يفقد ايمانه القديم وأنه يستهل الاعتقاد فى ايمان جديد . ولقد زاد من درامية الموقف اعلانات النظام السياسى خلال هـذه المرحلة بنية الحرب بينما لا يرى الشباب مبررا للتقاعس عنها بحيث كان ذلك مبررا لتوترات وتظاهرات وعنف منتشر .

وفى الفترة من ١٩٧٣ وحتى ١٩٧٧ . قام النظام بحربه الناجحة لتحرير التراب الوطنى . غير أنه برغم هـذا الانجاز الهائل قدم عناصر توتر جديدة . فقد فتح الباب على مصراعيه أمام القطاع الخاص ورواد الانفتاح ، وليولى عصر الاشتراكية الى غير رجعة . بالاضافة الى ذلك بدأ النظام يغازل التيار الدينى بل ويجعله أصلا لبعض شرعيته وظهرت القاب (الرئيس المؤمن) وأخبار عن (الخلوة) فى وادى الراحة وغيرها . وكان النظام بذلك يحاول ضرب الجماعات المناوئة له والتى حاولت انتقاص شرعيته . وانتشرت (البوتيكات) والسلع الاستهلاكية المثيرة ، والتى استفزت كثيراً فقر الفقراء . وبدأت الدولة تتخلى تدريجيا عن التزامات اشتراكية لكنها بغض النظر عن

ذلك كانت ذات طابع جماهيرى ، بدأ الحديث عن عـــدم الانتزام بتعيين الخريجين ، وعن رفع الدعم عن طعـــام الفقراء وعن الجامعة الأهليـــة . وأثارت كل هـــذه التطورات مشاعر الشـــباب فهم المستهلكون أو المثارون بسلع الاستهلاك ، هم أعضـــاء الجماعات الدينيـــة التى يؤيدها النظام أو الجماعات اليسارية التى يبغضها النظام هم الذين أباحت لهم الاشتراكية مجانية التعليم ، وهم الذين التزمت الدولة أمامهم بتوفير فرص العمل . وأدرك الشباب أن الرمال بدأت تنساب من تحت أقدامهم . ومن ثم لابد من الرفض أو الهروب أو الاثنين ، وقد كان .

وابتداء من ١٩٧٧ وحتى ١٩٨١ وقعت أحداث جديدة اكتوى الشباب بنارها . فقد انتشر سرطان الانفتاح الاســـتهلاكى وظهرت سريعا القطط الســـمان (والأرانب) وتغيرت لغة الحيـــاة اليومية . وظهرت مســـاكن التملك ، وتأزمت مشـــكلة الاســـكان والمواصلات والدخل ، وفى قلب هذا الألم المحيط يعلن النظام الســـياسى زيارة القدس تمهيداً للصلح مع اسرائيل فى كامب ديفيد . وادرك الشـــباب أنه أمام صورة معكوسة ، كنا اشتراكيون فأصبحنا انفتاحيون . كنا حلفاء للقوى الاشتراكية فأصبحنا هوامش للمراكز الراسمالية كنا ندعم القطاع العام فأصبحنا نعرضه بضاعة لمن يشترى فى الســـوق . يرفع النظام الســـياسى صوته بالاســـلام والدين كأســـاس للشرعية ، بينما الرذيلة تنمو مستشرقة فى شارع الهرم . وأدرك الشباب أنه أمام خدعة كبرى ، ولقد كان المتدينون — حلفاء النظام — هم أول من اكتوت مشاعرهم وأجسادهم بناره . وكنا بذلك أمام تمزق جديد . يتصارع فيه الكل مع الكل ، حالة شبيهة بحالة الفوضى الهوبزية . الى أن دوت طلقات الرصاص تعلن عن العنف الناتج عن التمزق(٤٤) .

لا شك أن هـــذا القدر من التحولات التى وقعت فى اطار المجتمع المصرى تحتاج الى انســـان حديدى قادر على استيعاب كل هـــذه التنقلات الاجتماعية الكبيرة دون أن يحدث له توتر أو قلق . والى حد كبير ، فقد أدت هـــذه التحـــولات الى تأسيس نوع من التسيب الأيديولوجى والثقـــافى

والاجتماعى والاقتصادى الذى أدى فى النهاية الى اهتزاز ملامح الشخصية الشـــابة ، وظهرت تساؤلات : من نحن ؟ والى أين نسير ؟ هل نحن عرب أو مســـلمين أفارقة ؟ هل نتبع منطقيا اشتراكيا أو رأسماليا ؟ هل نضع أنفسنا مع القوى الاشتراكية أم القوى الرأسمالية ، ما هى طبيعة علاقتنا باسرائيل هل نحن أمام تحالف جديد أم عداء بعد هدنة ؟ قد تكون هناك اجابات توفيقية لذلك . أننا عرب ومسلمون ، وأفارقه ، وأننا رأسماليون لكن لا يمنع أن نرفع شعارات الديموقراطية والحرية والعدالة الاجتماعية . أننا نؤيد القطاع الخاص والعام معا . بيد أن ذلك لا يحل المشــكلة ، ففى تحديد هوية الانســـان لذاته لابد وأن يؤسس نوعاً من الأولويات التى تســـتند اليها الشخصية . واذا لم يتمكن من تحقيـــق ذلك ، فانه عادة ما يشعر فى داخله بالتمزق ، ويكون لذلك تجلياته ومظاهرة العديدة فى اطار الشخصية والسياق الاجتماعى على السواء .

كيف السبيل اذا ؟ كيف الخلاص من احتمالات التمزق ؟ الاجابة أننا نحتاج فى هذا الاطار الى وجود فكرى ونحتاج الى اطار واضح ومحدد المعالم يتمثل فى تأسيس المجتمع الذى يمتلك القيم التى يعتقد أنها قادرة على قيادة المسيرة التنموية ، يصونها ويدافع عنها . هـــذه القيم التى ارتضاها المجتمع لابد وأن يستوعبها الشـــباب بعد أن يشـــارك بالحوار والتعبير الصريح فى خلقها . فذلك يحميه من الحيـــاة فى مناخ من البلبلة التى قد تســـلمه الى اختيارات متطرفة غير ملائمة لتحقيق ذلك . ولكونها لا تتفق مع مصالح المجتمع وسيرته ، والمجتمع هنا ليس هو السلطة . فليس هناك دفاع عن قيم السلطة . ولا يجب أن يكون هناك وجود لقيم السلطة منفصلة عن قيم المجتمع . ما طرح فى الفترات الســـابقة كان قيم السلطة أما قيم المجتمع فيجب أن تتأسس فى مرحلة التنمية من خلال تطوير تراثه الذى يتفاعل مع ما تفرضه المعاصرة من متغيرات .

اذا لم يتحقق ذلك فسوف تواجهنا اختيارات وتمزقات قاتلة . أبسطها ما يمكن أن نسميه بالجماعات الأيديولوجية الهاربة من قيم النظام الى حيث

أيديولوجيات التحديث المتعددة أو الى الدين والأصالة والتراث . أو تكاثر تنظيمات الانحراف والجريمة . لابد أن ننظر فى هــذا الاطار الى الجماعات اليسارية أو الدينية باعتبارها اتجهت الى الماركسية أو الدين لأنها لم تنشأ على ايمان أيديولوجى محدد . ولأنها تفتقد ذلك فقد اتجهت الى الدين أو الماركسية باعتبارها الاطارات التى يمكن أن تنتقد الواقع بمشاكله وظروفه بالنظر فيها . بل ان ذلك يعتبر شاهدا على عــدم قدرتها على السير فى الحياة اليومية وعجزها عن تحمل أعبائها من خلال منطقه وتوجهاته . وفى النهــاية فان هــذا البحث عن اطارات أيديولوجية أخرى ، هو اندفاع اليها فى أصولها المثالية ، والمثالية تحتاج الى جهد كبير حتى تكون قادرة على مواجهة مشكلات الواقع . والا اعتبر ذلك هروبا من واقع حياتنا المتفاعل والمنظور .

تكشف النظرة المتفحصة لهذه المسيرة التاريخية عن بروز مجموعة من الملامح الأساسية .

١ ــ أولها افتقاد النظام السيــاسى لامتلاك توجه أيديولوجى واضح ومحدد المعالم ، وله استمراره التاريخى حتى وان امتلك فى بعض الفترات بداية للاعتقاد الأيديولوجى فانه لم يمتلك الوسائل التى يمكن بالنظر اليها تنشــئة الشباب فى المجتمع حسب قيم النظام وتوجهاته الأيديولوجية .

٢ ــ الانفصال بين قيم النظام السيــاسى وقيم المجتمع واذا كان النظام السيــاسى قد غير كثيرا توجهاته القيمية والأيديولوجية فى مواجهة ثبات المجتمع . فقد ظلت الأخيرة قوية ولها سيطرتها على الأفراد وخاصــة الشباب فى المجتمع ، ولمــا كان الدين يمثل مكانة جوهرية بالنسبة لقيم المجتمع ، فان الهروب فى معظم لحظات التاريخ كان نحو قيم الدين التى هى قيم المجتمع(٤٥) .

٣ ــ بالنسبة للشباب المصرى هناك تحول من الايجابية التى تتجلى فى العمل على ترقية الواقع الاجتماعى أو النضال ضد القوى السيــاسية الى

الســـلبية حيث الانسحاب من الســـياسة والاقتصاد والمجتمع . بيد أن هـــذا الانسحاب لم يكن سوى مقدمة لايجابية أكثر عنفا وتحررا مما ساد فى المرحلة الأولى .

٤ — أنه لكى نحافظ على ايجابية الشـــباب وارتباطهم بالنظام الاجتماعى فلابد أن يمتلك النظام الســـياسى ايمانا ، وأن يكون هـــذا الايمان استمرارا لأفضل عناصر التراث والأصالة قدرة على التجدد والفاعلية ، ولأكثر متغيرات التحديث ملائمة لقيادة تقدم المجتمع ودفعة بعيدا عن التمزق . بيد أنه من الضرورى اذا تشكل هـــذا التوجه الأيديولوجية أن تشيد المؤسسات التى تتولى تدريب الأفراد على قيم التوجه الأيديولوجى الجديد التى هى قيم النظام وهى فى نفس الوقت قيم المجتمع .

(ب) الثقافة والقيم ، معضلات الشباب فى اطارها :

تتضح الأهمية الجوهرية لقيم الثقافة والأيديولوجيا من تصورنا لطبيعة الأقســـام الأساسية التى تشـــكل — تصوريا — العناصر الأساسية لبنـــاء المجتمع . وفى هـــذا الاطار نجد أن هـــذا البناء ينقسم الى نسق الثقافة والقيم والنسق الاجتماعى ونسق الشخصية . وعادة ما تترابط هـــذه الأنســـاق عضويا فى اطار الســـياق الواقعى . ومن ثم فالتغير فى احداها لابد أن تنعكس آثاره على الأنســـاق الأخرى . غير أن هـــذه المقولة لا يمكن قبولها على اطلاقها . فهناك فارق بين التغير الذى يحدث منبثقا عن نسق الثقافة والقيم ، وبين التغير الذى يحدث فى أى من الأنســـاق الاجتماعية الأخرى . فالتغير فى الأنســـاق الثقافية ، فى قيم وأيديولوجيا المجتمع ، تكون له فى العادة آثاره على كل أجزاء بناء المجتمع . وذلك لطبيعة التحكم السبرنطيبقى الذى تمارسه الثقافة بالنسبة لأجزاء البناء الاجتماعى الاخرى ومن ثم فالتغيير فيها لا يمكن تحييد آثاره . بينما من الممكن تحييد التغييرات التى قد تنبثق من اجزاء البناء الأخرى حتى لا تؤدى الى تغييرات جذرية شـــاملة(٤٦) .

وتنبثق قوة الثقافة والقيم كعنصر فى البناء الاجتماعى من خلال بعدين الأول أنها تعتبر نتاجا مباشرا للتفاعل الذى حدث بين عناصر الواقع الاجتماعى، ومن ثم فهى تعتبر انعكاساً مجردا لهذا الواقع ، وان كانت نتاجه الا أنها تتحول لكى تتولى ضبط تفاعله ، والثانى أن الثقافة ليست انعكاسا مباشراً فقط ولكنها تتضمن بداخلها بعدا تاريخيا ، فهى امتداد من ناحية أخرى لتراث ثقافى سابق ، وهــذا الذى يكسبها اســتقلالا عن الواقع وان كانت فى بعض جوانبها مجردة عنه (٤٧) . وتحتوى الثقافة بداخلها على مجموعة القيم التى يمكن أن تؤدى دورها فى المجالات الادراكية والتقويمية والوجدانية . ثم أنها تشتق منها مجموعة المعايير التى تصبح الوســائل الواقعية والملموسة القادرة على توجيه الســلوك على المستوى الاجتماعى والفردى ، ســواء بالنسبة للفرد أو الجماعة .

واذا كانت الثقافة تتكون من القيم التى تشــكل توجها عاما للمجتمع يضبط سلوكه فى اتجاه معين ، فان الأيديولوجيا هى مجموعة القيم والمبادىء والأفكار التى تشــكل فى مجموعها اتجاها عاما يتبناه النظام الاجتماعى والسياسى تجاه قضايا ذات أهمية استراتيجية أو تكتيكية بالنسبة للمجتمع(٤٨) ومن ثم تعتبر الأيديولوجيا أضيق نطاقا من الثقافة اذا نظرنا اليها من منظور تاريخى ، فهى عادة تهتم بالتفاعلات المعاصرة ، وتوجيهها بحيث تسلك مسلكا محددا فى اطار التاريخ المستقبل(٤٩) .

والحالة المثالية هى الحالة التى يحدث فيها تطابقا تاما بين مجموعة المعايير على المستوى الفردى من ناحية ، وبين أيديولوجيا النظام السياسى والاجتماعى من ناحية ثانية ، وبين ثقافة المجتمع وقيمه الناتجة عن التفاعل أو التى تعتبر امتدادا للتراث من ناحية ثالثة . فى هذه الحالة يملك المجتمع إتساقا ثقافيا وقيميا كاملا . بينما اذا حدث انفصال بين المستويات الثلاثة المشار اليها ، أو بين اثنين منها ، فان ذلك سوف يؤدى الى قيام ظواهر

كثيرة ناتجة عن عدم الاتساق هذا . وهى ظواهر تعانى منها كثيراً المجتمعات الانتقالية والنامية ، وقد تجاوزتها أبنية المجتمعات المتقدمة .

وفى دراسة موقف الشباب من البنية القيمية والثقافية للمجتمع نجد أن ثورات الشباب بذاتها قد حدثت كجزء من التغيرات الثقافية الشاملة التى انتابت مجتمعات النظام العالمى . ويعتبر التغير الذى يتمثل فى انتقال المجتمعات من التأكيد على ابداع القيم الجماعية التى تتجه من خلالها الى المستقبل وتشارك فيها الى التأكيد على الصياغة النظامية institutionalization واستيعاب هذه القيم من أكثر التغيرات التى واجهتها أغلب مجتمعات النظام العالمى . ويرتبط هذا التغير فى التأكيد بقوة على تغير هام آخر يتمثل فى تغير نمط الاحتجاج القائم فى المجتمعات الحديثة . وهنا ، وكما حدث فى حالات كثيرة ، حينما يتم استيعاب الأهداف والتوجهات التى تم ابداعها كارزميا ، وتصاغ نظاميا (من خلال الاستقلال السياسى ، وتوسيع نطاق المشاركة السياسية ، والتغيرات الثورية للنظم أو تأسيس سياسات دولة الرفاهية ، وما أشبه ذلك) ، فان ذلك يؤدى الى ظهور عمليات جديدة من التغير ، والى سلسلة جديدة من التوترات والمشكلات ، والى بؤرة جديدة للتمرد والاحتجاج . ومن الضرورى أن نؤكد أن ذلك قد حدث لحركات ومناشط الشباب ، وذلك حينما تمت الصياغة النظامية للقيم والأهداف التى جاهدت هذه الحركات الشبابية لتحقيقها . حيث تم استيعاب هذه القيم والأهداف من خلال الموافقة عليها كجزء من بناء المجتمعات التى ظهرت فيها هذه الحركات . وقد حدث ذلك فى معظم المجتمعات الحديثة . فمثلا تمت الصياغة النظامية الكاملة لحركات الشباب فى روسيا من خلال تنظيم الكومسمول komsomol . وقد حدثت الصياغة النظامية لأيديولوجيات وجماعات الشباب فى كثير من الأقطار الأوربية من خلال الارتباط بالأحزاب السياسية ، هذا الى جانب الموافقة عليها كجزء من النظام التعليمى . وفى الولايات المتحدة ، تمت الموافقة على تنظيمات كثيرة باعتبارها تمثل جانبا هاما فى حياة المجتمع المحلى ، والى حد ما ، تعتبر المشاركة فيها

رمزا لتباين المكانة الاجتماعية . وقد أصبحت حركات الشـــباب المنظمة فى ظل كل من آسيا وأفريقيا مكونا أساسيا فى التنظيمات التعليمية الرسمية(٥٠) .

وقد أدت عمليات الصياغة النظامية المتعددة هــذه والتى استهدفت استيعاب القيم الكارزمية ذات الطابع الجماعى ، الى تغير بؤرة الاحتجاج فى المجتمعات الحديثة بصفة عامة واحتجاج الشباب بصفة خاصـــة . ويضم هــذا النمط الجديد من الاحتجاج أو عــدم الرضاء بداخله أنماطا كثيرة . فبعد أن تأسست المراكز الاجتماعية الحديثة ، وهى المراكز الأكثر وضوحا واستمرارا ، وهى المراكز التى تتركز حولها ادعاءات ومطالب الجماعات التى مازالت تشـــعر بأنها محرومة من الامتيازات التى تتمتع بها هــذه المراكز ، أو التى تدرك الفوائد النســبية التى تحصل عليها هــذه المراكز . وفى هــذا الصدد ، هناك بعض الاقليات ــ كالجماعات القومية والاثنية فى الأقطـــار الأوربية ، والزنوج فى الولايات المتحـــدة ، وبصفة عامة الجماعات الفقيرة أو التى تنتمى الى الشرائح الدنيا والتى تتجاهلها دولة الرفاهية ــ التى تعتبر مســئولة بصفة أساسية عن حركات الاحتجاج والرفض .

ويعتبر هــذا الاحساس بالصياغة النظامية الناقصة نمطا قويا آخر من الاحتجاج ، وهو النمط الذى بدأ يظهر بعد الاستيعاب المبدئى للمراكز الحديثة .وقد تأسس هــذا النمط بسبب الشـــعور المتنامى بسيطرة وتحكم شاغلى المراكز الثقافية والسياسية . ويتصل هــذا الاحتجاج فى الغالب بالمشكلات المتصلة بهــذه المراكز والناتجة عن تعقيدها . وفى العادة تظهر أنماط جديدة من الاحتجاج الثقافى والاجتماعى فى المراحل المعاصرة لتطور المجتمعات الحديثة . تقوم بها الجماعات غير المحرومة نســـتيا ، والخاضعة للسيطرة نســـبيا ، برغم مشاركة بعض الجماعات المحرومة نســـبيا فيها . وتعبر عن الشك القوى فى المراكز الحديثة أو عدم الالتزام بها . والميل الى لعدم الاستجابة الى المتطلبات الرمزية والنظامية التى تتطلبها هذه المراكز(٥١) .

ويمكن القـول بأن هـذه التغيرات قد ارتبطت بالانهيار الملحوظ للأيديولوجيا بالمعنى التقليدى الذى ساد القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين والتراجع العـام للاهتمام الأيديولوجى والسـياسى التقليدى . ولقد ارتبط هذا الانهيار بدوره بالشـعور المتزايد بالفراغ الثقافى والروحى ، والذى يعنى أن المكاسب الاقتصادية والاجتماعية التى تم الحصـول عليها من دولة الرفاهية أو من مجتمع الاسـتهلاك خاوية من الناحية الثقـافية والروحية . ولقد تعمق هـذا الميل بحقيقة أن أجيال الشـباب والطلبة الجدد فى الدول الحديثة فى آسـيا وأفريقيا أو فى روسـيا فيما بعد الثـورة وفى دول الرفاهية الأوربية لا يواجهون فقط أباء رجعين ولكنهم يواجهون أيضا ثوارا ناجحين أصبحوا جزءا من المؤسسة الجديدة ، وقد تمكنوا من خلق واقع اجتماعى جديد على الشـباب أن يواجهه ، وهو الواقع الذى يظهر بوضوح كل خصائص المؤسسة البيروقراطية ولكنه يقدم نفسـه فى ذات الوقت باعتباره يتضمن القيم الروحية والجماعية الثورية . ولقد تدعم هـذا الاتجاه أيضا بواسطة أضعاف البعد الأيديولوجى للحرب الباردة ، ثم افتقاد الرموز والصور السلبية نتيجة لذلك(٥٢) .

ويعتبر موقف النظام الاجتماعى والسـياسى فى مواجهة مشـاركة الشـباب وأمكانيتهم على الابداع الثقافى أحـد مواطن الصدام بين الشـباب والمجتمع على سـاحة الثقافة والقيم . ويتضح ذلك اذا نحن استكشفنا طبيعة العلاقة القائمة بين تحـديد جماعات العمر المتباينة من ناحية وبين امكانيات الابداع الثقافى والاجتماعى من ناحية أخرى . فقد أصبح معتادا أن ينظر المجتمع الآن للشـباب باعتبارهم مرحلة تحضيرية أو اعدادية تسـهم فى النهاية الى المشاركة الخلاقة فى الحيـاة الاجتماعية والثقافية للمجتمع(٥٣) . وعلى هـذا المستوى من التفاعل الثقافى يواجه الشـباب احباطات كثيرة . هـذه الاحباطات ناتجة عن الفجوة بين ما تفرسه العائلة والنظام التعليمى من امكانيات وقدرات على المشاركة فى الابداع الثقـافى من ناحية وبين مسموحات النظام السياسى من ناحية أخرى ، حيث تؤدى اتساع الفجوة

بين العنصرين الى تخلق تربة ملائمة لنمو مشاعر الاحباط وعدم الرضاء بين جماعة الشباب(٥٤) . ومن ناحية أخرى فان الابداع الثقافى يكون عادة وليد القدرة على الابتكار والفاعلية وهى القدرة التى يمتلكها عادة الشباب فى مرحلة مبكرة من النضج تختلف عن السن الذى وافق عليها المجتمع كبداية للابداع ـ كسن التخرج من الجامعة مثلا ـ . وهناك كلما تزايدت الفجوة بين النضج الحقيقى على المستوى الفردى ، والنضج الاجتماعى كما يعترف به المجتمع ، فان المساحة تتخلق للشعور بالاحباط والتوتر وعدم الرضا أيضا .

ويتصل ظهور حركات الشـــباب فى المجتمعات المتخلفة أو المتقدمة بطبيعة الانهيار أو التماسك الذى أصاب الثقافة التقليدية . فمثلا يعزى انتشـــار حركات الشـــباب والطلبة فى المجتمات المتخلفـــة الى الانهيار الواضح للثقافة التقليدية ، وهو الذى يعتبر مؤشرا هاما يشـــير الى ثمة تحول مجتمعى هائل يقع داخل هـــذه المجتمعات . وبعبارة أخرى ، فان ظهور الصراع الجيلى الحاد والاضطرابات الجماهيرية للشـــباب الذى يتمتـــع ببعض الامتيازات ، يعتبر مؤشرا لبداية مرحلة معينة من التطور الاجتماعى ، حيث يصل شىء الى نهايته بينما يبدأ شىء جديد . وحينما تصل المرحلة الجديدة ، فانها قد لا تقـــدم المستقبل الذى يتصوره الشـــباب ، وربما نجد ان الشباب الذى دفعت جهوده الى احداث التغيرات الاجتماعية النوعية ، قد لا يلعب دوراً رئيسيا فى تحديد ناتج هـــذه العملية .

واذا كانت هـــذه طبيعة دور الشـــباب فى المجتمعات ذات الثقافة التقليدية ، فاننا نجد أن الشـــباب قد لا يكون لهم هـــذا الدور الفعال فى مجتمع كمجتمع الولايات المتحـــدة . حيث تمكن هـــذا المجتمع بالاضـــافة الى الديموقراطيات الرأسمالية الأخرى من الاستقرار بصورة مبكرة . ومن ثم فلم يكن عليهـــا ضرورة أن تتجاوز الثقافة التقليدية والتنظيم الاقطاعى والاستبداد الســـياسى . وبتعبير ماركسى ، نجد أن هـــذه المجتمعات لامتلاكها برجوازية داخلية قوية لتجسيد روح وممارسات التحديث فاننا نجدها لم

تحتاج للجامعة كنظام يؤدى دوره باعتباره عنصراً رئيسيا لمعارضة الثقافة التقليدية . فالثقافة القائمة فى هـذه المجتمعات كانت ذات طبيعة عقلانية ، وديموقراطية وحديثة حينما بدأت الجامعات تؤدى هـذه الفاعلية الاجتماعية . ونتيجة لذلك ، نجد أن معظم الشـباب فى هـذه المجتمعات محافظون متكاملون تماما مع النظـام القائم ، وستعدون لآداء أدوار الصفوة القائمة بدون أى توتر ، ولا يوجد فى هـذه المجتمعات ثورة جيلية أما الشـباب الذين يشـعرون بأنهم غرباء أو راديكاليون فانهم لا يعبرون عن عـدم رضاهم من خـلال ثورة الشـباب ، ولكن عن طريق الالتحاق بحـركات الاصلاح السـياسى والتجديد الثقافى التى يؤسسها الكبار . وبرغم وجود التوتر وانتشـاره بين الآباء والأبناء ، فمن النادر التعبير عنه من خلال الصراع الاجتماعى والحـركات الجماهيرية . وبدلا من ذلك ، فقد حقق الشـباب استقلالا عن الكبار عن طريق القيام بالاضرابات الخاصـة بهم مثلا ، أو عن طريق الاستفادة من فرص الحراك الجغرافى أو الاجتماعى المتيسر الى درجة كبيرة . وحسبما يفترض لويس فوير Leuis Feuer لقد تميز المجتمع الأمريكى ، تاريخيا ، بالتوازن الجيلى . وبدون شك ، يمكن نسبة هـذا التوازن لحقيقة أن الثقافة الأمريكية ، من الناحية التاريخية ، ينظر اليها باعتبارها تقدمية ، ومفتوحة وحية بسبب اسـهام كل جيل جديد من الشـباب المتعلم . وفى الحقيقة لا ينظر هؤلاء الشـباب الى آبائهم باعتبارهم متخلفين لا أمل فيهم . وهم لا يدركون النظام السـياسى باعتباره قهرى لا يستجيب لهم ولا أمل فيه . وهم لم يجربوا الفجوة الهائلة التى قد تتخلق بين القيم التى اكتسبوها من المنزل أو المدرسة من ناحية وبين تلك التى يعتقد فيها النظام السـياسى والصفوة الحاكمة من ناحية أخرى . وهم لم يجربوا الجمود المهنى ، بل اننا نجدهم بدلا من ذلك يتطلعون الى الحراك الى أعلى . وبنفس القدر الذى يسلمون فى اطاره بالظلم الاجتماعى والفساد السـياسى ، فاننا نجدهم قد مارسـوا وخبروا معارضة الكبار لهـذه الظروف(٥٥) .

ذلك يعنى أنه وان كانت هنـاك مجموعة من الحركات الشبابية التى

برزت كرد فعل لمجموعة من التغيرات الثقافية التى انتابت النظام العالمى . فهناك بالتأكيد اختلافات كبيرة بين طبيعة الظروف الثقافية التى تعيشها البلاد النامية ونظائرها فى البلاد المتقدمة ، وهو الأمر الذى ينعكس على سلوكيات الشباب وموقفهم من النظام الاجتماعى والسياسى القائم . واستنادا الى ذلك نجد أن بناء الثقافة والقيم فى المجتمعات النامية يخضع لتأثير مجموعة من العوامل الداخلية أو تلك التى ترجع الى النظام العالمى ، بحيث تثير فيه هذه العوامل مجموعة من التفاعلات التى لها وطأتها وفاعليتها فى مجال الشباب .

ويعتبر غياب الاستمرارية والاتصال التاريخى أحد العوامل الأساسية لضعف بناء الثقافة والقيم فى المجتمعات النامية . واذا أخذنا المجتمع المصرى مثالا على ذلك ، فسوف نجد أنه قد تعرض لمثل هذه العوامل التى أثرت على تماسكه وفعاليته . فعند قيام ثورة ١٩٥٢ لم يكن المجتمع المصرى قد امتلك جهازا قيميا فعالا قادراً على قيادة التفاعل الواقعى ويمتلك امكانية توجيه سلوكيات النظام السياسى . واذا نظرنا على المستوى الاعتقادى سوف نجد محاولة النظام السياسى خلال هذه الفترة اسناد شرعيته من ناحية الى الدين الاسلامى(٥٦) ومن ناحية أخرى محاولة اصدار بعض القرارات التى تحاول اجراء بعض التعديلات فى بناء الواقع الاجتماعى، والتى تشكل فى ذات الوقت بحثا حثيثا عن منطق أيديولوجى . وفى هذا الاطار يمكن أن ننظر الى قرارات وقوانين الاصلاح الزراعى وتصفية الأحزاب باعتبارها بداية للتحول الاشتراكى واستمرت هذه المرحلة حتى ١٩٥٧ .— وهناك من يفضل تسمية هذه المرحلة بالتنمية من خلال التطور الرأسمالى . ومنذ ١٩٥٦ ، ومرورا بعام ١٩٦١ عام القرارات الاشتراكية نجد أن النظام السياسى قد بدأ تحالفاته الخارجية مع المعسكر الاشتراكى من خلال الارتباط النسبى بالمجتمعات الاشتراكية وتعميق العلاقات معها . وهى التحالفات التى شكلت المظلة لتأكيد ضرورة تأسيس التنمية من خلال التطور الاشتراكى ، وتأكيدا لذلك صدرت مجموعة

التأميمات والقوانين والقرارات الاشتراكية . هـذا الى جانب تعميق الارتباط العربى فى محاولة تفجير الثورة العربية بمساعدة القوى التقدمية فى العالم العربى . وفى ١٩٦٧ واجه النظام السـياسى ضربة قاصمة من قبل قوى الامبريالية العالمية من خـلال هزيمة يونيو . وهى الضربة التى بدأت تدفع الى انتعاش البرجوازية المحليـة ، والى سـفورها بعد ١٩٧١ ، ١٩٧٣ عقب اعلان سياسات الانفتاح الاقتصادى والعودة الى التنمية مرة أخرى من خلال التطور الرأسمالى(٥٧) .

ويتجسد غياب الاتصال التاريخى ، أن معظم الأيديولوجيات التى تبناها النظام السـياسى الحديث منـذ ١٩٢٣ تتميز بمقاطعتها للتراث . وهى المعضلة التى تعانى منها معظم المجتمعات النامية ـ خاصـة المجموعة الحضارية داخل نطاق العالم الثالث ـ فالتاريخ كما ندركه وحده عضوية يسجل حركة المجتمع داخل الزمان والمكان . ومن ثم فمن الضرورى أن يكون هناك دائماً بعضا من المـاضى داخل بناء الحاضر . وأن يكون هناك بحثا للانتقال بأفضل عناصر الحاضر الى قلب المستقبل . وفى المجتمعات النامية نجد أن التاريخ قد حدث بدون هـذا الاتصال العضوى ، فقد تبنت معظم صفواته أيديولوجيات وقيم وثقافات تختلف عن تراثه ان لم تتناقض معه ، ومن ثم فهى لا تتكامل معه عضويا ، ومن ثم وجدنا هـذه المجتمعات تشـهد مصطلحات مثل الثقافة التقليدية والحديثة ، وصراع الجديد مع القـديم ، وما هو غير ذلك ، وهى الظواهر التى لها بالتأكيد تأثيرها على اتجاه الشباب نحـو منظومة الثقافة والقيم أو نحـو الأيديولوجيا التى يرفع شـعاراتها النظام السـياسى(٥٨) .

ويشكل البحث عن انتماء عالمى مشـكلة أساسية تعانى منها مجتمعات العالم الثالث بحيث يساعد ذلك على اضعاف أبنيتها الثقافية والايديولوجية . اذ تعانى مجتمعات العالم الثالث من مشـكلة الهوية والانتماء . بل اننا نجد أن بعضا من هـذه المجتمعات يفتقد امتلاك أى انتماء له جذوره أو دلالاته التاريخية أو المعاصرة ، بينما نجد البعض الآخر يعانى من تعدد الانتماء

الى درجة التناقض . فمثلا بالنسبة للمجتمع المصرى نجد أن هناك مجموعة من الدوائر التى يتعين عليه الانتماء اليها أيديولوجيا . فالى جانب الدائرة العربية ، نجد الدائرة الأفريقية والاسلامية والاشتراكية ، والرأسمالية وعدم الانحياز هذا بخلاف المواطنة ذاتها باعتبارها منطلقا مبدئيا . ولا شك أن الانتماء الى هذه الدوائر كان يفرض الارتباط بمنطلقات أيديولوجية معينة . هذا الى جانب أنه قد يفرض قدراً من التناقض والتوتر فى بعض المراحل التاريخية كالانتماء الاسلامى أو العربى ، الأفريقى ، وهكذا . ونتيجة لذلك احتوى السياق الاجتماعى والثقافى والأيديولوجى لكم من المفاهيم التى قد تتناقض أحيانا ، أو لا تتكامل فى أحيان كثيرة . ومن ثم وجدنا بين أيدينا كما من العناصر الأيديولوجية التى تفتقد أى اطار عضوى يضمها . حتى تصبح قادرة على ضبط المسيرة من خلال التحديد الواضح لمجموعة الأهداف التى يجب أن تشكل موضع الاهتمام على المستوى الفردى والاجتماعى(٥٩) .

ويتمثل المتغير الثالث الذى له تأثيره على البنية الأيديولوجية لمجتمعات العالم الثالث فى افتقاد الايمان أو التوجه الأيديولوجى المبدئى . ذلك أنه من المنطقى أن يكون لكل ثورة ايمانها . فقد كان للثورة الفرنسية ايمانها ، وكان للثورة البلشفية ايمانها أيضا . وتكمن قيمة الايمان المتماسك فى أنه يطرح المثال الواجب احتذاؤه . بل ان هذا الايمان قد يفرض بشكل مبدئى العملية الثورية ذاتها ، ومن ثم فايمان كل ثورة ينبغى أن يكون سابقا عليها وأحيانا قد تحدث الثورة — كالثورة المصرية — ثم تبحث عن ايمانها من خلال الحوار الصريح بين مختلف الجماعات ذات التوجه الأيديولوجى أو المحايدة أيديولوجيا . ولكى ينبثق الفكر والايمان حرا قادرا من على أرضنا ، فان ذلك يمكن أن يحدث لو نوقشت كافة الاتجاهات مناقشة حرة وصريحة بهدف الوصول الى الايمان الذى يساعد على تجسيد المثال المحتذى .

ويتمثل المتغير الرابع الذى يتسبب — وقد تسبب — فى اهتزاز السياق القيمى للمجتمع ، فى التناقض المتعلق بالنماذج الواجب احتذاؤها ، لكى

يحقق الشباب طموحه . اذ نجد أن الشباب فى فترة الاعداد والتكوين عادة ما يستوعبون — من خلال وسائل التنشئة — نموذجاً معينا ، يسير بناء عليه فى المجال الاجتماعى ، أيا كانت طبيعة هذا النموذج ، هل هو النموذج الفردى الاشتراكى ؟ على سبيل المثال التناقض الكائن فى العملية التعليمية ذاته . فمن ناحية نجد أن الهدف البارز أمام التلميذ وأسرته يؤدى الى ضرورة التزاحم مع غيره — بكل وسيلة يمتلكها فى حلبة هذا الصراع — حتى يستطيع الحصول على المجموع الأعلى ، ومن ثم حتى يعثر على الفرص الأكثر ملاءمة . هنا يصبح مباحاً لديه استخدام كافة الأساليب لتحقيق هذا الهدف . فالفرص محدودة وليس هناك المنطق القيمى والأيديولوجى الذى ينظم توزيعها . وفى هذا الصدد لا يختلف كثيراً من يمتلك المال لممارسة الدروس الخاصة عن الذى يقوم بالغش فى الامتحان عن الذى يتبع أساليب توجهها الأخلاق الانتهازية للنجاح فى الامتحان . ومن ناحية فاننا نجد أن مضمون التعليم اشتراكيا يركز على النموذج الاشتراكى . — خاصة فى المرحلة الاشتراكية — وذلك يعنى أن الشخصية الشابة تواجه بعديد من النماذج المتناقضة أثناء حركتها فى المجال الاجتماعى ، وتدرك أن أيا منها لا يتحقق تحققا كاملا . فالنموذج الاشتراكى غير متحقق فى واقع محيط محكوم بندرة الفرص والمنافسة التى أطلق عقالها . ووجود النموذج الفردى خطأ فى مجتمع أعلن المنطلقات الاشتراكية ذات يوم ، ومحكوم بضرورة اشباع حاجات الأغلبية والا تحولت الى اعصار مدمر يجرف كل شىء . وهنا يجد الشاب نفسه أسير الحيرة بين النماذج التى لا يعرف أيهما يستحق أن يحتذى .

وتشكل الخصومة مع التراث والتاريخ متغيرا هاما له تأثيره على الفوضى الأيديولوجية والثقافية التى تعيشها مجتمعات العالم الثالث . فقد أدى جمود التطور الحضارى لهذه المجتمعات — خاصة المجموعة الحضارية منها — الى انهيارها أمام الموجات الاستعمارية التى سلبتها استقلالها . وحينما استقلت هذه المجتمعت خلال عقد الخمسينات واجهت

اختيارا حادا بين التراث الذى مازال جامدا وبين افكار التحديث الغربية التى تخلب انجازاتها الأبصار . والمدهش أن هــذا الاختيار الصعب قد أسلم الى نتيجة متوازنة . فقد اختارت الصفوة العلمانية الليبرالية ، والاشتراكية كتوجهات أيديولوجية تحكم مسار التنمية الاجتماعية ــ الاقتصادية بينما ظلت الجماهير مرتبطة بتراثها تحت وطأة اختيار لا شعورى ، ومن ثم وجدنا ان التنمية والتفاعل يقع داخل الواقع محكوما بتوجهات متباينة للغاية . ومن الطبيعى أن يكون لهــذا التباين تأثيره على الشــباب . فاذا تغرب الشــباب فهو حتما ــ كالشباب الغربى ــ سوف يصطدم بتعقيدات الحضارة الصناعية ، ومن ثم فهو مثله ، سوف يبحث عن البســاطة ، واذا كانت البســاطة مستحيلة أمام الشــباب الغربى الا اذا كانت هروبا من خلال المخدرات والمارجوانا . فان بساطة التراث والاســلام تصبح لها جاذبية خاصة امام الشباب المســلم الذى خضع لعملية تغريب . واذا ظل شرقيا مرتبطا بتراثه، فسوف يكتشف لحظة أزمة التنمية تحت وطأة التغريب ، ومن ثم ســوف يصبح أسير استعادة المــاضى بكل أمجاده . وكلاهما انفصال عن المجتمع القائم وبحث عن النقاء(٦٠) .

بالاضافة الى ذلك فان وســائل استيعاب الثقافة أو الصياغة النظامية institutionalization قد تصاب هى الأخرى بالخلل ، ومن ثم يكون لها تأثيرها الضار على بنية الثقافة والقيم . وسوف نعرض للأسرة ، والتعليم ، والاعلام والعمل كمؤسسات أو وســائل عليها أن تلعب دوراً فى هــذا الاطار .

وتنتاب الأسرة فى المجتمعات الحديثة والنامية تغيرات اساسية جعلت منها بيئة ثانوية وليست اولية بالنسبة لتنشئة الفرد . فبناء الأسرة أصابه الضمور واقتصر على الزوج والزوجة والأولاد ، وخرج من الأسرة ــ الأجداد ــ حاملوا التراث والتقاليد ، وهو ما يعنى اننا منــذ البداية نواجه بضعف الوظيفة الضبطية للأسرة ، وهى الوظيفة التى كانت تتولى غرس البعد الاجتماعى ، أو لنقل تأسيس الانتماء(٦١) ، بطبيعة الحال تصاب الأسرة

من حيث أدائها بالهزال اذا كانت الأم تعمل ، وليس هناك بديل يؤدى ذات الوظيفة بالنسبة للأبناء وتتحول الروابط الأسرية المستندة الى وحدة الدم الى علاقات عابرة تنتهى بعــد فترة من الزمن أقصاها وصــول الأبناء الى مستوى النضج الفسيولوجى ، أو النضج الاجتماعى .. ومن ثم يخرج جيل كامل لم يستوعب من مجتمعه شــيئا ، ومن ثم فروابطه العضوية ضعيفة مع هــذا المجتمع أو على الأقل مع قيمه وثقافته(٦٢) الى جانب ذلك فان هناك فجوة قد تتخلق بين الأسرة كمؤسسة للتنشئة الاجتماعية من ناحية ، وبين المجال الاجتماعى كنطاق لتجريب مضمون التنشئة .. ومن ثم فقد يستوعب الشــاب قيما ، غير أنه يدرك أن هــذه القيم ليست عملة صالحة للتداول فى المجال الاجتماعى .. وفى هــذه الهوة قد يسقط الشــباب ، أثناء محاولة صياغة تطابق بين قيم الأسرة والمجال الاجتماعى ، واذا فشــل الشباب فى هــذا الصدد ، فقد يحدث الانسحاب من المجتمع تجنبا لمعاناة التناقض ، أو التمرد على أيهما بالنظر الى قيم الآخر ، أو ابتكار قيم جديدة قادرة على الأداء والانجاز على المستوى الفردى بغض النظر عن قيم الأسرة أو المجتمع أو هما معا ، وهنا نجد أن الشــباب يفتقد أى التزام اجتماعى(٦٣) .

ويعتبر التعليم هــو الآلية الثانية التى تتولى التنشئة بالنظر الى قيم الثقافة ، غير أن التعليم يعانى هو الآخر من مثالب كثيرة .. منها أن التعليم فى المجتمعات النامية ليس عاماً فهناك مجتمعات تسودها نسبة أمية تصل الى ٩٠٪ ، وهو الأمر الذى يعتبر مؤشراً على مدى فاعلية النظام التعليمى . غير أنه حتى فى هــذه الحدود الضيقة نجد أن التعليم يعانى من ظاهرة الفصام ، ممارسارته غير أيديولوجيته ، فمثلا برغم الشعارات الاشتراكية التى أكدت — فى مرحلة معينة من التاريخ المصرى — على مجانية التعليم والالتزام التعليمى ، نجد انتشــار الدروس الخصوصية وتحيز ميكانيزمات النجاح والانتقاء ، وهو الأمر الذى يخلق تناقضا داخل بناء النظام التعليمى ذاته يعجزه عن أداء مهمته بالمستوى المطلوب ، هل من الممكن ان يصبح مدرس الدروس الخاصــة ، مثالا نقيا من الضرورى تبنيه واحتذاؤه ؟

بالاضافة الى ذلك هناك أحيانا التناقض بين قيم الأسرة وقيم المدرســـة كأحد مجالات الواقع الاجتماعى ، وهو التناقض الذى ســـوف تكون له بالتأكيد آثاره على الشـــباب(٦٤) .

وتعد وســـائل الاعلام أحد المتغيرات التى لها فاعليتها المؤثرة على تماسك البناء القيمى والأيديولوجى لمجتمعات العالم الثالث والعالم الاسلامى . فأحيانا لا يتلاءم المضمون الاعلامى مع الحاجات الواقعية ومتطلباتها ، فمثلا قد يعمل الاعلام بوسائله المختلفة على نقل تيارات وأفكار وصور من الخارج قد لا تتلاءم ونظائرها فى الثقافة المحلية . ومن ثم يتخلق تناقض أو عـــدم تكامل فى لغة الثقافة والقيم داخل المجتمع . أو قد تصبح أدوات الاعلام ذاتها تعمل عشوائيا غير ملتزمة بأى توجيه أيديولوجى ، ومن ثم غير قادرة على تحـــديد المضمون الاعلامى الذى ينبغى نشره ، أو أى وعاء واقعى ينبغى الاتجاه اليه وبأى هدف يكون النشر أو الاتجاه(٦٥) . ونتيجة لذلك قد تحدث ظواهر كثيرة . أولها اســـتيراد قيم اســـتهلاكية تتناقض مع متطلبات عملية التنمية التى يقودها المجتمع . لا يعنى ذلك ادانة الانفتاح الثقافى ، ولكنـــه يعنى بالأســـاس الاســـتيراد غير الواعى الأفلام وتمثيليات قـــد لا تطرح المثال الواجب احتذاؤه بشـــكل ملائم . فمثلا هناك اعتقادات ان أفلام العنف الأمريكية كانت وراء أحداث العنف التى انتشرت فى أمريكا أو فى البلاد التى تولت عرضها ومنها مصر(٦٦) . أو قد يحدث تناقض اعلامى صارخ وواضح مثال على ذلك ما نشاهده فى مصر حينما تعرض أفلام هزلية ومسرحيات هابطة تبث قيما غريبة على مجتمعنا وفى قلب كل ذلك يتوقف الارسال لكى يذيع آذان الصلاة ، وأحاديث الرســـول(٦٧) . وتكون النتيجة بطبيعة الحال هى نشر حالة من الحيرة أى السلوك الذى ينبغى ان نتبع أو المثال الذى يجب أن يحتذى .

وتشكل بيئة العمل أيضا أحدى آليات التنشـــئة الاجتماعية والثقافية ، وتواجهنا هنا أيضا كثيراً من التناقضات الحادة ، فمن ناحية نجد البلاد النامية تعانى من عدم الاتساق بين مخرجات النظام التعليمى ومدخلات النظام المهنى ،

ومن ثم تنتشر حالة من التوتر الناتجة عن عدم الاشباع أو الرضاء المهنى(٦٨) فمن غير المنطقى أن يعمل خريج الفلسفة مديرا لجمعية استهلاكية ، او أن يعمل خريج معهد التكنولوجيا موظفا بخرائط المساحة الخاصة بقرية معينة ، والأمثلة على ذلك كثيرة . بالاضافة الى ذلك نلاحظ فى بعض الأحيان تخلفا فى المعرفة التى يتولى النظام التعليمى تأهيل البشر على اساسها ، بحيث نجد عدم تلاؤم المعرفة التى يتطلبها العمل والمعرفة التى ينشرها النظام التعليمى ، وهو ما يشكل أحد جوانب أزمة الثقافة الادراكية أو المهنية فى المجتمع .

واذا كان من المسلم به ان بناء الثقافة والقيم يتعرض لمثالب كثيرة تؤثر فى فاعليته ، فانه من الطبيعى أن نلاحظ تخلق بعض الظواهر التى تؤثر فى تماسكه نتيجة لذلك .

فنظرا لعدم وجود بناء ثقافى وقيمى يشكل ايمانا يتمسك به المجتمع ، ومن ثم يشتق منه نماذجه . أو نتيجة لضعف هذا البناء الثقافى واحتوائه على كثير من العناصر المتناقضة . فان هذا البناء يصبح ضعيفا وعاجزا عن أن يشكل قدرة ضبطية قادرة على السيطرة على التفاعلات الاجتماعية . هذا بالاضافة الى أن عدم امتلاكه لحدود واضحة يجعله مفتوحا يستقبل أية متغيرات طارئة قد يؤدى الى تناقضات جديدة . ومن ثم انفصال علاقاته العضوية بالسياق الاجتماعى أو بالشخصية الكائنة فى هذا السياق(٦٩) .

وتتمثل الظاهرة الثانية فى تأسس ما يسمى بظاهرة صراع الأجيال . فى اطار ذلك لا يتأسس الصراع حول رفض قيم وتبنى أخرى . ولكنه قد يدور حول بحث الشباب عن النموذج المثالى . هذا النموذج قد يجده فى النظرية الليبرالية أو الاشتراكية . أو قد يحاول البحث عنه فى مجموعة القيم الأساسية الكائنة بالمجتمع ، تلك التى طورتها الأجيال السابقة ، وهو الاتجاه الذى يعرف بالبحث عن التقاء داخل الأصالة والتراث (٧٠) .

ذلك أن ما يعد انحرافا من وجهة نظر الشـيوخ أو المؤسسة الاجتماعية المسيطرة قد لا يكون الا بحثا حثيثا عن النقاء .

وتتعلق الظاهرة الثالثة فى غياب التجانس الأيديولوجى أحيانا بسبب عدم وجود التوجه الأيديولوجى المحدد ، وأحيانا أخرى بسبب عدم المشاركة فى تخليق هـذا التوجه الأيديولوجى أو الحوار الصريح بشأنه . ونتيجة لذلك لا يحدث ارتباط واضح متفق عليـه بهذه الأيديولوجيا (٧١) . ومن شأن ذلك أن يدفع الى الانتماء الى الجماعات الأيديولوجية الهروبية . ويحدث ذلك لاهتزاز البناء الثقافى والقيمى للمجتمع من ناحية مما يجعل روابطه بالأفراد ليست قوية فى مواجهة أيديولوجيات وأنسـاق قيم عديدة يمكن أن تجذبه وتشـكل أساس اعتقاده . بحيث يصبح الارتباط بها هروبا من الاهزاز الذى أصاب تماسك المجتمع . وفى هـذا الاطار قد يكون الارتباط بالجماعات الدينية أو الجماعات ذات التوجه الماركسى ، كلاهما يمثل اتجاها من المثالية التى قد تدعم اتجاهات الشـباب الهارب اليها . قد تحاول أيا من هـذه الجماعات تغيير الواقع المحيط . غير أن ذلك يعتمد على امتلاك القوة التى تمكنها من ذلك . ومن الواضح أن هذا الهروب ليس الا بحثا عن منطلقات أيديولوجية من خـلال مراجعها النقية . فهو هروب الذرات من المركز الفارغ والممزق الى مواضع فى المحيط الممتلىء . ومن ثم فقد تصبح محاولات الشـباب فى هـذا الاطار بحثا عن نسق أيديولوجى متماسك يقود التنمية .

وتشـكل انتشار حالة الأنومى الظاهرة الرابعة فى هـذا الاطار . ونقصد بحالة الأنومى أن ثمة واقعا اجتماعيا لا يسير التفاعل فيه حسب قاعدة . واسـتنادا الى ذلك تصبح الأنانية الفردية هى المعيار الذى يحكم السـلوك الفردى فى المجال الاجتماعى وذلك لانهيار الجانب الاجتماعى فى الانسان ، بسبب ضعف القيم والمعايير المؤسسة لهذا الجانب الاجتماعى(٧٢) . ومن ثم تعلوا المصلحة الخاصـة على المصلحة الاجتماعية ، وتصبح الغاية مبروة للوسيلة(٧٣) . فالغش أفضل الأساليب لاجتياز الامتحان . ويصبح الفسـاد الأخلاقى اطارا يحصل البشر من خلاله على المـال والفرص

ومن ثم ترتفع نسـبة الانحراف والجريمة بين الشـباب . هـذا بالاضافة الى انتشـار مجموعة من الأنماط الاجرامية ، كالعنف والاعتداء على السيدات وارتكاب الجـرائم الجنسـية . هـذا بالاضافة الى انتشـار مجموعة الاتجاهات السـلبية التى لا تبالى بالتفاعل الاجتماعى الكائن فى السـياق الاجتماعى ، وذلك لضعف ارتباط الشخصية به(٧٤) .

ويشـكل ظهور ثقافة الاستهلاك وانتشارها بين الشـباب أحـد الظواهر الهامة فى هـذا الصدد . حيث نلاحظ تأكيداً من قبل الشـباب على الاستهلاك(٧٥) . بيد أن تأكيد الشـباب على الاستهلاك فى المجتمعات المتقدمة يختلف كثيراً عى تأكيد الشـباب على الاستهلاك فى المجتمعات النامية . وهى المجتمعات التى يعيش معظمها عند حد اشباع حاجات الحاضر دون التطرق الى المستقبل . اذ يؤدى افتقاد الأمل فى مستقبل مشرق الى افناء كل شىء فى الحاضر . ومثلما يغيب الانسـان فى عالم دينى صوفى بعيداً عن هـذا العالم ، فانه يشبه ذلك أن يغيب الانسـان أيضا فى عالم المخدرات والجنس المحرر من القيود بعيداً عن تعقيدات المجتمع ، ولا يختلف عن ذلك كثيراً أن يفنى الانسان فى عالم الاستهلاك . واذا كان خلق الانسان ذو البعد الواحد ، هو خلق لانسان عاجز عن النقد . فان ابداع الانسان المستهلك يعنى انسـانا يعيش يومه لاشباع حاجاته فى مستواها الحيوانى .

فاذا كانت هذه هى ظواهر السياق الثقافى وملامحه . واذا كانت هذه مشـكلات الشباب معه . فما هو الحل ؟ كيف الخروج من هـذا الموقف المعضل ؟ الاجابة الوحيدة لذلك تؤكد على ضرورة تأسيس نسق ثقافى فعال وقادر على قيادة التنمية . وتوجيه الأفراد أثناء ذلك بما يحميهم من احتمالات التمزق والانحراف . بيد أن ذلك لابد أن يتم فى ظل مجموعة من الاعتبارات الأساسية .

ويؤكد الاعتبار الأول على ضرورة وجود ثقافة تعد امتدادا للتراث المحلى، تلعب فيها عناصر الدين والتراث دورا محوريا ، وعلى وسـائل الاعلام

وأجهزة التنشئة أن تعمل جادة لاستيعابها فى بناء الشخصية . ونؤكد على عنصر الدين ، باعتبـــاره يلعب دورا أساسيا فى مجتمعاتنا ، ومن ثم فمن الضرورى تطوير هـــذا الدور واستثماره . غير أنه على السياق الاجتماعى — الذى يلعب الدين فى اطاره دورا بارزا — أن يكون قادرا على التفاعل مع قضايا عالمنا المعاصر ويمتلك امكانية استيعاب أفضل عناصره فاعلية . ومن تفاعل الحديث مع القديم سوف نتمكن من تأسيس موقف صلب فى مواجهة الاتجاهات الفكرية الوافدة ، نتفاعل معها على أرضية من الثقة ، تســـمح لنا بتبادل الأخذ والعطاء . على ســـبيل المثال لا يجب أن تتحدد التفسيرات الدينية بمسائل تتعلق بالايمان فى مستوياته الفردية ، وانما يجب أن تتطور هـــذه التفسيرات لتبرز الموقف والمنطق الدينى فى مواجهة قضايا ومشـــكلات معاصرة ذات صيغة اجماعية وانسانية عامة ، ويواجهها كل انســـان فى تفاعلاته اليومية .

ويتعلق الاعتبار الثانى بضرورة توفر نوع من الاتفاق حول حد أدنى من المضمون الثقافى والقيمى . لا نقصد من ذلك ضرورة تأسيس التزام كامل وتام بمنظومة الثقافة والقيم . ولكن ما نقصده حدا أدنى من الاتفاق حول القيم الأساسية بما يشير الى أن هناك اجتماعا انسانيا مستقرا ومتماسكا ومتطورا أيضا . كالاتفاق حـــول القيم المتعلقة بالوطن ، كذلك مجموعة القيم الروحية ، وتلك الخاصة بالقضايا المصرية والهامة . هذا الاتفاق القيمى الذى نبغيه ، لابد وأن يصبح نتاج حوار وصراع بين الأفكار التى تنطلق من مختلف التجمعات الشبابية . والتى تعبر عن طاقة الاتجاهات . وذلك للتصاعد من خـــلال التفاعل بها الى أعلى ، حيث يتوفر الاتفاق النسبى عليها والالتزام بها . فى هـــذه الحالة سوف تصبح قيما اجتماعية ، ذات صلة بالمجتمع ككل . وانما هى قيم أشـــمل منها ، لأنها تتعلق بالاتفاق حول طبيعـــة الاجتماع وأساسياته ، ونجاح ذلك يتحقق اذا توفر تسييس للشباب . لا نعنى التسييس المبتذل . ولكن التسييس الحقيقى الذى يجعل الشباب على وعى واضح بالوسائل والغايات والحركة الرشـــيدة بينهما .

التسيس الذى يكون نتاجا لحوار وابداع على مستوى القاعدة ، وليس نتيجة لاتجاهات تفرضها السـلطة من أعلى ، أو نتيجة لاستعارة أيديولوجية من الخارج غير ملائمة ، ومن ثم غير مستوعبة .

اذا تحقق ذلك سـوف يصبح مؤكدا أن المجتمع يمتلك سياقا ثقافيا وأيديولوجيا متسقا ، ومتماسكا وفعالا وقادراً على تطوير مواقف فكرية فى مواجهة الاتجاهات الأيديولوجية الأخرى . ومن ثم التصدى لها . وسوف يكون فى استطاعة المجتمع تأسيس المثل والنماذج الواجب احتذاؤها ، سوف يكون المجتمع أيضا قادراً على تأسيس بناء معيارى له جوانب الثواب والعقاب التى تفرض احتذاء المثال على المستوى الاجتماعى ، وفى النهاية سوف تصبح الشخصية مؤسسة بجهاز قيمى أيديولوجى تتسق مكوناته مع ما هو كائن فى المجتمع المحيط . ومن ثم يتخلق واقع لا تهرب منه الشخصية ، ولا ترفضه أو تعنف ضده ، وبالتالى لا تثور عليه .

(جـ) الشباب وسياق المجتمع ، علاقات الاتصال والانفصال :

أشرنا فى الفقرة السـابقة الى طبيعة الأنسـاق التى تشكل المكونات الأساسية لبنـاء المجتمع ، وأوضحنا كيف يتحكم نسـق الثقافة والقيم ـــ متضمنا أيديولوجيا النظام السـياسى ـــ من خـلال استيعابه فى بنـاء الشخصية أو تحوله الى مجموعة من المعايير المنتشرة فى مختلف مجالات الواقع الاجتماعى ، فى مختلف التفاعلات الاجتماعية التى تحدث بالواقع .

ويضم النسق الاجتماعى فى اطاره مجموعة من النظم التى تحتوى على الأدوار التى ينبغى أن تؤديها الشخصية بالنظر الى المعايير الثقافية السائدة . واذا كان النظام يتكون من مجموعة من الأدوار والمكانات التى تنطلق منهـا هـذه الأدوار بالاضافة الى المعايير الحاكمة للأداء . فان هـذا النظام يمكن تحـديده بالاضافة الى ذلك باعتبـاره يتكون من مجمـوعة من التجمعات Collectivities التى تتأسس أساساً من مجمـوعة الأدوار المتجانسة

كتجمعات البنوك ، أو مصانع الانتاج أو مؤسسات التوزيع داخل النظام الاقتصـــادى(٧٦) .

واذا كان موضوعنا فى هـــذه الفقرة يتركز على تحديد علاقة الشباب بالســـياق الاجتماعى ، أى بمختلف النظم التى يضمها هذا الســـياق . فاننا نؤكد منـــذ البداية على تباين السياقات الاجتماعية داخل النظم العالمى ، ومن ثم فمن الممكن أن يؤثر ذلك على طبيعة العلاقة بين الشباب وأى من هـــذه السياقات .

فاذا نظرنا الى طبيعـــة السياق الاجتماعى فى المجتمعات المتقدمة فاننا نجد أنها تتميز بعدة خصائص أساسية . أول هـــذه الخصائص . أن هـــذه المجتمعات قد حققت درجـــة عالية من الاستقرار ، وهو الاستقرار الذى يرجع بالأساس الى معدلات النمو الاقتصادى العالية ، والتى شكلت قنطرة لعبورها الى دولة الوفرة والرفاهية . وبهـــذه القدرة الاقتصادية نجد أن هـــذه المجتمعات قد تمكنت من التغلب على الصراعات المحتملة داخل بنياتها الاقتصادية (٧٧) . هـــذا برغم المتاعب المؤقتة التى قد تواجهها هذه المجتمعـــات ، وتتمثل الخاصية الثانيـــة فى درجـــة الصياغة النظامية institutionalization التى خضعت لها الشخصية فى هذه المجتمعات، حتى يمكن القول بأنها لم تخلق الانســـان الأحادى البعد فقط ، ولكنها نجحت أيضا فى خلق الانســـان أسير المجتمع . بحيث زادت درجـــة اعتماد الفرد على المجتمع ، ومن ثم تضاءلت امكانيات الانحراف عن المسار الأساسى للمجتمع ، وهو الأمر الذى انعكس على وحدة المجتمع وتماسكه ومن ثم درجة الاستقرار العالية التى تســـوده . ويشكل بناء الضبط القوى والصارم الذى يمتلكه المجتمع ، والذى يعى الأفراد قوته وبطشه ، الخاصية الثالثة التى تلعب دوراً أساسياً فى استقرار هـــذه المجتمعات(٧٨) وهو الاستقرار الذى يشـــكل الصيغة الأساسية المميزة لها ، حقيقة أن هناك بعض الحركات التى تحدث فى بناء المجتمعات المتقدمة الا أنها تكون من قبيل الحركات التى

تســاعد على تصريف بعض التوترات دون أن تؤثر على الصيغة العــامة لاســتقرارها .

على خلاف ذلك نجد المجتمعات النامية التى تنتفى فيها تقريبا تلك الخصائص التى توفرت للمجتمعات المتقدمة فساعدت على صياغة استقرارها. فلا هى تمتلك وفرة اقتصادية تتيح اشباع الحالات الأساسية للبشر فى اطارها ، ثم هى لا تمتلك بناءا ضبطيا قويا . وتســود التنشئة الاجتماعية فى اطارها فى ظل مؤسسات تنشئة ضعيفة يسودها التناقض . بالاضافة الى ذلك نجد أن أبنية المجمعات النامية تعنى من ثلاثة اعتبرات أساسية : الأول : يتعلق بتعرض السياق الاجتماعى أثناء عمليــة التنمية للآثار التى تنعكس عليه نتيجة للتناقضات والتمزقات التى قد تتواجد فى الســياق الثقافى والقيمى . بحيث ينعكس ذلك فى شــكل تواجد مجموعة من المعايير المتناقضة والضعيفة والعاجزة من حيث امكانياتها الضبطية عن أن تسير التفاعل الاجتماعى وتسيطر عليه . ويتعلق الاعتبار الثانى بالحالة التى تكون عليها عناصر البناء الاجتماعى أثناء عملية التنمية الاجتماعية الاقتصادية . اذا عادة ما تخضع هــذه العناصر لعملية اعادة تشــكيل أو ترتيب لمكوناتها الأساسية ، ومن ثم للمكانات والأدوار التى تشــكل جوهر بناءها . ومن المنطقى أن يقلل ذلك من كفاءتها ، خاصــة اذا أضيف ذلك الى التمزق الوارد فى الاعتبار الأول . بينما يتصل الاعتبار الثالث بموقع المجتمعات النامية من النظام العالمى ، حيث نجد أنها تحتل مكانة مجتمعات الهوامش أو المحيطات — حسبما تذهب أدبيات التبعية — . ومن ثم فهى لا تشــارك بايجابية فى صياغة التفاعلات المؤثرة فى النظام العالمى ، بل نجدها تتلقى تأثيرات حادة واردة اليها من المراكز العالمية المؤثرة أيا كانت طبيعة هــذه التأثيرات ، اقتصادية كموجات التضخم وارتفاع الأســعار أو اجتماعية ككل الحركات التى أقلقت المجتمعات والمؤسسات المستقرة كثورات الشباب ، والتمردات العمــالية ، وحركة المرأة ، أو ثقافية وهى التأثيرات التى تبدأ من موسيقى الجاز وأغانى الهيبز وانتهاء بالســلع الاستهلاكية التى تجسد الجانب المــادى للثقافة .

ولتوضيح الطبيعة المعضلة التى تعيشها المجتمعات النامية سوف نعرض لأهم جوانب البناء الاجتماعى ، ذات الصلة المباشرة بالشـــباب . فى محاولة لتصوير طبيعة التفاعل الكائن بين الطرفين . واستنادا الى ذلك سوف نعرض لمجموعة القضايا التالية :

١ ــ تنشئة الشباب ، دينامياتها الأساسية .

٢ ــ الشباب والأسرة ، وملامح التباين الجيلى .

٣ ــ الشباب والنظام السياسى ، أبعاد التمرد والمعارضة .

٤ ــ النظام التعليمى كاطار لبعث الحركة الشبابية .

٥ ــ الشباب وقضاء وقت الفراغ .

وسوف نعرض بايجاز لكل من هـــذه القضايا السابقة :

١ ــ تنشئة الشباب ، دينامياتها الأساسية :

من المؤكد أن التنشئة الاجتماعية هى العملية تستهدف تأهيل الفرد اجتماعيا عن طريق غرس البعد الاجتماعى فى بنائه . وذلك من خـــلال تزويده بمجموعة القيم التى تقود سلوكه وتوجه حركته فى المجال الاجتماعى. حقيقة أن التنشـــئة الاجتماعية تبدأ من الصفر ، الا أنها تمتد حتى نهـــاية مرحلة الشـــباب ، وتكتسب عملية التنشـــئة فى مرحلة الشـــباب أهمية وطبيعة خاصـــة من حيث عـــدد المؤسسات التى تشارك فيها ، اذ أنه كلما اتجه الفرد الى النضج كلما زاد عـــدد المؤسسات التى تشارك فى تأهيله . هـــذا الى جانب أنها تتميز خلال هـــذه المرحلة بكونها أكثر فاعلية . بالاضافة الى أن الشـــباب يعنى المرحلة التى تتم فيها الممارسة الواعية للحياة وفقـــا لمعايير التنشئة فى مختلف مجالات الحياة الاجتماعية . ومن ثم نجد أن الشـــباب يعايش مرحلة تجريب المعايير التى اكتسبها ، يكشف عن نواقصها التى قد تتبدى له من خلال تجسداتها الواقعية . وهو الأمر

الذى يخلق لدى الشباب حساسية متزايدة نحو مضمون التنشئة الاجتماعية (٧٩) . يؤكد ذلك الحديث الشريف (أوصيكم بالشباب خيرا ، فهم أرق أفئدة ...) . حيث تنشأ حساسيتهم المتزايدة فى جزء منها بسبب أنهم ليسوا على ارتباط قوى بهذه المعايير ، وهو الأمر الذى يبرر بعض مظاهر عنفهم ، اذا هم اكتشفوا أن بعض تجسداتها ذات طبيعة منحرفة . ولتوضيح تنشئة الشباب من حيث دينامياتها ومتضمناتها نرى ضرورة التعويض لثلاثة أبعاد أساسية . الأول يتعلق بمؤسسات التنشئة ، والثانى بمضمون التنشئة الاجتماعية ويتعلق الثالث بالشروط الرئيسية للتنشئة الاجتماعية الملائمة .

وفيما يتعلق بمؤسسات التنشئة الاجتماعية ، نرى أن أكثر مؤسسات التنشئة فعالية فى المجتمعات النامية هى الأسرة والمدرسة والجيش والمؤسسة المهنية ، حيث تتولى كل منها غرس مجموعة محددة من المعايير فى بناء الشخصية .

واذا كانت الأسرة تعتبر احدى المؤسسات الهامة للتنشئة الاجتماعية ، فاننا نعتقد أن لها وضعيتها الخاصة فى المجتمعات النامية . واذا كان الانهيار قد أصاب الأسرة من حيث بنائها ووظائفها فى المجتمعات المتقدمة ، بحيث أدى هذا الانهيار الى انكماش الوظيفة الضبطية للأسرة لصالح اتساع مساحة الحرية الفردية . فاننا نجد أن الأسرة فى مجتمعاتنا — خاصة القطاع الريفى — قوية ومتماسكة بدرجة واضحة ، بل وتمتلك الخلفية التقاليدية التى تتيح لها السيطرة من ناحية وممارسة الوظيفة الضبطية من ناحية أخرى . ومن هذه الناحية نجد أن الاسرة فى المجتمعات النامية ، والشرقية بصفة خاصة ، تشكل عائقا أمام التعبير الحر الصريح . ومن ثم فهى تمهد لقيام صراع الأجيال من ناحية ، ومن ناحية أخرى فانها تعوق بناء الشخصية القادرة على المشاركة الايجابية والفعالة . هذا الى جانب أن الأبوين باعتبارهما الزعامة الأسرية قد يعجزا — بسبب ظروف

بنائية خاصــة بالمجتمعات النامية ـــ عن أن يشكلا المثال الذى ينبغى أن يحتذيه الأبناء فى سلوكياتهم خارج مجال الأسرة (٨٠) .

وحتى تصبح الأسرة فعالة فيما يتعلق تنشئة الشباب فان عليهــا أن تعمل على تدريبهم على أنماط الســلوك الجديدة عليهم . فمثلا عليهــا أن تطور معايير وتقاليد تتعلق بمسألة الاختلاط بين الفتى والفتاة فى مختلف المراحل التعليمية . حتى توفر المناخ النقى والسليم لمثل هــذه القضية . بالاضافة الى ذلك فان على الأسرة أن تعمل على تبصير الشباب باحتمالات التجسد الواقعى المنحرف للنماذج والمثل ، ومن ثم بأنماط الســلوك فى مواجهة هــذا الانحراف . وذلك حتى لا يفاجأ بها الشباب ويتخذوا موقفا متصلبا فى مواجهة مختلف التناقضات والانحرافات . بيد أنه من الضرورى فى اطار ذلك أن تتكامل الأسرة فيما يتعلق بمضمون التنشــئة مع مؤسسات التنشــئة الأخرى حتى لا يحدث أى تناقض بين وظائف هذه المؤسسات(٨١) .

وتعتبر مؤسسات النظام التعليمى ـــ المدارس والجامعة ـــ هى المجموعة الثانية ـــ بعد الأسرة ـــ التى تتــولى تحمل أعباء التنشــئة الاجتماعية . والى جانب أن المدرســة تشكل استمرارا للأسرة فيما يتعلق بغرس مجموعة من القيم والمبــادىء والمعايير الأساسية ، فانها تتــولى تزويده ببعض المعارف الجديدة التى توسع مســاحة العقلانية فى تفكيره . هــذا الى جانب اختلاف طبيعــة التنشئة التى تؤديها المدرســة عن تلك التى تؤديها الأسرة ، فى أن الأولى تؤدى دورها بالنســبة للتنشىء بصورة حيادية بعيدا عن العواطف التى تغلف الآداء الأسرى للتنشئة (٨٢) . واستنادا الى ذلك فان على المؤسسات التعليمية أن تعمل على تلقين ما هو سوى من انماط الســلوك . وعليها أيضا أن تتأكد ان التلقين لم يأخذ شكل التعليمات المحفوظة ، بل وتؤكد على ضرورة استيعاب القيم والأفكار ، التى تؤدى دورها ـــ من داخل دافعية الفــرد ـــ فى توجيه السلوكيات الاجتماعية والفردية . ومن الضرورى أن تركز المدرسة ـــ على الأقل فى مجتمعاتنا ـــ

على تعميق كل ما يتعلق بالتعليم الدينى ، بحيث لا يصبح الدين مادة دراسية على الطالب النجاح أو الرسوب فى مواجهتها . وانما علينا أن نركز على ضرورة استيعاب المضمون الدينى كعناصر تراثية قادرة على التفاعل مع أكثر القضايا عصرية وحيوية . وعلى المدرسة أيضا أن تعمل على تأسيس القدوة فى أكثر مستوياتها مثالية . فالمدرس الذى يهمل تعليم تلاميذه ويوفر جهده لاعطاء الدروس الخاصـــة ، ومن ثم يســـاعد روادها من التلاميذ على النجاح ، يطرح عادة المثال الأنانى الذى لا يرى أى منطق يبرر المصلحة العامة . ومن ثم يســـاعد على انتشـــار ظواهر كثيرة كالغش والخداع والانتهازية وعدم الولاء . وعلى المدرسة أن تعمل على ضرورة تأسيس الاتســـاق بين مضمون التنشئة التى تؤديها ومتطلبات البنـــاء الاجتماعى المحيط ، حتى تترابط معه عضويا من خلال مكانتها ودورها الفعـــال فى نطـــاقه .

ويعتبر الجيش فى المجتمعات النامية من أهم مؤسسات التنشـــئة الاجتماعية . يتأكد ذلك بالنظر الى كونه يعتبر من أكثر وحدات البنـــاء الاجتماعى بروزا وفعالية فى حياتها . فنحن ندرك أنه نظر لأن المجتمعات النامية تعمل جاهدة لنيل استقلالها والمحافظة عليه ، فانها عادة ما تطـــور جيوشها لكى تلعب دورها فى الدفاع عنها . ونظرا لكون الجيوش الحديثة تعتبر مؤسسات تتميز بالتنظيم والحداثة ، فانها عادة ما تكون متقدمة عن سياقها المتخلف أو الذى يجتاز عملية التنمية . من هنا نجد أن الجيوش تلعب دورا أساسيا فى تطـــوير هـــذه المجتمعات . اذ تلتحق بالجيش مجموعات متباينة من حيث أعمارها أو السياقات الجغرافية والحضـــارية والثقافية العديدة التى تنتمى اليها . حيث يصبح على الجيش أن يخلق اجانسا أساسيا بين هـــذه المجموعات المتباينة من خلال فرض استيعابهم لثقافة واحدة . بحيث تؤدى هـــذه العملية الى الارتقاء بما هو أدنى لكى يصبح فى مستوى ما هو أعلى (٨٢) . هـــذا الى جانب أن الجيش يلعب دورا أساسيا بالنسبة للشباب الريفى بصـــفة خاصة . فهو الذى يكسر

محليتهم وانغلاقهم عن طريق تعريضهم لتعلم وادراك أنماط جديدة للحياة اليومية ، أكثر انضباطا ونظامية من حياتهم فى السياقات الريفية التقليدية التى تتميز بالعشوائية ، ثم أن الجيش هو الذى يعلمهم أيضا أن هناك وطنا اشمل من محليتهم الضيقة ، وأن هـــذا الوطن الأشمل كيان يستحق بذل التضحية من أجله ، ويؤدى الجيش دوره التطويرى أيضا من خلال تعريف هـــذه التجمعات الشبابية بثقافة جديدة ، ومعارف جديدة قد تكون ذات طبيعة فنية عســـكرية ، الا أنها تلعب دورا هاما فى هز المعارف التقليدية والقديمة . واستنادا الى ذلك نستطيع التأكيد على أن الجيش كمؤسسة يقوم بدور هام فى عملية التغير الاجتماعى فى البلاد النامية ، ومن ثم تنشئة الشباب على متطلبات هـــذه العملية كخطوة تمهيدية لانجازها . وفى هـــذا الصدد ندرك مدى فاعلية الدور الاجتماعى والثقافى الذى يقوم به الجيش المصرى وبخاصة فى أعقاب عام ١٩٦٧ ، بعد تجنيد الشباب المثقف بشكل مكثف ، وهى العملية التى سوف يكون لها تأثيرها البعيد فى المستقبل .

ويؤدى العمل بمؤسساته المهنية المتعددة دورا هاما فى عملية التنشئة الاجتماعية . والى جانب أن العمل يؤكد على مجموعة القيم والمعايير التى اكتسبتها الشخصية من خلال الأسرة . فان العمل يعتبر هو المجال الذى ينجز السلوك فى اطاره بالنظر الى مجموعة المعارف التى تلقاها الفرد من خلال التنشئة التعليمية . بالاضافة الى ذلك فان مجال العمل هو الذى يتولى بدوره تزويد الفرد ببعض المعارف ذات الطابع التطبيقى والتى تساعد على الانجاز الأمثل للدور . هـــذا الى جانب أنه يعمل على غرس بعض القيم والسلوكيات الجديدة فى بناء شخصية المستخدم ، كالانضباط فى العمل والسلوكيات الجادة ، وطبيعة العلاقة بالرؤساء والمرؤسين ومن هم فى نفس المكانة الوظيفية . ذلك يعنى أن بروز دور العمل كأحد مؤسسات التنشئة يرجع الى أنه يشكل المؤسسة الأخيرة التى تستغرق الوقت الأكبر من عمر الفرد ، ومن ثم فتأثيرها عليه له وطأته .

واســـتنادا الى ذلك ينبغى أن تؤدى المؤسسة المهنية دورها فى

التنشئة من خلال ربط العاملين بالظروف الاجتماعية المحيطة ، وذلك عن طريق مجموعة الخدمات الاجتماعية التى توفرها بعض المؤسسات للعمال كالنوادى ، والرحلات والممارسات الثقافية والاجتماعات العامة التى تضم مختلف الكوادر المهنية ، لمناقشـــة بعض القضايا المتعلقة بالعمل . اذ أن ذلك سوف يفيد كثيرا فى رفع انتاجية الشباب لكونه يعمل على تفريغهم من بعض التوترات التى قد تنتابهم . وأيضا لكونه يربطهم عن وعى بأهداف المؤسسة المهنية والمجتمع على السواء (٨٤) . بيد أنه من الضرورى أن تعمل هـــذه المؤسسات على انبثاق القيادات من قلب قواعدها العمالية ، بحيث لا تتاح الفرصة لتأسيس القيادات المفروضة والمضللة ، حتى لا تصبح هـــذه القيادات عبئا على الشباب العمالى ، وعائقا أمام التعبير الحـــر الموضوعى ودافعا الى الانحراف عنه .

غير أنه قد يحدث عدم اتســـاق فى الآراء بين مختلف المؤسسات المســـئولة عن التنشئة أو المذهبة الثقافية . حيث نجد أن المدارس ووسائل الاعلام ودور العبادة قد تعمل أحيانا على غرس مجموعة من القيم المتناقضة كانكار الذات فى مقابل مجموعة القيم المؤكدة على الذات . والانضباط فى مقابل التســـاهل . والانغماس فى الشهوات فى مقابل التفرغ للنضال . كل ذلك يشـــير الى تناقضات صارخة فى منظومة القيم التى يستوعبها الفرد . ومثال على ذلك نجد أن التليفزيون والاعلام المقروء يعملان على نشر القيم المتعلقة بالمتعة hedonism والاستهلاك التى تدعم أن يعيش الانســـان لذاته . بينما نجد أن المدرســـة ودور العبادة تستمر من ناحية أخرى فى غرس مجموعة القيم الدينيـــة المتعلقة بالعمل لصالح الغير ، والاخلاص والتفانى والتقشف والادخار ، بينما نجد أن النظام الاقتصادى يسعى الى تعميق قيم النظام ، والانضباط وترشـــيد الانفاق على متع المعيشة كأسلوب فى الحياة . وفى حين نجد أن القادة السياسيون يعملون على اعتناق الفضائل القـــديمة نجد أن ثقافة الهيبيز تعمل على الاطاحة بها (٨٥) . ومن الطبيعى أن يؤدى تناقض القيم ـــ التى تعمل بحسبها مختلف

المؤسسات خـلال عملية التنشئة ـ الى اضعاف مضمون التنشئة ، ومن ثم عدم استيعابه بصورة كاملة ، أو رفضه والخروج عليه للبحث عن مضامين قيمية متماسكة تحكم السلوك الاجتماعى ، قد يجدها الفرد من خلال الخضوع لجماعات مضادة للنظام القائم . وقد يتغلب الفرد على هـذه المعضلة عن طريق اعتناق بعض القيم التى تؤكد على المصلحة الخاصة بغض النظر عن طبيعة علاقتها بالمصلحة العامة ، وهو المدخل الى كثير من السلوكيات الانتهازية .

واذا كان مضمون التنشئة الاجتماعية يشكل البعد الثانى فى عملية التنشئة أو جانبها الدينامى . فاننا نعنى بمضمون التنشئة مجموعة القيم والمعايير التى تعمل مؤسسات التنشئة المختلفة على غرسها فى بناء الشخصية الشابة . ومن الناحية النوعية يمكن تصنيف مجموعة القيم والمعايير التى تشكل مضمون التنشئة الى ثلاثة عناصر . مجموعة القيم والمعايير الوجدانية ، وهى التى تساعد الانسان على التعبير عن نفسه عاطفيا تجاه الآخر والارتباط به بأى صورة من الصور ، هـذا الى جانب اتصالها بالجوانب العاطفية والمشاعرية فى حياة الانسان . ويشكل العنصر التقويمى المكون الثانى لمضمون التنشئة ويتعلق هـذا العنصر أساسا بتوجيه الفرد نحـو الاختيار بين البدائل المتاحة لانجاز السلوك أو الفعل . فبالنظر الى معايير هـذا العنصر يستطيع الانسان المفاضلة والموازنة بين مختلف البدائل لاختيار أكثرها كفاءة لاشباع الحاجات الأساسية . ويعتبر العنصر الادراكى هو العنصر الأساسى والأخير بالنسبة لمضمون التنشئة الاجتماعية . وتزود قيم ومعايير هـذا العنصر الفرد بمجموعة من المعارف التى تتيح له اصـدار حكم موضوعى دقيق فى اطار مختلف المواقف التى يتعرض لها (٨٦) . وبطبيعة الحال فان هـذه العناصر المختلفة تضم القيم والمعايير التى لها فاعليتها فى توجيه السلوك على المستويات الفردية والاجتماعية . غير أن هناك بعض المحاذير التى ينبغى مراعاتها فيما يتعلق بمضمون التنشئة الاجتماعية حتى يمكن أن تؤدى فاعليتها على الوجه الأكمل .

فمحذور أن تكون التنشئة متخلفة أو سـلبية أو منحرفة . ومعنى الا تكون متخلفة أن تتعامل مع مفاهيم عصرية تؤهل الشاب أن يكون عقلانيا حتى لا يستسلم للخرافات ، ويفتقد امكانية الحكم الموضوعى الدقيق . ونقصـد بألا تكون التنشئة سـلبية أن تغرس فى قلب النشىء امكانات المغامرة والمخاطرة المحسوبة . ففى المجتمعات الغربية ينشأ الطفل على ضرورة التغلب بمفرده على مشاكله . فيتعلم أن عليه أن يحارب ويكافح ويعمل وينتصر بأسلوب عقلانى . وأن عليه أن لا ينتظر حتى يأتى غيره ليحل له مشـاكله . وذلك عكس ما تبثـه بعض العنـاصر المتخلفـة فى ثقافتنا من الميول التواكلية ، وأن الزمان قادر على حل مشاكلنا دون تدخل ايجابى منا . أما ما نقصده بألا تكون التنشئة منحرفة فيعنى أن تعمل مؤسسات التنشـئة على غرس معايير الصواب والخطأ بشكل واضـح ومحدد . وعليها أن لا تغرس فى النشىء أن الشطارة تكمن فى النجاح فى مغافلة الآخرين ، وأن نصل الى أغراضنا باللف والدوران حولها . وأن نخفى أهدافنا ووسائلنا عن الآخرين بحيث تشكل هـذه الجزئيات خلفية ملائمة لتأسيس ظواهر الحرافية كالغش فى الامتحانات ، وتفشى الخداع والكذب والانتهازية وعدم القدرة على مواجهة الآخرين بالحقائق .

من الضرورى أيضا أن لا يتعرض مضمون التنشـئة الآية تناقضات أو عوامل معوقة . فمثلا يجب أن لا تتناقض الأسرة مع المدرسة من حيث المضـمون الذى غرسـه . فالأسرة التقليـدية قد تسـودها بعض التفاعلات التى تؤثر على النمو الطبيعى للطفل . مثال ذلك ممنوع عليـه أن يجلس ويتحدث مع والده الا وفقـا لقواعد معينة ، ومحرم عليه أن يواجه مشاكله بمفرده ، وعليه أن يسـمع ما يقال وينفذه بدون اعتراض أو مناقشة . ذلك قد يتناقض مع ما تتطلبه الحياة المدرسية من المشاركة الايجابية أو مبدئية التعبير الحر . اذ تؤدى التربية الأسرية هذه الى خضوع الطفل فى الحياة المدرسية ، يحفظ ما هو كائن فى الكتب بدون مناقشـة ولا يستطيع مناقشـة أساتذته فى الجامعة . ومن ثم نجد لدينا خريجين ليسوا سوى نسخ متطابقة . شبابا يدرك تماما أنه عاجز عن المشـاركة

الايجابية لحل مشاكل واقعة المحيط ، وعن مواجهة التناقض الذى قد يتخلق بين ما تؤسسه أجهزة التنشئة كالأسرة والمدرسة والاذاعة والتليفزيون وبين ما هو كائن فى الواقع المحيط . بمعنى أن مضمون التنشـــئة قد يحدث الشباب كثيرا عن الأمانة ، بينما هو يرى الواقع متخما بالغش فى كل مكان . تحدثه القيم عن الفضيلة بينما الفساد والرذيلة ملىء حياته . مثل هـــذه التناقضات تخلق لدى الشباب ما يمكن أن يسمى بالهوة الكائنة بين القول والفعل . ومن شـــأن ذلك أن يؤثر على ارتباطاته بسياقه الاجتماعى ، فيضعفها ويصيبها بالوهن . ويتحول الشـــباب أثناءها الى كائن أنانى ، رافض عنيف ، يضرب فى كل اتجاه . بتوجيه أو بدون توجيه مادام الفساد منتشرا فى كل السياق المحيط به .

بالاضافة الى ذلك فانه لا ينبغى أن تخطىء أدوات التنشئة سياقها الأيكلوجى والاجتماعى . فمرفوض أن تودى دورها من خلال ثقافة ومضامين مجتمعات أخرى . عليها أن تبتعد عن الانفتاح الثقافى غير الرشيد أو غير الواعى . فمثلا تخطىء وسائل الاعلام حينما لا توفر للشباب القيم الصحيحة والملائمة . أو حينما لا تعطيهم قيما لا تتفق مع واقعهم . ليس معنى ذلك أننا ضد الانفتاح الثقـــافى ، ولكننا ضد نقل تجارب وقضايا المجتمعات الأخرى بلا وعى ولا ملائمة . مثال على ذلك ، أن هناك بعض المسرحيات والافلام التى تعرض بعض الاساليب غير الملائمة لمواجهة الشباب لمشاكلهم . فهناك اعتقاد بأن أفلام العنف الأمريكية بوجه خاص تلعب دورا كبيرا فى اشـــاعة بعض مظاهر العنف فى المجتمع الأمريكى أو فى المجتمعات التى تعرض هـــذه الأفلام ومنها مصر .

ذلك ينتقل بنا الى ذكر مجموعة من الشروط التى يحقق توفرها تخلق تنشـــئة اجتماعية قادرة على آداء دورها بفاعلية خـــلال مرحلة التنمية ، وأيضا ذات فاعلية فى ربط الشباب بمجتمعه خلال هـــذه المرحلة بعلاقات ذات طبيعة ايجابية ســـوية . ومن ثم تسهم فى اجتياز المجتمع لها بسهولة وبلا تمزقات أو انهيارات . وسوف نذكر فيما يلى بعضا من هـــذه الشروط .

ويتعلق الشرط الأول بضرورة انطلاق مختلف عمليات التنشـــئة من خلفية أساسية . بمعنى أن تتأسس الأيديولوجيا التى يمكن أن تتم مختلف عمليات التنشئة فى ظلها ، أى أن يكون هناك خط تربوى يعد القاسم المشترك الذى تتجمع حوله بواتق التنشئة المختلفة . بحيث تصبح المعايير المشتقة من هـــذه الأيديولوجيا ذات طبيعة ضبطية ملزمة لكل تفاعلات مختلف مؤسسات التنشئة . يلتزم بها الأباء فى الأسرة ، والمعلمون فى المدرسة والجامعة ، والمجتمع بكافة مجالاته ، وذلك حتى نتمكن من تأسيس الشباب بالشكل الذى نبتغيه والذى يتلاءم بواسطته مع المجتمع . سوف تفيد القيادة الأيديولوجية للتنشئة فى انتقاء التناقضات التى قد تتخلق بين فعـــالية مختلف المؤسسات ، أو بينها جميعـــا وبين التجسدات الواقعية لثلهـــا (٨٧) .

ويتصل الشرط الثانى بضرورة تميز التنشـــئة الاجتماعية بالشمولية والتكامل . وتتحقق الشمولية اذا تمكنت التنشـــئة من تغطية كافة مجالات وفئات الشريحة الشبابية . نقصد من ذلك أن لا تهتم التنشئة فى أى مجـــال من المجالات بطلبة المدارس أو الجامعة فقط ، وانما يجب أن يحدث تعامل مع كافة فئات الشباب ، مع العمال والفلاحين والحرفيين ، لأن هـــذه الفئات الشبابية الأخيرة هى التى تمثل الوعاء الشبابى الحقيقى . أما فيما يتعلق بضرورة تميز التنشـــئة بخاصية التكامل فنقصد بها ضرورة أن تتكامل مضامين مؤسسات التنشـــئة ، بحيث تغطى كافة المراحل العمرية فى كافة المجالات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والصحية التى يتعرض لها الشاب المصرى . بحيث نصل بالشباب من خلال ذلك الى النمط المثالى الذى نريده . ذلك يتحقق بشـــكل ميسر اذا توفر المنطق الأيديولوجى العام الذى تنطلق منه التنشـــئة الاجتماعية بناء ودينامية (٨٨) .

ويتمثل الشرط الثالث فى ضرورة أن تكون التنشـــئة متدرجة ، بمعنى أن تسير فى خط عكسى مع نمو الطفل أو الشاب ، فى اطار ذلك يمكننا أن نتمثل النص السنى الذى يؤكد (لاعب ابنك سبعا ، وأدبه سبعا ، وصاحبه

سبيما ، ثم أترك له الحبل على غاربة) . ذلك يعنى أن يتضاءل نسبيا قدر تدخلنا فى حياته بقدر نضجه وتطوره . ويفرض ذلك ، أن تتخصص مؤسسات التنشئة فى آداء دورها بالنظر الى طبيعة المرحلة التى يمر بها الشباب ، حتى لا يحدث ما يؤدى الى التداخل والخلط . وفى المرحلة العمرية الأخيرة يجب أن يتأسس اتجاه نعمل فى اطاره على الغاء الوحداية المفروضة من الخارج على الشباب ، ومن ثم تترك له حرية صياغة حياته وفقا لارادته . بل ان لفظ رعاية الشباب يجب أن يختفى من اطار تعاملاتنا مع الشباب . ففى مجتمعنا قد يتعلم الشباب ويتخرج وقد يصبح أكثر آداء من الناحية المادية والأدبية من أبيه ، ومع ذلك يظل الآباء يتصرفون بمنطق الوصاية على الشباب . واذا ترك الآباء بعض الحرية لأبنائهم فان ذلك يكون تحت ضغط الظروف أو مراعاة لمصالح أسرية وعائلية . يعنى ذلك ، أنه ليس هناك رضاء كافيا من جانب الشيوخ لكى يمارس الشباب حريتهم وامكاناتهم اثباتا لقدراتهم فى تأكيد هويتهم وصياغة حاضرهم وفقا للمثال المحتذى (٨٩) .

ويؤكد الشرط الرابع على ضرورة التزام مؤسسات التنشئة بالمثال أو النموذج الذى تفرض الأيديولوجيا العامة ضرورة احتذاءه . اذا تحقق ذلك ، فاننا سوف نلغى امكانية تعدد النماذج الواجب احتذاؤها أو احتمالية تناقضها . ذلك أنه اذا تعددت أو تناقضت المثل الواجب احتذاؤها فان ذلك سوف يهدد بنشر حالة من الفوضى يسير فى اطارها الأفراد فى أى اتجاه ، بصورة عشوائية لا نظام فيها ، وفى ذلك تهديد بفشل عملية التنمية ذاتها . أو عدم قدرة المجتمع على تأسيس شباب يرتبط ايجابيا بوطنه ويلتزم بقضاياه (٩٠) .

ويتعلق الشرط الخامس بضرورة التأكيد على عصرية مضمون التنشئة الأيديولوجية المشتقة من نسق الثقافة ذات طبيعة عصرية . أى أن تكون قادرة على تجهيز الشخصية الشابة بمضمون قيمى أو أيديولوجى يرشد

حركتها فى المجال الاجتماعى . بحيث يجعلها قادرة على مواجهة ما قد تطرحه التفاعلات المعاصرة من مشكلات وقضايا . بيد أنه من الضرورى أن يتواكب ذلك مع الاتصال بالتراث من خلال انتقاء عناصره الأكثر قابلية للاحياء والتجديد ، والأكثر قدرة على استيعاب أكثر التفاعلات معاصرة بما يدعم فى النهاية الهوية أو الذاتية المحلية . بحيث يتحول تراث الماضى — من خلال هذه العملية — الى قدرة متجددة تساعد المجتمع والفرد على التقدم .

٢ — الشباب والأسرة ، ملامح التباين الجيلى :

يعتبر النظام الأسرى أحد نظم السياق الاجتماعى الذى لعب دوراً أساسيا فى ظهور المسألة الشبابية كأحد المسائل التى يتمحور حولها قدر كبير من التفاعل القائم فى عالمنا المعاصر ، ذلك لأن النظام الأسرى قد خضع لمجموعة من التغيرات التى تأسست بفاعلية عوامل عديدة مصدرها السياق الاجتماعى ذاته على المستوى العالمى أو المحلى . حيث كان من شأن هذه التغيرات أن تؤثر على الهيكل البنائى للأسرة الحديثة من ناحية ، وعلى آدائها الوظيفى من ناحية أخرى (٩١) . وهى التغيرات التى من شأنها أن تؤثر فى السياق الاجتماعى من خلال تنشئة شريحة من الأبناء الذين يعتبروا نتيجة مباشرة لبناء الأسرة الحديثة وآدائها . بحيث شكل هؤلاء الأبناء جيلا محدد المعالم له رؤيته الخاصة لطبيعة السياق الاجتماعى وتوجهاته الأساسية ولديهم بعض الحلول للمشكلات التى يعانى منها السياق الاجتماعى المحيط .

ولا نستطيع القول بأن هذه التغيرات كانت مقصورة على الأسرة فى المجتمعات المتقدمة ، ذلك لأن تغير البناء الأسرى أصبح صيغة عالمية شاملة . فهناك حركة عامة من التكوينات العائلية الكبيرة والشاملة كالبدنة والعائلة الممتدة والعائلة المركبة الى التكوينات العائلية البسيطة كالأسرة

النووية (*) . بحيث تعكس هـذه الحركة قانونا تطوريا عاما يحكم تغير واستقرار النظام الأسرى (٩٢) . ولكننا نجد أن الأبنية الأسرية فى المجتمعات النامية ذات الطبيعة الانتقالية تخضع هى الأخرى لتغيرات بنائية ووظيفية شـاملة . بحيث يمكن ارجاع هـذه التغيرات الى عوامل ذات تأثير فى البناء الأسرى مصدرها السـياق الاجتماعى للمجتمعات النامية أو الى ذات العوامل التى أثرت فى بناء الأسرة ووظائفها فى المجتمعات المتقدمة .

وفى محاولة تحديد التغير الذى أصاب بناء الأسرة ووظائفها ، ثم تأثير ذلك وعلاقته بحركات الشباب فاننا نرى ضرورة أن يتم التحليل من خلال التعرض للأبعاد التالية :

(ا) عوامل التغير فى بناء الأسرة ككل .

(ب) عوامل التغير فى دور الأم كأحد عناصر بناء الأسرة .

(جـ) عوامل التغير فى دور الأب داخل بناء الأسرة .

(د) آثار التغيرات الأسرية على أجيال الشباب .

وسوف نعرض بايجاز فيما يلى لكل من هـذه الأبعاد الأساسية :

(ا) ففيما يتعلق بعوامل التغير فى بناء الأسرة ككل فاننا نقصد بهـا مجموعة العوامل التى أثرت على مكانة الاسرة داخل بناء المجتمع أو أثرت على آدائها الوظيفى من حيث الاتساع أو الانكماش ، بحيث أدت هـذه التغيرات الى أنتاج آثار كثيرة طبعت نفسـها على بناء الشريحة الشبابية والتفاعل الذى يتم فى اطارها . وفى اطار ذلك نذكر مجموعة العوامل التالية :

— حيث يتمثل أول مجموعة العوامل هـذه فى التطورات البنائية

(*) هناك بعض الدراسات التى تؤكد عودة ظهـور نمط العائلات الكبيرة كالعائلة الممتدة ، كتلك التى بدأت تظهر فى بعض أحياء القـاهرة الشـعبية بسبب وطأة أزمة الاسكان . الا أننا نرفض ذلك باعتباره نتاجا لظرف استثنائى بحت ومؤقت ، ولا يعكس تجسيدا لقانون عام يحكـم بناء وحركة وتفاعل الأشكال الأسرية المتباينة .

والاجتماعية التى وقعت فى السياق الاجتماعى لمجتمع القرن التاسع عشر منهـا (تأسيس الدولة القومية ، وانتشـار فاعلية الثورة الصناعية ، ثم تيارات الهجرة الهائلة داخل القارة الأوربية وداخل النظام العالمى ككل) . حيث أسمت هـذه التطورات فى تقليص بناء الأسرة الحديثة والتقليل من أهمية دورها . بل اننا أصبحنا نلاحظ وقوع مجموعة من التغيرات فى اطار البناء الأسرى عند كل مرحلة جديدة من مراحل التحديث . وهى التغيرات التى تؤدى الى تخلق فجـوة متزايدة بين حياة الأطفـال داخل العائلة أو المدرسـة التقليدية من ناحية وبين العالم الخارجى بمنظوراته الجديدة من ناحية أخرى (٩٢) . وعلى الرغم من ذلك فاننا غالبا ما نلاحظ نوعاً من المبالغة فى القول الذى يذهب الى التأكيد على تضاؤل أهمية الأسرة فى المجتمعات الحديثـة . حيث نجد أن هناك بعض السـياقات الاجتماعية (كالحى) وبعض الطبقات الاجتماعى ، والمجتمعات المحلية ، والسـياقات الريفية) مازالت العائلة القرابية لها تأثيرها الكبير والفعال فى اطارها ، غير أن نطاق هـذا التأثير والعلاقات العائلية محدوداً للغاية فى المجتمعات الحديثة اذا قورنت بالمجتمعات الأقل من حيث مستوى التحديث (٩٤) .

— ويعتبر ظهـور تقسيم العمل الاجتماعى المختلف عن تقسيم العمل العائلى أحد المصادر الرئيسية للتغير فى بناء انتظام الأسرى . حيث صاحب عملية التحديث ، وظهور المجتمعات الصناعية الحديثة ، ظهـور تطور جديد تمثل فى الانبثاق المتكامل لأسلوب جديد لتقسيم العمل فى المجتمع وهو التطور الذى ارتبط باستناد العضوية الكاملة فى المجتمعات الحديثة الى معيار المواطنة ، وهو معيار شـامل لا يرتبط بصـورة ما بالشروط المتعلقـة بالجماعات القرابية أو الاقليمية . وبذلك أصبحت الأسرة فى المجتمعات الحديثة لا تشـكل الوحدة الرئيسية لتقسيم العمل الاجتماعى ليس فقط فى عمليـات الانتـاج والتوزيع ولكن فى عمليـة الاسـتهلاك أيضا . هـذا الى جانب أن الممارسـة المهنيـة لم تعـد تنتقـل من جيـل الى الجيـل الذى يليـه من خـلال ميكانيزم الوراثة . بالاضـافة الى أن الأسرة أو الجماعة القرابية لم تعد تشكل الوحدة الأساسية فى

آداء المناشط الدينية والسياسية . هــذا الى جانب التضاؤل الواضح لمســاحة المناشط العائلية ، وذلك لأن هناك كثيرا من المؤسسات المتخصصة التى ظهــرت وبدأت تؤدى ذات الوظائف الأسرية فى مجــال التعليــم والترفيــه (٩٥) .

— ويعتبر تآكل أو انخفاض كثــافة الروابط القرابية التى تربط الأسرة النووية بسياقها القرابى المحيط أحــد التغيرات الهامة التى انتابت بناء الأسرة فى الطبقة المتوسطة . واذا كان تفكك بناء العائلة الممتدة من التغيرات ذات الآداء الوظيفى الميسر بالنسبة لبنــاء المجتمع الذى يستند أساسا الى التطور التكنولوجى . لأن هــذا البناء من طبيعته أن يطلب من البشر أن يكونوا متحررين نســبيا من الروابط العاطفية والاقتصادية التى تربطهم بأقاربهم ومعيشتهم . بل ان ذلك يساعدهم على الحركة الحرة اســتجابة لمتطلبات التغير المهنى ، وذلك لاقتناص فرص الترقى المهنى والاجتماعى حيثما كان ذلك متيسرا . وفى هــذا الاطار فانه طالمــا أنه من المتوقع أن تؤسس العائلة النووية معيشة قائمة بذاتها ، فانها سوف تشكل ميكانيزما يمتلك درجــة عالية من الكفاءة لاستيعاب قدر هائل من ســلع الاستهلاك ، حيث لا بد أن تمتلك فى العادة كل وحــدة أسرية نووية منزلا ، وســيارة وأثاثا ملائماً ، وكثيراً من المقتنيات والســلع الأخرى التى تعتبر دالة على اســتقلالها . وذلك على خلاف الســلوك الاستهلاكى للعائلة الممتدة التى قد يشترك أعضاؤها جماعيا فى استهلاك نفس هــذه السلع . وبذلك يمكن القول بأن الاسرة النووية التى تنتمى الى الطبقة الوسطى قــد تداخلت بصــورة قوية مع المتطلبات الأساسية لقوة العمــل المتحركة ، والجمهور النشط من الناحية الاستهلاكية (٩٦) .

— ويتصل العامل الرابع والمؤثر على تغير البناء الأسرى ببناء الأسرة ذاتها . حيث نجد فى العادة ارتباكا وحيرة بين الأبويين حول طبيعــة القيم الواجب اتباعها فى تربية الأبناء . وفى هــذا الصدد نجد أن الآباء يواجهون درجة عالية من التوتر حينما يسمحون بقــدر كبير من الحرية للأبناء أو حينما يشجعونهم على درجــة عالية من الاستقلال . ويعتبر الاختلاف فى النطاق

الذى ربى فيه كل من الآباء والأبناء أحـــد المصادر الأساسية للتـــوتر .
بالاضافة الى ذلك نجد أن كثيرا من الآباء الذين ينتمون الى الطبقة الوسطى لديهم التزامهم العاطفى والأخلاقى بالفضائل التقليدية التى يؤكد عليهـا الوعاء الأخلاقى لهـــذه الطبقة ، كالنظافة ، والطاعة ، والسيطرة على المشـــاعر ، وغير ذلك . ونتيجـــة لذلك نجد أن الآباء يتسقون تماما فى ممارستهم للتربية بالنظر الى الاطار الأخلاقى الذى ينطلقون منه ويطلبونه . ومن ثم فهم قد يعاقبوا الابناء بسبب أى انحراف عن القواعد التى وضعوها . غير أنهم بسبب بعض النزعات التحديثية أو التحررية قد لا يعاقبونهم على وقوع هـــذه الانحرفات . فى بعض الأحيـــان نجدهم يصرون على اتباع القواعد والعادات الصحيحة بينما نجدهم أكثر تسامحا فى أحيان أخرى . ونتيجة لذلك فقد يؤدى هـــذا النوع من عدم الاتســـاق الى ما يمكن أن يســـمى بانهاك absorption شخصية الابن . وبدلا من أن يســـاعد الآباء أبناءهم على امتلاك بناء شخصية ذات طبيعـــة مرنة ، ومناضلة ، مكتفية بذاتها ومســـتقلة ، نجد أن بناء الشخصية الناتج لدينا يخاف من الفشـــل والنجاح أيضا . يعانى من القلق العميق حول مدى قبول الآخرين له . شخصية نجد من الصعب عليهـــا أن تكون مســـتقلة بذاتها . تنجذب دائماً الى التوافق وتحقيق حالة الأمن أكثر من انجذابها نحـــو الاستقلال والانجاز على المستوى الشخصى . وحسبما تذهب كثير من الانتقادات فان هـــذا النمط من التنشئة المتأرجحة قد أســـهم فى تزايد نمط الشخصية الموجهة نحـــو الخارج والمرتبطة بالآخر ، بينما ان نمط الشخصية الموجهة الى الداخل بدأ يتلاشى . وسواء جانب ذلك الصواب أم أصاب كبد الحقيقة فانه قد أصبح واضحاً الآن أن الفوضى الأبوية حول طبيعـــة قيم التربية ونظامها المتبع ، أصبحت شـــائعة وتقلل من قيمة الأهداف الثقافية التى لها جذورها فى الدافع الى الانجاز (٩٧) .

ويرتبط بذلك عدم قدرة الأبوين على التنسيق بين رعاية الأبناء من ناحية ومتطلبات الحياة الاجتماعية من ناحية أخرى . وفى هـــذا الصدد نجد التزاما لدى كثير من الآباء بتوفير فرص الاستقلال والتعبير الحر لأبنائهم .

ومن ثم فهم يساعدونهم من خلال توفير الحياة الناعمة التى يسودها الثراء وحدا أدنى من انكار الذات . بالاضافة الى ذلك فاننا نجد أنه قد أصبح على آباء العائلة النووية الصغيرة — حيث تعتبر الأم هى المتخصص الرئيسى فى رعاية الأبناء — أن ينفقوا وقتا كبيرا لرعاية الأبناء — خاصة اذا كانوا يسمحون لهم بقدر من الاباحة والحرية — وذلك لمتابعتهم . فهم من ناحية يريدون لأبنائهم أن يطرقوا المجالات المختلفة من أجل التجربة ، والمحاولة والخطـأ ، غير أن ذلك من شـأنه أنه يتطلب متابعـة دقيقة لهم ويقظة دائمة حفاظا على أمانهم الفيزيقى . هـذا الى جانب أنهم قد يستغرقوا فى مناشط أبنائهم فى محاولة لمساعدتهم على الفاعلية العقلية والمشاعرية . غير أنهم اذا رغبوا فى هـذه المتابعة الدقيقة فان عليهم أن يحدوا من نشـاطهم . ومن شـأن ذلك أن يكون فى حد ذاته مصدراً للتوتر بالنسبة للآباء الذين لديهم التزاما بالقيم الليبراليـة ، وخاصة بالنسـبة لهم ، وهم الذين يؤكدون على الحـرية والاستقلال والقـدرة على الانجـاز . ومن الطبيعى أن يشكل هـذا الصراع بين متطلبات تربية الأبناء من ناحية والاحتياجات الشخصية للآباء من ناحية أخرى أحـد المصادر الهامة لعدم اتسـاق سلوك الآباء ، وهو الأمر الذى يقلل من كفاءة الطـابع المثالى للأسرة الحديثة المنتمية الى الطبقة الوسطى (٩٨) .

— ويعتبر الاختلاف بين مناخ التربيـة الذى أتيح للآباء من ناحية والمناخ الذى ينشأ من خلاله الأبناء من ناحية أخرى أحد المصادر الأساسية للتوتر . وذلك يعنى أن العالم الذى يصبح فى اطاره الاطفال بالغين سـوف يختلف عن العالم الذى كانوا فيه أطفالا من حيث مكوناته الثقافية . ويؤكد ذلك أن الآباء قد يدركوا بقـدر كبير من الوضوح أنهم لم يعدوا نماذج كافية يمكن أن يحتذيها أطفالهم ، وذلك لأن هـذه النماذج قد أستنفذت فعلا . واسـتنادا الى ذلك فان نصائح الآباء سوف لا يعتقد فيها ، وأن سماع توجيهاتهم سوف يصبح نوعا من البله ، ومن ثم ستضعف سـلطة الآباء بسبب عـدم الثقة فيهم . ولا تعتبر حالة الانهيـار الثقافى هـذه نتيجة

للبنــاء المتغير للعائلة النووية ، بقــدر ما يعتبر نتاجا للتغير والتطــور التكنولوجى الذى حدث فى المجتمعات الحديثة التى تعرضت لفاعليته .

— ويشـــكل تساهل الآباء نحــو الأبناء خلال عملية التربية أحــد العوامل الناتجة عن تغير البنـــاء الأسرى والمتصلة بصورة ما ببناء الحركات الشبابية المعاصرة ، اذ يؤدى تساهل الآباء الى عجز الأبناء عن العمل والانجاز . وفى هـــذا الصدد يعتبر الصراع بين التساهل من ناحية والتأكيد على ضرورة بذل الجهد والانجاز من ناحية أخرى أحــد مصادر التوتر فى بناء الأسرة الحديثـــة . فمثلا نجد أن الآباء المنمطيين فى الأسرة النووية المنتمية الى الطبقة المتوســطة يتوقعون أن يناضل أبناءهم لكى ينجزوا ويدركوا الحاجة الى الاعتماد على الذات وبذل الجهــد من أجل تحقيــق الأهداف . غير أننا على الرغم من ذلك ، نجد أن هـــذه الأسر لديها فى الغالب دخولا فائضة . ومن ثم فهى تحاول بها توفير نوع من الحياة المريحة بالنسبة لأبنائها . واستنادا الى ذلك نجد أن كثيرا من آباء هـــذه الأسر يتساهلون مع أبنائهم وذلك لاظهار حبهم ورعايتهم لهم ، بينما ذلك قد يكون محاولة لتهدئة الشـــعور بالذنب الذى يشـــعر به الآباء بسبب غيابهم عن المنزل عن طريق اغراق أبنائهم بالهدايا . بينما يحاول نمط آخر من الآباء تبرير هـــذه التضحيات بتأكيدهم أنهم يقبلون انجاز أى شىء من شـــأنه أن يحـــرر أبناءهم من المعاناة . ومن الطبيعى أن يكون هـــذا التساهل الأبوى (له آداء وظيفى بالنسبة لقطـــاع سلع الاستهلاك فى الاقتصاد) . اذ يعمل هـــذا التساهل على اضعاف شـــعور الأبناء بالحاجة الى التنظيم الذاتى والتضحية والكدح ، بل اننا نجد أن كثيرا من الأبناء الذين يعيشون هـــذه الوفرة المـــادية يشعرون بأنهم ورثة ثروة آبائهم المـــادية . ومن ثم نجد لديهم ميلا دائما الى محاولة امتلاك نوع من الامان الاقتصادى الدائم . ونتيجة لذلك لا نجد لديهم طاقة دافعية تدفعهم الى الانجاز وبذل الجهد ، بل ان هـــذه المفاهيم تفقد دلالتها الأخلاقية بالنسبة لهم . ذلك يحدث عادة خاصـــة اذا أكد الآباء لأبنائهم — وهو الأمر الذى يحـــدث غالبا — أن

باستطاعتهم أن يوفروا لهم الحيـــاة الســـهلة والكريمة بالمســـتوى الذى لم تستطيعه الأجيال الســـابقة (٩٩) .

(ب) ويشـــكل التغير الذى حدث فيما يتعلق بمكانة ودور الأم فى بناء الأسرة الحديثة من أهم الآثار التى نتجت عن التغيرات العـــامة التى انتابت المجتمعات المتقـــدمة والنامية فى ذات الوقت . حيث أدت هـــذه التغيرات الى تخلق عنصرين متناقضين فى بناء دور الأم . أما العنصر الأول فيتمثل فى خروج المرأة الى العمـــل ، ومن ثم تضاؤل مســـاحة طاقتها المبذولة لشئون الأسرة ورعاية أبنائها ، ومن ثم فقد اعتبرت الأمومة ذاتها مجرد أحـــد جوانب دور الأم بعد أن كانت دورها الأساسى والكلى . بينما يتمثل العنصر الثانى فى أن الأم فى الأسرة الحديثة أصبحت العنصر الرئيسى الذى يقع على عاتقه عملية التربية والتنشئة بالنسبة للأبناء ، حيث مساحة طاقة ودور الأب الموجهة الى الخارج أوسع كثيرا . وبالنظر الى ذلك نجد أن دور الأم فى بناء الأسرة الحديثة قد أصابته بعض التغيرات التى سوف تؤثر بدورها على شخصية الأبناء من خلال التنشئة التى تقوم بها الأم .

ـــ من هـــذه التغيرات مثلا حالة الحيرة والاحساس بعدم الرضا الذى تشـــعر به كثير من النســـاء حينما يشرعن فى آداء أدوارهن الجديدة المحددة لهن من قبل بناء الأسرة الحديثة وأيديولوجية التنشئة الاجتماعية والثقافية . وتتمحور أسباب عـــدم الرضاء هـــذه حول حقيقة أنه من المتوقع أن تصبح المرأة طيلة الوقت ـــ التى تكون فيه خارج العمل اذا كانت تعمل خارج المنزل ـــ أما وزوجة . وهو الدور أو الموقف الذى تشـــعر فى اطاره المرأة أنهـــا أصبحت معزولة عن العلاقات الاجتماعية لعالم البالغين . وان هـــذه الوظائف التى تقوم بها لا معنى لها وذات طبيعـــة عبودية . بل ان المجتمع والآخرين يتوقعون منها أن توافق على آداء هـــذا الدور حتى ولو كان تعليمها قبـــل الزواج والأمومة يؤهلها لآداء أدوار أخرى . وذلك بغض النظر عن طموحاتها فى الاستقلال الذاتى ، أو تحقيق الذات . وفى اطار ذلك نجد أنه من الصعب أن تحاول هـــذه المرأة تضييق نطاق

طموحاتها واهتماماتها وتقصرها فى اطار عالم ابنها الصــغير الذى له من العمر ثلاث ســنوات . والاكثر صعوبة أنها قد تشعر بالذنب لكونهــا غير راضية ، ومعادية بصورة كامنة لابنها وزوجها (١٠٠) .

وتتنوع الأســاليب التى تتكيف بها المرأة مع مثل هــذه المواقف . هــذا برغم أن معظم الدراسات التى أجريت فى هــذا الصدد قد أكدت أن معظم التكيفات التى حدثت ذات آداء وظيفى معوق من الناحية الثقافية ، هــذا الى جانب أنها مدمرة للطفــل من الناحية الفسيولوجية . فعلى سبيل المثال هناك الأم التى تبالغ فى حماية طفلها (حيث يقال أن هــذه المبالغة فى حماية الطفل ليست الا غلالة لاخفاء عدائيتها اللاشعورية نحو الطفل) . وهناك الأم التى تســاعد على الغواية seductive (وهى الأم التى تلتصق بابنها بصــورة متطرفة كبديل لاحتاطاتها الجنســية والشخصية العــامة) . وهناك الأم الماكرة التى تعمل لا شعوريا على تشوية سمعة زوجها أمام أبنائه كتعبير عن حقدها وحسدها لامتيازه واهماله لها . والأم التى تحاول أن تعيش متحملة لكل الأعباء عن أبنائها (تحت أمل أنهم سوف يحققــون الأهداف التى أعاقتها الظروف عن تحقيقها) والأم العــاملة (التى تعمل — حسب نصائح بعض خبراء تربية الأطفال — على تعميق مخاوف الطفل من العزلة والهجر) . وبطبيعة الحال فاننا ننظر الى كل هــذه السلوكيات التعويضية للأم باعتبارها مدمرة لقدرة الطفل على تجاوز تبعيته للأم ، التى تعمل بدورها على توسيع نطاق التبعية أو اجباره على التوحد معها (بدلا من التوحد مع الأب) ومن ثم تضعف قدرة الطفل الذكر على الموافقة على التحديدات الثقافية المتفق عليها فيما يتعلق بهوية الذكر . وقد تعمل كل هــذه الأنماط السـلوكية على اضعاف حافزية الانجاز لدى الطفل ، بل انها قد تعمل على تدمير قدرته على الاعتماد على الذات (١٠١) .

وبرغم تشخيص كثير من المحللين النفسيين لســلوك الأم على هــذا النحو باعتباره عصابيا neurotic ، فاننا نجد أن المنظور السوسولوجى يؤكد على حقيقة أن مثل هــذا الســلوك محتم اجتماعيا ، الى جانب أنه

متضمن بنائيا فى دور الأم كما هو الآن . وبخاصة اذا أخذنا فى الاعتبار أسلوب التنشئة الاجتماعية للأمهات الصغيرات . وبتعبير آخر فان عدم الرضا الذى يسود بين أمهات الطبقة الوسطى يعتبر نتيجة حتمية لحقيقة أنهم مجبرون على آداء أدوار لا تتلاءم وطموحاتهن وتصوراتهن عن ذواتهن ، وهى الطموحات والتصورات التى تعلمن أنها من حقهن . ومن ناحية أخرى فانه يمكن اعتبار هذا التناقض فى أدوار المرأة نتيجة للأزمة التى تعانيها الثقافة العامة السائدة فى المجتمع (١٠٢) .

(جـ) واذا كانت الأم المنتمية الى الطبقة الوسطى لها سلوكياتها ذات التأثير على الشباب الذى ينتمى الى هذه الطبقة . فاننا نجد أن دور الأب أيضا فى هذا النمط من الأسرة تكتنفه بعض الصعوبات التى لها تأثيرها على سلوكيات الأبناء الشباب . وذلك لأن الدور الأبوى له هو الآخر تناقضاته الداخلية . ويحدث ذلك بالنظر الى العقلانية والقدرة على الانجاز التى تعتبر من الخصائص الأساسية لنماذج البالغين المنتمين الى هذه الطبقة والتى لها تأثيرها . ذلك أن الأب المنتمى الى هذه الطبقة عادة ما نجده يسعى الى النجاح أو هو ناجح فعلا ، ونتيجة لذلك فانه من المعتاد أن يكون لديه قدر من المسئوليات والانتزامات خارج المنزل ، ومن ثم نجد أنه من الصعب أن يكون الأب الذى يحتل مكانة مرموقة فى الخارج متيسرا حضوره بالنسبة لأبنائه . أولا بسبب الحاح الضرورات والمسئوليات الخارجية ، وثانيا لأن هؤلاء الآباء يشعرون عادة أن حياة الأسرة ذات طبيعة متدنية اذا قورنت بالحياة خارج المنزل حيث السلطة والمسئولية التى لها درجة عالية من الاثارة .

وعلى نقيض ذلك نجد شريحة أخرى من آباء هذه الطبقة أو الطبقات الدنيا يعانون عادة من مشاعر الأسى وعدم الرضاء فيما يتعلق بعملهم . اما لأنهم يحتلوا مراكز وظيفية لا تحقق طموحاتهم ، أو أن عملهم لا يحقق ذواتهم ، أو أن هذا العمل موضع شك وادانة أخلاقية . ذلك يعنى أن عملهم يعتبر مصدرا دائما للمعاناة . هذه المعاناة تنتقل عادة الى أبنائهم

بصورة تلقائية . هــذا الى جانب أن هناك شريحة من الآباء الذين يعتبرون أنفسهم فاشلين ، وأنهم من الدرجة الثانية من حيث تقديرهم الوظيفى . وفى هــذا الاطار تصبح العائلة بالنسبة لهم مجالا لمارســة العدوانية والســلطة ، وتأكيد الأهمية الذاتية ، وهى السلوكيات والمشــاعر التى لا يتاح لهم التعبير عنها فى أى مكان آخر .

وتعتبر هــذه الحيرة الأبوية ــ مثل التناقضات الكامنة فى دور الأم ــ مشتقة أساسا من التناقضات الأساسية على مستوى الثقافة العــامة . حيث تتمحور هــذه التناقضات حول بعض المتطلبات الثقافية المتناقضة أيضا . حيث يطلب مثلا من الرجال أن يكونوا موظفين ناجحين وفى نفس الوقت آباء جيدين . وأن عالم الانسان فى هــذا الاطار ينقسم الى عالمين . عالم يتطلب الدفء والعواطف الشخصية ، بينما يستلزم الآخر القدرة على الانجاز . خاصــة أن القيمة الثقافية للبالغ الذكر من الطبقة الوســطى (وبالمثل قدرته على الفخار الذاتى ، تعتمد الى حد كبير على نجاحه المهنى ، وهو النجاح الذى لا حدود له من ناحية ، ولا يستطيعه كثير من الرجال من ناحية أخرى . فاذا وافق الانســان البالغ على هــذا المعيار ، فانه فى حالة عدم الكفاءة سوف يوصل مشاعره واحباطاته هــذه الى ابنائه) أما اذا رفض هــذا المعيار الثقافى كأساس للنجاح ، فانه سوف ينقل قدرا من الشك فى الاطار الثقافى العام لأبنائه (١٠٢) . وكنتيجة لذلك فاننا نجد أن الطفل المنتمى لهــذه الأنماط من الأسرة يعانى عادة من قدر كبير من الفوضى . حيث نجد أنه كلما استوعب الأب هــذه التناقضات كلما فقد تأثيره كنموذج ينبغى أن يحتذى . ولمــا كانت العائلة النووية ــ خاصة الحضرية ــ صــغيرة ومنعزلة فاننا نجد أنه لا يكون أمام الابن الذكر سوى نماذج قليلة تلعب دورها كنماذج لها تأثيرها الفعال بالنسبة له .

(ج) وتتعلق القضية الرابعة بنتائج هــذه التغيرات أو التوترات على الشباب . وبايجاز نستطيع القول بأنه من المحتمل أن يؤدى هــذا التأرجح الأسرى الى تأسيس قدر واضــح من الفوضى المتعلقة بالأهداف

والقيم والطموحات الخاصة بالشباب الذى يتعرض لهذه التأثيرات .
وبتحديد أكثر ، فاننا نستطيع ائقول بأنه من المحتمل أن تعمل العائلة الحديثة على غرس مجموعة من الاستعدادات والميول الشخصية فى أبنائها . وهى الخصائص والامكانيات التى تجعل من المحتمل أن يصبح هؤلاء الشباب فى المستقبل قلقين وشاكين ومغتربين عن بعض الجوانب الأساسية للثقافة السائدة . وبالتالى لديهم استعداد للمشاركة فى أية جهود ترمى الى تغيير الأوضاع الثقافية والاجتماعية المحيطة .

والى جانب ان الأسرة قد تصبح اطارا يتولى تنشئة الشباب القلق والمغترب ، فان الأسرة ذاتها قد تصبح فى حد ذاتها اطارا مشكلا لأبنائها من الشباب . وذلك اما بسبب مشكلات عدم التكيف بين العناصر الأساسية المكونة للأسرة أو بسبب عجزها عن اشباع الحاجات الأساسية لأبنائها من الشباب . وربما عجزها عن ادراك هذه الحاجات أصلا . يؤكد هذا الوضع المشكل احدى الدراسات التى أجريت على الشباب فى مصر حيث تذهب نتائجها الى معاناة الشباب من مشكلات أسرية على النحو الذى يوضحه الجدول التالى (١٠٤) .

جدول يوضح مدى وجود مشكلات
بين الشباب والأسرة أم لا

البيان	التكرار	٪
توجد	١٠١٢	٤١
لا توجد	١٤٤١	٥٩
غير مبين	٥	—
المجموع	٢٤٥٨	١٠٠

وتشير معطيات الجدول السابق الى معاناة الشباب المصرى من وضع مشكل فيما يتعلق بالسياق الأسرى . وهو السياق الذى يعوق على هذا

النحو اشباع الحاجات الأساسية للشباب فى مجال الأسرة . هـذا الى جانب اظهار عجز الأسرة عن تأسيس البناء السيكوجى والاجتماعى الملائم للشخصية الشـابة .

بالاضافة الى ذلك فاننا نجد أن شباب هـذه الأنماط الأسرية يعانى عادة من القلق وعـدم الوضوح فيما يتعلق بالتحديدات الثقافية الشـائعة للنجاح . وقد تنتج هـذه المشاعر عن نماذج الحيرة الأبوية التى عرضنا لها ، أو نتيجة للبعد السيكلوجى بين عمل الأب ودوره من ناحية وبين ادواره بالنسبة لأبنائه من ناحية أخرى . أو نتيجة للفوضى القيمية التى يعانى منها الآباء والتى أشرنا لها ، أو بسبب نمط السيطرة الذى تمارسه الأم . وحتى بالنسبة للشباب الذين لديهم دوافع للانجاز ، والذين قد يجسـدوا هـذه الدوافع فى الدراسـة ، فاننا قد نجد لديهم بعض الشكوك فيما يتعلق بالنجاح المـادى والنضال من أجل المكانة العالية أو البحث عن الوظيفة المرموقة . وفى اطار هـذا التناقض القائم بين الاستعداد للانجاز والقدرة عليه وبين الشك فى النجاح المـادى ، تظهر حالة هائلة من عـدم الوضوح والتحدد فيما يتعلق بالعمل الذى ينبغى القيام به والذى يسميه أريك أريكسون (غموض أو فوضى الدور) . هـذا الى جانب نمو حالة من الشوق الغامض من أجل الشهرة والحصـول على الاعتراف الاجتماعى ، الى جانب البحث الذى لا يتوقف عن مهن أو أساليب بديلة للحياة (١٠٥) .

— الى جانب ذلك تنمو لدى الشباب مشاعر القلق الناتج عن عـدم القدرة على ضبط النفس . وتنتج هـذه الظاهرة عن بعض ملامح الأسرة ذات الأبوين المتساهلين أو المتسامحين . وتتصل أيضا بمشاعر عـدم الرضاء المتعلقة بالتحديدات الشـائعة والخاصة بالانجاز والسلوك المهنى . وقد تتجلى هـذه المشاعر لدى الشباب فى مظاهر عـدم الرضاء بالزى المدرسى ، أو عـدم الموافقة على التعليم الذى يتطلب الاستظهار ، أو الميل الى الشـعور بالقلق أو الانزعاج حينما يكون التركيز مطلوبا . هـذا الى جانب تجنب الموضوعات المدرسية التى تتطلب النظام والانتباه للتفاصيل ،

والمقاومة العـــامة للمهام التى تبدو أنه لا عائد شخصى وراءها ، أو أنها لا تتصل بالأهداف التى تســـعى الذات الى تحقيقها . وتصاحب هـــذه المشاعر عادة رغبة عميقة فى الاســـتمتاع الحالى والمباشر والتحـــرر ، والخبرات المباشرة التى ترتبط عادة بالشـــعور بالذنب .

— ظهور مشاعر القلق والخوف لدى بعض شرائح من الشباب من السلطة القهرية أو التعسفية . وتنتج هـــذه المشاعر عادة نتيجة للتوقعات التى تطورت من خلال الأسرة تجاه بناءات الســـلطة التى تتميز بالنزعة الى المســـاواة . وهى التوقعات الناتجة عن الدعم الأبوى للمشـــاركة والتأكيد عليهـــا . هـــذا الى جانب التأكيد على الاستقلال والاعتماد على الذات . وأيضا رفض الآباء اســـتخدام القهر أو العقاب الفيزيقى . ويمكن لنا أن نتوقع أن يكون الأبنـــاء الذين تتم تنشئتهم حسب هـــذا الأسلوب ميالين الى توقع أن تكون الســـلطة خارج الأسرة سريعة الاســـتجابة ، ديموقراطية ، متسامحة ولا تؤمن بالعقاب . ونتيجة لهذه الاستعدادات والتوقعات المتعلقة بالسلطة نجد لدى الشباب من هـــذه الأسر ميلا غير عاديا للثقة فى المدرسين والبالغين الآخرين . ومن ثم نجد أنهم قد يصابوا بالانزعاج والغضب وقد يتمردوا بصورة متطرفة وصاخبة حينما لا يشبع أى من ممثلى السلطة التوقعات المتعلقة بالديموقراطية أو النزوع الى المساواة . هـــذا الى جانب توقعنا أن يكون لدى هؤلاء الأبناء قدرة على مقاومة الســـلطة والعمل على تغييرها بصورة أكثر فاعلية حينما تبدو تعسفية . بل أنهم قد يصبحوا بصورة عامة اكثر شكا فى ادعاءاتها وأكثر ميلا لاختبار حدود سماحتها بصورة منتظمة (١٠٦) .

— يعانى هؤلاء الشباب أيضا — نتيجة لأنماط التربية الأسرية هذه — من القلق والانزعاج فيما يتعلق بالتحديدات الثقافية الشـــائعة لمفهوم الجنس ودوره . اذ يميل ابناء الاباء غير المستقرين عادة الى التوحد مع أمهاتهم — ذلك فى مقابل أن الآباء أنفسهم يوافقون عادة على تصرفاتهم ولا يعاقبون عليها — ومن ثم نجد أنهم يحددون الذكورة بأساليب غير تقليدية تماما .

هـذا الى جانب أنه من المحتمل أن يكونوا أقل ميلا الى التسلط ، أو أقل عدوانية وخشونة من الناحية الفيزيقية . وأكثر تعبيرا من الناحية العاطفية . وهناك توقع أن يكون الاناث اللائى تمت تنشئتهن فى هـذا الاطار أقل خضوعا وأكثر تأكيدا لذواتهن . وأكثر اسـتقلالا . فاذا استمر الآباء فى توقع انجاز الدور الشـائع للجنس منهم ، وكلما كان هـذا الانجاز متوقعا من قبل الرقابة فى المدرسـة ، فان لنا أن نتوقع درجـة عالية من فوضى المشـاعر وعدم الكفاءة التى تنتج عن ذلك (١٠٧) .

وفى هـذا الاطار فان بامكاننا الاستطراد فى سرد الآثار والتوقعات والمشـاعر الناتجة عن أنماط معينة من البناءات الأسرية وممارسات محددة لتربية الأطفال . حسبما أشرنا الى ذلك . بيد أنه ينبغى أن يظل واضحاً التأكيد الذى يذهب الى أن تغيرات معينة وأساسية تقع فى البناء الاجتماعى والاقتصادى يكون لها تأثيرها المباشر على بناء العائلة ، وبخاصة العائلة التى تنتمى الى الطبقة الوسطى . ومن شأن هـذه التأثيرات أن يكون لها وطأتها على قيم وممارسات الآباء . بحيث ينتج عن ذلك نتائج متناقضـة للغاية . فمن ناحية قد تبدو العائلة الحديثة باعتبارها ملائمة أساساً كوسيلة لتنشئة نماذج صحيحة من البشر القادرين على الحياة فى المجتمع التكنولوجى . ومن ناحية أخرى فان هناك مجموعة من الميول الكائنة فى السياق الموقفى لهذه العائلة ، وهى الميول التى تعمل على توليد قدر هائل من الشـعور بالاحباط وعـدم الرضاء نحو النظم والأدوار والقيم الثابتة . وعلى هـذا النحو نجد أن الأسرة الصغيرة المنتمية الى الطبقة المتوسطة الحضرية هى التى تعكس عادة أزمة الثقافة السائدة . وفى نفس الوقت فهى التى تسهم فى تأسيس هـذه الأزمة أو تعقيدها ، عن طريق تأسيس مجمـوعة من الطموحات والتوقعات والدوافع التى لا تتوافق مع المعايير القائمة . أو الأنماط الثقافية المصاغة نظاميا فى الجيل التالى . فهى تؤسس الاطارات العقلية والسيكلوجية لهويات جديدة فى مجتمع لا يقـدم نماذج أو أدوار أو أساليب حياة يمكن أن تتبلور حولها هـذه الهويات الجديدة (١٠٨) .

وبالاضافة الى ما تعانيه الأسرة فى المجتمعات النامية من ذات المخاطر التى تعانيها الأسرة فى المجتمعات المتقدمة ، وهى المخاطر التى لها تأثيرها على الشريحة الشبابية . فاننا نجد أنها الى جانب ذلك تعانى من عـــدة مشكلات أساسية . من هـــذه المشكلات مشكلة عـــدم الاتساق البنائى . فالأسرة الريفية التى تتخذ عادة نموذج العائلة الممتدة ، نجدها تعانى من مشكلة الآباء التقليديين ، والأبناء المتعلمين ، حيث يتواجد هذين العنصرين المتناقضين داخل بناء العائلة خاصـــة بعد موجات الاندفاع الى تعليم الأبناء فى كثير من المجتمعات النامية ومنها مصر على ســـبيل المثال . واذا كان الوضع التقليدى يجعل من الآباء نموذجا يحتذيه الأبناء فان الوضع الجديد يدرك فى اطاره الأبناء أن هـــذه النماذج التقليدية أصبحت مهجورة وغير صالحة للاقتداء ، وهى القناعة التى يرفضها الآباء . ومن ثم فنحن لا نستطيع القول بأن هـــذه الأسرة تعانى الصراع الجيلى ، لأن الصراع سوف ينتهى بفرض أحـــد الأطراف رؤيته على الآخر . غير أننا فى مثل هـــذا الوضع نواجه بوضـــع من التناقض البنائى بين عناصر متناقضة حيث احتمالات التكيف منعدمة بينها .

وتتمثل المشكلة البنائية الثانية فى عجز الأسرة داخل المجتمعات النامية عن أن تشـــكل اطارا يستطيع احتواء أبنائها لعجزها عن اشباع الحاجات الأساسية للأفراد . فلم تعد الأسرة الآن هى القادرة على اشباع حاجة الأبناء الى المســـكن ، والزواج والمســـتوى المعيشى الملائم ، ومن ثم فاذا كان الشباب فى معظم المجتمعات النامية يعانى من احساس عدم الانتماء ، فان المرجع الرئيسى لهـــذا الاحساس يتمثل فى عـــدم اشباع حاجاته الأساسية ، وكلما كان الســـياق المباشر أكثر ارتباطا بالشباب ، وكلما كان أكثر عجزا عن اشباع الحاجات الأساسية للشباب ، كلما كان احساس عدم الانتماء اليه أكثر عمقا . وهى قضايا تستحق كل تأمل وتفكير .

٣ ـ الشباب والنظام السياسى ، أبعاد التمرد والمعارضة :

يكشف البحث الدقيق فى الحركة الشبابية المعاصرة ، أنها حـــركة

سياسة بالاساس . فهى وان قامت بها فئة ذات ملامح محددة ، الا أنهـا عادة ما تكون مواجهة للنظام السياسى بحثا عن تحقيق مطالب محددة . قد تكون متصلة باحتياجات الفئة الشبابية أساساً الا أنهـا قد تتصاعد لتتناول قضايا تتصل بالبناء السياسى ذاته . ومن ثم فعادة ما يقود التفاعل السـاخن — أحيانا — بين النظام السـياسى والشباب الى الحركة من القضـايا المتصلة عضويا ببنائهم ، الى قضايا تتصل بالنظام السـياسى والاجتماعى القائم ، وباحتياجات الجماهير الخاضعة لهذا النظام . ونستطيع القول بأن هناك مجموعة من الشروط التى نرى ضرورة توفرها لكى تتحول المطالب الشبابية من مطالب مقصورة على الفئة ، مرتبطة بها الى مطالب ذات طبيعـة سـياسية واجتماعية عامة . ونذكر فيما يلى بعضـا من هـذه الشروط .

(أ) محورية المطالب الشبابية ، ومعقوليتها بالنظر الى الشباب أنفسهم وأيضا بالنظر الى الجماهير الخاضعة لهذا النظام السـياسى . وقد يحدث فى اطار ذلك تحرك الشـباب لاقناع الجماهير بهذه المطالب استهدافا لضمها اليهم .

(ب) استخدام النظام السياسى لأساليب القهر الفيزيقى والمعنوى ، وما يمكن أن يسمى فى الأدب السـياسى بالقمع الحضرى . وذلك لفرض استمرار عـدم الاستجابة للمطالب الشبابية . هـذا الى جانب استمرار عجز النظام عن اشباع الحاجات التى تدور حولها المطالب ، بالاضافة الى عجزه عن استيعاب الحركة الشبابية ذاتها .

(جـ) اتسـاع رقعة المؤيدين لهذه المطالب . من كونها مطالب شبابية فى البداية ، الى كونها مطالب اجتماعية لها مؤيدوها الآخرون غير الشباب . وذلك توسيعا لرقعة الخلاف مع النظام السياسى . وفى اطار هـذا التحول تنضم الجماهير — التى تلمس مصالحها هـذه المطالب — الى الحـركة الشبابية . أو اعتبار أن الشباب هم القوى القادرة التى ينبغى دعمها بحثا عن تحقيق هـذه المطالب الاجتماعية . وهنا يكون الشباب قد نجحوا فى

اخراج الجماهير بعيدا عن انسحابها وعزلتها ودفعها داخل التيار الرئيسى للتمرد أو الثورة .

ولتوضيح هـــذه التفاعلات الدينامية بين الشباب من ناحية والنظام السـياسى من ناحيـة أخـرى فاننا نرى ضرورة معالجـة القضـايا الأساسية التاليـة :

(أ) ما يتصل بتأثير متغيرات النظام العالمى .

(ب) ما يتصل بمتغيرات النظام السياسى .

(جـ) ما يتصل بالشباب كقوة للمعارضة السياسية .

وسوف نعرض فيما يلى بايجاز لكل من هـــذه القضايا .

(أ) ما يتصل بتأثير متغيرات النظام العالمى :

وفيما يتعلق بالظروف والتفاعلات التى تتصل ببنية النظام العالمى ، فاننا نقصد بها مجموعة الظروف التى تحدث فى كل المجتمعات المتقدمة والمتخلفة على السواء ، أو تقع فى أى منها ولها تأثيرها على الشـباب فى كلا نموذجى المجتمع . ويتعلق الظرف الأول بطبيعة الحالة الانتقالية التى تمر بها مجتمعات النظام العالمى سواء كان هـــذا الانتقال من المجتمع القبلى الى المجتمع غير القبلى أو الى الأمة الحديثـة ، أو من سـياق اقتصادى أو سياسى وتكنولوجى حديث الى آخر . وفى اطار مواقف الانتقال هــذه تظهر أهمية بعض العناصر الأساسية ، فمثلا بسبب هـــذا الانتقال وارتباطا به اتسع نطاق التعليم خاصـــة فى كثير من المجتمعات الأوربية ، وذلك من خلال تأسيس التعليم العام ونشره والالزام به . بينما يتعلق العنصر الآخر بطبيعة العمالة التى نتجت عن هـــذه التغيرات . حيث نجد تأسيس سياسات التشغيل العام التى تأثرت فيما بعد ببداية ظهور الأتومية . ويتعلق العنصر الثالث بالمواقف التالية للثورات التى حدثت فى مجتمعات العالم . فمع استقرار الثورات فى روسيا أولا ، وأخيرا فى كثير من الدول

الحديثة التى ظهرت فى آسـيا وأفريقيا ، حيث نشأت فى هـذه الأمم أجيالا سياسية جديدة ، تطور وعيها بالحياة السياسية نتيجة لهذه التغيرات المتتابعة والتفاعلات التى وقعت فى اطارها ، وهى الظاهرة التى جذبت انتباه كثير من الدارسين (١٠٩) .

أما الظرف الثانى فيتعلق بطبيعة التناقض الذى يحكم علاقة الشباب بأجيال الشـيوخ . فمن الواضـح أن المجتمعات المتقدمة قد تمكنت من تأسيس أبنية ونظم اجتماعية وسياسية مستقرة . وهو الأمر الذى يشهد بأن القائمين على المجتمـع قد أنجزوا أدوارهم فيما هو متجسد الآن . بيد أن عملية البناء هـذه تكون محكومة عادة برؤية الشـيوخ . ورؤية الشـيوخ قد لا تتوافق مع رؤية الشباب . وهو الأمر الذى يدفع الى ظهور التناقض الجيلى ، أو على الأقل وقوف الشباب موقفا رافضا لمـا هو قائم . ولعل هـذا التناقض أو الرفض ينبثق أساسا من بناء النظـام القائم . فقد أدى التوسع الهائل فى التعليم ، وتأسيس النظم التنظيمية المستقلة التى أصبحت منتشرة فى مختلف أرجاء المجتمع الى التأكيد على المشكلات أو القضايا الاجتماعية الخاصة بالشباب . ومن ثم دعمت الحيرة التى تحكم علاقة عالم الشباب بعالم البالغين والكبار . هـذه الحيرة التى تتضح من ناحية فى نضال الشباب وسيعهم من أجل الاتصال بعالم البالغين وذلك بهدف الحصـول على اعترافهم بهم ، بينما هم من ناحيـة أخرى لديهم الاستعدادات للتأكيد على الاختلافات التى بينهم وبين الكبار ، بل انهم يعملون عادة على ابراز هذه الاختلافات . وقد يتطرف الامر حتى يتخذ شـكل معارضة الأدوار العديدة التى تنتظرهم فى المجتمع ، وبالتالى رفض النماذج العديدة التى يقدمها عالم الكبار . وبرغم أن الهدف الأصيل للشباب يتمثل فى المشاركة فى عالم الكبار ، أو على الأقل القيام ببعض أدواره ، ونماذجه وافتراضاته المحددة . فانهم يرفضون المشاركة من منطق الكبار أو وفقـا لمعاييرهم . بل اننا نستطيع أن نرى هـذه الحيرة بصورة أكثر وضوحا فى أيديولوجية الجماعات الحديثة للشـباب ، وهى الجماعات التى يميل معظمها الى تأسيس أيديولوجيا تؤكد على وجـود انفصال بين الشباب

والبالغين . وأيضا على تفرد الشباب . وان كانت تشير فى نفس الوقت الى فترة الشـــباب باعتبارها الفترة التى تشـــكل أنقى تجســـيد للقيم الاجتماعية والثقافية التى يسلم بها الكبار ويتمسكون بها .

بل اننا نجد أن الشباب يقدم عادة نفســـه بأساليب عديدة . بحيث نجد قبوله فى عالم الكبار باعتباره يمثل التجسيد النقى للرموز والتوجهات الكارزمية الأساسية التى تشير الى انبثاق نظام اجتماعى وثقافى جديد . غير أن هـــذا الموقف ـــ برغم الاتســـاق الذى يســـوده ـــ نجده يتضمن حيرة الشباب كما ذكرنا تجاه النماذج التى يقدمها البالغون لهم . اذ لا يرفض الشباب نمط النظام الاجتماعى الذى يقدمه البالغين كلية ، وانما هم أحيانا يقبلو المشاركة فيه فى محاولة للاستفادة من الفرص التى يتيحها (وبخاصة الفرص المهنيـــة والاقتصادية) أو لمحاولة اعادة تشكيل كثير من أبعـــاده وتفاصيله الواقعية حتى تصبح المشاركة الواسعة فيه مفتوحة ومتاحـــة لهم . ذلك يعنى أنهم لا يرفضون فعالية نمط النظـــام الذى يقدمه البالغون أو على الأقل النظـــام الذى تدعمه التوجهـــات الكارزمية لهذا المجتمـــع وطموحاته .

ومن هـــذه الحقيقة الهامة يمكن أن نصل الى استنتاج أن معظم أنماط ثقافات الشـــباب واحتياجاتهم ـــ تلك التى تميز المراحل الأولى لظهـــور المجتمعات الحديثة ـــ تميل الى تطوير كثير من الافتراضات الهامة والتى يمـــكن بلورتها فى اطار افتراضين أساسيين . الأول أن هنـــاك ارتباطا أو التقاءاً قويا بين الحلول التى تطرح لحل المشـــكلات التى قد تظهر من مواضع التوتر الثلاث التى أشرنا اليها . أما الثانى فيذهب الى أن التقاء هـــذه الحلول يؤدى الى امكانية حل مشـــكلات الهوية الثقافية والاجتماعية من خلال مشاركة مختلف جماعات الشباب هـــذه باتجاهاتها المتباينة فى النظام الاجتماعى والثقافى القائم (١١٠) .

بالاضافة الى ذلك شهدت فترة الستينات مجمـــوعة من التفاعلات داخل النظام العالمى أسهمت بدورها فى بروز الشباب كقوة على المسرح

السياسى . بحيث تغيرت العلاقة بين الشباب والمجتمع بصورة أساسية . ولعل المسئول عن ذلك مجموعة من العوامل الأساسية . من هذه العوامل ظهور الثقافة العامة للشباب ، وهى الثقافة التى استطاعت جذب اهتمام الشباب من مختلف الشرائح الاجتماعية ، والمناطق الجغرافية ، ومن ثم مشاركتهم فى هذه الثقافة ككيان واحد لأول مرة فى التاريخ . ففى الماضى كانت الثقافة التى تفصل المراهقين والشباب عن أدوار البالغين منقسمة فى ذاتها الى عديد من الأنماط والثقافات الفرعية العديدة . غير أنه خلال العقد الأخير استطاع الشباب الذى له انتماءاته المتنوعة من الوصول الى المشاركة فى مجموعة من الاتجاهات والرموز المشتركة والمنتشرة بينهم ، حقيقة أن هناك بعض الاختلافات التى تميز الشباب الذى ينتمى الى مختلف السلالات أو السياقات الجتماعية المتباينة . غير أن هذه الاختلافات والثقافات الفرعية تشارك فى العادة فى قدر من الرموز المشتركة ، بل وتسعى دائما الى التحالف بين بعضها البعض(١١١) . وهو الأمر الذى يجزم أن ثمة مجتمعاً شبابيا واحدا ، يقف وحدة واحدة فى مواجهة أجيال الشيوخ ، أو كقوة معارضة فى مواجهة النظام السياسى اذا تخلقت الظروف التى تقود الى ذلك .

بالاضافة الى ذلك فانه على خلاف التعبيرات الثقافية التى سادت العشرينات ، الثلاثينات ، الأربعينات ، الخمسينات من هذا القرن ، نجد أن الثقافة القومية الحديثة تحتوى على عناصر قوية لمعارضة ثقافة البالغين السائدة . بل اننا نجد أن كثيرا من المتحدثين باسم الشباب ينظرون الى ثقافة الشباب ليس باعتبارها خبرة انتقالية ، ولكن باعتبارها ثقافة مضادة . بمعنى أنها تشكل تحديا للقيم والمعايير المستقرة والمعلنة اجتماعيا فى المجتمع الأكبر .

الى جانب ذلك نجد أنه خلال عقد الستينات شارك الشباب فى السياسات الثورية والراديكالية المعارضة بصورة لم يسبق لها مثيل فى المجتمعات الغربية . وقد فعلوا ذلك باعتبارهم شبابا بغض النظر عن

قيادة البالغين لهم أو سيطرتهم على هـــذه الحركة الشبابية . اذ يوجـد فى ثقافة الشـــباب مكون يبغض سياسات البالغين أيا كانت طبيعتها .

وتأكيدا لذلك نجد أن علماء الاجتماع ، وليس رجل الشارع فقط ، قد نظروا الى المجتمع الأمريكى مثلا باعتباره مجتمعاً يمتلك درجـــة عالية من الاســـتقرار . مجتمعا استطاع استيعاب القيم والنظم والمستلزمات التكنولوجية التى وافق عليها . وبذلك بدأ ينظر الى هـــذا المجتمع باعتباره المجتمع المفتوح . المجتمع الذى يمتلك من ناحية استجابة سريعة لمتطلبات وطموحات البشر ، ويمتلك من ناحية أخرى قدرا من المرونة الملائمة لمتطلبات التغير الاجتماعى .

غير أن هـــذا المجتمع ــ ككل المجتمعات الغربية والنامية ــ يعانى الآن من نوع من عدم الاســـتقرار الاجتماعى الذى يســـود المجتمعات التى تتميز بعـــدم التجانس الثقافى الكامل ، وأيضا تلك التى تسودها درجـــة عالية من الصراحة الكاملة . فى مثل هـــذا السياق تظهر الثقافات المضادة للشـــباب ، وحركات الطلبـــة ، والتعبيرات الأخـــرى للتمرد الجيلى . وهى الحالة التى يمكن تشخيصها باعتبارها حالة من الانهيار الثقـــافى . وحينما تعانى المجتمعات من عمليات الانهيار الثقافى ، أو الأزمة الثقافية ، فان القيم والمعانى والمعايير التقليدية تصـــبح مهجورة ومضادة للتقـــدم ، وغير متماسكة فى عيون عدد متزايد من أعضـــاء المجتمع . وهى التفاعلات التى تصبح مؤشرا لحقيقة أن التغير التكنولوجى قد أحال الممارسات والنظم التقليدية وجعلها غير ملائمة . هـــذا الى جانب أن هـــذا التغير قد أسس مجموعة من الآمال والتوقعات والمطالب الجديدة . وهى التى لا توافق عليهـــا النظم القائمة وترفضها الســـلطة الموجودة . بل اننا نجد أن الذين يمثلون مراكز الســـلطة ، ولهم فعالية السيطرة على المجتمع عادة ما يتولون مقاومة هـــذه الطموحات وقهرها (١١٢) .

(ب) وتتصل المجموعة الثانية من الظروف الســـياسية المؤثرة على علاقة الشـــباب بالنظام السياسى ، أو تلك التى لعبت دوراً فى بناء وتأسيس

الحركة الشبابية بطبيعة النظام السياسى ذاته أو بمجموعة المشكلات التى يعانى منها فى مواجهة الشباب ، ذلك لأن الوضع الافتراضى أن يتواجد نظاما سياسيا يتولى تأهيل الشباب للمشاركة . ثم فتح قنوات المشاركة صريحة على مصراعيها من خلال اتاحة الشروط الديموقراطية الملائمة لذلك (١١٣) وفى هـذا الاطار نستطيع القول بأن هنـاك مجموعة من العوامل ذات الطبيعـة الكلاسيكية التى أدت الى ظهـور حركة الشـباب الجماعية والمضادة للنظام القائم . ولعل العامل الرئيسى الذى لعب دوراً فى هـذا الصدد يتمثل فى ادخال نظام الجامعات المتقدمة داخل بناءات المجتمعات المتخلفـة . وبدأ حكام هـذه المجتمعات ينظرون الى النظـام الجامعى باعتباره وسـيلة يتم من خلالها تأهيل أعضاء المجتمع بصورة رفيعة فى مختلف المجالات العلمية والفنيـة والعقلية بنفس المستويات السـائدة فى المجتمعات المتقدمة . وذلك لخلق صفوات المستقبل التى تكون — بصورة ما — استمرارا للصفوات القائمة ، بحيث يتم الانتقال اليها بدون هز الاطار الثقافى ، وبناء الامتيازات والنظـام السياسى القائم (١١٤) .

ولتحقيق ذلك سعت الصفوات القائمة الى تطـوير نظام تعليمى رفيع يتولى صياغة شباب هـذه المجتمعات . غير أن نشـأة ونمو التعليم العالى للشـباب كانت له فى الغالب نتائجـه الدرامية غير المقصودة بالنسـبة للصفوات التى دعمت هـذا التوجه التعليمى للشـباب . بل اننا نجد أن الشـباب المتعلم قد طور كثيرا من قنوات الاتصال بين فئاته المتنوعة فى كثير من أجزاء العالم ليشكلوا حركة معارضة لتلك الصـفوات . وأيضا للنظام القائم الذى كان من المفترض أن يدعمونه ويعملون على تقويته بعد أن فتح القنوات لتعليمهم (١١٥) .

غير أنه برغم محاولة النظـام السياسى صياغة الشـباب من خلال النظام التعليمى حسب النماذج التى يتصورها . فان الأمر لم يسر حسب رغبات هـذه الصفوات التقليدية أو المتخلفة ، حيث أصبحت مقاومة النظم القائم والالحاح حول مطالب الاصلاح دافعا اساسيا لتشكيل حركات المعارضة

الشـــبابية . وبطبيعة الحال فاننا نجد أن النظم النمطية التقليـــدية عادة ما تكـــون عاجزة عن الاستجابة لهـــذه المطالب . ومن ثم نجدها تتبنى الأساليب القهرية تجاه هـــذه المطالب ذات القوة الضاغطة . ففى مقابل مطالبة الشـــباب بالاصلاح ، نجد أن النظـــام السياسى يفرض الرقابة على حركتهم . هـــذا الى جانب تعميق ونشر الرقابة والاشراف والملاحظة البوليسية عليهم . أما بالنســـبة للمنشقين والمتمردين فنجد أن العقاب الصارم هو الذى ينتظرهم . ومن ثم نجد أن شريحة عريضة من الشـــباب الذين لم يتعرضوا مباشرة لهـــذه الأساليب البوليســـية على وعى بالهوة الواســـعة بين المثل التى استوعبوها من ناحية وبين الظروف الاجتماعية والسياسية القائمة فى مجتمعاتهم من ناحية أخرى . ومما يطور هـــذا الوعى ، السلوكيات غير الأخلاقية التى تنشرها الصفوات العاجزة عن أن تعيش بحسب معايير أخلاقية معترف بها (١١٦) .

غير أننا قد نتساءل اذا كانت الصفوات السياسية هى التى أسست النظم التعليمية أو توسعت فيها ، وهى التى حاولت استخدام هـــذه النظم بهدف توفير الصياغة النظامية لشبابها ، اذا ما هى العوامل أو المشكلات المســـئولة عن القطيعة بين النظـــام السياسى من ناحية والشـــباب من ناحية أخرى ؟ . للاجابة على هـــذا التساؤل نجد أن هنـــاك مجموعة من المشـــكلات التى يرى الشـــباب أنها بطـــريقة أو بأخـــرى من صـــنع النظام الســـياسى .

ويعتبر التضـــخم البيروقراطى أو السلطوى من أكثر المظاهر اثارة للشـــباب فيما يتعلق بالنظام السياسى . وفى هـــذا الصدد نجد أن معظم اتجاهات الاحتجـــاج الشـــبابى تتجـــه بلا أســـاس نحـــو البقـــرطة bureaucratization والترشـــيد الوظيفى المرتبط بنمو التكنولوجيا وتطورها . وارتباطا بذلك اتجه جانب من هـــذه الاحتجاجات نحـــو المكانة المفترضة للعلم والنزعة العلمية التى أصبحت تشـــكل أيديولوجيا يستند اليها النظام الاجتماعى والثقافى القائم (١١٧) . وفى هـــذا الصدد يعتبر الهجوم

الطلابى على الجامعة ـ كمؤسسة علمية وبيروقراطية ـ ذا أهمية خاصة . حيث أن كثيرا من انفجارات الشباب تتجه بلا أساس الى البناء البيروقراطى والسلطوى للجامعة . وأيضا بسبب تكثف بنائها البيروقراطى ، وما يترتب على ذلك من اتساع بين الطلبة من ناحية والكلية وادارتها من ناحية أخرى (١١٨) . وبل اننا نجد أن هذه البقرطة لم تتوقف عند مستوى المؤسسات التعليمية . بل تجاوز ذلك ليشمل معظم الأنماط الاقتصادية . حيث نجد أن البيروقراطية والتخصص والنزعة المهنية فى البناء المهنى من أكثر التطورات أهمية فى المجال الاقتصادى . وهو التطور الذى ساعد على زيادة التداخل القوى بين مستوى التحصيل التعليمى من ناحية والمكانة المهنية من ناحية أخرى . بحيث يمكن القول بأن هذه التطورات قد أدت الى ظهور مجموعة من المشكلات والتناقضات فى بعض المجالات مثل مجال الحراك الاجتماعى ، والانتقاء التعليمى ، وانتشار أنماط الاستهلاك (١١٩) . ومما لا شك فيه أن هذا التضخم البيروقراطى يتناقض تماما ونزعة الشباب الى الحرية والابداع والتجديد ، ومن ثم تتخلق امكانية الصدام مع النظام السياسى الذى تشكل البيروقراطية أكثر مكوناته أساسية .

وتتمثل المشكلة الثانية فى رفض النظام السياسى للمشاركة الشبابية وعجزه عن استيعاب متضمناتها . وهو الأمر الذى يعنى أن الهجوم على النمو السلطوى والبيروقراطى للنظام السياسى يرتبط بلا أساس بالخضوع والحرمان من المشاركة التى سوف تترتب على ذلك . وفى هذا الصدد نجد أن جوهر الاحتجاج الشبابى يميل لأن يتحول من المطالب من أجل المشاركة الأكثر فى المجالات السياسية القومية ، ومن المحاولات التى تستهدف التأثير على السياسات الاجتماعية والاقتصادية ، الى اتجاهات جديدة ، تتمثل فى محاولة تعرية هذه المراكز السلطوية من شرعيتها الكارزمية أو من أى شرعية لها على الاطلاق . هذا الى جانب البحث المستمر من جانب آخر عن أسلوب للمشاركة يتجاوز فى فاعليته المراكز الاجتماعية والاقتصادية القائمة بهدف خلق مراكز

جديدة مستقلة عنها (١٢٠) . وارتباطا بذلك يمكن القول بأن هدف الاحتجاج الشبابى خلال الفترة المعاصرة يدور أساساً حول توسيع نطاق المشاركة ، وخلق القنوات الملائمة للوصول الى المراكز الثقافية والسياسية . وأيضا اصلاح مضامينها الاجتماعية والثقافية . هذا الى جانب حل مشكلات المشاركة غير المتكافئة . والبحث عن الأساليب التى تساعد على اضعاف أو تجاوز المشكلات الحادة التى ظهرت نتيجة لنمو النظام الرأسمالى من خلال سياسات هذه المراكز المسيطرة . وبذلك تعتبر المشاركة هى الحل الذى يقدم لكل هذه المشكلات التى تعتبر الأهداف الأساسية لكثير من الحركات الشبابية والقومية فى الفترة المعاصرة (١٢١) . يؤكد ذلك دراسة حول المشاركة السياسية للشباب فى اطار المجتمع المصرى حيث أظهرت الدراسة المعطيات التى يقدمها الجدول التالى (١٢٢) :

جدول يوضح حجم المشاركة السياسية للشباب

البيان	التكرار	٪
يوجد	٢٢١	٨ر٥
لا يوجد	٢٢٢٣	٩٠ر٤
غير مبين	٢٤	ر٩
المجموع	٢٤٥٨	١٠٠ر٠

وتكشف النظرة الى معطيات الجدول السابق أن نحو ٨ر٥٪ من أعضاء العينة التى أجريت عليها الدراسة هم فقط الذين يمارسون نشاطا سياسيا . حتى مع اعتبار مجرد العضوية فى التنظيمات السياسية — كما ذهبت هذه الدراسة — نشاطا سياسيا . بل اننا نجد أن كثيرا من البلاد النامية ترفض تسييس الجامعة تحت حجة أن الطالب الجامعى ينبغى أن يكون طالب علم فقط . بحيث نجد أن سلوكيات النظام السياسى هذه قد تدفع الجماهير الى الانسحاب من المشاركة . غير أن حالة الانسحاب

هــذه قد تفرخ بداخلها تمرد الشــباب على النظــام السياسى فى محاولة لفرض المشاركة تجاوزا لحالة الانسحاب هــذه .

وتشــكل مشكلة البطالة احــدى المشكلات الهامة المســببة للتوتر القــائم بين الشــباب والنظام الســياسى . وترجع هــذه المشكلة فى المجتمعات المتخلفة التى افتتحت النظم التعليمية فيها أبوابها لاستيعاب مرحلة الشــباب مثلما هو حادث فى المجتمعات المتقدمة . غير أن انهيار الترابط العضوى بين النظام التعليمى والاقتصادى فى المجتمع وعدم التنسيق بين مدخلاتهما ومخرجاتهما من حيث الافراد المؤهلين ، من شأنه أن يدفــع الى ظهور مشــكلة البطالة بين المثقفين . وهى المشــكلة التى أصبحت تؤرق النظم السياسية فى هــذه المجتمعات . ومن ثم نجد أن الشــباب فى المجتمعات المتخلفة لا يواجهون فقط الفســاد والانهيار والعناد السياسى ، ولكنهم يواجهون أيضا القلق حول المستقبل الشخصى المحفوف بالمخاطر وعدم الأمان . اذ نجد أن المجتمعات المتخلفة ــ كصيغة واحــدة ــ تنتج شبابا متعلما بأعداد كبيرة تتجاوز الفرص الملائمة لتدريبهم . اذ عادة لا تتيسر الوظائف ســنويا لمئات من الخريجين . الذين يتزايدون بمعدلات عاليــة ، ويشكلون مصــدر اقلاق وتوتر بالنســبة للنظام السياسى خاصــة فى المجتمعات الحضرية (١٢٣) .

ويعتبر تباطؤ الحراك الاجتماعى والقيود المفروضة علية فى بعض المجتمعات من المشكلات الأساسية التى تشــكل نطاقا للمواجهة بين الشباب والنظــام السياسى . وتتمثل المشــكلة الأكثر حدية فيما يتعلق بالحراك الاجتماعى فى ارتفاع مستويات الطموح بين مختلف شرائح الســكان فى مقابل غياب الوسائل التى تتولى اشباع هــذه الطموحات . وفى هــذا الاطار حاولت بعض الصفوات تطوير انماط من الحراك المحدود ، غير انها عجزت عن خلق صيغة ملائمة بين فرص الحراك المتاحة والطلب المكثف عليهــا (١٢٤) . وقد كان من النتائج المباشرة لذلك أن هنــاك كثيرا من الجماعات التى عزلت منــذ بداية حياتها فى اطار بعض المهن ذات امكانية

الحراك المحـــدودة . بحيث ساعدت هــذه الظروف على نمو مشـــاعر الاحباط واليأس داخل المجتمع والاقتصاد المتوسع باستمرار (١٢٥) .

واســـتنادا الى تحديدنا لمجموعة المشكلات السابقة التى تشـــكل نطاقات التوتر بين الشـــباب والنظام السياسى . فاننا نجد أن العناصر الأساسية للاحتجاج الشـــبابى تستند الى الافتراض الأساسى الذى يؤكد أن معظم المشـــكلات الاجتماعية ، كمشـــكلات المشـــاركة الســـياسية ، والمشكلات التى تتولد عن التصنيع كلها مشـــــكلات يمكن حلها من خـــلال اعادة تشكيل وتنظيم البنـــاء السياسى بما يجنبه التناقضات المولدة لمظاهر الأنومى والاغتراب (١٢٦) .

غير أنه من الضرورى على النظم السياسية فى المجتمعات النامية أن تبذل كل جهد لاستيعاب طاقات الشـــباب أثناء مرحلة التنمية والا كان انفصالهم عن النظام الســـياسي ليس الا اضافة لمزيد من التمزقات لهـــذه العملية . فى هـــذا الاطار لا بد أن تتم التربية السياسية والأيديولوجية للشـــباب . وبطبيعة الحال تختلف التربية عن الوصاية التى قد يفرضها النظام الســـياسى من أعلى والتى لا تتيح الدرجة الملائمة من المشـــاركة بل وترفضها كفكرة فى أحيان كثير (*) . اذا حدث ذلك فان موقفا يتخلق يحتوى على شـــباب يتحمل ويعانى من متاعب التنمية . ويقف فى ذات الوقت عاجزا فى مواجهة المؤسسات السياسية الضـــخمة التى تمارس فعاليتها . ومع ذلك فهذا الشـــباب لا يمتلك امكانية التعبير الواضـــح والمشاركة فى صنع قراراتها . بحيث تجلت آثار هـــذا الموقف فى ضعف الإنتماء الاجتماعى الذى يتبدى فى مظاهر كثيرة كانخفاض الانتاج ومحاولات الهجرة المستمرة من المجتمع الى الخارج بحثا عن امكانات تحقق الطموح .

ولتحقيق هـــذه التربية السياسية والأيديولوجية الفعـــالة فانه من

(*) دأبت القيادة السياسية فى الفترة من ١٩٧٠ — ١٩٨١ كثيرا على التأكيد على أن الجامعة للعلم فقط ، وان الطالب ينبغى أن يكون طالب علم فقط ، وليس بخاف أن هذه محاولة لابعاد الشباب عن المشاركة الشبابية .

الضرورى أن يتخذ النظام السياسى مجموعة من الخطوات . أولها ضرورة تحـــديد النموذج الواجب احتذاؤه على الصعيد الاجتماعى والسياسى . هـــذا النموذج لا بد أن يتصل عضويا بالأيديولوجية العـــامة ويشتق منها . وفى هـــذا الصدد من الضرورى أيضا مشاركة الشــــباب فى فرض النموذج وتطويره بما يلائم احتياجاتهم ويعكس طاقاتهم ويواكب التفاعلات الاجتماعية المحيطة . فاذا لم تحدث دعوة للمشاركة الفعالة ، فسوف يتجه الشـــباب الى البحث عن هـــذا النموذج عند جماعات تمتلكه وتتيح امكانيات المشاركة . وفى ذلك انفصال للشـــباب عن المجتمع .

غير أن هـــذه التربية السياسية والدعوة الى المشاركة لا بد وأن تتم حسب منطق أيديولوجى متماسك ومحدد المعالم . وفى هـــذا الاطار لابد أن نبتعد قدر الامكان عن الانتقاء الأيديولوجى أو تأسيس النماذج وفرضها على الشـــباب من الخارج ، أو من أعلى . وانما يجب التفاعل بشـــأنها لتنبع من اســـفل وترتبط عضـــــويا بالقاعدة الشـــبابية . بحيث يكون أساسها الصراحة والتعبير الحر وصراع الأفكار المتناقضة ، حتى يمكن الوصـــول الى شـــمولية أيديولوجية يشارك فى تخليقها الجميع ، ومن ثم يتولد لديهم التزام بها . واســـتنادا الى ذلك فان هـــذه الشـــمولية التى نصل اليها لابد أن تبدأ من الشباب ، ويكون دورنا هو مجرد مساعدتهم على التفكير بحرية ، وأيضا ارشادهم الى اختيار الطريق ، لأنهم سوف يتحملون معاناة السير فيه . فالشباب بلا شك هم أصحاب الحق ، لأن الحاضر لهم . تحقيق التغير فى قدرتهم . فأفقهم أكثر انفتاحا على المســـتقبل ، وهم أكثر من الشـــيوخ احساسا بالتغير وكيفه ، بأهدافه ، وزمانه . من هنـــا ، فالتسيس اذا أصبح راقيا على هـــذا النحو الذى أشرنا اليه ، فانه يصبح جهدا ايجابيا وفعالا فى تأسيس التنمية ، واعيا بقضاياها ، وداعيا الى المشاركة فى حل معضلات المرحلة .

(جـ) اذا كنا فى الفقرة الأولى قد تعرضنا للظروف العالميـــة التى ساعدت على اثارة بعض التغيرات الاجتماعية والسياسية فى بنية مجتمعات

النظام العالمى خاصـــة مجتمعاته المتقدمة . واذا كنا قد عرضنا لاســـهام النظام فى تأسيس حركات التمرد الشـــبابى ، فاننا سوف نركز خـــلال هـــذه الفترة على الشباب باعتبارهم الطرف الأساسى فى الحركة الشبابية المعاصرة . ما هى الظروف والعوامل التى جعلت منهم مجتمعا أو قوة واحدة تتأثر بمتغيرات النظـــام العـــالمى وذات قدرة على الصراع مع النظـــام الســـياسى وربما تجاوزه .

واذا حاولنا أن نحـــدد العوامل الدافعة الى ظهور هـــذا المجتمع الشبابى . فاننا يمكننا أن نربط بين ظهوره ونشـــأة نظام التعليم الجامعى الشـــامل وانتشـــاره . بالاضافة الى ارتباط ذلك بظهور الجيوش التى تتبع نظام التجنيد والخدمة الالزامية . فقد ساعدت هـــذه الظروف على ظهور الشـــباب كشريحة اجتماعية متميزة خلال العقود الثلاثة الأخيرة . وقد ارتبطت هـــذه التحولات بتأخير مرحلة البلوغ أو الكبر فى المجتمعات الحديثة ، وهو التأخير الذى يعنى استبعاد مجموعة من البشر الذين فى سن الشـــباب من المشاركة الكاملة فى قوة العمل . بحيث أدت كل هـــذه التغيرات الى تركيز الشـــباب فى نطاقات منفصلة . وهو التركيز الذى ســـاعد على نمو الوعى الجمعى والاحساس بالتميز بينهم . بحيث يمكن القول بأن كل هـــذه التحولات قد خلقت — فى حالة عـــدم اشباع الحاجات الأساسية — الأساس الدافعى من أجل قيام الحركات الجمعية للمعارضة ، داخل هـــذه النطاقات الشـــبابية (١٢٧) .

ولا يمكن القول بأن هـــذه التطورات النظامية هى التى دعمت وحدها الاحساس بالتميز والوعى الجمعى بين الشـــباب . فالى جانب التجمـــع الفيزيقى للشـــباب نجد أن التكنولوجيا قد لعبت دورها فى تقرير فكرة الشـــباب وتعميمها كنموذج اجتماعى متميز . وفى هـــذا الصدد يمكن الاشـــارة بطبيعة الحال الى ظهـــور الاعلام الجمـــاهيرى ، حيث بدات تجديدات الإتصال والاعلام تلعب دورها فى الحيـــاة اليومية للشـــباب ، منها التليفزيون ، أجهـــزة التسجيل ، والاستريو ، الراديو ، وأجهـــزة

الفوتوجراف ، والكتب الرخيصة الثمن . بحيث أدت هـــذه التجديدات التكنولوجية بالاضافة الى التطوير المستمر للمخترعات القديمة كالسينما ، وغير ذلك الى خضوع الشـــباب لحملة اعلامية واتصالية واسعة النطاق . ومن ثم يمكن القول بأن الشـــباب الذى ربى فى الفترة التالية للحرب العالمية الثانية قد ربى فى درجـــة لا مثيل لها من البث الاعلامى . بحيث أصبح الاعلام والاعلان سوقا واســـعة ، ذلك لأن الشـــباب فى مجموعهم — من وجهة نظر صناع الاعلان والاعلام — برغم استبعادهم من قوة العمـــل ، الا أن لديهم بلايين الدولارات الموجهة نحـــو الاستهلاك أساساً (١٢٨) .

واســـتنادا الى فاعلية هـــذه العوامل ظهرت ثقافة الشـــباب فى المجتمعات النامية منـــذ عشرات السنين . ومع ذلك لم ينظر الى الشـــباب باعتبارهم يشـــكلون ثقافة فرعية معادية أو مختلفة الا أخيرا . واذا كان شباب الأحياء المتخلفة يميلون الى الانخراط فى بعض الثقافات الفرعيـــة المنحرفة . فاننا نجد أن الشـــباب المثقف المنتمى الى الطبقـــة الوسطى والملتحق بالتعليم العالى يميل الى تبنى أساليب تتمحور حول بعض الممارسات النقدية للبيئة الاجتماعية والســـياسية المحيطة به . وبغض النظـــر عن الانتماءات الطبقية والاجتماعية للشباب ، فانه يمكن القول بتخلق تجانس فى مضمون ثقافة الشباب بفعل تأثير أجهزة الاعلام . حيث نجد أن شباب اليوم المنتمى الى مختلف الشرائح والأقاليم أو المواقف أصبح يميل بصورة متزايدة الى سماع نفس الموسيقى ، وأسلوب الزى ، وذات الرموز واللغة ، وحالة القلق العام . بحيث يمكن القول بأن ثقافة الشباب الجديدة تعتبر فى كثير من جوانبها من خلق أجهزة الاعلام ، وصناعة ســـلع الاستهلاك التى لها مصلحة تجارية فى استغلال سوق الشـــباب الواسع والمستعد دائما لشراء المواد الضرورية لموافقة عليـــه باعتباره مشاركا مخلصا فى هـــذه الثقافة الفرعية (١٢٩) .

ذلك يعنى أن تخلق شريحة الشـــباب بفعل عوامل عديدة شـــكل الشرط الرئيسى لتخلق الشـــباب كجماعة ووقوفها فى وجـــه النظـــام

السياسى أو البداية الحقيقية للتمرد عليـــه . اذ يؤدى التحرر من الخوف من النظام القائم ، ومن وهم أجيال الآباء ، الى اتجاه الشباب نحو البحث عن صلات محـــددة مع الفلاحين ، والفقــراء فى مختلف قطاعات المجتمع الأخرى . ومن الطبيعى أن تدعم الروح القومية المتصاعدة هــذه الحركة ، التى تؤدى فى النهـــاية الى بلورة احساس الهوية بالنسبة للبشر فى أمة معينة ضد الحكام الفاسدين والكبار المتسلطين فى المجتمع . وبرغم ذلك ، فمن النادر أن نجد الانســـان العادى — خاصـــة فى المراحل الأولى من تمرد الشباب — يستجيب للاثارة ضد النظام السياسى والكبار . وذلك بسبب ثقل وزن ودور الثقافة التقليدية ، ووطأة الضرورة الاقتصادية على وعى الجماهير . ولقد كان هــذا الموقف هو المســئول عن خلق التناقض القائم فى كثير من المجتمعات المتخلفة . حيث الجمـــاهير محرومة ، ومقهورة ، غير أن البداية الحقيقية للصراع ضد الحالة الراهنة تظهر مع ذلك من بين المثقفين من الشـــباب المتيسر ماديا . حيث تتيسر فاعلية هــذه المجموعة الشـــبابية بسبب الحرية التى يتمتع بها شباب الطلبـــة . وهى الجماعة التى يحميها الاســـتقلال التقليدى للجامعة ، وهو الاســـتقلال الذى توافق عليه أكثر النظم السياسية تسلطا (*) . ومن ثم يصبح شباب الطلبة هم الجماعة الوحيدة التى تمتلك الحرية لتنظيم التمرد السياسى . ولمـــا كان شباب الطلبة هم فى نفس الوقت أبناء الاطار الاجتماعى للصفوات الحاكمة . فانه كان من الصعب فى أحيـــان كثيرة أن يتبع النظام الســـياسى وسائل القهر الوحشية معهم . ذلك أنه اذا استخدمت الوحشية مع شباب الطلبة

(*) من الواضح أن كثير من الحركات الثورية ومظاهرات العنف والتمرد فى كثير من المجتمعات النامية بدأت فى غالب الأحيان من داخل الحرم الجامعى . ولعل الدور الشهير الذى قامت به الجامعة الايرانية فى الثورة الايرانية خير شاهد على ذلك . بل اننا نجد ان النظام السياسى فى مصر ١٩٧٠ — ١٩٨١ دأب كثيرا على مواجهة الجامعة ومحاولة قصر دورها على التعليم دون الاهتمـــام بأحداث الواقع . وغالبا ما كانت الزعامة السياسية خلال هــذه الفترة تطلق على أعضاء الحرم الجامعى صفات كثيرة (كالارزال) و (الافندية) ، وغير ذلك مما لم يعرفه أدب الخطـــابة الســـياسية .

الذين يعيشون نفس مكانة الصفوة ، فان ذلك سوف يكون أكثر ضررا بالنسبة للنظام السياسى القائم من أنه لو استخدم هذا القهر ضد الفلاحين أو الحشد الحضرى (*) (١٢٠) . يضاف الى ذلك أنه مما يساعد على تخلق وحدة هذا المجتمع الشبابى الاحساس المادى والمعنوى بوطأة وقهر النظام السياسى فى مقابل الحرية النسبية المتاحة لهم ، ودعم أقاربهم فى الصفوة لهم هذا الى جانب أن هناك شرائح القاعدة الشبابية التى تعيش فى ظل فقر واضح وعدم أمان اقتصادى مستمر أيضا .

ما سبق يشكل اذا مجموعة الظروف التى أدت — من الناحية الكلاسيكية — الى ظهور حركات الشباب خاصة قطاع الطلبة . وهى الحركات التى عبرت عن اتجاهات قومية وشعبية للتوحد مع الفقراء ، والعدائية المفرطة تجاه جيل الآباء ، والاعتقاد القوى فى السلامة الأخلاقية والطبيعة المتجددة لتفاعلات الشباب . وأيضا الشوق المستمر الى ثقافة جديدة مستندة الى مبادىء الأخوة والجماعة ، وحرية التعبير ، والمساواة ويمكن القول بأن هذه الحركات قد نجحت فى كثير من الحالات فى اسقاط النظم عن طريق الفعل الجماهيرى . وفى حالات خاصة كما هى الحال فى روسيا والصين ، وفيتنام ، نجد أن هذه الحركات الشبابية قد قدمت البشر الذين قاموا بتنظيم وقيادة الاحزاب الثورية الناجحة التى كسبت ولاء

(*) بغض النظر عن حركة الشباب العالمية المعاصرة . فاننا نجد ان الشباب المثقف ، والجامعى بالتحديد ، هو الذى كان يشكل دائما رأس حربة التمرد سواء بالنسبة للقاعدة الشبابية غير المثقفة أو بالنسبة لجماهير الواقع الفقيرة والمعانية نتيجة للمشكلات التى يخلقها سلوك النظام السياسى . وفى هذه الصدد يمكن تفسير لماذا طلبة بعض كليات معينة هى التى تقود عادة التمرد الشبابى داخل اطار بعض الفترات التاريخية . فقبل قيام الثورة كانت كليات الحقوق هى كلية أبناء الصفوات وهى التى كانت تقود عادة المظاهرات السياسية الموجهة ضد النظام السياسى فيما قبل ١٩٥٢ ، بينما نجد أن كليات الهندسة والطب والاقتصاد والسياسة هى التى تولت قيادة حركات التمرد الشبابى فى الفتر ما بعد ١٩٥٢ ، وذلك لاتجاه أبناء الصفوات من ناحية الى هذه الكليات ، ومن ناحية أخرى لبروز الأهمية البنائية والوظيفية لهذه الكليات فى مجتمع ما بعد ١٩٥٢ .

الجماهير . وبرغم أن حركات الشباب والطلبة لا تحقق أحيانا أهدافهـــا وطموحاتها من خلال جهود الشباب والطلبة باعتبارهم طلبة . فانهم فى غالب الاحيان يشكلون الاطار الذى يفرخ هؤلاء الذين سوف يقودون الحركـــات الجماهيرية ذات الطبيعة القومية ، اصلاحية كانت أم ثورية (١٢١) .

٤ ــ النظام التعليمى كاطار لبعث الحركة الشبابية :

لا شك أن النظام التعليمى قد لعب دورا محوريا فى بناء الحـــــركة الشبابية المعاصرة التى هزت استقرار عالمنا المعاصر . وترجع أهميـــة النظام التعليمى بالنظر الى كونه النظام الذي أصبح يترك طابعـــه على الشباب ــ خاصة فى المجتمعات المتقدمة ــ لانه هو الذى يتولى تأهيلهم للحياة العامة مهنيا واجتماعيا وثقافيا . ومن ثم فمن المنطقى حتى تنجح عملية التأهيل هذه أن تسود هذا النظام درجة عالية من الحرية . وهى الحرية التى تتيح امكانية التفاعل والتعبير الحر خاصة فيما يتعلق بنظـــام التعليم الجامعى . بالاضافة الى ذلك فان هذا النظام هـــــو الذى يتولى تأسيس الوعى الشبابى فى مختلف جوانبه . كالوعى بوجود الشريحـــة الشبابية فى حد ذاتها كشريحة تختلف عن الشرائح الاخرى فى المجتمع . وأن لهذه الشريحة سلبياتها كما أن لها ايجابياتها أيضا . ويعنى امتلاك الوعى ادراك طبيعة الواقع المحيط . ومن ثم التدخل أحيانا لاعادة توجيه مساره ، فى اتجاهات محددة . وقد يقال أن النظام التعليمى تقتصر فاعليته على قلة هى التى أتيح لها حظ الحصول على فرصته . بيد أن الرد على ذلك يؤكد أنه اذا كان النظام التعليمى لا يتولى مباشرة صياغة الشريحة الشبابية ، فانه على الاقل يكون قادرا على توفير القيادات الشبابيـــة الواعية والقادرة على قيادة شريحة الشباب . هذا الى جانب أننا نجد أن النظام التعليمى يعتبر فى المجتمعات الحديثة المدخل الرئيسى للتدريب على المشاركة الاجتماعية والسياسية والثقافية . وأيضا للتأهيل من أجـــــل الحصول على فرص العمل للمشاركة الاقتصادية فى بناء النظام القائم .

وبالتالى المشاركة الاجتماعية المترتبة على ذلك . وهو الأمر الذى يؤكد على المكانة المحورية لهذا النظام داخل بناء المجتمع .

ويكشف البحث فى تاريخ النظام التعليمى وعلاقته بالبناء الاجتماعى أن عملية التعليم فى المجتمعات القديمة كانت تنقسم عادة الى مجموعة من العمليات الفرعية المنفصلة . وهو الامر الذى يستحق أن نشير اليه فى هذا الاطار . فقد كانت هناك النظم التعليمية المركزية والاساسية التى اتجهت فاعليتها بلا أساس نحو تدريب أو تعليم الصفوة وأبناء الطبقة العليا . وأيضا فى المساعدة على تطوير التراث الثقافى للمجتمع بتجلياته المتنوعة . وقد اتجهت النظم التعليمية المحلية التى كانت واهية الارتباط بالنظم المركزية أساسا نحو الحفاظ على استيعاب مختلف الشرائح الاجتماعية للرموز الاساسية للمجتمع وتمسكهم بها . وبرغم ذلك فان هذا التمائل لا يسمح للنظم التعليمية المحلية بالمشاركة بدرجة أكبر فى المناشيط الثقافية والسياسية الخاصة بالمجتمع ككل . وبين النمطين التعليميين توجد عديد من النظم التعليمية التى تساعد اما باعتبارها قنوات للحراك فى المجالات السياسية للمجتمع ، أو لكونها تقوم بنوع من التأهيل المهنى المحدود (١٣٢) .

وعلى أى حال فقد عملت النظم التعليمية فى هذه المجتمعات على الحفاظ على استمرار ما هو قائم بدون أى تغيير . وفى هذا الاطار لا يلعب النظام التعليمى دوره هنا باعتباره قناة للحراك الاجتماعى والمهنى الشامل . أو باعتباره وسيلة لتزويد الشرائح المختلفة بالقدرة على المشاركة الفعالة والشاملة فى النظام السياسى والثقافى . ويتحدد نمط التعليم الذى يمكن توفيره بالنسبة للطبقات المختلفة الى حد كبير — وان لم يكن بصورة نهائية — بواسطة مكانتها الاجتماعية الاقتصادية . ومع ذلك فقد بدأ هذا الموقف يتغير بوقوع التحديث ، وبخاصة فى أعقاب الثورة الفرنسية من ناحية والصناعية من ناحية أخرى ، حيث بدأ التعليم يتناول المشكلات المتعلقة بالمجتمعات القومية الجديدة ورموزها المشتركة . هذا الى جانب أن التعليم قد أصبح أكثر انتشارا بالنسبة لمختلف الشرائح . وفى نفس

الوقت ، فقد بدأ التعليم يؤدى دوره بصورة متزايدة كقناة للانتقاء المهنى . وفضلا عن ذلك يميل نسق التعليم الى أن يصبح أكثر مركزية وتكاملا من الناحية البنائية ، ومن ثم يؤكد على تغلغله فى مختلف شرائح المجتمع (١٢٣).

ذلك يعنى أن النظام التعليمى فى المجتمع الحديث أصبح يتميز بعدة خصائص أساسية أولها إنتشاره حتى أنه يشمل كل أفراد المجتمع ممن هـم فى سن التعليم . بحيث اقترب من المستوى الذى أصبح فيه حقا من حقوق المواطنة . وثانيا أنه بدأ يلعب دورا عمليا على مستوى الحياة الفردية منذ اعتبـاره وسيلة للحراك الاجتماعى من ناحية ، وأساسا للتأهيـل المهنى لتوفير احتياجات المجتمع من ناحية أخرى . ذلك يدفع الى القول بأن النظام التعليمى أصبح يمثل مكانة محورية فى بناء المجتمعات المعاصرة لطبيعة الدور الذى بدأ يؤديه . فاذا حاولنا تحديد الوظائف التى يؤديها النظام التعليمى بالنسبة للحركات الشبابية والطلابية ، فاننا سوف نجد أنه يقوم بالوظائف الاساسية التالية :

(أ) فمن ناحية نجد أن النظام التعليمى قد ساعد على خلق المجتمع الشبابى من خلال تركيزهم وعزلهم عن الفئات الاجتماعية الاخرى . وفى هذا الصدد نستطيع القول بأن التوسع السريع فى التسهيلات التعليميـة شكلت المحدد الاساسى الذى ساعد على تركيز الشباب وعزلهم فى ظل نظام محدد عن بقية أعضاء المجتمع . اذ يعتبر وجود النظم التعليمية المتقدمة هو السبب الرئيسى لوجود الشباب كمرحلة من مراحل الحياة . وأيضا كشريحة عمرية لها ملامح اجتماعية محددة . واذا كان التاريخ قد شهد ـــ حسبما أشرنا ـــ أن النظام التعليمى كان وقفا على عدد محدود من شباب الصـفوة فانه خلال العقود القليلة السابقة أصبحت المدرسة متاحة لجماهير واسعة من الشباب . بل اننا نجد أن عملية ادخال الشباب فيما بعد مرحـلة المراهقة داخل النظام التعليمى قد تزايدت فى الحقبة الاخيرة . اذ تزايدت المدارس والكليات الجامعية حتى أصبحت تؤدى خدماتها فى كل نطاق(*)(١٢٤)

(*) مما يذكر أنه قد حدثت تطورات هامة فى التعليم الجامعى فى مصر وهى التطورات التى كان من نتيجتها انشاء عدد كبير من الكليات والجامعات =

ذلك يعنى أن ظهور التعليم العالى وتوفره بشكل جماهيرى يعتبر من أهم التغيرات داخل نظامنا العالمى المعاصر . وبغض النظر عن أى شىء آخر . فقد ساعد هذا المستوى التعليمى على خلق المجتمع الشبابى عن طريق تجميع واسع المدى لكل من هم بين سنى ١٧ — ٢١ سنة ، وعزلهم عن الجماعات الاخرى . بل والابقاء عليهم بعيدا عن المشاركة الكاملة فى سوق العمل . بالاضافة الى ذلك فقد أدى النظام التعليمى الى تخليق مجموعة من الآثار الأساسية التى يمكن حصرها ، وذلك بالنظر الى مجموعة الوظائف الاجتماعية التى يؤديها فى بناء المجتمعات المعاصرة ، وهى الوظائف التى نتعرض فيما يلى لبعض جوانبها .

— فقد تطلب نمو البيروقراطية العامة والمؤسسية توفر أعداد متزايدة من موظفى الادارة من المستوى العالى والمتوسط . بالاضافة الى عدد هائل من الاشخاص ذوى المهارات الفنية والمهنية المتقدمة ، لاغراض البحث والتطوير والتخطيط والتآزر بين مختلف القطاعات والخدمات الاجتماعية وما الى ذلك .

— يؤدى الالتزام بالتنمية التكنولوجية المستمرة الى الحاجة الى أعداد هائلة من المهندسين والعلماء والفنيين الاخرين لكى ينجزوا عمليات البحث والتطوير الضرورى لدفع التغير التكنولوجى ودعمه . وفى الفترة التالية للحرب ، تركز هذا التغير بصورة متزايدة فى القطاع العسكرى ، غير أنه امتد بالطبع الى مجالات أخرى بنفس القدر . وعلى سبيل المثال نجد أنه قد لوحظ فى السنوات الاخيرة نمو سريع فى كل الخدمات المرتبطة بالرعاية الطبية والصحية ، وارتفاعا ملازما له فى الطلب على الاشخاص الفنيين

= حتى أصبح لكل محافظة جامعتها تقريبا . غير أن ما يعيب هذا الانتشار أن هذه الجماعات لم تختلف حسب اختلاف بيئاتها الأيكولوجية والاجتماعية . وانما بقيت عند كونها نسخا مشوهة من النموذج الأم . هـذا الى جانب النقص الفادح فى هيئات تدريسها ، مما يجعلها كيانات هزيلة تضر بالتعليم الجامعى أكثر مما تساعد على نشره وتطويره .

والمهنيين والمتخصصين فى آداء الخدمات ، وهو الجهــد الذى ينبغى على النظام التعليمى اداؤه لتوفير هؤلاء المتخصصين بأعدادهم المطلوبة .

ــ أن نمو المؤسسة التعليمية ذاتها تطلب أشخاصا جدد على كل المستويات . وفى الحقيقة أصبحت صناعة التعليم واحدة بين أكثر القطاعات الاقتصادية اتساعا ., وذلك بسبب التغير التكنولوجى ــ وأيضا لاعتبار المستوى التعليمى الذى يستطيع الفرد تحصيله هو المعيار الوحيد للتقدم على المستوى الشخصى . ومن ثم أصبحت الحاجة الاساسية الى الأفراد المؤهلين أحد الدوافع الرئيسية للتوسع فى هذه الصناعة . وعلى هــذا النحو تطورت المدارس من حيث الحجم والكيف لكى تدرب بشرا أكثر قادرين على شغل الوظائف التى خلقها النظام التعليمى المتنامى .

ــ بالاضافة الى ذلك فقد أدى تزايد مساحة وقت الفراغ ، وتزايد مستويات الدخول غير المرتبطة به الى خلق أنواع جديدة من الترفيه فى مجال الخدمات والتسلية . ومن ثم فان العمال الذين ينجزون هذه الخدمات يحتاجون الى مستوى عال من التعليم والتأهيل لآدائها .

ــ انتقلت مهمة التدريب لآداء الأعمال والوظائف بصورة ملحوظة من الصناعة ذاتها الى النظام التعليمى .. حيث نجد أن كافة أشكال التدريب المهنى التى كانت من مهام المؤسسات المختلفة ، أصبحت تؤديها المدارس العليا والكليات التى لها ميزانيات مرصودة لهذا الغرض .

(ب) انه الى جانب الآداء الوظيفى الذى يؤديه النظام التعليمى على مستوى بناء المجتمع ككل ، فان له آداؤه الوظيفى بالنسبة للنظام الاقتصادى فى المجتمع . اذ يتمثل القصد من التوسع فى الاستثمار فى التعليم العالى ونشره ليحتوى بداخله على معظم البشر من الشباب فى توفير الاحتياجات الأساسية للنظام الاقتصادى الذى تنامى كثيرا خلال العقود الخمسة الأخيرة حيث اصبحت الحاجة ماسة الى تأهيل وتدريب قوة العمل بالمستوى الذى يؤهلها للاستجابة لاحتياجات التكنولوجيا المتقدمة والتنظيمات البيروقراطية

المتوسطة . ولم تعد مهمة النظام التعليمى تأهيل الطبقة الحاكمة فى المستقبل ولكنه أصبح الآن يركز على توفير جماهير البشر القادرين على آداء العمل المتطور الخاص بالتطور التكنولوجى والادارة الاجتماعية .

ومن وجهة نظر صانعى السياسة الاجتماعى الذين يتولون تخطيط نظام التعليمى العالى ودعمه ، فان الهدف ليس ببساطة تدريب مجموعة من المتعلمين تعليما عاليا ، ولكن تأسيس ميكانيزم للانتقاء الفعال بالنسبة للأدوات المهنية العليا . وعلى هذا النحو ، فانه كان على النظام التعليمى أن يصبح هو السبيل الاساسى من أجل الحراك الى أعلى ، وهو الطريق الذى ييسر لملايين البشر الحصول على دخول مريحة ومكانة عالية نسبيا حتى ولو كانت عائلاتهم لا تمتلك ثروات حقيقية .

ومن الواضح أن التعليم أصبح هو الطريق المتاح بالنسبة لمعظم الشباب الذين ترجع أصولهم للطبقة العاملة ، والذين يعيشون فى مستوى منخفض من الدخل ، وقد كان من الممكن أن يصبحوا خارج نظام التعليم الجامعى الحديث . ومما لا شك فيه أنه يمكن القضاء على التفاوتات الاجتماعية من خلال النظام الدقيق للانتقاء والاختيار ، وهو النظام الذى يتخذ مظهر مكافأة الفرد على أساس من مؤهلاته الشخصية . وعلى هذا النحو فاننا نجد أن من الوظائف الرئيسية للنظام التعليمى — خاصة فى المجتمعات الرأسمالية — أن يعمل على خلق وهم أن المجتمع يعمل على زيادة المساواة فى الفرص بالنسبة للشباب بغض النظر عن أصولهم الاجتماعية (١٣٥) .

(جـ) أنه بغض النظر عن الوظائف الظاهرة التى يؤديها النظام التعليمى ، فان هناك بعض الوظائف الكامنة غير المقصودة وهى التى تتمثل فى تطوير الوعى النقدى لدى أعضاء المجتمع الشبابى . وهو الامر الذى يساعد على خلق حالة من عدم الاستقرار الاجتماعى . ويتضح ذلك من أنه برغم ادعاء أصحاب النزعة الانسانية أن التعليم الليبرالى يتجه نحو الانهيار ، فاننا نجد أن نسبة كبيرة من الشباب الطلبة لا يمكن تنشئتهم بدون التعرض لقدر كاف من التراث الثقافى — وبخاصة للافكار والعواطف التى

تحتل مكانة محورية بالنسبة للحضارة المعاصرة ـــ وأيضا لمجموعة الافكار والوظائف التى تطرح البدائل الاجتماعية والثقافية لما هو قائم . أو أنها تعمل على تزويدهم بالادوات اللازمة لانجاز التحليل النقدى للنظام الاجتماعى ." وفى الحقيقة فانه من الصعب أن تؤدى الجامعات وظائفها الظاهرة المتعلقة بتدريب المديرين والعلماء والمثقفين بدون تدريبهم على النقـــــد العقلانى للاوضاع الراهنة . وليس من المدهش أن بعض الشباب يعتقدون بجدية فى هذه الأفكار ويستخدمونها فى فهم وتفسير تفاعلات العالم المحيط بهم .. وعلى سبيل المثال نجد أن بعض الشباب يتساءل بشأن عـــــدم المساواة العنصرية ، النزعة المادية ، الوسائل السلطوية للضبط الاجتمـــــاعى ، استخدام العلم لأهداف التدمير ، اللغو السياسى ، الدعاية المتحيزة ، والدين الذى يستخدمه النظـــام الاجتماعى ، وعديد من الخصائص الأخرى للحياة المعاصرة . بحيث تشكل هذه القضايا دافعا يقود الى التمحيص والنقد مزودين بالكتب التى يقرأونها ، والدروس والمحاضرات التى تلقى عليهم .. ذلك يعنى أن التعليم والجامعة يؤهلان الفرد عادة بالقدرة على نقد النظـــام الأجتماعى المحيط . وفضلا عن ذلك ، فاننا نجد أن هناك شريحة لها وزنها من شباب الطلبة أصبحت تشكل جماعات من المثقفين ذوى الفعالية .. وهى الجمـــــاعات التى اختارت ان تبذل حياتهـــــا فى نقد وتفسير الثقافـــــة وتجديدها (١٣٦) .

ومن النتائج الهامة لتعليم الشباب تزويدهم بالقدرة على التحليـــل النقدى ، حيث يتجه الطلبة الى نقد تجربة الجامعة ، وليس نقد النظام السياسى فقط ، باعتبار طبيعتها الأساسية هـــــذه . فطالما أن سلطات الجامعة تؤدى دورها استنادا الى افتراض ان الطلبة ليسوا كبارا بالغين، ومن ثم ليست لهم حقوق البالغين فيما يتعلق بحق التعبير السياسى أو التصرف فى الشئون الخاصة . باعتبارها تشكل جانبـــــا هاما فى التنظيم الجامعى . وفى ظل هذه الظروف فليس من المدهش أن تصبح القيودالتقليدية التى تفرضها الجامعة على الحياة الاجتماعية للشباب واشرافها الدقيق على سكناهم ، وميلها لمراقبة صحائف الحائط الجامعيـــــة وكذلك اجتماعاتهم

وخطبهم وتنظيماتهم غـــير القانونية ، موضع اهتمام جماعى من قبـــل الطلبة .

وفى هذا الاطار فان ممارسة الجامعة لهذا النمط من الرقابة الابوية يعتبر رمزا ساذجا نسبيا لتناقض أكثر خطورة فى خبرة الجامعة ذاتها . حيث يعيش الشباب موقفا محيرا . فهم يتوقعون أن يكونوا بالغين وأطفالا فى ذات الوقت . وهم يريدون أن يكونوا مستقلين وتابعين فى ذات الوقت أيضا . متحررين من الرعاية الأبوية ، ومستقلين ومتكيفين أيضا . بحيث ينعكس ذلك فى مجموعة المعايير والممارسات المستقرة والمسلم بها من قبل الجامعة والتعليم العالى (١٢٧) .

(د) بالاضافة الى ذلك نستطيع القول بأن الجامعة كنظام فرعى من النظام العام هى التى خلقت المجتمع الشبابى ذاته . فالى جانب أنها جمعت هذا العدد الهائل من البشر فى مكان واحد نجد أنها من ناحية أخرى قـــد وفرت قدرا من الحرية غير المتيسرة فى أى مكان آخر بالمجتمع فالوقت حر ولا رقابة عليه . وفى هذا الاطار نجد أن شباب الجامعة يكونوا عادة أحرارا من رقابة واشراف الآباء ، ومحررين فى ذات الوقت من وقت العمل فالشاب يمتلك وقته ، وهو لا يحتاج الى ان يعطى تقريرا عنه لأبويه أو لصاحب العمل .

الى جانب ذلك فانه من المتوقع أن يستخدم شباب الجامعـــة بعض وقته لتجريب أفكاره واسلوب حياته والتعبير عن ذاته . اذ ينظر الشباب الى سنوات الجامعة باعتبارها فرصة مشروعة لتطوير ابداعيته وفرديته . فمن المشروع له أن يسهر الليل بكامله فى مناقشات فلسفية مع زملائه . بامكانه أن يجرب الجنس ويؤسس علاقات صحيحة مع أعضاء من الجنس الآخر . أن يكون منفتحا فى مواجهة الافكار والممارسات غير التقليدية ، وذلك بدلا من تنظيم الوقت حسب وقت محدد بهدف الانتاج . وعلى هذا النحو ، أصبح من الواضح أن أحد الاسباب الرئيسية لامكانية تعبئة الشـــباب الجامعى فى كل أنحاء العالم من أجل الفعل السياسى ، لأن لديهم الوقت

الكافى والطاقة الفائضة أكثر من أعضاء المجتمع الآخرين . وفضلا عن ذلك، فانه مسموح للشباب ومتوقع منهم أن يتفاعلوا مع العناصر الجديدة فى بنـــاء الثقافــــة .

الى جانب ذلك نجد أن مكانة الطالب ودوره من العناصر التى يسودها التناقض داخل مجتمع الجامعة . فمن ناحية نجد أن الطالب يتمتع بقدر من الحرية الناتجة عن تحرره من الرقابة الابوية ومن رقابة العمل . غير أنـــه فى ذات الوقت عليه أن يكون منضبطا فى حضور المحاضرات التى تتولى توسيع نظرته ومداركه للحياة . بحيث نجد أن الشباب متكيف فى جانـــب ورافض فى جانب آخر . غير أن هذا التوازن بين التكيف والتمرد داخل الجامعة قد ينهار اذا واجه المجتمع أو على الاقل مجتمع الجامعة حالة من الانهيـــار الثقافى أو المعاناه الناتجة عن ازمة الهوية . وحينئذ قد يبدأ الطلبة فـــى مناقشة المناهج طالما أنهم مطالبون بالتنظيم الذاتى وذلك لأن هذه المناهج تفترض حيوية الثقافة التى أصبحت مهجورة من وجهة نظرهم . ويبدأ الشباب فى الشـــعور بأنهم يدربون مع أجل مهن لا وجـــود لها . وان وجـــدت فهى غير ملائمـــة لطموحاتهم ونتيجـــة لذلك فهم يرغبون فى اســـتمرار حياة التلمذة بلا نهاية . ويتساءلون لماذا لا تمارس الحياة من أجل تطويـــر الذات وتنميتها ؟ لماذا نقصر تنمية خيال الشباب وابداعه ، وقيمه وأساليب حياته فى اطار عدد محدود من سنوات حياته بواسطة سلطة خارجية مرفوضة ؟ . وفضلا عن ذلك ، أليس من المرفوض اخلاقيا أن تكون هذه الحرية متيسرة فقط لعدد محدود من الشباب ، وهو الشباب الذى تيسر له حظا من التعليم الجامعى . من الذى أعطانا الحق فى هذه الحرية المترفة ، بينما بقية العالم مشدود بالحاجة الاقتصادية الطاحنة الى العمل الشـــاق ، أو المنظم ، والمسئولية الثقيلة ؟

وعلى أى حال فان ما اريد أن أوضحه هو أن الجامعة قد قدمت أنواعا محدودة من الحرية لشبابها — حرية كافية حتى أن بعضهم أصبح قادرا على التعبير السهل عن سخطه وشعوره بعدم الرضا . وقد أدى تذوق الحريـــة

على هذا النحو الى الشوق الى توسيع نطاقها واستمرارها . وفى هــذا الاطار تخيل كثير من الشباب الطلبة أن الحياة لا بد وأن تكون مستندة الى الحرية . بينما ناقش آخرون مشروعية تمتعهم بهذه الامتيازات . بينما هناك كثير من الشباب الجامعى الذى مارس الحياة الجامعية بجدية كاملة . حيث افترضوا ان عليهم أن يدركوا أسلوبهم الحر فى التفكير ، وعشـــوائية التعبير فى اطارها ، وأيضا بعض خصائص المشاعية التى تسودها كتجربة لا بد من تذوقها ثم نهملها بعد ذلك . هذا الى جانب ادراكهم أن حق المشاركة فى هذه الحياة كبالغين هو حق مقصور على عدد محدود من الاشـــخاص الذين وافقوا على الزام انفســـهم بتحمل أعباء التلمذة وقيودها المفروضة على الذات (١٣٨) .

واذا كانت الحياة الجامعية قد أثارت فى الشباب الجامعـــى الاسس العاطفية والعقلية للنقد الاجتماعى والمعارضة الثقافية كما أشرنا ، فانها الى جانب ذلك هى التى تتولى توحيد جماهير الطلاب من الشباب الذين لديهـــم نفس العواطف المشتركة ، بصورة لم يسبق لها مثيل فى التاريخ البشرى ، حيث يتجمع هذا العدد الهائل من المثقفين او الذين لديهم امكانية التمرد فى تجمعات كبيرة ، وتحت ظروف تيسر تبادل التأثير .

وفى هذا الاطار نجد أن ماركس قد اشار الى ان تجميع البروليتاريـــا الصناعية فى المصنع يعتبر احد العناصر الاساسية التى تمكن الطبقة العاملة من تطوير الوعى الطبقى وذلك لاتحادهم فى موقف العمل الواحد ، هـــذا الى جانب أنهم يكونوا قادرين على توصيل سخطهم لبعضهم البعض ، ومن ثم تطوير رؤية مشتركة . واستنادا الى ذلك نستطيع القول بأن ماركس نفســـه لم يكن يستطيع تصور امكانية تخلق نظم تستطيع تجميع عشرة أو عشرين أو ثلاثين أو أربعين الفا يعملون الى جانب بعضهم البعض ، ويعيشون مع بعضهم فى مجتمعات محلية مشتركة خاضعين لظروف تهىء لهم الوقـــت الكافى من أجل التواصل العميق .

وفى هذا الصدد فانه من السهل علينا أن نتصور امكانية ظهور الوعى الجماعى بين شباب الطلبة ، أو ما يمكن أن نسميه بثقافة الشباب . وفضلا عن ذلك فان القول الذى يذهب الى التأكيد بأن عددا كبيرا من الطلبة قد دخلوا بيئة الجامعة ولديهم استعدادا محددا للاغتراب . ومن ثم فقد وجدوا ان هذا الاغتراب الذى يتنامى بواسطة المناهج المقررة أو المناهج الاضافية . وهو الامر الذى من شأنه أن يساعد على احتمالية تبلور الوعى الشبابى . وأن هذا الوعى لا يتميز فقط عن الثقافة العامة ، ولكنه يتناقض أو يتخاصم معها أيضا(١٣٩) .

(هـ) ونظرا للاهمية المتزايدة لفاعلية النظام التعليمى فى المجتمعات النامية ، وللمكانة المحورية التى بدأ يحتلها فى بناء هذه المجتمعات . وأيضا بالنظر الى الاعداد الهائلة من الشباب الذين بدأوا يتعرضون لتأثيره فاننا نرى من الضرورى مراعاة مجموعة من الاعتبارات حتى يخرج النتاج الشبابى المرجو . ونذكر فيما يلى بعضا من هذه الاعتبارات .

ويمتد الاعتبار الاول فى ضرورة أن تسير العملية التعليمية مستنده الى منطق أيديولوجى واضح ، تستلهم مثله ، وتحيلها الى برامج تساعد على تشكيل الشباب وفقا لهذه المثل . بحيث يصبح المنطق الايديولوجى متغلغلا فى جزئيات العملية التعليمية بناء ودينامية ، وذلك يتطلب أن يعمل النظام التعليمى على غرس النموذج الواجب احتذاؤه . فاذا كانت الايديولوجيا اشتراكية فانه من الضرورى أن تكون النماذج اشتراكية ، وكذا وسائل تحقيق النماذج وأهدافها . والعكس صحيح اذا كانت الليبرالية هى الايديولوجيا المتبعة . وذلك حتى لا يزدهم الواقع — فى حالة عدم الاستناد الأيديولوجى — بعديد من النماذج التى تفرض الحيرة والتوتر والقلق على الشباب الذى يتحمل عبىء التفاعل الواقعى . ويجب أن يستوعب الشباب هذا المنطق الأيديولوجى بحيث يفرض عليه ذلك أن يسلك منطقا سويا فى آدائه للعملية التعليمية . بحيث يبعده ذلك عن أية انحرافات قد تفرض عليه كالدروس الخصوصية والمساعدة على تصعيد روادها بلا استحقاق .

ويجب أن ينعكس التوجيه الايديولوجى أيضا على علاقة المؤسسة التعليمية بالبيئة المحيطة . اذا توفر هـذا الاستناد الايديولوجى ، فسوف يتمكن النظام التعليمى من صياغة الشباب وفقا للمثل المبتغاه(١٤٠) .

ويتمثل الاعتبار الثانى فى أنه على النظام التعليمى أو يعمل على غرس وتعليم مشاركة الشباب فى عملية صياغة القرار واصداره . وبذلك يؤهلهم بالقدرة على التعبير الحر الصريح الذى يؤهلهم للقدرة على الحـوار الديموقراطى السليم . ومن ثم يدرك الشباب أن العملية التعليمية هـى خلق اجتماعى ؛ لأنهم شاركوا فى صياغتها منذ البداية ومن ثم فان ذلك من شأنه أن يبعدهم عن أية مشاعر أنانية قد تنتابهن وتدفعهم الى الانحراف .

وعلى النظام التعليمى أن يعمل مراجعة أساسية لأسـلوب التعليم الدينى فى الحياة المدرسية . فالدين ليس دروسا يتعلمها الطالب وانمـا هو جهاز قيمى وأخلاقى على الطالب أن يستوعبه كى يستند اليه فى تقويم وممارسة بعض المسائل الاجتماعية والموازنة بينها . ذلك يتحقق اذا تخلق المدرس المتفتح والقادر على اعطاء التلاميذ النموذج الواجب اتباعـه عن طريق المنطق والاقناع . وذلك يتحقق أيضا اذا حدث تطوير للتربية الدينية . بحيث يتعلم الافراد ما يساعدهم على مواجهة مشاكل وقضايا واقعهم المعاصر . وذلك حتى لا تصبح التربية الدينية متعلقة بالمسائل الفردية فقط . وانما هى ذات ارتباط واضح بالبعد الاجتماعى والمسائل أو القضايا التى قد تبرز فى اطاره .(١٤١) بغير ذلك سوف نواجه بنظام تعليمى فاقد لالتزامه الايديولوجى ، يؤدى وظيفته بصورة عشوائية قد تسلم شبابه الى الفساد والانحـراف أو معاناة أزمة الهوية .

٥ — الشباب وقضاء وقت الفراغ :

يعتبر الفراغ وأهمية وقت الفراغ من النتائج البارزة للثورة العلميـة والتكنولوجية . اذ أدى الاعتماد على الآلية والميكنة فى كافة العمليات الصناعية والانتاجية الى توفير ساعات العمل ، مما أدى الى ارتفاع معدلات

الوقت التى يكون فيها الانسان خارج العمل والانتاج(١٤٢) . بيد أن ذلك لم يكن فى صالح الانسان ، اذا هو لم يستغل الاستغلال الأمثل ، بل قد يصبح وبالا عليه . يؤكد ذلك النبى الكريم محمد عليه السلام بقوله : (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ) . وهو الامر الذى يعنى أن الوقت نعمة ، الا أنه قد يتحول الى نقمة اذا لم يحسن الانتفاع به . وقوله الكريم : (روحوا عن قلوبكم ساعة بعد ساعة ، فان القلوب اذا كلت عميت) . ذلك لأنه اذا كان للحياة جانبها الجاد ، فان لها جانبها الحلو أيضا . وذلك يتحقق بالاستغلال الامثل لوقت الفراغ .

واذا لم يستغل وقت الفراغ ، فانه سوف يصبح شبحا مخيفا اذ امتلأ بأنواع التسلية والهوايات الضارة التى تضر أكثر مما تفيد . وهنا لا يقضى وقت الفراغ كوقت معدوم فقط ولكن كوسيلة للافساد أيضا . وذلك حينما تسوده الانحرافات وبعض المظاهر السلبية . واستغلال وقت الفراغ بشكل بناء يساعد على تنفيس الضغوط الاجتماعية والانفعالات المكبوتة وتجاوز الفراغ العاطفى . وهذه كلها عوامل مثيرة للقلق والتوتر والمعاناة . بذلك نستطيع التأكيد على أنه اذا كان الترويح فى وقت الفراغ يعود عـــادة بالمتعة على الكائن الانسانى من ناحية مخلصا اياه أثناء ذلك من توتراته الناتجة عن معاناته اليومية . فانه لا بد أن يتوازن مع الجانب الجـــاد فى حياته . وذلك حتى يعيش الانسان متوازنا دون أن يبرز جانب على حســـاب آخـــر .

فى اطار ذلك لا بد من توفر ثلاثة شروط رئيسية تحكم الاستغلال الامثل لوقت الفراغ . حيث يؤكد الشرط الاول على ضرورة شمولية وقـــت الفراغ . بمعنى أن يكون هنـــاك تنظيم دقيق لشغل الفراغ بما يلائم طاقـــة الفئات الشبابية . ففيما يتعلق بالشباب من طلبة الجامعة فان على الدولة أن نفكر فى برامج فعالة لشغل أوقات الفراغ بما يتسق والمنطق الأيديولوجى العام . فاذا لم يحدث تنظيم لوقت فراغ الشباب بما يعود عليهم وعلى الوطن بالنفع . فان وقت الفراغ سيتحول الى ساحة تحتوى على امكانية افراخ

أو استنبات كل ما هو منحرف وفاسد (١٤٢) . بالاضافة الى ذلك فانه من الضرورى الاهتمام بشباب العمال فى مصانعهم وذلك عن طريق تأسيس البرامج العديدة التى تساعدهم على الاستغلال الرشيد لفراغهم بما يروح عنهم ويفيدهم . اذا تحقق ذلك فان من شأنه أن يؤدى الى زيادة الانتاجية ، وذلك لأن الساحة النفسية للعامل تكون قد اخليت — بفضل برامج شغل الفراغ الفعالة — من كافة التوترات التى تعوق الاسهام الايجابى فى الانتاج . واذا كنا قد تعاملنا مع الشباب الصناعى المنتج فان علينا أن نعود انفسنا أيضا على ضرورة التعامل مع شباب الفلاحين ، باعتبارهم الشريحة الغالبة فى غالبية مجتمعات العالم . وذلك لكى نساعدهم — من خلال برامج قضاء وقت الفراغ — على الانتقال من عصر المشاعية الزمانية الى عصر التحدد والتخصص الزمنى . هذا الى جانب اننا نستطيع من خلال برامج أوقات انفراغ أن نؤسس تجانسا بين مختلف الفئات الشبابية داخل المجتمع الواحد ، ومن ثم تحريك هذا التجمع الجديد للارتباط بقضايا التغير والتنمية فى المجتمع العام(١٤٤) . واستنادا الى ذلك نجد أن الشباب المصرى يعانى من العجز عن قضاء وقت فراغه بصورة ملائمة . فحسبما تذهب بعض الدراسات تنخفض المشاركة الاجتماعية لدى الشباب — كأسلوب لقضاء وقت الفراغ — بصورة حادة حسبما يوضح الجدول التالى (١٤٥) .

جدول يوضح مدى شغل الشباب لوقت فراغهم

البيان	التكرار	٪
يوجد نشاط اجتماعى	١٨٦٢	٧٦
لا يوجد نشاط اجتماعى	٥٧١	٢٣
غير مبين	٢٥	١ر
المجموع	٢٤٥٨	١٠٠

حيث يبرز الجدول السابق انخفاض المشاركــة الاجتماعية ، حتى اذا اعتبرت زيارة الاصدقاء والاقارب نوعا من المشاركة . وهو الامر الذى كان من المنطقى أن يرفع من مستوى المشاركة عن النسبة المتدنية التى تصل الى ٢٣٪ فقط من عينة الدراسة .

ولايختلف الامر كثيرا فيما يتعلق بالمشاركة الثقافية التى يمكن أن تشكل هى الاخرى اطارا ملائما لقضاء وقت الفراغ بصورة ملائمة له عائده على الشخصية الشبابية . اذ تظهر معطيات ذات الدراســة ما يوضحه الجدول التالى (١٤٦) من بيانات ذات الدراسة .

جدول يوضح مدى المشاركة الثقافية للشــباب

البيـــــــان	التكرار	٪
يوجد نشاط ثقافى	١٢٧٨	٥٢
لا يوجد نشاط ثقافى	١١٥٩	٤٧
غــــير مبـــين	٢١	١
المجمـــــــوع	٤٥٨	١٠٠

وبرغم ارتفاع قدر النشاط الثقافى لدى الشباب هنا بلغت نسبة من يشاركون نحو ٤٧٪ عن قدر النشاط الاجتماعى للشباب . فان الحقيقة الأكثر بروزا فى هذا الصدد أن هناك نحو ٥٢٪ من عينة الدراسة ليس لديها نشاطا ثقافيا يمكن أن يشكل اطارا لقضاء وقت فراغها .

أما بالنسبة للنشاط الرياضى باعتباره أحد مجالات وقت الفراغ فاننا نجد ذلك من خلال معطيات الجدول التالى لذات الدراسة (١٤٧) .

جدول يوضح مشاركة الشباب فى النشاط الرياضى

البيـــــــــان	التكرار	٪
يوجد نشاط رياضى	٧٠٢	٢٩
لا يوجد نشاط رياضى	١٧٣٠	٧٠
غـــير مبـــين	٢٦	١
المجمـــــــــوع	٢٤٥٨	١٠٠

وبرغم الارتفـــاع الظاهـــرى لنســـبة من يمارســـون نشاطا رياضيا عن ممارسات النشاطات الأخرى . فاننا نجد من خلال مشاهداتنا انواقعية أن هذه الممارسات غير منظمة تتم فى الشارع بصورة عشوائية ، وذلك اما بسبب الاعداد المتزايدة للشباب أو بسبب عجز الامكانيات ، أو لأن ذلك ليس من بين الاهتمامات الاساسية للنظم الاجتماعية فى المجتمعا تاالنامية .

ويتعلق الشرط الثانى لقضاء وقت الفراغ بضرورة تكامل برامج تنظيـــم وشغل وقت الفراغ . بمعنى أنه اذا كان وقت الفراغ فى أحد جوانبه ترويحيا، فانه لا بد أن تكون هناك الجوانب التى تهتم أساسا بتطوير الشخصية التى تتجه اليها هذه البرامج . اذ يجب أن يهدف البرنامج الترويحى الى تفريغ التوترات الناتجة عن المعاناة اليومية . أما الجانب الآخر ، فيجب أن تعمل من خلاله على الارتقاء المـــادى والمعنوى بملكات الشخصية عن طريق دعمها بكفاءات جديدة تجعلها أكثر مهارة واتقانا ، بحيث يعود ذلك بالفائدة على حياتها اليومية والانتاجية . فى اطار ذلك أيضا لا بد من تأسيس برامـــج لشغل أوقات الفراغ ذات طبيعة جماعية . بحيث تتيح مشاركة فئـــات شبابية عديدة بشكل فعلى (العمال والمثقفين والفلاحين وشباب الجامعة)

بحيث ييسر ذلك تفاعل عناصر بناء الشباب بما ييسر افراز ثقافة وخصائص شبابية متميزة ، بل وموقف شبابي محدد ومتميز يسوده تجانس داخلى الى حد كبير (١٤٨) ، بحيث يساعد ذلك على خلق وحدة عضوية قادرة على دفع تنمية المجتمع وتجديد ثقافته .

أما الشرط الثالث فيتصل بضرورة أن تكون برامج شغل وقت الفراغ موجهة لاشباع الحاجات الاساسية للشخصية الشابة بصورة ملائمة . وفي هذا الصدد يجب أن تحتوى هذه البرامج على مضامين دينية ذات طبيعة عصرية تهدف الى تطوير قيم التراث وغرسها في بناء الشخصية الشابة ، بحيث تمتلك المحكات التي تقود فعلها في معترك التفاعل الاجتماعي . بحيث أن تحتوى هذه البرامج أيضا على مضمون اجتماعي يؤكد على علاقات الشباب داخل الشريحة الشبابية ذاتها . وأيضا تلك التي تربطه بالسياقات المحيطة بهم حتى يكونوا على تماسك ايجابي وفعال بها . لا بد أن تتضمن هذه البرامج مضامين ثقافية تهدف الى الارتقاء بالبناء الفعلى للشريحة . هذا الى جانب تضمنها لمضامين فنية تنمى الاحساس والتذوق الفنى كى تصبح الشخصية فى موقف تتمتع فيه بكافة ملكاتها وامكانياتها ، هذا بالاضافة الى التأكيد على مضمون قومى يجذب الشريحة الشبابية نحو تحقيق فهم كامل لمختلف القضايا القومية الهامة ، وهو الامر الذى يعمل على اشعال جذوة الوطنية لديهم بحيث يتجلى ذلك فى أساليب فعالة وبناءه (١٤٩) .

بيد أنه لكى تتحقق الشروط السابقة فى أكثر مستوياتها انجازا ومثالية . فان على هذه البرامج أن تستلهم الايديولوجيا العامة للمجتمع ، بحيث يوضح هذا الاستلهام لها صيغة القضايا التى ينبغى أن تكون موضع الاهتمام خلال هذه المرحلة . وأيضا نوعية الفئات التى يجب الاتجاه نحوها لتنظيم وقت فراغها ، فبرامج شغل وقت الفراغ اذا لم تكن موجهه أيديولوجيا فانها تصبح مهددة بالضرب عشواء بلا هدف سوى تفريج التوتر . بل انها فى حد ذاتها قد تصبح أساسا لتخليق ظواهر فاسدة . وغريبة وضارة بحركة المجتمع وعملية التنمية .

رابعا : الشخصية الشابة ، مقوماتها وخصائصها :

لا تختلف بنية الشخصية الشابة عن شخصية البالغين من حيث النوع بقدر ما تختلف من حيث درجة الصياغة النظامية . واكتمال عملية التنشئة التى خضعت لها الشخصية . من هنا نسطيع القول بأنه اذا كانت شخصية البالغ تمثل حالة الاستقرار والثبات البنائى لبناء شخصية الفرد ، فان الشخصية الشابة تمثل الحالة أو المرحلة الدينامية لهذا البناء . واذا كان الثبات هو القاعدة بالنسبة لشخصية البالغ وأن الحركة هى الاستثناء ، فاننا نجد أن الدينامية وحالة عدم التشكل هى القاعدة بالنسبة للشباب وأن الاستقرار أو السكون حالة مرضية أو استثنائية ينبغى البحث فى أسبابها . واذا كانت الشخصية تشكل بناء متكاملا يتكون من مجموعة من العناصر أو المقومات الاساسية فاننا نرى أنه خلال مرحلة الشباب أن هذه العناصر تتفاعل تفاعلا ديناميا بحثا عن الاكتمال الذى تحققه فى مرحلة الشخصية البالغة التى تجاوزت مرحلة الشباب . وعادة ما يحدث هذا التفاعل فى اتجاهين . الاول اتجاه العناصر الى تجاوز هويتها أو كينونتها الحالية بحثا عن وضع أكثر اكتمالا فى المستقبل ذلك على المستوى الثقافى والاجتماعى والبيلوجى . أما الثانى فيتمثل فى التفاعل الذى يتأسس بين عناصر أو مقومات الشخصية وبعضها البعض ، بحيث نحاول من خلال هذا التفاعل الافقى تبادل التأثر والتأثير بالقدر الذى يستهدف الوصول الى خلق الشخصية المتوازنة ، بالاضافة الى ذلك هناك اتجاه ثالث ينتج عن اتجاهى التفاعل السابقين ، وهو التفاعل الذى يتم فى معية زمنية واحدة على مستوى رأسى فيما يتعلق بالعنصر الواحد . بين الحاضر والمستقبل بحيث يتفاعل ذلك فى ذات الوقت مع التفاعل الذى يحدث بين مختلف عناصر أو مقومات الشخصية فى قلب الحاضر . فاذا حاولنا تحديد طبيعة بناء الشخصية الشابة ، وطبيعة التفاعل الذى يحدث فى اطار كل منها أو بينها فاننا يمكننا حصرها فى المقومات الثلاثة التالية .

١ — المكون البيولوجى .

٢ — المكون الثقافى .

٣ — المكون الاجتماعى .

٤ — خصائص الشخصية الشابة .

بيد أننا قبل أن نعرض بايجاز لأى من هذه المقومات نرى من الضرورى التأكيد على أن الفصل بين هذه المقومات هو من قبل التجريد النظرى الذى ييسر المعالجة التحليلية حيث يشهد الواقع تداخلا وتفاعلا كاملا بين هذه المقومات بحيث يصبح بناء الشخصية هو النتيجة الطبيعية لهذا التفاعل . وسوف نعرض لكل من هذه المقومات .

١ — ففيما يتعلق بالمكون البيولوجى ، نجد أنه يشكل أكثر المقومات أساسية بالنسبة لبناء الشخصية . ونقصد به البنية العضوية والفيزيقية التى تجعل الفرد كائنا عضويا حيا . ومن حيث مكوناته البيلوجية فهو لا يختلف عن أى كائن حى آخر . حيث تلعب الوراثة البيلوجية دوراً أساسيا فى نقل التكوين البيلوجى من جيل الى آخر . بيد أن الاختلاف الوحيد يمكن فى امتلاك التكوين البيلوجى للانسان القدرة على التفاعل مع البيئة المحيطة ، وهو ما يعجز عنه الحيوان . اذا فبعد الولادة البيلوجية للانسان يبدأ دور الوراثة فى التقلص فى مقابل زيادة تأثير وطأة البيئة وفاعليتها . وتبدأ العناصر الأخرى الخارجية من البيئة الايكولوجية والاجتماعية والثقافية فى تأكيد فاعليتها حتى أنها لتغلب أحيانا على التكوين البيلوجى ذاته ، حتى أنه يمكن القول أنه اذا كان الحيوان ابن سلالته ونوعه فان الانسان ابن مجتمعه وثقافته .

وفى هذا الاطار نستطيع أن نقسم حياة الانسان بيلوجيا الى أربعة مراحل . مرحلة الصغر والنشأة حيث الانسان مولود بمجموعة من الدوافع والاحتياجات والغرائز والاستعدادات البيلوجية التى يسعى الكائن الحى لاشباعها واعمالها . وأثناء عملية الاشباع هذه يقوى الكائن الحى بيلوجيا من حيث درجة أكثر من الاكتمال للأعضاء الأساسية واتجاها

من حالة التجانس الى التخصص الوظيفى لهـذه الأعضاء . وفى المرحلة الثانية ، وهى مرحلة الشـباب نجد أن أعضاء الكائن الحى قد بلغت أوج نضجها ، حيث الجسم قوى والعضلات مفتولة والغرائز قوية ، ومن ثم البحث عن اشباع أمثل . ومن الملاحظ أنه خلال هـذه المرحلة تحدث عدة تغيرات فى شـكل الجسم ، وفى الصوت ، وفى الطاقة التى يتمتع بهـا الانسـان . غير أنه برغم هـذه الحيوية والاكتمال البيلوجى المتدفق ، نجد أن الاكتمال الاجتماعى والثقافى لا يكون قد تحقق بعد . ومن ثم تعيش الشخصية الشـابة حالة من القلق ، أو من عدم الاشباع ، ومن ثم عدم التوازن البيلوجى . هـذا فى حين تمثل مرحلة الرجولة مرحلة شـباب التكوين البيلوجى الذى اكتمل فى مرحلة الشـباب ، فى حين تمثل مرحلة الشـيخوخة حالة الانهيار بالنسبة لهـذا البناء البيلوجى (١٥٠) . ذلك يعنى أن مرحلة الشـباب هى أكثر المراحـل حساسية وقلقا وديناميـة من الناحيـة البيلوجية .

٢ — ويعتبر الجانب أو المقوم الثقافى من المقومات الهامة فى بناء الشخصية . ومثلما نجد أن المقوم البيلوجى مشتق من البناء العضـوى وما تحت العضـوى ، فاننا نجد أن المقوم الثقافى مشتق هو الآخر من بناء الثقافة والقيم . بحيث يتم استيعابه داخل بناء الشخصية من خـلال مؤسسات التنشـئة الاجتماعية والثقافية ووسـائلها العديدة . ويكشف تحليل بناء الثقافة والقيم داخل بناء الشخصية عن تضمنه لثلاثة عناصر ، العنصر الأول هو العنصر الادراكى ويحتوى بداخله على مجموعة المعارف الموضوعية والدقيقة والتى بالنظر اليها تدرك الشخصية واقعها المحيط . أما العنصر الثانى فيتمثل فى العنصر التقويمى ويحتوى بداخله على مجموعة المعـايير والقيم التى تفاضل من خلالها الشخصية بين البدائل المختلفـة لاشباع الحاجات الأساسية للشخصية . أما العنصر الثالث فهو العنصر الوجدانى ، وهو العنصر الذى يرتبط الشخص من خلاله عاطفيا أو مشاعريا بموضوعات محددة للاشباع . وفيما يتعلق بمكانة مفهوم الثقافة والقيم فى بناء الشخصية فاننا نطرح ثلاثة ملاحظات . الأولى انتقال أو تدرج فاعلية

مؤسسات التنشــئة من البسيط الى المركب ، ومن التفرد الى المتعدد بمعنى أنه اذا كانت الأسرة هى مؤسسة التنشــئة فى الصغر ، فاننا نجد ان المدرســة تضاف اليها بعد فترة ، ثم جماعة الأصــدقاء ، ثم نجد فى النهــاية عدة مؤسسات هى التى تتولى عملية التنشــئة حينما يصبح شابا . أما الملاحظة الثانية فتتمثل فى تباين مضامين التنشــئة الاجتماعية والثقافة ، فمن المؤكد أنه وان كان هنــاك قدر من التداخل والتكامل الا أن هنــاك نوعا من التخصص فيما يتعلق بمضامين التنشــئة ، فالمعايير التى تغرسها الأسرة تختلف نوعيا عن المعايير التى تتولى المدرســة غرسها ، تختلف عن المعايير أو القيم التى تعمل مؤسسة العمل على تنشئة الشــباب العامل عليهــا . أما الملاحظة الثالثة فتتمثل فى تدرج وزن ومكانة عناصر الثقافة والقيم ارتباطا بتقدم الشخصية الفردية نحو النضج . فاذا كان العنصر الوجدانى هو الذى يسبق أولا فى الصغر ، فان العنصر الادراكى يبدأ بعد مرحلة من تغرك الشخصية نحو النضج ثم يبدأ العنصر العاطفى التقويمى فى الظهور بعد ذلك داخل بناء الشخصية . غير أن هــذه العناصر لا يأتى كل منها بعد الآخر . ولكنها قد تتواجد داخل المقوم الثقافى للشخصية ولكن بأوزان متباينة بالنظر الى بعضها البعض .

ونظرا لأن الثقافة من حيث القيم والمعايير هى التى توجه ســلوك الفرد فى المجال الاجتماعى ، فاننا نجد أن الشخصية الشــابة لا تكون قد استوعبت المكونات الثقافية بالقــدر الذى ييسر لها توجيه سلوكياتها بصورة عقلانية ورشــيدة داخل المجال الاجتماعى ، ومن ثم نجدها تتبع أحيانا منطق التجربة ، المحاولة والخطأ ، فى تأسيس العلاقة بين سلوكيات معينة وقيم ثقافية بعينها ، وقد تخطى بتوجيه سلوكياتها بمكونات ثقافية غير ملائمة ، أو بصورة عشــوائية لأنها تستوعب القيم التى توجه السلوك فى مجال اجتماعى بعينه . هــذا بالاضافة الى أن التزام الشــباب بالقيم والمعايير الثقافية يكون حتى هــذه المرحلة من العمر ضعيفا واهيا ، وذلك لأن الشــاب يكون فى مرحلة التعرف والتعريف بها لكنه لم يعمل وفقا لها بالواقع ، ومن ثم لم يتفاعل بشأنها ، وهو التفاعل الذى يتيح له الاستيعاب

المفصل والعميق لها . ومن ثم نجد أن الشـــباب يمتلكون خلال هـــذه المرحلة نوعا من المرونة الثقافية أو القيمية ، فهم فى حالة تجريب وتغيير وتعـــديل دائم لكل ما استوعبوه من قيم أتت اليهم من مختلف مؤسسات التنشـــئة الاجتماعية والثقافية . وفى هـــذا الاطار فقد يرفض الشـــباب القيم التى استوعبوها عن أجيال الشـــيوخ لأنها غير ملائمـــة والمواقف الاجتماعية التى يتفاعلون فى اطارها ، أو أنها لا تعبر عن رؤيتهم المخالفة لتفاعلات الموقف والســـلوكيات التى ينبغى تأسيسها فى هـــذا الاطار . أو انهم قد يعتنقوا قيما ومعاييرا منحرفة لأنها أكثر توفيرا للاشباع بالنسبة لحاجاتهم الأساسية مما لو وجهت سلوكياتهم بالقيم الســـوية . بل انهم خلال هـــذه المرحلة قد يعتنقوا قيما مضادة لقيم المجتمع تماما لأنهم يدركوا أن منظومة القيم التى يســـلم بها المجتمع ويتفق عليهـــا لا تقدم لهم اشباعا حاليـــا أو محتملا ، ومن ثم فقد ينضموا الى سياقات اجتماعية تمتلك قيما وثقافة توفر لهم هـــذا الاشباع بالكيفية والمستوى الملائم .

ونتيجة لذلك نجد أن المكون الثقافى غالبا ما يكون مكونا مرنا يتسم بالتنوع وعدم الثبات بل وعدم تعمق جذوره فى بنية الشخصية الشـــابة . ومن ثم فالتزام الشـــباب بهذا المكون الثقـــافى عادة ما يكون ضعيفا ، مؤشر ذلك ، أنهم قد يحاولون تجديد القيم التى استوعبوها ، أو البحث عن بدائل لها ، أو رفض هيئتها المعاصرة والهروب بعيـــداً عن المجتمع ، بحثا عن هـــذه القيم ذاتها فى مراجعها النقية والصحيحة .

٣ ــ ويتمثل المكون الثالث فى المكون الاجتماعى فى بناء الشخصية الشـــابة . ويتحدد مضمون هـــذا المكون بمجموعة الممارسات التى تتولى اعداد أو تأهيل الشـــاب للتعامل مع العناصر الاجتماعية الأخرى داخل بنية المجتمع . أو التى تجيز قدرته على التعامل من خـــلال تعيين مكانته ودوره الاجتماعى . واذا كانت العلاقة الاجتماعية هى أبسط أشـــكال التفاعل الاجتماعى بين الأشخاص فى المجتمع . فاننا نجد أن هـــذه العلاقات تتأسس بصـــورة ســـوية واجتماعية اذا حدث تكامل بين توقعات الأنا

واستجابة الآخر لهــذه التوقعات . ومن خلال هــذا التآزر تنشأ الجماعة والتجمع ، والنظام ، والنسق والبناء الاجتماعى .

ويتحدد اكتمال المكون الاجتماعى باحتلال الفرد لمكانة محددة داخل بناء المجتمع ، وآداء الشخص لدور محدد انطلاقا من هــذه المكانة . ومن خلال ترتيب المكانات بالنظر الى بعضها البعض يتجلى الوجه الثابت لبناء النظام . أما تفاعل الأدوار المختلفــة فيعكس جانبه الدينامى . فاذا نظرنا الى الشــباب انطلاقا من ذلك فاننا نجد أنهم يحتلون مجموعة المكانات التى لم تكتمل أدوارها بعد . فمعظم الشــباب يعيشون فى اطار النظام التعليمى أيا كانت طبيعته ، ومن ثم فأدوارهم من نوع الأدوار التابعة غير المستقلة أو التابعة . بل انهم يؤهلون لآداء أدوار كاملة . ومن طبيعة بناء أدوار الشــيوخ أن ميكانيزمات الثواب والعقاب فيه محددة وواضحة وصارمة . بينما تتميز أدوار الشــباب بامتلاك قدر كبير من الحرية التى قد تصــل احيانا الى حد الخروج على متطلبات هــذه الأدوار ذاتها . وهو الأمر الذى ندركه اصطلاحيا باعتبارها أدورا ناقصة من حيث الصياغة النظامية أو أنها ادورا لم تستقر بعد . وهو الأمر الذى يجعل هــذا المكون غير مكتمل ايضا فى بناء الشخصية الشــابة .

٤ ــ استخلاصا مما سبق فاننا نجد أنه اذا تضمنت الشخصية هــذه المكونات الثلاث بصــورة مكتملة ، فان الشخصية حينئذ تكون فى اكثر مستوياتها مثالية واكتمالا . بيد أن نقص هــذا الاكتمال فى أى من مقومات الشخصية أو فيها جميعا قد يدفع الى احساس عميق بالقلق والتوتر الذى يظهر عادة فى الفجوة بين الاكتمال الناقص وبين الاكتمال المكتمل الذى ينبغى أن يكون . فى هــذه الفجوة قد يحدث التمزق الشــبابى ، قد يعــانى الشــباب من أزمة الهوية ، قد يرفضون المــاضى والحاضر لأن به نقصهم وتبعيتهم ، وقد يتشوقون الى المستقبل لأن به اكتمالهم ، ومن خلال هــذا التفاعل الدرامى تبرز خصائص الشخصية الشــابة التى نستخلص فيما يلى بعضــها .

(ا) ويعتبر التحدد بفترة عمرية محددة من أهم الخصائص التى تميز الشخصية الشـابة . وتحدد هـذه الفترة بالمـدة الكائنة بين اكتمال النضج الفسيولوجى وبداية التأهيل أو النضج الاجتماعى . الذى يتحقق باحتلال الشـباب لمكانة الاجماعية محددة يؤدى من خلالها دوراً أو أدوار ترتبط بهـذه المكانة (١٥١) ، وبرغم تميز هـذه الفئة العمـرية بعديد من الصفات والقدرات الاجتماعية المتميزة فان مناقشة هـذه الخاصية ينبغى أن يتم فى ضوء ثلاثة قضايا اساسية .

أول هـذه القضايا أننا اذا كنا نحـدد فى مصر هـذه الفترة من ١٦ — ٣٠ سـنة ، فان التحديد الزمنى لنقطتى البداية والنهـاية يختلف من مجتمع الى آخـر حسب الأوضـاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية السائدة فى كل مجتمع . هـذا الى جانب أن التحديد العمرى للفئة الشبابية لا ينبغى أن ينفصل عن تحديد المراحل الأخرى التى يمر بها الانسـان .

وتذهب القضية الثانية الى أن تحديد الشـباب بمرحلة عمرية معينة يفرض الاهتمام بالمسـألة الجليلة . فى ضوء ذلك يتميز الشـباب عادة بأن لديهم نزعة الى الاستقلال ومحاولة للتخلص من الضغوط وألوان القهر المتسلطة عليهم من أجل توفير حرية التعبير عن الذات . ونتيجة لهذه النزعة الى الاسـتقلال والاعتماد على الذات تميز الشـباب بأنهم أكثر راديكالية وأقل رغبة فى الامتثال للسلطة المفروضة عليهم .

وتشير القضية الثالثة الى اعتبـار مرحلة الشـباب مرحلة مؤقتة بطبيعتها . فسنوات الشـباب معدودة فى عمر الانسـان . ومن شـأن ذلك أن يكون له نتائج هامة وواضحة . فقد تحدث هوة بين الأجيـال ، لكن من الخطأ القول بأن الهوة بين الأجيال قد تؤدى الى ظهـور توجهات سياسية جديدة ، أو القول باحتمالية ظهـور حزب سياسى يعبر عن الشباب فى مقابل حزب آخر يعبر عن الفئـة الأكبر سنا . ذلك يعنى أن مرحلة الشباب تعتبر مرحلة مؤقتة بطبيعتها ، بحيث لا تشـكل فى ذاتها ظرفا كافيا لتشكيل حركة سياسية دائمة . وتوجد شواهد عديدة تشير الى أن

عدم ارتباط الأفراد بالتنظيمات السياسية المستقرة فى بعض الدول قد يتخذ شــكل التعاطف مع الحركات والأحزاب السياسية الجديدة المستندة الى الروابط العرفية واللغوية والثقافية وذلك من خلال احياء نزعات قوميـــة مختلفة كما هو الحال بالنسبة للزنوج الأمريكيين ، والناطقين بالفرنسية فى كندا . ومن الطبيعى أن تكون الروابط بين ذوى القومية الواحدة أقوى من تلك الروابط التى توجد بين ذوى الجيل الواحد (١٥٢) .

ذلك يعنى أنه يمكن النظر الى الممارسة السياسية الشبابية باعتبارها احدى عمليات التنشــئة أو التطبيع السياسى ، حيث تتعمق فى اطارها الجذور الحقيقية للتوجهات السياسية والأيويولوجية للانســان السياسى فى المستقبل . ومن ثم نجدها تشــكل الاطار الذى تعرض فى نطاقه كافة التوجيهات السياسية للاختيار فيما بينها . وبعد حسم الاختيار فانه يتميز بدوامه بقية ســنوات العمر .

(ب) وتتمثل الخاصية الثانيــة فى أن فترة الشــباب تتميز عادة بالدينامية لسببين . الأول يرجع الى أن فترة الشــباب عادة ما تكون هى الفترة الكائنة بين مرحلتى الاعداد والقيام بدور فعال فى بناء المجتمع . ولذلك فغالبا ما تتميز ملامح الشخصية فى هــذه المرحلة بالغموض ، لأنها مازالت فى مرحلة التشكل ، وهــذا هو السبب فى امتلاء هــذه المرحلة بتفاعلات موترة وقلقة ؛ لأنها تســعى وراء الاستقلال وشغل الدور بعد انتهاء الاكتمال والتدريب وممارسته . أما السبب الثانى لدينامية هــذه المرحلة فيرجع لطبيعة التكوين البيلوجى والفسيولوجى والوضع الاجتماعى للشخصية الشــابة . اذ نجدها تكون عادة حساسة لكل ما هو جديد لأنها لم تســتقر بعد . ذلك من شــأنه أن يجعلها فى شــوق دائم للتغير ، وهو ما يطلق عليه فى ظروف تاريخية معينة ، بالحاجة الدائمة الى الثورة .

(جـ) وتشــكل القابلية للتشكل الخاصية الثالثة للشخصية الشابة . ويتضح ذلك اذا حددنا مكونات الشخصية الانسانية من خــلال أربعة عناصر رئيســية . العنصر البيلوجى الذى تولد به الشخصية الانسانية . والعنصر

السيكلوجى الذى يكون عادة نتاجا لتفاعل العنصر البيلوجى بما هو خارج عن نطاق الشخصية الانسانية حول محور أساسى يتمثل فى اشباع الحاجات البيلوجية . والعنصر الاجتماعى الذى يشير الى طبيعة المكانة التى يحتلها الشـــاب وأيضا طبيعة الأدوار الاجتماعية التى يؤديها فى المجال الاجتماعى والتى تشير الى اعمال الطاقة الشابة فى المجال الاجتماعى . والعنصر الأيديولوجى أو الثقافى وهو العنصر الذى يشـــير الى امتلاك الشخصية لمجمـــوعة من التوجيهات الاســـاسية التى تحـــكم سلوكها فى المجـــال الاجتماعى (١٥٢) .

فى اطار ذلك نجد أن عملية التشكل تسير حسب عدة مســـتويات رئيســـية • أولها أن الشخصية لها على كل عنصر من هـــذه العناصر عدة حاجات أساسية تتطلب الاشباع . ومن ثم فتحقق الاشباع أو الحرمان منه سوف يكون له تأثيره على بنية الشخصية وطبيعة سلوكها المستقبلى . والثانى أن نتاج التفاعل بين العناصر المشـــكلة للشخصية الشابة هو الذى سوف يكون له تأثيره على طبيعة علاقة الشخصية الشابة بعالمها الخارجى . والثالث أنه بالنسبة للعنصرين الاجتماعى والأيديولوجى نجد أن الشخصية الشابة تمارس اختياراً بشأنهما بين بدائل عديدة . فمن الناحية الاجتماعية يمارس الشاب اختيار المهنة ورفيق الزواج ، وطبيعة الحيـــاة والســـلوكيات الاجتماعية . ومن الناحية الأيديولوجية نجد أن الشخصية الشـــابة تمارس اختيـــارا بين أى من الأيديولوجيات المطـــروحة على الســـاحة السياسية .

غير أن القضية الرئيسية فى هـــذا الصدد تتمثل فى أن تفاعل هـــذه الأبعاد الأربعة يؤدى عادة الى أنتاج أنماط أو أشـــكال عديدة للشخصية ، التى تظل بقية حياتها محكومة بطبيعة الامتزاج والتفاعل الذى تم بين مختلف العناصر ، هـــذا الى جانب أن عملية التشكل هـــذه تكون غالبا خاضعة لخاصـــية الانجذاب نحو المواقف المتطرفة . فالشخص المحـــروم بيلوجيا وسيكلوجيا واجتماعيا قد يميل الى تبنى أيديولوجيات متطرفة . وكذلك قد

تنتمى الشخصية الشــابة ذات التوجه الأيديولوجى اليسارى الى الطبقة العاملة أو الشريحة الدنيا للطبقة الوسطى . الا أنها أحيانا ما يكون لهــا انتماؤها للطبقات العليا . غير أن السمة الرئيسية المرتبطة بهذه الخاصية تتمثل فى أن هــذه المرحلة تسودها عادة مشكلات التشكل كالقلق والتوتر والانفعال والخوف وعــدم التحدد ، وكلها مظاهر تشير الى الثراء الانفعالى الذى تتمتع به هــذه الشريحة خلال مرحلة التشكل هــذه .

(د) ويشــكل انتشار مشــاعر القلق والتوتر الخاصية الرابعــة للشخصية الشــابة . وذلك يرجع لعوامل عديدة . أولها قلق الشــباب وتوتره الذى يرجع لطبيعــة المرحلة التى يتخطاها بين الاعــداد للدور والقيام به . وما يصاحب ذلك من اختيارات قد تفرض عليه ولا تلائمه . أو يطلبها وقد لا تواتيه . العامل الثانى يتمثل فى الهوة الكائنة بين النضج الفسيولوجى والنضج الاجتماعى أساس الأهلية للانتماء الاجتماعى . بمعنى أنه فى فترات ســابقة كان الانســان بمجرد أن ينضج فسيولوجيا ، يمارس دوره الاجتماعى . وبالتالى لا توجد هوة . ومن ثم لا يكون هناك تمزق . لأن المشــكلة تحل عادة بمجرد حدوث النضج الفسيولوجى للرجل أو المرأة . أما فى المجتمع الحديث فالوضع يختلف ، وذلك لأن حجم المعلومات التى تتيح الانتماء الاجتماعى للشــباب ضخمة ، ومن ثم فان فترة الاعداد والتكوين تطول . ومن هنا تتخلق الفجوة بين نضجه الفسيولوجى واعتراف المجتمع به كمواطن مستقل ، وله دور اجتماعى يؤديه دون مشاكل . وهــذا يفسر لنا لمــاذا توجد أزمة الشــباب فى شريحة معينة هى الشريحة المثقفة أو البرجوازية . الشــاهد على ذلك أن أحداث ١٩٦٨ وما بعدها فى جميع أنحاء العالم ، فجرها الشــباب المثقف أساساً . أما العامل الثالث الذى يؤكد خاصية القلق لهــذه الفئــة العمرية فيتمثل فى أن الشــباب على خلاف الشــيوخ (أرق أفئدة) . فهم حساسون ، سريعوا الاستجابة بالرفض لأن روابطهم ضعيفة بالأوضاع القائمة . وهم فى ذلك على خلاف الشيوخ الذين ألفوا الأوضاع الســائدة ، ومن ثم يصعب عليهم رفضها أو الخروج عليهــا . بل ينصب رفض الشــيوخ فى الغالب على المتغيرات التى تستجد

على أوضاع ألفوها . وهم فى ذلك على عكس الشـــباب تماما الذين دأبوا على رفض التغيرات المستقرة والمألوفة .

(هـ) وتشكل الطبيعة التجديدية الخاصية الثالثة التى تتصف بهـــا الشخصية الشـــابة . فهم غالبا المجددون فى التاريخ ونتفق فى ذلك مع ترفور باتمان Trevor Potmen الذى أكد على دور الشـــباب المثقف كقوة كاسحة ومبادرة لتجديدة المجتمع . وليس جديداً علينا أن نتذكر أن ماركس ولينين وفيدل كاسترو كانوا قبل كل شيء ضمن المثقفين وليس العمـــال اليدوين (١٥٤) .

ذلك يخلق احساسا يتعلق بالموقف الدينامى للشـــباب عبر التاريخ . وفى هـــذا الصدد نجدهم — أى الشباب — يواجهون بمشكلتين . الأولى اهتمامهم بقضية المستقبل فى اطار تفاعلهم مع الشـــيوخ . فاذا كان الماضى والحاضر هو نطاق الشـــيوخ ومحط تجسيد آمالهم ، فان المستقبل هو محط انظار وآمال الشـــباب . غير أن المستقبل تتحدد ملامحه فى الحاضر . من هنا يصبح الخلاف حادا حول بعض الممارسات التى يؤسسها الشيوخ ، التى تمس بالأساس المستقبل الشـــبابى . وهنا يصبح الشـــباب قلقا بشأن المستقبل ، وما قد يرثه من أوضاع الحاضر وانحرافاته . بحيث يتجسد ذلك فى تساؤلين رئيسيين : من الذى له حق صناعة المستقبل ؟ . أو بالأصح الى أين نحن ذاهبون ؟ . ذلك يفرض تأكيدا على ضرورة المشاركة الايجابية (الفعالة فى صياغة الحاضر من قبل الشـــباب . لأن فى صياغة الحاضر تحديدا لملامح المستقبل) .

بيد أنه قد تثور فى هـــذا المجال قضية خلافية هل حقا لدى كل الشـــباب ايمان بالمستقبل ؟ هل هـــذا الايمان متجانس فى ملامحه بـــين مختلف الفئات الشـــبابية ؟ . ما نلاحظه اختلاف تصور المستقبل بين مختلف الفئات الشـــبابية . فالمستقبل الذى قد يتصـــوره الفلاحون يختلف عن المستقبل الذى قد يتصوره العمال أو الذى يتصوره المثقفون الطلبة (١٥٥) . غير اننا قد لا نتفق مع ذلك ، لأن المواقع الطبقية أو الفئوية مواقع تســـتند

بالأساس الى المصالح الانانية ، وهى مشاعر تختلف مع رومانيسية الشباب ومثاليته وطهارته . الأوقع أن يمتلك الشباب تصورا مستقبليا واحدا ، غير أنه اذا كانت ثمة خلافات فانها تدور حول مدى ادراك تفاصيل المستقبل . وذلك يتوقف على حجم الاستيعاب الثقافى للشباب ووعيه . وأن الارتباط بالمستقبل يستند الى مدى تفكك الروابط مع الحاضر .

أما القضية الثانية التى تثور بشأن موقف الشباب من المستقبل ، حيث يقف الشباب — على ما يذهب راند ولف بورن Bourne فى مقاله عن الشباب والحياة Youth and Life وقفا وجوديا قلقا ، يعبر فى اطاره عن احساسه بزيادة التناقض بين الاحتمالات المتجددة للسعادة الانسانية من ناحية أو التهديد بالحروب التدميرية من ناحية أخرى . ويبدو هذا التناقض أوضح ما يكون الآن . ذلك أن انجازاتنا التكنولوجية قد تخلع عن اليوتوبيا طابعها الخيالى كما أشار هربرت ماركيوز الى ذلك . فى الوقت الذى تجعل فيه الدمار الشامل أمرا ممكنا ، وقد عبر الشباب من خلال الحركة الطلابية عن احساسهم العميق بهذا التناقض . وبدا ذلك واضحاً تماما فى شعاراتهم التى تطالب (بممارسة الحب لاشن الحر)(١٥٦) .

خلاصة القول أن لدى الشباب اهتمام ضرورى بالمستقبل لأن مصالحهم فى اطاره ، ومن ثم يتبدى قلقهم بشأن ما قد يؤثر فى الحاضر على المستقبل ، أو بشأن عناصر الحاضر المتناقضة والتى قد تؤدى الى تدمير المستقبل .

(و) أن لدى الشبا بايمانا كاملا بالتغير ، وهو الأمر الذى يعد سمة أساسية فى البنية الطلابية . واذا كان هيجل قد قال بجدل الأفكار المتعالى ، واذا كان ماركس قد قال بجدل التفاعل المادى . فاننا يمكننا أن نتحدث قياسا عن مقولة جدل البشر عبر حركة التاريخ . هذا الجدل الذى يشكل الشباب عنصر الدينامية فى اطاره . فاذا قلنا أن لدى الشباب اهتماما بالتغير فان السؤال الذى قد يثور ، وما هى الشواهد الدالة على ذلك ؟ فى اطار ذلك نذكر عدة شواهد . الشاهد الأول يتمثل فى وجود ميل قوى

لدى الشريحة الشــبابية لتجاوز الواقع المحيط دائمــا بالنظر الى مثال يتمسك به أعضاؤها . الى تجاوز ما هو كائن انطلاقا الى ما ينبغى أن يكون ، من هنا يصبح ايمان الشــباب بالتغير ظاهرة موضوعية ومطلوبة ، يدعم ذلك أنهم أقل ارتباطا بالواقع القائم وأكثر امكانية على اشتيعاب المتغيرات المتجددة (١٥٧) . أما الشاهد الثانى فيشير الى أن ما هو كائن هو ناقص من وجهة نظرهم . وقد يصبح النقص أكثر وضوحا حينما يتعايش مع ذلك تفككا واضحا للســلطة التقليدية فى المجتمع تحت وطأة التحديث . ومن ثم تصبح البنية التقليدية غير ملائمة . ومن شــأن ذلك أن يفرض الانتقال الى بنية جديدة . غير أن ذلك ان صدق فى المجتمعات الزراعية فانه قد لا يصدق بنفس القدر على المجتمعات المتقدمة التى تسودها بنية حديثة وثقافة حديثة أيضا . غير أننا قد نؤكد فى هــذه الحالة على دور الشــباب فى مقاومة السلطة التقليــدية للكبار ، باعتبارهم عاملا أساسيا فى احــداث التغير الاجتمــاعى (١٥٨) .

وبين الواقع الناقص أو التقليدى الذى يسيطر عليه الكبار من ناحية وبين المثال الذى يؤمن به الشباب من ناحية أخرى ، تظهر الشريحة الشبابية — خاصــة الواعية — باعتبارها آلية التحول أو الانتقال نحو ما ينبغى أن يكون . حيث تغيير الواقع حسب المثال تجسيدا للمستقبل الذى هو المحصلة النهــائية لذلك . ويعنى ذلك أن هنــاك قناعة أساسية ترى أن الشــباب هم أكثر الفئات رغبــة فى التجديد وتطلعا الى تقبل الحديث من الأفكار والتجارب . ولذلك فانهم يمثلون مصــدرا أساسيا من مصادر التغيير فى المجتمع ، على أنه من الضرورى أن نأخذ فى الاعتبار كيفيــة استيعاب النظام القائم لهذه الرغبة فى التجديد دون تناقضات أو صراعات حادة (١٥٩) .

(ز) وتشير الخاصية الخامسة الى وجود ثقافة شبابية تســود بين الشريحة الشــبابية وبخاصة شباب الجامعات ، بحيث ساعد على تخليق هــذه الثقافة عدة عناصر ذات طبيعة عالمية ، منها تضخم حجم الشريحة الشــبابية فى العالم ، حيث نجد أن الهرم الســكانى فى كثير من المجتمعات

النامية والمتقدمة يميل لصالح الشباب . هـذا بالاضافة الى فاعلية عنصر التكنولوجيا فى بناء النظام العالمى ومن ثم فى دعم تماسك ووحدة الشريحة الشبابية فى هـذا النظام من خلال أساليب الملبس (الجينز الأزرق) أو (موسيقى وأغانى الجاز عبر الراديو الترانزستور وشرائط الكاسيت) . وأيضا دور وسـائل الاعلام والاتصال والمواصـلات التى جعلت عالانا واحدا (١٦٠) . بل اننا نجد أن تكنولوجيا الاتصال خلقت امكانية عاليـة لانتقـال الأفكار والقيم من مجتمع الى آخر . ومن شـأن ذلك أن يجعل الشـباب — بحكم قدرتهم على التجـديد — أكثر قدرة على الاستيعاب والتواصل ..

ويناقش عالم الاجتماع الفرنسى ألان تورين Touraine واقعيـة وجود وعى طلابى وذلك بالنظر الى توفر شرطين . ويتمثل الأول فى الا دعاء بأن الحركة الطلابية هى حركة مسـتقلة لها أهدافها وآلياتها الخاصية . والثانى يتمثل فى تركيزها داخل مجتمع الجامعة ذاتها . هـذا الوعى يشبه فى كثير من الوجوه (الوعى الطبقى) لدى البروليتاريا الصناعية خـلال القرن التاسع عشر . وقد ذهب تورين الى القول بوجود تماثل واضح بين الطلاب والعمـال . ففى الجامعـات الفرنسـية الكبيرة الحجـم — وفى جامعـة نانتير Nanterre المعزولة اجتماعيا — نجد أن الطلاب قد أصبحوا يشكلون جماعة متميزة تشبه فى بعض الوجوه العمال الصناعيين فى المصانع الرأسمالية المبكرة . فضلا عن وجود تشابه بين المعتقدات التى يؤمن بها الطلبة الآن والتصورات اليوتوبية التى آمن بهـا الاشتراكيون الأوائل . ويواصل تورين تدعيم وجهة نظره بقوله أن الجامعات فى كل الدول المتقدمة تكنولوجيا قد أصبحت احـدى (القوى الأساسية فى عملية الانتاج) بحيث يمكن القول — فى ضوء هـذا التصور شبه الماركسى — أن الطلاب قد ورثوا الدور الذى كانت تلعبه البروليتاريا — وباستطاعتنا أن نجد أفكارا مماثلة — ولكن من منظور مختلف — لدى هربرت ماركيوز Marcuse الذى تأثر الى حـد كبير برايت مليز فى تأكيده أن الطبقة العاملة الصناعية — وخاصـة فى مجتمع الاسـتهلاك والوفرة كمجتمع

الولايات المتحدة ـــ قد فقدت رغبتها وقدرتها على احداث تغييرات راديكالية . وأن دورها الثورى القديم قد وقع الآن على كاهل المثقفين الشـــباب الذين يمثلون عموما طلبة الجامعات . وفى مقال حديث يحاول ماركيوز توضيح وجهة نظره قائلا (أنه لا يعتقد بأن الحـــركة الطلابية المعاصرة تمثل قوة ثورية ، ولكنها (أى الحركة) تعد عنصرا ـــ داخل المجتمع الأمريكى ـــ قد يتحـــول الى قوة ثورية بالتحالف مـــع الجماعات المســـحوقة وخاصـــة الزنوج) .(١٦١) .

هـــذا الوعى يســـتند الى ثقافة يمكن أن نسميها بثقافة الشـــباب . وهى ثقافة تشير الى مجموعة التوجيهات القيمية والأساليب السلوكية التى تتجسد فى أنظمة وعلاقات اجتماعية وأنســـاق للاعتقاد . تتبلور حـــول حاجات الشـــباب ووضعـهم فى المجتمع واحساسهم بمشكلاته . بحيث تضم هـــذه الثقافة فى مستوياتها الادراكية والتقويمية والوجدانية أطرا قيمية وفكرية ومشاعرية لتوجيه الســـلوك الشـــبابى . ويمكننا التأكيد على أن ثقافة الشـــباب أو وعيهم يدور حول عدة محاور رئيســـية .

فهـــذه الثقافة تشـــكل من ناحية ثقافة فرعية على البعد العمرى . بمعنى أنها ترضى بقيم ومعايير تختلف الى حد كبير عن قيم ومعايير الآباء . ومن ثم فهى ثقافة تدور عادة حول الجديد وترفض القديم . ثم أنها ثقافة تتطلع عادة الى المستقبل ولا تحاول أن تعمق جذورها أو مرتكزاتها فى الحاضر . ويتمثل المحور الثانى فى أن ثقافة الشـــباب تميل عادة الى رفع شعارات ذات طابع راديكالى كرفض التسلط والوصاية والسلطة ، وذلك فى مقابل التطلع الى الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية والديموقراطية(*) . ومن ثم فنحن نجد أن ثقافة الشـــباب ـــ بغض النظر عن انتمائها الوطنى ـــ

(*) يثير الطلبة فى الغالب بعض التساؤلات داخل مدرجات الجامعة تتعلق أساسا بالديموقراطية أو غيرها من القضايا المتصلة بممارسات النظام السياسى . يحدث ذلك أيضا فى المحاضرات التى تدور حول موضوعات لا تتصل من قريب أو بعيد بهذه القضايا . وهو الأمر الذى يشير الى وعى طلابى يدور أو يتمركز حول قضايا محددة .

يكون لها عادة موقفا من القضايا ذات الطابع الانسانى . كالوقوف الى جانب الفئات الفقيرة أو المهضومة الحقوق داخل المجتمعات المتقدمة ، أو الوقوف الى جانب شعوب المستعمرات ضد استغلالها ، هذا الى جانب دعم قضايا التحرير على نطاق عالمى ، كما حدث فى التنديد بالحرب الفيتنامية وما الى ذلك . ويدور المحور الثالث فى هذه الثقافة حول الحاجات الشبابية بالأساس . بحيث يتحدد موقفها من هذا العالم على مدى اشباعه لهذه الحاجات أو فرض الحرمان عليها — فاستنادا الى ذلك تتم الادانة أو المباركة . وفى هذا الصدد نلاحظ أن ثمة صيغة عالمية واحدة فيما يتعلق ببعض الممارسات الثقافية التى تنتشر عبر الأوساط الشبابية بشكل متجانس وسريع خلال فترة تاريخية وجيزة (**) .

(ح) ويشكل الطابع النقدى الخاصية الأساسية لثقافة الشباب ومجتمعهم . واذا كنا قد أشرنا سابقا الى رومانسية الشباب ، وايمانهم الطاهر بالمثل . فانه من المنطقى أن يستتبع ذلك اتجاه الشريحة الشبابية الى نقد ما هو كائن بالنظر الى ما ينبغى أن يكون باعتباره اطارا مرجعيا لذلك . ومن هنا نجد أن الثقافة الشبابية تتسم بالطابع التقويمى أو النقدى . ويعنى ذلك أننا اذا قلنا أن العناصر المكونة للثقافة هى العناصر الادراكية والتقويمية والوجدانية ، فاننا نجد أن ثقافة الشباب تستند بالأساس الى العنصر التقويمى ، ويصبح أساس التقويم والنقد متمثلا فى مدى كفاءة هذه الثقافة فى اشباع الحاجات الأساسية للشباب وأيضا مدى اقترابها من شكل المجتمع الذى ينبغى أن يكون أو الذى يتصورونه . بالاضافة الى ذلك فان هذه الثقافة تصوغ عادة جدلا مع الثقافة السائدة ، وذلك

(**) يؤكد ذلك انتشار شعارات شبابية معينة داخل الشريحة الشبابية فى مختلف مجتمعات العالم ، كارتداء الجينز الأزرق ، واطلاق الشعر ، والاستماع الى أغانى وموسيقى معينة . بل اننا نجد أنه حينما انفتحت الصين على الغرب ظهرت بعض القمصان الملونة التى يلبسها الشباب فى شنغهاى . برغم تباين التوجه الأيديولوجى والبناء الاجتماعى عن نظيره السائد فى الغرب ، بل ان أحداث التمرد الشبابى التى انتشرت عبر العالم فى ١٩٦٨ أكثر المؤشرات دلالة على ذلك .

فيما يتعلق بمطالب أو قضايا عامة تخص المجتمع بكل فئاته . وليست مطالب تتعلق بالمصالح الخاصة بالشريحة الشبابية . وقد يرجع ذلك فى بعض منه الى الطهارة التى تتمتع بها هذه الشريحة وأيضا الى المثالية التى تتوفر لها . هذا الى جانب أننا كما أشرنا نجد أن الشريحة الشبابية (الطلابية) داخل الجامعة تنتمى عادة الى مختلف الشرائح الاجتماعية ، ويتسق مع ذلك أن مطالبها ليست فئوية (*) .

(ط) وتعتبر امكانية التحول من الثقافة الفرعية التى ترتبط بشريحة محددة الى الثقافة المضادة التى تشكل وعى شريحة رافضة من الخواص

(*) يتسق مع ذلك ظاهرتين وقعتا فى المجتمع المصرى . وتتمثل الأولى فى أن مصر قد شهدت منذ عام ١٩٧١ — منذ اعلان فلسفة الانفتاح الاقتصادى — قيام كثير من الفئات والجماعات ومطالبتها ببعض المطالب الفئوية (كالعمال ، المدرسين ، الأطباء ، الصيادلة ، الزراعيين ، القضاه ، أساتذة الجامعة) . فى حين نجد ان الطلبة (شباب الجامعة) كانت مطالبهم فى تظاهرات ١٠٧٢ ، ١٩٧٣ ، ١٩٧٧ ذات طابع عام تتعلق ببعض القضايا المتصلة بمدى فاعلية النظام الاجتماعى والسياسى .

ويتسق مع ذلك — الظاهرة الثانية — ما حدث فى المطالب الواحدة التى طالب بها شباب الطلبة ، كشريحة واحدة ، اذ نجدهم فى فرنسا قد دعوا الى انهاء وضع فاسد ، وطالبوا بتأسيس تعليم ثقافى عالى وحقيقى . وفى أسبانيا طالب الطلبة بمحو آثار النازية من التعليم العالى قبل الشروع فى تأسيس أى اصلاح ثقافى . وفى ايطاليا طالب الطلبة بازالة كل تفرقة اجتماعية وتقليل التفاوت بين مختلف مناطق المجتمع الايطالى . وفى اليابان ظهرت مطالب شبابية تسعى الى تحقيق أهداف دقيقة ، ولكنها تثير النقاش حول النظام الاجتماعى والسياسى بأكمله . وفى أفريقيا نادى الطلبة بضرورة الخلاص من النفوذ الاستعمارى فى التعليم والسياسة . وفى أمريكا اللاتينية طالب الطلبة باقامة علاقات وظيفية بين التعليم واحتياجات التنمية . وتوضح هذه الأمثلة أن الحركة الطلابية لم تستهدف غايات طلابية أو تعليمية بحتة ، بل تعدتها الى المطالبة بادخال تغييرات جذرية فى النظم الاجتماعية والسياسية القائمة والدعوة الى تأسيس قيم جديدة يستند اليها بناء الدولة ككل . بل اننا نجد عادة داخل مدرجات الجامعة المصرية تساؤلات تتعلق بمدى فاعلية أو علاقة موضوعات معينة تدرس بالجامعة بالتنمية الاجتماعية ، ومدى فاعليتها فى ترقية أوضاع المجتمع . أو ماذا فعل علم الاجتماع بالنسبة للمجتمع والتنمية فى مصر .

الأساسية التى تميز المجتمع الشبابى . وفى هـذا الصدد ، فنحن اذا كنا قد أكدنا على وجود ثقافة فرعية يمكن أن نسميها بالثقافة الشـبابية ، فانه من الضرورى أن تعمل الثقافة العـامة فى هـذه الحالة على استيعاب عناصر التجديد الكائنة فى اطار الثقافة الشـبابية . بحيث يسـاعد ذلك على دعم أواصر العلاقة بين الثقافة الأم من ناحية والثقافة الفرعيـة — الشـبابية — من ناحية أخـرى ، عن طريق خلق قدر كبير من القواسم المشتركة بينهما . بحيث يعنى ذلك تطـوير الثقافة الأم بالقدر الذى يمكن أن تستوعبه من الثقافة الفرعية الشابة . لكن اذا كانت هـذه هى الحالة المثالية الواجبة للعلاقة بين الثقافة الكلية والثقافة الفرعية ، فاننا نجد أن الثقافة الكليـة — ثقافة الشيوخ — تصم آذانها عادة أمام أى ادعاءات لثقافة أو شريحة الشـباب . ومن ثم تدفعها الى التحول من ثقافة فرعية الى ثقافة مضادة ، ومن ثم يشكل الشـباب — وبخاصة طلاب الجامعة — مجتمعا مضادا وثقافة مضادة . وفى أعقاب ذلك يتخلق حوار عنيف بين الطلبة والنظام الاجتماعى والسياسى . قد يبدأ بلغة الكلمات الحادة والناقدة غير أنه ينتهى أحيانا بطلقات الرصاص . وتتحول القضـية حينئذ لتصبح هـل فى امكان المجتمع والثقافة الأم قمع الشـباب واخضاع ثقافتهم . واذا كان هـذا التوجه لمعالجة التفاعل بالقضـاء على التناقض هـو مجـرد نزع لفتيل الاشتعال وتأهيلا للانفجار . غير أنه فى مقابل ذلك نجد أن باسـتطاعة ثقـافة الشـباب المضاد السـعى الى التحالف مـع الجماعات والثقافات الراديكالية الأخـرى كخطوة ضرورية للقضـاء على النظام القائم وثقافته الجامدة ، وتقديم بديل لملامح المجتمع والثقافة التى ينبغى أن تكون (*) .

(*) نجد غالبا أن مجتمعات العالم الثالث متخمة بالمطالب التى تدور حولها الخلاف بين الطلبة والنظام السياسى القائم . حيث يشكل الطلبة فى غالب الأحيان رأس حربة الانقلابات التى تتم ضـد النظام السياسى القائم . فمثلا نجد أن مظاهرات الطلبة هى التى شكلت الانقلاب الذى أطاح بالرئيس أحمد سوكارنو واحلال الرئيس سوهارتو محله . ومن ثم نجد أن كثيرا من الصفوات السياسية فى العالم الثالث تلجأ الى اصـدار القرارات الهامة أثناء غياب التجمعات الطلابية (كفترة الأجازات مثلا) =

(ى) وتعتبر مسئولية الاختيار والتوتر المرتبط به من أهم الخصائص المميزة للموقف الشبابى . واذا كانت مرحلة الشباب تحدد ــ كما أشرنا ــ باكتمال النضج الاجتماعى المستند الى اكتمال التأهيل الاجتماعى للاضطلاع بمسئوليات محددة . فاننا نجد أن الشباب هم الفئة التى تواجه بأعباء اختيار نوع المسئولية التى عليه أن يقوم بها وليس أعباء القيام بالمسئولية ذاتها . غير أننا نجد أن هذا الاختيار يواجه عادة بثلاث صعوبات . وتتمثل الأولى فى مدى تأهيل الشباب للقيام بأى من جوانب المسئولية فى مختلف المجالات الاجتماعية . أما الثانية فتتعلق بمدى ملاءمة الظروف الاجتماعية المحيطة والقائمة لانجاز اختيار الاضطلاع بمسئولية محددة . بينما قد تنشأ الثالثة نتيجة لاتجاه المجتمع الى فرض مسئوليات محددة على الشباب دونما اتاحة فرصة للاختيار . أو حتى اتاحة فرصة التفاعل مع الاختيار المفروض . وهو ما يمكن أن نسميه وصاية الاختيار .

واستنادا الى ذلك نجد أن مرحلة الشباب تواجه بضرورة القيام باختيارات تتعلق بالاضطلاع بمسئوليات عديدة . فمطلوب من الشاب ضرورة القيام باختيار التخصص . ومطلوب منه اختيار المهنة اذا هو قد تخرج من الجامعة . ومطلوب منه الاختيار لتأسيس أسرة مع ما يترتب على ذلك من انجاز مسئوليات عديدة (*) . واذا قلنا أن عملية الاختيار هذه

= وذلك حتى لا يتمكن الطلبة من تشكيل جماعة ضاغطة لتعديل القرار السياسى . هذا الى جانب أصرار كثير من الزعامات على عدم تسييس الطلبة او الجامعة بحجة أن العلم يشكل مهمتهم الأساسية .

(*) لا تتيح الظروف فى كثير من المجتمعات النامية للشباب الجامعى امكانية القيام بمسئولية الاختيار . فمثلا فى مصر نجد أن اختيار التخصص ونوع التعليم يخضع لآليات مكتب التنسيق بغض النظر عن القدرات الخاصة للشباب . وفى اختيار المهنة غالبا ما يتولى مكتب القوى العاملة ذلك ، بغض النظر عن طبيعة التأهيل والقدرات أيضا . بل اننا نقابل فى أحيان كثيرة بمفارقات غريبة فى هذا الاطار كأن يعين خريج الفلسفة مديرا لجمعية استهلاكية . هذا الى جانب ان انخفاض مستوى الدخول ينفى مسئولية اختيار تكوين الأسرة أو الحصول على مسكن من أساسها . ومن ثم نجد تحديد مسئوليات واختيارات الشاب تأتيه دائماً من الخارج ، وتفرض عليه .

تجعل الشاب يعيش لحظات القلق والتوتر الوجودى ، بما يدعم قدرة المخاطر لديه ، ومن ثم تحمل نتائج القرار . فان ذلك يؤكد أحقيته فى المشاركة الايجابية فى صياغة الواقع الاجتماعى المحيط . وهو ما يعنى تعميق انتمائه الاجتماعى ، باعتبار أن هذا الواقع — الذى تشكل مسئولياته واختياراته جزءا منه — هو واقع شارك فيه . بيد أننا نجد على العكس من ذلك أن حرمان الشباب من تأسيس اختياراتهم المصيرية يؤدى الى شعورهم بالقلق والاغتراب والانسحاب من الحياة الاجتماعية . ومن ثم اضعاف انتمائه الاجتماعى . بحيث يتحول الى عبء يثقل كاهل التنمية ، وحشدا أو رصيدا ساكنا ومنتظرا لأى تمرد شبابى قادم وقادر على رفع هذا الحشد باتجاه اشاعة الفوضى فى النظام الاجتماعى .

(ك) ويعتبر الرفض والتمرد من الخواص المحورية المميزة للشريحة الشبابية . وتعنى هذه الخاصية عدم اقتناع الشباب بما هو كائن ومن ثم رفضه . وقد يرجع عدم الاقتناع هذا الى أنواع الحرمان التى تواجهها الشخصية الشابة فيما يتعلق باشباع حاجاتها الأساسية . وقد يتخذ الرفض صورة رفض مؤسسات الدولة التى تحيط بالشباب ، والتى يصبح أمام ضخامتها وفعاليتها فاقد القوة والفاعلية . وقد يتخذ الرفض شكل التمرد على منطق الوصاية الذى يحاول الشيوخ فرضه على الشباب بحجة عدم اكتمال نموهم . وقد يصبح الرفض معنويا كما هى الحال فى النكتة الناقدة لاحدى جزئيات الوجود الواقعى . أو يتخذ شكل الهجرة المادية من الوطن . وقد يصبح الرفض لا مبالاة متخلقة عن مظاهر عديدة كالاحباط واستمرار الحرمان . بحيث يؤدى ذلك الى ضعف الانتماء ، والحياة بفكرة الهجرة كفكرة أيديولوجية . ويعنى ذلك أن يعيش الشباب بعقلية المهاجر داخل حدود الوطن ، قاطع لكل ارتباطاته والتزاماته ، متخليا عن آية تبعات قد تفرضها بديهية المواطنة (١٦٢) .

ويرتبط بالرفض والتمرد دور الشباب فى المعارضة السياسية

والاجتماعية ، حيث لعب الشباب هذا الدور فى الولايات المتحدة الأمريكية التى لم تشهد منذ نهاية الحرب العالمية الأولى حركة عمالية سياسية . والتى لم تعرف أيضا حزبا سياسيا راديكاليا شعبيا يمكن أن يكون مصدرا لحركة راديكالية جديدة . ويصدق ذلك أيضا على الفترة التى شعر فيها كثير من الأمريكيين بعدم الارتياح لسياسة حكوماتهم الداخلية والخارجية .

ونتيجة لذلك بدأ الطلاب الجامعيون يقومون بدور بارز فى التعبير عن عدم الرضاء عن السياسات الحكومية ، ثم معارضتها فيما بعد . ويمكن القول بأن الطلاب الجامعيين قد ظلوا يشكلون عنصرا هاما فى الحركة الراديكالية ، ومصدرا للأفكار النقدية . وفضلا عن ذلك نجدهم يتولون قيادة المظاهرات الجماهيرية ويلعبون دورا أساسيا فى التأثير على السياسة القومية من خلال تأييدهم لمرشحى المعارضة ، مثلما حدث خلال حملة رئاسة السيناتور يوجين مكارثى (١٦٣) (*) .

(*) يعتبر قيام شباب الجامعة بدور المعارضة السياسية من الظواهر المنتشرة فى كثير من المجتمعات النامية ، ويرجع ذلك لعاملين . الأول غياب المعارضة السياسية الفعالة والمؤثرة والثابتة على موقفها من النظام السياسى القائم ، والثانى ان الطلبه الجامعيون هم بالتحديد أكثر الفئات التى يمكنها القيام بالمعارضة دون توقع ضرر مباشر أو مؤثر قد يصيبها . حيث لا يستطيع الموظف العام القيام بالمعارضة نظرا لامكانية عقابه وحتى رفته من الوظيفة . بينما نجد أن الطالب أو الشاب لم يخضع لعملية الصياغة النظامية institutionalization الكاملة . ولعل هناك بالتاريخ المصرى ما يؤكد ذلك . فمثلا ثار شباب الجامعات كرد فعل لأحكام الطيران فى ١٩٦٨ كأحد آثار هزيمة يونيو ١٩٦٧ . وحينما ساد اعتقاد فى ١٩٧٢ بأن النظام السياسى عاجز عن تأسيس معركة تحرير الأرض ، تظاهر الطلبة وشكلوا بذلك احدى جماعات الضغط التى كان لها تأثيرها فيما بعد على قرار المعركة . بل اننا نجد أن السلطه فى بعض المجتمعات النامية ترفض تسيس الجامعة . وقد تقدم على الغاء التنظيمات الجامعية ذات الطبيعة السياسية كالاتحادات الطلابية ، وخلق كيانات بديلة وهزيلة ، وذلك بهدف قطع الطريق أمام آية معارضة سياسية للطلبة ، تحت المناداة بضرورة تفرغ الطلبة لتلقى دروس العلم التى ينبغى أن تشكل جوهر اهتمامهم الرئيسى .

والجدير بالذكر أننا نجد أن التمرد السياسى أو المعارضة السياسية التى أعلنها الشـباب فى كثير من الأقطـار تكون عادة رد فعل للنظم التسلطية والرجعيـة الحاكمة فى هـذه الأقطار . حيث نجدها نظماً غير متكيفـة واحتياجات التحديث ومتطلباته أو عاجزه عن اشـباع الحاجات الأساسية لجماهيرها أو أنها منفصلة عن الجماهير وتوجهاتها الرئيسـية . وتنشـأ المعارضة حينما تحاول السـلطة فى هـذه النظم كبح هـذه الحاجات أو القضـاء على الأصوات التى تطالب بضرورة اشباعها . بحيث تتحول هـذه المعارضة فى النهـاية من معارضة ذات طبيعة مؤقتة الى معارضة سياسية دائمة ، نشطة ومستمرة للنظام القائم (١٤٦) .

خامساً : مشكلات الشباب مع المجتمع ، طبيعتها الأساسية

عرضنا فى الصفحات السـابقة للمتغيرات المتعددة التى تتفاعل فيما بينها لتخلق المسـألة الشبابية ، أو لنقل المشـكلة الشبابية . وأوضحنا أن بعضا من هـذه العوامل يرجع الى بناء النظـام العالمى بينما ترجع مجموعة أخرى من هـذه العوامل الى بناء المجتمع المحلى الذى يشـكل البيئة المحيطة والمباشرة للشباب . بينما تشـكل الشخصية الشـابة ذاتها مصـدرا لمجموعة ثالثة من العوامل . بيد أن هـذه العوامل المؤثرة قد تمتلك تأثيرا ايجابيا على الشـباب فتساعد على نضجهم ، ومن ثم على تطوير فعاليتهم وهو الأمر الذى يساعد على رفع التنمية وتقدم المجتمع معا . وقد تصبح هـذه العوامل ذات تأثير سلبى ضار ، تشيع الحرمان من اشباع الحاجات الأساسية للشـباب ، ومن ثم تخلق فجوة بين الشـباب وسياقه ، وبعد الفجوة يأتى التمزق والصراع الذى يطور فيكون له تأثيره المدمر على المجتمع والشـباب معاً . من هنا تعتبر هـذه الفترة التى نحاول خلالها استكشاف بعض مشكلات الشباب التى تظهر نتيجة للتفاعل بين الشـباب والمجتمع ، بيد أننا قبل أن نعرض لهذه المشـكلات نرى ابداء ثلاثة ملاحظات أساسية .

الأولى : أن مشـكلات الشباب قد ترجع الى مشـكلات يعانى منها

بناء المجتمع ، وقد ترجع الى جوانب نقص خطيرة تعانى منها الشخصية الشابة ، أو قد ترجع هــذه المشكلات الى طبيعة التفاعل غير المتناغم بينهما ، والثانية ، أن مشـــكلات الشباب يمكن أن تنقسم أيضا الى نوعين ، مجموعة المشـــكلات التى تعانى فيها الشريحة الشبابية بعامة ، ومجموعة المشـــكلات التى تعانى منها بعض فئات الشباب ، كالشباب الجامعى مثلا ، هــذا بالاضافة الى أن هناك مجموعة من المشـــكلات التى تشارك فيهـــا الشريحة الشبابية على مســـتوى العالم ككل . والثالثة أن المشـــكلة الشبابية عادة ماتمر خـــلال تاريخ وجودها بمرحلتين ، المرحلة الأولى حيث تكون المشـــكلة مجرد مشـــكلة اجتماعية ، وخـــلال هـــذه المرحلة يمكن مواجهة المشـــكلة عن طريق بعض التغييرات فى البيئة المباشرة للمشـــكلة والمخلقة لها. وفى المرحلة الثانية تصبح المشكلة مشكلة بنائية ، حيث يتطلب حلها اجراء تغييرات جذرية فى بناء المجتمع القائم . هـــذا الى جانب أنه كلمـــا اتسع نطاق المشـــكلة لكى تغطى معظم أفراد الشريحة الشبابية فى المجتمع ، كلما قاربت أن تكون مشـــكلة بنائية وليست اجتماعية والعكس صحيح . واســـتنادا الى ذلك نعرض فيما يلى لبعض مشكلات الشباب .

١ ــ الشباب والحياة فى سياق مشكل :

نقصد بالســـياق المشكل ذلك الســـياق الذى يمتلىء بمجموعة من المشكلات الرئيســـية التى تنتشر فى مختلف مجالاته . فانخفاض الدخل مثلا يعوق الانســـان عن اشباع حاجاته الأساسية ، ويجعله عاجزا عن تطوير قدراته بالنظر الى الآخـــر القادر على ذلك . قد يعانى الســـياق الاجتماعى أيضا من مشكلة الاســـكان ــ ولا نحتاج أرقاما للاستشهاد على ضخامة المشكلة فى مصر ــ التى يخضع لتأثيرها الشـــباب اما من خـــلال أسرته التى قد تفتقد خدمة المســـكن الملائم أو التى ليست لديها خـــدمة المسكن أساساً . أو قد يعانى الشـــباب منها بالنظر الى حاجته المستقبلية . هـــذا بالاضافة الى أزمة المواصلات والازدحام ونقص سلع الغذاء وهى

المشـــكلات التى تجعل حياته اليومية معاناة تعسة ينبغى التخلص منهـــا بالهرب أو المواجهة .

يدرك الشاب أيضا أنه بعد التخرج سوف يكون مجرد ذرة مضافة الى الركام الهائل من خريجى الجامعات المكدسين فى مكاتب الوزارات طاقة معدة ومؤهلة للاسهام بما يعود على الشباب والمجتمع بالنفع والتقدم ، اذا بهم يتحولون بآلية غريبـــة من طاقة ايجابية الى عبىء يعوق انطلاق اذا بهم يتحولون بآلية غريبـــة من طاقة ايجابية الى عبىء يعون انطلاق المجتمع . فالشاب الجامعى يدرك التناقض بين ما يتعلمه فى الجامعة من ناحية ومتطلبات الوظيفة التى يشـــغلها من ناحية أخرى . وذلك بحجة أن هناك فارق بين التعليم النظرى والخبرة التطبيقية . بحيث نجده يدخل الآلة البيروقراطية للمجتمع حسب شروطها وليس حسب كفاءته وقدراته . وفيما يلى أهم المشكلات التى يواجهها الشـــباب الجامعى بعـــد التخرج فى المجتمع (١٦٥) وفى مواجهـــة هذا الواقع المشـــكل يطرح الشاب معنى الوطن والمواطنة موضعا للتساؤل . فالوطن فى تحديده الأساسى والمباشر ليس الا مســـكنا وملبسا ومأكلا ، وطموحا لاشـــباع الحاجات الأساسية

المشـــكلة	التكرار	٪
عـــدم وجود فرص عمـــل	٣٢٨٠	٣٢ر٨
ضعف المرتبات	٣٤٩٢	٤٩ر٩٢
ارتفاع تكاليف المعيشة	٣٧٨٣	٣٧ر٨٣
عدم تناسب التعليم مع ظروف العمل	٦٣٣	٦ر٣٣
عدم القدرة على الزواج	١٧٩٤	١٧ر٩٤
عدم ملاءمة المؤثرات الدراسية لطبيعة العمل	٢٢٦	٢ر٢٦
كل هـــذه العوامل مجتمعة	٢٨٩١	٢٨ر٩١
المجموع	—	١٠٠٫٠

للانســـان ، وتجربة تراثية تؤكد حدوث وتواتر الاشـــباع أو الحرمان .. ومن ثم فكلما تحقق هـــذا الاشباع كلما تأكدت معانى تقديس المجتمع ، وتعمقت مشاعر الانتماء له والاســـتقرار بداخله ومن ثم العمل على رقيه ، لأن الاســـهام فى ترقية المجتمع له أساسه فى اشباع وتحقيق طموحات الذات (*) .. بغير ذلك فان عجز المجتمع عن اشباع الحاجات الأساسية للبشر الشـــباب بداخله ، سوف يفرض على الشـــباب وخاصة شريحته الواعية والمثقفة ثلاثة اختيارات صعبة .

وفى اطار الاختيار الأول ، يعيش الشباب بداخل المجتمع رافضا له محاولا الانتقام منه واستنزافه . وذلك من خـــلال التحول الى سلوكيات منحرفة انحرافا اجراميا ، أو بممارسة الســـلوك الانتهازى الذى يرى فى الغايات الخاصة أهدافا واجبة التقديس مع الايمان باســـتخدام آية وسائل قد تجسد له هـــذه الغايات ، فالغاية تبرر الوســـيلة .

ويتمثل الاختيار الثانى فى الانزواء والانسحاب من الحياة الاجتماعية للمجتمع .. معايشته دون التفاعل الايجابى معه ، بحيث يعيش الشباب الذى يؤسس هـــذا الاختيار فى المجتمـــع دون الشـــعور بالانتماء له ، أو قد يصبح فى بعض الأحيان رصيدا قائماً لآية جماعة ذات أيديولوجيـــة هروبية ، وقد تقدم للشـــباب الاشباع البديل ، ومن ثم تستقطبه كليا لكى تعيد توجيهه فى حركة مضادة للمجتمع .

ويتحدد الاختيار الثالث فى الوضع الذى يعيش فى اطاره الشباب

(*) يزداد الأمر سوءا حينما تطالعنا وجوه المسئولين فى مواجهة مشكلات الواقع المتردية ، لتصرح بوعود تتعلق بمواجهة هـــذه المشكلات ، وأن شهر كذا .... سوف يشهد خلالها .. بحيث تلعب هـــذه الوعود دورها فى تعقيد الأمور ، لأنها ترفع من شأن الطموح وتوسع الفجوة بينه وبين الحرمان الواقعى . ويصبح القلق والتوتر الشـــبابى ، وربما الانفجار هى المـــادة التى تملأ الفجـــوة الكائنة بين الطموح المرتفع والحـــرمان الواقعى المتعمق .

مهاجرا داخل الوطن ، رافضا لهذا الواقع ساعيا للهروب منه الى مكان يســـاعد على تحقيق امكاناته واشباع حاجاته الأساسية وذلك عن طريق الهجرة الى خارجة . تأكيد ذلك أن عـــدد المهاجرين من المجتمع المصرى الى الخارج ، خاصـــة الى البلاد العربية بلغ نحو ٦٨٨٨٨ ارتفع فى ١٩٧٣ الى نحو ٤٦٣٠٩٩ بحيث يمكن القول بأن الهجرة قد تضاعفت فى حـــوالى خمس ســـنوات الى ما يقترب من سبعة مرات (١٦٦) وفى دراســـة أجريت عن الشـــباب الجامعى سئل الشـــباب عما اذا كانوا يوافقون على الهجرة أم لا أجابت نسبة ٤ر٦٥٪ بالموافقة وهى نسبة عاليـــة يمكن اعتبارها مؤشراً للهروب من المجتمع ، بل اننا نتوقع من النسبة الباقية وهى ٦ر٣٤٪ أن تحاول الهجرة والهرب أيضا اذا استمرت المشكلات حادة فى مواجهتها .

وفى محاولة لمعرفة سبب الهجرة الى الخارج أجابت عينة الدراســـة بالأسباب التى يوضحها الجدول التالى (١٦٧) :

السبب	التكرار	٪
لكى يحصلوا على مناصب مناسبة	٦٥٢	٦ر٥٣
ليتمكنوا من تحقيـــق دخل أكبر	٣٠٣٢	٣٢ر٣٠
ليعيشوا حياة كريمة ويحققوا آمالهم	٢٣٠٣	٣ر٢٣
لأن فرص العمل فى الخارج أفضـــل	٢١٤٩	٤٩ر٢١
المجموع	٨١٣٧	١٠٠

لهذه الأسباب السابقة ، وبسبب المشكلات التى أشرنا اليها يعيش الشباب فى وطنه مهاجراً ، فى حالة انتظار دائمة قرار الهجرة الى الخارج وتجسديه ماديا (١٦٨) .

٢ — الحرمان من المشاركة الاجتماعية :

اذا افترضنا — حسب البرهنة السابقة — ان الشريحة الشبابية هى صاحبة الحق الجوهرى فى تشكيل مستقبلها بما يلائم امكانياتها . واذا قلنا أن شريحة الشباب الجامعى هى الشريحة الأكثر وعيا بهذا المستقبل والاهتمام به ، والأكثر ادراكا لطرق الملائمة — من وجهة نظرها — التى تقودنا لهذا المستقبل . فانه استنادا الى ذلك تتأكد مشروعية المشاركة الاجتماعية من قبل هذا الشباب الواعى فى كافة المجالات الاجتماعية ، وأيضا بما يساعد على تدريبها على قيادة المجتمع مستقبلا ، بالنظر الى ذلك وحسبما تؤكد دراسات علمية عديدة نجد أن لدى الشباب عزوفا عن المشاركة الاجتماعية ، فمثلا نلاحظ انخفاض المشاركة الثقافية للشباب الى نحو ٥٢٪ من عينة احدى الدراسات (١٦٩) وانخفاض المشاركة الاجتماعية الى نحو ٧٦٪ (١٧٠) والرياضية الى نحو ٢٩٪ والسياسية الى نحو ٥ر٨٪ (١٧١) .

وبرغم انخفاض المشاركة الشبابية فى مختلف المجالات الا أننا نجد أن هذا الانخفاض حادا فى المجال السياسى ، ذلك برغم أن القضايا السياسية ذات الصلة بالنظام الاجتماعى هى التى تجذب اهتمام الشباب عادة . بل اننا نجد أن كثيرا من المجتمعات النامية ترفض تسيس الجامعة ، تحت حجة أن الطالب الجامعى ينبغى أن يكون طالب علم فقط ، ومن الممكن حتى اذا اتفقنا على وجهة النظر هذه أن يتاح نوع من التربية السياسية البديلة كاجراء الحوار حول قضايا محددة مع بعض التجمعات الشبابية . ذلك أن غلق المشاركة أمام الطاقة الشبابية سوف يؤدى بالتأكيد الى عدم وعى الشريحة الشبابية وهى التى تشكل الغالبية من ناحية والتى تتحمل عبء الانتاج فى المجتمع من ناحية أخرى — باتجاه حركة المجتمع ، وهو الأمر الذى سوف ينعكس فى صورة حركة عشوائية للشباب بعيدا عن حركة النظام اذا كان يمتلك توجها . هذا الى جانب أن ذلك سوف

يكون مقدمة لسلوك منسحب من حركة المجتمع وتفاعلاته ، فهو لا يشعر بأنه مشارك فى هـذا المجتمع ، ومن ثم فما معنى أن يشـارك بالمبىء والانتاج . ثم هو من ناحية قد يشكل المـادة البشرية التى تعيش عليهـا الجماعات الخارجة على النظام سـواء كانت ذات توجهـات راديكالية أم سلفية . تدعوه اليها كى يشـارك تفاعلها ، بهدف رسم الطريق الى تحطيم هـذا المجتمع الذى لا نصيب لهم فيه .

٣ ــ الحرمان من اشباع الحاجات الأساسية :

فالشخصية الانسانية ، والشخصية الشابة تكون لديها عادة مجموعة من الحاجات الأساسية التى ينبغى اشباعها . حيث يعنى اتاحة اشباع الحاجات الأساسية النمو السوى لشخصية الشاب حتى النضج . هـذا بالاضافة الى تعميق انتمائه الأيديولوجى ، وهو الأمر الذى ينعكس على هيئة تحقيق درجة عالية من الاستقرار الاجتماعى . أما اذا لم يتحقق الاشباع لهـذه الحاجات الأساسية ، فسوف تظل الطاقة الشبابية حبيسة معرضة للانحراف والانفجار ــ تحت وطأة الحرمان ــ اذا تواجدت ثقوب فى جدار البنـاء الاجتماعى القائم تسلم الى هـذا الاشباع الخفى . ومن ثم انسياب الطاقة الشبابية الى محاولات غير سوية أو تظل باقية على حرمانها فى مختلف مجالات السـياق الاجتماعى ، بمـا يجعل عمليـة اشباعها لحاجاتها ، أو بلاصح استمرار وجودها يواجه بعديد من المشكلات الأساسية .

واستشهادا باحـدى الدراسات العلمية التى أجريت على الشـباب المصرى (١٧٣) نجد أن الشـباب يواجه بمشكلات عديدة فى مختلف المجالات الاجتماعية ، فمثلا قد لا تشـكل الأسرة اطارا ملائما لاشـباع الحاجات الأساسية للشـباب . حيث نجد أن نحـو ٤١٪ من حجم العينة يعانى مشكلات أسرية ، قد تدور حول صراع الأجيال ، الذى يتركز أساسا حول رفض الآباء التسليم باشباع الحاجات التى يراها الشـباب أساسية (١٧٤)(. فاذا انتقلنا الى المجال الاقتصادى فاننا سوف نجد أن معاناة الشـباب

فيه أكثر وضوحاً حيث نجد أن نسبة ٨٣٪ من عينة الدراسة تعانى من مشـــكلات اقتصادية تعوق اشـــباع حاجات الشـــباب داخل الســـياق الاجتماعى (١٧٥) ، وهو الأمر الذى يجعل الســـياق الاقتصادى بالنســـبة للشـــباب مشكلا من ناحيتين . الأولى ، أن انخفاض الدخل الأسرى يؤدى الى عديد من الحرمانات بالنســـبة لحاجات الشـــباب الأساسية ، والثانية اننا نجد أن الشخصية الشـــابة خاصة الجامعية هى الأكثر شـــعورا بوطأة هـــذه المشـــكلات نظرا لتعدد مطالبها ، وأيضا لارتفاع مســـتوى طموحها ، خاصة اذا كانت على بداية تأسيس حياة جديدة . ذلك كله فى مواجهـــة مســـتوى من الدخل عاجز أمام هـــذه الاحتياجات المتنامية ، وغير قادر حتى على الوفاء بالمستويات الدنيا لاشباع الحاجات الأساسية .

بالاضافة الى ذلك يعانى الشـــباب من مشـــكلات دينية عديدة . ذلك أن حاجات الشـــباب فى هـــذا الاطار تظهر فى شـــكل تساؤلات تتعلق بالهوية الدينية والايمان . هـــذا الى جانب مجموعة التساؤلات المتعلقة بمعانى أساسية كالله ، وما بعد الحياة ، وما الى ذلك من التساؤلات التى يصعب تقـــديم اجابة عقلانية لهـــا فى بعض الأحيان . بحيث يدفع ذلك بالشـــباب الى معاناة الغموض فيما يتعلق بالجوانب الدينية لواقعة . بحيث يظهـــر ذلك فى نتائج الدراســـة التى أشرنا اليها والتى تؤكد أن نحو ٢٧٪ من شباب عينة البحث يعانون من مشـــكلات تتعلق بالدين (١٧٦) . ولا يعنى انخفاض نسبة من يواجهون مشـــكلات دينية انخفاض حجـــم المشـــكلات الدينية . ولكن النســـبة المشار اليها تعتبر فى حـــد ذاتها نســـبة عالية ، تجعل المجال الدينى مشـــكلا وتفرض ضرورة المواجهـــة الحقيقية فى هـــذا الاطار .

أما فيما يتعلق باشباع الحاجة الى الجنس كحاجة أساسية فاننا نجد أنها تشـــكل وضعا مشكلا بالنسبة للشـــباب الجامعى ، اذ يعتبر عـــدم وجود المسكن فيما بعد التخرج . وفقد الأمل فى امكانية تشكيل أسرة فى قلب سياق لا يسمح بالاشباع الجنسى خارج نطاق الأسرة ، من المشكلات

الأساسية التى تواجه الشـباب فى هـذه الدراسة . وتذهب ذات الدراسة الى أن حوالى ٢٨٪ من عينـة الدراسة تعانى من مشكلات جنسية(١٧٧) . وبرغم الانخفاض الظاهرى لدرجـة المعاناة من المشـكلات الجنسية ، فان النسـبة التى أشرنا اليها تشـير بالتأكيد الى مجموعة أخـرى من الشـباب التى لم تستطع أن تتحدث صراحة فيما تعانيه من مشـكلات جنيسية باعتبار أن ذلك يدخل فى نطاق الحياء العام (*) .

واذا كان السياق الاجتماعى لا يقـدم — كما هو واضح من المعطيات السـابقة — اشباعات حقيقية لحاجات الشـباب الأساسية ، فان الشباب يكون عادة عرضة لمشاعر القلق والتوتر التى قد تسـلمه فى حالات كثيرة الى أمراض وظواهر نفسـية خطيرة ، قد تظل على المسـتوى الفردى فى شـكل ظواهر فردية ، أو قد تتجمع لتشـكل ظواهر هروبية الى الدين ، أو لرفضه ، وهى الفوضى الاجتماعية . بحيث تخلق هـذه السياقات الجديدة التى هرب اليها الشاب اشباعا داخليا وموقفيا لحاجات المنتمين اليها . يؤكد ذلك حجم المشـكلات النفسية التى يواجهها الشاب حسبما تذهب ذات الدراسـة ، حيث أكدت أن ٥٠٪ من شـباب العينة يعانى

(*) فى هـذا الصدد لنا ملاحظتان . ان هناك نوعاً من الخطوبة المرحلية التى بدأت تظهر داخل الحرم الجامعى . حيث يتعرف الشاب على فتاه . وتتطور العلاقة حتى اعلان الخطبة اشـهارا للمجتمع والأسرة على هـذه العلاقة . وتسـتمر هـذه العلاقة على مدى السنوات الأربع بكل متضمناتها . وفى نهاية السـنوات الأربع ، نشهد موسم فسخ هـذه الخطوبات . حيث تقابل معظم هؤلاء الأشـخاص وقد فسخوا الخطوبة أو تزوجوا بآخرين غير الذين خطبوا لهم فى المرحلة الجامعية .

وتذهب الملاحظة الثانية الى أن الجماعات الدينية بتأسيسها لامكانيات الزواج الداخلى ، تقدم اشباعا مشروعاً لكل من الشاب والفتاة بتشكيل أسرة ، ومنحها سكنا بأقل قدر من التأثيث . هنا نجد أن الجماعة الدينية تلعب دورا هاما فى جذب الشـباب اليها . ففى مقابل الايمان بأفكارها ومبادئها ، نجد أن الجماعة تقـدم له اشباعا لحاجاته الأساسية . بحيث تطرح الجماعة نفسها للشاب كبديل للمجتمع الذى عجز عن اشباع الحاجات الأساسية للشـباب بالشكل الملائم .

من مشـــكلات نفسية (١٧٨) تدور حول مشاعر القلق والاغتراب ، وهى المشـــاعر التى تكمن أسبابها فى الســـياق الاجتماعى ، الذى ينبغى التوجه نحوه مباشرة لاصلاح ما به لكى يوفر ما يســـاعد على تحقيق الســـواء النفسى للشـــباب . ذلك أن الشـــباب لديهم حاجات أساسية لابـــد من اشباعها . فاذا صادف الشـــباب الحرمان من الاشباع ، فان ذلك سوف يؤثر على قوة انتمائه الاجتماعى . ومن ثم سوف يكون نهبا لآية انتماءات تقـــدم له اشباعاً بديلا أو على الأقل تقدم وعدا مستقبليا بامكانية الاشباع .

٤ ــ مشـــكلة الغياب الأيديولوجى :

يتبنى أى مجتمع ــ فى وضعه المثالى أو المعتاد ــ موقفا أيديولوجيا محـــددا ، تشـــكل متضمناته الموجهات الأساسية التى تحكم الســـلوك الاجتماعى ، باعتبارها المحكات التى يحكم بالنظر اليها على طبيعـــة الآداء . وتشـــير الأيديولوجيا فى ذاتها الى مجموعة المبادىء أو الأفكار التى تشكل رؤية محـــددة للمجتمع . ومن ثم موقفه من قضـــايا الوجود المحيط به . وتتمثل القيمة الحقيقية لآية أيديولوجيا فى أنها تطرح النموذج أو المثال الذى ينبغى احتذاؤه أو تمثله ، ومن ثم ففى حالة غياب الأيديولوجيا أو عـــدم وضوح المثال الذى تطرحه فاننا نجد أن التفاعل الاجتماعى يتم بلا موجهات أساسية . ومن ثم يتحرك المجتمع حركة عشـــوائية تفتقد الهدف ولا تمتلك خطا مستقيما للوصـــول اليه ، وهو ما نرى انعكاسا له فى سعى الأفراد لانجاز متطلباتهم وفقـــا لأيديولوجيات خاصـــة قد تهتم بما هو خاص ، وتفضله على ما هو عام . وتكشف محاولة تفحص البنية الأيديولوجية ما بعد ١٩٥٢ عن تميزها بعدة ملامح أساسية .

وتتمثل أول هـــذه الملامح فى افتقاد الأيديولوجيا للتماسك العضوى . اذ نجـــد أن أيديولوجيا ما بعد ١٩٥٢ ضمت مجموعة من العنـــاصر التى لا تشـــكل مع بعضها بنية أيديولوجية متماسكة تفرض مثالا واضحاً ومحددا

ينبغى احتذاؤه . فقد تعددت انتماءات المجتمع بين الانتماء العربى الاسلامى والاشتراكى وحتى الرأسمالى . بحيث تميز التاريخ الحديث بالانتقال بين مختلف هـذه المواقف أو ضم بعضها معا . مما أدى الى عـدم الوصول الى بنية أيديولوجية محددة المعالم • ومن ثم فقد أدى هـذا التنوع بين العناصر الأيديولوجية الى طرح مشـكلة تتعلق بالنموذج الواجب احتذاؤه ، والقيم التى ينبغى أن توجه سلوكنا .

وتشكل ظاهرة التنقل الأيديولوجى الظاهرة الثانية فى هذا الصدد . وتأكيدا لذلك فاننا اذا تتبعنا التاريخ الأيديولوجى الحديث لمصر فسوف نجد أنه فى الفترة من ١٩٥٢ وحتى ١٩٥٦ سـاد ما يمكن أن يسمى بالتوجه الأيديولوجى الرأسـمالى ، أو بالأصح تعتبر هـذه الفترة فترة البحث الأيديولوجى ، أما الفترة من ١٩٦١ وحتى ١٩٧٠ فيمكن أن نسميها بفترة الأيديولوجيا الاشتراكية . هـذا بينما تعرف الفترة من ١٩٧٠ وحتى الآن بفترة الانفتاح الاقتصادى والسـياسى وتشجيع القطاع الخاص . والمشكلة الرئيسـية فى هـذا الصدد تتمثل فى أن الانتقال الأيديولوجى كان عادة انتقالا بين اختيارات متناقضة . وهو الأمر الذى يعوق استيعاب أى من هـذه الأيديولوجيات أو توجهاتها الأساسية . بحيث يسلم هـذا التنقل الأيديولوجى الى حالة من عـدم الاستمرار ، ومن ثم الى غياب النموذج الأيديولوجى .

الى جانب ذلك تميزت ممارسة الصفوة الحاكمة لأيديولوجيتها بعديد من المشـكلات . فهناك مثـلا ظاهرة التجريب الأيديولوجى (حيث كان الرئيس عبد الناصر يشـير كثير الى الصفة التجريبية لسياساته وعـدم رغبتـه فى الالتزام بعقيدة جامدة) • هـذا الى جانب الانتقاء والتغيير الأيديولوجى بمعنى أن البنية الأيديولوجية قد تضم عناصر منتقاه الا أنهـا متناقضـة • بالاضافة الى ذلك هنـاك ما يمكن أن نعرفه بالتوسـطية

الأيديولوجيـــة . بمعنى أن لا نكون أشـــتراكيون بصـــورة واضحة (*) أو رأسماليون بصـــورة محددة اذا وافقنا على الرأســـمالية كأيديولوجيا اجتماعية . مثال على ذلك القول بالديموقراطية ، والتأكيد على ضرورة أن يتم ذلك فى اطار ترضية النزعة الأبوية .

يضـــاف الى ذلك ما يمكن أن يســـمى بأحادية ومحدودية التوجـــه الأيديولوجى . ونقصـــد بأحادية التوجـــه الأيديولوجى أننـــا نلاحظ أن الاختيـــارات الأيديولوجية فى البـــلاد النامية تتم عادة على مســـتوى الصـــفوة السياسية من حيث اختيارها أو ممارستها دون اهتمام بعملية تربية الجماهير وفقـــا لها . وهـــذا من شأنه أتاحة التفاعل بين الجماهير والاختيار الأيديولوجى حتى يمكنها فى النهـــاية أستيعابه بحيث يصبح أى انحراف أيديولوجى من قبل الصـــفوة له رد فعل واضـــح من جانب الجماهير (*) .

أما محدودية التوجة الأيديولوجى فنعنى بها اقتصارها على الصفوة المثقفة ســـواء شريحتها المؤيدة أو المعارضة لهـــذه الأيديولوجيا فى حين

(*) من الثابت أن أول منطقة حرة أفتتحت فى بورســـعيد سنة ١٩٦٥ ولمـــا سئل عبد الناصر انه يتناقض مع الفلســـفة الاشتراكية ســـخر من ذلك مجيبا أنه (لا بابوية فى الاشتراكية) . بالاضافة الى ذلك نجد أن عبد المنعم القيسونى فى أول بيان للحكومة فى سنة ١٩٥٧ ، يشير الى اننا نعمل حسب فلســـفة رأسمالية تشجع القطاع الخاص ، فى الوقت الذى صدرت فيه قوانين الاصلاح الزراعى وتوزيع الأرض على صـــغار الفلاحين .

أشار أحـــد المفكرين الاجتماعيين فى أحـــدى المناقشات الى انه يعتبر ان الكارثة الحقيقية والتى تتجاوز كارثة يونيو ١٩٦٧ ، تتمثل فى انسحاب الناصرية بكل منجزاتها من على المسرح الاجتماعى والسياسى أو استبدالها بأيديولوجية أخرى دون اهتمام من المشرع الذى حققت له الناصرية الكثير ، اعزى ذلك بالأساس الى فشل الناصرية فى تأسيس ما يمكن أن نسميه بالتربية الأيديولوجية للجماهير .

لم يحاول النظام الاجتماعى فى أى من مراحل التاريخ المجابهة الشـجاعة لتربية الجماهير تربية ايديولوجية محددة ومتعمقة .

ومن الظواهر التى انتشرت فى هـذه المرحلة أيضا ما يمكن أن نسميه بظاهرة التعايش الأيديولوجى فنظرا لغياب حسم الخيار الأيديولوجى نجد ان معظم البـلاد النامية عادة ما تكون مسرحا لمجموعة من الأيديولوجيات المغلقة فى وجـه بعضها البعض ؛ فقد توجد الأيديولوجية الاشـتراكية الى جوار الاتجاهات الليبرالية بالاضافة الى الاتجاهات التراثية أو المحافظة التى ترى فى الدين اطارا ملائما لتوجيه الواقع الاجتماعى غير ان الخطير فى ذلك ان هـذه العناصر الأيديولوجية تستقطب أفرادا اليها ولا تحاول التفاعل أو الحوار الداخلى فيما بين بعضها البعض ومن ثمة تستـند قوتها الى ما تستطيع جذبه من أعضاء ، وهنا يحدث ما يمكن أن يسمى بالجماعات الأيديولوجية المتوازنة ، التى ترفض كل منها تصور الآخر بحيث يمكن أن يقود هـذا الوضع الى ظواهر عديدة كالصراع الأيديولوجى والذى يسلم فى بعض حالاته فى النهاية الى غياب الاتفاق الأيديولوجى المحدد المعالم .

ذلك يعنى اننا لا نستطيع أن نؤكد امتلاك البـلاد النامية لأيديولوجيا محددة ، ونتيجة لذلك تظهر ظواهر كثيرة كرد فعل لهذا الغياب أو التهرؤ الأيديولوجى ، من هـذه الظواهر فى اطار الشـباب الجامعى هو تعريضه لخيارات أيديولوجية ممزقة وظهور ما يمكن أن نسميه بالجماعات الأيديولوجية الهروبية وفى هـذا الصدد لابد من النظر الى الجماعات ذات الانتماءات الدينية أو الجماعات الماركسية على انها تمثل اتجاهات هروبية (١٧٩) حيث هى هاربة من حالة الفوضى الأيديولوجية تحاول أن تعثر على أطر مثالية تتولى بالنظر اليها تغيير الواقع الاجتماعى وترشـيد حركتها فى اطاره ، بحيث تعمل فى اطار ذلك على تجميع الأنصار حول هـذه الأطر وترتيبها حول توجهاتها الأيديولوجية ، وقد تتحين الفرص أحيانا لفرض هـذا المثال أو الأيديولوجيا على الواقع الاجتماعى ان سلما بالاقناع وان عنفا تحت طلقات الرصاص .

الظاهرة الثانية فى هـــذا الصدد ان غياب المثال الذى يفرضه توجيه أيديولوجى محدد أحيانا ، يؤدى الى انخفاض الانتماء الاجتماعى ، وممارسة الحياة وفقـــا لمنطق خاص ، تقدس فى اطاره الغايات الخاصـــة التى يسعى الفاعل لانجازها ومن أية وســـائل متاحة ولو حتى غير مشروعة فى بعض الأحيان (*) . المهم هو النجاح بغض النظـــر عن شرف الوســـائل . مع ما يرتبط بذلك من اهدار لكل القيم والمقدسات التى لها تاريخ عريق من الاحترام فى اطار الوسط الجامعى .

٥ — الشـــباب والمؤسسات فى المجتمع :

اذا أكد علماء الاجتماع أنه لكى يكتسب الانســـان خاصيته الاجتماعية فانه لابد وان يعيش فى مجتمع يتواجد الأنا مع الآخرين يؤسسون علاقات وأدوار يخلقون المجتمع بسيطا ليتولى هو بعد التعقيد تخليقهم . يعنى ذلك ان ثمة مجتمعا ككيان كلى والفرد كجزئية يتعامل مع هـــذا الكل الذى شارك فى تخليقه وأصبح الآن متضمنا فيه . بيد ان هـــذا التصور لعلاقة الفرد بالمجتمع قد تصلح لمجتمع المشاعة البدائى ، الا انه لا يلائم البناءات الاجتماعية التى خلقتها المراحل التاريخية التاليـــة حيث تعقدت علاقة الفرد بالمجتمع وأصبحت الى حد كبير غير مباشرة وغير مرئية وغير مؤثرة بهـــذا التصور المبسط لهـــا .

ذلك ان هناك كما من المؤسسات أو السياقات الجزئية تتوسط التفاعل

(*) من الظواهر المقلقة التى بدأت تســـود الوسط الجامعى فى الســـنوات الأخيرة هى محاولة النجاح والتفوق اســـتنادا الى أية وسيلة اكتفاء بالمرجع الأساسى أو حتى تلخيصه واختزاله كوسيلة ســـهلة وسريعة للنجاح وحتى الغش فى الامتحانات . وتعتبرالظاهرة الأخيرة من الظواهر التى أصبحت ملفتة للنظر حتى أصبحت هناك ممارسات عديدة ومبتكرة فى هـــذا الصدد ، انشاهد على ذلك الارتفاع الجنونى لعدد حالات الغش المضبوطة فى الســـنوات الأخيرة ... بل لقد أظهرت بعض التحقيقات ان الأسرة كانت تشارك الشاب فى اعداد وســـائل الغش .

بين الفــرد والمجتمع ومن ثمة تؤثر فيه وتتأثر به وهى بذلك تلعب دور الوسيط العاكس لاحتياجات الفرد أو الفارض لمتطلبات المجتمع . فى اطار ذلك يواجه الفرد نوعية من المؤسسات . النوع الأول : تمثل فى مجموعة مؤسسات التنشئة الاجتماعية . وتضم الأسرة والمدرســة والسياق المحلى لتكوين ضبطى فى مواجهة هــذا النوع من المؤسسات يصادف الشاب نوعين من المعاناة الأول انها عادة ما تغرس فى الشــباب النماذج المثالية للســلوك الواقعى فهى عادة ما تسمح بحرية التعبير بل وتشجع الفرد عليها تسمح بالاختلاف مادام فى حدود ما تفرضه مراسم الاختلاف وتقاليده التى يعمل على تفجر طاقات الابداع والتجديد فى بنائه . وأثناء ذلك تغرس فيه المثال الواجب احتذاؤه . ومن ثم فهى تشــكل مرحلة غرس أدوات القياس ومحكات السلوك التى تســاعد الشباب على التفاعل الاجتماعى بشــكل سوى . والمعاناة التى قد يواجهها الشاب فى اطار ذلك تتعلق بالصدام الذى تتعرض له المثل والمعايير ومقاييس الســلوك التى استوعبها فى الصغر مع نظائرها فى الواقع الاجتماعى التى قد تكون متحركة أو مناقضة ومن ثمة تعكس طبيعتها كم المعاناة التى قد يواجهها الشاب فى حياته اليومية ومن تكون هــذه المؤسسات منعزلة عن سياقها متقدمة عليها أو متخلفة عنه وفى الهوة قد يقف الشاب ليتحمل المعاناة الناتجة عن هــذا الانفصال .

النوع الثانى من المعاناة التى قد يتعرض لها الشاب بالنظر الى هــذه المؤسسات عجز هــذه المؤسسات ذاتها عن فرض النموذج أو تأسيس ضوابط تكون منهارة حيث النزعة الفردية كما هو الحال بالنســبة للأسرة فى المجتمعات المتقدمة . أو حينما تكون شــديدة التماسك والصلابة بحيث تفرض نمــاذج على أنماط ســلوك أشد ما تكون مغتربة عن الســياق الاجتماعى الذى يضمها فى اطاره كالأسرة فى المجتمعات الأشد تخلفا . فى الحالتين لا تلعب هــذه المؤسسات دوراً فعالا فى تأهيل الفرد بالمتطلبات الحقيقية الملائمة التفاعل مع الحياة الاجتماعية .

اما النوع الثانى من المؤسسات : فهى ما يمكن أن نطلق عليه مجموعة

المؤسسات القومية الحاكمة أو مؤسسات الدولة شعبية كانت أو سياسية ، وأصبحت مؤسسات الدولة الحديثة تمثل فى حد ذاتها مشكلة عالمية بالنسبة للفرد فى المجتمع والشباب بصفة خاصة . فهذه المؤسسات أصبحت من الضخامة بحيث لا يستطيع الفرد أن يحاول مواجهتها ومن ثم يظل الفرد فى حالة خوف وقلق دائم من امكانية سطوتها عليه . خوف على حريته فى أن يعبر وان يكون مضمون التعبير له تأثيره وخوف من الاغتراب الذى قد تفرضه هـذه المؤسسات عليه ، كأن تحاول فرض منطق فكرى أو وصاية أيديولوجية معينة ومن ثمة تقولب تفكيره وبناءه فى قالب معين قد لا يتلاءم مع بناء شخصيته .. لكن يتلاءم مع أهداف هـذه المؤسسات .

ذلك يفسر قلق الشباب وتوتره وربما انفجاره رافضا هـذا الوضع المفروض عليه . وذلك يفسر أيضا هـذا الموقف الحاد الذى يقفه الشباب من المؤسسات الحاكمة فى المجتمع أو من المتولين لمقاليد أمورها . بحيث تتنوع أسباب الرفض بين الخوف على تحقق تصورهم للمستقبل فى ظل هـذه المؤسسات ، أو ادراكهم لعـدم ملاءمة اتجاه وطبيعـة التغير الذى تفرضه هـذه المؤسسات ومن ثمة قد يتخذ الانفجار نقدا عنيفا لها ، أو تحديا وحين اليأس وفقـدان الأمل الى جمـاعات هروبية سـاكنة ومنعزلة أو متحدية تفرض ما هو ملائم للتصور الشـبابى .

٦ — الهوة بين المثال وتجسدات الواقع :

الحالة المثالية فيما يتعلق بحياة الشخصية فى السياق الاجتماعى أن يحدث تطابق بين النماذج وأنماط السـلوك التى استوعبتها الشخصية فى مرحلة التنشئة وبين تجسداتها فى الواقع بيد انه قد تحدث انحرافات عن هـذه الحالة المثالية ، كأن يتخلق تناقض أو انحراف بين المثال وتجسده الواقعى . وقد لا يعى ذلك الصغار ، لأنهم لم يصلوا بعد الى مسـتوى التفاعل الاجتماعى المسـئول ، وقد لا يهتم به الشـيوخ لأنهم قد يكونون المسـئولين عن ذلك . يبقى الشـباب ، وهم المرحلة العمرية التى تواجه

واقعها بمثلها . ومن ثم فهى تعيش مرحلة تجريب ، ومن ثم فهى عادة ما تكون الأكثر قدره على ادراك التفاوت بين المثال والواقع . ومن ثم لديها قلق وتوتر يتعلق أساساً بما ينبغى أن يكون عليه التفاعل . ونتيجة للخبرة قد يتخذ الرفض أسلوبا لحركته الاجتماعية ، بيد ان رفضه لا ينصب على القيم الأساسية ، وانما ينصب على تجسدها الواقعى . ومن ثم ، فهو ليس الا عوده لهذه القيم فى شكلها المثالى .

فعنده مثلا حيرة بين النموذج الذى ينبغى تمثله أو الذى يجب احتذاؤه لكى يحقق طموحه ، وهل اذا تمثل النموذج أو احتذاه ، فهل سيساعد ذلك على تحقيق طموحه ؟ هل الآفاق مفتوحة لذلك ؟ المؤكد ان الحياة المصرية يسودها نموذجان ، النموذج الفردى ، والنموذج الاشتراكى . النموذج الفردي يتأسس على قهر المزاحمين فى ســاحة الصراع . بينما يفترض فى النموذج الاشتراكى تأكيداً على عدالة التوزيع والمشــاركة . أما الخلط الذى قد يقع ســببه ان هناك غموضا يتعلق بالنموذج الذى يجب أن تحتذيه وذلك الذى يجب أن نرفضه . فالتعليم مثلا يؤكد على المنافســة للحصول على المجموع يحتذى فى ذلك النمــوذج الفردى . بينما محتــوى التعليم ومضمونه اشتراكى ، ذلك قد يسبب نوعاً من الخلط قد يســهم فى فساد القضية وفى أقل احتمالية سوف يجعلها تعيش فى بيئة محيطة متخمة بالتوتر .

وأما الحيرة والخلط بين النماذج والتوترات الناتجة تقع فى عدة ظواهر فى المجال الشبابى ، وكلها تشير الى أن ثمة بحث عن نموذج يرغب الشباب تمثله ، واحتذاءه ويلقى موافقة اجتماعية . فقد يرفض الشباب ابتذال القيم الأساسية ، ومن ثم يبرز نداء بالعودة لهذه القيم الاساسية فى شكلها المثالى يتجلى ذلك فى اتجاه الشباب نحو الارتباط بجماعات ذات صبغة دينية ، أو ذات منطلق ايديولوجى معين . وفى هذا الاطار لا يجب أن نسمى ذلك هروبا انحرافيا كما قد يحلو للبعض تسميته ، ولكنه اتجاه ايجابى ينجزه الشباب بحثا عن القيم فى أصولها ومراجعها النقية ، قد تختلف منطلقات واتجاهات الشباب فى ذلك الا أن الحافز أو الدافع يظل دائما هو البحث عن المثل فى صيغتها الاساسية ، نقية تختلف عما يراه منحرفا فى بيئته المحيطة .

فاذا لم يكن الشباب على قدر من الرشد الذى يؤهـله للبحث عن المراجع النقية فانه عادة ما يتجه الى ان يكفر بالمثل الكائنة ، ومن ثم ، فقد يتجه عنيفا ومحتجا الى التطرف وتبنى قيما قد يراها المجتمع منحرفة ، الا أنها تظل دائما مجالا يندفع اليه الشباب ، هروبا من المعـاناة التى يواجهها ، افتقاد لأكثر الطرق سلامة لالغاء مصادر التناقض .

٧ — الرفض : ظاهرة شبابية معاصرة :

لا شك انه قد وقعت مجموعـة من الاحداث التى ميزت مجتمعنا الانسانى المعاصر وأثرت على طبيعة تفاعله ، فقد أدى تأسيس الثـورة العلمية والتكنولوجية ومن ثم ، اندفاعها بمعدلات متوالية هندسية الى الغاء البعد المكانى بين مختلف السياقات الاجتماعية المحلية . ومن ثم فلم يعـد غريبا تواجد تجمعات قد تتباين فيما بينها محليا ، الا أنها تخلق تجانسات فيما بينها على المستوى العالمى . بيد أن تزايد السرعات التى انطلق عقالها منذ عهد مجموعة الثورات السياسية والعلمية والتكنولوجية ادت الى طرح كم هائل من المتغيرات فى اطار واقع التفاعل الاجتماعى بحيث انتفت قاعدة الثبات التى يمكن للشباب مثلا ان يؤسس على أساسها تنبؤاته بشـأن المستقبل ومن ثم ، فقد تولد لديه قلق وتوتر بشأن المستقبل والقضـايا المتعلقة به . قد تختلف القضايا وفقا للسياقات المحلية الا انه يظل مؤكدا أن هناك قاسما مشتركا بين الشباب على المستوى الانسانى ، الكل لايعرف الى أين هو ذاهب ، وهذا القلق يبرر منطق الرفض اذا أحس الشباب أن الشيوخ ليس لديهم نفس توترهم أو قلقهم بشأن المستقبل . ومن هنا يصبح الرفض لعدم مراعاة حقه فى أن يعلم الى أين يسير ، رفضـا لادراكه أن الجيل المسيطر مساير لما يجرى ولا ينتبه الانتباه الكافى لهذه الطفرات التى تتلاحق والتى سيكون الشباب ضحية لها اذا لم يكن ثمة تخطيط يحـدد بوضوح نقطة بدء الانطلاق وامكانات الانجاز والنتائج المتوقعة .

هذا الرفض قد أخذ شكلين : الاول معلن ، يعلن فى اطاره الشباب أن الشيوخ ليس لديهم الانتباه الكافى لحركة الحاضر والمستقبل ، ومن ثم

فان لهم الحق فى مباشرة قيادة السنين ، ومن ثم يصبح رفضهم رفضا لمنطق الوصاية أو القوبنة التى قد تفرض من أعلى (من الخارج على حركتهم .) وقد يتخذ الرفض أيضا طابا ايجابيا معلنا من أجل المشـــاركة فى دراســـة القرار واصداره ما داموا هم متحملى تنفيذ هذا القرار .

الشكل الثانى للرفض هو الشكل السلبى . فى اطاره يحيا الشباب مواطنين بلا وطن ، مهاجرين فى أوطانهم . وهنا لا تكون الهجرة بمعناها الخارجى ، أعنى أن يسافر الى الخارج . ولكن تأسس الهجرة كفكـــرة وأيديولوجية ان صح التعبير ، أن يعيش الشاب بعقلية المهاجر داخل الحدود يقطع أثناء ذلك كل ارتباطاته بهذا الوطن . فلا يعيش بشكل لتسرى فى اطاره لاحساساته بأن هذا المجتمع يوفر له فرص الطموح وامكانية المشاركة . وتستمر هذه الحالة الى أن تتحول الهجرة المعنوية الى هجرة فيزيقيـــة حقيقة . حيث أوطان فيها فرص وامكانيات تحقيق الطموح (١٧٩) .

* * *

المراجـــع

1 — F. Nilson : Youth in changeing society. London. Riutledge and Kegam Paul. 1978. P. 12.

2 — S. N : From generatino to generation . Age Groups and social structure (The Free Press, New York, 1956)

3 — Ibid. P. XXii.

4 — F. Nilson : Op. cit. P. 98.

5 — Ibid. P. 77.

6 — Richard Flackss : Youth and Social change (Markham Publish'ng Company. Chicago. 1971) P. 32.

7 — Ibid. P. 37.

8 — Ibid. P. 38.

9 — Talcott Parsons : Age and Sex in The Social structure of the united state (in) Peter K. Manning & Macello Truzzi : Youth and Sociology (ed) Prentice-Hall. New Gersey. 1972. P. 149.

11 — Herbert Moller : Youth as a Force in The Modern world (in) Peter K. Manning & Marcello Truzzi : Op, cit P. 217.

12 — Ibid. P. 63.

13 — Ibid. P. 63.

14 — F. Nilson : Op., cit. P. 68.

15 — Herbert Moller : Op., cit. P. 211.

16 — Elliot Liebow : Friends and Networks : (m) Peter K. M & M. Truzzi : Op, cit. 86.

17 — Ibid. P. 85.

18 — T. Parsons : Age and sex in The Social structure of United States : Op. cit.. P. 144.

19 — Ibid. P. 146.

٢٠ — على ليلة : الشباب المصرى وقضاياه من وجهة نظر المثقفين المصريين . منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ١٩٨٠. ص ٣٥ .

٢١ — المرجع السابق . ص ٣٦ .

٢٢ — المرجق السابق .

٢٣ — المرجع السابق . ص ٣٨ .

٢٤ — المرجع السابق . ص ٤٠ .

٢٥ — المرجع السابق . ص ١٥ .

٢٦ — المرجع السابق . ص ١١٢ .

27 — Herbert Moller : Op, cit. P. 33.

28 — Elliot Liebow : Op, cit. P. 87.

29 — Ibid. P. 90.

٣٠ — على ليلة : الشباب والمجتمع ، ملامح الانفصال والاتصال ، المؤتمر الدولى الثانى للاحصاء والحسابات العلمية : ١٢ — ١٤ ابريل ١٩٧٧ ص ص ١٦٧ — ١٩٢ .

٣١ — المرجع السابق . ص ١٩٠ .

٣٢ — المرجع السابق ، ص ١٧٩ .

33 — Eisenstadt : Op, cit. 113.

34 — Ibid. P.. 116.

٣٦ — على ليلة : الشباب المصرى وقضاياه ، وجهة نظـر المثقفين المصريين ، ص ٤٣ .

٣٧ — المرجع السابق ص ٤٦ .

38 — Elliot Liebow : Op, cit. P. 93.

39 — F. Nilson : Op. cit, P. 89.

40 — Ibid. P. 97.

41 — Ibid. P. 97.

42 — T. Parsons : Op. cit. P. 148.

43 — Ibid. P. 149.

4 — Eisenstadt : Op. cit. P. 63.

٤٥ — على ليلة : الشباب والمجتمع ، ملامح الانفصال والاتصال . مرجع سابق . ص ١٨١ .

46 — Talcott Parsons : The Social System (Glencoe. kegan Paul. New York. 1951) pp. 71-72.

47 — Emile Durkheim : The divosion of Labor in Society . (The Free Press of Glencoe. London. 1964) P. 112.

48 — Talcott Parsons : Op, cit. P. 73.

49 — Anthony M. Orum : Introduction to political Sociology, The Social anatomy of the body Politic (Prentice-Hall INC., Englewood New Jersy. 1982) P. 94.

50 — S.N.. Eisenstadt : Op, cit. P. XV.

51 — Richard Flacks : O.P., cit. P. 28.

52 — S.N. Eisenstadt : Op, cit.. XXVI — XXII.

53 — Ibid. P. XXVIII.

54 — Richard Falcks : Op, cit. P. 35.

55 — Ibid. P. 14.

56 — Daniel Crecelius (The course of Secularization in Modern Egypts, in John L. Esposito (ed) Islam and development, Religion and Socio-Political Change. (Syracuse University Press 1980) PP. 49 — 70.

٥٧ — أحمد خليفة المحاضرة الافتتاحية ، لندوة (نحو نظرة علمية جديدة للشباب فى مصر) يونيو ١٩٧٥ منشورة فى (الشباب المصرى وقضاياه من وجهة نظر المثقفين المصريين) (منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، ١٩٨٠.) ص ص ٢ — ٥

٥٨ — نفس المرجع . ص ٣ .

٥٩ — نفس المرجع : ص ٥ .

60 — G.H. Jansen : Militant Islam (Harper & Row, Rub-Lisders. New York. 1979) P. 128.

61 — S.N. Eisenstadt : Op, cit. P. 250.

٦٢ — احمد خليفة : مرجع سابق ، ص ٢ .

63 — **Robert K. Merton : Soctal Theory and Social Structure.**

٦٤ — على ليلة : الشباب المصرى وقضاياه من وجهة نظر المثقفين المصريين . مرجع سابق ، ص ٧٣ .

65— E. Erikson, Identity and the Life Cycle. (New York, international University Pres. 1959). P. 32.

٦٦ — على ليلة : مرجع سابق . ص ٧٦ .

٦٧ — محمد حسنين هيكل : خريف الغضب . قصة بداية ونهاية عصر السادات ص ١٩ .

٦٨ — على ليلة: مرجع سابق . ص ٧٥ .

٦٩ — نفس المرجع . ص ٧٧ .

79 — Eisenstadt : Op, cit. 32.

71 — Antdony M.. Orum : Op, cit. P. 81.

72 — Emile Durneim : Op. cit. 361.

73 — Ibid. P. 362.

٧٤ — على ليلة مرجع سابق ص ٧٨ .

75 — Eisenstadt : Op, cit. P, XXIV.

76 — T. Parsons : Op, cit. P. 43.

77 — Anthony M. Orum : Op, cit. P. 87.

78 — E. Erikson : Op, cit. P. 25.

٧٩ — أحمد خليفة : مرجع سابق . ص ٤ .

80 — Eisenstadt : Op, cit.. P. XIX.

81 — Ibid. P. 16.

82 — Richard Flacks : Op, cit. P. 23.

83 — Ibid. P.. 43.

٨٤ — على ليلة : مرجع سابق . ص ٦٤ .

85 — Richard Flacks : Op, cit. P. 33.

86 — T. Parsons : Op, cit. P. 24.

87 — T. Parsons and Robert. E. Bales, Family, Socialization and interaction Process (Glncoe ILL. Free Press 1955p. 112)

88 — Ibid. P. 115.

89 — Ibid. P. 120.

90 — Ibid. 119.

91 — T. Parsons : Some Considerations on the theory of Social change. No. 26. 1961. P. 112.

92 — Robert. Bales · Op. cit. 111.

٩٣ — علياء شكرى : الاتجاهات المعاصرة فى دراسة الاسرة (دار المعارف — الطبعة الاولى ١٩٧٩ . القاهرة) ص ١١٣ .

94 — Eisenstadt : Op, cit. 261.

95 — Ibid. P, XV.

96 — Richard Flocks : Op, cit. PP.. 23 — 24.

97 — Ibid. pp. 25 — 26.

98 — Ibid, p. 27 .

99 — David. C. McClland. The Acheiving Society (Princeton. N.J. : Van Nostrand, 1961) P. 68.

100 — Ibid. P, 72.

101 — E. Erikson : Op, cit. P, 39.

102 — Richard Flacks : Op, cit. P. 28.

103 — Ibid. PP. 28 — 29.

١٠٤ — علي ليلة : الشباب والمجتمع ، ملامح الانفصال والاتصال . مرجع سابق ص ١٨٩ .

105 — T. Parsons & Gerald M. Platt (Age. Social Structure and Socializalion in Higher Education) Sociology of Education XLIII (I), Winter 1970. P. 16.

106 — Ibid. P. 21.

107 — Richard Flacks : Op. cit. P. 31.

108 — T. Parsons & G.M. Platt : Op. cit. P. 25.

109 — A. Zolberg : Youth as a Political Phenomenon in Tropical Africa (Youth and Society V. 2. N.I. 1969. pp. 199 — 219.

110 — Ibid. p. 217.

111 — Richard Flacks : Op. cit. P. 17.

112 — Anthony M. Orum : Op, cit. P. 117.

113 — Richard Flacks : Op, cit. P. 18.

114 — Eisenstadt : Op, cit. P. XXXI.

115 — A. Zolberg : Op, cit. P, 203.

116 — Ibid.. P, 212.

117 — Eisenstadt : Op. cit.. P, 119.

118 — Ibid. P, 120.

119 — Ibid. .P, 121.

120 — Richard Flacks : Op, cit. P. 11.

121 — Ibid. P. 12.

١٢٢ — على ليلة : الشباب والمجتمع ، ملامح الانفصال والاتصال مرجع سابق . ص ١٧١ .

123 — Richard Flack : Op, cit. PP. 12 — 13.

124 — Eisenstadt : Op, cit. P. XXIII.

125 — Ibid. P, XXI.

126 — E. Erikson : Op, cit. 72. z

127 — Richard Flacks : Op, cit. PP. 43 — 44.

128 — Ibid.. P. 44.

129 — G.H. Jansen : Op, cit. 128.

130 — Richard Flacks : Social and Cultural Meaning of student Revolt Socialproblems Vol. 7. Winter. 1970 pp.. 340 — 357.

131 — Ibid. P, 345.

132 — Eisenstadt : Op, cit.. P, 113.

133 — Ibid. P, XVII.

134 — Ibid. P, 117.

135 — Richard Flacks : Youth and Social change Op. cit. P, 36.

136— Ibid. P. 39.

137 — A. Zolberg : Op. cit. P. 203.

138 — Richard Flacks : Youth and Social Change Op. cit. P. 42.

140 — T. Pasons & G. Platt : Op. cit. P. 22.

١٤١ — على ليلة : الشباب المصرى وقضاياه من وجهة نظر المثقفين المصريين . مرجع سابق . ص ٥٩ .

١٤٢ — المرجع السابق . ص ٥٦ .

١٤٣ — على ليلة : الشباب والمجتمع ، ملامح الانفصال والاتصال مرجع سابق . ص ١٨٣ .

١٤٤ — المرجع السابق . ص ١٨٤ .

١٤٥ — المرجع السابق . ص ١٨٤ .

١٤٦ — المرجع السابق ص ١٨٢ .

١٤٧ — المرجع السابق ص ١٨٣ .

١٤٨ — المرجع السابق ص ١٨٣ .

١٤٩ — على ليلة : الشباب المصرى وقضاياه ، وجهة نظر المثقفين المصريين . مرجع سابق . ص ٥٧ .

١٥٠ — على ليلة : الشباب والمجتمع ، ملامح الانفصال والاتصال مرجع سابق . ص ١٨٢ .

١٥١ — المرجع السابق . ص ١٨٣ .

152 — Richad Flacks : Op. cit. P. 28.

153 — Ibid. P. 30.

154 — Anthony M. Odum : Op. cit. P. 113.

155 — T. Parsons K G.M. Platt : Op. cit.. P. 37.

156 — Ibid. P. 38.

157 — David. C.McClelland : Op. cit. p. 28.

158 — T.. Parsons & G.M. Platt : Op. cit. 142.

159 — A. Zolberg : Op. cit.. P. 198.

160 — Richard Flacks : Op. cit. P. 28.

161 — Ibid. 39.

162 — Ibid 39.

163 — Ibid. 44.

١٦٤ — على ليلة : الشباب والمجتمع ، ملامح الانفصال والاتصال مرجع سابق . ص ١٧٦ .

١٦٥ — المرجع السابق ص ١٧٧ .

١٦٦ — المرجع السابق ص ١٧٨ .

167 — Richard Flacks : Op. cit. P. .18.

١٦٨ — على ليلة : الشباب المصرى وقضاياه وجهة نظر المثقفين المصريين : مرجع سابق . ص ٥٦ .

١٦٩ — على ليلة : الشباب والمجتمع ، ملامح الانفصال والاتصال مرجع سابق . ص ١٧٧ .

١٧٠ — المرجع السابق . ص ١٧٨ .

١٧١ — المرجع السابق ص ١٧٩ .

١٧٢ — المرجع السابق

١٧٣ — المرجع السابق ص ١٨١ .

١٧٤ — المرجع السابق ص ١٧٩ .

١٧٥ — محمد على : الشباب والمجتمع ، دراسة نظرية وميدانية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب — الاسكندرية ١٩٨٠ .

١٧٦ — على ليلة : الشباب المصرى وقضاياه ، وجهة نظر المثقفين المصريين ص ٥٧ .

١٧٧ — المرجع السابق . ص ٥٧ .

١٧٨ — على ليلة : الشباب الجامعى ، اهتماماته ومشكلاته ، ندوة التعليم الجامعى ، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، ١٩٨١ ، ص ١٢٤ — ١٥٣ .

١٧٩ — المرجع السابق . ص ١٣٢ .

الفصـــل الســـادس

العنف فى مجتمعات العالم الثالث

دراسة لحالة المجتمع المصرى

المحتـــويات

الفصل السادس

العنف فى مجتمعات العالم الثالث
دراسة لحالة المجتمع المصرى

أولا : ظاهرة العنف
البحث عن تحديد نظرى

((ان أقـوى احتياطى العنف فى المدن صنيعة الاستعمار ، بل بين الفلاحين (انهم الثوريون الوحيدون الذين يربحون كل شىء وليس لديهم شىء يخسرونه))) . فرانز فانون .

يتنوع التناول العلمى لأى ظاهرة اجتماعية بالنظــر الى مســتويات ثلاث . أولها ما يمكن أن نسميه بالمستوى أو التناول النظرى لقضية البحث . وفى اطار هــذا المستوى يحاول الباحث استقراء التراث العلمى لمجال تخصصه . ثم انتقاء مجموعة الفروض التى يمكن أن تقدم فهما للظاهرة ، ويسود بينها فى ذات الوقت نوع من الاتساق المنطقى . فاذا أنجز الباحث ذلك ، فانه يصبح لديه اطارا تصوريا يشكل أساس اقترابه لفهم الظاهرة . وبالتالى يصــبح اطاره المرجعى فى عمليات الوصف والتحليل والتفسير . غير أن هــذا التناول اذا توقف عند هــذا المستوى فانه يصبح نوعا من الرياضة العقلية التى تتأكد معقوليتها نتيجة لمنطقيتها ، الا أنها تظل مفتقدة للصدق العلمى وذلك لأنها تفتقد كل صلة بجذور الواقع الحى على ما يؤكد بيرم سروكن(١) .

وعلى نقيض المستوى الاول يحاول الباحث فى المستوى الثانى البقــاء قدر الامكان قريبا من الواقع المباشر . ومن هنا يرى الباحث أن جهده يكمن فى التعبير عن آية معطيات قد تتراءى له فى الواقع موضع الدراســة دون أدنى محاولة للتمييز بين معطيات ذات أهمية بارزة فى فهم الواقع وأخرى

غفل لا تقدم أو تؤخر ، ولقد ميز هـذا الادراك جهد النزعة الامبيريقية فى علم الاجتماع . بل لقد كان هذا هو السبب فى عجـز هـذه النزعـة عن بناء تراث علمى متراكم . وذلك لأنها افتقدت امتلاك الفروض النظرية التى تمنح الباحثين القدرة على تمييز عناصر الموقف البارزة والأكثر فاعلية . ودلالة على ما يؤكد تالكوت بارسونز (٢) .

ونتيجة لعجز المستويين السابقين عن توفير التناول العلمى الملائم للظاهرة جاء المستوى الثالث الذى يشـكل نوعا من التآلف الذى يجمع أفضل ما فى النقيضين من عناصر توفر امكانية أكثر ملائمة للتناول العلمى لهذا الواقع . فهو يأخذ عن المستوى الأول أهميـة الفروض النظرية فى التوجيه نحو المعطيات ذات الدلالة بالنسبة لهذه الفروض ، وهو يأخـذ عن المستوى الثانى اهتمامه المباشر بالمعطيات التى يبيح تصنيفها وتحليلها امكانية الحكم على فرض معين بالزيف أو الصدق ، اسـتنادا الى محكات علمية عديدة وفعالة فى هـذا الصدد . وهو ما سوف نلتزم به فى معالجتنا لظاهرة العنف ، حيث نتجه فى البداية الى استكشـاف هـذه الظاهرة من خلال البحث عن مجموعة الفروض النظرية المرتبطة بها ، ثم دراسة هـذه الفروض بالنظـر الى المعطيات الواقعية المجـردة عن واقع المجتمـع المصرى أساساً .

واسـتنادا الى ذلك سوف نحاول البحث عن تحديد نظرى لظاهرة العنف . ولانجاز ذلك نرى من الضرورى توضيح موقف النظرية الاجتماعيـة من السـلوك الانحرافى بصوره المتعددة . وهو الموقف الذى يتحـدد بالنظر الى ثلاثة قضـايا :

١ — وتؤكد القضية الأولى على أنه عند البحث عن أسباب هـذا النمط السـلوكى ، فان النظرية السوسيولوجية تفرض البحث عنهـا فى السـياق الاجتماعى ، أى فى البنـاء الاجتماعى ، وليس فى الوحـدة الفردية التى ارتكبت هـذا السلوك ، والتى تعتبر أحد مكوناته . معنى ذلك أنه اذا كانت هناك ادانة للسـلوك المنحرف ، فانه يجب التوجه بالادانة الى بناء المجتمع وليس الى الفرد أو العنصر المنحرف .

٢ ـ أن النظرية السوسيولوجية تتضمن نظرة موضوعية محايدة بالنسبة للسلوك المنحرف . اذ لا تقر هذه النظرية وصم السلوك المنحرف بالطابع المرضى أو الشاذ . بل تؤكد بدلا من ذلك على أن السلوك المنحرف كالسلوك السوى له لزوميته ووظيفته الاجتماعية . وذلك لأن هذا النمط السلوكى ـ تصوره المتعددة ـ يحمل بداخله طاقة التجديد والتطور . وبذلك فهو يشارك كافة المتغيرات البنائية الأخرى من حيث خضوعه لمحكات الاعتياد أو السواء . ومن ثم تعتبر الحالة المرضية أو الشاذة لأى متغير هى تلك الحالة التى يقل فيها هذا المتغير أو يزيد فى حجمه أو آدائه عن المستوى الملائم والمعتاد .

٣ ـ وتؤكد القضية الثالثة على أنه اذا كان السلوك الانحرافى فى أغلب حالاته هو ارتكاب فعل أو اتباع نمط سلوكى تجرمه قاعدة مجتمعية ـ عرفية كانت أم قانونية ـ فان العنف كظاهرة انحرافية يمثل تجاوزا لهذه القاعدة وهجوما عليها ، وطرحا لقاعدة جديدة يمكن أن تشكل محكا للسلوك من وجهة نظر جماعة العنف أو الجماعة الثورية . وبطبيعة الحال قد يتصاعد العنف من مجرد تجاوز لقاعدة أو لمجموعة من القواعد ليصل أحيانا الى تجاوز النظام السياسى والاجتماعى ذاته (٣) .

ذلك يفرض علينا تساؤلا ، هل يشكل العنف ظاهرة اجتماعية ؟ وهو التساؤل الذى يدفعنا الى تساؤل مبدئى يتعلق بما هى الظاهرة الاجتماعية ؟ . الظاهرة الاجتماعية كما نعرفها فى أساسها هى مجموعة من الوقائع الفردية التى يسود بينها نوع من التفاعل الذى يعمل على تخليصها من مستوياتها الفردية ليرتفع بها الى مستوى جمعى أو اجتماعى جديد . وبذلك تتحول الظاهرة الى كيان كلى خارجى يعبر عن نفسه من خلال الذوات الفردية فى اطارات موقفية متنوعة . وتكتسب الوقائع الفردية الصفة الاجتماعية حينما تتجمع وتتفاعل لتشكل صورة لهذا الكيان الكلى الخارج عن الذات الفردية . ومن ثم لا تفلح المستويات الفردية فى تفسير هذا التفاعل أو المستوى الكلى الجديد . وانما اذا

حاولنا هــذا التفسير فان علينا أن نبحث عن أسـبابه وعوامله فى السياق الاجتماعى . بل اننا نجد أن هذا المستوى الجديد ــ المستوى الاجتماعى ــ الى جانب قدرته على تفسيرها ، فهو قادر أيضا على تحديد مستوياتها السـوية والمرضية .

اذا كيف نحدد المستوى السوى أو المرضى للظاهرة ؟ الاجابة على ذلك تؤكد أنه بناءاً على اسـتقراء نماذج المجتمعات الانسـانية ، فاننا نستطيع التأكيد على أن بناءاً اجتماعيا معينا يحتاج الى قدر محدد وملائم من السلوك المنحرف ــ الذى يعد العنف أحد صوره ــ لكى يتمكن بها من الابتعاد عن حالة التوازن أو التكامل التام ، التى اذا تحققت واستمرت فانها لن تعنى سوى الفناء والتحلل لهذا البنــاء . نظرا لافتقار هذا البنــاء لأى تجديد لامكانات تطوره وتقدمه . هــذا برغم أن حالات التوازن والتكامل المطلقة تعد حالات خيالية لا تتوفر أبدا نتيجة للتغيرات التدريجية والمستمرة التى تقع داخل وخارج الوحدة الاجتماعية . والتى لها تأثيرها على بناء هــذه الوحدة التى عليها أن تستجيب لهــذه التأثيرات . ومن هنا فاما أن تتخلف الوحدة عن التلاؤم مع التغيرات الداخلية والخارجية ــ وهى حالة يوتوبية ــ ومن ثم فانها تواجه بنوع من التحلل التدريجى ، واما أن تحاول مواكبة هــذه التغيرات بالتلاؤم معها . وبذلك فان بذور التغير فى أساسها ميلا انحرافيا . ويعنى نضج أو وقوع التغير التلاؤم مع هــذا السلوك المنحرف بأى من الصور لخلق حالة سواء جديدة ، وهى الحالة التى يتم تشخيصها فى اطار التوازن الدينامى أو المتحرك (٤) .

اذا فان سلوك المنحرف يمثل ضرورة الحياة بالنسـبة للبناء الاجتماعى القائم ، الا أن ضرورة الحياة هــذه لابد أن تكون بقدر محدد يتحدد بالنظر الى هــذا البناء . ومن هنا فاذا لم يسمح البناء بهــذا القدر التدريجى ، فان الانحراف سوف يتراكم ليضغط ويخرج انحرافا انفجاريا عنيف ، وهو الأمر الذى يشـير الى مضمون انفعل الثورى . فالعنف كظاهرة لا يهدف الى التغيير بقـدر ما يهدف الى الاعلان عن ضرورة التغيير . ومع ذلك

يظل هناك قدر محدد على تلاؤم والســياق المحيط ، عنده تصبت ظاهرة العنف أو الانحراف فى مستواها السوى . أما اذا تخطت هذا الحجم المحدد بالنظر الى البناء ، فانها تنتقل الى كونها ظاهرة مرضية . ولكى نكشف عن أسباب هــذا الوجود المرضى ، فان علينا أن نعثر عليها فى السياق الاجتماعى ، وذلك لأن الانحراف أو العنف ليس الا نتاج أو رد فعل لتفاعل اجتماعى ســابق (٥) .

أما اجرائية تحديد حجم الظاهرة بالنظر الى البناء الاجتماعى ومدى ســواءها أو انحرافها ، فهى مسألة يكشف عنها الاستطلاع التاريخى والاحصائى للحجم النمطى لهذه الظاهرة بالنظر الى الشــكل البنائى فى سياقات تاريخية متتابعة . فاذا خرجت الظاهرة عن نمطها المعتاد بالنظر الى سياقها المحيط . فانها تكون بذلك قد تخطت المستوى العادى الى مستوى غير عادى . ومن ثم فانه من المنطقى أن يكون هــذا السياق قد تخطى مستواه العادى الى مستوى غير عادى . وهنا فان علينا أن نحدد الأسباب التى خلقت هــذه الحالة غير العادية حتى يمكن التغلب عليها ، ومن ثم ترجع بالظاهرة وانسياق الى المستويات العادية والمعتادة .

***

ثانيا : بناء النظام العالمى

أبعاد العنف فى اطاره

منذ اثارة مشــكلة النظام الاجتماعى الذى يعيش حالة من الفوضى خلال القرن السابع عشر . وهى الحالة التى نظرت لها نظريات العقــد الاجتماعى ابتداء من توماس هوبز ونهاية بجان جاك روسو .فاننا نجد أن هذه الاتجاهات الفكرية قد نجحت فى تأسيس النظام الاجتماعى القوى والمتكامل (٦) والذى أصبحت له وطأته على البشر داخل المجتمع . بحيث أصــبح الشاغل الرئيسى للاتجاهات النظرية التالية لفكر التنوير يتركز أساسا فى كيفيــة تخليص أو تحــرير الفــرد وحمايته من وطأة النظــام الاجتماعى وقهره (٧) .

ويستوجب البحث فى قضية العنف فى اطار النظام العالمى ضرورة التعرف على مستويات القهر التى تعيشها الجماهير فى ظل هـذا النظام . وفى هـذا الصدد نستطيع أن نصنف الجماهير من حيث وطأة النظام الاجتماعى العالمى وقهره لها فى اطار ثلاثة أنماط أساسية . ويمثل النظام الرأسمالى أحد النماذج الأساسية للقهر الذى يستثير العنف فى محاولة للتحـرير . وفى المقابل نستطيع أن نذهب الى أن النظـام الاشتراكى — حسبما تذهب الاتجاهات النقدية الحديثة — له هو الآخـر وطأته على الانسـان فى اطاره ، وهو التأثير الذى قد يستثير سـلوكيات العنف . أما الانسـان فى المجتمعات النامية فنجد أنه يتعرض لمستويين من القهر ، القهر الذى يفرضه عليه النظـام العالمى من خلال ظاهرة الاستعمار ، وذلك بالاضـافة الى القهر أو الكبت الذى تمارسه القـوى الاجتماعية والنظم السياسية داخل مجتمعات العالم الثالث على الجماهير الغالبة . ومن ثم فهذه الجمـاهير لا تملك فى غالب الأمر سوى العنف سـعيا نحو الغـاء ظاهرة القهر .

ويشـخص هربرت ماركيوز المشـكلة فى اطار النظـام الرأسمالى حينما يأخذ على البشر تقبلهم بلا جدل رأى فرويد فى أن الحضـارة تستند الى الاخضاع الدائم للغرائز البشرية ، غير أنهم ينبغى أن ينظروا بقدر من الجد الى تساؤل فرويد هل تستحق الحضـارة ما أنزلته بالبشر من آلام كثمن لها . ثم يقتبس ماركيوز قول فرويد أن (السعادة ليست قيمة حضارية) ثم يقول إن السعادة هى الاشباع الحر لحاجات البشر الغريزية التى تتناقض مع المجتمع المتحضر ، وان التضحية المتفق عليهـا بالشهوة الجنسية وتحويلها الى مناشط اجتماعية مفيدة هو الذى يشكل جوهر الحضارة (٨) .

واذا كان فرويد قد أكد على اعتماد الحضـارة بالضرورة على الكبت اللازم لقيامها ، فاننا نجد أن ماركيوز يؤكد أن مدى الكبت المسـتعمل فى الحضارات الواقعية التاريخية التى عرفها يفوق ما أظهر فرويد أنه ضرورى لبقائها . والواقع أن ماركيوز يرى أنه (كلما زاد الابقاء على الكبت بقوة

كلما زادت عدم الحاجة اليه) . ثم يتقدم ماركيوز الى تقسيم مفهوم الكبت الى ما يدعوه بالكبت الأساسى والكبت الفائض . ويعرف الكبت الأساسى بأنه تكييف الغرائز البشرية الضرورى لبقاء الجنس البشرى متحضرا . أما الكبت الفائض فيشتمل على القيود اللازمة لهدف آخر . وليس من الصعب تحديد هذا الهدف . وهو هدف المحافظة على السيطرة الطبقية الاجتماعية داخل مجتمعات النظام الرأسمالى . ثم يرى ماركيوز أن معظم الكبت المتبقى فى المجتمع الرأسمالى هو كبت فائض يخدم مصلحة السيطرة السياسية ، وأن الناس لا يستطيعون القضاء على هذا الكبت الفائض فحسب ، بل ان حالتهم الخاصة ، وهى حالة نفور شديد منه تفرض عليهم أن يفعلوا ذلك بحثا عن الحرية (٩) .

ويحاول ماركيوز تحديد الآليات التى يلجأ اليها النظام الرأسمالى لاشاعة الكبت أو القهر بتأكيده مبدأ أن أغلب البشر فى المجتمعات الصناعية الحديثة مضللون ، مستوعبون لقيم المجتمع القائم ، جهله وفاسدون بصورة حقيقة . ويصف ماركيوز بذلك المجتمع الأمريكى ، وبرغم عدم وجود تفرقة حادة بين المجتمع الصناعى بصورة عامة والولايات المتحدة بصفة خاصة ، فان المجتمع الأمريكى يعد المجتمع النموذجى أو المثالى للمجتمع القائم على القهر (١٠) .

وهو يهاجم النزعة التحررية القائمة فى المجتمع الرأسمالى باعتبار أنها قد تنكرت لمبادئها . كذلك يهاجم الديموقراطية الحديثة لأنها نظام حكومة شعبية خادع أفسده انحراف عقول البشر ، ونفوسهم أيضا ، بسبب أساليب السيطرة الحديثة . ولا شك أن أساليب السيطرة هذه تتمثل فى المصالح الثابتة أو المكتسبة ، والمؤسسات الدينية والطبقات الحاكمة والأغنياء الذين يمتلكون الثروة فى المجتمع ، ويعترض ماركيوز على النظام الديمقراطى الحديث باعتباره يجعل البشر يعتقدون خطأ أن عبوديتهم التى يعيشونها هذه هى نوعا من الحرية . بل انها تجعلهم يحبون هذه الحرية . ومن ثم فاننا نجد أن حالة الترف أفسدت البشر . فهم ((يقدرون

أنفســـهم بسلعهم ، يكتشفون أنفســـهم بسياراتهم ، وبأجهزة التلفزيون ، والبيوت ، وأجهـــزة المطبخ الحديث التى يمتلكونها ، ويستطيع جهـــاز الانتاج الهائل فى المجتمع الحديث أن يقنع البشر ، من خلال الســـلع التى ينتجها للمجتمع الحديث ، بالنظام الاجتماعى ويفرضه عليهم (١١) .

بل اننا نجد أن وسائل الاعلام تعتبر من الآليات الأساسية فى هـــذا الصدد ، حيث تحمل وسائل الاتصال والمواصلات ، وسلع المسكن والملبس والمـــأكل ومنتجات صناعة التسلية والإعلام التى لا تقاوم ، معها اتجاهات وعادات تفرض نفســـها على البشر . وهى الاتجاهات التى تؤسس ردود فعل عقلية وعاطفية تربط المستهلكين بالمنتجين بصورة مرضية واضحة . ذلك يعنى أن انتشـــار المنتجات الصناعية المـــادية بين عدد متزايد من البشر يعنى أن استيعابهم للمبادىء لا يكون على مستوى الدعاية فقط ولكنه يصبح أسلوب حياة أيضا (١٢) .

وهو يرى أن دولة الرفاهية كما تبدو تعتبر تحسنا وتطورا على كل النظم الســـابقة . غير أن هـــذا التحسن ليس حقيقيا لأنه ينقصه الرغبة فى الثورة ، ويقاوم التغير النوعى ، وتصبح حياة البشر فى المجتمع الغنى نوعا من الجحيم ، ثم يؤكد أن هؤلاء البشر يظلوا خاضعين بقسوة تعيد الى الذاكرة أساليب القرون الوسطى وأوائل العصور الحديثة . ومن ثم فهم ليسوا الا عبيدا للحضارة الحديثة . ثم يؤكد ان عبيد الحضارة الصناعية المتطورة عبيد مهذبون ، ولكنهم عبيد . اذ أن ما يحدد العبودية ليس الخضوع ولا العمل الشاق بل كون الانســـان مجرد آلة وخفضه الى مرتبة شىء من الأشـــياء . يضاف الى ذلك أن الحرية نفســـها فى مجتمع الوفرة تتحول الى آداة ملائمة للسيطرة . ذلك لأن الحرية التى يوفرها هـــذا المجتمع لا تعدو أن تكون منافسة حرة بأســـعار محددة ، وصحافة حرة تراقب نفســـها ، واختيارا بين السمات والأدوات ، ويضيف ماركيوز ان حرية انتخاب الأســـياد لا تقضى على السادة والعبيد ، وحرية الاختيار بين أنواع كثيرة ومختلفة من الســـلع والخدمات لا تعنى الحرية ان كانت هـــذه السلع والخدمات تدعم النفور (١٣) .

أما المســـاواة التى يفخر بها المجتمع الأمريكى الحديث ، فهى فى نظر ماركيوز زائفة ومضادة للمساواة الحقيقية ، وأن الحرية التى يدعيها هــذا المجتمع مضادة للحرية الحقيقية (واذا كان العامل ورئيســه يشاهدان البرامج التلفزيونية نفســها ويزوران ذات أماكن التسلــية نفســها ، واذا كانت الكاتبة على الآلة تبدو جذابة كابنة صاحب العمل ، واذا كان الزنجى يمتلك ســيارة كاديلاك ، واذا كانوا يقرأون الصحيفة نفســها ، فان هــذا التشابه لا يدل على اختفاء الطبقات بل على مدى مشــاركة الســكان فى الحاجات والرغبات اللازمة لبقاء النظام) (١٤) .

واذا كان النظام الرأسمالى قد نجح فى ممارسة حالة القهر هــذه فما هى الســبيل الى تحرير الانســان من قهر النظــام ؟ وهل مازالت البروليتاريا هى آداة التحول التاريخى ؟ الاجابة على ذلك تؤكد أنه من الواضح أن المجتمع الصناعى قضى على الدافع الى المقاومة . ذلك لأن الحرب الطبقية بين البرجوازيين والعمال قد انتهت ليس بالتواطؤبين نقابات العمال وأرباب العمل فحسب بل أيضا برضى انعمال عن حالتهم الخاصة . حتى لقد أصبحت حالتهم فى نظرهم حسنة . فلم يعودوا (أدوات التحول التاريخى) . ان العمال والبرجوازيين ، وقد اتحدوا برغبتهم من أجــل المحافظة على المؤسسات القائمة ، يعانون من ذات المرض ، أى من نوع من (الوعى الســعيد) الذى يعنى حالة من الراحة المكتسبة بخداع النفس فيمــا يتعلق بمصالحهم الحقيقية الخاصــة . فهم يعتقدون أن الانتاجية ، والانتاج الصناعى ، وزيادة الســلع الاستهلاكية يفيد الجميع (١٥) .

وفى مؤلفه (الانسان ذو البعد الواحد) يبحث ماركيوز عن امكانات التحرير ، ويصل من تشخيصه أن الحضــارة الصناعية الحديثة تســوء ولا تتحسن ، وأن ذات المظاهر القبيحة تســوء فى معظم المجتمعات العصرية المتقدمة ، ومن الممكن أن تتخلق فى المجتمعات الأخرى حين تحقق التقدم . وبرغم ذلك يبدو أن ماركيوز قد عثر على بصيص من الأمل حينما يؤكد أن هنــاك مجموعات تعيش على هامش النظــام وتضم المنبوذيين والغرباء

والمستغلين والمضطهدين من الأجناس والألوان الأخرى . ومن العاطلين عن العمل أو غير الصالحين له ، فهم الموجودين خارج العملية الديموقراطية ، وحياتهم هي أقرب وأحق حياة تحتاج الى انهاء الأوضاع والمؤسسات القائمة والتي لا تطاق . ولذلك فان معارضتهم ثورية حتى ولو كان وعيهم غير ثوري . ان هذه المعارضة تصيب النظام من الخارج فلا تتأثر به . انها قوة أولية تخالف شروط اللعبة . بيد أن رفضهم الاشتراك في هذه اللعبة قد تكون الحقيقة التي تدل بداية النهاية لهذه الفترة (١٦) . وذلك يعني أن قهر النظام الرأسمالي سوف ينتهي بفعل عنيف يقوده هؤلاء الذي لم يشاركوا في ثقافة هذا النظام ولم يلتزموا بشروط اللعبة السياسية في اطاره .

بالاضافة الى ذلك يرى ماركيوز في النظام الاشتراكي نظاما قهريا هو الآخر (وهو يرى في الاتحاد السوفيتي بين الحين والآخر نظاما دكتاتوريا أسوأ حتى من النظام الأمريكي) ومن أي نظام ديموقراطي مهما كان ناقصا ، فهو يؤكد (أن الادارة الجماعية ، بالنسبة للفرد ، خير من الادارة الدكتاتورية . ذلك أن احدى المؤسسات قد تحميه من مؤسسة أخرى ، وقد تخفف احدى المنظمات تأثير منظمة أخرى . بل انه يمكن حساب امكانيات الانصاف . ان حكم القانون أفضل مهما كان من الحكم بدون قانون) (١٧) .

ومنذ البداية لا يرى ماركيوز أي فرق جوهري بين المجتمعات الرأسمالية المتقدمة من جهة ، والمجتمعات الاشتراكية من جهة أخرى . فكل مجتمع من هذه المجتمعات يعتبر بالنسبة له مجتمعا صناعيا متقدما . الانسان فيه انسان ذو بعد واحد ، ومن أجل البرهنة على صحة رأيه هذا ، تجشم ماركيوز عناء كبيرا ، بدا واضحا في كتابية (الماركسية السوفيتية ، الانسان ذو البعد الواحد) . لقد حاول ماركيوز جاهدا اثبات أن المجتمعات الرأسمالية المتقدمة كلها مجتمعات وفرة واستهلاك ورفاه ، الطبقة العاملة فيها مندمجة بالأنظمة القائمة ، بل ومدافعة عنها ، كما جاهد ماركيوز من أجل اثبات (أن الجنة السوفيتية ليست أرحم من

الجحيم الأمريكى) . وأن الانســـان المعاصر هو انســـان ذو بعد واحد ، ســـواء كان يعيش فى الولايات المتحدة ، أو كان يعيش فى الاتحاد السوفيتى . وهو يتحدث عن التجربة السوفيتية ، التى خيبت الآمال المعقودة عليهـــا ، مؤكدا أن هـــذه التجربة قد أخفقت فى تحقيق أى من أهدافها . بل انها على العكس قد تنكرت للمبادىء الأصلية التى قامت من أجلها فلم تضعها موضع التنفيـــذ (١٨) .

ثم يتحول ماركيوز الى تحديد الآليات التى يفرض النظام بها قهره ، فيؤكد أن الاتحاد السوفيتى كغيره من المجتمعات الصناعية المتقدمة يؤكد على الســـيادة للعقلانية التكنولوجية ، والتنظيم القمعى الشامل للانتاج والتوزيع ، والسيطرة الكاملة على العمل وأوقات الفراغ ، والتوجيه الذهنى والعقائدى وافراغ الفرد من وعيه وابداعه وحريته مقابل (عبودية مريحة نســـبيا) . واذا كانت نزعة السيطرة الكلية فى الولايات المتحـــدة تتميز بتعدد الأحزاب — الصورى فى حقيقته — فان نزعة السيطرة الكلية فى الاتحاد السوفيتى تقوم على سياسة الحزب الواحد الذى له الكلمة الأولى والأخيرة فى كل ما يتصل بمصير البشر (١٩) .

وتعتبر البيروقراطية هى الآلية الثانية التى اتجه اليها النظـــام لقهر البشر والسيطرة عليهم . فمن أجل مواجهة المتغيرات الجديدة والواقعية ، نجد أن الدولة قد أسست جهـــاز سلطة مركزية بيروقراطية ، تعتمد عليه فى المحل الأول ، للتعجيل بالبنـــاء الاقتصادى والصناعى . ذلك فى محاولة للحاق بمستوى الانتاج الرأسمالى المتقدم وتجاوزه . وعلى هـــذا النحو نجد أن الاتحاد السوفيتى — فى رأى ماركيوز — قد وقع فى فخ السعى الى التفوق الانتاجى ، فكانت النتيجة أن تكررت فيه نفس الأخطاء التى تولدت عن هـــذا السعى فى المجتمع الرأسمالى . فالهدف الذى يتجه اليه المجتمع السوفيتى بكل قواه ، هو تجاوز معدلات انتاجية باستمرار حتى يلحق بالغرب ، ثم يتفوق عليه . وحين تصبح الزيادة الانتاجية غاية قصوى يتحول الانســـان ذاته الى مجرد آداة لتحقيق هـــذا الهدف الأسمى .

وتخضع جميع الاعتبارات الانسانية لتنفيـذ التخطيط الشـامل . ومن الضرورى أن يؤدى استهداف الزيادة الانتاجية الى وضـع نظام ادارى يتسلط على كافة جوانب الحياة . وهنا تصبح السيطرة لكبار رجال الادارة ، أى البيروقراطيين ، وكبـار الفنيين المختصـين فى العمليات الانتاجية ، أى (التكنوقراطيين) ويضيع الانسان نفسه بين هؤلاء (٢٠) .

غير أنه اذا كان ماركيوز قد حدد ملامح القهر فى النظـام الأمريكى وأساليبه فى التسلط والسيطرة ، فانه من ناحية أخرى قد رأى أن الجماعات التى يعيش على هامش النظام هى التى سوف تتولى — من خلال العنف — الاطاحة بآلياته فى القهر والسيطرة استهدافا لتغيير مؤسساته الراسخة . على خلاف ذلك نجده قد شخص النظـام الاشتراكى — خاصـة التجربة السوفيتية — باعتباره نظاما له هو الآخر آلياته فى السـيطرة والقهر . لكنه لم يحدد القوى القادرة بالعنف على تغيير هـذا النظام . ولعل الطلبة والأقليات هى العناصر التى تشكل هـذه القوى . بيد أنه من المحتمل أن يكون قد أدرك النظام الرأسمالى الاشتراكى باعتبارهما صيغا متنـوعة للنظـام الصناعى المتقدم ، ومن ثم فمن المحتمل أن تكون القوى المؤهلة للاطاحة بهـذه النظم الفارضة للكبت والتسلط والسيطرة هى قوى واحدة ومتقاربة أيضـا .

وتشكل مجتمعات العالم الثالث نموذجاً بنائيا ثالثا للعنف دور فى اطاره . فمما لا شك فيه أن مجتمعات العالم الثالث قد خضعت فى غالبها لموجهات اسـتعمارية استهدفت القضـاء على هويتها . فالى جانب اتجاه قوى الاسـتعمار للسيطرة على الموارد الأساسية والعلاقات الاجتماعية المحلية يعتبر عدوانا صارخا على عالم المسـتعمرات ، وفى هـذا الصدد يؤكد فرانز فانون ان محاولات الأوربيين لجعل الجزائر عصرية بتحسين أحوال المرأة يعتبر نوعا من العدوان الخفى . فازالة الحجاب تعنى الاغتصاب . ولكن الاغتصاب نفسـه ليس سوى تشخيص للرغبة فى اخضاع المجتمع بأسره (٢١) .

ومن ثم فاذا كان العالم الثالث قد أستعمر ، فان القتال العملى الشامل هو الذى يمكن أن يحول البلد المستعمر تحويلا كليا الى مجتمع مجدد متحرر من كل خضوع نفسى أو عاطفى أو قانونى ، حيث يصبح أفراده فى اطار ذلك رجالا . واذا كان سوريل يذهب الى القول بأن العمال الكادحين يثبتون وجودهم من خلال الاضراب العام ، كذلك يرى فانون أن الجماهير المستعمرة تتحول بمعركة واحدة الى قوة قادرة على فرض نفسها ومصالحها على المستعمر (٢٢) . اذا فالدعوة الى المقاومة بالعنف هى الشعار الذى ينبغى أن يرفعه أهل المستعمرات .

ذلك يدفعنا الى البحث عن قوى العنف ، أى القوى التى باستطاعتها أن تقود نضال الحصول على الاستقلال . واذا كان ماركيوز قد رأى أن القوى الخارجة على النظام الرأسمالى هى القوى القادرة على تحمل أعباء الثورة . فاننا نجد أن فانون — بنفس المقياس — يرى أن القوى الخارجة على النظام الاستعمارى داخل المستعمرات هى القوى المؤهلة للقيام بهذا الدور . فالمعذبون فى الأرض هم القوى الحقيقية للثورة . هؤلاء المعذبون هم ضالة البشر ، والعمال الكادحون ، والمومسات ، والقوادون ، والفلاحون الذين يغزون المدينة . والذين يفرضون عليها الاحتراق . فالمعذبون تطهرهم النيران ، فيكتسون جمالا وقداسة (٢٣) .

وهنا نجد أن القضاء على الاستعمار ليس مجرد تأسيس دولة جديدة أو احراز السيادة بل استبدال نوع من الرجال بنوع آخر . تقلب العالم رأسا على عقب بحيث يصبح الأخير فى الطليعة . بيد أن ذلك لا يتحقق بلمسة سحرية أو بزلزال طبيعى . ان على الشعوب المستعمرة أن تحققه بتغيير جذرى مهما كان ثمنه ومهما كانت وسائله ومن بينها العنف . فى هذا العالم الامبريالى الذى خلقته أوروبا ، ويتحقق القضاء على الاستعمار من خلال مواجهة حاسمة ودموية بين الفريقين المتنازعين بحيث يصبح (الشىء) المستعمر خلالها رجلا . ويتحول كيانه من (مشاهد مضطهد) الى فاعل ممتاز سلطت عليه أضواء التاريخ الكاشفة بصورة فخمة (٢٤) .

* * *

ثالثا : تحديث العالم الثالث

متغيرات العنف فى اطاره

لا شك أن عمليــة تنمية العالم بهدف تحديثه تعتبر من العمليــات الأساسية التى تحتل مكانة محورية فى تفاعل عالمنا المعاصر . واذا قلنا أن التنمية عملية ارادية نحاول بها الانتقال بالمجتمع من الحالة التقليدية والمتخلفة — من وجهة نظر صفوات التنمية والتحديث الغربية — الى الوضع الذى تعيشه المجتمعات المتقدمة . فان التحديث يصبح هو الهدف المنشود من هــذا الجهد التنموى ، وبغض النظر عن التعريفات والتسميات العديدة فالمؤكد أن عمليــة التنمية بهدف التحديث تفرض على المجتمع أن يعيش تمزقات وتوترات عديدة تنشأ دائمــا فى الفجوة بين المثال المتكامل الذى تستهدفه التنمية والتحديث وبين الواقع المتناقض الذى يحاول البشر أن يفرضوا تطابقه مع المثال . فاذا كانت هناك عوائق أعاقت هذا التطابق أو لم تيسر السبل الى بلوغه فان العنف الذى ينفجر بقوة التوترات المختزنة يصبح هو السبيل الوحيد للتخلص من التوتر ، ولتحقيق تجســد المثال فى الواقع ، عن طريق القضــاء على كل المعوقات التى تقف فى طريق ذلك . ذلك يفرض علينا ان نعرض لقضيتين . وتتعلق القضية الأولى بطبيعة بناء التنمية والتفاعلات الموترة التى تقع فى نطاقه أثناء عملية التنمية . أما القضية الثانية فتدور حول جهد التحديث ومتغيرات العنف فى اطاره .

١ — وفيما يتعلق بالقضية الأولى الخاصة بالتفاعلات الموترة داخل بناءات المجتمعات النامية أثناء عملية التنمية . فاننا منــذ البداية نؤكد على انقســام البناء الاجتماعى نظريا الى ثلاثة أنســاق رئيسية . هى النسق الثقافى والنسق الاجتماعى ونسق الشخصية . وفى حالة الوجود المتوازن للبناء الاجتماعى فان هــذه الأنساق تترتب بحيث يصبح نسق الثقافة والقيم أكثرها فعالية وشــمولا ، فهو يضبط النسق الاجتماعى ويسيطر على تفاعله عن طريق مجموعة المعايير التى تشتق من مجموعة التوجيهات القيمية فى

نسق الثقافة . بحيث تنظم هذه المعايير عملية التفاعل داخل النسق الاجتماعى . ويحتوى النسق الاجتماعى بداخله نسق الشخصية ، وهو يسيطر عليها عن طريق صياغتها نظاميا بواسطة وسائل عديدة منها التنشئة الاجتماعية بالاضافة الى ميكانيزمات الضبط والسيطرة المتعددة . اذ يحاول النسق الاجتماعى أن يغرس فى الشخصية مجموعة من الاهتمامات المتعلقة باشباع الحاجات ، وكذلك مجموعة التوجيهات القيمية التى يعد نسق الثقافة مصدرا لها . وفى حالة التوازن والتكامل — وهى حالة مثالية — ينساب التفاعل من أعلى المستويات الى أدناها دونما قيام قدر واضح من المعوقات ، وعادة ما يسود هذا الطراز من التفاعل فى بناء المجتمعات المتخلفة وكذا بناء المجتمعات المتقدمة التى تمكنت من تحقيق درجة عليا من الاستقرار الاجتماعى والسياسى ، وهو ما يمكن أن نسميه بنموذج التفاعل المستقر (٢٥) .

بيد أن هناك نموذجا آخر من التفاعل الذى يمكن أن نسميه بالتفاعل الدينامى ، وهو التفاعل الذى يسود عادة بناء المجتمعات الانتقالية وبخاصة المجتمعات النامية ، ذلك لأن هذه الأخيرة تخضع عادة لمجموعة من التغيرات الأساسية ، التى قد تؤثر على عناصرها الأساسية المكونة لبنائها ، أو على طبيعة ترتيب هذه العناصر بالنظر الى بعضها البعض ، أو مضمون العلاقات المتبادلة بين هذه العناصر .

ولأن طبيعة التفاعل السائدة فى هذه المجتمعات يؤكد على ترك واغفال البناء الاجتماعى لطرازه القديم أو على الأقل بعضا من جوانبه . ومن ثم اكتساب ما هو جديد ليحل محله . فاننا نواجه نتيجة لذلك بازدواجيات متعددة فى هذا البناء . وذلك لأن عملية التخلى والاكتساب هذه لا تتم بين يوم وليلة . فهناك على سبيل المثال ازدواجية ثقافية قد تصبح متناقضة الى حد الصراع ، وهناك أيضا ازدواجية اجتماعية ، وتناقضا بين السياق الاجتماعى والثقافى خلال هذه المرحلة . بيد أن هذه التناقضات والازدواجيات تسهم — كلما كان ذلك أكثر تطرفا — فى اضعاف

مجموعة المحكات القيمية والمعيارية التى كانت تحكم فعل الانسان وسلوكه فى السياق الاجتماعى . وذلك من شأنه أن يؤدى الى فتح الباب على مصراعيه أمام نسق الشخصية لكى يصبح هو النسق الأكثر محورية فى ضبط هذا التفاعل والسيطرة عليه . ومن ثم فقد تعمل الشخصية على تغيير بعض نظم المجتمع أو حتى النسق الاجتماعى بكامله . ومن ثم صياغة استقراره عن طريق فرض سياق ثقافى جديد يفرض التكامل محل كافة التناقضات القائمة . وهذا يعنى أن فعل الفاعل فى فترة التنمية يتسم بالمرونة والقدرة على اجراء أية تغييرات فى السياق . وذلك لان الاخير يكون قد فقد قدرته الضبطية والقهرية نظرا للعوامل التى أشرنا اليها . ويعنى ذلك أيضا أن توقعات الآخر العام generalized other أصبحت متخلفة أو ضعيفة بحيث أن الفاعل لا يعيرها اهتماما أثناء سعيه فى السياق الاجتماعى لتحقيق مصالحه الخاصة (٢٦) .

فاذا صور ما سبق طبيعة التفاعل الاجتماعى الكائن فى بناءات المجتمعات الانتقالية بصفة عامة ، فان معضلة هذه المجتمعات تتمثل فى أنها تحاول أن تستوعب فى سنوات معدودة التقدم والتطور الذى حققته المجتمعات المتقدمة فى قرون عديدة . هذا بالاضافة الى أن استمرار التقدم وتباين معدلاته بين مختلف أنماط المجتمعات المتبادلة ، من شأنه أن يضيف عبئا جديدا على هذه المجتمعات أن تتحمله لكى تلحق بالمجتمعات المتقدمة . والى جانب ذلك هناك معضلة أخرى تتمثل فى أن هذه المجتمعات وان كانت تريد تحقيق التقدم الا أنها تفتقد امتلاك مستلزمات التقدم . ولذلك فهى وان كانت قد عانت من الحرمان فى تاريخها المتخلف ، فانه مقدور عليها أن تعانى حرمانا أشد لبناء صرح التنمية والتقدم . ومع ذلك فالمتاعب لا تتوقف عند هذا الحد . لأن هذه المجتمعات ما هى الا أنساق فرعية لنسق عالمى كلى وشامل . ومن هنا فان التناقض الذى قد يسود هذا الأخير فيشقه الى نسق رأسمالى وآخر اشتراكى تنعكس آثاره على التفاعل الكائن داخل المجتمعات النامية ، بل أحيانا تصبح هذه المجتمعات الساحة التى يتفاعل عليها التناقض ، ويضفى على أرضها الصراع . وبالاضافة الى

أن ذلك من شأنه أن يؤدى الى اعاقة عملية تنمية هـذه المجتمعات ويضع قيدا على حركتها الخارجية ذات الصلة بنموها الداخلى ، فانه يصبح السبب فى خلق جماعات داخل بناء هـذه المجتمعات ذات ولاء لهذه الأيديولوجيات الخارجية المتناقضة والمتصارعة وقد يتطرف هـذا الولاء بحيث يؤدى الى الصدام بين الجماعات ذات الولاء أو الانتماء الايديولوجى المضاد . أو مع سلطة المجتمع ذاته ، بل ان هـذا الولاء والاخلاص الأيديولوجى قد يتطرف أحيانا لكى يسود على الولاء للمواطنة ذاتها (*) .

ونتيجة لذلك افتقدت هـذه المجتمعات التكامل النسقى الذى يعد شرطا أساسيا لأى كيان مجتمعى . اذ أصبحت تضم عناصر متناقضة أكثر

(*) نستطيع أن نؤكد أن هـذه الظاهرة تعد وقفا على المجتمعات النامية . فعلى سبيل المثال قام صراع فى مصر أطرافه الثلاثة هم سلطة المجتمع الى جانب الاخوان المسلمين ، والجماعات ذات التوجه اليسارى . والحق أن هـذه الظاهرة ليست وقفا على مصر وحدها ، بل نجدها قد وجدت فى سوريا ، ولبنان ، والعراق ، والجزائر ، والأردن ، والسودان . وعديدا من البلاد الأفروآسيوية ، ومجتمعات أمريكا اللاتينية . ولا يخفى بالطبع الصلات التى لهذه الاتجاهات الداخلية بالمصادر الخارجية . ثم الاعاقة التى فرضتها على عملية التنمية . وقد يثور تساؤل يذهب الى القول بوجود تعدد الاتجاهات الأيديولوجية فى معظم المجتمعات المتقدمة ذات التوجه الليبرالى . ونرد على ذلك بأن وجود بعض الاتجاهات والتنظيمات اليسارية فى البلاد الرأسمالية انما يؤدى وظيفة تفريغ التوترات المضادة لهذه النظم عن طريق اباحة النقد وحرية التعبير عن الرأى المضاد حتى لا تتراكم فى شكل انفجار ثورى ضد هـذه النظم . أما اذا حدث ذلك فى بناء المجتمعات النامية فانه يصبح معوقا وظيفيا بالنسبة لآدائها . ذلك لأنه يضيف صراعاً جديداً الى الصراعات العديدة التى تتعرض لها هـذه المجتمعات أثناء عملية التنمية . هـذا بالاضافة الى أنه لا يخدم تفريغ التوترات . الى جانب أن هـذه المجتمعات تكون بحكم وضعها العالمى ، وبحكم متطلباتها فى هـذه المرحلة أمام ضرورة بذل جهد ضخم لتحقيق التنمية والقضاء على معوقاتها ، ولا يخفى أن قيام صراعات داخلية جديدة يتطلب جهدا لمواجهتها والسيطرة عليها ، وهى جهود تنحرف بالمجتمع عن بناء التنمية باعتبارها العملية الرئيسية التى ينبغى أن تلقى كل اهتمام .

من ضمها لعناصر متباينة . بل اننا نستطيع أن نؤكد أن هـــذه المجتمعات هى السياقات التى تسودها ظاهرة المتصـــلات بصورة كثيفة ومتنوعة . ففيها المتصل الريفى الحضرى . وفيها المتصل الرأسمالى — الاشتراكى . وفيها متصل العقلانية — اللاعقلانية مع كل ما تحويه هـــذه المتصلات من امكانية تأسيس نماذج اجتماعية متنوعة على متصل التباين — التجانس . ونتيجة لذلك أصبحت لكل من هـــذه النماذج أيديولوجيتها الخاصـــة التى تحكم انجازها لفعلها . ولمـــا كانت الأيديولوجية الخاصـــة لا تحصل على الاعتراف أو التســـليم العام ، فانه كان لابد وأن يحدث صدام بين هـــذه النماذج التى قد تتباين وجهة نظرها فيما يتعلق بقضية معينة . وبحق فاننا اذا قلنا أن الثورة هى ظاهرة المجتمع المتخلف فى قلب عالم متقدم ، فاننا نستطيع بحق التأكيد على أن العنف يعتبر ظاهرة المجتمعات النامية التى أعجزتها ظروفها عن النمو فى الاتجاه الصحيح ، وأنه اذا كانت الثورة هى الغـــاء نظام وتصفيته بصورة كاملة فان العنف هـــو الغـــاء لجماعة أخرى اصطدمت مصالحها بمصالح الجماعة التى قادت تفاعله .

وعلى ذلك نستطيع أن نؤكد أن بناء المجتمعات النامية يحتوى على كثير من العناصر البنائية المتناقضة . وبذلك فهى لا تستطيع أن تتساند بنائيا ، أو تتساوق وظيفيا بسبب العوامل التى أشرنا اليها . ومن هنا فان الآداء الوظيفى لكل عنصر يصبح معوقا وظيفيا لعنصر آخر . وبالتـــالى للكلية البنائية . ومن ثم زيادة انحرافها عن آدائها الوظيفى المعتاد . يحدث ذلك حينما تحاول بعض العنـــاصر أو كلها الحصـــول على أكبر قدر ممكن من الاشباع الوظيفى بأقل قدر ممكن من الآداء الوظيفى . ويزداد التوتر ويزداد الانحراف ، ويدخل الاثنان فى نوع من التغذية الخلفية المرتدة . ويصبح هـــذا الانحراف — بصوره المتعددة — شاهد على تناقضات كامنة فى هـــذا البناء . وأنه بناء لم يحقق تكامله بعد ، وتتباين صور هـــذا الانحراف ، فهو قد يتمثل أحيانا فى ارتفاع المعدلات المعتادة للجريمة بالنسبة للبناء . أو قد تتمثل فى ارتفاع حوادث العنف التى قد تقع لتفريغ التوترات المختزنة لعناصر تعطى أكثر مما تأخذ ، أو قد تتسبب فى هـــذه الأحداث عناصر تحاول فرض رؤيتها

الخاصة على الرؤية العامة ممثلة فى السلطة العامة مثلا . وهنا يصبح الفرق واهيا بين ظاهرة العنف والظاهرة الثورية .

٢ — وفيما يتعلق بعملية التحديث وعلاقتها بالمتغيرات المؤسسة للعنف فاننا نجد أن هذه العملية تأتى عادة على المجتمعات التى تمتلك روابط التماسك والتكامل التقليدى فتؤدى الى انهيارها . وفى هذا الاطار نجد أن الجماعات العنصرية والدينية التى كانت تعيش فى سلام الى جانب بعضها البعض داخل اطار المجتمع التقليدى ، اصبحت — بفعل التحديث — تعيش فى حالة من الصراع الذى يتميز بالعنف كنتيجة للتفاعلات والتوترات والتفاوتات التى تتخلق عن عملية التحديث . هذا الى جانب أن عملية التحديث ذاتها من شأنها أن تؤدى الى اشاعة الصراع بين الجماعات التقليدية من ناحية والجماعات الحديثة من ناحية أخرى . هذا بالاضافة الى أن الصفوات الحديثة ذاتها قد يحدث بداخلها صراع بين المجموعة البيروقراطية والمجموعة السياسية بين المثقفين ، ورجال الجيش والعسكريين ، بين قادة العمال ورجال الأعمال ، ومن الطبيعى أن تكون هناك احتمالية أن تندلع هذه الصراعات الى نوع من العنف الصريح (٢٨) . غير أنه أيا كانت طبيعة علاقة التحديث بالعنف فان هناك مجموعة من المتغيرات ذات الصلة بعملية التحديث أو بالبناء الذى تقع فى اطاره هذه العملية من ناحية وبين ارتفاع أو انخفاض معدلات العنف من ناحية أخرى ، وسوف نعرض فيما يلى لبعض من هذه المتغيرات .

(ا) الفقر والتحديث : تعتبر علاقة كل من الفقر والتحديث بارتفاع أو انخفاض معدلات العنف علاقة معقدة للغاية . غير أن هناك تأكيدا تبرزه دراسات كثيرة تذهب الى أن المجتمعات المتقدمة أو العصرية هى بطبيعة الحال أكثر استقرارا اذا قارناها بالمجتمعات الأقل من حيث درجة التحديث . ذلك أن هناك ارتباطا واضحا بين الاستقرار السياسى من ناحية ومؤشرات التحديث من ناحية أخرى . فهناك ارتباط بين مستوى التعبئة الاجتماعية والتنمية الاقتصادية من ناحية وبين درجة الاستقرار

السياسى التى تسود المجتمع من ناحية أخرى . بالاضافة الى ذلك هناك علاقة قوية أيضا بين ارتفاع معدلات التعليم والاستقرار السياسى . وان اندلاع الثورات عادة ما يرتبط عكسيا بمستوى التعليم السائد فى المجتمع . وعلى الجانب الاقتصادى للتحديث نجد أن هناك علاقة واضحة بين متوسط نصيب الفرد من اجمالى الناتج القومى ، وبين نسبة الوفاة الناتجة عن العنف الداخلى . ويوضح الجدول التالى العلاقة بين متوسط نصيب الفرد من اجمالى الدخل القومى وبين صراعات العنف فى الفترة بين ١٩٥٨ — ١٩٦٥ (٢٩) .

المجموعة الاقتصادية	عدد الاقطار	عدد الصراعات	نسبة الاقطار التي تأثرت	عدد الصراعات الداخلية	نسبة الصراعات بالنسبة لكل الدول في المجموعة
أفقر مجموعة (الدخل اقل من ١٠٠ دولار)	٣٨	٣٢	٨٧٪	٧٢	١ر٩
المجموعة الفقيرة (١٠٠ — ٢٤٩ دولار)	٣٢	٢٢	٦٩٪	٤١	١ر٣
مجموعة الدخل المتوسط (٢٥٠ — ٧٤٩ دولار)	٣٧	١٨	٤٠٪	٤٠	١ر١
مجموعة الدخل الغنى (أكثر من ٧٥٠ دولار)	٢٧	١٠	٣٧٪	١١	ر٤
المجموع	**١٣٤**	**٨٢**	**٦١٪**	**١٦٤**	**١ر١**

وتكشف قراءة الجدول السابق أن صراعات العنف خلال الثمانى سنوات موضع التحليل قد تزايدت أربعة مرات فى أكثر الأقطار فقراً اذا قارناها بأكثر الأقطار غنى . بل اننا نجد أن ٨٧٪ من الأقطار الفقيرة للغاية قد عانت من صراعات صريحة اذا قورنت بنحو ٣٧٪ من الأقطار الغنية التى عانت من مثل هذه الصراعات (٢٠) . ذلك يعنى أن الأقطار التى تمتلك مستوى عاليا من التعبئة الاجتماعية والتنمية الاقتصادية تكون فى العادة أكثر استقرارا وسلاما من الناحية السياسية . ذلك يدفعنا الى استخلاص رئيسى يؤكد على ارتباط الحداثة أو العصرية بالاستقرار ، ويرتبط بهذه الحقيقة فيما يتعلق بالأقطار الفقيرة أن التخلف الاقتصادى يعتبر هو المسئول عن حالة عدم الاستقرار التى تعيشها هذه المجتمعات ، ومن ثم يمكن اعتبار التحديث مدخلا أساسياً الى الاستقرار الاجتماعى والسياسى (*) وفى هذا الصدد يؤكد روبرت ماكنمارا أن هناك علاقة قوية بين العنف والتخلف الاقتصادى . ومن ثم فلكى نواجه العنف فان علينا أن نعمل على دعم التعليم ، والاتصال الجمعى ، والتصنيع والنمو الاقتصادى والتحضر . غير أنه ينبغى التفرقة هنا بين علاقة الحداثة بالاستقرار السياسى من ناحية وبين علاقة التحديث — باعتباره عملية انتقالية فيها معاناة — باشاعة حالة من عدم الاستقرار من ناحية أخرى (٢١) .

(ب) التعليم والتحديث والعنف : من الواضح أن عملية التحديث تعتمد على نشر التعليم كأحد جوانبها الأساسية وهو الأمر الذى يفرض

(*) لا يكفى الحديث عن التحديث باعتباره العملية التى من خلالها يبحث المجتمع عن الاستقرار السياسى ، وانما نجد من الضرورى طرح تساؤلات تتعلق بطبيعة التحديث الأكثر ملاءمة للمجتمع . هذا الى جانب أننا نرفض ذلك النمط المشوه من التحديث الذى يفصل المجتمع عن جذوره وتراثه تحت حجة أنها تكوينات تنتمى الى البناء التقليدى ومن ثم فالتحديث الحقيقى ينبغى أن يركز على كيفية تحديث هذه الجذور وهذا التراث حتى لا ينطلق المجتمع بلا هوية ومن ثم يسقط فى اسار التبعية .

أن يكون للتعليم علاقة بالعنف داخل اطار المجتمعات التى تمر بعملية تحديث . واذا حاولنا أن ندرك هــذه العلاقة فاننا يمكننا تقسيم المجتمعات بالنظر الى نسبة من يعرفون القراءة والكتابة فى اطارها . واستنادا الى ذلك فسوف نجد أن نحو ٩٥٪ من الأقطار التى تتراوح نسبة من يعرفون القراءة والكتابة بها بين ٢٥٪ — ٦٠٪ هى بالأساس مجتمعات غير مستقرة اذا قورنت بنحو ٥٠٪ من الأقطار التى تصل نسبة من يعرفون القراءة والكتابة بها الى أقل من ١٠٪ أو نحو ٢٢٪ مجتمعا تصل نسبة من يعرفون الكتابة والقراءة بها نحــو ٩٠٪ وفى دراســة أخرى نجد أن هناك علاقة بين مستوى القراءة والكتابة داخل المجتمع وبين درجة الاستقرار السياسى التى تسود فى هــذا المجتمع على النحو التالى (٢٢) .

نسبة من يقرأون ويكتبون فى المجتمع	عددالاقطار	عددالاقطار المستقرة	نسبة عدم الاستقرار
أقل من ٢٠ ٪	٦	٣	٥٠٪
١٠٪ — ٢٥٪	١٢	١٠	٨٣ر٣٪
٢٥٪ — ٦٠٪	٢٣	٢٢	٩٥ر٦٪
٦٠٪ — ٩٠٪	١٥	١٢	٨٠٪
٩٠٪ فأكثر	٢٣	٥	٢١ر٧٪

ويوضح الجدول الســابق اختلافا واضــحا بين الأقطار الانتقالية والحديثة . بل ويؤكد الفكرة القائلة بأن العصرية تعنى الاستقرار بينما يعنى التحديث عدم الاستقرار . وفى هــذا الصدد فان كلا من المجتمعات الحديثة والتقليدية — رغم ما بينهما من اختلاف — تتمتع بدرجة عالية من الاستقرار ، أكثر بطبيعــة الحال من الدرجة التى تتمتع بها المجتمعات الانتقالية (٢٣) .

غير أن هناك رأيا آخر يؤكد أن للتعليم علاقة بعدم الاستقرار السياسى والاجتماعى ؛ ذلك لأنه يقدم دعوة الى المشاركة الاجتماعية والسياسية وهى الدعوة التى تكون النظم السياسية القائمة مؤهلة للسماح بها . ومن ثم فقد يعنى التعليم انتشار الاغتراب ، والبطالة ومشاعر عدم الرضا وهى كلها مقدمات تمهيدية لأعمال العنف والثورة فى المجتمعات التى تمر بعملية تحديث . بل اننا نجد أن فاعلية التعليم فى اشاعة حالة من عدم الاستقرار السياسى والاجتماعى دفع بعض الحكومات الى اعادة تقييم برامجها وسياساتها التعليمية . مثالا على ذلك أنه أثناء مناقشة الأوضاع التعليمية فى الاقليم الشرقى لنيجيريا فى ١٩٥٨ أكد أزيكوى Azikiwe أن التعليم الأساسى من الممكن أن يكون (خدمة غير منتجة) . ودعم قوله بتصريح أحد أعضاء مجلس الوزراء أن بريطانيا اتجهت الى الصناعة والانتاج المتزايد أولا ، ثم تحولت بعد ذلك الى التعليم ، وليس العكس كما تفعل المجتمعات النامية (*) ذلك لأن الاتجاه الى الانتاج سوف يوفر فرص العمل اللازمة مما يجنبنا أزمات البطالة بين المتعلمين وأنصاف المتعلمين الذين يمكن أن يكون لديهم طموحاتهم ذات التأثير المدمر للنظم السياسية التى لا تستجيب لهذه الطموحات أو التى لا تفتح القنوات أمام المشاركة السياسية لهذه الكوادر المتعلمة (٣٤) .

(جـ) معدلات التحديث والعنف : ليس التحديث السياسى والاقتصادى فقط هو الذى له علاقة بحالة عدم الاستقرار التى تسود بعض المجتمعات . ولكن درجة عدم الاستقرار هذه لها علاقة بمعدلات التحديث التى تقع

(*) يبدو أن هناك الصفوة المثقفة فى العالم الثالث التى تصر على رؤية القضية مقلوبة فبدلا من التأكيد على التعليم الذى ينبغى أن يصاحبه نشاط النظام السياسى فى تأسيس التنمية الاقتصادية الفعالة والتى من شأنها أن توفر فرص عمل للمتعلمين ، وتفتح أمامهم امكانية المشاركة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بما يدعم مسيرة مجتمعاتهم بطاقاتهم ، نجد أن قادة هذه المجتمعات — لكسل النظام السياسى وعدم صلاحيته — ينتقدون التعليم باعتباره ضارا بالاستقرار السياسى ومدمرا له .

الآن فى مجتمعات العالم الثالث . ويوضح الدليل التاريخى المأخوذ عن المجتمعات الغربية المتقدمة ذلك الى حد كبير . ذلك لأن التحديث السريع من شأنه أن يؤدى الى اندفاع البشر فى موجات وأعداد هائلة حسبما لاحظ كورن هاوزر Kornhauser الى المناطق الحضرية ، وهى التفاعلات التى تجعل هـــذه المجتمعات على أبواب الحركات الجمـــاهيرية . ومن واقع الخبرة الأوربية فاننا نجد أن التصنيع السريع يؤدى الى قطع الاستمرارية التاريخية للمجتمع ، حيث يفصل المواقف الصناعية عن مواقف ما قبـــل التصنيع ، وهى انتفاعلات التى تدفع عادة الى ظهـــور حركات الطبقـــة العاملة كما حدث فى البـــلاد الاسكندنافية . ذلك يعنى أن تعرض المجتمع لعملية التحديث يؤدى الى تفكيك روابطه بحياته التقليدية ، هـــذا الى جانب اشـــاعة مستويات عالية من الطموح الذى اذا لم يشبع — وهو ما يحدث بسبب عجز الأنظمة السياسية فى هـــذه المجتمعات — فانه يؤدى الى حالة من عدم الاستقرار .

ويرجع عدم الاستقرار السياسى فى آســـيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية الى معدلات التحديث المستوعبة ، وهى المعدلات التى تتجاوز كثيراً ما كان يحدث فى المجتمعات المتقدمة . فمثلا أمتد تحديث أوربا وأمريكا الشمالية على مدى قرون طويلة . حيث كان بالامكان أن يواجه المجتمع قضية واحدة فى وقت واحـــد . ونتيجة لارتفاع معدلات التحديث هـــذه فاننا نجد أن المجتمعات غير الغربية تعـــانى من شـــكلات مركزية الســـلطة وانهيار التكامل القومى وانخفاض معدلات المشاركة السياسية والتنمية الاقتصادية والتعبئة الاجتماعية ، حيث يتصدى المجتمع لكل هـــذه القضايا فى معية واحـــدة وليس على أســـاس من التتابع كمـــا يحدث فى التنمية الأوربية أو الأمريكيـــة .

واســـتنادا الى ذلك يمكن أن تتضح الاختلافات فى نســـبة التغير فى طـــول الفترة الزمنية التى اســـتوعب خلالها المجتمع هـــذه التغيرات . وحسب صـــياغة كريل بلاك Black نجد أنه بالنسبة للأقطـــار

التى تحدثت أولا مثل انجلترا ، فان عملية التغير والتحديث امتدت الى نحو ١٨٣ عاما ، من الفترة من ١٦٤٩ — ١٨٣٢ . أما بالنسبة للجيل الثانى من الدول التى تحدثت مثل الولايات المتحدة فنجد أن الفترة التى تحدثت خلالها بلغت نحو ٨٩ سـنة بين ١٧٧٦ — ١٨٦٥ ، وبالنسبة لثلاثة عشر مجتمعا دخلت عملية التحديث خـلال الفترة النابوليونية ١٧٨٩ — ١٨١٥ فان متوسط فترة التحديث بلغ نحو ٧٣ سنة . غير أنه بالنسبة لنحو ٢١ قطر من بين ٢٦ قطر بدأت عملية التحديث فى الربع الأول من القرن العشرين ، نجد أن عملية التحديث استغرقت نحو ٢٩ سـنة (٣٥) (*) .

(د) التنمية الاقتصـادية والعنف : لا شك أن العلاقة بين التنمية والنمو الاقتصـادى من ناحية وبين العنف وعدم الاستقرار السـياسى والاجتماعى من ناحية أخرى هى علاقة معقدة للغاية ، فالتنمية الاقتصـادية تعنى تأسيس قطاعات اقتصادية جديدة ومشروعات اقتصادية داخل هـذه القطاعات . ومن الطبيعى أن يؤدى ذلك الى وفرة فرص العمل ، ومن ثم الى الرخاء الاقتصـادى وبالتـالى الى حالة من الاستقرار السـياسى والاجتماعى . غـير أن حالة الرخاء الاقتصـادى عادة ما تطلق عنـان الطموحات التى قد تعجز مستويات الرخاء المتوفرة عن اشباعها ومن ثم الى الاحباط والقلق والتوتر وعدم الاسـتقرار داخل المجتمع . وفى هـذا الصدد يؤكد كثير من المفـكرين على أن التنمية الاقتصـادية تؤدى الى أى من النتائج التالية المتصلة بحالة عدم الاستقرار وهى :

— أن التنمية الاقتصـادية تؤدى الى انهيار الجماعات التقليـدية

(*) بالاضافة الى الاستيعاب التدريجى لمعدلات التغير الذى تمتعت به المجتمعات المتقدمة ، فهى أيضا أسست تنميتها على أساس من سلب موارد المجتمعات المتخلفة بما يدعم هـذه التنمية . بينما تعانى المجتمعات المتخلفة الآن من ضآلة فترات استيعاب التغير ، الى جانب الفقر ونقص الموارد الأساسية التى من الممكن أن تدعم عملية التغير . وهى العوامل الكامنة وراء التمزقات المدمرة التى تصيب المجتمعات النامية .

(الأسرة ، الطبقة ، الطائفة) ومن ثم يزيد عـــدد الأفرار الذين فقـــدوا الانتماء المباشر ، والذين يصبحوا مهيأين للاشتراك فى الاحتجاجات الثورية .

— أن التغير الاقتصادى يفرز شريحة محدثى النعمة Nouveaux Riches ، وهم بطبيعتهم غير متكيفين مع النظام الـســياسى والاجتماعى القـــائم . وهم يســـعون عادة من أجل القوة الســـياسية ، ويبحثون عن المكانة الاجتمـــاعية التى تتلاءم مع مكانتهم الاقتصـــادية ، وأثناء ذلك يشـــيعون اطاراً من التوتر والقلق .

— أن التغير الاقتصـــادى يساعد على انهيار الروابط الاجتماعية . وذلك لأنه يشـــجع على الحراك الجغرافى ، وبخاصة الحراك من المناطق الريفية الى المدن ، وهى الحركة التى تؤدى الى تأسيس كثير من مظاهر الاغتراب والتطرف السياسى .

— أن التغير الاقتصـــادى يزيد من عـــدد البشر الذين يعانون من انخفاض مستوى المعيشة ، ومن ثم فهو يوسع الهوة بين الغنى والفقر .

— أن التغير الاقتصـــادى يزيد من دخول بعض البشر بصورة متطرفة فى مقابل حرمان آخرين بصورة متطرفة أيضا ، وهى التفاعلات التى تؤدى الى انتشـــار مشاعر الاحباط وعدم الرضا .

— أن التغير الاقتصادى يزيد من فاعلية التعليم وانتشـــاره وزيادة التعـــرض لفاعلية وســـائل الاعلام . وهى الأمور التى تعمـــل على رفع مســـتوى أبعد من امكانيات الاشباع .

— أن التنمية الاقتصادية قد تســـاعد على نمو الصراعات القومية والعنصرية بسبب الخلاف حول توزيع الدخل والاستهلاك .

— أن التنمية الاقتصـــادية تســـاعد الجماعة على تنظيم نفســـها ومن ثم فرض مطالبها على الحكومة ، حيث لا تكون الحكومة قادرة على اشباع هـــذه المطالب (٣٦) .

واســـتنادا الى ذلك يؤكد الكس تو كفيل Alex Tocqueville أن الثورة انفرنســـية سبقتها حالة من النمو والرخاء الاقتصادى لم تشهد الأمة الفرنسية نظيرا لها فى تاريخها الاقتصادى . وكذلك الحال بالنســـبة لمختلف الثورات . فالثورة المكسيكية جاءت فى أعقاب عشرين ســـنة من النمو الاقتصـــادى وتجربة الهنـــد فى التنمية الاقتصـــادية بين الثلاثينات والخمسينات من هـــذا القرن لم تدعم الاستقرار السياسى (٣٧) .

(هـ) اتســـاع الفجوة بين الطموح والاشـــباع : وفى هـــذا الصدد فان التنمية الاقتصادية الاجتماعية من شأنها أن تؤدى الى انهيار السياقات التقليدية ، ومع هـــذه السياقات التقليدية تنهار الرؤية التقليدية المستنده الى قيم ومبادىء محددة ، ومن ثم يبدأ الأفراد فى التحرك بحثا عن الاشباع الذى تغذيه كل متغيرات التحديث ، كالتعليم ، الاعلام ، والفرص المفتوحة ، وقيم الحيـــاة الحضرية . غير أنه فى مواجهة هـــذه الطموحات التى أطلق عقالها تعجز البناءات التقليدية عن تقديم الاشباع ربما كان ذلك بسبب نقص كفاءتها أو بسبب نقص الموارد ، ومن ثم يصبح العنف هو المطية الوحيدة لمحاولة عبورة الهوة بين الطموحات العالية ، والعجز عن تقـــديم الاشباع المتوقع لهذه الطموحات (٣٨) .

(ز) التفاوت الاجتماعى كأساس للعنف : يؤكد ارسطو (أن أصل الفتنة فى كل الحالات يكمن دائمـــا فى التفاوت الاجتمـــاعى ، ذلك أنه من الطبيعى أن تؤدى التنمية فى بعض المجتمعات التقليدية الى ســـوء توزيع الثروة داخل المجتمع ، وهى الحالة التى تؤدى الى العنف اذا توفر لها شرطين . الأول يتمثل فى انخفاض المتاح من فرص الدخل لهـــؤلاء الذين يقعون فى قاع الســـلم الاقتصادى ، والثانى يتمثل فى الوعى بالتفاوتات وهو الوعى الذى يتأسس بالنظر الى فاعلية التعليم والاعلام فى المجتمع (٣٩) .

***

رابعا : العنف فى العالم الثالث
انماطه ودينامياته

يكشف الحديث عن انماط العنف فى العالم الثالث عن معطيات عديدة ومحيرة . تتسق أحيانا وتتناقض فى أحيان كثيرة . وهى فى تناقضها واتساقها تتلاءم أساسا والسياق الاجتماعى المحيط الذى يحتويها . واذا كانت النماذج البنائية المتباينة تؤسس نماذج عنف تتلاءم والتفاعلات الكائنة بها . فان مجتمعات العالم الثالث باعتبارها مجتمعات انتقالية تعيد ترتيب عناصرها من خلال عملية التحديث . نجدها تضم أنماط عنف متباينة لأنها تضم بناءات فرعية متباينة بل ومتناقضة أيضا . واذا كانت هناك مجموعة من الفرضيات النظرية القادرة على تفسير وقائع العنف فى كل سياق اجتماعى أو نموذج بناء محدد ، أكثر من قدرة فرضيات أخرى على التفسير . فاننا فى مجتمعات العالم الثالث نجد أنفسنا نستعين بكل الفرضيات النظرية التى ثبت صدقها فى كل النماذج البنائية . فلدينا جماهيرا تتمتع بدرجة عالية من العقلانية ، ذلك فى مقابل قطاعات جماهيرية أخرى يتميز سلوكها بالطابع العاطفى والانفعالى . ومن ثم فاذا كانت هذه المجتمعات مجتمعات التعدد البنائى ، وهو التعدد الذى يشكل مصدرا أساسيا للتوتر والقلق فاننا يمكننا أن نقول أيضا أنها مجتمعات العنف وأنماط العنف المتعدد . ولتوضيح ذلك فاننا سوف نعرض لأنماط العنف ودينامياته من خلال الجوانب الرئيسية التالية :

١ ــ العنف ، طبيعته وأنماطه الأساسية .

٢ ــ تخلق العنف ، دينامياته وتفاعلاته الداخلية .

٣ ــ العنف ، طبيعة الفروض العلمية المفسرة .

وسوف نحاول فى عرضنا الموجز لهذه الجوانب أن نركز على طبيعة انماط العنف ودينامياته وفروضه العلمية المفسرة داخل بناءات المجتمعات النامية .

١ ـــ العنف ، طبيعته وأنماطه الأساسية .

سوف نركز فى هـــذه الفقرة على تحديد الأنماط الأساسية لوقائع العنف وذلك من خلال تصنيف وقائع العنف أو حوادثه الأساسية فى أنماط ذات طبيعة وخصائص متميزة . والحق أن هناك عدة معايير طورتها النظرية السوسيولوجية كأساس لتصنيف هـــذه الأنماط ، ونذكر فيما يلى بعضا من هـــذه المعايير .

(ا) تنميط أحداث العنف بالنظر الى قدر الدمار التى تحدثه هل هو دمار هائل أم خطير أم بسيط .

(ب) تنميط أحداث العنف اســـتنادا الى زمن وقوع العنف اليوم ، الشهر من السنة ، الموسم .

(ج) تنميط أحداث العنف على أساس ايكلوجى ، أعنى بالنظر الى الطبيعة الأيكلوجية لمسرح العنف .

(د) تنميط أحداث العنف بناء على عدد ســـكان المجتمع المحلى الذى وقع العنف فى اطاره (٤٠) .

بيد اننا نلاحظ أن هـــذه التنميطات وان يسرت العمل الاجرائى للبحث العلمى . الا أنها تنميطات تتصرف بالسطحية . وذلك لأنها لا تيسر الكشف عن الأســـباب العميقة لهذه الأنماط . هـــذا بالاضافة الى افتقاد حوادث العنف التابعة لأى نمط من الأنماط لأى نوع من التجانس الداخلى فيما بينها سوى اشتراكها فى الوقوع فى ســـياق أيكلوجى معين أو فى شـــهر محدد من الســـنة .

فاذا كان مكمن الخطأ فى التنميطات السابقة أنها حاولت تنميط العنف من الخارج . فان هنـــاك الى جانب ذلك تنميطا علميا طورته النظـــرية السوسيولوجية . حيث يستند هـــذا التنميط فى أساسه الى تشريح البناء

الداخلى لظـــاهرة العنف ذاتها . ومن ثم تجميع الأحداث ذات الطبيعـــة والخصـــائص المتماثلة فى نمط متجانس . بحيث تظهـــر لدينا مجمـــوعة الأنماط التاليـــة :

(أ) العنف اللاعقلانى غير المســـئول .

(ب) العنف المنشىء أو المتمدى .

(جـ) العنف الانفعالى أو العاطفى .

(د) العنف الرشيد أو العقلانى .

بيد أنه برغم تنميط أحداث العنف فى اطار الأنماط الســـابقة فاننا **لا نقصد وجود** هـــذه الأنماط فى **الواقع** بطبيعتها الخالصة هـــذه ، ولكننا نجد أن كل نمط من الأنماط السابقة به عناصر من الأنماط الأخرى ، ولو أن العنصر الرئيسى به هو الذى يكسبه طبيعته الغالبة . هـــذا بالاضافة الى أن كل نمط من هـــذه الأنماط يكون عادة أكثر انتشـــاراً فى سياق اجتماعى دون غيرة ، وبين جماهير بشرية معينة دون سواها . وهو الأمر الذى سوف نوضحه .

(أ) العنف اللاعقلانى غير المســـئول : ويتميز هـــذا النمط بافتقاده آية أهداف موضوعية يثور ضدها . وهى افتقاده لدوره فى تصريف التوترات المختزنة كما هو الحال فى العنف الانفعالى أو العاطفى ؛ لأن هـــذه التوترات قد لا يكون لها وجود أساسا . ولا هو يخلق بواســـطة السلطة لسحب البساط من تحت أقدام العنف الرشيد أو الثورى . ولا تؤدى نتيجته الى درجة أعلى من التكيف لأن عدم التكيف قد لا يكون موجوداً أساساً . وانما يعتبر هـــذا النمط نوعا من الانفجـــار الذى يفتقد أية صـــلة موضوعية بسياقه الاجتماعى . ويتم هـــذا العنف فى العادة خدمة لأغراض بعض المحرضين الذين يلعبون دورا محوريا فى تأسيسه . ويختار جمهور هـــذا النمط من العنف من طراز معين من البشر ، ثم تنشر بينهم أفكار معينة ضد الجماعات الأخرى أو ضد سلطة المجتمع . ومن ثم يشكل لهم بناء اجتماعيا

وثقافيا مضادا لبناء الجماعات الأخـــرى وأيديولوجيتها أو ضد أيديولوجيا سلطة المجتمع ذاتها . وفى هـــذا النمط نجد أن المحرضين يكونون على وعى بأهداف العنف بينما المشتركين فيه ليسوا سوى ضحية لصياغة اجتماعية وثقافية زائفة أتقن تأسيسها المحرضون على هـــذا النمط من العنف (٤١) .

(ب) العنف المنشىء أو المتدى : ويفتقد هـــذا النمط أيضا امتلاك أية أهداف موضوعية محددة وواضحة . فهو نوع من تجســـيد الفراغ أو الوهم ، أو على الأقل تجســـيدا واقعيا وماديا لتوترات معنـــوية ، لا تترك حتى تصل الى طور النضج ومن ثم الانفجار الطبيعى . وقد تلعب وســـائل الاتصال دورا بارزا فى خلقـــة عن طريق نقلها لأخبـــار العنف والاضطراب التى تقـــوم بها الجماعات المماثلة — فى أماكن أخرى — لنفس الظروف المحيطة والمســـببة لبعض التوترات . ويقـــوم العنف فى هـــذه الحالة نتيجة للاثارة أو التهيج . وقد تكون وظيفته تصريف بعض التوترات . وقد تلعب الســـلطة الســـياسية دورا فى تأسيسه عن غير قصد منهـــا نتيجة لاتخاذها بعض الاجراءات المثيرة للقلق والتوتر . لكونها تلمس بعض مواضع الألم والتوتر عند جمهور هـــذا النمط . أو عن قصد حينما تتحرك الســـلطة بوعى لتفريغ التوترات المختزنة حتى لا تترك لها الفرصة لكى تنضج فى شـــكل فعل ثورى قد يتمكن من الاحاطة بهذه السلطة السياسية ذاتها . هنا قد تتدخل السلطة السياسية لتصريف هذه التوترات وامتصاصها عن طريق اختلاق بعض الأحداث التى يؤسسها المهندسون من قبل السلطة . وفى ذلك يطلق منظروا العنف على السلطة السياسية لقب مربى أو مروض العنف والاضطراب . هـــذا بالاضافة الى أن الهدف من هـــذا النمط قد يكون خلق درجة أعلى من التكيف عن طريق تصريف أكبر قدر ممكن من التوتر (*) (٤١) .

(*) استنادا الى خصائص هـــذا النمط يمكن فهم موجة العنف التى اجتاحت العالم فى الســـنوات السابقة نتيجة لانتشار أخبار هـــذه الأحداث عن طريق وســـائل الاتصال ، بل ويدخل ضـــمن ذلك أيضا التحريضات =

(جـ) العنف الانفعالى أو العاطفى : وهو نوع من الانفجار العاطفى الذى يعبر عن توترات ومشاعر متراكمة لها أسبابها ودوافعها الكامنة . وهو عنف وان كانت له أهدافه الموضوعية الا أنها لم تتحدد بعد بحيث يمكن أن تصبح أساساً لفعل عقلانى . وعادة تكون الأسباب الموقفية لهـذا العنف أكثر اثارة — فى ظروف معينة — من أسبابه الموضوعية . هـذا بالاضافة الى أن جمهور هـذا النمط من النوع العاطفى السـلوك لغياب العقلانية لأسباب عديدة . فجمهور هـذا النمط من العنف يكون عادة من الحشد أو الدهماء . وتكون أحداثه غالبا قصيرة الأمد . تلعب فيها الدعاية والاشاعة دورا محوريا ، بل أننا نلاحظ كثيرا تغير هوية وطبيعة المشاركين فيه ، بل وتغير أهدافهم أثناء استمرار حدوث تفاعله . وقد يتوقف العنف الانفعالى أو العاطفى بعـد الانفجار وتصريف التوترات • الا أنه يقع فى العادة ثانية فى المسـتقبل اذا ظلت العوامل المولدة للتوتر كما هى . فاذا استمرت أسـبابه وتكـرر حدوثه فانه ينذر بالتحـول الى نمط العنف الرشـيد (٤٢) .

(د) العنف العقلانى أو الرشـيد : وهو أكثر أنماط العنف نضـجا وفاعلية . ذلك لأنه يمتلك اطارا واضحاً يحتـوى بداخله على الأهداف والوسائل المحددة تحديداً موضوعيا لتحقيقها . ويكون المشتركين فى هذا النمط عادة على وعى كامل بهـذه الأهداف الموضوعية . وهم يعزفون عادة عن الاشتراك فى أحداث عنف أو شغب غير مسـئولة . بل انهم يكونوا عادة على درجة ثقافية وتعليمية أفضل ، وعلى درجة أعلى من الوعى السـياسى ، والمستوى الاقتصادى ، وعلى فهم محـدد لأدوارهم وأدوار الآخرين فى مسار الأهداف وتطورها .

= الاذاعية التى تبثها الاذاعات الى الثوار فى مجتمعات أخرى معادية حتى تدفعهم الى الدخول فى تحديات صريحة وعنيفة مع السلطة الشرعية القائمة فى المجتمع . ويدخل فيه أيضا بعض حركات الرفض المعتدلة التى توافق عليهـا الحكومات كبـديل لحركات عنف ثورى قد يغير هوية النظـام السـياسى ذاته .

ويثور هــذا النمط عادة لأســباب موضوعية واضحة . كعدم وجود اتساق فى البناء الاجتماعى على أى من مستوياته . أو وجود بعض المشكلات التى لهــا وطأتها على شرائح معينة من الجمــاهير ، كالدخل المنخفض ، وانتشــار البطالة والمحسوبية فى شــغل الوظائف والاســكان السىء ، والآثار الســيئة للتنمية الحضرية . وانخفاض مســتوى التعليم أو عدم فاعلية السلطة السياسية على المســتوى الداخلى أو الخارجى . ويهدف هــذا النمط الى فرض بعض المطالب التى تلائم القضــاء على أســباب قيامه وتأسيسه . فاذا أجيبت مطالب جماعة العنف فانه ينتهى ويتوقف . واذا لم تجاب هــذه المطالب فانه قد يعمل على ابتكار الوســائل الأكثر ملاءمة لفرض هــذه المطالب . وقد يتحــول الى فعــل ثورى ذو دلالة جماهيرية (٤٢) .

غير أننا لابد أن نؤكد فى النهــاية ما أكدناه فى البداية . من أن الفصل بين هــذه الأنماط يعتبر فصلا تعسفيا تجريديا . فالعنف الانفعالى يكون عادة مقدمة للعنف العقلانى الرشــيد اذا نضج وتحددت أهدافه ووسائله بصورة واضحة . وهناك العناصر العاطفية والعقلانية فى العنف غــير المســئول ، كذلك نجد نفس هــذه العناصر فى العنف المتمدى أو المنشىء . بل اننا قد نجد اشــتراك كافة هــذه العناصر بدرجات متفاوته فى كافة هــذه الأنماط . كذلك اشتراكها كلهــا فى وظيفة أساسية تتمثل فى تصريف توترات متراكمة فى البناء الاجتماعى ، لها وطأتها على الجماعات التى تشكل الوحدات الأساسية لهذا البناء .

٢ — تخلق العنف ، دينامياته وتفاعلاته الداخلية .

تركز هــذه الفقرة بالأساس على البناء الداخلى للعنف وليس على طبيعته الخارجية فقط . ومن ثم فالاهتمام الرئيسى ينصب على تحديد مراحل نمو العنف منــذ بداياته الأولى وحتى تحدده كظاهرة تحتوى على أشخاص يسود بينهم نوع من التجانس والانســاق داخل موقف اجتماعى معين . هــذا بالاضافة الى ســيادة نمط معين من التفاعل فى اطار هــذا الموقف

واتجاهه لانجاز فعل معين له صلة بالسياق . ذلك يعنى أن هناك مجموعة من المراحل أو الخطوات الأساسية التى يتحرك فيها العنف ابتداء من كونه مجموعة من التوترات التى تتجمع وتختزن داخل بناء المجتمع ، وحتى انفجارها — فى المرحلة الأخيرة — عنفا رشيداً وثوريا قد يغير من هوية وطبيعة البناء القائم بما يساعد على الغاء مصادر التوتر فى اطاره . وسوف نحاول فيما يلى أن نذكر المراحل الأساسية التى يمر بها العنف ابتداء من كونه مجموعة من التوترات ، وحتى انفجاره فى هيئة فعل ثورى متطرف يستهدف التغيير .

(ا) تخلق نطاقات التوتر : وتشكل المرحلة الأولى للتفاعل الدينامى للعنف . وتتمثل فى وجود بعض التناقضات بين بعض العناصر البنائية . بحيث تؤدى هذه التناقضات الى نشأة بعض التوترات التى تتواجد عادة فى مناطق البناء التى يسودها التناقض . هذا بالاضافة الى أن هذه التوترات من شأنها أن تكون ذات تأثير حاد على الوحدات الجزئية التى تتصل بالنطاقات المتناقضة ، ولتكن الأخيرة أشخاصا ، ومن ثم نجد أنهم يتأثرون بها دون غيرهم ، لكونها تؤثر على كفاءة الاشباع الملائم لبنائهم الدافعى .

(ب) تشكل بناءات التوتر : وتمثل المرحلة الثانية فى هذا التفاعل ، وتتحقق حينما يؤدى التأثير المتماثل الناتج عن هذه التوترات على طراز معين من الوحدات — (وليكن أشخاصا) — الى تجمعهم — فى اطار نوع من رد الفعل — فى شكل جماعات تتخلق لها ثقافاتها الخاصة . وتصبح هذه الجماعات ذات الثقافات الخاصة سياقات فرعية تلعب دور الآخر الذى تدعم توقعاته فعل الأنا . وبذلك فهى توفر الشرعية الاجتماعية لفعله الذى قد يتناقض والسياق المحيط الا أنه يتسق وسياق بناءات التوتر ويتلاءم مع امكانية الاشباع الدافعى للشخصيات المعرضة لهذه التناقضات والتى تعانى من التوتر

(جـ) بناء التوتر والسـياق المحيط : ويمثل المرحلة الثالثة فى بناء العنف . وتبـدأ هـذه المرحلة حينما تتحـدد معالم هـذه الجماعات . وتتضح مكانتها فى البناء الاجتماعى ودورها فى العملية الاجتماعية . حينئذ نجد أنها تبدأ فى النظر الى ذاتها فى علاقتها بالجماعات الأخرى داخل البناء الاجتماعى . وهما معا بالنظر الى البناء الاجتماعى الشامل . وفى هـذا الاطار تجرى الجماعة عدة مقارنات على عدة مستويات لكى تزن مدى اسـهامها فى العملية الاجتماعية والتزامها نحوها . وذلك فى مقابل حجم الامتيازات التى تعود عليها فى مقابل هـذا الاسهام . ثم مدى مشروعية التناقضات التى تواجهها والتوترات التى تعانى منها ، ومن ثم فقد يؤدى هـذا الحساب والتقدير الى شـعور الجماعة بنوع من الحرمان بالنظر الى الجماعات الأخرى . ويتعمق الاحساس بالحرمان بالنظر الى الفرق بين مدى الاسـهام الذى تؤديه فى مقابل الجزاء الذى تناله . وفى هـذه اللحظة قد تتمكن الجماعة من تحـديد مواضع التناقض والتوتر . ومن ثم تعيش بعد ذلك فى انتظار الشروط الخارجية الملائمة التى تحيل حرمانها المطلق الى حرمان نسبى . فاذا توفرت هـذه الشروط فانها تدفع عادة الى نوع من الفعل العنيف والصريح الذى قد تتمكن الجماعة بواسطته من التخلص حتى من هـذا القدر من الحرمان النسبى .

(د) السخط الانفعالى الصريح : ويمثل المرحلة الرابعة فى النمو المتفاعل للعنف . وتبدأ هـذه المرحلة حينما يبدأ عـدم الرضاء ـ الناتج عن المعاناة نتيجة لعدم اشباع الحاجات الأساسية فى السياق ـ فى التحول الى نوع من السخط على الظروف التى خلقت عدم الرضاء هـذا . ومن ثم فقد يمتد هـذا السخط ليشمل البناء الاجتماعى بكامله . أو قد يوجه الى بعض جماعاته المفضلة التى تحصل على امتيازات تفوق الاسـهام الذى تؤديه . وفى هـذه المرحلة قد تتخلق الظروف الموقفية التى قد تؤسس توترات جديدة يصبح من الصعب تحملها . ومن ثم فقد تقدم هذه الجماعات ـ لتفريغ توتراتها ـ على اعلان سخطها ، وتختلف صور هـذا الاعلان

وحدته باختلاف موقف السلطة السـياسية فى المجتمع أو الجماعة التى أعتبرت هدف العنف ، أو باختلاف قـدر التوتر المختزن . ومن هنا فقد يتأرجح هـذا الاعلان للسـخط من مجـرد الاعلان اللغوى الى نوع من الاندفاع الهستيرى عن طريق ارتكاب بعض أعمال العنف . وفى هـذه المرحلة قد تختلط مفاهيم السلطة والدولة والمجتمع على هـذه الجماعة . ومن ثم فهى قد توجه اعلان سخطها عليها كلها أو على أى منها . فاذا حاولت بعض عناصر بناء المجتمع التصدى لها والسيطرة على هـذه الانفجارات الانفعالية ، فان هـذه العناصر تكون عادة هدف هـذا العنف . وهـذا يفسر الحضور الدائم للسلطة ممثلة فى الشرطة كطرف توجه اليه فى الغالب سلوكيات العنف .

(هـ) التحرك العقلانى الواعى : ويمثل المرحلة الخامسة فى النمو الدينامى للعنف . وتبدأ هـذه المرحلة نتيجة لاسـتمرار المواقف التى تسـودها التناقضات البنائية التى تطرح توترات على مختلف الجماعات بدرجات متفاوته . ونتيجة لاسـتمرار حدوث انفجارات العنف الانفعالية دون أن تتمكن من حل أسباب التوتر أو تصريفه تصريفا كاملا . حينئذ فانه نتيجـة للمواقف التجريبية الكثيرة التى تمر بها هـذه الجماعات ونتيجـة للوجود الحاد لأسباب التوتر ، فاننا نجد أن الجماعة تتحرك من المسـتوى العقلانى الواعى . وذلك بأن تحدد ـــ موضوعيا ـــ أسباب السخط والتوتر ، ومن ثم تحاول أن ترسم برنامجا يؤدى اتباعه الى القضـاء على مصادر التوتر . وهنا تتحول ثقافة العنف من كونها ثقافة سلبية لا تمارس الا نوعا من رد الفعـل الى موقف ايجابى له فعل . وبالتالى فانها تمتلك تصورا لخصائص هـذا الموقف الايجابى ومساراته فى المستقبل . وهو ما يشير فى العادة الى امتلاكها توجهات أيديولوجية محددة وواضحة . وهنا تتحول ظاهرة العنف الى ظاهرة ثورية لها أيديولوجيتها الخاصـة التى ترى أنها أكثر كفاءة من أيديولوجية الجماعات الأخرى أو الأيديولوجيا العـامة التى

تشـــكل توجهات المجتمع (*) .

(و) دور الطرف الآخر : ويمثل بروز وجود الطرف الآخر الى جانب سلوكه المرحلة السادسة . ونقصد بدور الطرف الآخر دور السلطة فى البناء الاجتماعى باعتبارها آداة الضبط والسيطرة بالنسبة لكافة التفاعلات الكائنة فى سياق هـــذا البناء ، أو موقف الجماعات المضادة على اختلاف مستوياتها . فقد يقف هـــذا الطرف موقفا صلبا فى مواجهة بناءات العنف ، وهو الموقف الذى قد يزيد من اشتعالها ، ومن ثم انضاجها وأكسابها أكثر الخصائص ثورية . هـــذا الى جانب توفير التصميم الثورى الذى يتأسس نتاجا لتراكم التوترات واتســـاع نطاقها نتيجـــة لعمق التناقضات المولدة للعنف . وهنا يوصف الطرف الآخر بعدم الوعى . ذلك أنه اذا كان على بصيرة ووعى ، فانه كان من الممكن أن يتخذ من الاجراءات التى تحول دون تحول العنف الانفعالى الى عنف عقلانى صريح ، عن طريق القيام ببعض الاصلاحات والارضاءات ذاه الاشباع الانفعالى . أو يعمل باســـتمرار على تفجير بعض حوادث العنف المصطنعة لتفريغ التوتر قبل تكثفه لكى يأخذ شـــكلا عاطفيا وانفعاليا عنيفا . أو تحوله الى مستوى عقلانى رشـــيد . أو العمـــل على تفتيت بناء العنف من الداخل الى بناءات فرعية متضادة متخذا موقف الحكم بينها . أو القيام باصلاحات وتغييرات موقفية ومؤقتة . تفرغ بها التوترات وقتيا ومن ثم تقضى على مصادر التناقض والتوتر قضاءاً مظهريا عابرا .

(*) أسس تالكوت بارسونز Talcott parsons أثناء عرضـــه للجماعة الثورية المنهمة فى مؤلفة النسق الاجتماعى The social system مفارقة واضحة فى اطار السلوك الانحرافى بين جماعات الانحراف كالمجرمين والعصابات وما الى ذلك . وبين الجماعة الثورية فى بداية نشأتها كجماعة منحرفة . وأســـند مفارقته على أساس امتلاك الجماعة الثورية لأيديولوجيا ذات اهتمام جماهيرى عام . وبذلك يصبح امتلاك أيديولوجيا ذات تصور مجتمعى عام ، الى جانب العمل لصالح مصالح عامة هو أساس المفارقة بين الانحراف الاجتماعى السـوى واللازم اجتماعيا وبين الانحراف الاجرامى المرضى الذى يعتبر عبئا على البناء الاجتماعى والعملية الاجتماعية .

(ز) خلق توازن جديد : وتمثل المرحلة السابعة والنهائية فى بناء العنف ويحاول فيها البناء الاجتماعى بكامله — من خلال حركة تلقائية — أن يضع حدا لهذا التفاعل الحاد الذى سادة فى الفترة السابقة . وفى اطار ذلك فقد يحاول بناء المجتمع تحقيق وتأكيد التوازن الذى يؤدى تحققه الى نفرغ البناء لعملياته الأخرى . ويمكن لبناء المجتمع أن يحقق هـذا التوازن بثلاثة أساليب .

وفى الأسـلوب الأول يتعقل بناء العنف موقفه ، ومن ثم يبـدأ فى امتلاك أيديولوجيته التى تؤكد على ضرورة القضـاء الجذرى على أساليب التناقض ومن ثم على مصادر التوتر . ويكون ذلك فى العادة نتيجة لنضج جماعة العنف أو لموقف العناد الذى يمارسه الطرف الآخر . ويكون من نتاجه تمكن جمـاعة العنف من السـيطرة على الموقف . وفرض مطالبها وأيديولوجيتها على الطرف الآخر . وتكون بذلك قد قدمت حلا ثوريا لكافة التناقضات ، ومن ثم يؤدى ذلك الى تحقيق التوازن من جديد ، وهو يتميز عادة بالدوام لفترة طويلة .

وفى الأسلوب الثانى قد يحاول الطرف الآخر أن يتحرك بصورة متطرفة خاصـة اذا كان أكثر قدرة وقوة للقضـاء على جماعة العنف هـذه . خاصـة اذا كانت صـغيرة أو ذات فعالية ضئيلة . أو أن أيديولوجيتها ليست ذات جاذبية بالنسبة لكل من هو من خارج حدودها . ومن هنا فهو قد يسحقها عن طريق القضـاء على صفوتها . وهو بذلك يخلق توازنا جديدا . بيد أنه يكون عادة توازن قصير المدى نظرا لاستمرار مواضع التناقض وأسباب التوتر ، ومن ثم ينهار هـذا التوازن حينما تمتلك جماعات العنف قدرة الاطاحة أو تدمير الطرف الآخر .

ويحاول الطـرفان فى الأسـلوب الثالث الالتقاء عند حل وسط ، ويحدث ذلك حينما تدرك صفوة العنف أنها أمام عدو قوى قد يتمكن من القضـاء عليها اذا هى قد أعلنت عداءها الصريح أو حينما يكون الطرف

الآخر على وعى بدينامية العنف ومن ثم فهو يحافظ على سحب البساط من تحت أقدامها بتقديم اصلاحات موقفية تمنع التوتر من الوصول الى حده الأقصى أو بمحاصرتها اعلاميا حتى لا تكون موضع تعاطف جماهيرى ، أو بالعمل الدائم على خلق تناقضات داخلية فى اطارها . وبذلك فهو يتمكن من تحقيق توازن يدوم بدوام هذا الآخر فى اجراءاته هذه . وبدوام عجز جماعات العنف عن مواجهتها (*) (٤٤) .

٣ — العنف ، طبيعة الفروض العلمية المفسرة .

فى محاولتنا فهم ظاهرة العنف عرضنا فى الفقرات السابقة لطبيعة السياق الاجتماعى (التاريخى الماضى والمعاصر) والأيكلوجى فى محاولة لالقاء الضوء على طبيعة البيئة المحيطة بالعنف ، ثم عرضنا بعد ذلك لطبيعة عمليـة التحديث ، وكيف يمكن أن تفسر التناقضات والتفاعلات التى تقع فى اطارها واقعة العنف . ثم عرضنا بعد ذلك لواقعة العنف ذاتها من حيث أنماطها الأساسية ودينامياتها أو تفاعلاتها الداخلية . وقد كان هدفنا خلال هذه المرحلة يتمثل فى الحصول على بعض القضايا أو الفروض العلمية القادرة على تفسير العنف . واستخلاصا من كل ما سبق استطعنا

(*) من الضرورى الاشارة الى مسألتين هامتين فى هذا الصدد وتتعلق المسألة الأولى بأن التفاعل الدينامى للعنف لا يسير دائما وفقا المراحل الدينامية المتتابعة التى أشرنا اليها . فقد يبدأ التفاعل من أول مراحل هذا التفاعل ، ولا يكتمل أبدا حتى مراحله الأخيرة . وقد يبدأ من اوسط دونما أدنى ضرورة لكى يبدأ من البداية ثم يكمل بعد ذلك المراحل الدينامية حتى النهاية . أما مسألة البدء من أول المراحل أو من أوسطها فيعتمد على السياق الاجتماعى لجماعة العنف ، فمن غير المعقول أن تقود جماهير جاهلة أو تجمعات الحشد والدهماء عنفا عقلانيا واعيا . وبذلك فانه نظرا لطبيعة سياقها نجدها فى الغالب تبدأ هذه المراحل من البداية وتتوقف عند مستوى الانفجارات الانفعالية والعاطفية ولا تستطيع الانتقال الى مرحلة العنف العقلانى الواعى لافتقاد هذه السياقات امتلاك درجة من العقلانية والرشد الذى تؤهلها لذلك .

تحديد مجموعة من الفروض التى قدمتها النظرية الاجتماعية فيما يتعلق بظاهرة العنف . بيد أن التأمل والتحليل النقدى لهذه القضايا أو الفروض يكشف ضرورة تحديدها بحيث تكون قادرة على تقــديم التفسير العلمى المتكامل للظاهرة . واســتنادا الى ذلك فاننا نرى ضرورة مراعاة بعض الاعتبارات الأساسية لتأسيس وتحديد هــذه الفروض ، ونذكر فيما يلى بعضا من هــذه الاعتبارات .

ــ أنه من الضرورى الحذر من ارجاع أسباب الظاهرة الى المستويات الفردية ، كوجود نوع من الاحباط الكامن منــذ الصغر وراء الاشتراك فى حوادث العنف . ذلك أن هــذا الفهم قد يسهم ــ مع غيره ــ فى توفير التشخيص الملائم لبعض مفردات الظاهرة . غير أن اطلاقه باعتباره التفسير الوحيد للظاهرة يفقده علميته . هــذا الى جانب أنه وان استطاع تفسير بعض الوقائع الفردية ، فانه لن يستطيع تقــديم تفسير للظاهرة فى مستواها الاجتماعى الذى تفسره أسباب بنائية وليست فردية .

ــ من الضرورى الحذر أيضا من بعض الفروض التى تحاول الربط بين هــذه الظاهرة واحدى طبقات البناء الاجتماعى . كالقول بانتشارها فى اطار الطبقات الدنيا أو الوسطى . وخطأ مثل هــذا الطراز من الفروض أنه يحاول تفسير بعض الظواهر ذات الصلة بالكلية البنائية بالنظر الى أى من جوانب هــذه الكلية ، كالبناء الطبقى . هــذا بالاضافة الى بعض المســائل الخلافية التى تثور فيما يتعلق باحصاءات الانحــراف فى اطار الطبقات ، والتى أشار اليها عالم الاجرام الشهير (أدوين سازرلند) فى تعرضه لجرائم أصــحاب الياقات البيضاء . هــذا الى جانب أن هــذا الافتراض لا يعيننا كثيرا فيما يتعلق بالمجتمعات النامية . وذلك نظرا لأن هــذا النمط من المجتمعات يعيش فى حالة تنمية ، وهى حالة تفاعل يمتزج فيها كل شىء بكل شىء ، حتى أنه من الصعب أثناء هــذه المرحلة الدينامية أن نعثر على أية خطوط واضحة يمكن الاستناد اليها فى الفصل بين الطبقات

المختلفة . هـذا بالاضافة الى كون هـذا الفرض يتضمن خطأ منطقيا يتمثل في محاولة تعميم ما يتعلق بالجزء المختلف على الكل الشامل .

ـ أنه من الضرورى صياغة مفارقة حادة وواضحة بين الأسـباب الظاهرة أو الموقفية التى قد تتبدى أمام الاستكشاف المتسرع والفردى للظاهرة ، وبين الأسباب الموضوعية أو الكامنة للظاهرة . ونقصد بهذه الأخيرة مجموعة الأسباب ذات الصلة بالسياق البنائى المحيط ، والتى لا تتصل بسبب أو بآخر بمفردات الظاهرة ، ولكن بوجودها الجمعى .

ـ الى جانب ذلك فانه من الضرورى أن نحذر مجموعة الفروض التى تصر على الربط الجزئى للظاهرة ، أعنى ربطها بنظم أو فئات معينة . وانما يجب دائماً اعتبار الظاهرة احـدى عناصر الكلية البنائية . ومن ثم فانها تتساند بنائيا وتتساوق وظيفيا مع الكلية البنائية التى تعد المرجع النهـائى لسلبية ظهورها وفاعلية دورها . وتعتبر الظروف الاقتصـادية والعرقية والأسرية وظروف الأقليات هى الجزئيات التى ترتبط الظاهرة عادة بهـا .

واسـتنادا الى مجموعة المحاذير والاعتبارات السـابقة نستطيع التأكيد على أن النظـرية السوسيولوجية استطاعت تطوير مجموعة من الفروض العلميـة التى اعتبرتها أساساً صالحاً لامكانية تقـديم تفسير متكامل لظاهرة العنف فى المجتمعات النامية والمجتمع المصرى ، وهو التفسير الذى يمتلك علميته بالنظر الى معقـوليته المنطقية وصـدقه الواقعى أو الامبيريقى . وسوف نذكر فيما يلى بعضا من هذه الفروض أو التفسيرات .

(أ) فرض سيادة العنف فى بناءات التنمية والانتقال : مدلول هـذا الفرض هو التأكيد على بناءات التنمية ، وكذا عملية الانتقال الدينامى من نمط بنائى الى آخر ـ سواء كان هـذا الانتقال راديكاليا أو تدريجيا ـ باعتبارها تشكل مناخا ملائماً لنمو مشاعر الاحتجاج ذلك لأنه من شـأن

هـذه الفترات سـيادة عمليات كثيرة من التخلى والاكتساب . مما يجعل العقل أو السلوك الاجتماعى فى مرحلة معينة يتم فى اطار حالة من الأنومى ، أو ما يسـمى بحالة انعدام القاعدة ، ومن شأن هـذه الحالة أنها تولد القلق والارتباك ومن ثم التوتر . بل ان هـذه الحالة قد تؤدى الى شـعور بعض الجماعات بالحرمان اذا قارنت اسهاما بامتيازات غيرها من الجماعات الأقل اسهاما . كل ذلك يولد حالة من التوتر والشعور بالحرمان والظلم . ومن ثم السخط ومحاولة التخلص العلنى من هـذا الحرمان أو الاعلان عن هـذا السخط . أو من خلال فرض بعض القواعد التى تحكم مسار الفعل على المستوى الشخصى ، وذلك مادامت القاعدة البنائية نهائية . وقد يؤدى هـذا الفرض الشخصى للقواعد الى التصادم ومصالح الآخرين ، مما يولد العنف . الى جانب ذلك فقد تحاول بعض الجماعات التخلص من هـذا الوضع غير المحكوم بقاعدة والذى يسوده التناقض عن طريق اجراءات ثورية وعنيفة .

(ب) ارتفـاع معدلات العنف فى فترات التوتر الاجتماعى : يؤكد مضمون هـذا الفرض أنه اذا تخلقت فى فترة معينة بعض مصادر التوتر فان ذلك سوف يؤدى الى ارتفاع نسبة وقائع العنف فى اطاره . وقد تفرض مصادر التوتر على المجتمع من خارجه . وقد يكمن أساسها فى تخلق تناقض بين عناصره الأساسية المكونة ، كامكانية ظهور تناقض بين قيم الثقافة من ناحيـة وتفاعلات الواقع الاجتماعى من ناحيـة أخرى . أو تخلق بعض الصعوبات داخل الواقع تعوق اشـباع الشخصية لحاجاتها ، بحيث يخلق هـذا الموقف عدم رضاء من الشخصية على السياق المحيط (*) .

(*) اذا نظرنا من خلال هـذا الفرض الى المعطيات المتعلقة بالوقع المصرى فسوف نجد تعرض بناء المجتمع فيما بعد قيام الثورة لبعض الاجراءات التى كانت تهدف الى اجراء تغييرات معينة فى الواقع الاجتماعى ، أو الى فرض قيم ثقافية جديدة تحكم الواقع الاجتماعى ، مع امكانات التناقض التى ظهرت خـلال هذه المرحلة ، هذا بالاضافة الى فاعلية الجماعات المتطرفة أيديولوجيا وثقافيا . بحيث قام العنف بينها وبعضها البعض ، =

(جـ) تميل الظاهرة الى الانتشـــار فى السياقات الحضرية : ويؤكد هـــذا الافتراض على امكانية انتشار ظاهرة العنف فى السياقات الحضرية ، خاصـــة حضر المجتمعات النامية وذلك لعاملين : ويتمثل العامل الأول فى أن هـــذه السياقات تعانى عادة من ظروف كثيرة تفرض الحرمان كعدم توفر الضرورات اليومية بالدرجة الملائمة والكافية كالمواصلات مثلا . وانخفاض مستوى الخدمات والاختناقات السلعية . هـــذا الى جانب تواجد السلطة المســـئولة عن ذلك (كالشرطة وســـائر الأجهزة الحكومية) داخل المناطق الحضرية ، وهو الأمر الذى يوفر امكانية الصدام اما بفعل عجز الجهاز الادارى عن آداء مهامه نحو الجمهور أو بسبب تضخم حجم التوتر المتراكم والمختزن . هـــذا فى حين يؤكد العامل الثانى على امكانية قيام العنف فى السياقات الحضرية ، وذلك باعتبارها السياقات الجاذبة للمهاجرين من كافة أنحاء المجتمع . ومن ثم فهى تمثل الســـاحة التى تتواجد فيها جماعات متباينة ثقافيا ، وذلك من شأنه أن يخلق امكانيات الصدام بينها . هـــذا بالاضافة الى أن هـــذه الجماعات تتشكل عادة من أقليات ذات هويات محددة وذات موقف جماعى اذا حدث تهديد من الخارج عليها ، يؤكد ذلك أحداث العنف فى كلا من القاهرة والاسكندرية . الى جانب ذلك فاننا نجد أن الأحياء الشـــعبية هى أحياء المهاجرين الذين الى جانب معاناتهم من مشـــكلات السياق الحضرى يعانون مشـــكلات التكيف المتوتر مع السياقات والثقافات الجـــديدة .

= أو بين أى منها والسلطة . وهو الأمر الذى أدى الى خلق كم هائل من التوتر . خلال هـــذه الفترة تعرض المجتمع لبعض الظروف الخارجية التى أضافت الى مخزون التوتر لديه كالضغوط الاقتصادية التى مارستها القوى الرأسمالية ، والاستنزاف الاقتصادى لحرب اليمن ، وآثار هزيمة يونيو ١٩٦٧ . بحيث جعل كل ذلك الواقع الاجتماعى صعبا وموترا ويعانى من المشـــكلات . ذلك كله يبرر ارتفاع معدلات العنف بعد ١٩٦٧ ، حيث ارتفاع مخزون التوتر ، وبروز مشروعية مساءلة السلطة ، ومن ثم كانت هناك دائماً امكانيات عالية للتصادم .

(د) فرض الحرمان النسبى : ويؤكد هــذا الفرض على قيام علاقة بين الشعور بالحرمان النسبى وبين امكانية المشاركة فى أحداث العنف . وتفسير ذلك أن الحرمان النسبى يشير الى الشــعور بحالة من الاحباط الدائم وعدم الاشباع برغم توقع ذلك والطموح اليه . ويختلف الحرمان النسبى عن الحرمان المطلق من حيث أن هــذا الأخير تتم صياغته نظاميا فى بناء الشخصية ، كرضاء النســاء بمكانتهن الدنيا بالنظر الى الرجال فى معظم المجتمعات فيما يتعلق ببعض الامتيازات . وعدم اقدام الفئات الشــديدة الفقر على التخلص من هــذا الوضع . كذلك الصغار فى مكانتهم بالنسبة للكبار . بيد أن البناء الاجتماعى قد يتعرض لمجموعة من الظروف التى تعمل على تحويل الحرمان المطلق الى حرمان نسبى . وهنا يرتفع مستوى التوقع . وفى حالة عدم توفر الاشباع الملائم فانه يؤدى الى حالة من عدم الرضا أو الشــعور بالحرمان بالنظر الى الامتيازات التى تتمتع بها جماعات تحتل نفس المكانة وتؤدى نفس قدر الاسهام أو أقل منه . وبذلك يؤكد افتراض الحرمان النسبى أنه كلما زادت الفجوة اتساعا بين التوقعات وامكانات الاشــباع كلما أدى ذلك الى امكانية القيام بمحاولة ايجابية تتسم بالعنف والاندفاع للقضــاء على هــذه الفجوة الكائنة .

(هـ) فرض انتشــار العنف بين الشــباب كفئة عمرية : ويؤكد هــذا الفرض على أن فئة الشــباب أكثر فئات المجتمع امكانية المشاركة فى حوادث العنف الثورة . ويرتكز هــذا الفرض على أساس أن الشــباب هم الفئة التى تتسم علاقاتها بالبناء الاجتماعى بنوع من الاتصال والانفصال. فهم على اتصال بالبناء الاجتماعى لكونهم الفئة صاحبة الدور الرئيسى فى العملية الانتاجية — وخاصــة فى المجتمعات التقليدية والنامية ، والى حد ما فى المجتمعات المتقدمة — ومن ثم فاسهامهم بارز فى العملية الاجتماعية . هــذا بالاضافة الى كونهم أصــحاب مجتمع المستقبل الذى يتخلق نقيا بالغاء سلبيات الحاضر . وهم على انفصال وهــذا البناء ، لأن بناء شخصياتهم لم تتم صياغته نظاميا بصورة كاملة بعد . فهم ليسوا كالشيوخ الذين

حدثت لهم هـــذه الصياغة النظامية التى تيسر حركتهم وفق قواعد المجتمع وتقاليده ، وهو الأمر الذى سلبهم الايجابية الثورية . وهم ليسوا كالصغار وانفصالهم النسبى عن بناء المجتمع . وذلك لأنهم مازالوا بعيـــدين عن المشـــاركة باســـهام فى التفاعل الاجتماعى والعمليات الاجتماعية السائدة . مجمل علاقات الانفصال والاتصال هـــذه أن هناك تفاعلا ديناميا بين فئة الشـــباب وبناء المجتمع ، تجعل الأولى ذات حساسية خاصـــة لأى تأثير قد يطرحه البناء عليها .

بالاضافة الى ذلك نجد أن بناء الشخصية فى اطار المرحلة الشبابية يكون ناقصا من حيث الاكتمال . هـــذا بالاضافة الى أن بناء الشخصية خلال هـــذه المرحلة يكون أكثر حساسية لمتغيرات الواقع المتجـــددة . ومن ثم فهو يجعلها أقل ارتباطا بما هو كائن وأكثر ارتباطا بما ينبغى أن يكون . وفى اطار الهوة بين ما هو كائن وبين ما ينبغى أن يكون يتراكم عدم اشباع الحاجات الأساسية للشخصية . ومن ثم تتكثف التوترات التى تعانيها الشخصية فى حياتها عبر هـــذه الهوة . فهى معانية ، قلقة ، وأقل استقرارا نتيجة لعدم تمثلها قدر المعايير والقيم الذى يؤسس استقرارها .

الى جانب ذلك فاننا نجد أن الشباب هم أصـــحاب الأدوار الناقصة . فهم كالطلبة أو الموظفين حديث التوظيف لم يدخلوا فى بناء الجهاز الادارى للدولة ، ومن ثم فلم تكتمل أو تتم صياغتهم مهنيا . ويؤدى نقص مجموعة الدور الخاصـــة بالشخص الى كونه يصبح أكثر حرية فى حركته الاجتماعية لأنه لم يتقيد بكل أدواره بشكل كامل بعد . وأيضا لأن نقص استكمال الأدوار يكون عادة نتيجة لظروف اجتماعية تحول دون ذلك ، وهو الأمر الذى يجعل روابط الشباب بالنظام القائم أقل كثافة اذا قورن بالشيوخ . من هنا يزداد العنف عند الشباب الأعزب عنه عند المتزوج ، وعند شباب الحضر عنه عند شباب الريف . وبقدر ما هو حظ البـــلاد النامية أن الغالبية العظمى من سكانها فى سن الشباب والانتاج ، فانه قدرها أيضا أن هـــذه السن هى

سن العنف والقلق وعـــدم الاستقرار فى ســـياق يتميز بالدينامية والتغير والاندفاع .

(و) فرض ميل الجماعات المحددة المعالم الى العنف : ويعد هـــذا الفرض من أهم الفروض المتعلقة بهذه الظاهرة • وهو لا يتعلق بالجماعات العنصرية لخاصيتها العنصرية . ولكن لكونها جماعات لها جذورها الواضحة داخل بناء المجتمع . اذ يؤدى التحدد الواضـــح لهوية هـــذه الجماعات والدرجة العالية لتجانسها الداخلى عادة الى نوع من التباين الحاد والسياق الخارجى المحيط . فقد تبالغ بعض الجماعات فى تحديد مكانتها والدور الذى تؤديه فى العملية الاجتماعية ، ومن ثم فهى قد تشـــعر بالحرمان النسبى اذا هى قارنت ما تناله بالنظر الى اسهامها ، أو بالنظر الى اسهام وامتيازات الجماعات الأخرى . واذا لم تكن المقارنة لصالحه فان ذلك قد يؤدى الى تولد بعض التوترات التى تتراكم لتخرج فى شـــكل انفجارى اذا تخلقت الظـــروف التى تؤدى الى تكثيف مشاعر السخط وعـــدم الرضاء بشـــكل حاد .

(ز) النساء أقل ميلا من الرجال للمشـــاركة فى العنف : وفقا لمـــا تؤكده كثير من الدراسات نجد أن النساء أقل ميلا من الرجال للمشاركة فى أعمال العنف الثورة . والى جانب أن ذلك يرجع الى الطبيعة الفسيولوجية والسيكلوجية الخاصـــة بالنساء ، فان هـــذا الفرض مشتق أساسا من فرض الحرمان المطلق الذى يخضع له النساء . والذى يؤدى الى خلق نوع من الشـــعور الداخلى بالدونية ، أعنى أنهـــم أدنى فى مكانتهن من الرجال • بحيث يصاغ هذا الشـــعور فى بنائهم الدافعى . بيـــد أن هذا الفرض يواجه صدقه فى المجتمعات النامية والمتخلفـــة حيث نجد أن مكانة الاناث أدنى من مكانة الذكور ، وذلك لظروف حضارية تتصل ببناء هـــذه المجتمعات . الا أننا لا نجد نفس الصدق يتوفر فى المجتمعات المتقدمة التى تتساوى فيها مكانة الاناث والذكور . بحيث تنتظم هـــذه المساواة فى بناء شخصية النســـاء . من هنا نجد مشاركة الاناث للرجال بنفس القدر فى

تشكيل جماعات الهيبيز واليسار فى أمريكا . أما المجتمعات التى لا تشهد هـذه المساواة ؛ ومع ذلك تسـودها مشاركة الاناث للذكور فى حوادث العنف والثورة ، فان تفسـير ذلك يرجع الى أنه تحدث مساواة عابرة للمكانات عن طريق انتشار حالة من الأنومى فى بناء المجتمع . حيث تختلط حدود المكانات ويتحول الحرمان المطلق الى حرمان نسبى يوفر الأساس للمشاركة فى احداث العنف والثورة اذا زادت حدة التوقعات . ذلك يفسر مشاركة النساء فى الثورة الفرنسية الكبرى ويفسر أيضا ثورات النساء أخيرا فى معظم البلاد الأوربية لتساوى مكانتهن مع الرجال .

خامسا : العنف فى المجتمع المصرى طبيعته وديناميانه

١ ـ اسـتنادا الى الاطار النظرى لفهم العنف فى مجتمعات العالم الثالث فقد تأكد لنا أن ظاهرة العنف تعتبر أحد مؤشرات عدم الاستقرار الاجتماعى ، سواء كانت بنية المجتمع هى المصدر الأساسى لعدم الاستقرار ، او سواء كانت الجماعة القائمة بالعنف لها من الملامح والبناء الشخصى ما يجعلها مؤهلة لارتكاب أفعال العنف من هـذا القبيل ، أو أن مثير العنف قد يرتبط بالطرف الذى يشكل هدفا لهذا العنف ، سواء كان النظام السياسى برموزه هو هدف العنف أو سواء كانت احدى الجماعات التى يضمها البناء الاجتماعى هى الهدف المستهدف .

وأيا كانت طبيعة ومصداقية القوانين التى تحكم التفاعلات الداخلية للعنف ، فانه من المؤكد أن المجتمع المصرى قد تعرض فى السنوات الأخيرة لمجموعة من الظروف والعوامل التى جعلته مؤهلا لتفريخ التفاعلات الملائمة لوقوع هـذه الظاهرة فى اطاره . بحيث يمكن القـول انه قد تخلقت فى التاريخ المصرى الحديث مجموعة من الظروف التى أسست فى المجتمع المصرى امكانية عالية لقيام هـذا النمط من الأحداث ، وسوف نعرض فيما يلى بعضا من هـذه الظروف .

فعملية التحديث التى بدأها المجتمع منـذ بداية عهد محمد على ، والتى بدأت تتعمق بجرعات التحديث المتعددة التى قدمت فى عصر الخديوى اسماعيل ، وفى أعقاب الاحتلال البريطانى ، وبحصول مصر على الاستقلال فى ١٩٢٣ . ثم ببدء التنمية الوطنية الشـاملة فى أعقـاب ثورة ١٩٥٢ . وبالاضافة الى ردود الفعل التى تفرضها تحديات التحديث فان التحديث المشوة يشكل فى العادة مناخاً أو اطاراً ملائما لتكاثر العنف . حيث تطورت عمليـة التحديث المصرية فى اطار ما يمكن أن يسمى بالبنـاء المزدوج . وفى هـذا الاطار لم يستهدف التحديث الانتقـال بالمجتمع من مرحلة الى أخرى من خلال عمليـة الاستدال البنائى والوظيفى ، ولكنه اتجه الى خلق بناءات تضم نظما ومؤسسات حديثة تؤدى وظائف حديثة الى جانب نظائرها القديمة . ولقد هيأ ذلك لقيام العنف ثلاثة عوامل . أولها أنه وان اتجهت الصفوة السياسية قديما الى خلق الثنائية بدلا من الاستبدال تجنبا للصدام بين القديم والحديث . وهو الصدام الذى قد يهدد مكانة الصفوة ، خاصـة فى الفترات التاريخية التى تتمتع فى اطارها البناء والثقافة التقليدية بقوة وبأس شـديدين . والثانى أن هـذا الوضع خلق احتمالات وامكانيات متعددة وربما متناقضة لاشباع ذات الحاجة الاجتماعية وهو التناقض الذى قد تتبدى آثاره على المستوى الاجتماعى فى صدام أو على المستوى الشخصى فى صورة توترات مختزنة . أما الثالث فيرجع الى أن عملية التحديث على هـذا النحو قد أدت الى خلق بنائين اجتماعيين ، يرتبط بهما نمطين من الشخصية لكل منهما توجهاته المناقضة لتوجهات الآخر ، وهو الأمر الذى أسس فى بناء المجتمع امكانية للانفجار فى أى لحظة تتوفر فيها الظروف الملائمة لهذا الانفجار ، يشهد على ذلك الصدامات الاجتماعية والتاريخية التى تحدث دائمـاً بين أصحاب التوجهات التقليدية والحديثة .

وتشكل عملية التحضر التى مر بها المجتمع المصرى ظرفا آخر ملائما لقيام العنف . واذا كان التحديث قد أصيب بالازدواجية البنائية فان التحضر هو الآخر قد أصيب بالتشـوه وهو شـكل التحضر الذى يتم فى اطاره التركيز على مجموعة من المـدن الأساسية دونما بقية المجتمع . واذا نظرنا

الى المجتمع المصرى فسوف نجد تركيز التحضر فى العواصم التى قطنت بها السلطات الاستعمارية وبدأت تمارس دورها السياسى فى الضبط والسيطرة من خلالها . أو أن التحضر قد تم فى مجموعة من المدن لاعتبارات عسكرية بحته وذلك مثل التحضر الذى أصاب مدن القناة لتركز قوات الاحتلال بها . ثم تحضر بعض المدن بالنظر الى طابعها الاقتصادى ، مثال على ذلك التحضر الذى أصاب المحلة الكبرى ، كفر الزيات ، الاسكندرية ، وذلك لاعتبارات جمع القطن وحلجه وتجهيزه وتصديره الى مصانع النسيج الانجليزية .

استخلاصا مما سبق نجد أن التحضر المشوه يركز على بعض قطاعات المجتمع أو سياقاته دون أخرى ، وهو الأمر الذى يؤدى فى النهاية الى وجود بنائين اجتماعيين غريبين على بعضها البعض برغم تضحنهما فى اطار وحدة بنائية واحدة . وهو الأمر الذى يؤدى أيضا الى انطلاق موجات الهجرة من القطاع الريفى المتخلف — والذى يعيش السكان فى اطاره فى مستوى فرص الحياة النادرة — الى الحضر والمدن الأساسية — حيث وفرة فرص الحياة — والنتيجة الطبيعية لذلك تكدس المهاجرين على أطراف المدن الأساسية ، أو فى الأحياء الشعبية ، وبذلك يكون الحرمان اليومى الذى تعانيه هذه الجماهير فى مواجهة الطموحات حول الاشباع المحتمل سببا فى الاحباط والتوتر الذى يعتبر المدخل الطبيعى للعنف ، حيث السلطة التى يعتبر سببا لعدم الاشباع قائمة وموجودة وهناك احتكاك يومى بها . وهو الأمر الذى يخلق كما أشرنا ظرفا ملائما للعنف .

وتعتبر الزيادة السكانية هى الأخرى أحد الظروف الأساسية المهيئة فى مجتمعات العالم الثالث ، ومنها المجتمع المصرى . ذلك أن الزيادة السكانية — فى حالة غياب النظام السياسى الذى يمتلك وعيا تنظيميا كافيا — تصبح عبئا على المجتمع لضخامة الاحتياجات التى ينبغى أن تشبع ، سواء تلك المتعلقة بالمسكن أو الغذاء أو المواصلات أو الصحة أو التعليم . ذلك فى مواجهة دول مثقلة الميزانية ومحدودة الموارد . وهو الأمر الذى

يعنى حرمان أغلب الســكان من اشباع معظم حاجاتهم الأساسية أو على الأقل توفير حد أدنى من الاشباع عند مستوى الكفاف بالنسبة لحاجات غالبية الســكان . وهو الأمر الذى ســوف يعنى مزيداً من المعاناة ، والشعور بالاحباط والتوتر ، وهى — كما أشرنا — تشكل المناخ الملائم لقيام العنف . بالاضافة الى ذلك نجد تميز البناء الديموجرافى لمجتمعات العالم الثالث ، والمجتمع المصرى ، بالطابع الشــبابى ، حيث نجد أن غالبية الســكان من الشباب . وهو الأمر الذى يجعل هــذا البناء الســكانى مهيأ للعنف وذلك لعاملين . من ناحية لأن الشــباب هم الشريحة العمرية التى يتسع فيها حجم الاحتياجات التى ينبغى اشباعها ، فالشباب هم الذين يحتاجون الى الدخول الملائمة ، والى الاســكان والى مختلف فرص الحياة ، فاذا عجز البناء عن توفير قدر من الاشباع لهذه الاحتياجات فان ذلك سوف يعنى مزيداً من التوتر . هــذا بالاضافة الى أن الشباب بحكم بناء شخصيتهم عادة ما يكونوا خاضعين لعملية تشــكل وهى عمليــة موترة بلا شك ، ومن شــأنها أن تضاعف مخزون التوتر اذ لم تجد اشــباعاً لحاجاتها . هــذا الى جانب أن الشباب هم الفئة العمرية الأقل من حيث مستوى الصياغة النظامية والخضوع للمجتمع ، ومن ثم فهم أكثر الفئات امكانية لتحدى النظام الاجتماعى والمؤسسة الاجتماعية المسيطرة . وهو الأمر الذى يجعل من عنصر الســكان فى بناء المجتمعات النامية عنصراً من عناصر عدم الاستقرار .

ويلعب النظام التعليمى دوراً رئيسيا فى خلق الظروف البنائية الملائمة للعنف . فبسبب انكماش فرص العمل والدخل فى اطار القطــاع الريفى بسبب ضيق وثبات مساحة الأرض الزراعية المتاحة من ناحية ، وبسبب فتح النظام التعليمى أبوابه لعامة الشعب من ناحية أخرى ، أصبح النظام التعليمى القنــاة التى يمر من خلالها أبناء المعدمين أو الطبقة الزراعيــة المتوسطة بحثا عن الحراك الاجتماعى الافقى والرأسى على الســواء . ومن ثم التحقت أعداد هائلة بالتعليم — كوسيلة للحراك — . وقد أدى ارتباط النظام التعليمى بالنظام الاقتصادى والمهنى . الى ظهور شريحة عريضة فى المجتمع نالت حظا من التعليم لكنها لم تحقق طموحاتها الاقتصادية

فى الحياة الاقتصادية الأكثر ترفا . ومن الطبيعى أن تشكل هـذه الشريحة جوهر الطبقة المتوسطة ، وهى أكثر الطبقات اتساعاً وفعالية . وهى الطبقة التى تعيش وضعا متناقضا وموترا بين الطموحات التى تطلقها فيما يتعلق بالاشباع المحتمل ، وبين واقع الحرمان والمعاناة التى تعيشها ، وهو الأمر الذى يضع هذه الشريحة الى جانب أى شرائح اجتماعية قد تقدر العنف(*) . أو على الأقل ممارستها للعنف الكامن عن طريق الانسحاب من المشاركة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى النظام القائم .

ويتصل الدور الذى يلعبه الدين فى هـذه المجتمعات بالظروف التى من المحتمل أن تؤدى الى العنف . فمن المسلم به أن الدين يحتمل مكانة جوهرية فى تراث وثقافة وبناء هـذه المجتمعات . ومن ثم فالدين يقدم تصوراً متكاملا لما ينبغى أن يكون عليه سلوك الفرد والمجتمع المسلم . وهو الأمر الذى يتصادم بالتأكيد مع التصور العلمانى الحديث لذات السلوك . بحيث يؤدى تخلق التناقض على هـذا النحو الى احتمال تأسيس العنف داخل بناء هـذه المجتمعات بين الصفوة الدينية من ناحية وبين النظام السياسى وعلى رأسه الصفوة العلمانية من ناحية ثانية ، أو بين الصفوات العلمانية وبعضها البعض من ناحية ثالثة ، أو بين الصفوات الدينية والمحافظة من ناحية رابعة . وهو الأمر الذى يجعل الاعتقاد والشعور الدينى أحد أسباب العنف فى هـذه المجتمعات . هـذا الى جانب أن وجود الطوائف الدينية المتعددة ، من شأنه أن يؤدى الى اندلاع العنف فى بناء هـذه المجتمعات خاصة اذا توفرت مجموعة من الظروف الأخرى التى تساعد على ذلك .

(*) فى الفترة التى بدأت بسنة ١٩٧٠ وانتهت فى ١٩٨٠ ، وهى الفترة التى تبنى المجتمع خلالها فلسفة الانفتاح الاقتصادى ، أدت السلع المعروضة (الطموح فى الاشباع المحتمل) ، وانخفاض الدخل الفردى الى اننا وجدنا كثيرا من فئات الموظفين والمثقفين يتقدمون مطالب فئوية تتعلق بزيادة المرتبات ، أو ظروف العمل . بل ان بعضها قد بلغ به الأمر الى التهديد بالاضراب والامتناع عن العمل ، وهو الأمر الذى يعتبر مستوى أو مرتبة من مستويات العنف .

يضاف الى ذلك معاناة النظام السـياسى فى مجتمعات العالم الثالث من ظاهرة الشرعية الناقصة أو افتقاد الشرعية . وهو الأمر الذى يدفع هـذه الأنظمة بحثا عن الشرعية الى البحث عنها من خلال اطر مرجعية غريبة عن مجتمعاتها وهو الأمر الذى قد لا تستوعبه الجماهير . أو أن هذه النظم قد تسـتخدم القهر السياسى ، وحرمان الجماهير من المشاركة ، هـذا الى جانب ابتعادها عن الممارسة الديموقراطية الصريحة ، وهو الأمر الذى يجعل الجماهير خاضعة بكل وسـائل القهر الممكنة . بحيث أن ذلك من شأنه أن يؤسس الميكانيزمات المؤسسة للتوتر فى بناء المجتمع ، بحيث يدفع ذلك الجماهير الى العنف فى حالة وجود أى أزمة قد يواجهها النظام السـياسى والتى من شأنها أن تهز شرعيته الناقصة أساسا . ومثال على ذلك قيام الجماهير (الطلبة) بالعنف فى ١٩٦٨ فى مصر احتجاجا على الأحـكام التى صدرت ضد العسكرين المسـئولين عن النكسة . وكذلك تظاهرات الطلبة والشـباب بميدان التحـرير فى مصر ١٩٧٢ ، حينما تبدى عجز النظام السـياسى — رغم وعوده — عن مواجهة القضية الوطنية المتمثلة فى احتلال أجزاء من الوطن .

يضاف الى ذلك مجموعة الظروف اليومية التى تعيشها المجتمعات النامية — والمجتمع المصرى — والتى من شأنها أن ترفع من رصيد التوتر الاجتماعى — المرحلة الضرورية لقيام العنف — ويلعب العامل الاقتصادى دوراً أساسيا فى هـذا الصدد مثل ارتفاع الأسـعار بما يتجاوز قدرات الجماهير ، وهو الأمر الذى يعتبر هو المسـئول — الى جانب توفر ظروف أخرى — عن انفجار العنف فى بعض مناطق المجتمع المصرى خلال أحداث ١٨ ، ١٩ ينـاير ١٩٧٧ . هـذا بالاضافة الى أن تخمة الأسـواق بالسلع المعروضة فى مواجهة انخفاض مستويات الدخول من شأنه أن يؤدى الى الشـعور بالحرمان والانفجـار فى حالة توفر الظـروف المهيئة لذلك ، كما حدث فى ذات أحداث ١٩٧٧ . هـذا الى جانب عجز النظام السياسى عن توفير حل للمسألة الاجتماعية فى عمومها والاقتصادية بصفة خاصة .

بحيث يؤدى ذلك الى ابراز فشل النظام السياسى فى تقديم الحلول الملائمة لمشـــكلات الجماهير ، مما يطرح امكانية اتباع ســـلوكيات العنف ضد هـــذا النظام .

بالاضافة الى ذلك يلعب النظام العالمى دوراً رئيسيا فى اثارة العنف أو تهدئته فى أبنية مجتمعات العالم الثالث . وذلك باعتبار أن المجتمع المصرى — كأحد مجتمعات العالم الثالث — يحتل مكانة محددة فى اطار النظام العالمى . وهناك بعدين للدور الذى يمكن أن يلعبه النظام العالمى . وفى اطار البعد الأول نجد أن النظام العالمى قد يلعب دوره فى اثارة العنف عن طـــريق مد بعض الجماعات المؤهلة لارتكاب العنف بالدعم المـــادى والمعنوى ، ومثال على ذلك الدعم الذى تلقته مختلف الجماعات الدينية فى مصر أثنـــاء الفتنة الطائفية والعنف الدينى فى الفترة الأخيرة من أطراف عديدة تنتمى الى النظام العالمى والاقليمى . وهو ما يعنى أن النظام العالمى قد يلعب دوراً فى اثارة العنف بصفة عامة .

غير أن النظام العالمى قد يلعب دوراً يتناقض تماما وهـــذا الدور . حيث نجد أنه قد يعمل على التقليل من التوترات المهيئة لقيام العنف . ويمكن القول بأن البلاد البترولية المحيطة بالمجتمع المصرى قد لعبت فى فترة ســـابقة ١٩٧٠ — ١٩٨٠ دور صمام الأمان بالنســـبة لانفجار العنف . فقد كان من الممـــكن أن يؤدى انخفاض الدخول ، ونقص فرص العمل ، وتعقد مشـــكلات الاسكان والمواصلات وغير ذلك الى تأسيس احتمالية عالية لانفجار العنف ، غير أن تخلق فرص العمل والدخل المرتفع وامكانية الهروب من البناء الموتر والمثير للعنف أدى الى سحب فتيل الاشتعال من الموقف بل ان القوى التى كان من المحتمل أن تكون هى قوى العنف ، أصبحت بعد الهجرة ، من أهم عوامل صياغة الاستقرار داخل واقع المجتمع المصرى .

ما ســـبق اذا يبرز مجموعة من الظـــروف البنائية التى يســـاعد تواجدها ، أو تخلقها واســـتمرار فاعليتها الى ظهور وقائع العنف التى

قد تبدأ بمجموعة من الوقائع المتناثرة على المستوى الفردى ، ثم تتصاعد لكى تشكل كثافة فى فترة تاريخية بعينها من حيث اطراد وقوع هذه الحوادث، أو من حيث ارتفاع عـــدد الأفراد المشاركين فيها . وسوف نحاول ذلك من خلال استعراض السياقات الاجتماعية المختلفـــة المتصلة بالعنف فى المجتمع المصرى ٠

(١) العنف فى المجتمع المصرى
تحليل للسياق التاريخى

نحاول فى هـــذه الفترة استعراض أحداث العنف فى المجتمع المصرى كوحدة أساسية للتحليل — بالنظر الى السياق الاجتماعى والتاريخى لفترة تاريخية بعينها ، للبحث فى طبيعة العوامل التى ظهرت فى اطار هذا السياق التاريخى ، بحيث كان العنف الذى انفجر خلال ذات الفترة نتيجة لها ودالة عليهـــا . وسوف نعرض لهـــذه العوامل والظروف فى أربعـــة فترات تاريخيـــة متباينة .

(أ) ففى الفترة الأولى وهى الفترة الســـابقة على ثورة ١٩٥٢ . حيث الموقف الاجتماعى الذى يتضمن مجموعة من الأطراف والتفاعلات التى تدور بينهم ، وهى التفاعلات التى تدعم قيام العنف . فقد كان النظـــام السياسى الحاكم يضم العنصر الأجنبى المتمثل فى الادارة البريطانية الى جانب الملك ووزرائه باعتبارهم العنصر الثانى المكون فى بناء النظام السياسى. ومن الممكن القول بأن سياق ما قبل الثورة قد امتلأ بأسباب عديدة مثيرة للعنف . منهـــا وجود المستعمر ذاته باعتبـــاره نوعا من التحدى للارادة الوطنية ، هذا الى جانب انتشـــار الفساد الاجتماعى الشامل فى النظام السياسى والادارى الوطنى ، ذلك فى مقابل حرمان الجماهير من اشباع حاجاتها الأساسية . بحيث شكلت هـــذه الظروف مصدر الهام لكثير من أحداث العنف التى انتشرت فى كافة أنحـــاء المجتمع ومجالاته العـــديدة . ولأن القضايا المثيرة للعنف كانت وطنية بالدرجة الأولى واجتماعية بالدرجة

الثانية . فقد وجدنا حوادث العنف توجه تارة ضد المستعمر المحتل أو صفوة النظام السياسى التى لم تختلف كثيرا عن المستعمر من حيث توجهاتها الأيديولوجية . وهو العنف الذى يتخذ عادة الطابع السياسى . بينما نجد أن هناك بعض حوادث العنف ذات الطابع الاجتماعى والموجهة أساساً ضد رموز الاقطاع فى المجتمع مثال على ذلك حركة الفلاحين وثورتهم ضد الاقطاع فى بهوت وكفور نجم فى محاولة لرفع المظالم عن كاهلهم .

ونظرا لتنوع أسباب العنف ومثيراته خلال هذه المرحلة فقد كان منطقيا أن تتنوع قوى العنف أيضا فتارة نجد أن جماعة المثقفين العلمانيين وبخاصة الطلبة تشكل القوى الرئيسية فى العنف الموجه ضد الاستعمار والصفوة السياسية المتعاونة معه . وتارة أخرى نجد أن الصفوة الدينية والتيار الدينى هو الذى يقود العنف ضد قوى الاستعمار حفاظا على التراب الوطنى أو ضد الصفوة العلمانية لتباين التوجهات الأيديولوجية . وتارة ثالثة نجد أن الجماهير العريضة والتى تعانى من الحرمان فيما يتعلق باشباع حاجاتها اليومية هى التى تثور على رموز الظلم والقهر القريبة منها . مثلما حدث فى اضطرابات الفلاحين فى بهوت وكفور نجم ضد سادة الأرض من رجال الاقطاع ، رفضا للظلم وسعيا لتحقيق قدر ملائم من الاشباع .

(ب) وتشكل الفترة من ١٩٥٢ — ١٩٦٠ فترة بنائية وتاريخية ذات طابع متميز ، حيث ظهرت فى اطارها مجموعة من الظروف المثيرة للعنف ، الذى قامت به بعض قوى هذه المرحلة .

١ — من هذه الظروف أن الحركة الثورية التى قامت كرد فعل للفساد الذى ساد مجتمع ما قبل الثورة ، وجدت أن عليها مواجهة كافة ظواهر الفساد هذه . ولتحقيق هذا الغرض نجدها قد اتجهت الى اصدار بعض القواعد والقرارات التى تحاول فى مجموعها أن ترسم موقفا أيديولوجيا محددا له رؤيته الواضحة لطبيعة الواقع الاجتماعى الذى ينبغى

أن يتأسس ، وملامح الخصائص التى يجب أن تسوده . فى اطار هــذه المرحلة صدرت قوانين الاصـــلاح الزراعى ، وأيضــاً مجموعة القوانين والقرارات التى حاولت اصـــلاح البناء الســـياسى هــذا الى جانب مجموعة من القرارات والقوانين التى تيسر خلق بعض الظـــروف الملائمة لاشباع الجماهير لحاجاتها الأساسية .

ذلك يعنى أن جماعة الثورة فى هــذه المرحلة كانت تحاول فرض بداية منطق أيديولوجى جديد . ومن المنطقى أن هــذا التوجه الأيديولوجى الجديد سوف يضر بالمصالح التى اكتسبتها بعض الفئات فى مجتمع ما قبل الثورة (قوى الاقطاع الزراعى وبعض المسيطرين على الحياة السياسية) . وفى ذات الوقت يمنح قوى اجتماعية أخرى بعض الامتيازات التى لم تكن لها ومن ثم يخلق لها مصلحة فى استمرار النظام الجديد (جماهير الفقراء ، والفلاحين المعدمين ، وشرائح عريضة من الطبقة العاملة) . وهو الأمر الذى يشيع بالتأكيد درجة عالية من التوترات التى تتجمع لتنفجر فى اطار بعض الجماعات التى أضيرت بعض مصالحها كقوى الاقطاع أو التى أثار العصر الجديد بعض طموحاتها كجماهير الفقراء من الفلاحين والعمال .

٢ ـــ نظرا لطبيعة التوجهات العلمانية التى تبنتها الصفوة السياسية فيما بعد ١٩٥٢ فانه كان عليهـــا أن تحاول اخضاع المؤسسة الدينيـــة والصفوة المسيطرة عليها ـــ وهى فى ذلك تعتبر استمرارا لمـــا قبلها . هـــذا الى جانب أنه بسبب ضعف شرعيتها نجدها قد اتجهت لدعم نفسها بالشرعية الدينية ، حيث كانت معارك التنمية تحارب باســـم الدين والنضال مع قوى الاحتلال يتم تحت شعارات دينية (*) ذلك يعنى أن النظام السياسى لثورة يوليـــو حاول اســـتخدام الدين كوســـيلة لكسب الشرعية للنظام

(*) على سبيل المثال حينما وقع العدوان الثلاثى على مصر فى ١٩٥٦ نجد أن الزعيم عبد الناصر ألقى خطابه من الأزهر محاولا تعبئة الجماهير من خلال عاطفتها الدينية .

السياسى ، ولتبرير سلوكياته التنموية والسياسية ، وهو الأمر الذى لم توافق عليه الصفوة الدينية التى ترى ضرورة خضوع الدولة والمؤسسة السياسية للدين وليس العكس ، ومن ثم كان ذلك أحد مبررات التوتر والعنف والصدام بين النظام السياسى من ناحية وبين أصحاب التوجه الدينى (الاخوان المسلمين) من ناحية أخرى .

٣ — يضاف الى ذلك التصفية التى خضع لها النظام السياسى فى ١٩٥٤ ، وهى التصفية التى انتهت بتأكيد الزعامة الفعلية لناصر فى مقابل اضعاف الفريق المؤيد لمحمد نجيب بل وتحديد اقامة الأخير . وهى الأحداث التى ساعدت على قيام أحداث العنف داخل صفوف الحركة الثورية ، أو رفض الجماهير فى بعض الأحيان لبعض التغيرات التى تمت على مستوى القمة ، وهو الأمر الذى دفع بعض فئات الجماهير فى بعض الأحيان الى السلوك الذى يتميز بطابع العنف . هذا الى جانب أن ذلك قد دفع بطبيعة الحال الى اضافة كميات جديدة لمخزون التوتر القائم .

٤ — وفى أعقاب معركة ١٩٥٦ ، تعمق الحظ الأيديولوجى الثورى على المستوى الداخلى ، وهو الأمر الذى بدأ ينعكس على طبيعة القوانين والقرارات التى صدرت خلال هذه المرحلة (قوانين الاصلاح الزراعى مثلا) . هذا الى جانب أن النظام الثورى بدأت تتضح معالم هويته السياسية على الصعيد العالمى . ولقد دفع هذا التطور الجديد الى مزيد من الاجراءات التى استهدفت فى مجموعها استكمال بناء السياق الاجتماعى الجديد على أنقاض القديم . هذا الى جانب أن هذه الفترة قد تميزت ببداية فاعلية بعض المتغيرات الخارجية على الواقع المحلى . منها مثلا تخلق أو بروز فاعلية بعض الجماعات ذات التوجه الأيديولوجى التابع لأيديولوجيات عالمية خارجية . وبغض النظر عن الصدامات المحتملة بين الجماعات ذات التوجهات الأيديولوجية المتباينة أو بينها فى مجموعها من ناحية وبين النظام السياسى من ناحية أخرى ، فاننا نجد أن هناك بعض الأحداث الخارجية التى أضافت الى مخزون التوتر الاجتماعى خلال هذه

الفترة . فمثلا أدت واقعة الانفصال بين مصر وسوريا الى صدمة قومية تلقتها جماهير الداخل حيث طرحت بعض جماعاته تساؤلات تتعلق بمدى قدرة الصفوة على انجاز الفعل السياسى ، وأيضا مدى سلامة توجهاتها الأيديولوجية خاصة عناصرها ذات الطابع القومى . بحيث نجد أنه وان لم تنفجر حوادث العنف الصريحة خلال هذه المرحلة الا أن الأحداث التى وقعت والظروف القائمة كان من شأنها أن ترفع من مخزون التوتر القائم فى المجتمع .

(جـ) وتشكل الفترة من ١٩٦١ وحتى ١٩٧٠ — وهى الفترة التى تميزت باعلان التوجيهات الاشتراكية — الفترة التاريخية التى تميزت بطبيعة خاصة وبعض الظروف الخاصة المولدة للعنف . حيث تتحدد ملامح هذه الفترة من خلال الملامح التالية :

١ — كرد فعل لعدوان ١٩٥٦ ، ومراوغة الاقطاع الداخلى وواقعة انفصال الوحدة بين مصر وسوريا اتجه النظام الثورى الى تعميق توجياته الأيديولوجية ، حيث صدرت مجموعة القرارات الاشتراكية التى حددت بشكل نهائى هوية النظام السياسى . وقد تضمن ذلك مزيدا من التوتر من قبل الفئات التى أضيرت مباشر من هذه القرارات . من هذه الفئات كبار الملاك ، أصحاب المصانع والمؤسسات وهى فئات ذات توجه أيديولوجى مضاد بطبيعة الحال . ذلك على المستوى الداخلى . أما على المستوى الخارجى فقد بدأ النظام السياسى فترة جديدة من العداءات والتحالفات على الصعيد العالمى . مع احتمالية أن تعمل بعض القوى العالمية المضادة على اثارة بعض الجماعات الداخلية التى تتجانس أيديولوجيا معها ، أو أن تعمل قوى عالمية أخرى على دعم مراكز الجماعات الداخلية التى ترتبط بها أيديولوجيا . ولقد كان من المنطقى أن يتكثف التوتر داخل بناء المجتمع ، وهو التوتر الذى قد يدفع أحيانا الى انفجار بعض أحداث العنف الا أنه قد يبقى مختزنا فى أحيان كثيرة .

٢ — فى أعقاب اعلان النظام السياسى عن توجهاته الأيديولوجية الاشتراكية ، كان من شأن ذلك أن يثير حفيظة الجماعات الأيديولوجية الأخرى . فهو من ناحية يثير حفيظة القوى الدينية أولا للطبيعة العلمانية لهذا التوجه الأيديولوجى ، وثانيا لطابع الملحد — كما يذهب أصحاب التوجه الدينى — وهو من ناحية أخرى يثير حفيظة الجماعات الشيوعية أو الاشتراكية لأنها رأت أن التوجه الاشتراكى للنظام السياسى ليس بالعمق الأيديولوجى الكافى والقادر على مواجهة مشكلات الجماهير . فهى ترى أن الاشتراكية العربية أو الاسلامية اطارا لا يمتلك نفس الحسم والوضوح الذى تمتلكه الاشتراكية العلمية . ومن ثم وجدنا صراعاً متجددا بين الجماعات ذات التوجهات الأيديولوجية وبعضها البعض من ناحية ، وبينها ، أو بين أى منها وبين النظام السياسى من ناحية أخرى .

٣ — فى ١٩٦٧ ضربت القوى العالمية المعادية ضربتها القاصمة بوقوع هزيمة يونيو ١٩٦٧ . وذلك بعد أن مهدت لذلك باستدراج العسكرية المصرية فى اليمن . ومن ثم توسيع نطاق الاستنزاف العسكرى هناك . وأيضا لاستنزاف الاقتصاد المصرى بالتكاليف الباهظة لهذه الحرب . وكنتيجة لصدمة يونيو بدأت مرحلة جديدة من التوتر لأنه شمل الجماهير التى قام النظام الثورى ليعمل لصالحها . وبدأت شرائح جماهيرية عديدة تشعر بأنها قد عاشت فى مرحلة من الخداع الهائل والأوهام التى لا أساس لها . وفى هذا الصدد يمكن تفسير تشبث الجماهير فى ٩ ، ١٠ يونيو ليس باعتباره تمسكا بالنظام السياسى الذى فشل فى مواجهة العسكرية ، ولكن باعتباره تشبث الخائف من عدو كان يمكن أن يتواجد بيننا وليس فى سيناء البعيدة . بحيث يمكن النظر الى المظاهرات التى اندلعت فى ١٩٦٨ — عقب اعلان أحكام الطيران — باعتبارها تعبيراً عن الغضب المبدئى الموجه نحو النظام السياسى . وقد حاولت القيادة السياسية استيعاب مشاعر القلق هذه عن طريق مسارعتها الى اصدار بيان ٣٠ مارس الذى وعد بعالم جديد من الحرية السياسية والشخصية فور انتهاء المعارك . وكان ذلك فى محاولة للالتقاء بوجدان الناس وآمالهم (٤٥) .

٤ ــ فرضت أعباء المعركة لتحرير التراب الوطنى توجيه كل موارد المجتمــع الى الاعداد العســكرى ٠ وفى هــذه المرحلة توقفت التنميــة الاجتماعية بل أن هنــاك بعض التقــارير التى ذهبت الى أنها بدأت تحقق معدلات ســالبة بلغت ٥ر٢٪ (٤٦) ٠ ولقد كان من شأن ذلك أن يضيف الى مخزون التوتر توترات جديدة ٠ فبسبب الظروف الاقتصادية القائمة كان من الضرورى فرض قدر من الحرمان على اشباع الحاجات الجماهيرية ، هــذا الى جانب بداية ارتفــاع الأســعار وظهور السوق الســوداء ، وظواهر اختفاء الســلع وهى التفاعلات التى أدت فى مجموعها الى معناة الجماهير من التوتر ، ووضعها على طريق العنف اذا هى قد وجدت الطريق الذى يبرر ذلك .

بالاضــافة الى ذلك أكدت القوانين العســكرية خلال هــذه الفترة على التجنيد الشــامل للشباب . وبخاصة الشباب المثقف فى محاولة لتوفير امكانية التدرب على الأســلحة الحديثة والمعقدة . ولقد كان ذلك يعنى بالنسبة لشريحة عريضة من الشباب ، تلك التى التحقت بالجهد العسكرى ، وتلك التى كانت فى انتظار الالتحاق ، توقف الحيــاة ، فلا عمل ولا زواج ، ولا مسكن الا بعد الانتهاء من هــذه المعضلة . وهو الأمر الذى أضاف الى التوتر القائم قدراً هائلا وجديداً من التوتر المختزن ، الذى قد تعود أحيانا الى بعض أعمال العنف على المستوى الفردى ، أو قد يتصاعد ليصنع عنفا جماهيريا عاما اذا تخلقت الظروف الملائمة لذلك .

بل انه يمــكن القول أن الاندفاع العســكرى فى ١٩٧٣ الى جانب اعتباره مســتندا الى آمال التحــرير ، الا أنه كان الى حد كبير تفريجا لتوترات مختزنة على صعيد الشــخصية المصرية بحيث شــكل التوتر دافعا قويا لهذا الاندفاع العســكرى الهائل ، فى محاولة ضمنية للتخلص من الظروف التى خلفته .

(د) وتشـــكل الفترة من ١٩٧١ وحتى ١٩٨٠ فترة ثانية تميز فى اطارها الســياق الاجتماعى ببعض الملامح الخاصـــة التى خلقت فى اطاره بعض مصادر التوتر أيضا .

١ — ويعتبر تغيير التوجه الأيديولوجى أبرز ملامح هـــذه المرحلة برغم الاعلانات التى قدمها النظام الســياسى حول اعتبار ذاته مجـــرد اســتمرار للنظام الســـابق (الناصرى) ولم يكن الهدف من ذلك سوى الاســتفادة مرحليا من الشرعية التى امتلكها النظام الســياسى القائم ، بل اننا نجد أن الســـادات خلال هـــذه المرحلة يحاول تمرير شـــعارات أيديولوجيته الجديدة . فقد أعلن الســـادات فى اجتماعه بممثلى الغرف الصناعية والتجارية بفتح الطريق أمام رأس المـــال الخاص وأن الرأسمالية لم تعد فى مصر جريمة (٤٧) . هـــذا الى جانب ســـخريته فى مكان آخـــر من تقسيم الدول العربية الى رجعية وتقدمية . بالاضافة الى أنه قد ظهرت أصوات خلال هـــذه الفترة تحاول انشـــاء الجامعة الأهلية بمصروفات ، وأيضا المناقشات المتعلقة بالغاء الحراسة وتعديل قوانين تأجير المساكن والأراضى الزراعى (٤٨) والتراخى النسبى فى الأخذ بالتزام الدولة بسياسة تعيين خريجى الجامعات . ولقد كان من شأن ذلك أن يثير مخاوف عديده لدى بعض الجماعات ، خاصـــة الجماعات ذات التـــوجه الناصرى التى ناصبت النظام الســـياسى الحالى العداء . هـــذا الى جانب بداية توتر وخوف بعض الفئات على مكاسبها كصغار الفلاحين ، والفلاحين المعدمين والطبقة العاملة ، وبدأت بذلك مرحلة جديدة لتصاعد التوتر الاجتماعى .

٢ — فى ١٥ مايو ١٩٧١ قام النظام الســـياسى بالقضاء على رموز الناصرية — من خلال ما أعتبره ثورة تصحيح — حيث تمكن من تجميد نشاط معظم الأشـــخاص الذين شاركوا فى ادارة النظام الاجتماعى والســـياسى فى مرحلة عبد الناصر . وفى مقابل ذلك حاول النظام الســـياسى أن يؤسس شرعيته من خـــلال بعض الاعلانات المتعلقة بحماية الحرية ، وســـيادة القانون ، وهو الأمر الذى أدى الى نتائج غير متوقعة من وجهة نظر النظام

الليبرالى الجديد ، فهو من ناحية قد أثار حفيظة كل القوى ذات المصلحة فى النظام السياسى والاجتماعى السائد فى المرحلة الناصرية ، بحيث نقلها الى معسكر أعداء النظام . ومن ناحية أخرى فقد أدت اعلاناته المتعلقة بالحرية والديموقراطية وسيادة القانون الى ارتفاع موجة النقد الذى يصل أحيانا الى حد ارتكاب العنف اتساقا وافتراض الحرمان النسبى . حيث أتاحت هذه المرحلة امكانيات الطموح والتطلع الى مستويات أعلى من الاشباع ، ذلك فى مواجهة عدم توفر التسهيلات الواقعية التى تيسر حدوث هذا الاشباع . ومن ثم تصبح هذه العلاقة غير المستقرة بين المكونين مصدراً جديدا للتوتر ، ومن ثم لامكانية ارتكاب العنف تحت وهم أن بامكان الفرد أو الجماعة تجاوز هذا الحرمان النسبى من خلال آلية العنف .

٣ — من حيث المعاناة الاقتصادية شكلت هذه المرحلة امتدادا للمرحلة السابقة . حيث تجلت مظاهر هذه المعاناة فى ارتفاع الأسعار ، وسوء مستوى الخدمات ، استنادا الى أن كل شىء موقوف للمعركة . وفى ظل هذه المعاناة كان على الضمير الجماعى أن يراجع سلوك النظام السياسى ، من منطق القلق والخوف من تصرفاته . وفى اطار هذه المراجعة يتأكد له أن الانفصال قد حدث لأن النظام السياسى قد عجز عن توفير الظروف الملائمة لنجاح الوحدة ، والاقتصاد قد اهتز بسبب حرب اليمن التى كانت محاولة لاستنبات الثورة فى أقل المواقع نضجا من حيث الوعى الثورى . وتمرغت الوطنية المصرية فى الوحل بسبب نكسة ١٩٦٧ . وتغيير النظام السياسى لتوجهاته الأيديولوجية قد يعنى عودة النظام السياسى لضرب الجماهير ذاتها . بحيث يقود تذكر تسلسل الأحداث على هذا النحو الى نمو التوتر ومشاعر القلق والخوف التى تقود الى الرفض فى صورة مظاهرات واحتجاجات تقودها شرائح الطلبة والعمال باعتبارها الفئات الأكثر معاناة أو الأقدر حركة . بل ان الجماهير ذاتها أصبحت أكثر وعيا ومراقبة لسلوك النظام السياسى . ومن ثم يمكن

اعتبار النكات التى ظهرت فى هــذه المرحلة التاريخية ــ والمرحلة السابقة عليهــا ــ باعتبارها عنفا لفظيا يتولى نقد الصفوة السياسية وتشخيص سلوكها . ومن ناحية أخــرى باعتبار أن النكتة قناة لتفريغ التوترات . ومن ثم فمدى اعتبار النكتة لاذعة يعبر عن كم التوتر المختزن وعن قدر العنف المستهدف ضد النظام السيــاسى والصفوة الحاكمة .

٤ ــ وقد أدى اعــلان النظام الســياسى للانفتاح الاقتصــادى والاجتماعى والســياسى باعتباره يشــكل أساس توجهاته الأيديولوجيــة الجديدة ، الى اثارة جماعات المصلحة المرتبطة بالنظام الســياسى السابق ذو التوجهات الاشتراكية ، وهى جماعات الفلاحين المعدمين والطبقة العاملة ، ومن ثم ادراكها أن النظام الســياسى الحالى مضاد لأمانيها . هــذا الى جانب ان الانفتاح الاقتصــادى دفع الى بعض الممارسات المثيرة لحفيظة الجماهير كاغراق الأســواق بالسلع المســتوردة التى تثير لعاب الاستهلاك لدى جماهير تعانى من حرمان تاريخى قائم ومستمر . هــذا الى جانب بداية الاثراء الطفيلى لبعض الفئات ، وهى الظاهرة التى روجت لها الصــحافة تحت مفاهيم « القطط الســمان » وأثرياء الانفتاح ، والانفتاح الاستهلاكى . بحيث توفر ادراك لدى الجماهير بأن النظام الســياسى أصبح يخدم مصالح البرجوازية وأســقط من اهتماماته أية التزامات ذات طابع جماهيرى . وهو الأمر الذى يفسر انتشــار مشاعر القلق والسخط والرفض لدى جماهير عريضة فى المجتمع المصرى يؤكد ذلك أحداث ١٨ ، ١٩ ، التى امتدت من القــاهرة وحتى أســوان ، وبنها والاسكندرية وبورسعيد حينما حاولت الحــكومة الغاء الدعم عن بعض الســلع مسقطة بذلك التزاما جماهيريا أســاسيا .

٥ ــ واذا كان الأخذ بالانفتاح الاقتصادى بالنسبة للنظام الســياسى الجديد (٧٠ ــ ١٩٨٠) يعنى اسقاط التوجه الاشتراكى الذى التزم به النظام لســياسى القائم . فان زيارة الســادات للقــدس فى ١٩٧٧ بدت لجماهير وكأنها اسقاطا للبعد القومى العــربى الذى التزمت به المرحلة

الســـابقة (*) . واذا كانت الجماهير لم تقف منـــذ البداية معارضة لزيارة القدس أو لعقد معاهدة كامب ديفيد ، فلأنها اعتقدت — حسبما ذهب الاعلام يروج لذلك — أنه قد آن الأوان كى نتفرغ للتنمية الاقتصادية بالداخل .. فانه بعد فترة اكتشفت الجماهير أن هـــذا الانفتاح كان استهلاكيا وليس انتاجيا . ثم هو لصالح الفئة الطفيلية وليست لصالح الجماهير العـــامة والمنتجة والمعانية ، ثم أن النظام قد أسقط فى النهـــاية الالتزام القومى من حســـاباته . بحيث دفع ذلك الى العنف الذى مارسته جماعات عديدة . فأمام اثارة الاستهلاك قامت الفئات الشـــعبية ببعض سلوكيات العنف التى وصلت الى قمتها فى ١٨ ، ١٩ يناير ١٩٧٧ (*) . هـــذا الى جانب أن النظام قد أثار الرموز الدينية ، أولا بسبب زيارة الرئيس السادات للقدس وعقـــد معاهدة كامب ديفيد . وهو الأمر الذى رأته الجماعات الاســـلامية

(*) لا نعرف صدفة أو عن سوء نية ظهرت بعض المقالات خـــلال هـــذه الفترة تؤكد على الانتماء المصرى والفرعونى لمصر ، باعتباره الانتماء الذى لابد أن يراعى ولو على حساب الانتماء العربى ، وظهر هناك من يتغنى بروعة العلم المصرى الأخضر ذو الهلال والثلاثة نجوم . ولم تحاول القيادة السياسية الوقوف فى وجه هذا الاتجاه .

(*) من الملاحظات التى لاحظها الباحث لأحداث العنف التى قامت فى ١٨ ، ١٩ ينـــاير ١٩٧٧ . أولا تميزها بالطابع الشـــعبى حيث انتشار العنف فى الأحياء الشـــعبية الفقيرة مثل السـيدة زينب ، بولاق ، امبابة والكيت كات فى القاهرة دونما مشاركة من قبل ســـكان جاردن ستى والزمالك بالقاهرة ، باعتبارها مقرا للسكن الارستقراطية القديمة والمحدثة . وثانيا اتجاهها الى الرموز الاستهلاكية المثيرة لحرمان الجماهير . فمثلا كان عداء الجماهير يتجه بالأساس الى السيارات الخاصـــة الفارهة أو الى اعلانات محلات وبوتيكات الانفتاح المتلالئة ، وتحطيم زجاج واجهات شركات الانفتاح . ومن المدهش فى الأمر أن جماهير الكيت كات هاجمت المركز القومى للبحوث الاجتماعية باعتبار بنائه الزجاجى المكثف ، ولم تهاجم مستشفى الموظفين التى تقع على يساره أو الصيدليات الزجاجية التى تقع على يمينه ، وكأن هناك انتقاء واعيا من قبل العقل الجمعى للجماهير لرموز النظام التى ينبغى أن تصبح محلا للهجوم .

تفريطا فى حدود دينية ، هـذا الى جانب اثارتها بالسلوكيات الاستهلاكية التى بدأت تنتشر فى المجتمع ، الى جانب الهجوم السياسى الصريح على بعض أفكار الجماعات الدينية (**) وهو الأمر الذى أضاف الى مخزون التوتر القائم ، وهو المخزون الذى تزايد حتى انطلق الرصاص من سلاح بعض زعامات الجماعات الاسلامية فهو الرصاص الذى أودى بحياة الرئيس السادات كزعيم للنظام السياسى خلال هذه الفترة .

وبالنظر الى العناصر السابقة سوف نحاول استعراض مجموعة الاحصاءات التى أبرزتها تقارير الأمن العام فيما يتعلق بوقائع العنف فى المجتمع المصرى خاصة فى الفترة الواقعة بين ١٩٦٦ — ١٩٧٤ (*) فى محاولة للتعرف على طبيعة العلاقة بين الظروف السابقة التى عرضنا لها ، وحجم وقائع العنف التى وقعت فى اطار المجتمع المصرى . وبغض النظر عن المثالب التى تنتاب الاحصاءات الجنائية التى حصلنا عليها (*) باعتبارها مادة للتحليل العلمى فاننا قد حاولنا — بهدف الوصول الى فهم ملائم لطبيعة العنف فى المجتمع المصرى ، ولمزيد من القاء الضوء على التفاعلات الدقيقة للعنف ودينامية بنائه الداخلى — دراسة بعض قضايا العنف الشهيرة التى وقعت فى المجتمع المصرى (*) . بحيث ساعدنا ذلك على الوصول الى بعض التعميمات التى تصور الملامح العامة لظاهرة العنف فى التاريخ القريب للمجتمع المصرى . هـذا الى جانب القاء الضوء على بعض الجوانب الأخرى للظاهرة ، من حيث بنائها الداخلى والتفاعلات الدقيقة التى تقع بين عناصر الواقعة .

(**) دأب الرئيس السادات على مهاجمة السلوك الدينى للجماعات الاسلامية فى خطبه العامة كمهاجمة الحجاب الاسلامى باعتباره خيمة تلبسها الفتاة ولا يبيحها الاسلام . ومهاجمة الشيخ المحلاوى — الذى هاجم السادات وأسرته فى احدى خطبه بالاسكندرية — باعتباره كلبا ملقى به الآن فى السجن . أو مهاجمة الناصريين والجماعات الاسلامية معا باعتبارهم من الأرزال .

(*) يرجع اختيارنا للاستشهاد بالاحصاءات المتعلقة بهذه الفترة

لعدة أسباب نذكر أبرزها :

١ — أن احصاءات ما قبل ١٩٦٦ ليست متوفرة بالشـــكل الذى ييسر التحليل العلمى ، وقد بدأت احصاءات العنف تظهر تحت وقائع الشغب حتى ١٩٧٤ ثم توقفت ، وبدأ تدمج فى اطار مفاهيم انحرافية أخرى داخل اطار تقـــارير الأمن العام .

٢ — أن تحديد هـــذه الفترة وان تم لأسباب فنية محضة ومن ثم فهو مفروض من الخارج . الا أن الصـــدفة البحتة هى التى تضمنت امكانية المعالجة العلميـــة لها . ذلك أنه خلال هـــذه الفترة وقعت أهم أحداث التاريخ المصرى القريب ، وهى الأحداث التى أثرت على بناء المجتمع بكامله . فاذا اعتبرنا عام ١٩٦٦ هو سنة البداية فاننا سوف نجد أن هزيمة يونيـــو قد وقعت فى ١٩٦٧ . وهى الواقعة التى كانت لها تأثيراتها البعيدة المدى على الوعى الجماهيرى المصرى . وقد تمثلت الحادثة الثانية فى انتصار أكتوبر ١٩٧٣ وهو الانتصار الذى استردت من خلاله الوطنيـــة المصرية كبريائها بتحقيق انتصار واضح المعالم على عدوها فى الصراع العـــربى الاسرائيلى ، وهى الأحداث التى غيرت من طبيعة العلاقة بين الســـلطة والجماهير داخل موقف التفاعل الاجتماعى ، هـــذا الى جانب أنه ابتداء من ١٩٧٣ بدأت تظهر معالم التوجه الأيديولوجى الجديد للنظام السياسى .

(*) بالاضـــافة الى أن احصاءات العنف تعبر عن وجهة النظـــر الشرطيه ســـواء فى تكييف الواقعة أو قيدها تحت بند الشغب ومقاومة السلطات . فان هذه الاحصاءات تعانى من مثالب أساسية نذكر منها ما يلى :

١ — فمثلا تعانى احصاءات العنف مما تعانيه احصاءات الظـــاهرة الاجرامية عموما فى مدى تعبيرها عن الحجم الحقيقى لمفردات الظـــاهرة . اذ غالبا ما يكون هناك كم من الوقائع لم يتم تســـجيله وهو ما أصطلح على تسميته بالوقائع المجهولة لاعتبارات اجتماعية وسياسية ، أو بهدف اظهار حالة أمن مستقرة . هـــذا بالاضافة الى عدم ظهور وقائع العنف التى لم تصل الى السلطات الرسمية فى الاحصاءات الرسمية .

٢ — ليس هناك تحديد واضح — عند القائمين على اعداد احصاءات الأمن وتصنيفها — لطبيعة الأركان الأســـاسية لواقعة العنف وذلك يرجع

الى حداثة الاهتمام بالواقعه أيضا لدخولها فى اطار تصنيف أكثر شـمولا كتصنيفها فى اطار جرائم مقاومة السـلطات . ومن ثم فان ناتج هـذه الاحصاءات لا يسـاعد كثيرا فى التشخيص الحقيقى لحجم الوقائع وأسبابها من وجهة النظر العلمية .

٣ ـ اغفال الاحصاءات الجنائية للبيانات الأساسية التى قد تفيد فى عمليـة التحليل العلمى . ذلـك لأن الاحصاءات الشرطية تهتم كثيرا بالبيانات المتعلقة بالمتغير الفاعل وليس المتهم أو المجنى عليه باعتبارهم بشرا لهم ملامح شخصية واجتماعية محددة . اذ لا توجد اية بيانات ذات أهمية تتعلق بمهنة مرتكبى العنف ، أو السن ، أو الديانة أو المسـتوى التعليمى ، والمسـتوى الاقتصادى ـ الاجتماعى هـذا الى جانب اغفال البيانات المتعلقة بالمجنى عليه كلية .

٤ ـ أن تصنيف البيانات الاحصائية ـ الشرطية ـ تم بالنظر الى وحـدات غير اجتماعية ، ولكن بالنظر الى الوحـدات الادارية كالمراكز والمحافظات ، ومثل هـذا التصنيف لا يسـاعد كثيراً على التحليل العلمى الدقيق . وذلك نظرا لاختلاط السياقات الريفية والحضرية داخل الوحـدة الادارية الواحدة . فليست هنـاك بيانات تتعلق بريف المجتمع المصرى أو سيئته الحضرى . مما كان من الممكن أن يلقى ضوءا على العنف الواقع فى اطار كل سـياق من لسـياقات والذى كان من الممكن أن يسـاعد على فهم العوامل والظروف المؤسسة للعنف أو الطبيعة التى يتميز بها .

٥ ـ غموض مصطلحات التصنيف الاحصائى ـ كما تبرزها الاحصاءات الجنائية ـ فمثلا فيما يتعلق بمكان الواقعة تسـجل على أنها (داخل أو خارج) وهو الأمر الذى يطرح غموضا . هل المقصود داخل الوحدة السكنية أم خارجها ، أم داخل المجتمع المحلى أم خارجه .

(*) بموافقة السيد النائب العام تم الحصـول على ملفات القضايا التاليـة ، باعتبارها أكثر الملفات اكتمالا وتم اخضاعها لتحليل مضمونها بما يجعلها قادرة على القاء الضـوء على بعض الجوانب التى أغفلتها

. . . .

الاحصاءات الجنائية . هـذا الى جانب أن هـذه القضايا قد روعى فى اختيارها أن تعكس السياقات الريفية والحضرية ، وهى القضايا التاليـة :

١ ـ القضية رقم ١٨٩٥ جنح بلبيس ١٩٧٣ .

٢ ـ القضية رقم ٥٠٤٥ جنايات السـيدة زينب ١٩٧٣ .

٣ ـ القضية رقم ١٩٠ مصر ، أمن الدولة العليا ، قسم الموسكى ، سـنة ١٩٧٤ .

٤ ـ القضية رقم ٤٢٨٣ جنايات روض الفرج سـنة ١٩٧٤ .

٥ ـ القضية رقم ٣٠ جنح عسكرية قسم الجيزة سـنة ١٩٧٣ والمقيدة تحت رقم ٦٠٧ جنح عسكرية ـ غرب القاهرة ، سـنة ١٩٧٤ .

٦ ـ القضية رقم ٦١٦ جنح قسم اللبـان سـنة ١٩٧٤ والمقيدة برقم ١٣٠ كلى سـنة ١٩٧٤ .

هذا وينبغى النظر الى نتائج التى وصلنا اليها من تحليل هـذه القضايا فى ضوء الاعتبارات التالية :

(أ) نقص عدد القضايا موضع التحليل مما يفرض الحذر من الاسراف فى الاعتماد على النتائج أو التعميمات التى قد نصل اليها من خلال تحليلها .

(ب) ان اجابات أطراف الواقعة فى تحقيقات القضايا عادة ما تتسم بدرجة عالية من الرشد بهدف تجنب المسـئولية أو الادانة ، ومن ثم فهى لا تعكس ديناميات التفاعل التلقائى الداخلى لواقعة العنف ، ثم هى لاتعكس القيم الحقيقية ، والسلوك التلقائى للانسان أو الجماعة التى ارتكبت العنف .

(ج) عادة ما ينتاب القضايا موضع التحليل تحريف للوقائع الحقيقية التى تشكل منطلقات أساسية لاثارة العنف . ومن ثم فعادة ما يعيد المشارك فى العنف جانيا ـ أو مجنيا عليه ـ ترتيب الوقائع تجنبا للادانة . ومن ثم فاذا أخذنا هـذه الاعتبارات بنوع من الاهتمام فان النتائج التى نصل اليها تكون كافية لالقاء الضوء على ظاهرة العنف ، خاصـة اذا كان ثمة اتفاق بينها وبين ما تذهب اليـه الفروض النظرية فيما يتعلق بطبيعـة العنف أو تفاعلاته الداخلية .

واســتنادا الى ما سبق نجد أن تتبع الظاهرة خلال الفترة التاريخية المشار اليها (١٩٦٦ — ١٩٧٤) يكشف أن حجم وقائع العنف فى هــذه السنوات قد بلغ نحو ٣٩٣ واقعة منها نحو ٣٧ واقعة فى ١٩٦٦ بنسبة ٤ر٩٪ من حجم الوقائع خلال هــذه الفترة . ثم تزايد العــدد ليصبح ٤٠ واقعة فى ١٩٦٧ بنسبة ٤ر١٠٪ ثم يرتفع فى ١٩٦٨ الى نحو ٤٤ واقعة بنسبة ٢ر١١٪ ثم الى ٥٦ واقعة فى ١٩٦٩ بنسبة ١٥٪ ثم الى ٥٨ واقعة بنسبة ٨ر١٤٪ فى سنة ١٩٧٠ ، ثم يتراجع الى ٤٤ بنسبة ٢ر١١٪ فى ١٩٧١ ، ثم الى ٤٢ واقعة بنسبة ٧ر١٠٪ فى ١٩٧٢ ، ثم الى ٤٤ واقعة بنسبة ٢ر١١٪ فى ١٩٧٣ ، ثم الى ٢٤ واقعة بنسبة ١ر٦٪ فى ١٩٧٤ .

ويكشف التتبع التاريخى لوقوع الظاهرة من حيث الحجم أنها بدأت فى الارتفاع ابتداء من ١٩٦٧ . فاذا أخذنا حجم الظاهرة فى ١٩٦٦ أساساً نقيس عليــه التغيرات التى وقعت للظاهرة حتى ١٩٧٤ . فاننا سوف نجد أن حجم الظاهرة فى ١٩٦٦ بالنظر الى حجمها الكلى فى فترة الدراسة بلغ نحو ٤ر٩٪ تزايدت فى ١٩٦٧ بنحو ١٪ وفى ١٩٦٨ بنحو ٨ر١٪ وفى عام ١٩٦٩ بمقــدار ٦ر٥٪ وفى عام ١٩٧٠ بنحو ٤ر٥٪ وفى عام ١٩٧١ بنحو ٣ر١٪ وفى عام ١٩٧٣ بنحو ٨ر٪ ثم نقصت فى عام ١٩٧٤ عنهــا فى ١٩٦٦ — سنة الأساس — بنحو ٣ر٣٪ . وفى اطار هــذه الفترة تبرز عدة ظواهر . وتتمثل الظاهرة الأولى فى الانخفاض المفاجىء لحجم الوقائع فى عام ١٩٧٤ . أما الظاهرة الثانية فتتصل ببدء الانخفاض التدريجى لوقائع العنف ابتداء من عام ١٩٧٠ وما بعدها . وتتصل الظاهرة الثالثة بالتزايد المطرد لظاهرة العنف الى سنة ١٩٦٦ باعتبارها سنة الأساس .

وفيما يتعلق بالظاهرة الأولى والتى تتعلق بالانخفاض المفاجىء لوقائع العنف فى سنة ١٩٧٤ ، فاننا نعتقد أن ذلك يرجع أساسا الى عدم استكمالى الاحصاءات الخاصــة بعام ١٩٧٤ . ومن ثم فالرقم الموضح لا يشير الى حجم الوقائع الفعلية التى وقعت . ولكن الى مجموعة الاحصاءات التى أمكن

الحصول عليها ، ومن ثم فلا يمكن اعتباره ذو دلالة احصائية بقدر اعتباره معبرا عن خطأ احصائى .

أما فيما يتعلق بالظاهرة الثانية والتى تتمثل فى اطراد ارتفاع حجم الظاهرة حتى عام ١٩٧١ ، ثم ميلها الى الانخفاض فيما بعد ذلك — وان لم تنخفض فى أى من السنوات عن سنة ١٩٦٦ باعتبارها سنة الأساس — فان ذلك يرجع الى أنه ابتداء من ١٩٧١ نجد أن الاحصاءات المتعلقة بمنطقة القناة (محافظات بورسعيد ، السويس ، الاسماعيلية) لم ترد ضمن الاحصاءات موضوع التحليل ، اذ يمكن اعتبار ذلك هو العامل المسئول عن هذا الانخفاض غير المنطقى ، وهو الأمر الذى يعنى ضمنيا أنه لو توفرت احصاءات محافظات القناة لاستمر معدل زيادة وقائع العنف فى الاطراد ، وذلك لاستمرار وجود الظروف والعوامل البنائية المولدة له فى السياق الاجتماعى .

تبقى الظاهرة الثالثة ، وهى الارتفاع المطرد لظاهرة العنف فى المجتمع المصرى حتى عام ١٩٧٤ بالنظر الى سنة ١٩٦٦ باعتبارها سنة الأساس ، بغض النظر عن الانخفاض المفاجىء الذى بدأ منذ عام ١٩٧٦ بسبب غياب الاحصاءات المتعلقة بمدن القناة . وفى هذا الصدد لا نعتقد أن الزيادة السكانية خلال هذه الفترة هى العامل المسئول عن الزيادة فى وقائع العنف . وذلك بسبب بسيط يتمثل فى أن نسبة الزيادة السكانية لا تتوازى ونسبة الزيادة أو الاطراد فى وقائع العنف وهى الزيادة التى بلغت نحو ٥ر١١٪ وان كان ذلك لا يمنع أن تكون الزيادة السكانية مسئولة عن قدر محدد من الزيادة العامة فى وقائع العنف .

ويمكن تفسير هذه الزيادة المطردة بعاملين . ويتمثل العامل الأول فى الآثار التى خلفتها هزيمة يونيو ١٩٦٧ على الواقع الاجتماعى . فابتداء من واقعة النكسة أعلنت القيادة السياسية أولوية معركة الثأر خلال هذه المرحلة ، تحت شعارات عديدة منها (لا صوت يعلو على صوت المعركة)

(وتحرير التراب الوطني أولا وأخيرا) بحيث اتجهت الدولة في ظل هذه الشعارات الى توجيه الاهتمام نحو اعادة بناء القوات المسلحة بهدف التحرير . وقد تطلب ذلك توجيه معظم موارد الدولة في اتجاه التعبئة العسكرية . وبطبيعة الحال كان ذلك على حساب معدلات خطة التنمية التي بدأت تحقق معدلات سلبية ابتداء من ١٩٦٩ . بالاضافة الى أن ذلك كان أيضا على حساب الضرورات المعيشية لرجل الشارع . ومن ثم تخلقت بعض الآثار التي جعلت الحياة صعبة بالنسبة لرجل الشارع كارتفاع الأسعار ، وانتشار ظواهر السوق السوداء واختناقات السلع ، وانخفاض مستوى الخدمات الأساسية التي تحتاجها الجماهير ، بحيث أدى ذلك كله الى انتشار مشاعر التوتر بسبب عجز النظام السياسي عن الانجاز على المستوى الداخلي ومن ثم تولد ما يسمى (بمخزون التوتر) الذي ينطلق عارما في حالة تواجد الموقف الملائم لانفجاره . على سبيل المثال مظاهرات الطلبة التي قامت في أعقاب اعلان أحكام الطيران . وتظاهرات العمال في حلوان ، وتظاهرات الطلبة المتكررة خلال هذه المرحلة .

ويتمثل العامل الثاني في أن المجتمع المصري بدأ في أعقاب هزيمة ١٩٦٧ يشهد حالة من عدم الاستقرار التي بدأت تتخلق في اطار المجتمع بفعل الهزيمة من ناحية وبفعل فشل النظام السياسي في تحقيق التنمية من ناحية أخرى . بحيث كان لهذه الآثار فعاليتها البارزة في نطاقين : الأول تأثر هيبة النظام السياسي والسلطة الحاكمة من حيث وضعها ومكانتها في اطار التركيب الاجتماعي ، بحيث انخفضت هذه المكانة — معنويا — الى المستوى الذي جعلها في متناول المساءلة من قبل الجمهور . في مقابل ذلك ارتفعت — بصورة تلقائية مكانة الجماهير — من وجهة نظر السلطة وهو الأمر الذي أدى الى خلق نوع من التوازن والندية بين الجماهير والسلطة باعتبارها العناصر المتفاعلة في الموقف الاجتماعي . واذا كانت الهزيمة وأزمة التنمية هي العوامل المسئولة عن تخفيض مكانة السلطة ، فان الحرمان التاريخي الذي عانت منه الجماهير ومطالب التقشف التي تفرضها متطلبات المرحلة

تعتبر هى العوامل التى رفعت من مكانة الجماهير فى مواجهة السلطة ، واذا كان الوضع المعتاد فى المجتمعات الشرقية أن تكون السلطة فوق الجماهير ، فان هذا الوضع قد اهتز ليمر بحالة استثنائية حيث الجماهير تحتل مكانة موازية لمكانة السلطة . ومن ثم تمتلك الأولى امكانية مساءلة أى من أجهزة السلطة ، (كالشرطة أو موظف التموين أو ناظر المدرسة أو طبيب الوحدة الصحية) والمساءلة تعتبر مدخلا الى النقد ، والنقد مدخلا الى العنف فى حالة اصرار السلطة على السلوك الذى لا يشرعه العقل الجمعى للجماهير .

وهو الأمر الذى يفسر انخفاض وقائع العنف فى فترات الاستقرار الاجتماعى وارتفاعها فى الفترات التى تشهد حالة من الفوضى الاجتماعية ، أو لنقل تلك التى تشهد انتشار حالة الأنومى .

٢ ــ ادراك العنف بالنظر الى متغيرات السياق الأيكلوجى

نقصد بالمتغيرات الايكلوجية مجموعة المتغيرات التى تشكل السياق الجغرافى بما تأسس عليه من عمران واجتماع بشرى . ومن ثم فسوف ينصب اهتمام هذه الفقرة على تحديد العلاقة بين مجموعة المتغيرات المرتبطة بفاعلية السياق المكانى والجغرافى وتأثيرها على الظاهرة بالارتفاع والانخفاض . مع محاولة ادراك هذه الظاهرة بالنظر الى السياقات الأيكلوجكة الفرعية . كالسياق الحضرى والسياق نصف الحضرى والسياق الريفى . وسوف تكون المحافظة هى وحدة التحليل فى هذه السياقات باعتبارها الطابع الغالب للمحافظة ، واستنادا الى قراءة الاحصاءات المتاحة تبرز لنا مجموعةء الملاحظات التالية .

(ا) هناك مجموعة المحافظات التى تنخفض فيها نسبة العنف الى أدنى مستوياتها اذا قورنت بنظيرتها فى المحافظات الأخرى . أو المتوسط

العام للجمهورية . ونستطيع أن نصل الى تحديد المتوسط العام من خلال تقسيم عـــدد وقائع العنف في هـــذه المرحلة الذى بلغ نحو ٣٩٣ واقعة على عدد المحافظات وهى ٢٤ محافظة . فاننا نجد أن المتوسط العام خلال هـــذه الفترة هو ١٧ واقعة . اســـتنادا الى ذلك توجد مجموعة المحافظات التى تنخفض النســـبة عن المتوسط العام ، وهى محافظات بورسعيد ، السويس ، الاسماعيلية ، وسيناء التى لم ترد احصاءاتها لظروف الاحتلال ، ومن ثم انقطاع الاحصاءات المتعلقة بها لفترة طويلة . هـــذا الى جانب انقطاع الاحصاءات بالنسبة للمحافظات الأخرى بسبب ظروف التهجير خلال الفترة التاريخية التى غطتها الدراسه .

بالاضافة الى ذلك هناك مجموعة ثانية من المحافظات التى انخفضت فيها نســـبة وقائع العنف ، وهى المحافظات التى تعـــانى من الكثـــافة الســـكانية كالوادى الجديد ومطروح وأســـوان . وذلك نظرا لانعزالها النسبى وبعدها عن مراكز التفاعل في المجتمع ، وأيضا لانخفاض كم التفاعل الاجتماعى بانخفاض عـــدد السكان . أو نظـــرا للرخاء النسبى كما في محافظة أسوان نتيجة لبناء بعض المشروعات ، كمشروع الســـد العالى ومجموعة المشروعات المكملة .

(ب) وجود مجموعة من المحافظات التى ترتفع فيها نسبة حوادث العنف عن المتوسط العام كأساس للقياس . وهى خمسة محافظات هى أســـيوط حيث بلغت عـــدد وقائع العنف بها نحو ٥٥ واقعة تمثل ١٤٪ من مجموعة وقائع العنف في الجمهورية خلال هـــذه الفترة والاسكندرية ٤٦ واقعة بنسبة ٧ر١١٪ ، والقاهرة ٣٧ واقعة تمثل ٤ر٩٪ ، الدقهلية وبها ٣٠ واقعة تمثل نحو ٦ر٧٪ ، ســـوهاج ٢٥ واقعة تمثل ٤ر٦٪ من وقائع العنف في الجمهورية خلال هـــذه الفترة .

ويرجع ارتفـــاع حجم الوقائع في هـــذه المحافظات الى عـــدد من العوامل بعضها يســـود بينها جميعا وبعضها يتعلق بالطبيعة الخاصـــة لأى من هـــذه المحافظات الخمس .

أول هـذه العوامل أن هـذه المحافظات تعتبر من المحافظات ذات الكثافة العالية بالجهورية . فتعدادها السكانى مرتفع ، فمثلا نجد أن القاهرة والاسكندرية تعتبر من أعلى المحافظات من حيث عدد السكان ، تليها الدقهلية فى الوجه البحرى . تأتى بعد ذلك سوهاج أعلى محافظات الوجه القبلى من حيث عدد السكان ، تليها أسيوط ، وبطبيعة الحال تزداد كثافة التفاعل الاجتماعى بازدياد عدد السكان . ومن ثم تنوع التفاعل الاجتماعى واختلافه وتناقض مجموعة القيم التى تحكم هذا التفاعل .

ويتمثل العامل الثانى فى أن هـذه المحافظات توجد بها جامعات منذ فترة طويلة — ما عدا سوهاج التى تأسست جامعتها أخيرا — كجامعة القاهرة وعين شمس والأزهر بالقاهرة ، ثم جامعة الاسكندرية بمدينة الاسكندرية وجامعة أسيوط بأسيوط . وجامعة المنصورة بالدقهلية . ومن شأن تواجد الجامعات أن يجعل هذه المحافظات مراكز تفاعل ثقافى وحضارى فى مستوى أعلى من المحافظات الأخرى . مع ما يخلقه هـذا الوضع من ظروف اجتماعية ، كحاجتها الى قدر أكبر من الخدمات قد لا يمكن توفيره فى ظل الظروف الاقتصادية والادارية القائمة ، هـذا الى جانب بداية افراز هـذا التفاعل لمجموعة من الظروف المؤسسة للتوتر كالتباينات القيمية التى انعكست على توجيهات السلوك المتناقضة . هـذا الى جانب الطموحات فى مواجهة الحرمانات والمشكلات الواقعية العديدة . وهى مجموعة من الظروف سوف تؤدى الى زيادة احتمالية حدوث العنف .

ويتعلق العامل الثالث بالطبيعة الخاصة لكل من هـذه المحافظات . فالقاهرة والاسكندرية عواصم للمجتمع ، هـذا الى جانب أنها تشكل عادة سياق التفاعل الثقافى والحضارى مع العالم الخارجى ، وذلك بالاضافة الى استئثارها بنصيب الأسد من التفاعل القائم فى اطارها . ثم هى السياقات التى يتجسد وجود السلطة فيها بشكل مركز . ثم هى أيضا السياقات التى قد لا تنجز الخدمات فيها بالمستويات المطلوبة . الى جانب

كونها الأطر الاجتماعية التى يتخلق فيها التناقض بين امكانية الانجاز والعجز عنه لظروف كثيرة أشرنا اليها ، أما محافظة أسـيوط فهى شـهيرة بكم الانحراف التى يقع فيها . حتى أن مركز أبنوب له سـمعته العالمية فى هذا الصدد . هـذا بالاضافة الى وجود ظروف اجتماعية تيسر وقوع العنف . وذلك مثـل وجود نوع من التعـادل فى الحجم الاجتماعى للجماعات على الأساس الدينى أو القومى أو السـلالى . ومن شأن هـذا التعادل أن يصاب بالاهتزاز أحيانا ومن ثم التوتر . على ذلك فاذا توفرت العـوامل المساعدة ، فان ذلك من شأنه أن يرفع من حجم الوقائع . هـذا بالاضافة الى أن سـوهاج تعتبر احدى محافظات الصعيد الواقعة بالمناطق الجبلية ، وتشاركها أسـيوط فى ذلك . ومن شأن هـذه الطبيعة الجغـرافية أن تطبع نفسـها على البشر ، هـذا الى جانب أن التضاريس الجبلية من شأنها أن تشـكل المـأوى الذى تختفى فيه عصابات العنف ، أو تقوم بحماية من ارتكب العنف فعلا .

(جـ) وتضم المجموعة الثالثة من المحافظات ، تلك المحافظات التى تقترب من المتوسط العام اما بالارتفاع عنه قليلا كما هى الحال فى قنا حيث نجد بها ٢٣ واقعة بنسـبة ٦٪ من مجموع الوقائع فى هـذه الفترة . والمنيـا ٢٣ واقعة بنسـبة ٦٪ أيضا والمنوفية ٢٠ واقعة بنسـبة ٥٪ وبنى سويف ١٩ واقعة بنسبة ٤ر٨٪ والبحيرة ١٨ واقعة بنسـبة ٥ر٤٪ . وقد يرجع الارتفـاع المحدود هنا الى مجمـوعة من الظروف المتنوعة . فمثلا نجد ان المنوفية أكثر ارتفاعاً من حيث عدد السـكان بعد القـاهرة والاسكندرية ، هـذا الى جانب أنها أكثر هـذه المجموعة من المحافظات من حيث عدد المتعلمين . ومن ثم فهى تمتلك مستوى ثقافيا وحضريا واضحا . أما بالنسـبة للمنيا ، فنجد أنها تشـبه كثيرا محافظة المنوفية من حيث مستوى التحضر ، هـذا الى جانب ارتقاء المستوى الثقافى بها نظرا لأن بها أيضا جامعـة ، مع ما يترتب على ذلك من مسـتلزمات الخدمات . هـذا بالاضافة الى الطبيعة الجغرافية الخاصة بمحافظات الصعيد مثل

سوهاج . الى جانب الطبيعة الجماعية والقبلية الخاصة بمثل هذه المحافظات . وذلك ينطبق أيضا على محافظة البحيرة التى تشترك مع المنوفية من حيث ارتفاع السكان ، وتتشابه من حيث الطبيعة الجغرافية والاجتماعية مع محافظات الصعيد .

أما المجموعة الثانية من المحافظات فهى تلك المجموعة التى تقترب من المتوسط العام أو تقل قليلا عنه ، وهى محافظة الغربية ، وبها ١٧ واقعة بنسبة ٤ر٣٪ من مجموع وقائع العنف فى الجمهورية فى الفترة موضع الدراسة . ومحافظة القليوبية وبها ١٦ واقعة بنسبة ٤٪ والجيزة ١٦ واقعة بنسبة ٤٪ وكفر الشيخ ١٠ وقائع بنسبة ٥ر٢٪ والفيوم ١٠ وقائع بنسبة ٥ر٢٪ ودمياط ٩ وقائع بنسبة ٣ر٢٪ . وقد يرجع انخفاض مستوى العنف فى هذه المحافظات الى انتفاء العوامل السابقة التى أدى توفرها الى ارتفاع نسبة العنف فى مجموعة المحافظات السابقة . فهى ليست محافظات تسودها كثافة سكانية عالية . ثم هى ليست محافظات تشهد مستويات تعليمية عالية بالنسبة الى المحافظات السابقة . هذا بالاضافة الى الطبيعة الخاصة لبعض محافظات هذه المجموعة . فالفيوم احدى محافظات الصعيد ومع ذلك تختلف عن باقى المحافظات من حيث خصائص التشكيل الجغرافى والاجتماعى . والجيزة لصيقة بالعاصمة الا أن أغلبية تكوينها تكوين ريفى ، هذا بالاضافة الى أن هذه المحافظات ما عدا محافظة الغربية ليست بها جامعات .. من ثم فهى محافظات ذات مستوى حضرى تنخفض الى حد ما عن المجموعة السابقة .

استنادا الى تحليل وقائع العنف بالنظر الى السياق الجغرافى نرى ضرورة ابراز ملاحظتين اساسيتين :

(أ) وتتمثل الملاحظة الأولى فى أن هناك اطرادا فى وقوع حوادث العنف على مدى التسع سنوات بمعدلات متقاربة . فأسيوط والقاهرة والاسكندرية وسوهاج اطراد وقوع الحوادث فى اطارها مدة الاحصاءات

موضع التحليل ، حيث لم يتخلف وقوع حوادث العنف سنة واحدة ، بينما وجدت مجموعة أخرى من المحافظات انقطع اطرادها أحيانا . فمثلا اطردت حوادث العنف فى محافظات قنا والدقهلية والمنيا ما عدا سنة واحدة ، ويعنى ذلك أن اطراد وجود حجم محدد ودائم من وقائع العنف يعطى الانطباع بأن هناك استمرارا لظروف بنائية يؤدى تواجدها الى نتيجة حدوث مجموعة وقائع العنف فى كل عام .

(ب) ونشير الملاحظة الثانية المتعلقة باستقراء احصاءات العنف الى امكانية تصنيف محافظة الجمهورية الى أربعة تجمعات . من حيث كثافة وقائع العنف بها ، وتوفر الظروف المهيئة لهذا العنف . ويضم التجمع الأول محافظات القاهرة والاسكندرية ، والجيزة ، حيث يصل متوسط عدد وقائع العنف التى تقع فى كل منها الى حوالى ٣٣ واقعة وبذلك يصل مجموع وقائع العنف فى المحافظات الثلاث الى نحو ٩٩ واقعة بنسبة ٢٥٪ من المجموع الكلى لوقائع العنف . ومن الواضح أن هذا التجمع يضم أكثر محافظات الجمهورية من حيث ارتفاع المستوى الحضرى والثقافى وازدياد الكثافة السكانية وارتفاع مستوى التعليم ، هذا الى جانب احتواء هذه السياقات على أجهزة الدولة البيروقراطية بالاضافة الى أجهزة السلطة السياسية . هذا الى جانب أنها سياقات جاذبة الهجرة الريفية بالنظر الى قدر فرص العمل والحياة التى تقدمه للمهاجرين . ثم أنها السياقات المتخمة بالاختناقات فى متطلبات المعيشة أو الخدمات الرئيسية الضرورية . وذلك يعنى أن التجمع الأول يتميز بارتفاع معدلات العنف بما يتجاوز ما هو قائم فى التجمعات الأخرى ففى اطار ثلاثة محافظات فقط يقع نحو ٢٥٪ من العنف الذى يقع فى الجمهورية .

ويضم التجمع الثانى نحو ١٥ محافظة وتتميز محافظات هذا التجمع بالطبيعة الريفية ، أى أن غالبية سكان هذه المحافظات من الريفيين . وتعكس هذه المجموعة خصائص الواقع المصرى الغالب من حيث المستوى الحضرى والمستوى التعليمى ، والكثافة السكانية . ومن ثم وجدنا أن

مجموع وقائع العنف بلغت نحو ٢٨٤ واقعة بنسبة ٧٢٪ من مجموع وقائع العنف فى المجتمع خلال فترة التحليل المختاره . بحيث يصل عدد وقائع العنف فى كل منها الى ١٩ واقعة بنسبة ٥ر٤٪ وهو مستوى يقترب كثيرا من المتوسط العام الذى يدور حول ١٧ واقعة بنسبة ٤٪ .

ويحتوى التجمع الثالث على مجموعة المحافظات الصحراوية ، وهى محافظتى مطروح والوادى الجديد ، وتصل وقائع العنف فيها الى خمسة وقائع بنسبة ٢ر١ ٪ ، بحيث يصل متوسط وقائع العنف فى المحافظة الواحدة الى نحو ٥ر٢ واقعة بنسبة ٦ر٪ وهى بذلك تقل كثيراً عن المتوسط العام للجمهورية الذى يصل الى ١٧ واقعة بنسبة ٤٪ . ولعل سبب هذا الانخفاض الحاد يرجع أساساً الى انخفاض الكثافة السكانية نظراً للطبيعة الجغرافية الصعبة فى هذه المحافظات مع ما يترتب على ذلك من انخفاض المستوى الحضرى نظرا لطبيعتها الصحراوية المنعزلة وكذلك انخفاض نسبة التواجد السلطوى فيها ، وسيادة القبلية والعشائرية وقوة الضبط الجماعى بحيث يؤدى تضافر هذه العوامل مجتمعه الى خفض نسبة الوقائع فى هذه المحافظات . هذا الى جانب أن هذه المحافظات تشكل مجتمعات محلية مكتفية بذاتها ، ومن ثم فهى التى تتولى حل صراعاتها الخاصة بها دون ابلاغها للسلطات المركزية أو الحكومية .

ويدخل فى اطار التجمع الرابع محافظات القناة وهى السويس والاسماعيلية وبورسعيد وسيناء الشمالية وسيناء الجنوبية . حيث بلغ عدد وقائع العنف التى وقعت فى اطارها نحو أربعة وقائع بنسبة ١٪ من المجموع الكلى لوقائع العنف بمتوسط ٣ر١ لكل محافظة بنسبة ٣ر٪ . ولعل هذه المحافظات تعتبر اكثر محافظات الجمهورية انخفاضا من حيث عدد وقائع العنف التى وقعت فى اطارها . بحيث يمكن ارجاع هذا الانخفاض الى أن وقائع العنف لم تسجل فى الاحصاءات العامة ابتداء من ١٩٦٨ بسبب ظروف الاحتلال التى أثرت على هذه المحافظات فدعت الى تهجير

ســكانها وتوزيعهم على مختلف محافظات الجمهورية ، مما يعنى اسهامهم فى نسب العنف المتعلقة بالمحافظات التى هاجروا اليها .

يبقى بعــد ذلك التعرض بالتحليل لأيكلوجيا واقعة العنف ذاتها ، أى ظاهرة العنف بالنظر الى مكان وقوع وقائعها . وفيما يتعلق بتوزيع وقائع العنف بالنظر الى مكان الوقوع . فاننا بداءة نجد أن نحو ٢٤ واقعة بنسبة ١ر٦٪ غير مبينة من حيث مكان وقوعها . أما بالنسبة لكم الوقائع الباقية فاننا نجد أنها وفقــا لاحصاءات وزارة الداخلية تنقسم الى وقائع حدثت داخل أو خارج المســكن . أما عــدد الوقائع التى تقع داخل المســكن فعددها يصل الى نحو ٢٨١ واقعة بنسبة ٥ر٧١٪ بينما يصل عــدد الوقائع التى وقعت خارج المســكن الى نحو ٨٨ واقعة بنسبة ٤ر٢٢٪ .

ولعل ارتفاع عــدد الوقائع الحادثة داخل المســكن يرجع بالأساس الى أن وقوعها قد يتطلب ذلك . فمثلا يصل عــدد وقائع العنف بهدف التخلص من مطاردة السلطات ليصل الى نحو ٢١٤ واقعة بنسبة ٥ر٥٤٪ . هــذا بالاضافة الى ٨٩ واقعة بنسبة ٦ر٢٢٪ توصف بأنها منع موظف عمومى من آداء عمله ، وعــدد ٢٦ واقعة بنسبة ٦ر٦٪ شخصت على أنها مقاومة السلطات . ومن الواضح أننا اذا نظرنا الى هــذه الأسباب الثلاثة الســابقة لوجدنا أنها تشــكل فى مجمهوعها نحو ٧ر٨٣ من مجموع وقائع العنف بينما نسبة ٣ر١٤٪ من الوقائع تعزى أساساً الى ١٣ ســببا أخرى . ومن الواضح أن الأسباب الثلاثة التى أشرنا اليها يتطلب وقوعها أن تكون داخل المسكن أساساً . فمنع موظف عمومى من آداء عملة اما أن يحدث داخل مكتب الموظف نفسه أو داخل مكان العميل (كالمحضر أو مفتش التموين ، أو ضابط الشرطة) . والتخلص من مطاردة الســلطات عادة ما يكون لأنها فاجأته داخل مســكنه . وتحكم نفس الظروف فى العادة مقاومة السلطات . ومن ثم تبرر هــذه الظروف الى حد كبير ارتفاع نسبة حوادث العنف الواقعة داخل المسكن .

أما الوقائع التى تقع خارج المســـكن فترتبط عادة بأســـباب تبرر الوقوع خارج المســـكن كالعنف بسبب الثأر والانتخابات والانتقام ، واحراج رجال الأمن ، والخصومات والمشاجرات وما الى ذلك من الأسباب التى قد تفرض وقوع العنف خارج المســـكن أصلا .

٣ ــ تفسير العنف بالنظر الى متغيرات السـياق الاجتماعى

أشرنا فى الصـــفحات الأولى الى أن التنمية الاقتصادية الاجتماعية اصبحت الآن ظاهرة عالمية ، بل ان البناءات الانتقالية ذاتها أصبحت خاصية يتميز بها نظامنا العالمى وتشـــكل مشكلته أيضا . ذلك يعنى أن هناك قطاع كبير من عالم اليوم يشخص بصورة حقيقية بأنه القطاع المتخلف فى هـــذا العالم . وأن هـــذا التخلف قد أصبح وجودا انسانيا دائمـــاً بعد أن كان من المفترض أن يكون وجودا انســـانيا عابرا . اذ كان من المفروض أن لا يوجد تخلف أو دوام لهذا التخلف . حيث كان من المفروض أن يحدث عبورا انتقاليا بدلا من دوام مجتمعات كثيرة فى عالم اليوم فى حالة انتقال دائم . ومأساة عالمنا أنه قد حدث فيه ذلك الذى كان ينبغى أن لا يحدث . ومن ثم اصبحت المجتمعات الخاضعة لهـــذه التفاعلات مهددة بضياع الهوية . واذا كان التخلف هوية مدانه ، فالانتقال هوية ممزقة لأنها تهدد بالقضـــاء على جزء من وجود المجتمع ، غير أنه اذا اســـتمر الانتقال أو التخلف فان لذلك معنى واحدا ، أن هـــذا المجتمع محكوم عليـــه بالفناء . وأيا كانت طبيعة عملية التغير أو الانتقال ، ســـواء كان تغيرا ثوريا انتقاليا وسريعا ، طفريا وحاسما ، أو كان تدريجيا يتيح امكانية الاستيعاب التدريجى لمتضمنات التغير دفعا للتطور باتجاه التقدم ، فالمؤكد أن الانتقال فيه رفض ، وفيه سعى للمستقبل ، وبحث عن اكتساب ما هو جديد وأكثر كفاءة . غير أن ذلك اذا طال أمده فانه سوف يعنى أن الرفض لم يتحقق ، وأن الاكتساب لمـــا هو جديد لم يتم ، ويعنى أيضا أن بناء المجتمع مازال يعيش فى حالة من عدم التوازن تهدد بالســـقوط فى هوة سحيقة ، يصبح الخروج منها فى

حد ذاته معضلة (٤٨) ولأن المجتمع المصرى يعتبر أحد المجتمعات التى تمر بعملية انتقال وتنمية ، بل طال دوامها خلال هـذه المرحلة فاننا نجد أنه قد عانى مما تعانيه هـذه المجتمعات ، وهى التفاعلات التى تفرز كثيراً من التوترات التى تشـكل التربة الملائمة لتكاثر أحداث العنف . وسوف نوضح ذلك من خلال الأبعاد الأساسية التالية فى اطار المجتمع المصرى .

(ا) عوامل اهتزاز التنظيم الاجتماعى .

(ب) السـلطة والمجتمع فى مرحلة الانتقال .

(جـ) ظاهرة العنف ، ملامحها الرئيسية .

(د) موقف العنف ، عناصره وطبيعة التفاعل فى اطاره .

وسوف أعرض بايجاز لكل من هـذه الأبعاد السابقة بهدف القاء الضوء على العنف الجماهيرى فى المجتمع المصرى .

(ا) عوامل اهتزاز التنظيم الاجتماعى .

وفى اطار هـذه الفقرة سوف نعرض لمجموعة من العوامل التى كان لها دورها فى العمل على اهتزاز توازن التنظيم الاجتماعى . واذا كنا نعتبر اهتزاز توازن بناء المجتمع يعتبر مؤشراً أو شاهداً على الحالة الانتقالية التى يمر بها بناء المجتمع ، وهى حالة صـحية من وجهة نظر التفسيرات السوسيولوجية المعاصرة . فان هـذه الحالة تصبح حالة مرضية يعانى منها المجتمع ، اذا قدمت له بجرعات تتجاوز قدرته على الهضم والاستيعاب . أو اذا استمرت العوامل الخالقة لها فى تخليقها ، بحيث تتصف بحالة من الدوام أو الاستمرار بدلا من ارتباطها بفترة تاريخية مؤقتة ومحـددة . واستنادا الى ذلك نعرض لبعض من هـذه العوامل .

١ — ويعتبر الانفصال الذى يحدث عادة بين السـياق الثقافى والقيمى من ناحية والسـياق الاجتماعى مجال الحركة والتفاعل من ناحية أخرى أحد العوامل المولدة للتوتر المؤدى الى العنف وذلك لاعتبارين . الأول أن

فرض منطق ثقافى وأيديولوجى جديد يستلزم من الواقع الاجتماعى ضرورة اعادة التشكل وفقا له . والثانى أن هذا الانفصال قد يعتبر شهادة على تخلف الاطار الثاقى والقيمى ذاته . ومن شأن هذا الانفصال اذا حدث أنه يفقد الثقافة والقيم فى المجتمع أية فاعلية لها . ومن ثم تكون عاجزة عن أن تشكل معايير للضبط والسيطرة على التفاعل الواقعى أو تحديد اتجاهه (٤٩) . ويؤدى ضعف بناء الثقافة والقيم وانهيار فاعليته الى تخلق الثقافات والأيديولوجيات الهروبية التى تؤسسها الجماعات ذات الانتماءات المتباينة ، والتى تسود بينها امكانيات الاختلاف والتوتر والتصادم أكثر من احتمالات الالتقاء والوحدة . ومن ثم يعتبر ذلك دالة على وجود نوع من عدم الاتساق فى بناء المجتمع .

٢ — ويشكل انتشار حالة الأنومى أحد العوامل الهامة فى هذا الصدد . وتختلف حالة الأنومى عن حالة انفصال الثقافة والقيم عن التفاعل الاجتماعى . حيث تعنى حالة الأنومى ضعف القاعدة الثقافية والأخلاقية نتيجة لعدم امتلاكها لجهاز ثواب وعقاب فعال . أو أن حالة الأنومى قد توجد بسبب التواجد المعى لكم هائل من القواعد الثقافية والمبادىء الأيديولوجية المتنوعة وربما المتناقضة ، والتى قد تبرر كل منها أفعالا مدانه من وجهة نظر الأخرى . أو أن المجتمع لا يمتلك أصلا قواعد ثقافية أو مبادىء أيديولوجية . وفى هذه الحالة نجد أن التفاعل الاجتماعى الذى يحدث فى المجتمع أو بعض قطاعاته يؤسس غير محكوما بقاعدة عامة أو تحكمه وتوجهه القاعدة الفردية الخاصة . وهى القاعدة التى قد تتسع لتصبح هى التى تضبط السلوك فى اطار جماعات محدودة النطاق ، تمتلك قدرا من التجانس الداخلى ، لكنها تتباين مع كل ما هو خارج عنها . ذلك يعنى أنه فى اطار حالة الأنومى هذه يبرز وجود الثقافات الفرعية على وجود الثقافات العامة . وتتغلب فى نطاقه القاعدة الخاصة على القاعدة المجتمعية التى تفتقد أى الزام لها ، ويصبح المجال الاجتماعى مهيأ لافراز ظواهر فساد عديدة ، ويوضع تجاوزات عديدة أيضا . وهى حالة وان كانت

مقدرة على المجتمعات الانتقالية دائما والمتخلفة أحيانا . الا أن قدرة أحـــد المجتمعات على تجاوزها دون آخر يرجع الى امكانياته على تجاوزها أو السقوط أسيرا لها . ذلك لأنها تعتبر مصـــدرا لافراز توترات وامكانيات صـــدام عديدة .

٣ ـــ وتعتبر انهيار السياقات التقليدية أحد العوامل المؤسسة للتوتر والمســـاعدة على تأسيس العنف أيضا . ويحدث ذلك اذا تعرضت التنظيمات العائلية والتقليدية الســـائدة فى المجتمعات المحليـــة لمتغيرات تؤثر على بناء الســـلطة فيها . وعلى امكانياتها فى الضبط والســـيطرة ، أو على قدرتها على آداء عملياتها الأساسية . ويحدث ذلك اذا تعرضت الوحدات المحليـــة كالقرية أو الحى لمتغيرات تؤثر على بناءها بحيث يؤدى ذلك الى انفتاح محليتها كمقدمة لافتقادها تجانسها النسبى . وقد يكون الانفتاح ماديا حيث تضيع حدود المحلية عن طريق استقبال الغرباء أو دفع المهاجرين الى أرض غريبة . أو قد يكون الانفتاح معنويا وهو الذى يحدث نتيجـــة لتعرض المجتمع المحـــلى لفاعلية وتأثير الجهـــاز الاعلامى الذى يتحدى انغلاقها وتجانسها . ويفرض عليها بدلا من ذلك نمطا جديدا للحياة مع كل ما يترتب على ذلك من تغيرات فى بناء الثقافة والقيم أو فى طبيعة التنظيمات الاجتماعية الســـائدة من حيث بناؤها وفاعليتها . ونتيجـــة لذلك تتـــولد الشخصيات الهامشية بصورة كثيفة ، وهى الشخصيات التى قد تصاب بالهلع والفوضى والعصبية أمام كل جديد عليها أن تهرب منه أو تتحداه . هـــذا بالاضافة الى أن انهيار السياقات التقليدية يؤدى فى حد ذاته الى تحرر الفعل والســـلوك الفردى من أى ضوابط قد تفرض عليه لتوجهه فى مجال التفاعل الاجتماعى (٥٠) وهى الحالة التى اذا شارك فيها كل أفراد المجتمع المحلى فانها سوف تصـــبح مقدمة تمهد لحالة حرب الكل ضـــد الكل الهوبزية .

٤ ـــ وتعتبر ظاهرة التحضر التى تســـعى معظم مجتمعات العالم الثالث لتحقيقها أحد المصادر الأساسية للعنف . وفى الغالب تمثىء المرحلة

الانتقالية بظواهر حضرية كثير . اذ تسـودها ظاهرة الهجرة من الريف الى المدن ، وهو الأمر الذى يدفع الى اكتظاظ المدن بسـكانها أصلا بالقادمين الجدد اضافة الى ذلك .. ومن الطبيعى أن تسود هـذه المجتمعات الحضرية ظواهر مؤثرة عديدة ، منها أنها السـياق الذى يتجلى فى اطاره الفرد عن المنطق التقليدى ليكتسب المنطق الحضرى فى محله ، أو الذى يعيش فيه الانسـان داخل الواقع الحضرى بمنطق ريفى . هـذا الى جانب أن السـياق الحضرى هو عادة السـياق الذى يعيش حالة انهيار بنـاء الخدمات والاعاشة — خاصـة فى مناطق المهاجرين الجدد — هـذا الى جانب أنه يعجز فى حالات كثيرة عن توفير الفرص الملائمة لهؤلاء القادمين الجدد ، سـواء فرص العمل أو فرص الحيـاة . ونتيجة لذلك ولظروف أخرى مساعدة تمتلىء السياقات الحضرية بالاختناقات والتوترات والانفجارات والتفاعلات الساخنة . ومن ثم فقد كانت السياقات الحضرية هى أكثر السياقات ملائمة لقيام العنف ، ففيها يتقابل الطموح المرتفع مع الحرمان الواقعى ، وفى هـذه السياقات — خاصـة مناطقها الشـعبية والمتخلفة — تسود الزعامات المحليـة التى قد تتصادم مع بعضها البعض ، أو تتصادم مجتمعة مع السلطة العـامة فى المجتمع (*) (٥١) ».

٥ — ويعد التكوين الديموجرافى للعالم الثالث بطبيعته هـذه أحد العوامل المؤسسة للعنف فى اطاره . فنظرا لظروف عديدة أصبحت المجتمعات النامية تواجه مشـكلة سكانية متزايدة . من هـذه الظروف تقـدم الرعاية الصحية والطبية واسـتمرار التصورات التقليدية لمعـدلات الانجاب ،

(*) الدليل على ذلك ارتفاع معدلات العنف فى المـدن الأساسية كالقاهرة والاسكندرية باعتبارها سياقات حضرية أساسا . ويرجع ذلك لامتلاء هـذه السياقات بالأقليات التى تدعم مواقف أعضائها فى حالة صراعهم مع أطراف خارج حدودها .. اذ نجد امتلاء الأحياء الشـعبية الحضرية بالأقليات التى ترجع أصولها الى الوجه البحرى أو القبلى ، كما هى الحال فى أحياء اللبـان وغيط العنب بالاسـكندرية ، وأحياء السـيدة زينب ، والمدبح ، بولاق فى القاهرة .

بحيث ادت هـــذه الظروف الى زيادة سكانية حادة أصبحت تشـــكل عبئا على بناء الخدمات وسلع الاعاشة والاستهلاك . بالاضافة الى ذلك فاننا نجد أن البناء الســكانى لمجتمعات العالم الثالث بناءا شبابيا أساساً ، وهى السن التى تعنى مرحلة الايجابية والعمل داخل دورة الحياة الفردية . والحالة المثالية أن يحدث توظيف لطاقات الشباب فى اتجاه المشاركة لتأسيس التنمية . غير أن ذلك قد لا يحدث ، ومن ثم تصبح هـــذه الطاقات معطلة ومختزنة ، ومن ثم مهيأة للانفجار فى أى اتجاه . هـــذا الى جانب أن البناء البيلوجى والسيكلوجى للشـــباب يجعلهم أقل استقرارا وارتباطا بالنظام الاجتماعى القائم . ومن ثم أكثر قلقا وتوترا بشأن ما يحدث فى اطاره وله علاقة بمستقبلهم . وتتهدى دارمية الموقف حينما يتزاوج توتر الشـــباب باعتبارهم يمثلون مرحلة انتقالية فى حياة الانســـان بالمجتمع الذى يعيش هو الآخر حالة من الانتقالية الاجتماعية . ذلك يبرر انتشـــار العنف بين الشـــباب بين ١٥ ـــ ٣٠ ســـنة ؛ فمن بين نحو ٢٠٩ شخص شارك فى العنف نجد أن عدد الشباب منهم بلغ نحو ١٨٢ بنسبة ٨٣٪ . هذا بالاضافة الى أن دور الشـــباب يعتبر من الأدوار غير المســـئولة فى مواجهة أجهزة الثواب والعقاب فى المجتمع . وذلك لأن معظمهم من الطلبة أو من صـــغار العمال الذين لم يحتلوا أدوارا اجتماعيا محددة كما هى الحال بالنســـبة للفئة الأولى ، بحيث يجعلهم ذلك أكثر حرية فى ارتكاب السلوكيات التى قد تواجه بالجزاء الصارم اذا ارتكبها البالغون الذين يشـــغلون أدوارا اجتماعية محددة . أما بالنسبة لصغار العمال ، فالسبب يرجع الى نقص عملية الصياغة النظامية لهم داخل تنظيم العمل .

٦ ـــ ومن الواضح أن التقشف الذى تتطلبه مرحلة التنمية يعد أحد العوامل المخلقة للتوتر المفجر للعنف . فنظرا لنقص الموارد اللازمة للتنمية الاجتماعية الاقتصـــادية فى معظم مجتمعات العالم الثالث ، وللحاجة الى توجيه هـــذه الموارد توجهات انتاجية أساساً . نجد أنه اذا كانت هـــذه الظروف هى التى تتحكم فى عملية التنمية الخاصـــة بالمجتمع ، فان الانسان العادى قد لا يعى هـــذه الظروف وما تفرضه عليـــه . ومن ثم نجده يرى

الموقف من حوله وكأنه لا يسـير كما ينبغى أن يكون . ومن ثم نجد أن هـذا السياق . وتتنوع الادانة على متصل السلب والايجاب . وتتخلق الشخصية تتحول الى ادانة سياقها والنظام السياسى المسيطر على نتاجا لذلك عدة أنماط للشخصية ، النمط الأول قد يتجه ايجابيا نحو الانجاز ، لكنه قد يجدد فى وسائل الانجاز ، بحيث قد يستخدم ما هو محرم اجتماعيا وأخلاقيا . فالغاية لديه تبرر الوسيلة . ومن الطبيعى أن يكون عائد الانجاز راجع الى المصلحة الشخصية وليست الاجتماعية . أما النمط الثانى فهو النمط الذى يميل الى التكيف مع الواقع الكائن عن طريق المواقعة على ما هو كائن دون التطلع الى ما ينبغى أن يكون . يرضى بالغايات المحددة له والوسائل الملائمة لانجاز هـذه الغايات دونما تساؤل منه حول مشروعية الغايات أو كفاءة الوسائل فهو يعيش التفاعل الاجتماعى ، غير واع بحركته أو متضمناته . بينما يمارس النمط الثالث نوعاً من الروتينية والاستقرارية . فهو مستقر بطبيعته بينما الواقع ديناميا يتناقص معه . ومن ثم يصبح الواقع موترا له بقدر كونه معوقا لحركة هـذا الواقع ومسيرته . أما النمط الرابع فهو هارب منسحب يبحث عن جماعات أخرى غير المجتمع يعيش فى اطارها واقعا مثاليا ، يختلف بالتأكيد عن الواقع المعاش ، قد تكون هـذه الجماعات دينية أو ذات أيديولوجيات تتشح بالطابع المثالى . على خلاف ذلك نجد أن النمط الخامس ايجابى لا يستطيع الهروب ولا يقر الواقع على ما هو عليـه . فالمواجهة اثيرة لديه لأن فيهـا حل كل المشـكلات على المستوى الشخصى والاجتماعى ، فهو يدين الواقع ولا يتحايل على معايشته ، أو يهرب بعيدا عنه . وانما نجد لديه استعدادا دائماً وقويا لاعادة صياغة الواقع لكى يتطابق مع المثال . ومن ثم فهو النمط الذى تتوفر لديه امكانية الرفض والعنف والمساءلة (*) . وهو النمط الذى يؤدى انتشاره فى اطار الواقع الى امتلاء هـذا الواقع بالتمزق والقلق والتوتر (٥٢) .

(*) عرض عالم الاجتماع الأمريكى روبرت . ك ميرتون لهذه الأنماط الخمسة . وهو التنميط الذى استندنا اليه فى تحديد أنماط البشر خـلال =

(ب) السلطة والمجتمع فى مرحلة الانتقال :

ويتعلق البعد الثانى للتفاعلات المؤدية للعنف بطبيعة علاقة السلطة بالمجتمع أثناء مرحلة الانتقال فى مختلف المجالات . فالى جانب الأحداث التاريخية التى كان لها تأثيرها الواضح على طبيعة هذه العلاقة . وبغض النظر عن المكانة التى تحتلها السلطة والدور الذى تؤديه خلال المرحلة الانتقالية فاننا سوف نتعرض فى هذه الفقرة لمجموعة الظواهر التى ترجع الى مكانة السلطة فى المجتمع ودورها فى اطاره .

ومنذ البداية فنحن ندرك السلطة بمعنى ادارة المجتمع والسيطرة عليه ، ومن ثم نجد أن السلطة تنقسم الى ثلاثة أقسام رئيسية (التنفيذية والتشريعية والقضائية) غير أنه أيا كانت طبيعة السلطة فانه من الناحية الاجرائية تعتبر الشرطة هى وسيلة مراقبة التنظيم الاجتماعى وضبط التفاعل فى اطاره . وأن الموظفين العموميين هم وسيلة السلطة والنظام الاجتماعى والسياسى لخدمة الجمهور من خلال مكانة ودور وظيفى محدد . بينما رجل القضاء يعتبر هو المكانة التى أسسها النظام السياسى يطلب اليه الفصل فى مواضع التفاعل المعقدة . وتتمثل الحالة المثالية لعلاقة السلطة بالمجتمع فى تحقيق نوع من الاتفاق المتبادل بين السلطة وجمهورها فيما يتعلق بطبيعة العلاقة والتفاعل الذى ينبغى أن يسود بينهما .

= هذه المرحلة . واذا كان ميرتون قد صاغ هذه الأنماط كرد فعل للتناقض بين نسق الثقافة والقيم والنسق الاجتماعى فى المجتمع الأمريكى ، فاننا نعتقد أن هذه الأنماط يمكن أن تشكل صيغة عامة خلال المرحلة الانتقالية التى تمر بها المجتمعات النامية . وعلى هذا نجد أن المتمردون يضمون فى الغالب الشباب المثقف وشباب الأحياء الشعبية . أما المتكيفون فهم مجموعة الشباب الذين استفادوا من العملية الاجتماعية ايا كانت طبيعتها ثم أنهم شاغلى الأدوار الوظيفية كفئة الموظفين العموميين . بينما يشكل كبار السن وساكنى القطاع الريفى أصحاب النزعة الطقوسية .

غير أننا نواجه فى هـذا الصدد بعدة ظواهر نتجت كلها عن التناقض فى فهم هـذه العلاقة والتفاعل المترتب عليها . وهو الفهم المتناقض الذى يسـاعد على توليد الصـدام وتأسيس العنف . ونذكر فيما يلى بعضا من هـذه الظواهر .

١ — وتتمثل أول هـذه الظواهر فى الاختلاف حول دور السلطة فى المجتمع . فبينما تنظر أجهزة السـلطة الى نفسها باعتبارها تلعب دورا تنظيميا ضبطيا ، نجد أن الجماهير ترى فى السـلطة باداراتها المختلفـة جهازا مؤسسا لخدمة مصالح الجماهير . ويعكس الاختلاف بين النظرتين مرحلتين فى الفكر السـياسى المتعلق بالسـلطة . فالنظرة التى تحملها السـلطة حول دورها — كدور تنظيمى ضبطى — فى المجتمع تعكس اتجاها فكريا ساد قبل شـيوع الاتجاهات الديمقراطية الحديثة . بينما تولدت الثانية نتيجة لانتشار الأفكار والاتجاهات الديموقراطية الحديثة وشيوعها . هـذا بالاضافة الى أن اختلاف النظرة يعكس اختلاف المصالح المتعلقة بكل من الطرفين .

ومن خلال القضايا موضع التحليل والبحث يتضح لنا أن هناك تمسكا واضحا من قبل ممثلى السلطة (رجل الشرطة والموظف العام) بالتصـور القديم لدوره (الدور التنظيمى والضبطى) . ومن شأن ذلك أن يخلق تباعدا بين هـذه الأجهزة وبين الجمهور الذى ينظر الى هـذه الأجهزة من خلال مفهومه الحديث لدورها (الذى يتمثل فى خدمة هـذه الأجهزة للجماهير) . وهو التصور الذى اشاعته أجهزة الاعلام والمناخ الديموقراطى الذى تعيشه الجماهير ، هـذا الى جانب أن تصور الجماهير يخدم مصالحها ، ونتيجة لهـذا الاختلاف تقع أحداث العنف لأجهزة الدولة والسـلطة (الشرطة مثلا) تحاول دائماً فرض رؤيتها على الموقف دون محاولة الوصـول مع الجمهور الى نوع من الفهم الاتفاقى المتبادل .

٢ — وتشكل طبقية السلطة الظاهرة أو البعد الثانى فى هـذا الاطار . والطبقة هنا لهـا معنيان . الأول أن موظفى الجهـاز الادارى للدولة

(الشرطة والموظفون العموميون) ينظر اليهم الجمهـور عادة باعتبارهم يشكلون طبقة ذات هوية وملامح متميزة . فهم ذوى رواتب شـهرية ثابتة ودائمة ، وهم ذوى مستويات تعليمية تتجاوز المستوى التعليمى الشائع . وهم لهم نمطهم فى الحيـاة اليومية المختلف للغاية عن النمط الشائع للحيـاة اليومية لغالبية الجماهير التى يتعاملون معها . ومن ثم فهم يمتلكون عادة نظرة خاصة الى جمهورهم . نظرة تطل على الجمهور من أعلى ومن فوق فى أغلب الحالات (*) . وقد ترددت هـذه الملاحظة فى معظم القضـايا موضع التحليل . وهى تعكس فى معظمها نظرة علوية من قبل الجهـاز الادارى الى أفراد المجتمع . وقد يستاء الجمهور أحيانا من ذلك ، فيقابل هـذه الأساليب بعدم الرضا والرفض فى أحيان كثيرة ، خاصة اذا صاحب ذلك وجود اعلام دائم يثبت معانى الحرية والديموقراطية . الشـاهد على ذلك اللافتات الكثيرة المعلقة على أقسـام الشرطة (الشرطة فى خدمة الشعب) (الشعب أولا وأخيرا) . بحيث يصبح هـذا النوع من عـدم الرضا مصـدر توتر دائم فى علاقة الشرطة أو الموظف العام بالشعب .

ويتعلق المعنى الثانى لطبقية السـلطة بتحيز الشرطة . وذلك من خلال كونها تتبع أسلوبا متباينا فى التعامل مع مختلف الطبقات الاجتماعية . وحسبما يؤكد بات مارفى Pat Mrphy المدير المساعد للوكالة الفيدرالية أن الشرطة فى آدائها لدورها تعمل عادة كخادم للطبقات المتوسطة وكسلطة ذات سـيادة بالنسبة للطبقـات الدنيا . . وذلك يرجع الى أن مخترق القانون الذى ترجع أصـوله للطبقة المتوسـطة يعرف حقوقه جيـدا ،

(*) فمثلا يتحدد فى القضـايا موضع التحليل نداء الشرطة للمتهم بألفاظ بذئة أقلها (يا ولد ، الولد (٥) يا ابن الـ ...) فاذا اجتمع فلاح وموظف عام كمشاركين فى خلاف أمام الشرطة أو النيابة فاننا نجد أن الشرطة تنادى عادة الموظف بألقاب مثل (سيادتك ... ، يا أستاذ ... أما بالنسـبة للفلاح فانها تناديه باسمه مجردا . أو بكينونته النوعية (يا ولد ... ، يا بنت ...) كما فى قضية بلبيس رقم ١٩٧٥ على سـبيل المثـال .

وما هو أكثر من ذلك أهمية أن لديه القوة السياسية والاجتماعية التى تكون عادة رهن اشارته (*) (٥٢) .

٣ — وتتمثل الظاهرة الثالثة فى هــذا الصدد أن علاقة السـلطة بالمجتمع أثناء عملية التغير والتنمية تكون عادة ذات طبيعة متناقضة . اذ تحاول السـلطة من ناحية ضبط حركة المجتمع وتنظيمها أثناء عبور المجتمع لمرحلة التنمية . ومن ثم فاننا نجد السـلطة لكى تحقق درجـه عالية من التنظيم ، فانها تلجأ عادة الى اصدار كم هائل من القواعد القانونية ، التى نظر لكونها تغطى حالات واقعية متباينة ومتعددة فانها تقع أحيانا فى نوع من التناقض . أو قد يحدث تفسير متباين لنفس القاعدة القانونية . وهنا يصبح النسق القانونى الذى تسـتند اليه السلطة فى ضبط حركة المجتمع الواقعية مصدرا للتوتر والتصادم لسببين . الأول بسبب الصياغة المرنة أو التفسير المتباين لذات القاعدة . ومن ثم فمن الممكن أن تدعم ذات القاعدة موقف طرفى الصراع فى موقف العنف (*) أما السبب الثانى فيرجع

(*) يوضح ذلك أن معظم المقبوض عليهم فى قضية العتبة رقم ١٩٠ لســنة ١٩٧٤ وكذا قضية السيدة زينب رقم ٥٠٤٥ لســنة ١٩٧٣ من العمال بل ومن فئة العمــال البسطاء (الفرانين ، النجارين ، الطلاب ، الجزمجية ، السباكين ، وعمال البناء ، وعمال ورش البناء ، وعمال ورش السيارات) كذلك المقبوض عليهم فى قضية بلبيس رقم ١٨٩٥ لســنة ١٩٧٢ من شريحة المستأجرين الزراعيين الذين تصل حيازتهم الزراعية الى أقل من فدان تقــريباً . أو قضــية ســمنود رقم ٣٩٨ لســنة ١٩٧٥ . وهو ما يعنى أن معظم قضايا العنف وقعت فى الأحياء الشعبية (الســيدة زينب والمدبح والعتبة وبولاق وروض الفرج بالقاهرة ، واللبان وميناء البصل فى الاسكندرية) . وذلك لأن اجراءات السلطة (ممثلة فى الشرطة) تصل عادة فى تعاملها مع ساكنى هذه الأحياء الى النقطة الحادة التى يصــبح البشر عندها مهددين بالموت . كالقتل فى قضية السيدة زينب والضرب حتى الاغماء فى قضية العتبة ، والضرب حتى الموت فى قضية قســم اللبان ، والقتل فى قضية مينا البصل .

(*) مثال على ذلك قضية بلبيس رقم ١٨٩٥ لســنة ١٩٧٢ حيث فلاحون يستأجرون أرضا وفقا لقوانين الايجار التى تمنع طردهم . فاذا بالمالك

الى أن القاعدة القانونية تهدف عادة الى تحقيق درجة عالية من التنظيم ومن ثم فهى تعمل ضمنيا على دعم الحالة الراهنة واستمرارها كما هى . وتأكيد ذلك باستخدام قوة الدولة وسلطتها .

ذلك يعنى أن القانون فى بعض الحالات يعتبر مقاوما للتغير بينما العلاقات الاجتماعية والتفاعل المتعلق بها فى حالة تغير مستمر ودائم (٥٤) . وذلك يفرض اللجوء الى استخدام القوة المتطرفة لمحاولة فرض الضبط المبالغ فيه كما يذهب كونانت Conant . وهو الأمر الذى يؤدى الى تزايد انفجارات العنف كما توضح ذلك الدراسات التى أجراها مركز لمبرج Lemperg center التابع لجامعة براندير Brandies university (٥٥) .

٤ — وتتناقض الظاهرة الرابعة فى بعض جوانبها مع الظاهرة السابقة . حيث تجاهد السلطة فى بعض البلاد النامية من أجل فرض واقع جديد تطويرا للواقع المتخلف ، ومن ثم فهى تلجأ فى الغالب الى الفرض لكل ما هو جديد ويؤكد التغير . الا أنها أثناء ذلك تضر عادة بمصالح فئة لتؤكد مصالح أخرى تدرك أنها أكثر ارتباطا بالواقع الجديد (*) ولظروف عديدة — داخلية

=

وهو أحد أعضاء السلطة الادارية بالقرية) يتبرع بالأرض لبناء مدرسة . ومن ثم يذهب موظفون عموميون لانتزاعها باسم القانون أيضا مما يولد حيرة أمام الجمهور ويضعه فى موقف الدفاع الحاد عن مصالحه ، وهو ما حدث فى بلبيس ، وما حدث أيضا فى قضية سمنود رقم ٣٠٨٠ لسنة ١٩٧٥ .

(*) مثال على ذلك ما حدث فى المجتمع المصرى ابان الفترة الناصرية فقد استهدفت السلطة السياسية فى الفترة من ١٩٥٢ — ١٩٦١ دفع المجتمع فى طريق التطور الرأسمالى ، وحينما خاب أملها فى هذا الاتجاه حاولت دفع المجتمع فى الفترة من ١٩٦١ — ١٩٦٩ فى طريق التطور الاشتراكى ، ولقد حاولت تغيير الواقع فى أى من هذه الاتجاهات بناء على قوانين الاصلاح الزراعى فى المرحلة الأولى والقوانين الاشتراكية فى المرحلة الثانية . ومن الطبيعى أنها كانت تعتز بمصالح جماعات لصالح استفادة أخرى ، وهو الأمر الذى كان سببا فى صدامات عنف متعددة بين الجماعات المتباينة المصالح وبعضها البعض من ناحية ، أو بين الجماعات المضادة مصالحها والنظام السياسى من ناحية أخرى .

وخارجية — قد لا نجد ضرورة لتبرير تصرفاتها وسلوكياتها . ومن ثم فقد تصبح هـذه السلوكيات والتصرفات غير معقولة من وجهة نظر الجماعات المضادة . ومن ثم فقد يحدث رد فعل عنيف من قبل هـذه الجماعات التى أضيرت مصالحها ، بحيث قد يتميز ردها بكونه رد فعل تظاهرى وعنيف .

٥ — وتتعلق الظاهرة الخامسة بتجانس موقف نسق السلطة بكافة عناصره . أعنى أنه برغم أن أجهزة السلطة مؤسسة لمراقبة بعضها البعض فى آدائها لوظائفها وأعمالها . فانها تفشل عادة فى تحقيـق هذه الفاعلية فى مستوياتها المثلى . ومن ثم فاننا نجد عادة انحيازا من جانب أحد عناصر السلطة مع العناصر الأخرى المشـاركة فى بناء السلطة ضد الجمهور . مع أن الوظيفة الرئيسية لهذا العنصر توجب أن يكون مدافعا عن مصالح الجماهير (٥٦) (*) .

(*) على سبيل المثال يعرف الجمهور فى قضية السيدة زينب ان قتيل القضية قتل نتيجة للضرب الذى وقع عليـه داخل قسـم البوليس ، ومع ذلك يأتى تقرير الطب الشرعى ليؤكد أن سبب الوفاة كان نتيجـة تناول المتوفى مخدرات ، وهو الأمر الذى يفسر عنف الجمهور فى قضية السيدة زينب وعدم عنفه فى قضية قسم اللبان لاحساسه أن الطبيب الشرعى والنيابة تقف الى جواره فى القضية الأخيرة . وفى قضية العتبة برغم وضوح الضرر وتحـديد المتهم ومع ذلك تحفظ القضية . وفى هـذه الحالة يشعر الجمهور بحالة شـاملة من عدم الأمان قبل السلطة أو أى من عناصرها . يفسر ذلك أنه فى قضية قسم اللبان رقم ٦١٦ لسنة ١٩٧٤ ان أهل القتيل قاموا بارسـال تلغرافات تشـكو البوليس والطب الشرعى برغم أنهما يعملان فى صالح أهل القتيل الا أنه احساس تاريخى مترسب لدى الجمهور تؤكده بعض الوقائع العابرة فى تاريخنا المعاصر .

وقياسا على ذلك يؤكد توماس بروك أنه قد حدث أن ضرب البوليس الأمريكى احدى المومسات حتى أحدث بها اصابات بالغة نتيجة للضرب أوجبت ارسالها الى المستشفى للعلاج . المذهل فى الأمر أن تقرير الطب الشرعى جاء ليؤكد أن الاصابات بجسمها كانت نتيجة لأنها أوقعت الأذى بنفسها أثناء نزولها من عربة البوليس ، وهو نفس التقرير الذى طلب منها البوليس اقراره قبل ذهابها الى المستشفى ورفضته .

(جـ) ظاهرة العنف ، ملامحها الرئيسية .

تتركز هـــذه الفقرة بالأساس على تحديد الملامح العـــامة والخارجية لظاهرة العنف فى المجتمع المصرى . وهى الملامح التى تشـــكل فى العادة حلقـــة الصلة بين الظاهرة من ناحية وبناء المجتمع بأبعـــاده الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية والأيكلوجية من ناحية أخرى . ومن الطبيعى أن تختلف هـــذه الملامح الخارجية من سياق الى آخر ، فملامح العنف الذى يقع فى المجتمع الريفى يختلف بالتأكيد من حيث ملامحه الخارجية المميزة عن العنف الذى يقع فى المجتمعات الحضرية كالمدن الكبرى أو العواصم مثلا . أو قد تختلف هـــذه الملامح بين مختلف النمـــاذج البنائية للمجتمعات . فخصائص العنف وملامحه الخارجية تختلف فى المجتمعات المتخلفة عن نظائرها فى المجتمعات النامية عن المتقـــدمة . وهو الأمر الذى يدفعنا الى القول بخصوصية العنف بحسب النموذج البنائى الذى يقع فيه . ذلك يعنى اننا سوف نحاول تحـــديد الخصائص المميزة لظاهرة والتى تشـــكل فى مجموعها طبيعتها الأساسية داخل ســـياق المجتمع المصرى . وفيما يلى تحـــديد لبعض هـــذه الملامح .

١ ـــ التوزيع الزمنى ، الشهر والوقت من اليوم .

٢ ـــ الظاهرة من حيث القصد من ارتكاب الواقعة .

٣ ـــ المشاركين فى الظاهرة من حيث ملامحهم الرئيسية .

٤ ـــ الظاهرة من حيث الأدوات المستخدمة .

وفيما يلى سوف نعرض بايجاز لكل من هـــذه الملامح على مســـتوى المجتمع المصرى ككل ، بغض النظر عن انتماء هـــذه الوقائع الى السياق الحضرى أو السياق الريفى داخل المجتمع .

١ ـــ التوزيع الزمنى ، الشهر والوقت من اليوم : بالنظر الى توزيع وقائع العنف على شـــهور السنة نجد أن كثافة الوقوع تترتب بحيث تقع

اعلى نسبة خلال شـــهر يناير . حيث وقعت فيه ٤٠ واقعة بنسبة ٢ر١٠٪ من مجموع وقائع العنف . يليه شهر يوليـــو الذى وقعت فيه ٣٨ واقعة بنسبة ٨ر٩٪ ثم شهر مايو الذى وقعت فيه ٣٦ واقعة بنسبة ٢ر٩٪ . ثم شهر مارس الذى وقعت فيه ٣٤ واقعة بنسبة ٧ر٨٪ . يليه شهر يونيو حيث وقعت فيه ٣٣ واقعة بنسبة ٤ر٨٪ ، ثم شهر فبراير الذى وقعت فيه ٣٢ واقعة بنسبة ١ر٨٪ ، فشهر ابريل حيث بلغت عـــدد الوقائع فى اطاره نحو ٢٨ واقعة بنسبة ١ر٧٪ . ثم شهر ســـبتمبر حيث وقعت فيه ٢٧ واقعة بنسبة ٨ر٦٪ ، فأغسطس الذى وقعت فيه ٢٦ واقعة بنسبة ٦ر٦٪ ، فأكتوبر الذى شهد عـــدد وقائع بلغت نحو ٢٤ واقعة بنسبة ١ر٦٪ ، فشهر نوفمبر الذى وقعت فيه ١٧ واقعة بنسبة ٣ر٤٪ . هـــذا بالاضافة الى عشرة وقائع غير واضحة من حيث شهر الوقوع فى السنة . واســـتنادا الى قراءة معدلات الوقوع السابقة تبرز لنا ثلاثة ملاحظات أساسية .

وتتمثل الملاحظة الأولى فى أن توزيع الوقائع على شهور السنة لا يبرز أى دلالة واضحة سوى تأكيد ضعيف على زيادتها الطفيفة فى الشـــهور التى يتزايد فى اطارها التفاعل الاجتماعى . وهى الشهور التى تبدأ بشهر يناير وتنتهى فى شهر يوليو . حيث العمل فى أوجه فى الجامعات والمصالح الحكومية . وحيث تبدأ بعد ذلك فترة الأجازات التى تبدأ عادة بشهر أغسطس والشهور التالية ، وهو الأمر الذى ينعكس فى شـــكل انخفاض نسبة وقوع حوادث العنف انخفاضا ضئيلا لا دلالة له . وربما يرجع عدم وجود الفارق أو الدلالة أن مناخنا معتدل طول العام ، وهو الأمر الذى يفرض بالتالى توزعا شـــبه معتدلا لكم التفـــاعل الاجتماعى على مدار الســـنة بخلاف المجتمعات التى قد تشهد استقطابا حادا فى مناخها ومن ثم استقطابا فى كم التفاعل الاجتماعى الذى كان من الممكن أن ينعكس على توزيع وقائع العنف .

وتتمثل الملاحظة الثانية فى أن غياب دلالة توزيع وقائع العنف بالمجتمع ترجع بالأساس الى طبيعة واقعة العنف ذاتها . ذلك لأن واقعة العنف من الوقائع غير المتكررة أو المطرد وقوعها كثيراً ، وذلك بطبيعة أطرافها ،

فهى موجهة بالأساس الى النظام السـياسى ، ثم هى مخزونا هائلا من التوتر يشكل دافعا كافيا لانفجار العنف ، ومن ثم فقد تتخلق توتراته فى شـهور معينة ، بينما يحدث الانفجار فى شـهور أخرى ، فالعنف كواقعة كامنة ، من نمط الوقائع الممتدة عبر فترة زمنية طويلة نسـبيا ، وهى فى ذلك على خلاف الوقائع اليومية المعتادة التى تقع بين لحظـة وأخرى ، ومن ثم فمن الممكن تصديقها — لزمنها المحدود — بالنظر الى اطار زمنى أشمل كالقتل والسرقة مثلا . ذلك يعنى أن الدوام الزمنى لواقعة العنف يعتبر العـامل الرئيسى لعـدم دلالة توزيع وقائع العنف بالنظـر الى شـهور السنة .

وتتعلق الملاحظة الثالثة بتوزيع وقائع العنف بالنظر الى وقت الوقوع من اليوم . وفى هـذا نجد أن حوالى ٢٤ واقعة بنسبة ١ر٦٪ من وقائع العنف خلال فترة التحليل غير مبينة من حيث زمن الوقوع . بينما نجد أن ٢٣٧ واقعة بنسبة ٣ر٦٠٪ قد وقعت أثناء النهار ، بينما يصل عـدد وقائع العنف التى وقعت ليلا الى نحو ١٢١ واقعة بنسبة ٧ر٣٠٪ من مجموع وقائع العنف . ولعل هـذا التوزيع يعكس نفس منطق التوزيع السـابق حيث ارتباط العنف نسـبيا بفترات ارتفاع التفاعل الاجتماعى . هذا الى جانب أننا كمـا أشرنا أن الواقعة تتميز بالمواجهة بين طرفى الصراع ، وغالبا ما تحدث المواجهة أثناء العمل اليومى بالنهار ، حيث الفعل ورد الفعل ، ومن ثم امكانية التصادم .

٢ — الظاهرة من حيث القصد من ارتكاب الواقعة : ونعنى بالقصد من ارتكاب الواقعة ، السبب الذى بالنظر اليه لجأ مرتكب العنف الى سـلوكه . أو أن هـذا القصد يشكل الدافع المباشر لانفجار العنف من طرف تجاه آخر . وفيما يلى حصر لمجموعة الأسـباب العامة للعنف التى أمكن تجريدها من خلال احصاءات وزارة الداخلية .

ويعتبر التخلص من مطاردة السلطات سـببا أساسيا لقيام العنف ، وقد تردد فى نحو ٢١٤ واقعة بنسبة ٥ر٥٤٪ من المجموع الكلى لوقائع العنف

خلال الفترة موضع التحليل . ثم منع موظف عمومى من آداء عمله فى عـــدد ٨٩ واقعة بنسبة ٦ر٢٢٪ ، ثم مقاومة السلطات فى ٢٦ واقعة بنسبة ٦ر٦٪ ، ثم اخفاء جريمة فى ١٧ واقعة بنسبة ٦ر٣٪ ، ثم احراج رجال الأمن فى خمســـة وقائع بنسبة ٣ر١٪ ، ثم الانتخابات فى أربعة وقائع بنسبة ٨ر٪ ، ثم الاضرار بمصالح الدولة فى ثلاثة وقائع بنسبة ٨ر٪ ، ثم الحصـــول على المـــال فى واقعتين بنسبة ٥ر٪ ، ثم الدفاع عن النفس فى واقعة واحـــدة بنسبة ٣ر٪ . والارث واقعة واحـــدة بنسبة ٣ر٪ ، والنزاع على مواشى فى واقعة واحـــدة بنسبة ٣ر٪ ، والارهاب فى واقعة واحـــدة بنسبة ٣ر٪ .

ويتضح بالنظر فى أسباب وقائع العنف أو القصد منها أن ظاهرة العنف فى المجتمع المصرى تخضع لعدد ١٧ ســـببا كانت أساس وقوع ٣٩٣ واقعة عنف خلال الفترة موضع التحليل ، منها ستة أسباب شكلت وحدها الأساس لوقوع ٢٤١ واقعة بنسبة ٧ؤ٨٦٪ من مجموع حوادث العنف . وهى التخلص من مطاردة السلطات ، منع موظف عمومى من آداء عمله ، احراج رجال الأمن ، الانتخابات ، الاضرار بمصالح الدولة ، مقاومة السلطات . وأن ثلاثة أسباب منها شكلت الأســـاس لوقوع ٢٢٨ واقعة بنسبة ٦ر٨٣٪ من مجموع الوقائع ، وهى التخلص من مطاردة الســـلطات ، منع موظف عمومى من آداء عمله ، ومقاومة الســـلطات ، بينما هنـــاك ١٤ ســـببا أخرى شكلت الأســـاس لوقوع ٦٥ واقعة فقط بنسبة ٤ر١٦٪ . غير أننا نود أن نطرح ملاحظتين بشأن الملامح العـــامة للقصد من وقائع العنف .

وتتمثل الملاحظة الأولى فى أن تصنيف وقائع العنف حسب القصد من الواقعة قد لا يكون بالقطع تصنيفا دقيقا . ومن ثم فقد ينطرق مظهر السلوك لأســـباب غير تلك التى شكلت القصد الأســـاسى الدافع للســـلوك . مثال على ذلك أن السرقة ســـلوك منحرف والسرقة باســـتخدام العنف لا شك أن لهـــا أسبابها المختلفـــة عن السرقة فقط . ومن هنا فقد تصنف وقائع العنف لأسباب غير أسبابها الجوهرية . وتتعلق الملاحظة الثانية فى أن النسبة الغالبة لوقائع العنف ـــ كما أوضحت المعطيات الاحصائية موضع

التحليل — وقعت باعتبارها وقائع بسبب الاحتكاك بين البشر فى المجتمعات النامية من ناحية وبين النظام السياسى من ناحية أخرى حسبما تؤكد قضايا نظرية عديدة أشرنا فيما سبق لبعض جوانبها • وهو الأمر الذى يؤكد أن الطابع السياسى للعنف فى المجتمعات النامية هو الطابع الغالب .

٣ — المشاركين فى العنف من حيث ملامحهم الرئيسية : فى هذه الفقرة سوف نحاول القاء الضوء على خصائص المشاركين فى واقعة العنف كجناه أو مجنى عليهم ، هذا بالاضافة الى تصنيف وقائع العنف بالنظر الى عدد المشاركين فيها .

— وفيما يتعلق بتصنيف وقائع العنف من حيث عدد المشاركين فيها — كجناه — نجد أن النظرة الدقيقة لهذه الوقائع تكشف عن وجود علاقة عكسية مطردة بين عدد المشاركين فى الواقعة من ناحية وبين عدد الوقائع الذى يتردد فيها اشتراك أكثر من فاعل . فمن بين ٣٩٣ واقعة هى كل ما وقع خلال فترة التحليل نجد ١٤٦ واقعة بنسبة ٣٧٫٢٪ كان الفاعل فيها فرد واحد ، بينما نجد ١٥٤ واقعة بنسبة ٣٠٫٢٪ كان الفاعل فيها من ٢ — ٤ فرد . بينما فى ٦١ واقعة بنسبة ١٥٫٥٪ كان الفاعل فيها من ٥ — ٩ فرد ، بينما ٢٠ واقعة بنسبة ٥٫١٪ كان الفاعل فيها عشرة أفراد . بينما ١٢ واقعة بنسبة ٣٫١٪ غير مبينة من حيث عدد الجناه المشاركين فيها .

ويتضح مما سبق أن عدد حوادث العنف الذى كان الفاعل فيها أكثر من ٢ فرد عددها ٢٣٥ واقعة بنسبة ٥٧٫٨٪ من عدد وقائع العنف فى فترة التحليل . وهو الأمر الذى يعنى أن العنف له طابعه الجماهيرى الغالب . ولعل ذلك يرجع الى طبيعة السياق الاجتماعى ، خاصة اذا أدركنا أن كم الوقائع الأكبر يقع أساساً فى اطار المحافظات الريفية . وأن الجناه فى غالبيتهم ريفيين مع ما تمليه هذه الخاصية من المناصرة الجماعية للجانى من قبل خلفيته العائلية التى تشكل عزوته . خاصة أن السلطة العائلية فى الريف مازال لها دورها الواضح والبارز .

غير أن هناك ملاحظة أخرى تتناقض وهـــذا التبرير الذى سقناه . حيث نجد أن بعضا من جماهيرية العنف قد ترجع بالأساس الى أن الفاعل الأصلى هو شـــخص واحد فعـــلا ، وأن الآخرين فى الموقف ليســـوا الا مناصرين له خاصـــة أن هناك اعتقاد بأن الضرر سوف يكون أقل كلما تزايد عدد المشاركين . أو لأن الطرف الآخر اتهم آخرين الى جانب الفاعل الأصلى لتصوير مدى العنف الذى وقع عليـــه ؛ فالعنف الذى يرتكبه فرد لا شك أنه أقل من العنف الذى ترتكبه مجموعة .

ـــ أما بالنسبة لخصائص المشاركين فى العنف (كجناه) فنجد أن احصاءات الأمن العام لا تساعدنا كثيراً فى توضيح الخصائص الرئيســـية للمشاركين فى العنف كجناه أو مجنى عليهم (*) غير اننا من خلال تحليل مضمون عدد من القضـــايا بلغت نحـــو ٦٢ قضـــية استطعنا تجـــريد الخصائص التالية :

١ ـــ فمن حيث النوع نجد أنه يتضح لنا من خلال القضـــايا التى اخضعناها للتحليل أن الذكور هم النسبة الغالبة ، حيث لم يرد ذكر الاناث فى هذه القضـــايا كجناه . ولعل ذلك يرجع الى مسألتين . الأولى قلة عدد القضـــايا موضع التحليل بحيث لم تظهر نسبة الاناث فى اطار هـــذا العدد المحدود من القضـــايا . وثانيا لغياب عنف الاناث فى المجتمع المصرى حيث نجده ينخفض للغاية نظرا لظروف اجتماعية تتعلق بالوضع الاجتماعى للمرأة ومدى مشاركتها الاجتماعية هـــذا الى جانب أن طبيعة البناء النفسى والفسيولوجى للأنثى فى المجتمعات الشرقية له تأثيره الواضح فى هـــذا

(*) اعتمدنا فى التعرف على هـــذه الخصائص على تحليل مضمون لملخصات نحو ٦٢ قضية فى سنتى ١٩٧٣ ، ١٩٧٤ . واعتبرنا أن الخصائص التى وصلنا اليها من التحليل يمكن أن تمثل الى حد كبير خصائص الظاهرة خلال الفترة المختارة . فما هو موجود فى عينة من القضـــايا يمكن أن تجرد منه بعض الخصائص ذات الطابع العام ، وذلك باعتبار التجانس المحتمل فى السياقات ، وأنماط القضـــايا ، والمشركين كجناه أو مجنى عليهم .

الصدد . بالاضافة الى ذلك نجد أن مشاركتها المرأة فى التفاعل الجتماعى تنخفض كثيرا عن مستوى تفاعل الرجل خاصة فى المجال الخارجى .

٢ — وفيما يتعلق بالسن نجد أن مجموع الجناة فى القضايا موضع التحليل هو ١٨٠ شخصا . فى اطار ذلك نجد أن التركيز العمرى الأكبر يقع فى السن من ٢٠ — ٣٠ سنة حيث نجد نحو ٨٢ شخصا بنسبة ٤٥٫٦٪ من مجموع الجناة ، يليه نحو ٥٣ شخصا بنسبة ٢٩٫٤٪ فى السن من ٣٠ — ٤٠ سنة ، يلى ذلك السن من ٤٠ — ٥٠ سنة حيث نجد ٢٠ شخصا بنسبة ١١٫١٪ من عدد المشاركين كجناه . يلى ذلك عدد ١٣ شخصا بنسبة ٧٫٢٪ فى السن من ٥٠ — ٦٠ سنة . بينما نجد أن هناك تسعة أشخاص بنسبة ٥٪ فى السن من ١٠ — ٢٠ سنة . ثم من ٦٠ سنة فأكثر نجد ثلاثة أشخاص بنسبة ١٫٣٪ بينما لا نجد مشاركين فى العنف فى السن أقل من عشر سنوات .

ويتضح من ذلك أنه فى السن من ٢٠ — ٤٠ سنة نجد ١٣٥ شخصا من بين ١٨٠ شخصا ، أى ان نسبة ٧٥٪ من مرتكبى حوادث العنف يقعون فى السن من ٢٠ — ٤٠ سنة . وذلك يرجع الى عاملين ، الأول ، طبيعة البناء النفسى للشخصية فى هذه السن ، وهى سن الشباب والرجولة المبكرة . حيث يكون البناء النفسى غير مستقر نظرا لأن الصياغة النظامية للشخصية تكون غير كاملة حتى هذه المرحلة . وذلك يفسر العلاقة العكسية بين كم العمر وبين مدى المشاركة فى وقائع اذا أخذنا نقطة البدء سن العشرين ، وهى النقطة التى يبدأ عندها التفاعل الدينامى المتبادل بين الشخصية وسياقها المحيط . ويتمثل العامل الثانى الذى يفسر ارتفاع العنف فى هذه السن ، هى أنها السن التى تكون الشخصية فى اطارها اسهامها فى التفاعل الاجتماعى . وذلك يفسر انخفاض عنف من لم يقعوا فى دائرة هذه السن ، وأيضا الكبار الذين انسحبوا من الحياة الاجتماعية . وما يترتب على ذلك من انخفاض مستوى التفاعل الاجتماعى ، ومن ثم تضاؤل معدلات العنف ، فالعلاقة مطردة بين قدر الانسحاب من التفاعل الاجتماعى من ناحية وبين معدلت وقوع وقائع العنف .

٣ ــ أما بالنسبة للمهنة التى تردد ذكرها خلال التحليل . فنجد أنه من بين ١٨٠ شخصا يوجد ١٤٨ شخصا بنسبة ٧٦٫٣٪ مهنتهم الفلاحة . يلى ذلك ٦ أشخاص مهنتهم الصــيد بنسبة ٣٫٢٪ . ونحو ٦ أشخاص بنسبة ٣٫٢٪ مهنتهم الجزارة ، ثم خمســة أشخاص بنسبة ٢٫٦٪ مجندون ثم أربعة إشخاص عاطلون بنسبة ٢٫٦ ٪ ثم طالبين بنسبة ١ ٪ ثم ٢ فران بنسبة ١٪ ثم أستاذ جامعى ، عجلاتى ، صاحب فندق ، صاحب مخبز ، تمرجى ، خفير ، وميكانيكى ، حيث كان هناك شخص واحد فى كل مهنة من هــذه المهن بنسبة ٥ر٪ .

ويتضح مما سبق أن المهنة الغالبة لمرتكبى العنف هى الفلاحة وذلك يتسق مع نتيجة أن النسبة الغالبة لقضـــايا العنف تقع فى السياق الريفى . ويرجع ازدياد نســبة الفلاحين فى وقائع العنف كجنــاه الى عاملين . الأول ، أن السياق الريفى يفرض الدعم انجماعى عادة للفرد ، فقد يتصل شخص واحد بسببية وقائع العنف ، الا أن مشاركته فى العنف قد تجذب معه عائلته لتشارك معه فى موقف انعنف . أما العامل الثانى فيرجع الى أن الفلاحة تمثل المهنة الغالبة فى المجتمع المصرى ، بحيث تفرض غلبتهم فى المجتمع اشتراكهم فى العنف ، غير أن ذلك ينبغى بالقطع أى صلة بين خاصية الريفية كمهنة وبين الميل لارتكاب العنف كسلوك .

٤ وبالنسبة للمستوى التعليمى يتضح من حصر المستويات التعليمية القضـــايا موضع التحليل أن عدد ١٣١ فقط هم الذين وضحت مستوياتهم التعليمية . ومن بين هؤلاء نجد عدد ٦٢ شخص أمى بنسبة ٤٧٫٣٪ وأن عــدد ٢٦ شخص بنسبة ١٩٫٨٪ يقرأ ويكتب ، وأن ٣٥ شخص بنسبة ٢٦٫٧ أتم تعليمه الثانوى ، وأن ٨ أشخاص بنســبة ٦٫١٪ أتم تعليمه الجامعى أو مازال خلال فترة التعليم الجامعى . ويتضح من ذلك إرتفاع نسبة الأمية بين مرتكبى العنف وأيضا ارتفاع نسبة من يقرأ ويكتب ، وهو مستوى يشارك فيه انريفيون الى حد كبير ، ومن ثم يجعل هــذه النتيجة تتسق مع مجموعة النتائج الســابقة . هــذا بالاضافة إلى أن ارتفاع

هـذه النسب يرجع الى أن التعليم يكسب الشخص مرونة وتقديرا أعلى للمسئولين ورشدا أكثر فى السـلوك مما يزيد من نسبة الأميين المشـاركين فى وقائع العنف عن نسبة المتعلمين .

ه — أما فيما يتعلق بخصائص المشاركين فى العنف كمجنى عليهم : فيتضح أن احصاءات الأمن العام لا تحتوى على بيانات كافية عنهم . وذلك لعدم مسئوليتهم الايجابية عن واقعة العنف ، الا اذا حاولنا جمع بعض البيانات عنهم من واقع القضايا موضع التحليل . وهـذه البيانات وان كانت قليلة الا أنها تظل كافية لالقاء الضوء على بعض خصائصهم العامة .

١ — وفيما يتعلق بنوع المجنى عليهم يتضح أنهم كلهم من الذكور بحيث لم يرد ذكر سـيدة واحدة . وذلك يرجع لطبيعة وضع المرأة فى المجتمع المصرى من حيث عدم اباحة مشاركتها الواضحة فى الحياة الاجتماعية . هـذا الى جانب أن وجود المرأة كمجنى عليهـا لابد وأن ينخفض فى مجتمع يضع كثيراً من التحريمات حول امكانية التعرض للمرأة .

٢ — وفيما يتعلق بسن المجنى عليهم ، نجد أنه من بين ٣٤ شـخصا مجنى عليهم ورد ذكرهم فى بعض القضـايا نجد أن ١٢ شـخصا منهم بنسبة ٣ر٣٥ فى الفترة من ٤٠ — ٥٠ وان ١١ شـخصا بنسبة ٣ر٣٢٪ فى السن بين ٣٠ — ٤٠ سنة ، وأن ٨ أشخاص فى السن من ٢٠ — ٣٠ سنة بنسبة ٥ر٢٣٪ ، اذا فالفترة بين ٢٠ — ٥٠ سنة يتركز فيها المجنى عليهم بنسبة ١ر٩١٪ . حيث تكون هـذه السن عادة هى السن المعتادة لفاعلية مستخدمى الدولة ، ومن ثم يكونوا هم فى العادة الهدف الذى يتجه اليه العنف ، أو هى سن التفاعل بشكل عام .

٣ — وبالنسبة لمهنة المجنى عليهم نجد أن المهنة قد اتضحت بالنسبة لنحو ٧١ شـخصا فى القضـايا موضع التحليل ، وبتصنيفها يتضح أن نحو ٢٠ شـخصا ٨ر٤٠٪ مهنتهم شرطى ، وأن ٢٤ شـخصا بنسبة ٨ر٣٣٪ ومهنتهم الفلاحة ، وأن ١٢ شـخصا بنسبة ٩ر١٦٪ ضـابط شرطة ،

وأن اربعة اشـــخاص مفتش تموين بنسبة ٩ر١٦٪ وشخص واحد بنسبة ٤ر١٪ تاجر وشخص واحد بنسبة ٤ر١٪ بقال . ومن الملاحظ بناء على المعطيات الســـابقة أن الشرطة كمهنة سادت عند نحو ٤١ شخص بنسبة ٧ر٥٧٪ وأنهم بالاضافة الى فئة مفتش التموين يصبحون نحو ٤٥ شخص بنسبة ٣ر٦٣٪ من مجموعة الأشـــخاص . وهذا يوضح أن غالبية العنف الجمـــاهيري يكون موجها عادة ضد الســـلطة وبخاصـــة ضـــد الشرطة كأحـــد أجهزتها .

٤ ـــ أما بالنسبة للمستوى التعليمي للمجنى عليهم ، فنجد أنه من بين ٦٥ شـــخصا تم تسجيل مستواهم التعليمي في القضـــايا موضع التحليل ، نجد أن عدد ٣٨ شخصا منهم بنسبة ٤ر٥٨٪ أميون ، وأن ١٦ شـــخصا بنسبة ٦ر٢٤٪ تعليم عالي ، وأن ١٠ أشخاص بنسبة ٣ر١٥٪ يقرأ ويكتب ، وأن شخصا واحدا بنسبة ٥ر١٪ في مستوى التعليم الاعدادي . ويتضح مما سبق أن الأمية تلعب دورا محوريا في تحـــديد المستوى التعليمي للمجنى عليهم وهي خاصية تؤكدها النظرية العامة للتجريم . اذ تؤكد أن الأميـــة تفرض عادة عنف الســـلوك المنحرف .

٤ ـــ وفيما يتعلق بالأدوات المســـتخدمة في العنف . فاننا نجد أنه وفقا لاحصاءات الأمن العام فان الأرقام التي تتعلق بطبيعة الآداة المستخدمة في ارتكاب العنف لها علاقة بالبيانات المتعلقة بالسياق الاجتماعي أو بخصائص الجناه . ومنذ البداية نجد تنوعا في الأدوات المســـتخدمة في العنف . حيث نجد أن الأســـلحة النارية تشـــكل الأدوات الغالب استخدامها . اذ تصل عدد مرات استخدامه الى ٨٩ مرة بسبة ٥ر٢٢٪ من جملة ٣٩٣ تكرار . يلي ذلك اســـتخدام العصا بعدد ٧٨ مرة بنسبة ٢٠٪ ، ثم اســـتخدام أدوات حادة بنحو ٥٤ مرة بنسبة ١٤٪ ثم اســـتخدام الأيدي ٥٤ مرة بنسبة ١٤٪ ، ثم الســـلوك العنيف ٣٨ مرة بنسبة ٧ر٩٪ ثم اســـتخدام آداة صلبة ٢٤ مرة بنسبة ١ر٦٪ ثم المطواة ســـبعة مرات بنسبة ٩ر١٪ ثم التهديد بالســـلاح ٣ مرات بنسبة ٨ر٪ ثم السب ٢ مرة بنسبة ٥ر٪ ثم

التخريب مرة واحدة بنسبة ٣ر٪ ثم اشعال النار مرة واحدة بنسبة ٣ر٪ بينما لم تتضح طبيعة الأدوات فى نحو ٨ وقائع بنسبة ٢٪ من مجموع وقائع العنف . ويتضح مما سبق أن هناك أدوات تكرر استخدامها كثيراً مثل الأسلحة النارية ، واستخدام العصا ، والأدوات الحادة ، والأيدي والسلوك العنيف . اذ تتكرر هذه الأدوات الخمسة فى نحو ٣١٣ واقعة بنسبة ٧٨٫٦٪ بينما يتكرر استخدام ١٣ آداة فى ٧٢ واقعة بنسبة ١٩٫٤٪ بينما ٨ وقائع بنسبة ٢٪ لم تتضح طبيعة الوسائل المستخدمة فيها (٥٧) .

ويوضح النظر فى طبيعة الأدوات المستخدمة أنها تتفق الى حد كبير مع توزيع القصد من ارتكاب العنف فمعظم الوقائع تقع بقصد التخلص من الثأر أو العصا هى الأدوات الأكثر ملائمة لموقف العنف بالنسبة لكلا مطاردة السلطات أو مقاومة هذه السلطات . وفى العادة يكون السلاح النارى أو العصا هى الأدوات الأكثر ملائمة لموقف العنف لكلا الطرفين . هذا بالأضافة الى الاطراد الغالب لاستخدام العصا فى السياق الريفى ، الى جانب امكانية استخدام الأسلحة النارية خاصة فى الوجه القبلى ، بالاضافة الى ذلك فان الأدوات الغالب استخدامها تتلاءم مع خصائص غالبية المشتركين فى العنف من ذوى الأصول الريفية ، بحيث تكون آداة كالعصا ملازمة للشخص فى حركته اليومية .

(د) موقف العنف ، عناصره وطبيعة التفاعل فى اطاره :

سوف نحاول فى هذه الفقرة الاقتراب قدر الامكان من التفاعل الذى يحدث فى موقف العنف . وسوف نجاهد قدر الامكان أيضا فى البقاء قريب من الحقائق الملموسة وان كان ذلك قد يكون على حساب التجريد أو التعميم النظرى . وفى اطار ذلك سوف ينصب اهتمامنا على موقف العنف من حيث ديناميأته الداخلية ثم طبيعة مواقف الأطراف فى اطاره ، وطبيعة التفاعل المتبادل بين مختلف الأطراف . وقبلا ما هى ملامحهم ومصالحهم التى تؤهلهم للتصادم أو لتبنى السلوك العنيف . وسوف نعرض لهذا التحليل من خلال مسألتين :

١ ـــ موقف العنف ، خواصه وعوامله المتفجرة .

٢ ـــ أطراف العنف ، ملامحهم وتصور كل منهم للآخر .

ذلك أننا ندرك أن موقف العنف يتميز بكونه موقف غير متوازن من حيث طبيعة التفاعل أو العلاقات المتبادلة بين مختلف الأطراف وأن واقعة العنف هى بداية استعادة هذا الموقف كنسق فرعى لتوازنه من جديد ، وهو الأمر الذى سوف نوضحه من خلال تحليلنا .

١ ـــ موقف العنف ، خواصه وعوامله المتفجرة : وفى اطار هـــذه الفقرة ســـوف يكون التركيز أساسا على فحص التفاعل الدينامى لموقف العنف لتحديد بعض خواصه المميزة ، أو بعض العوامل ذات الدور الفعال فى اثارته . وذلك تمهيدا لتوضيح تفاعل الأطراف فى اطاره .. ومنـــذ البداية نجد أن الموقف فى نمطه المثالى يتكون من فاعلين ، أفرادا كانوا أم جماعات هم أطراف الموقف . كل منهم يؤدى فعله لتحقيق أهدافه بوسائل تبررها الثقافة والقيم الســـائدة . وفى الحالة المثالية للتفاعل بين أطراف الموقف فاننا نجد أن كل منها يأتى فعلا يتسق تماما مع توقع الآخرين . ولا يقع الصدام بل ويتحقق التوافق الكامل اذا حدث التزام مبدئى وكامل من كافة أطراف الموقف بمبادىء الســـياق الثقافى والأيديولوجى الســـائدة بالموقف . أما اذا لم يتحقق هـــذا الالتزام فان ذلك من شـــأنه أن يؤدى الى موقف صراعى فى أقصى الحالات وخلافى أو مهتز التنظيم فى أقلها . اســـتنادا الى ذلك يتميز موقف العنف بمجموعة من الخصائص التى تجعله يبتعد كثيراً عن خصائص الموقف الاجتماعى فى نمطه المثالى ، ونعرض فيما يلى بعضا من هـــذه الخصائص .

١ ـــ وتتصل الخاصية الأولى لموقف العنف بفشل توقعات الطرف المسبب للعنف بمسلك ورد فعل الطرف الآخـــر المرتكب للعنف . هـــذا بالاضافة الى اقتناعه الكامل بتصوره الذاتى للموقف وترتيبه لمكانة الأطراف فى اطاره ، وادراكه لأهميـــة أهدافه وفاعلية الوسائل والقيم التى يتبناها .

واذا كان موقف التفاعل يتميز فى نموذجه المثالى بتكامل توقعات الأطراف ، فانه فى حالة موقف العنف تكون الأطراف لديها توقعات عكسية ومضادة لسلوكيات بعضها البعض (٥٨) (*) ويرجع فشل توقعات الأطراف لبعضها البعض كما أشرنا الى عدم استيعاب الأطراف لقيم وثقافة وأيديولوجية المجتمع العام بدرجات متساوية .. أو تأسيس الأطراف — أو أى منها — لقيم تحكم فعلها أو اشتقاقها من ثقافات أخرى قوية ، لها وجودها وبروزها على حساب الثقافة العـــامة والقوميه .

٢ — وتتعلق الخاصية الثانية لموقف العنف بمدى محورية جوهر النزاع بالنسبة لطرفيه . فكلما كان الموضوع الذى اعتدى عليه الطرف الأول ذا أهميـــة بالنسبة للطرف الآخر ، كلما كان رد فعل الأخير متسما بالعنف والضراوة . وفى قضـــايا العنف التى تم تحليلها يتعلق جوهر النزاع عادة اما بضرب أحد المواطنين حتى تهـــديد حياته بالموت ، أو التهديد بانتزاع الأرض كوســـيلة للانتاج ومصدر للرزق (*) . وفى هـــذه الحالة يكون

(*) فى قضية الســـيدة زينب رقم ٥٠٤٥ لســـنة ١٩٧٣ حين وقع الاعتداء على القتيل فى قسم البوليس لم يكن هناك توقع برد فعل جماهير الحى بأكمله ، وبهذا المستوى من العنف الذى ســـبب اتلافات هائلة . وفى قضية العتبة رقم ١٩٠ لسنة ١٩٧٤ لم يتوقع أمين الشرطة الذى ضرب جندى القوات المســـلحة قيام رد فعل من قبل الجمهور وجنود الجيش على هـــذا النحو . وبهذا التطرف والقوة . كذلك كان الموقف فى قضية اللبان رقم ٦٢٦ لســـنة ١٩٧٤ وقضية ســـمنود وروض الفرج وبلبيس . اذ أنه لو توقع الطرف الاول منـــذ البداية السلوك الذى سوف يشـــكل رد فعل الطرف الآخر لفعله لاحجم عن ما يسبب العنف منـــذ البداية .

(*) فمثلا فى قضية الســـيدة زينب رقم ٥٠٤٥ لســـنة ١٩٧٣ كان موضوع القضية وجوهرها هو قتل أحد افراد الحى . وكان الموضوع فى قضية العتبة رقم ١٩٠ لســـنة ١٩٧٤ هو ضرب أحد جنود الجيش حتى أغمى عليه ، بل اعتقـــد الجمهور أنه قتل . وفى قضية بلبيس رقم ١٨٩٥ لســـنة ١٩٧٢ كان النزاع حول الأرض مصدر الرزق هو المفجر للعنف .

الطرف الآخر الذى تهددت مصالحه عنيفا فى الدفاع عن نفسه وعن مصالحه . بذلك يكون الطرف الآخر الذى حمل معه تهديد الذات أو المصالح هو الطرف الحقيقى المسبب للعنف .

٣ — وتتعلق الخاصية الثالثة لموقف العنف بمدى تعادل قوة الطرفين . فكلما تقاربت قوة الطرفين ، كلما كان من المحتمل أن يؤدى ذلك الى استمرار موقف العنف . بحيث يحدث ما يسمى بالتوازن داخل الصراع . وهو التوازن الذى يؤدى الى دعم التماسك الداخلى لكل جماعة تشكل طرفا فى العنف . وفى هذا الاطار يتخذ التفاعل شكل التغذية المرجعية (٥٩) . فكلما زاد التهديد الخارجى من أحد الأطراف فانه يؤدى الى التماسك الداخلى لجماعة الطرف الآخر . ومن ثم التباين بين الجماعتين ، ومن ثم الصدام اللذان يؤديان بدورهما الى زيادة التماسك الداخلى ، والى مزيد من التباين مع الجماعة الأخرى فى نفس الوقت ، ومن ثم زيادة احتمالية الصراع (*) .

وفى قضية اللبان رقم ٦١٦ لسنة ١٩٧٤ كان ضرب أحد المواطنين حتى الموت فى قسم البوليس هو جوهر النزاع . ومن ثم فكلما كان جوهر النزاع له أهميته ومحوريته ، كلما توقعنا أن يكون العنف المترتب على تهديد جوهر النزاع حادا .

(*) مثال على ذلك ما حدث حينما كانت قوات الشرطة والأمن المركزى فى مواجهة غالبية حى السيدة زينب فى القضية رقم ٥٠٤٥ ، وزين العابدين والقصر العينى والمنيرة . كذلك كانت الشرطة والأمن المركزى فى مواجهة جنود الجيش وبعض الأهالى فى حى العتبة وبولاق والموسكى والدرب الأحمر فى القضية رقم ١٩٠ . وقد حدث نفس الشىء فى روض الفرج فى القضية رقم ٤٢٨٣ . ويمكن القضاء على هذا الموقف الصراعى بزيادة قوة أحد أطرافه ، كما حدث فى قضية سنود رقم ٣٩٨٠ لسنة ١٩٧٥ . حيث أدت زيادة قوات الشرطة الى القضاء على موقف العنف ، أو عن طريق تخفيض قوة الطرف المعتدى — معنويا على الأقل — . كأن يعمل الطب الشرعى والقضاء فى صالح المجنى عليه مما يخلق لدى هذا الطرف احساساً بالأمان . كما أنه ينفى فاعلية التهديد الخارجى كما حدث فى قضية قسم اللبان . أو عن طريق القضاء الكامل على الطرف الآخر كما حدث فى قضية مينا البصل رقم ١٦٣٣ لسنة ١٩٧٤ .

٤ — أما الخاصية الرابعة فى موقف العنف فتتمثل فى نشأة ما يمكن أن نسميه بالتصورات الخاطئة لكل طرف عن الطرف الآخر . اذا حدث ذلك فانه يهــدد أولا تتأسيس العنف ، وثانيا باســتمراره لحين اتضاح الموقف (**) .

٥ — وتتصل الخاصية الخامسة بامكانية تأسيس ملامح متناقضة فى موقف العنف . بحيث تنفصل الجماعتين — أطراف العنف — استنادا الى هــذه الملامح انفصالا يكون شبيها بالانفصال الطبقى . من هذا التناقض — حول ملامح محددة — من شأنه أن يزيد الموقف اشتعالا (*) .

٦ — وتتعلق الخاصية السادســة لموقف العنف بروز ما يمكن أن يسمى برأس الحربة ورأس الحربة المضادة أو المستهدفة . ونقصد برأس

(**) أكثر الأمثلة دلالة على ذلك ما حدث فى قضية بلبيس رقم ١٨٩٥ ، اذ تصور المستأجرون منــذ بداية أن موظفى الحكومة قادمون للاســتيلاء على الأرض ، مع أن الحقيقة كانت غير ذلك • ومن ثم فلو تم توضيح الموقف منــذ البداية لأمكن تجنب قيام العنف . كذلك قضية ســمنود رقم ٣٩٨٠ ، حيث تصور الفلاحون أن ضابط الشرطة يناصر أهل الزوجة لمجرد أنهم رأوه قادما معهم . هــذا بالاضافة الى أن الحادثة وقعت يوم الجمعة والنيــابة لا تعمــل يوم الجمعة • ومن ثم فقــد اعتقدوا ان مجىء الضابط لم يكن بحسب اذن رسمى كما أوضحوا ذلك فى التحقيق . كذلك قضية روض الفرج حيث رأى المتهم الشرطة قادمة بصحبة الشــاكى ، بحيث ولد ذلك لديه انطباعا بانحياز الشرطة .

(*) مثل هــذا التناقض من شأنه أن يزيد الموقف اشتعالا . وعلى ســبيل المثال فى قضية بلبيس رقم ١٨٩٥ نجد أربعة موظفين حكوميين يذهبون لمعاينة قطعة أرض تبرع بها أحــد الملاك (رئيس مجلس القرية) لبناء مدرســة عليها . وتعتبر قطعــة الأرض هــذه المصدر الوحيد لحياة جماعة من الفلاحين وأسرهم ، تمهيدا لانتزاعها . وأثناء انجاز الموظفين لهذا العمل كانوا ينتقلون بالســيارات الحكومية . هنا يبرز التناقض بين موظفى الحكومة وسياراتهم وهدفهم لانتزاع أساس لقمة العيش من ناحية وبين الفلاحين الذين يعانون من احتمال الحرمان الناتج عن احتمالية انتزاع قطعــة الأرض ، مصدر رزقهم الوحيد من ناحية أخرى .

الحربة الأشـــخاص المشتركين فى رد فعل العنف بسبب وقوع ضرر مباشر عليهم من جراء جوهر العنف وموضوعه الرئيسى . ومن ثم يكون الأشـــخاص المشكلين لرأس الحربة هم فى العادة قادة تفاعل العنف فى بدايته (**) . ولكى تكون رأس الحربة فى كامل قوتها فان العنف يقوده عادة أشـــخاص تنتفى عنهم المســـئولية الجنائية أو على الأقل تتخفف كما فى قضية بلبيس حيث تكونت رأس الحربة من النســـاء والأطفال ، وفى قضية ســـمنود تكونت رأس حربة البداية من النســـاء والأطفال أيضا . أما رأس الحربة المضادة أو المستهدفة فانها تتكون عادة من أضعف المناطق فى الجماعة المضادة . ففى الريف نجد أن القرويون يهاجمون الخفراء والعساكر دون الضباط ، واذا هوجم الضباط فبشكل غير مباشر كما فى قضية ســـمنود . وفى قضية السيدة زينب وقضية العتبة نجد أن الجماهير تهاجم أمناء الشرطة والعساكر وليس ضباط الشرطة . ربما ذلك للاعتقاد بأن الجزاء ســـيكون أخف بالنسبة للفئات موضع الهجوم (الخفراء والجنود) أو قد يكون الهجوم عليهم بسبب كثافة تعرضهم . أو لأن هناك راسبا تاريخيا مستوعبا فى بناء الشخصية بالمجتمع المصرى يجعل الفرد يجفل من الهجوم على كبار رجال السلطة .

٧ — وتتمثل الخاصية الســـابقة فى أن ما يشعل موقف العنف ويزيد الصراع درامية هو عدم وجود ملامح متجانسة أو مشتركة بين طرفى العنف ، بحيث يؤدى الاشتراك فى صفة أو فى مجموعة من الصفات الى امكانية

(**) ففى قضية الســـيدة زينب رقم ٥٠٤٥ تمثلت رأس الحربة فى أقارب القتيل المباشرين . وفى قضية ســـمنود رقم ٣٩٨٠ لســـنة ٢٩٧٥ كانت رأس الحربة متمثلة فى الأقارب المباشرين أيضا . وفى قضية اللبان رقم ٦١٦ لســـنة ١٩٧٤ كانت رأس الحربة مكونة من جنود الجيش زملاء المجنى عليـــه والجمهور . حيث تجانس المجنى عليه مع جنود الجيش باعتباره أحدهم ، ومع الجمهور ، لأنه كان يلبس ملابس مدنية مثلهم ، هـــذا الى جانب أن غالبية الجمهور من المؤكد أن لها أبناء فى الجيش ، وبطبيعة الحال من الممكن أن يتوحد الجمهور وجنود الجيش المجندين فى مواجهة الشرطة التى ترمز الى السلطة بالنسبة لكل منهما .

تأسيس منطقة من التفاعل المشـــترك الذى من الممكن أن يمهد للوصول الى أسس اتفاق بين الطرفين . واعتبار نطاق الاتفاق قنطرة العبور بين الطرفين لتسوية أساس الصراع . حيث تكرر انفصال الطرفين عن بعضهما البعض بشـــكل حاد فى كل القضـــايا موضع التحليل .

٢ — أطراف العنف ، ملامحهم وتصدر كل للآخر : ركزنا فى الفقـــرة السـابقة على مجموعة الملامح التى تسـود موقف العنف . أما فى هــذه الفقرة فسوف نحاول القاء الضوء على خصائص أطرافه المتصارعة . وتصدر كل طرف للآخر وتوقعه لفعله أو رد فعله . وفى اطار ذلك فانه وفقا للقضايا موضع التحليل نجد أن أحد أطراف موقف العنف هى جماعة العنف التى تتكون فى الغالب من أفراد الجمهور فى مواجهة الطرف الآخر الذى كان فى غالب الأحيان الشرطة (فى أغلب القضايا) أو الموظفين العموميين (قضية واحدة) . وعلى ذلك فسوف نتحدث عن أطراف موقف العنف على النحو التالى :

١ — خصائص جماعة العنف ، وتصورها للطرف الآخر .

٢ — الشرطة رمز للسـلطة ، كطرف فى موقف العنف غير أنه من الضرورى أن نلاحظ أن الأمر يختلف كثيرا لو تنوعت الطبيعـة الأساسية بالنسبة لجماعة الجمهور كطرف فى الموقف (بالنظر الى الأبعاد الطباقية أو التعليم ، أو الريفية الحضرية) أو بالنسبة للشرطة لو انه قد حل محلهم الموظفين العموميين مثلا .

١ — خصائص جماعة العنف وتصورها للطرف الآخر : من خلال تحليل مجموعة القضايا التى وصلت اليها برزت مجموعة من الخصائص التى تميز جماعة العنف من حيث بناؤها وسلوكها وتصورها للطرف الآخر . وفيما يلى ذكر لبعض هــذه الخصائص .

— الخاصية الأولى لجماعات العنف فى هــذه القضايا أن جماعات

العنف تنتمى أما الى الأحياء الشـــعبية فى قلب التجمعـــات الحضرية . أو لســـكان الريف من المستويات الاجتماعية الاقتصادية الدنيا . ويرجع جون سكوت ســـيادة العنف فى الأحياء الشـــعبية أو بين ســـكان الريف الفقراء الى المعاملة القاسية التى تلقاها هـــذه الجماعات من الشرطة ويؤكد (أن دموية الذئب لا تولد معه ولكنها تأتى اليه نتيجة للافراط فى تخويفه والقســوة عليه (٦٠) . ويضيف الى ذلك ســـببا آخر يتعلق بهذه الجماعات ويتمثل فى أنها تشكل الاطارات التى يصبح الحرمان فيها واضحا ، يهـــدد الحياة ذاتها ، أحيانا كالقتل فى معظم القضايا أو تهديد مصدر الحياة والدخل فى البعض الآخر من القضايا ، كالطرد من الأرض الزراعية . هـــذا الى جانب اعتقاد الشرطة أن ســـكان بعض الأحياء أو المستويات الاجتماعية المعنية سوف يستجيبون للتخويف والمعاملة الخشنة (٦١) (*) .

ويتسق مع ما سبق أن هـــذه الجماعات تعيش عادة فى ظل حالة من الحرمان النسبى . فرجال الشرطة مثلا فى بعض القضايا أكثر استقرارا من الناحية المـــادية والمهنية بالنظر الى ساكنى هذه الاحياء كما فى قضايـــا (العتبة ، السيدة زينب ، اللبان ، روض الفرج) . وموظفى الدولة لا شك أنهم أكثر رفاهية من فقراء الريف كما فى قضايا (ســـمنود ، بلبيس) . يقابل ذلك ما تبثه الأجهزة الاعلامية من أفكار كالمساواة ، والحـــرية ،

(*) على سبيل المثال ، نجد فى قضية العتبة رقم ١٩٠ أن جماعة العنف كانت منتشرة فى أحياء العتبة والموسكى والدرب الأحمر ، بولاق ، باب الخلق ، بينما شـــارع عدلى وشـــارع فؤاد الواقع فى قلب هـــذه الأحياء مع الشرطة كطرف مضاد . وفى قضية السيدة زينب رقم ٥٠٤٥ كانت جماعة العنف منتشرة فى كل حى السيدة زينب وزين العابدين والدرب الأحمر والمنيرة . وفى قضية حى اللبان رقم ٦١٦ كان سكان . حى اللبان هم جماعة العنف . وفى بلبيس تكونت جماعة العنف فيها من الفلاحين المستأجرين . وفى قضية ســـمنود كانت جمـــاعة العنف من الريفيين الذين ينتمون الى المستويات الدنيا . وفى قضية روض الفرج كان بعض ســـكان حارات الحى هم جماعة العنف .

والديمقراطية ، وخدمة الشعب ، والشعب فوق كل شيء . بحيث نجد موقفا متناقضا ومثيرا ، ففى مواجهة رفع الطموح وتوقع الاشباع نتيجة للفاعلية الاعلامية نجد الفقر والمعاناة الواقعية ، بل والتهديد بسلب الحياة أو لقمة العيش . هنا يصبح الصدام متوقعا ، ورد (٦٢) الفعل عنيفا ، لأن فعل الطرف الآخر يهدد الوجود من أساسه .

— وتتمثل الخاصية الثانية فى تجانس جماعة العنف ، وبتأسيس التجانس عن طريق الاشتراك بنفس القدر فى واحدة أو أكثر من الصفات .. فاذا نظرنا الى حى السيدة زينب ، أو العتبة أو الموسكى ، أو الدرب الأحمر ، روض الفرج ، النبان ، قرية فى مركز سمنود ، أو بلبيس فسوف نجدها جميعا تجمعات أيكلوجية تسودها تجانسات أو لا فى نمط الحياة ، الدليل على ذلك أن المقبوض عليهم شخصيات نمطية فى هذه التجمعات ، كالطلبة والعمال غير المهرة والبائعين والريفيين . وهذه الجماعات تتماسك عادة داخليا من خلال شبكة العلاقات القربية أو علاقات الجيرة المؤسسة على علاقات الوجه لوجه . هذا بالاضافة الى اشتراكها فى مستوى اجتماعى اقتصادى واحد وأدنى ، هذا الى جانب أن هذه الجماعات تكون فى الغالب متماثلة من حيث اهتمامات حياتها اليومية ، بحيث يخلق لديها كل ذلك اشتراكا فى بعض الخصائص التى تؤدى بدورها الى خلق هوية موحدة تصبح أساسا لموقف واحد ضد أى آخر يهدد هذه الجماعة من الخارج . وهذا ما حدث بالفعل فى معظم القضايا . وهو المسئول عن تفسير انتشار العنف أيكلوجيا فى الأحياء الشعبية ذات الخصائص المتقاربة فى مستواها الاجتماعى الاقتصادى ، وفى قيمها الثقافية ، وفى نمط حياتها اليومية ، وأيضا فى مهن غالبة تسودها . وأحيانا يكون التجانس أو الاشتراك فى صفات ذات طبيعة عرضة أو موقفية ، كأن يكون الزى هو الصفة المشتركة بين جماعة من الجماعات فى موقف العنف كما حدث فى قضية الجيزة رقم ٣٠ حيث جنود الجيش مع الأمن المركزى فى ناحية فى مواجهة الجمهور والبائعين المتجولين فى حديقة الحيوان من ناحية أخرى .

قد يكون التجانس مستقبليا يتمثل فى امكانية التعرض لموقف كما حدث فى قضية العتبة رقم ١٩٠ حيث تجانس الجمهور بسبب آما أنه كان جنديا فى الجيش فى يوم ما أو لأن له ابن أو قريب بالجيش ، أو لامكانية أن يواجه هو أو أى من أقاربه بنفس السلوك من قبل الشرطة . ومن ثم نجد أن الجمهور يتقمص موقف المجنى عليه أو مجموعة أفراد رأس الحربة .

— وتتعلق الخاصية الثالثة بالملامح الأساسية للأحياء الشعبية كتجمعات انتقالية فى قلب السياقات الحضرية . ذلك يؤدى الى بروز ثلاثة صفات رئيسية لها . الأولى أنها سياقات تمتلىء بالأقليات ومن شأن ذلك أن يؤجج روح العصبية والقبلية الجماعية ويؤسس أيضا الموقف الجماعى لمواجهة أى فعل طارىء من الخارج . والثانية أن مثل هذا التكوين يفرز عادة زعامات أو قيادات لهذه الأقليات . بحيث يعتبر المساس بهذه الزعامات مصدر اثارة لأى من هذه الاقليات . أما الصفة الثالثة فتتمثل فى أنه نظرا لطبيعة التكوين على هذا النحو . فان هذه السياقات تظل دائما مجالا لتوترات كثيرة نتيجة للتفاعل بين هذه الأقليات ذاتها ومن ثم فكما يذهب لويس كوزر أن أى تهديد خارجى لها نجده يوحد انقساماتها الداخلية فى موقف واحد . ومن ثم يزيد من تماسكها الداخلى (٦٢) (*) .

— وتؤكد الخاصية الرابعة على أن سكان الأحياء الشعبية يحملون عادة اتجاها ونظرة خاصة الى الشرطة التى تمثل بالنسبة لهم دوراً ضبطيا . ومن ثم مقيدا لحريتهم . ومن الواضح أن هناك عداء ضمنيا له أساسه التاريخى ، يتمثل فى اجراءات السخرة ، أو الدور الشرطى الذى كان ينفذ

(*) مثال على ذلك أنه نظرا لأن قسم اللبان يعتبر حيا شعبيا فى الاسكندرية ويجمع عديداً من الأقليات — وهو التكوين السائد لمدينة الاسكندرية بشكل عام — فان قضية قسم اللبان وقعت أساسا بسبب تصادم الأقليات مع بعضها البعض ، ثم بين هذه الأقليات أو بعضها من ناحية والشرطة من ناحية أخرى . وذلك حينما مات أحدهم نتيجة لضرب الشرطة وقسوتها . كذلك الأمر فى حى السيدة زينب .

ـــ رغما عنه ـــ أوامر الاستعمار والسلطة السياسية المتحالفة معه خلال فترة العشرينات والثلاثينات والأربعينات . ومن شأن هـــذا العداء الذى له خلفيته التاريخية أن يظهر بصورة عابرة أو موقفية ـــ بالرغم من تغـــير الظـــروف المحيطة وتغير طبيعـــة السلطة ودور الشرطة فى المجتمع ـــ اذا اتخذت الشرطة بعض الاجراءات أو السلوكيات التى يعتبرها ســـكان هـــذه الأحياء مهددة لوجودهم (**) .

ـــ وتتعلق الخاصية الخامسة بأسلوب عنف هـــذه الجماعات مع الشرطة . اذ تلجأ هـــذه الجماعات فى عنفها عادة الى الوســـائل التى تجنبها تحمل مســـئولية ارتكاب هـــذه الأفعال . أو الوســـائل التى تتيح لها أن تكون بعيدة عن متناول القبض عليها فى نفس الموقف . كأن تستخدم الحجارة كوســـيلة للعنف والايذاء من على مسافة بعيدة لا تيسر القبض المباشر عليها . أو نجدها تحتمى عادة فى الهجوم الجماعى دون الفردى كما حدث فى قضية السيدة زينب رقم ٥٠٤٥ ، اذ لم يبدأ عنف الجماهير الفعلى الا بعد أن تمت اثارة الجماهير عن طريق القتيل والدوران بـــه فى الحى . أو قد تتبع الجماهير أســـلوب الضرب والهرب السريع كما حدث فى معظم قضايا العنف . أو الضرب من مكان جيد الاخفاء كما حدث فى هرب الفلاحين الى حقول الذرة بعـــد قذف الحجارة كما فى قضية ســـمنود . أو دفع أشـــخاص يعتقد انتفاء مسئوليتهم الجنائية . كدفع النســـاء والأطفال الى القيام ببعض سلوكيات العنف فى البداية . وذلك يرجع الى أن ساكنى هـــذه الأحياء يكونوا عادة من البسطاء الذين يفتقدون آية امكانية اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية تساعدهم على التخلص من الادانة فى مقابل امتلاك الطبقات أو الشرائح الأخرى بعضا من هـــذه الامتيازات . وأيضا لأن لديهم تصور واضح ـــ نتيجة لخبراتهم ـــ لمدى القسوة التى

(**) مثال على ذلك أن ما سبب الاثارة فى قضية السيدة زينب هو قتل شخص اثناء احتجازه فى قسم الشرطة ، أو تصور محاولة الاستيلاء على الأرض كما فى قضية بلبيس ، أو محاولة القبض عنوة على شـــخص فى روض الفرج .

يعاملون بها من قبل الشرطة فى حالة القبض عليهم .

ـــ وتتمثل الخاصية السادسة فى أن هجوم جماعات العنف فى الأحياء الشـــعبية يتسم عادة بخاصة تجانس الأهداف الذى يتجه اليها العنف . اذ يهاجم ســـكان هـــذه الأحياء عادة الهدف وكل الأهداف التى تتجانس معه . ففى قضية السيدة زينب الواقعة الرئيسية وقعت فى قسم شرطة السيدة زينب ، غير أن الجمهور حينما هاجم قسم الشرطة هاجم نقطة شرطة قسم زين العابدين وقسم شرطة الدرب الأحمر . بالاضافة الى ذلك قاموا بحرق عربات شرطة الأقسام ، ومركبات النقل العام ، وبعض السيارات الخاصة وبعض المحلات الحكومية (باعتبار أن السيارات الخاصة مملوكة لشريحة طبقية هى أقرب للسلطة من الجماهير) . اذن فجميع الاتلافـــات أو الاهداف موضع الهجوم تنتمى الى فئات ذات ملامح مشتركة وتختلف عنهم . وفى قضية العتبة يتكرر نفس الأسلوب . وفى قضية الجيزة هاجم جنود الجيش البائعين الجائلين وأكشاك البيع والكازينوهات ، وذلك لأن هدف العنف الأول كان بائعا ، ذلك يحدث بسبب طبيعـــة الادراك المميز لهذه الجماعات والتى تميز الأشـــياء وفقا لأبعاد ذات طبيعة شمولية .

ـــ وتتعلق الخاصية السابقة بالطبيعة السيكلوجية لجماعات العنف فى الأحياء الشـــعبية . فنظرا لأن هـــذه الجماعات تعنف اذا أحست بأن حقوقها مهددة فانها تتراجع عادة عن العنف اذا هى قد أحست أو تأكد لها ان حقوقها مؤمنة ومحافظ عليها (*) .

ـــ وتشير الخاصية الثامنة الى أن جماعات العنف فى هـــذه الأحياء توحد عادة بين الشرطة أو فئـــة الموظفين العموميين وبين الحكومة . فهى لا ترى وجودا لأى انفصال بينهما . مظهر ذلك أنه فى قضية اللبـــان

(*) مثال على ذلك ما حدث فى قضية قسم اللبان . حيث تأكد لأهل القتيل والذين يدعمون موقفهم أن التحقيق يأخذ مجراه السليم . ذلك يعنى أن عنف الجماهير يتأسس للحصـــول على حقوقها المهددة بالضياع وذلك يعكس دونيه تأثيرها وقدرتها السياسية والاجتماعية .

يسب أخ القتيل قسم الشرطة والحكومة معه . فى نفس القضية يشكو أهل القتيل قسم الشرطة والنيابة والطب الشرعى . كذلك تكررت نفس الخاصية فى قضية السيدة زينب .

— وتؤكد الخاصية التاسعة على أن جماعات العنف تلجأ عادة الى هـذا السلوك كوسـيلة نهائية وأخيرة للحصـول على حقوقها أو اعلان غضبها اذا استنفدت كل الوسائل الممكنة التى تيسر لها الحصـول على هـذه الحقوق . ففى قضية السيدة زينب السـاعة ٥ر١٢ ظهرا ذهب المواطنون الى مديرية الأمن ، والى وزارة الداخلية للشكوى مما حدث . الا أن الجماهير لم تجد استجابة لشكواها . حينئذ قامت الجماهير بالعنف . فى قضية قسم اللبان حدث نفس الشىء . وفى قضية بلبيس لجأ مستأجروا الأرض لعدة سـنوات بالشكوى للحكومة ، فاذا بهم يفاجئوا — عن تصور خاطىء — بموظفى الحكومة قادمين للاسـتيلاء على الأرض . وهنا وجدوا أنه لا مفر من السلوك بعنف معهم .

٢ — الشرطة رمز السلطة ، كطرف فى موقف العنف : استنادا الى مجموعة القضايا موضع التحليل ، والى معطيات التحليل غالبة للغاية فى معظم وقائع العنف . يستثنى من ذلك بعض القضايا النادرة التى كان ممثل السلطة فى الموقف موظفا عاما أو مفتشا تموينيا . ونتيجة لذلك فسوف نركز فى معالجتنا لسلوك الشرطة فى موقف العنف على العوامل التى تحكم سلوك الشرطة كطرف فى الموقف . ومن ثم تصبح أحد مصادر اثارة العنف ، وفيما يلى سوف نستعرض بعضا من هـذه العوامل .

— يتمثل أول هـذه العوامل فى طبيعة دور الشرطة بالنظر الى بناء المجتمع . حيث يجد رجل الشرطة نفسه عادة فى موقف معضل ، فهو من ناحية مطالب من قبل الدولة ، أو السلطة بتنفيذ أوامرها . بيد أن الدور الشرطى له جانب آخر يتمثل فى خدمة الجمهور عن طريق حفظ سلام المجتمع الى جانب بعض المهام الخدمية الأخرى . وفى هـذا الاطار يجد رجل الشرطة نفسه فى موقف معضل بين السلطة والمجتمع .

— وينبثق العــامل الثانى من كون الشرطة هى الجهــة المفوضة باســتخدام العنف اذا تطلب الموقف ذلك لفرض أوامر السلطة . غير أن ذلك — لعدم عقلانية الجمهور — يؤدى الى تولد اتجاهات عدائية ضــد الشرطة ، وذلك نظرا لأن السياق الاجتماعى الذى تسوده بعض ملامح التخلف لا يدرك بوضوح حدود الشرطة كوسيط فى تنفيذ أوامر السلطة . هــذا بالاضافة الى أن رجل الشرطة نفسه قد يخلط بين اســتخدام العنف لتنفيذ أوامر السلطة ، وبين اســتخدام العنف كوســيلة لفرض احترامه ومهابته باعتبــارها غاية لها الأولوية فى موقف التعامل مع الجمهــور . هنا نجد أن الدور الشرطى يســتخدم استخداما غير مشروع . اذ يصبح وســيلة لفرض احترام الوسيلة ذاتها (*) بدلا من اعتبار الشرطة كوسيلة لفرض وجود الدولة وأهدافها كغاية . وللتدليل على ذلك نستشهد بدراسة وليم وستلى على عينة من رجال الشرطة عددها ٧٣ شخصا من مختلف المراتب . حيث ضمن فى هــذه الدراسة ســؤالا عن (متى تعتقد أن لرجل الشرطة الحق فى اللجوء الى العنف ؟) حيث كانت الاجابة على السؤال كما يوضحها الجدول التالى (٦٤) :

جدول يوضح العوامل التى يراها رجل الشرطة سببا لاستخدامه العنف

نماذج الاجابة	التكرار	النسبة ٪
(ا) عدم احترام البوليس	٢٧	٣٧
(ب) حينما لا يمكن تجنب ذلك	١٧	٢٣
(جـ) للحصــول على معلومات	١٤	١٩
(د) لاغتيــال شــخص	٦	٨
(هـ) فى مواجهة المجرم العريق	٥	٧
(و) حينما نعتقد أن المتهم مذنب	٢	٣
(ز) بالنســبة لمجرمى الجنس	٢	٣
المجمــوع	٧٣	١٠٠٫٠

(*) يدرك الجمهور بحسة الاجتماعى ذلك ، ومن ثم نجد أنه يضخم

وتتمثل النتيجة الأكثر بروزا فى هـذا الجدول أن ٣٧٪ على الأقل من رجال الشرطة فى هـذه الدراسة يعتقدون أن العنف مشروع من أجل فرض احترام الشرطة . وأن الشـخص الذى يتحدث مع رجل الشرطة بأسلوب غير لائق يستحق القسوة (٦٥) ، يؤكد ذلك ما حدث فى قضـية قسم اللبان ٦١٦ لسـنة ١٩٧٤ . حيث ذكر بعض الشـهود أن المجنى عليه قد تحدث بأسلوب غير لائق لنائب المأمور فى الشارع . وفى قضـية الموسكى (العتبة) رقم ١٩٠ لسـنة ١٩٧٤ . حيث واجه أمين الشرطة جندى الجيش بالعنف حينما رد الأخير على اهانة الأول بأسلوب غير لائق .

ـ وتعتبر توفر مصادر مشروعية استخدام العنف من العوامل التى قد تسهم أيضا فى سلوك رجل الشرطة مسلكا عنيفا . ومن خلال استعراضه لنتائج دراسـته يذكر وستلى أن مصـادر المشروعية تتمثل فى اعتقـاد رجل الشرطة أن تحقيق غايات الجماعة الأعلى (الدولة أو السلطة) يشكل شرعية أخلاقية تسمو على الشرعية المشتقة من القانون . هـذا بالاضافة الى استغلال رجل الشرطة لامكانية اسـتخدام العنف الموكول اليه من قبل الدولة فى فرض بعض الأهداف المتعلقة بالشرطة ذاتها ولا صلة لها بالدولة أو السلطة . يضاف الى ذلك ان الطرف الآخر قد يشكل أحد مصادر شرعية استخدام العنف من وجهة نظر رجل الشرطة . اذ يبرر رجل الشرطة لجوءه لاستخدام العنف ، بلجوء الطرف الآخر الى العنف . بل اننا نجد أن جماعة الشرطة ذاتها قد تلعب دورها كمصدر يشرع استخدام العنف . ذلك يحدث حينما لا تحدث ادانة داخلية منطلقة من الشرطة كجماعة لابد وأن تمتلك قيما تدين العنف . ومن ثم فان عدم وجود جزاءات تفرضهـا الجمـاعة على لجـوء رجل الشرطة الى العنف يؤدى الى سـلوكه

من احترام رجل الشرطة فى حضوره حتى يتجنب أذاه . فالجندى ينادى (بحضرة الصول) والمساعد ينادى (بحضرة الضابط) ، والعقيد ينادى (بسيادة اللواء) واللواء ينادى (بسعادة الباشا) . اذ يعتبر الجمهور ذلك ميكانيزما ملائماً لجذب عطف رجل الشرطة ورضاه .

العنف دون خوف من احتمالية الادانة • هـــذا الى جانب تفسير الشرطة ذاتها لبعض القوانين تفسيرات تيسر لها اســـتخدام العنف دون ادانة محتملة (*) .

فى اطار ذلك يؤكد جون . ب . ليتون رئيس شرطة واشنطن ، أن دور الشرطة التقليدى فى حاجة الى تغيير أو على الأقل اعادة تجديد وصياغة . اذ لم يعد الســـكير أو اللص مقتحم المنـــازل هم الذين يهددون وحدهم ســـلام المجتمع (٦٦) . هـــذا بالاضافة الى ضرورة الغاء بعض المســـائل التى قد تضر بمهابة المهنة من اطار الدور الشرطى . ومن ثم تجعله يلجأ كثيرا الى استخدام العنف لتأكيد هـــذه المهابة • فمثلا يجب الغاء مسائل استخراج الترخيصات ، أو كتابة الغرامات ، أو تنظيم المرور من الدور الشرطى . اذ من الممكن أن تقوم بهذه الأعمال وظائف أخرى تتطلب تدريبا أقل (٦٧) .

الى جانب ذلك فانه من الضرورى أن نعمل على تأسيس ســـياق ثقافى قيمى يتم استيعابه فى البناء الداخلى لرجل الشرطة . بحيث يمنعه من استخدام العنف . لأن مهمة رجل الشرطة هى حفظ السلام فى المجتمع .

(*) فمثلا تحدد قوانين الشرطة انه فى حالة مطاردة رجل الشرطة لأحد المجرمين فان عليـــه اذا لم يمتثل المجرم وحاول الهرب ، أن يطلق الرصاص على أقدامه ، ثم الى أعلى فى الفخذ ، ثم أعلى الفخذ ثم القتل . على عكس ذلك تبـــدأ المطاردة فى أحيان كثيرة بالقتل . يؤكد ذلك انه فى قضية السيدة زينب لم تدين الشرطة كجماعة سلوك الضابط الذى تسبب فى وفاة المجنى عليـــه . وقد أثار تقـــرير الطب الشرعى فى قضية مينا البصل رقم ١٦٣٣ لســـنة ١٩٧٤ أن رصاص الضابط أطلق على المجنى عليـــه من مسافة تصل الى نصف متر . وأن المقذوفات تخترق الجسم من الأمام الى الخلف فى أعلى الصـــدر ، ولم تحدث فى القدم كما تقـــرر القواعد القانونية الشرطية . بل اننا نجد أن رجل الشرطة يستمد أحيانا شرعية سلوكه العنيف من اعتقاده أن بعض الطبقات أو الشرائح الاجتماعية — الدنيا بطبيعة الحال — لا تستجيب الا بالتخويف والقسوة والمعاملة الخشنة .

وفى اطار ذلك فانه من الضرورى التركيز على ضرورة اتســـاق القيم التى تحكم الدور الشرطى مع القيم العـــامة للمجتمع . أو على الأقل ضرورة أن تشتق الأولى من الأخيرة . بذلك سوف نقضى على التناقضات التى يمكن أن تتخلق فى اطار ذلك . فمثلا فى مجتمع اشتراكى لا يجب أن تسود علاقـــة ذات طبيعة عدائية بين الشرطة أو الموظف العام من ناحية وبين الطبقات الدنيا أو الكادحة التى تشكل الوعاء الأساسى الذى يجب التعاطف معه من ناحية أخــرى .

واســـتنادا الى تأكيد ملتون ركتر Milton Recter من أنه نظـــرا لأن وظيفة الشرطة من أكثر الوظائف حساسية فاننا يجب أن نتعهد العاملين بها لاعدادهم الاعداد الملائم لتحمل أعباء هـــذه الوظيفة ، وهو هنا يؤكد على بعض الوصايا التى يجب أن نأخذها فى الاعتبار . من ذلك مثلا أن اختيار رجل الشرطة ينبغى أن يتم بدقة بحيث ينبغى أن نركز على اختيار أشـــخاص ذوى استواء فى بنائهم النفسى ، وهو الاستواء الذى يؤهلهم لامتلاك مجموعة من القيم والمعايير التى تبعدهم كثيرا عن الستخدام الســـهل للعنف فى مواجهة الجمهور (٦٨) . اذ يجب اجراء الاختبارات الفعالة لتخليص الشرطة من مجموعة الساديين الذين يتلذذوا باستخدام العنف . أو هؤلاء الذين يصابون بالهلع والاضطراب فى بعض المواقف ، ومن ثم يلجأون سريعا الى العنف . الى جانب ذلك فانه لا يجب أن يتوقف تدريب الشرطة عند حد تأكيد القوة الجســـمية والمصارعة ، أو الدقة فى استخدام الأسلحة الصغيرة . بل يجب علينا أن نوفر ساعات تدريب كثيرة نركز فيها على بعض الموضوعات الأكاديمية فى العلوم الانسانية العـــامة . وأيضا على بعض المعلومات المتعلقة بتوضيح طبيعة الســـياق الاجتماعى المحيط ، هـــذا الى جانب التركيز على فهم سيكلوجية الجماهير والأساليب الفعالة للتعامل معـــه .

اذا تمكننا من توفير ذلك بالنسبة لرجل الشرطة فانه سوف يؤدى

الى بناء رجل الشرطة كعضو فى قوة لحفظ السلام وليس كشخص فى جيش محارب . فالحرب ضد جماهير الداخل لم يعد يسمح بوجودها فى عالمنا المعاصر . فى مقابل ذلك فان المجتمع مطالب أيضا بمعاملة هؤلاء الذين يتحملون عبء حفظ السلام بتوفير الاحترام وجزل العطاء لهم كأصحاب تخصص ومهابة .

* * *

المراجـــع

1 — P. Sorokin : Sociological Theory to day (London : 1961) P. 404 .

2 — T. Parsons : Essays in Sociological Theory , Revised (ed) (The Free Press, New York. Collier McMillan , Limited, London, 1966. p. 291 .

3 — Shalomn Endleman (ed) : Violene in The streets (New York. 1968) pp. 71 - 84 .

4 — T. Parsons : The Social Systm (The Free Press, Glen coe. Illinois , 1952) p. 520 .

5 — S. Enleman : op, cit. p. 93 .

٦ — على ليله : النظرية الاجتماعية المعاصرة ، دراسة لعـــلاقـــة الانسان بالمجتمع (دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٣) ص ١٣٣ — ١٣٥ .

٧ — المرجع السابق ، ص ٩٥ .

٨ — موريس كرانتون : اليسار الجديد (دار النهار للنشر) بيروت ، ١٩٧٢) ،ص ٧٩ .

٩ — المرجع السابق ، ص ص ٨١ — ٨٢ .

١٠ — هربرت ماركيوز : الانسان ذو البعد الواحد ، ترجمة جـــورج طرابيشى (دار الآداب ، بيروت ، ١٩٧١) ص ١١٣ .

١١ — المرجع السابق ، ص ١٥٢ .

١٢ — المرجع السابق ، ص ١٥٣ .

١٣ — موريس كرانستون : مرجع سابق ، ص ٨٦ .

١٤ — المرجع السابق ، صص ٨٦ — ٨٧ .

١٥ — هربرت ماكيوز : نحو ثورة جديدة ، ترجمة عبد اللطيف شرارة (دار العودة ، بيروت ، ١٩٧١) ص ٣٢ .

١٦ — المرجع السابق ، ص ٦٧ .

١٧ — موريس كرانستون : مرجع سابق ، ص ص ٧٥ — ٧٧ .

١٨ — هربرت ماكيوز : الانسان ذو البعد الواحد ، مرجع سابق . ص ١٣١ .

١٩ — قيس هادى أحمد : الانسان المعاصر عند هربرت ماركيوز : (المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٠ ، بيروت). ص ١٣٣ .

٢٠ — المرجع السابق . ص ١٣٥ .

٢١ — موريس كرانستون : مرجع سابق . ص ١٠٥ .

٢٢ — المرجع السابق : ص ١٠٥ .

٢٣ — المرجع السابق : ص ١٠٧ .

٢٤ — المرجع السابق . ص ١٠٨ .

25 — T. Parsons : The Social system, op . cit, p. 48.

26 — T. Parsons : A Paradigm For The analysis of Social Systems and Change (in) N. J. Demerath, (ed) , System Change and Conflict pp. 189 - 212 .

27 — Mancur Olson (The Ropid growth as a distablizing Force) Jownal of economic history. No. 23. Dec. 1963. p. 515.

28 — Robert. A. Levine and Donald T. Conpell (Report on preliminary results of Cross - Cultural Stududy of Ethno centrism. Quartrly, Jonuary, 1966. p. 7.

29 — Samuel P. Hurtington : Political order in Chinging Societies (New Haven and London Yale Umiversity Press, 1968) p. 40 .

30 — Bruce M. Russett : World Hand book of Political and Secial indicators (New Hawen, Yale University Press. 1964) p. 273 .

31 — Samuel P. Huntington : op. cit, p. 41 .

32 — Ibid. p. 43 .

33 — Michael Brecher : The New Nations of Asia (London, Oxford University Press, 1963) Chapter. 2 .

34 — Samuel P. Huntington : op, cit. p. 48 .

35 — Cruil E. Black : The Dynamics of Modern ization (New York, Harper & Row, 1966, pp. 90 - 94.

36 — Samuel P. Huntington : Op, cit. pp. 49 - 50 .

37 — Craine Brinton : The Anatomy of Revolution (New York. Vintage . 1958) pp. 173 - 175 - 176 .

38 — Samuel P. Huntington : Op , cit. pp. 53 - 56.

39 — Ibid. pp. 56 - 59 .

40 — Hons. W . Mahick : Form and Content of Recent Riots : (in) Midway Vol. g. No. J. Summer 1968. pp. 19 29.

41 — Ibid . p. 23 .

42 — Ibid. p. 26 .

43 — Ibid. P. 32 .

44 — Ibid. pp. 27 - 29 .

٤٥ — محمد حسنين هيكل ، خريف الغضب ، قصة بداية ونهاية عصر السادات . ص ٢٦٦ .

٤٦ — عمر محى الدين : اشتراكية الدولة والنمو الاقتصادى ، مجلة الفكر العربى (٤ — ٥) ص ٥٩ .

٤٧ — اعتمدنا فى التحليلات الاحصائية لوقائع العنف على مجموعة احصاءات الامن العام ان اضافة الى بعض الاحصاءات التى أتاحتها وزرة الداخلية والمركز لقومى للبحوث لاجتماعية والجنائية .

48 — T. Porsons : The social System : pp. 505 - 525.

49 — T. Porsons : A Paradigm for The analysis of social systems and Change : Dp. at. pp. 189 - 212 .

50 — Michael Applely : Revolitionary Chang and the Urban enviromen (in) Priscilla long : the New left . The free press. New York. 1962 pp. 216 - 232 .

51 — Emile Durkheim : Division of Labor in soeiety (The Free Press of Glencoe. Landon. 1964) p. 165 .

52 — Robert K. Merton : Social theory and Social struture (Glencoe. 1962) pp. 139 - 157 .

53 — Sam Plum : The Police (in) Sholoum Endleman : Violoncein The streets, New York 1968. p. 424 .

54 — Richard Dahrendorf (Violence and Social Change (in) Sholoum Endleman . op. cit. pp. 5 - 17 .

55 — Thomas Brook R : Necessary or Poli ccBrutality : (in) Shaloum Endleman, op, cit. pp. 405 - 413 .

56 — Ibid. P. 408 .

٥٧ — اعتمدنا فى الجزء المتعلق بظاهرة العنف من حيث برامجها الرئيسية على احصاءات الامن العام لوزارة الداخلية عن الفترة موضع التحليل بالاضافة الى الاحصاءات التى أتاحتها لنا الوزارة بمساعدة المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية .

58 — Lewis Jolyn west & Allen M. D : The Dynamics of Dessent : Three Rlellions Red, Rlack and Green. 1968. pp. 99 - 119.

59 — Lewis Coser : The Funtion of Social Conreict. (Glen coe II. The Free Press, 1956. p. 163.

60 — John Scott, p. The Anatomy of Violence in Shaloum Endleman. Op, cit. p. 65 .

61 — William Westley : Violence and The Police (in) Shaloum Endleman op, cit. p, 463 .

62 — Bloch A. H. & G Geis : Man and society (New York. Randon House. 1962. p. 263 .

63 — Lewis Coser : Social Conflict and Socal Change. Brit. Jour. Soc. Vol. VII No 3 . september . 1957. p. 211 .

64 — William Westley : op, cit. p. 453 .

65 — Ibid, p, 454 .

66 — Thomas R. Brooks : Op, cit, p. 405.

67 — Samblum : The Police. pp, 432 - 433 .

68 — Ibid. p, 431 .

ـ توصيف مختصر للقضايا التى تم الرجوع اليها :

١ ـ قضية سمنود فى ١٩٧٤/٩/١٣ .

خلاف زوجى بين زوجة ريفية متزوجة من خارج بلدتها واهل زوجها الغائب عن المنزل أسفر عن طرد الزوجة من منزل الزوجية • تدخلت الشرطة لتنفيذ قرار النيابة بتسليم الزوجة منقولاتها . وبدأت المشاحنات من هذا الموقف ثم تفاقمت لتشكل عنفا تلقائيا جماهيريا موجها للسلطة شارك فيه ما يقرب من ٤٠٠ مواطن •

٢ ـ قضية السيدة زينب فى ١٩٧٣/٧/٢٧ .

توفى أحد المحتجزين بقسم السيدة زينب بعد خروجه منه بيومين واتهمت عائلته أحد ضباط الشرطة بالقسم بضربة مما تسبب فى موته وهو ما نفاه تقرير الطبيب الشرعى . وأثناء تشييع جنازة المتوفى ومرور الجناه بالقسم حدث اشتباك لم يلبث أن تفاقم ليشكل عنفا تلقائيا جماهيريا موجها السلطة شارك فيه ما يقرب من ٥٠٠ مواطن وأدى الى مصرع ثلاثة مواطنين.

٣ ـ قضية الجيزة فى ١٩٧٤/٤/١٥ .

مشاجرة فى حديقة الحيوان بين مواطن مدنى وأحد جنود القوات المسلحة أدت الى سقوط الجندى مصابا بجرح سطحى وصادف ذلك وصول فوج من جنود القوات المسلحة فى طريقهم الى خارج الحديقة فشاهدوا زميلهم الجريح وحدث الاشتباك الذى تطور أيضا ليشكل عنفا جماهيريا موجها للسلطة •

٤ — قضية العتبة رقم ١٩٠ فى ١٩٧٤/٢/٢٨

مشاجرة بين أمين شرطة وعريف من القوات المسلحة أثناء نزول الاول من الاتوبيس أدت الى اصابة الجندى بجرح سطحى . وبدأت أثر ذلك المشاحنات بين الجمهور وأمناء الشرطة مشكلة عنفا تلقائيا جماهيريا موجها للسلطة شارك فيه ما يقرب من ٦٠٠ مواطن .

٥ — قضية بلبيس رقم (١٨٩٥) فى ١٩٧٢/٤/١١ .

احدى لجان الاصلاح الزراعى تقوم بمهمة لها فتتعرض لاعتداء أهالى العزب اعتقادا منهم أن اللجنة ستقوم بعمل يضر بمصالحهم وكان ذلك عنفا جماهيريا موجها للسلطة شارك فيه حوالى عشرة أشخاص .

٦ — قضية اللبان رقم ٢٦١٦١ فى ١٩٧٤ .

قام بعض أفراد شرطة اللبان باحتجاز وتعذيب أحد المواطنين ، مما أدى الى مصرعه . غير أن الطب الشرعى والنيابة تدخلت واثبتت مسئولية قسم الشرطة عن وفاته . وهو الامر الذى لم يؤد الى أى نوع من أنواع العنف ، نتيجة احساس المواطنين بالحصول على حقوقهم .

٧ — قضية مينا البصل فى ١٩٧٤/٤/٢٣ .

قامت قوة من الشرطة بمحاولة القبض على أحد الهاربين من الخطرين على الامن وأثناء محاولته الهرب والاعتداء على القوة حدث تبادل اطلاق بعض الاعيرة النارية مما أسفر عن مصرع الهارب . ولم يؤد ذلك الى أى من أنواع العنف .

٨ — قضية روض الفرج رقم (٤٢٨٣) فى ١٩٧٤ .

قامت قوة من الشرطة للقبض على عدد من المتهمين فى قضية سرقة فاعتدوا على القوة بالضرب وأحدثوا ببعض أفرادها عدة اصابات . ولم يؤدى ذلك الى عنف جماهيرى تلقائى (*) .

* * *

(*) (نقل هذا التلخيص من تقرير الدكتور قدرى حفنى بعنوان (ديناميات العنف الجماهيرى فى اطار الخصائص النفسية والتاريخية للشخصية المصرية) حيث كان عضوا فى فريق البحث) .

سلسلة علم الاجتماع المعاصر

صدر منها :

الكتاب الاول : ميادين علم الاجتماع :

اختيار وترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى ومحمود عودة ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، الطبعة السادسة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

الكتاب الثانى : نظرية علم الاجتماع :

تأليف نيقولا تيماشيف ، ترجمة الدكاترة محمود عودة ومحمد الجوهرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، الطبعة الثامنة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٣ .

الكتاب الثالث : أساليب الاتصال والتغيير الاجتماعى :

تأليف الدكتور محمود عودة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

الكتاب الرابع : تمهيد فى علم الاجتماع :

تأليف بوتومور ، ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، الطبعة السادسة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٣ .

الكتاب الخامس : مجتمع الصنع ، دراسة فى علم اجتماع التنظيم :

تأليف الدكتور محمد على محمد ، الاسكندرية ، ١٩٧٢ .

الكتاب السادس ، الصفوة والمجتمع :

تأليف بوتومور وترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى والسيد الحسينى ومحمد على محمد ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

الكتاب السابع : الطبقات فى المجتمع الحديث :

تأليف بوتومور وترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، ١٩٨٤ .

الكتاب الثامن : علم الاجتماع الفرنسى المعاصر :

تأليف الدكتورة علياء شكرى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٩ .

الكتاب التاسع : قراءات معاصرة فى علم الاجتماع :

للدكاتره علياء شكرى ، ومحمد على محمد ومحمد الجوهرى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب العاشر : دراسات فى التنمية الاجتماعية :

تأليف الدكاتره السيد الحسينى ، ومحمد على محمد وعلياء شكرى ومحمد الجوهرى ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٤.

الكتاب الحادى عشر : مشكلات أساسية فى النظرية الاجتماعية :

تأليف جون ركس ، ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى ومحمد سعيد فرح ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، الاسكندرية ، ١٩٧٣ .

الكتاب الثانى عشر : دراسات فى التغير الاجتماعى :

تأليف الدكتور محمد الجوهرى وآخرين ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

الكتاب الثالث عشر : دراسة علم الاجتماع :

اختيار وترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى ومحمد على ومحمد والسيد الحسينى ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

الكتاب الرابع عشر : علم الاجتماع الريفى والحضرى :

للدكتور محمد الجوهرى والدكتورة علياء شكرى الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٣ .

الكتاب الخامس عشر : مقدمة فى علم الاجتماع :

تأليف اليكس انكلز ، ترجمة وتقديم الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى والسيد الحسينى ومحمد على محمد ، الطبعة السادسة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٣ .

الكتاب السادس عشر : مقدمة فى علم الاجتماع الصناعى :

تأليف الدكتور محمد الجوهرى ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، ١٩٨٢ .

الكتاب السابع عشر : علم الفولكلور — الجزء الاول :

تأليف الدكتور محمد الجوهرى ، الطبعة الرابعة ، دار المعـــارف ، القاهرة ١٩٨١ .

الكتاب الثامن عشر : النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم :

تأليف الدكتور السيد محمد الحسينى ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، ١٩٨١ .

الكتاب التاسع عشر : مصادر دراسة الفولكلور العربى :

اشراف الدكتور محمد الجوهرى ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

الكتاب العشرون : الدراسة العلمية للمعتقدات الشعبية :

اشراف الدكتور محمد الجوهرى ، القاهرة ١٩٨٣ .

الكتاب الحادى والعشرون : علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث :

تأليف الدكتور محمد الجوهرى ، الطبعة الثالثة دار المعارف القاهرة ١٩٨١ .

الكتاب الثانى والعشرون : علم الفولكلور ، الجزء الثانى (دراسة المعتقدات الشعبية) :

تأليف الدكتور محمد الجوهرى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

الكتاب الثالث والعشرون : بعض ملامح التغير الاجتماعى الثقافى فى الوطن العربى . دراسات ميدانية لثقافة بعض المجتمعات المحلية فى المملكة الســـــعودية :

تأليف الدكتورة علياء شكرى ، الطبعة الاولى ، القاهرة ١٩٧٩ .

الكتاب الرابع والعشرون : التراث الشعبى المصرى فى المكتبة الاوروبية :

تأليف الدكتورة علياء شكرى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٩ .

الكتاب الخامس والعشرون : الاتجاهات المعاصرة فى دراسة الاسرة :

تأليف الدكتورة علياء شكرى ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب السادس والعشرون : دراسة معاصرة فى علم الاجتماع :

تأليف الدكتورة علياء شكرى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨١ .

الكتاب السابع والعشرون : عادات الطعام فى الوطن العربى :

تأليف الدكتور علياء شكرى ، دار المعارف ، القاهرة ، تحت الطبع .

الكتاب الثامن والعشرون : الفلاحون والدولة :

تأليف الدكتور محمود عودة . القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب التاسع والعشرون : تاريخ علم الاجتماع ، الجزء الاول :

تأليف الدكتور محمد على محمد ، الطبعة الاولى ، الاسكندرية ، ١٩٧٩ .

الكتاب الثلاثون : علم الاجتماع والمنهج العلمى :

تأليف الدكتور محمد على محمد ، الطبعة الاولى ، الاسكندرية ، ١٩٧٩ .

الكتاب الحادى والثلاثون : أصول علم الاجتماع السياسى :

تأليف الدكتور محمد على محمد ، الطبعة الاولى ، الاسكندرية ١٩٨٠ .

الكتاب الثانى والثلاثون : جماعات الغجر ، مع اشارة لغجر مصر والبلاد العربية :

تأليف الدكتور نبيل صبحى حنا ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

الكتاب الثالث والثلاثون : الانثروبولوجيا : أسس نظرية وتطبيقات عملية :

تأليف الدكتور محمد الجوهرى ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٤ .

الكتاب الرابع والثلاثون : علم الاجتماع السياسى :

المفاهيم والقضايا : تأليف الدكتور السيد الحسينى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، ١٩٨١ .

الكتاب الخامس والثلاثون : علم الاجتماع العسكرى ، التحليل السوسيولوجى لنسق السلطة العسكرية :

تأليف الدكتور أحمد خضر ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

الكتاب السادس والثلاثون : الفكر الاجتماعى ، نظرة تاريخية عالمية :

تأليف هاينز موس ترجمة الدكتور السيد الحسينى والدكتورة جهينة سلطان العيسى ، ١٩٨١ .

الكتاب السابع والثلاثون : التنمية والتخلف . دراسة تاريخية بنائية :

تأليف الدكتور السيد الحسينى ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠ .

الكتاب الثامن والثلاثون : المدينة . دراسة فى علم الاجتماع الحضرى :

تأليف الدكتور السيد الحسينى ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠ ، وأعيد طبعه ، دار المعارف ، ١٩٨٥ .

الكتاب التاسع والثلاثون : النظرية الاجتماعية المعاصرة . دراسة لعلاقة الانسان بالمجتمع :

تأليف الدكتور أحمد زايد ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، ١٩٨٤ .

الكتاب الاربعون : علم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية :

تأليف الدكتور أحمد زايد ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، ١٩٨٤ .

الكتاب الحادى والاربعون : البناء السياسى فى الريف المصرى :

تحليل لجماعات الصفوة القديمة والجديدة : تأليف الدكتور أحمد زايد ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، ١٩٨١ .

الكتاب الثانى والاربعون : علم الاجتماع الامريكى ، دراسة لاعمال تالكوت بارسونز :

تأليف جى روشيه ، ترجمة الدكتور محمد الجوهرى والدكتور أحمد زايد ، الطبة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨١ .

الكتاب الثالث والاربعون : البنائية الوظيفية فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا . المفاهيم والقضايا :

تأليف الدكتور على ليلة ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨١ .

الكتاب الرابع والاربعون : علم الاجتماع والنقد الاجتماعى :

تأليف بوتومور ، ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى والسيد الحسينى وعلى ليلة وأحمد زايد ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة١٩٨١

الكتاب الخامس والاربعون : الاقتصاد والمجتمع فى العالم الثالث :

تحرير آلن هونتجوى ، ترجمة وتعليق الدكاترة محمد الجوهرى وعلى ليلة وأحمد زايد ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨١ .

الكتاب السادس والاربعون : علم الاجتماع ومشكلات وقت الفراغ :

تأليف الدكتور محمد على محمد ، الاسكندرية ١٩٨١ .

الكتاب السابع والاربعون : علم الاجتماع :

تأليف جونسون ترجمة وتعليق الدكاترة علياء شكرى ، ومحمد الجوهرى، وعلى ليلة ، وأحمد زايد ، وحسن الخولى ، دار المعارف ، القاهرة ، تحت الطبع .

الكتاب الثامن والاربعون : الريف والمدينة فى مجتمعات العالم الثالث . مدخل اجتماعى وثقافى :

تأليف الدكتور حسن الخولى : الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٢ .

الكتاب التاسع والاربعون : المرأة المصرية بين البيت والعمل :

تأليف الدكتور محمد سلامة آدم ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢ .

الكتاب الخمسون : النظرية الاجتماعية فى الفكر الاسلامى :

تأليف الدكتورة زينب رضوان ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢ .

الكتاب الحادى والخمسون : نحو نظرية اجتماعية نقدية :

تأليف الدكتور السيد الحسينى ، الطبعة الاولى ، القاهرة ١٩٨٢ .

الكتاب الثانى والخمسون : التغير الاجتماعى :

اختيار وترجمة : الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى وعلى ليلة ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، ١٩٨٢ .

الكتاب الثالث والخمسون : النظرية الاجتماعية ودراسة الاسرة :

تأليف الدكتورة سامية الخشاب ، الطبعة الاولى ، دار المعـــارف ، القاهرة ١٩٨٢ .

الكتاب الرابع والخمسون : البناء الاجتماعى والثقافة فى مجتمع الغجر :

دراسة أنثروبولوجية لتأثير البناء والثقافة والشخصية على التكامل الاجتماعى وتأليف الدكتور نبيل صبحى حنا ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

الكتاب الخامس والخمسون : المجتمع والثقافة والشخصية . مدخل الى علم الاجتماع :

تأليف الدكاترة محمد على محمد ، وغريب سيد أحمد وعلى عبد الرازق جلبى ، الاسكندرية ١٩٨٣ .

الكتاب السادس والخمسون : التصنيع فى الدول النامية :

تأليف الآن مونتجوى ، ترجمة وتقديم الدكتور السيد الحسينى ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٢ .

الكتاب السابع والخمسون : علم اجتماع الادارة . مفاهيم وقضايا :

تأليف الدكتور عبد الهادى الجوهرى ، الطبعة الاولى دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٣ .

الكتاب الثامن والخمسون : دراسات فى علم الاجتماع الطبى :

للدكاترة محمد على محمد ، وعلى جلبى ، وسناء الخولى ، وسامية جابر ، الطبعة الاولى ، الاسكندرية ، ١٩٨٣ .

الكتاب التاسع والخمسون : نقد علم الاجتماع الماركسى ، دراسة فى النظرية الاجتماعية :

تأليف بوتومور ، ترجمة وتعليق الدكتور محمد على محمد والدكتور على جلبى ، الاسكندرية ١٩٨٣ .

الكتاب الستون : دراسات فى علم الاجتماع السياسى :

تأليف الدكتور عبد الهادى الجوهرى القاهرة ، ١٩٨٣ .

الكتاب الحادى والستون : معجم علم الاجتماع :

ترجمة وتعليق الدكتور عبد الهادى الجوهرى ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

الكتاب الثانى والستون : الشباب والمشاركة السياسية :

تأليف الدكتور سعد ابراهيم جمعة ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

الكتاب الثالث والستون : المدخل الى علم الاجتماع :

تأليف الدكتور محمد الجوهرى ، الطبعة الاولى ، القاهرة ١٩٨٣ . دار الثقافة للنشر والتوزيع .

الكتاب الرابع والستون : تنمية العالم الثالث :

الابعاد الاجتماعية الاقتصادية للدكاترة على ليلة وأحمد زايد ومحمد الجوهرى ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

الكتاب الخامس والستون : فلفريدوباريتو ودورة الصفوة فا اطار النظام :

تأليف الدكتور كمال التابعى ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ،

الكتاب السادس والستون : العالم الثالث . قضايا ومشكلات :

تأليف الدكتور على ليلة ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

الكتاب السابع والستون : المرأة والمشكلة السكانية فى العالم الثالث :

تحرير ريتشارد أنكر وزملاؤه ، ترجمة الدكاترة علياء شكرى وحسن الخولى وأحمد زايد ، مراجعة محمد الجوهرى ، الطبعة الاولى ، القاهرة ١٩٨٤ .

الكتاب الثامن والستون : الاتجاهات التقليدية والحديثة فى الانثروبولوجيا الاجتماعية :

تأليف الدكتور نبيل صبحى حنا ، الطبعة الاولى ، الاسكندرية ، ١٩٨٥

الكتاب التاسع والستون : المجتمعات الصحراوية فى الوطن العربى :

تأليف الدكتور نبيل صبحى حنا ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٤ .

الكتاب السبعون : المرأة فى الريف والحضر ، دراسة لانماط العمل والتغيرات السكانية :

اشراف الدكتورة علياء شكرى ، دار المعارف ، القاهرة ، تحت الطبع .

الكتاب الحادى والسبعون : السكان والتنمية . دراسة أنثروبولوجية فى قريتين مصريتين :

اشراف الدكتورة علياء شكرى ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ، تحت الطبع .

الكتاب الثانى والسبعون : الانثروبولوجيا الاجتماعية :

تأليف لوسى مير ، ترجمة الدكتورة علياء شكرى والدكتور حسن الخولى ، مراجعة الدكتور محمد الجوهرى ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ، تحت الطبع .

الكتاب الثالث والسبعون : المرأة فى العمل الزراعى . دراسة انثروبولوجية :

للدكاترة علياء شكرى وحسن الخولى وأحمد زايد ، دار المعارف ، القاهرة ، تحت الطبع .

الكتاب الرابع والسبعون : الاتجاهات المعاصرة فى دراسة القيم والتنمية :

تأليف الدكتور على ليلة ، الطبعة الاولى — القاهرة ١٩٨٣ .
١٩٨٥ .

الكتاب الخامس والسبعون : دراسات فى علم اجتماع التنمية :

تأليف الدكتور محمد الجوهرى والدكتور كمال التابعى ، الطبعة الاولى ، دارا لمعارف ، القاهرة ، تحت الطبع .

الكتاب السادس والسبعون : السياسة الاجتماعية والتخطيط فى العالم الثالث :

تأليف الدكتور محروس محمود وعلى خليفة ، الطبعة الاولى ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٥ .

الكتاب السابع والسبعون : الجيش والمجتمع ، دراسات فى علم الاجتماع العسكرى :

تأليف الدكتور أحمد ابراهيم خضر ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، ١٩٨٥ .

الكتاب الثامن والسبعون ، الدولة فى العالم الثالث ، الرؤية السوسيولوجية،

تأليف الدكتور أحمد زايد ، الطبعة الاولى ، دار الثقافة للنشروالتوزيع القاهرة ، ١٩٨٥ .

* * *

رقم الايداع بدار الكتب ٧٤٧٢/ ٨٥

دار التوفيق النموذجية
للطباعة والجمع الآلى
الأزهر ٣/ عطفة الموصلى بجوار جامع الدعاء